الدكتور
صابر طعيمة

التراث الإسرائيلي

في العهد القديم وموقف القرآن الكريم منه

دار الجيل

Tuʿaymah, Sābir.

الدكتور
صابر طعيمة

Turath al-Isrāʾīlī

التراث الإسرائيلي

في العهد القديم

وموقف القرآن الكريم منه

دار الجيل
بيروت

٦

١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩ م

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا الكتاب

هذا الكتاب بقسميه : رسالة علمية لنيل درجة (الدكتوراه) قدمت لكلية أصول الدين جامعة الأزهر . ونوقشت يوم السابع من المحرّم عام ١٣٩٩ هـ . السابع من ديسمبر عام ١٩٧٨ بقاعة الدكتور الذهبي .. وحصلت على مرتبة الشرف الأولى .

كلمة لا بد منها

ما كان يمكن لصاحب هذه الرسالة ان ينتظم في قائمة العلماء والباحثين بين الدعاة الى الله تعالى ، لولا ذلك الايمان العظيم بالله الذي تمثل عوناً ومساندة وتوجيهاً ، نصرة للحق ، ودحضاً للباطل ، في اقسى محنة يمكن أن يتعرّض لها عالم باحث يفكر ، حين تنقض عليه سهام الحقد ، تقتل الخير فيه .. وتقذف به في وجه الشيطان .

استاذي الكبير :

الاستاذ الدكتور موسى شاهين لاشين

بكل الحمد لله الذي قيضك لي عوناً وسنداً ، وبكل العرفان والامتنان لك يملؤني الأمل في أن تأذن لي ولتسمح بأن أقدم لكم هذا العمل العلمي الاسلامي – تحية باحث اخذتم بيده الى خدمة البحث العلمي . وإلى ساحة الدعوة الى الله تعالى .

والله تعالى ارجو القبول .

دكتور

صابر عبد الرحمن طعيمه

شكر وتقدير

لا يسعني وقد ناقشت كلية أصول الدين – جامعة الأزهر – هذه الرسالة إلا أن اتقدم لاستاذي الاستاذ الدكتور محمد شمس الدين ابراهيم على عظيم رعايته العلمية لي بالشكر والتقدير والعرفان .

ولا يفوتني في هذا المقام إلا أن ادعو الله تعالى ان يتغمّد برحمته استاذي العالم الداعية (البهي الخولي) الذي كان رحمه الله يريد مني علاج هذا الموضوع برؤية علمية ذات منهج إسلامي .

كذلك لا يفوتني ايضاً إلا أن اسجل شكري وتقديري للأساتذة الأجلاء الذين عاونوني بالرأي والنظر والتدبر في قضايا هذا البحث ، وأخص منهم : الاستاذ الكبير احمد غلوش ، والاستاذ الدكتور محمود زقزوق ، والاستاذ الدكتور محمد الفيومي ، والاستاذ الدكتور عبد الغفار عزيز ، والاستاذ الدكتور محمد السيد القرن ابو الغيط ، والاستاذ الدكتور عبد المعطي بيومي ، والاستاذ الذكتور محمود مزروعة ، والاستاذ الدكتور عبد الرحمن نجم الدين الكردي ، والاستاذ الدكتور ضياء الدين نجم الدين الكردي ، والاستاذ الدكتور طلعت الغنام ، والاسناذ الدكتور محمد السيد رزق الطويل رئيس جماعة دعوة الحق الإسلامية ، والأخ المجاهد محمد السيد عبد الظاهر – فلهم مني جميعاً تحية الشكر والتقدير والعرفان .

والله تعالى اسأل ان يجزيهم خير الجزاء .

دكتور

صابر عبد الرحمن طعيمه

المقدّمة

معالجة التراث الانساني عامة والتراث الاسرائيلي في العهد القديم على وجه الخصوص من خلال علم الدراسة النقدية من العلوم الحديثة التي ظهرت في الغرب، وقطعت شوطاً من التقدم لا بأس به بعد ان كان المسلمون من علماء الكلام قد فتحوا آفاق هذا العلم، ثم أغلقوا مجالاته الرحبة وميادينه الفسيحة في مجال البحث والنظر.

وفي مجال دراسة (العهد القديم) فالأمر كما يقول (موريس بوكاي) في كتابه: (دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة)[1]: ظل الناس يقبلنه على ما هو عليه طيلة قرون عديدة، ولم تكن قراءة الكتاب المقدس تؤدي إلى اعتبارات مدحية فقط، وكان القساوسة هم الصفوة التي تستطيع بغير عناء أن تكون لديها معرفة اجمالية عن هذا الكتاب.

وحتى عهد قريب كان معظم علماء المسلمين اذا تناولوا من أمور هذا الكتاب (الكتاب المقدس) بعهديه القديم والجديد على السواء، فمن باب النظرة التي لا تعنى بأمر ما تشكله معطيات هذا الكتاب من دوافع ومعتقدات عند المؤمنين به، ولقد وقفت هذه الدوافع والمعتقدات التي يمليها هذا الكتاب

---

(١) (موريس بوكاي).. (دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة) ترجمة دار المعارف المصرية - الطبعة الأولى عام ١٩٧٨ م صفحة ٩.

في بعض مراحل التاريخ حجر عثرة أمام حركة المد الاسلامي وهي تضيء بنورها حياة شعوب كثيرة كانت ولا تزال في حاجة إلى هدى الاسلام ونوره .

ولعل المناعة الدينية القوية التي كان عليها معظم علماء الاسلام ممن تعرضوا لعقائد أهل الكتاب ، وغزارة مادتهم العلمية ، فضلا عن أن عمليات التبشير بأفكار ومعتقدات الكتاب المقدس لم تكن على النطاق الواسع الذي هي عليه الآن في افريقيا وآسيا على وجه الخصوص هي التي جعلتهم لا يبالون بما تنطوي عليه معتقدات أهل الكتاب من عوائق ومعوقات وعراقيل توضح في مواجهة حركة الدعوة للاسلام ، فجاءت نظرتهم مجملة تكتفي بالتعريف والعرض لمقومات وعقيدة أهل الكتاب كما فعل مثلا : الشهرستاني في كتابه (الملل والنحل) عند حديثه عن (أهل الكتاب ومن له شبهة كتاب)[1] أو كما فعل ابن حزم في كتابه (الفصل في الملل والأهواء والنحل) حين علت نبرته بالانكار فقط دون أن يدخل في جدل نقدي حول مقررات ومعطيات كتب أهل الكتاب، مع انه كان يملك الرصيد الفكري الذي يمكنه من ادارة جدل حول مفارقات نصوص أهل الكتاب وتهافتها ، او كما فعل في العصر الحديث الشيخ رحمة الله الهندي في كتابه (اظهار الحق)[2] حين بدا غير متحرر من اسر المصادر التاريخية وهو يتناول أفكار أهل الكتاب ، مع ان مادته العلمية تدل على أنه كان على قدر كبير من الالمام بتهافت نصوص الكتاب المقدس ، لكن العقل الاسلامي المبدع لم يقف مكبلا او مغلولاً أمام الخطأ والتحريف الذي تنطوي عليه مادة الكتاب المقدس ، فامتلأت الساحة

---

(١) (الامام الافضل ابو الفتح محمد بن عبد الكريم الشهرستاني) في كتابه (الملل والنحل) تخريج الدكتور محمد بن فتح الله بدران الطبعة الاولى طبعة الأزهر الشريف صفحة ٤٨٣ .

(٢) (رحمة الله بن خليل الهندي) في كتابه : (اظهار الحق) اخراج وتحقيق عمر الدسوقي - الجزء الاول - وزارة الشئون الاسلامية بالمملكة المغربية - مكتبة الوحدة العربية بالدار البيضاء عام ١٩٦٤ م صفحة ٣٢٦ .

الاسلامية بعشرات المصنفات في مراحل متعددة من التاريخ أدارت جدلاً ونقـداً حول أفكار أهل الكتاب ، وقد أشرنا الى جهودهم في مادة الرسالة وبين قضاياها :

وفي العصر الحديث امـــام مخاطر التبشير بأفكار الكتاب المقدس ومـا يترتب على التبشير في معظم الأحـوال من مغالطات ومفتريات على صلب وجوهر عقيدة الإيمـان في الاسلام ، من قلب قلعة الاسلام المضيئة وحصنه القوي الصامد خلال الف عـــام اندفعت حركة فكرية غير موجهة من احد تجابه مخاطر افكار الكتاب المقدس في العصر الحديث ،وكانت البداية العملاقة ذلك العمل العلمي الاسلامي العظيم الذي قام به العالم الأزهري دكتور محمد سيد طنطاوي في رسالة الدكتوراه التي قدمهـــا لكلية أصول الدين جامعة الأزهر عام ١٩٦٦ وكانت بعنوان (بنو اسرائيل في القرآن والسنّة) .

ثم أعقبـه الدكتور محمد السيد الفرت ابو الغيط في رسالة دكتوراه لنفس الكلية — حفظ الله القائمين عليها — وكانت بعنوان (عقيدتا التثليث والصلب في المسيحية وموقف الاسلام منهما) .

ثم أخيراً — ومنـذ فترة قصيرة — كانت رسالة الدكتور محمود كريت لنفس الكلية وكانت بعنوان (انجيل برنابا بين المسيحية والاسلام) .

ولم يكن هؤلاء الدعاة وحدهم في المواجهة العلمية ، فقد انبرى وراءهم اخوة اجـــلاء يواصلون نفس المسيرة ويجهزون الفكر الاسلامي المعاصر للمجابهة إذا ما اقتضت حركة التبشير بأفكار الكتاب المقـدس التطاول على العقيدة الاسلامية وكل ما تمثله هذه المجابهة .

ورسالتي هذه ، وقد عنيت برصد هذه الافكار والمعتقدات التي تضمنها الكتاب المقدس منـذ الصبا المبكر .. ارجو ان تكون على الدرب .. وفي اتجاه الله تعـــالى ، ذلك ان التراث الاسرائيلي في العهد القديم — موضوع الرسالة — من القضايا الشائكة والموغلة في اللبس والغموض ، لان هذا التراث

مع مسار التاريخ الطويل اختلطت فيه وارتبطت مـــع التاريخ الاجتماعي والسياسي الذي عاشه شعب اسرائيل معطيات العقيدة الدينية مع اتجاهات الاخلاق وافرازات الادب وغيره من انواع المعارف في تاريخ تراث اسرائيل في العهد القديم .

ومع ان الديانة اليهودية الحقة التي أخبر عنها القرآن الكريم شأنها شأن الاديان السماوية التي منّ الله بها على خلقه تقوم في جوهرها بعد تقرير الايمان بالله على التسامح والمحبة والخير والايثار ، فضلاً عن ان مضمونها الأهم يقوم على الدعوة للايمـــان بالله رب العالمين وتوحيده وتنزيهه عن المماثلة والشبيه والولد ، إلا أن الذين تنـــاولوا التراث الاسرائيلي بالتصنيف او التـدوين والتسجيل ، انحصرت اهتماماتهم فيردود الافعال لما تعرض له شعب اسرائيل عبر التاريخ من جيرانه او مما حل به من سوء حاله ، او مما تأثر به من عقائد الأمم والشعوب الوثنية في أمور العبـــادة ومقومات الأخلاق واتجـاهات السلوك ، الامر الذي جعل من مقررات وقضـايا هذا التراث على اختلاف مصادره تنحصر في تفسير للحياة وللكون وللعلاقات الانسانية على اساس عنصري ومادي ، تفتقد فيه مقومات النقاء الروحي من حب وخير وايثار ، فضلا عما يترتب على قضايا هذا التراث من ترسيخ مقومات نفسية سلبيـة تجعل اصحابهـــا في حل من تفسير كل معاني وقيم الدين على ضوء المصلحة والهوى ، وخاصة في امور العبادة وشعائرها ، وما يتعلق بالعبادة ويترتب عليها من علاقات الاجتماع والاقتصـــاد في فكر الانسان الاسرائيلي الذي تناقل سيرته كتاب التراث الاسرائيلي بنوع من التمييز والعنصرية وهو يمارس شعائره الدينية أو وهو يعلن عن عقيدتــه في الإله افتقد كثيراً في تاريـخ معظم الشعوب القديمـة وبرز قويـاً وواضحـاً في سيرة وتاريـخ شعب العهد القديم .

ولما كان التراث الاسرائيلي لا يندرج تحت قائمة معظم قيم وميراث الامم

والشعوب المختلفة بما يحتويه تراث الأمم والشعوب من أخلاق وعادات وتقاليد او من قيم ومثل وانماط ونماذج في الاعتقاد لا تهم المسلم عامة والداعية على وجه الخصوص ، لكنه يقوم عند المؤمنين به والناقلين لمعطياته عبر الاجيال عقيدة وإيماناً شاهداً على عقيدتهم في الإيمـــان بالله من خــلال وظيفة النبي والرسول والكاهن والقائد وغير ذلك من وظائف العبادة في تراث اسرائيل ، فإنا قد عنينا بمتابعة هذا التراث بحــكم دعواه في مصادره المتعددة ، واضعين نصب أعيننا ان غير العهد القديم من مصادر في التراث الاسرائيلي قد ترتب على العهد القديم ، لذا فقد اوليناه كل عنايتنا وجهدنا وما قدرنا الله عليه .

ولما كان أهم او جوهر ما يتضمنه التراث الاسرائيلي في العهد القديم هو ما تداوله بنو اسرائيل من عقيدة في الإله والنبي ، فان قضيتي الألوهية والنبوة في تراث العهد القديم قد أخذتا منا الجهد كله ، وكانا موضع اهتمامنا الشديد ، خاصة وان معظم ما تضمنه العهد القديم إن لم يكن جميعه في هاتين القضيتين او العقيدتين يمثل تناقضاً حــاداً واختلافاً جوهرياً في مرويات هــذا التراث وأخبــاره عن هاتين القضيتين وبين مقررات عقيدة الايمان بالله رب العــالمين الذي أنزل كتباً وأرسل رسلاً في القرآن الكريم .

ولعل هذا هو أهم البواعث التي كانت وراء الرغبة في معالجة هذا الموضوع الشائك المحفوف بالمخاطر والمتطلب جهداً مضنياً ، خاصة واننا رغبنا في ان تكون دراستنا للتراث الاسرائيلي بالمنهج النقــدي للنصوص ، تجهيزاً لوضعه أمام حكم القرآن الكريم ، بحكم عدم استقامة هذه النصوص وتهافتها امام خبر القرآن الكريم ودلالاته وبراهينه القاطعة بحكم انه الكتاب الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

ولقد كان منهجنا في معالجــة ودراسة أهم قضايا التراث الاسرائيلي ، ان بدأنا بالتعريف بكتب العهد القديم جميعاً ثم حاولنا من خلال دراستها ان

نرى الفرق بين بعضها وبين الكتب الخمسة المنسوبة في مقدمة كتب العهد القديم على أنها (التوراة) وعلى انها للنبي موسى عليه السلام .

ولما كانت أسفار العهد القديم، تتداول في اللغة العربية بالشرح والتعريف من خلال رؤية كنسية او يهودية فقط ، وفي هذه الرؤية على ضوء ما نرى ما فيها من قصور فكري وليد الخلل الذي تنطوي عليه عقيدة اتباع العهد القديم والجديد على السواء ، فان هذه الشروح قد راحت تقدم أسفار العهد القديم ومدونات التراث الاسرائيلي فيه بما لا يقوم على قاعدة عقلية او يستقيم مع نقاء الفطرة الإنسانية ، ولذا فاننا قد حرصنا على ان نعرف بأسفار العهد القديم التسع والثلاثين وان نعرف بأهم قضاياها وان نقف على مضمون ما تود ان تنتهي اليه ، كذلك تناولنا بشيء من الإيجاز جملة من الأسفار الدينية التي تنسب الى العهد القديم مكملة له ومتممة لكنها غير معتمدة في معظم المجامع المسيحية والمسماة (بالابوكريفا) ، ولذا تطبع مستقلة عن معظم طبعات الكتاب المقدس .

هذا .. وقد حرصنا في دراستنا للتراث الاسرائيلي في العهد القديم ان نعرف وان نقف على مراحل كتابته وكيفية تداوله ، وعنينا على وجه الخصوص بالكتب الخمسة الأولى من العهد القديم التي تتداول بين أيدي المؤمنين بها على أنها توراة موسى ، ورجحنا بعض الفروض والبحوث العلمية على بعضها الآخر من التي عالجت هذا الجانب المهم من تاريخ كتب العهد القديم والتي انتهت على ضوء ما رأينا الى أن معظم نصوص الكتب الخمسة الأولى والتي يفترض قدمها على غيرها ، لم يكتب منها شيء قبل القرن الخامس قبل الميلاد ، أي ان بينها وبين نبي الله موسى عليه السلام حوالي تسعة قرون من الزمان .

هذا .. وكان من أهم ما عنينا به في دراسة تراث العهد القديم ورحنا نعالجه من كافة جوانبه قضية (الألوهية بين التنزيه والتجسيم في العهد القديم)

وبجهد علمي يستهدف الحقيقة وضعنا أمامنـا نصوص الوصايا العشر في سفر الخروج على أمل ان نعثر فيها على جوانب التوحيد لله رب العـالمين على ضوء ما هي عليه في لغة العهد القديم وبين نصوصه فوجدنا انهـا هي الأخرى قد طغى عليهـا فكر الذين دوّنوا التراث الاسرائيلي في العهد القـديم وجاءت وهي تحمل في دلالتها المباشرة شوائب من فكر لا يستقيم ونقاء وكمال عقيدة التوحيد لله رب العالمين .

ولما رأينا أثر العقائد الوثنية القديمة التي كان عليها جيران وسادة اصحاب التراث الاسرائيلي معظم مراحل التـاريخ الاسرائيلي واضحـة وبارزة على معطيات هذا التراث ودلالته فإنا قد رحنا في دراسة مقارنة نتعرف على عدد من المعتقدات القديمة لأمم قديمة بينها وبين عقيدة اصحاب التراث الاسرائيلي علاقات وتشابه في الوسيلة والممارسة وذلك في محاولة علمية ان نقف على مدى صدق الدعوى التي يجترها اصحاب الـتراث الاسرائيلي مرددين وناقلين بأنهم وحدهم الذين عرفوا عقيدة الايمان بالله قبل غيرهم وبأنهم وحدهم الذين حافظوا وقدّموا للإنسانية عقيدة الإيمان في الإله الخالق .

ولقد اقتضى منا دراسة هذه القضية ، ان نحـــاول التعرف على مفهوم وظيفة النبي وعمل النبوة والرسالة الإلهية في لغة العهد القديم ، ورأينا كيف يمدد التراث الاسرائيلي في وظيفة النبي ويخلط بين دور الكاهن في أحجيته ورموزه وطقوسه ، والوحي الإلهي في توجيـه البشر واسعادهم من خلال ما يوحيه رب العالمين الى النبي او الرسول ، ولذا فقد حاولنـا ان نتعرف على عدد من أنبياء الله تعالى ورسله من خلال رؤية اصحاب التراث الاسرائيلي في العهد القديم، ولنبرهن بها على بطلان ما ذهب اليه كتاب التراث الاسرائيلي في تناول سيرة أنبياء الله ورسله ، الأمر الذي يترتب عليه ان يكون عطاء القرآن الكريم هو وحده الحكم الفصل الذي تتفق أخبـــاره عن أنبياء الله ورسله وقواعد وظيفة النبي التبليغية عن الله بين الناس .

هـذا .. ولقد اقتضى منا وضع التراث الاسرائيلي أمـــام حكم القرآن الكريم أن نذهب فنعرف بالقرآن الكريم وكيفية انواع الوحي الإلهي فيه ، وكيف انتهى الينا منذ تركه رسول الله ﷺ على الهيئة التي هو بهـا عليهـا الآن ، وذلك لعلمنا ان هـذا البحث قد يأذن الله ويقع ذات يوم في يد من يعنيهم التراث الاسرائيلي، وقد يقولون لأنفسهم كما قالوا بالفعل وهم يدافعون عن بعض الاخطاء التدوينية التي وقعت للعهد القديم: ان ما وقع للعهد القديم وقع أيضاً للقرآن الكريم ، وذلك بسبب جهلهم بعلوم القرآن الكريم ومـا يتصل بها من علوم تعرف بكتاب الله تعالى .

هذا .. وقد خصصنا الباب الثاني من القسم الثاني من هذه الرسالة لمنهج القرآن الكريم في الحديث عن بني اسرائيل ، ولم نتوسع فيه كثيراً ، لعلمنا ان الفكر الاسلامي المعاصر حديث عهد برسالة علمية في هذا المجال للشيخ الدكتور محمد سيد طنطاوي [1] .

ثم خصصنا البـاب الثالث ترجمة موسعة لسيرة بعض انبيـاء الله ورسله بالعطاء القرآني وبيانه المحكم ليرى كتاب التراث الاسرائيلي من القدامى والمحدثين كيف تكون وظيفة النبي في الناس وكيف يكون فيهـــا القدوة والانموذج رحمة من الله وعوناً للبشر لا حقلاً للآثام والخطيئة كما فعل كتاب العهد القديم .

وأما الباب الرابع والأخير من القسم الثاني من الرسالة فأردنا ان نبرهن به على الفارق الجوهري والاختلاف التـــام بين معطيات وعقيدة اصحاب التراث الاسرائيلي في العهد القديم وبين براهين ودلالات عقيدة الايمان بالله في القرآن الكريم وأعني قضية (الألوهية في القرآن الكريم) وقد حرصت وانا اتناول جوانب من هذه القضية الدقيقة والمهمة على ان لا أدخل في جدل علم الكـلام ومدارسه ومذاهبـه التي ذهبت تقرر قواعـد التفكير الاسلامي في

---

(١) بنو اسرائيل في القرآن والسنة – رسالة الدكتوراه التي تقـدم بهـا الدكتور محمد سيد طنطاوي في علوم التفسير والحديث لكلية أصول الدين جامعة الأزهر عام ١٩٦٦ .

تناوله لآيات الذكر الحكيم التي قدمت للناس براهين هـــذه القضية الجليلة الشأن البالغة الاعتبار ، ولا ان يأخذني البحث في هــذه القضية الى دروب علم الفلسفة العديدة القديمة والحديثة فذلك مـــا لا يتسع له المقام ، وإنما وقفت أمــام نص القرآن الكريم وبيانه المشرق ولغته المضيئة ، لأقرر من خلال لغة القرآن الكريم الى ان هناك اختلافاً جوهرياً بين عقيدة الإيمان بالله تعالى فى القرآن الكريم والتي تقوم على قواعد الايمان بعلم الغيب الذي انفرد به الايمان في الاسلام وارتقى بمضمونه الى ان اصبح الايمان بالغيب في منطق الاسلام هو العلم الذي يعلو على مـدارك كل العلوم ، مقوماته في قلب المسلم ويقينه وبين عقيدة الايمان بالله في العهد القديم والتي لا يقدمها كتاب التراث الاسرائيلي إلا من خــلال مظهر في الطبيعة او رمز مــادي او وثن صنمي الأمر الذي يتعذر معه قبول الرأي القائل بأن العهد القديم، إن لم يكن وحياً إلهياً فهو يحمل بصمات الوحي الإلهي في هذه القضية .

وأنهيت رسالتي بأن وضعت موجزاً للتراث الاسرائيلي أمـــام حكم القرآن الكريم ، أبنت فيه عن هذا الموقف من خلال نصوص الذكر الحكيم في دلالتها المباشرة التي جعلها رب العزة كما يقول في محكم كتابه من سورة المائدة في الآية رقم ٤٨ هي الحكم وعليها المحول وبها المعيار مخاطباً سبحانه وتعالى نبيه الخاتم ﷺ : [**وأنزلنا اليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع اهواءهم عما جاءك من الحق لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً ولو شاء الله لجعلكم أمـــة واحـدة ولكن ليبلوكم في مـا آتاكم فاستبقوا الخيرات الى الله مرجعكم جميعا فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون**] .

هذا.. والله سبحانه أرجو ان يتقبل هذا العمل وان يجعله في ميزاني يوم القيامة،وان يغفر ما قد يكون قد قصر الجهد دونه وهو سبحانه ولي التوفيق.

وعلى الله قصد السبيل .

دكتور

صابر عبد الرحمن طعيمه

تمهيد :

التراث الاسرائيلي في العهد القديم

ما المراد بالتراث ؟

ممـا يجدر ذكره قبل الدخول في قضايا التراث الاسرائيلي ، ان نعرف ببعض أوجه ودلالات لفظة (تراث) ومـا نعنيه منهـا فيما نحن بصدده في هذه الرسالة خاصة وان هـــذه الكلمة (تراث) ترد في القواميس اللغوية بدلالات عديدة ولها استعمالات مختلفة ، وما نعنيه على ضوء ما هي عليه في أسفار العهد القديم قد يتغاير أو يتقابل مع بعض هذه الدلالات ، وقد يتفق مع بعضها الآخر .

وبادىء ذي بدء فان اللفظة (تراث) قد جـاءت في مختار الصحاح على الوجه التـالي [1] : (ورث) بمعنى ورث الشيء من أبيـه يرثه بكسر الراء فيها ، وجاء فيها (ورثا) : (وورثه) و (وراثة) بكسر الراء في الثلاثة ، و (إرثا) بكسر الهمزة و (أورثه) أبوه الشيء ، و (ورثه) إياه و (ورث) فلاناً (توريثاً) أدخله في ماله على ورثته .

---

(١) مختار الصحاح – الطبعة الاولى عام ١٩٠٥ صفحة ٧٤١ .

هذا ما ورد في مختار الصحاح من دلالات لفظة ورث وما تعنيه من (إرث) و (توريث) و (ميراث) وهو بين ما نعنيه من اوجـه الكلمة (تراث) و (ميراث) : أي ما ينقل من الوالد لولده .

أما لسان (العرب) لابن منظور فقد جـاء في الجزء الثاني من الطبعـة المصوّرة عن طبعة بولاق صفحة ٤١٥ فصل الألف حرف الثاء مادة (ورث) على وجوه منهـا (ورث) و (ميراث) و (تراث) بدلالات تعني في مثل مـا تعنيه مادة (ورث) في وجه من الوجوه التي ترد على مـادة (ورث) ويقـال (أرث) بتشديد الراء : أرث بين القوم أفسد بتشديد الراء ايضـاً والتأريث الاغراء بين القوم ، والتأريث ايقاد النـــار ايضاً ، وأرث النار بتشديد الراء أوقدها ، قال عدي بن زيد :

ولهـــا ظبي يؤرثهـــا   عاقد في الجيد تقصارا

وتأرثت هي اتقدت قال :

فان بأعلى ذى المجـازة سرحة   طويلا على اهل المجـازة عارها
ولو ضربوها بالفؤوس وحرقوا   على أصلهـا حتى تأرث نارها

ويقال (أرث) بتشديد الراء فـلان بينهم الشر والحرب تأريثاً وأرج تأريجاً إذا أغرى بعضهم ببعض ، وأنشد ابو عبيد لعدي بن زيد : ولها ظبي يؤرثها : والارثه بالضم او سرجين يدفن في الرماد و (الارثه) سواد كبش آرث ونعجة أرثاء وهي الرقطاء فيها سواد وبياض و (الارث) الحدود بين الاراضين واحدتها أرثه .

هذا بعض ما جاء في لسان العرب حول مادة (أرث) [1] وهي كما رأينا

---

(١) لسان العرب لابن منظور جمـــال الدين محمد بن مكرم الانصارى ص ٤١٥ من الجزء الثاني – الطبعة المصورة عن طبعة بولاق .

تعني ايقاد النار تارة والاتقاد تارة أخرى ، او ما اعد للنار من حراقه او ما يقام بين القوم من الشر والحرب ، فيقال (ارث) بتشديد الراء فلأن بينهم الشر والحرب تأريثاً كما انها تجيىء على وجه هو (أرثه) اي سواد وبياض كبش (أرثه) .

وهذه الدلالات المتعددة لمادة أرث وورث تضعنا امام ضرورة التعرف على ما يمكن ان تعنيه لفظة (تراث) في العهد القديم .

وقبل ان نتعرف عليها في لغة العهد القديم والوقوف على مـا تعنيه فإنا نود ان نشير الى ان لفظة (تراث) جـاءت في قول الله تعالى في القرآن الكريم على وجوه متقاربة يكمـل بعضهـا البعض الآخر ، ففي سورة الفجر الآية ١٩ تقربنـا لفظة (تراث) ممـا نعنيه في البحث من قضايا في التراث الاسرائيلي في العهد القديم .

يقول تعالى : [... **وتأكلون التراث أكلا لما**] وعند هذه الآية الكريمة يقول الإمام الجليل الحافظ : عماد الدين ابي الفداء اسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي المتوفي سنة سبعمائة واربع وستين للهجرة في كتابه تفسير (القرآن العظيم) في الجزء السابع من الطبعة الثانية التي صدرت عـام الف وتسعمائة وسبعين ميلادية في بيروت مقابلة على النسخة الخطية في دار الكتب المصرية : قوله تعالى [**وتأكلون التراث أكلا لما**] التراث : يعني الميراث .

اما الإمام البيضاوي ناصر الدين ابي سعيد عبدالله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي في كتابه (انوار التنزيل وأسرار التأويل) في الجزء الخامس طبعة بيروت صفحة ١٨٥ فقد اورد في قوله تعالى : [**وتأكلون التراث اكلا لما**] قراءة الكوفيين التي يقرأونها ويأكلون التراث : الميراث وأصله وارث .

اما الإمـــام القرطبي في كتابه (الجامع لأحكام القرآن) وفي الطبعة المصوّرة عن طبعة دار الكتب عام ١٩٦٧ في الجزء العشرين صفحة ٥٣ يقول عند قوله تعالى [**وتاكلون التراث أكلا لما**] : اي ميراث اليتامى ، وأصله

الوارث من ورثت ، فأبدلوا الواو تاء ، كما قالوا في : تجاه ، وتخمة ، وتكأة ، وتوءده ، ونحو ذلك .

هذا .. وقد جاءت في الذكر الحكيم هذه اللفظة بين سياق آيات كثيرة وهي لا تخرج عن دلالتها اللغوية وما ذهب اليه علماء الاسلام في التعريف بها عند قول الله تعالى : [وتأكلون التراث أكلا لما] . فقد جاء في سورة النمل في الآية رقم ١٦ قول الله تعالى : [وورث سليمان داود وقال يا ايها الناس علمنا منطق الطير ..] الآية .

وجاء في سورة النساء في الآية رقم ١١ : [فان لم يكن له ولد وورثه أبواه فلأمه الثلث ..] الآية .

وفي سورة الاعراف في الآية رقم ١٦٩ : [فخلف من بعدهم خلف ورثوا الكتاب ..] الآية .

وفي سورة النساء الآية رقم ١٩ : [يا ايها الذين آمنوا لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرهاً ..] الآية .

وفي سورة مريم الآية رقم ٦ : [يرثني ويرث من آل يعقوب واجعله رب رضيا] .

وفي سورة الاحزاب الآية رقم ٢٧ : [وأورثكم ارضهم وديارهم وأموالهم وأرضاً لم تطؤها ..] الآية .

وفي سورة الشعراء الآية رقم ٥٩ : [كذلك وأورثناها بني اسرائيل] .

هذه بعض الوجوه التي وردت واستعملت في الذكر الحكيم في مادة (تراث) وهي لا تخرج عن كون الميراث والتراث هو ما يتركه الرجل لأهله او ما يكون بين طرفين يؤول الى احدهما .

وقد يكون هذا التراث عيناً من الأعيان او معنى من المعاني العقلية او

الفكرية فرب العزة يقول في سورة مريم الآية رقم ٨٠ : [**ونرثه ما يقول ويأتينا فرداً**] الآية .

وفي سورة الشورى الآيـة رقم ١٤ : [**وان الذين أورثوا الكتاب من بعدهم لفي شك منه مريب**] .

وما نعنيه هنا من التراث الاسرائيلي في العهد القديم هو هذا المعنى القائم على ما تركه الآباء للأبناء من عقيدة في الإله والنبوة والرسالة الإلهية في كتب العهد القديم ومـــا يتصل بهذا الأساس من سيرة او تاريخ وفكر وذكريات تشكل أساس ومضمون العقيدة والدين عند الآباء وانتقـل ميراثـاً وتراثـاً للأبناء فيما هو مدوّن بين كتب وأسفار العهد القديم .

هذا .. ولمـــا كان العهد القديم يتداول بين الآباء والأبناء في اسرائيل (تراثاً) دينياً وتاريخيـاً على انــه عندهم يتضمن وحي الله للأنبيــاء فان من أهم ما يعنينا التعرف عليه في تراث الآباء والأبناء هو جوهر مـا تقوم عليه دعوة وعقيدة المؤمنين بالعهد القديم والمعتقدين أنه يكمن بين سطوره وحي الله تعالى لأنبياء بني اسرائيل، أي ما يمكن ان ينظره الباحث في موضوعية هو ما يتعلق في هذا الكتاب (العهد القديم) من عقيدة تتعلق بالذات العلية ووحيه تعالى للانبياء والرسل وما يتعلق بهاتين القضيتين او بهـذه العقيدة الدينية القائمـة على الاعتقاد في الإله والايمان بالوحي الإلهي وما يترتب عليها للاله الخالق وإيماناً برسله الى خلقه ، ولعل هذا هو أهم ما ذهبنا اليه نبحث عن طبيعته فيما ترك الآباء للأبناء في تراث اسرائيل في العهد القديم فضلاً عما حتمته طبيعة البحث من التعرض لقضايا ومسائل أخرى تتصل بهذا الأساس في التراث الاسرائيلي .

ما المراد بالاسرائيلي ؟

(اسرائيل) : اسم شاع بالغلبة على نبي الله يعقوب بن اسحق بن ابراهيم

عليهم جميعاً السلام، ودلالة هذه التسمية كما هو شائع ايضاً وعلى حد ما ذهب اليه الدكتور محمد سيد طنطاوي [1] : ان اسرائيل كلمة عبرانية مركبة من (اسرا) بمعنى عبد او صفوة ومن (ايل) وهو (الله) في العبرانية فيكون معنى اسم (اسرائيل) على هـذه الدلالة (عبدالله) وعلى هـذا فكل من انتسب الى اسرائيل بالجنس او بالعقيدة فهو (الاسرائيلي) نسبة الى يعقوب ابن اسحق بن ابراهيم .

لكن سؤالاً قد يطرحه سائل وهو : لمـــاذا سمي يعقوب بهذه التسمية وشاعت عليه مع ان القرآن الكريم تناول سيرة نبي الله يعقوب بهذا الاسم في مواقف كثيرة ومراحل متعددة ، بل عرض القرآن الكريم سيرته قبيل موته بهذا الاسم (يعقوب) وذلك في قوله تعالى في سورة البقرة الآية رقم ١٣٣ : [**أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت إذ قال لنبيه ما تعبدون من بعدي قالوا نعبد إلهك وإله آبائك ابراهيم واسماعيل واسحق إلهاً واحداً ونحن له مسلمون**] .

وفي سورة البقرة ايضاً الآية رقم ١٤٠ :[**أم تقولون ان ابراهيم واسماعيل واسحق ويعقوب والاسباط كانوا هوداً او نصارى قل أأنتم أعلم أم الله ومن أظلم ممن كتم شهادة عنده من الله وما الله بغافل عما تعملون**] .

وفي سورة النساء الآية رقم ١٦٣ :[**إنا اوحينا اليك كما اوحينا الى نوح والنبيين من بعـــده واوحينا الى ابراهيم واسماعيل واسحق ويعقوب والاسباط وعيسى وايوب ويونس وهارون وسليمان وآتينا داود زبوراً**].

وفي سورة يوسف الآية رقم ٦ : [**وكذلك يجتبيك ربك ويعلمك من تأويل الاحاديث ويتم نعمته عليك وعلى آل يعقوب كما أتمها على ابويك من قبل ابراهيم واسحق ان ربك حكيم عليم**] .

---

(١) دكتور محمد سيد طنطاوي في رسالة الدكتوراه (بنو اسرائيل في القرآن والسنة) الجزء الاول ص ٦ من الطبعة الاولى عام ١٩٦٨ .

وفي سورة يوسف ايضاً الآية رقم ٣٨ يقول فيها رب العزة : [**واتبعت ملة آبائي ابراهيم واسحق ويعقوب ما كان لنا ان نشرك بالله من شيء ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس ولكن اكثر الناس لا يشكرون**] .

وفي سورة ص في الآية رقم ٤٥ يقول رب العزة : [**واذكر عبادنا ابراهيم واسحق ويعقوب أولى الايدي والابصار**] .

هذه بعض الآيات الكريمة التي تناولت جزءاً من سيرة نبي الله يعقوب في مواقف متعددة ، ولم يستعمل الذكر الحكيم في تناول سيرة يعقوب اسماً او صفة غير اسمه العلم (يعقوب) ، فهل تكون شخصية يعقوب التاريخية والدينية غير شخصية اسرائيل خاصة وان التسميتين تحدث عنهما القرآن الكريم وساق عنهما اخباراً قصها الذكر الحكيم ، ففي سورة مريم رقم ٥٨ يقول رب العزة : [**أولئك الذين انعم الله عليهم من النبيين في ذرية آدم وممن حملنا من نوح ومن ذرية ابراهيم واسرائيل وممن هدينا واجتبينا اذا تتلى عليهم آيات الرحمن خروا سجداً وبكياً**]. فهذه الآية الكريمة وضعت اسم اسرائيل وذريته عقب اسم ابراهيم مباشرة ولم ينتظم في القائمة اسم اسحق كما هو الحال حين يجيء ذكر هذه السلسلة الكريمة ، وحين يكون الحديث متناولاً يعقوب الذي هو اسرائيل فيذكر رب العالمين ابراهيم واسماعيل واسحق ويعقوب في سلم ترتيبي كما هو معنا في الآيات الكريمة التي عرضناها، وهذا ما جعل بعض العلماء يميل الى ان اسرائيل شخصية ويعقوب شخصية أخرى ، ونحن لا نرجح هذا الرأي ونميل الى ما اتفق عليه جمهور العلماء على ان اسرائيل هو يعقوب عليه السلام ودلالة التسمية هي ما رجحها الاستاذ الدكتور محمد سيد طنطاوي لا ما ذهب اليه بعض العلماء الباحثين من ان دلالة التسمية باسرائيل على يعقوب انها عندهم مؤلفة من (يسر) العبرية التي من بين وجوهها معنى غلب وايل التي تعني عندهم (الله) فيكون المعنى

عندهم (غلب الله) [1] ولعل ذلك التفسير بأثر مما اوحته افكار التراث الاسرائيلي في منشأ تسمية يعقوب باسرائيل وهو أنه صارع انساناً وحشياً فصرعه فسمي لذلك (اسرائيل) [2] .

والدلالة التي ارتضاها جمهور العلماء من المسلمين هي الأرجح والأقرب لجلال القيم والمعاني التي اقترنت بسيرة نبي الله يعقوب وبأنعم الله ورحمته التي لازمت أبناء اسرائيل عبر أجيال التاريخ الطويلة .

وعلى هذا .. فالتراث الاسرائيلي في دلالته للعامة تاريخياً ودينياً ما تركه أبناء اسرائيل الآباء للأبناء مدوناً مما تناقلته الذاكرة أو انتهى اليهم عبر الأجيال حتى ظهور عيسى بن مريم في ما انتهى الينا من كتب التراث الاسرائيلي في مصادرها المختلفة وفي مقدمتها (العهد القديم) .

ما المراد بالعهد القديم ؟

العهد : هو كل ما عوهد الله عليه ، أو كل ما بين العباد من المواثيق فهو عهد ، وأمر اليتيم من العهد ، وكذلك كل ما أمر الله به وما نهى عنه من العهد وفي حديث الدعاء : وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت أي انا مقيم على ما عاهدتك عليه من الإيمان بك والاقرار بوحدانيتك لا ازول عنه [3] .

ويقال عهد إليّ في كذا اي اوصاني ، ومنه حديث علي كرم الله وجهه : عهد إلى النبي الامي اي اوصى ، ومنه قول الله تعالى : ألم اعهد اليكم يا بني آدم ، يعني الوصية والأمر ، والعهد التقدم إلى المرء في الشيء او العهد الذي

---

(١) دكتور عبد الفتاح شحاته في كتابه (تاريخ الامة العربية قبل الاسلام) الجزء الاول طبعة ١٩٥٧ .

(٢) للقس الدكتور (غبريال رزق الله) : دراسة تحقيقية حول منشأ تسمية يعقوب باسرائيل بعنوان: (من هو اسرائيل) نشرته لجنة الحق الكتابي عام ١٧٧١ وفيه يميل الى الرأي الثاني .

(٣) لسان العرب لابن منظور - الجزء الرابع الطبعة المصورة عن طبعة الدار المصرية للتأليف والترجمة والنشر - فصل العهد حرف الدال صفحات ٣٠٥ - ٣٠٧ بتصرف .

يكتب للولاة ، وهو مشتق منه والجمع عهود وقد عهد اليه عهداً ، والعهد الموثق واليمين يحلف بها الرجل ، وفي التنزيل (وما وجدنا لاكثرهم من عهد) أي من وفاء : قال ابو الهيثم : العهد جمع العهدة وهو الميثـاق واليمين التي تستوثق بها من يعاهدك ، وإنما سمي اليهود والنصارى اهل للذمة التي اعطوها ، والعهد المشترطة عليهم ولهم .

والعهد الإيمان : وفي التنزيل : لا ينال عهدي الظالمين . ويقال متى عهدك بفلان اي متى رؤيتك اياه ، وعهده رؤيته والعهد المنزل الذي لا يزال القوم اذا انتأوا عنه رجعوا اليه ، وكذلـك المعهود الذي عهد وعرف ، والعهـد المنزل الذي به الشيء سمي بالمصدر ، قال ذو الرمة : هل العهد المحيل رسمه وتعهد الشيء وتعاهده والمتعهد تعهده واحدث العهد به والمعهود مـــا كان امس والموعود ما يكون غداً .

هذا هو العهد لغة في استعمالاته واوجهه التي ترد في اللغة العربية وهذا المعنى اللغوي قريب من المعنى الاصطلاحي الذي يعنيه علمـــاء اللاهوت في تناولهم لتراث العهد القديم ، فهو عندهم ما كان بين العباد من بني اسرائيل أباءاً وابناءاً من العهود والمواثيق مدونة او متداولة ، واطلق على مجموعـــة الأسفار التي كانت تتداول قبل التدوين وبعده كتراث شعبي لا سنـد له الا الذاكرة كذكريات عن الآباء او اغنيـــات في المناسبات وحفلات العرس وتراتيل الحداد وأناشيد العمل وغير ذلك ، وحين تم تدوين الاسفار الخمسة المنسوبة في الكتاب المقدس للنبي موسى عليه السلام في اوائل القرن الاول للميلاد ، اتفق على أن تكون هذه الاسفار عناصر كتاب العهد القديم الذي ضم بعد ذلك تسعاً وثلاثين سفراً [1] عرفت باسم العهد القديم تمييزاً لها عما

---

(١) (موريس بوكاي) في كتابه (دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعـــارف الحديثة) ترجمة دار المعارف المصرية — الطبعة الاولى عام ١٩٧٨ صفحة ٢٥ .

نسب بعد ذلك في بيت اسرائيل لعيسى بن مريم عليه السلام ومجموعات التلاميذ الذين يسمون في العهد الجديد بالرسل ، وعلى هذا فالفرق بين مرحلة التراث الاسرائيلي القديم والحديث هو أن ما سبق ظهور عيسى بن مريم عليه السلام اعتبر تراثاً قديماً وما نسب اليه او دوّن بعده اعتبر تراثاً جديداً وهو الذي صيغت نصوصه واخباره في كتب الأناجيل واعمال الرسل في العهد القديم .

وبهذه المقدمة الموجزة : فالتراث الاسرائيلي في العهد القديم هو ما كان متداولاً كعهد او ميثاق بين الآباء والأبناء عبر الاجيال من بني اسرائيل حتى عصر ظهور السيد المسيح عليه السلام مما وعته الذاكرة أو تناهى إلى بني اسرائيل في قضايا الإيمان والانبياء وضروب وصور الحياة المختلفة على انه عندهم من الوحي الإلهي او قريب منه مما دونه الكتاب والمسجلون من اجيال اليهود عبر مراحل التاريخ التي اقترنت بالسبي البابلي حتى ميلاد عيسى بن مريم عليه السلام[1] .

---

(١) المصدر السابق صفحة ١٧ .

الباب الأول

كتب العهد القديم والتعريف بها

الفصل الأول

العهد القديم

هو ديوان من النثر يحتوي على النصوص الأساسية التي يقوم عليها دين اليهود في الزمن القديم والحديث وهو في الصورة التي انتهى بها إلينا في اللغة العربية يقوم على ثلاثة أقسام رئيسية :

القسم الأول :

كتب التوراة الخمسة المدوّنة في العهد القديم والمنسوبة الى نبي الله موسى عليه السلام .

القسم الثاني :

كتب الانبياء وتنقسم في العهد القديم إلى قسمين : —

أ — الأنبياء المتقدمون ولهم حقبة تاريخية وترتيب آخر .

ب— الانبياء المتأخرون ولهم حقبة تاريخية وترتيب آخر .

القسم الثالث :

الكتب المسجلة في العهد القديم او مجموعة الأسفار التي يطلق عليها :

اسفار الحكمة من اسفار : المزامير والأمثال ونشيد الانشاد وراعوث والمراثي والجامعة واستير ودانيال وعزرا ونحميا واخبار الأيام الاول والثاني .

ملامح الاقسام الثلاثة في العهد القديم :

الكتب الخمسة المسماة عند اليهود (بالتوراة)[1] ينسبها المؤمنون بالعهد القديم إلى النبي موسى عليه السلام ، وهذه الأسفار تتناول فترة من الزمن طويلة ، تبدأ مع بدء الخليقة وتنتهي بالحديث عن وفاة موسى عليه السلام على جبل (نبو) في شرقي الاردن ، وترتيب هذه الأسفار بالشكل الذي انتهت به الينا في الترجمة العربية على النحو الآتي :

١ - (سفر التكوين) ويتألف من خمسين فصلاً او اصحاحاً كما تسميه الترجمة العربية ، تحكي هذه الاصحاحات في خطوطها الاساسية قصص تتعلق بالخلق وبآدم ونوح عليهما السلام ، كما يتحدث هـذا السفر عن سام وحام ويافث ، ثم يصل الى أبي الانبياء ابراهيم عليه السلام ، كذلك يتعرّض بشيء من التفصيل الى بعض انبياء الله مثل : اسحق ويعقوب ويوسف وقصة ابناء يعقوب في مصر واستقرارهم في ارض الفراعنة ثم خروجهم منها .

ومن الجدير بالذكر ان هذا السفر وهو اول الكتب الخمسة المسماة (توراة) والمنسوبة الى النبي موسى عليه السلام ليس فيه اشارة تدل على علاقة النبي موسى به لا بالرواية او التدوين او الوحي بل ان معظمه يدور على تاريخ النبي واولاده واحفاده في فلسطين تارة ومصر اخرى فضلاً عما احتواه من قصص تتعلق ببدء الخلق بأسلوب دفع الكثيرين من النقاد الى نقد العهد القديم ورفضه وسنتعرّض فيما بعد بشيء من الدراسة التفصيلية لما في هـذا

---

(١) (السنن القويم في تفسير أسفار العهد القديم) القس وليم مارش . الجزء الأول صفحة ١ . صادر عن مجمع الكنائس في الشرق الأدنى بيروت عام ١٩٧٣ .

السفر وغيره من الكتب الخمسة من قضايا تعنينا في موضوع التراث الاسرائيلي في العهد القديم .

٢ — (سفر الخروج) ويتألف هذا السفر من اربعين اصحاحاً تتناول قصة اضطهاد فراعنة مصر لبني اسرائيل بعد ان عظم شأن اسرائيل واصبحوا قوة وخطراً يهدد سلامة مصر وأمنها وكان ذلك عقب موت يوسف باجيال .

هذا ويتحدث هذا السفر عن الفترة التي ولد فيها موسى عليه السلام في مصر فيحكي قصة مولده ونشأته وتحركاته في منطقة الشرق الادنى ويسهب في الحديث عن رحلته إلى سيناء وارض مدين الى ان يأتيه الوحي الإلهي على جبل الطور . ويبدأ موسى في تحدي الفرعون والعمل على اخراج اليهود من مصر ويتضمن هذا السفر الكثير من المبالغات .. والمفارقات التي سجلها كاتب هذا السفر مع مرحلة الخروج من مصر فضلاً عما تضمنه من بعض امور الديانة اليهودية والوحي الذي انزل على موسى ومراحله المختلفة .

٣ — (سفر اللاويين) : يتألف هذا السفر من سبعة وعشرين اصحاحاً ويسميه اليهود في بعض التعاليم الدينية سفر (الاحبار) وذلك لكثرة الشرائع والطقوس الكهنوتية التي يحتويها ومنشأ تسمية هذا السفر بهذا الاسم ان مهمة الكهانة كانت موكولة لسبط (لاوي) بن يعقوب واشترط اليهود حسب املاء الشرائع والطقوس الكهنوتية ان توكل مهمة الكهانة الى سبط (لاوي) ومن هنا فأطلق على جملة الاصحاحات التي تحتوي على دور الاحبار وأهميتهم في اداء الطقوس الكهنوتية اليهودية .

ويرى علماء اليهود انه في هذا السفر يتوقف سرد بقية قصة المسيرة الاسرائيلية مع موسى عبر سيناء بحيث ترتب الحديث فيه على التعاليم الخاصة بالحياة الدينية ويرون ان نصوصه تتكامل مع القسم الاخير من سفر الخروج الذي قبله ومع جزء كبير من سفر العدد الذي بعده ويعتقدون ان

في هذا الترابط وحدة الموضوع التدويني لعصمة كتابهم المقدس وكان علماء الشريعة اليهودية يسمون هذا الترابط باسم (القانون الكهنوتي) [1].

مع ان هذا السفر بين الاربعة التي تلي سفر التكوين الذي قلنا عنه ليس فيه اشارة تدل على علاقته بنبي الله موسى وان هذه الاسفار الأربعة يرجح المؤرخون اليهود القدامى وبعض المحدثين الى انها تتناول حقبة النبي موسى عليه السلام إلا ان فيها عبارات كثيرة تسوغ القول بأنها الاسفار الاربعة لم تكتب من قبل موسى ولا باملائه ولا في حياته وانما كتبت بعدد بزمن طويل وباقلام كتاب عديدين وفي ازمنة مختلفة وهذا ما سنتعرّض له في باب عصور التدوين للتراث اليهودي بشيء من التفصيل .

٤ — (سفر العدد) : يتألف هذا السفر من ستة وثلاثين اصحاحاً ومنشأ التسمية بروز ظاهرة التعداد الكثير خلال نصوصه ففي اجزاء كثيرة من هذه الاصحاحات يرد احصاء تفصيلي للشعب الراحل مع موسى في الصحراء والمعلومات المبنية على الاعداد والارقام حول الذبائح وعدد المدن والقرى كثيرة كثرة تلفت النظر ، وفي هذا السفر رجوع الى قصة سيرة موسى وقومه تتخللها الاحكام الشرعية في مختلف المسائل .

وفي الاصحاح الاول من هذا السفر يبرز الجانب المغالي في سرد البيانات والمعلومات في شكل حاد عند كتاب هذا السفر فالاحصاء الذي اورده هذا الاصحاح لذكور بني اسرائيل البالغين عشرين سنة فما فوق واسماء رؤساء اسباطهم قد بلغ ٦٠٣,٥٠٠ عدا اللاويين .

وفي الاصحاحين الثالث والرابع احصاء الذكور اللاويين من ابن شهر

---

(١) (حسن ظاظا) : (الفكر الاسرائيلي اطواره ومذاهبه) طبعة معهد البحوث والدراسات العربية العالي التابع لجامعة الدول العربية عام ١٩٧١ صفحة ١٥ .

فصاعداً وقد بلغ عدد الذكور من ابن شهر فصاعداً ٢٢٠٠٠ وعدد ابناء الثلاثين فما فوق ١٨٥ر١٧ .

وفي الاصحاح الخامس من هذا السفر امر بنفي كل ابرص وكل من به سيلان وكل متنجس بمس ميت الى خارج المحلة حتى لا يتنجس به بقية من في المحلة وفي هذا السفر يكثر الحديث عن تذمر العبريين عن متابعة السير على خطوات موسى وانحرافهم نحو ألوان من الفسوق والعصيان [1].

٥ — (سفر التثنية) : يتألف هذا السفر من اربعة وثلاثين اصحاحاً وبهذا السفر في الترتيب المدوّن في العهد القديم في النسخة العربية تكتمل (التوراة) التي ينسبها شراح العهد القديم الى النبي موسى عليه السلام ومع ان النظرة النقدية العابرة لما في هذا السفر او غيره من الاسفار الخمسة تؤكد عدم نسبة معظم ما هو مدوّن في السفر إلى موسى عليه السلام كما تفصح بذلك الفقرتان الخامسة والسادسة من الاصحاح الرابع والثلاثين من هذا السفر[2]. (فمات هناك موسى عبد الرب في ارض مؤاب حسب قول الرب وتم دفنه في الجواء في ارض مؤآب حسب قول الرب وتم دفنه في الجواء في ارض موآب مقابل بيت فغور ولم يعرف انسان قبره إلى هذا اليوم) . إلا أن شراح العهد القديم من علماء اليهود يعتقدون في صحة نسبته الى موسى عليه السلام ويسمونه (تثنية الاشتراع) اي إعادة الشريعة وتكرارها على بني اسرائيل عند خروجهم من سيناء ووصولهم الى مناطق في سهول النقب وجنوب الاردن في صحراء موآب ويرون فيه انه تم نسخ بعض تعاليم الشريعة الاولى عند تثنيتها على موسى وانه اضاف اشياء الى الشريعة لم تكن

---

(١) (محمد عزة دروزة) : (تاريخ بني اسرائيل من اسفارهم) المكتبة العصرية صيدا بيروت صفحة ٨٣ عام ١٩٦٩ .

(٢) (سفر التثنية) : الاصحاح الرابع والثلاثون فقرات ٥ ، ٦ .

في مراحلها الاولى وذلك مثل تلك الدعوى التي وردت في فقرات من الاصحاح السابع عشر والتي تنقل نظام الحكم الاسرائيلي إلى نظام ملكي بكل قواعده المعروفة في القديم والحديث : (متى اتيت الى الأرض التي يعطيك الرب إلهك وامتلكتها وسكنت فيها فان قلت اجعل عليّ ملكاً لجميع الامم الذين حولي فانك تجعل عليك ملكاً الذي يختاره الرب إلهك من وسط اخوتك تجعل عليك ملكاً لا يحل لك أن تجعل عليك رجلاً أجنبياً ليس هو أخاك ، لكن لا يكثر له الخيل ولا يرد له الشعب الى مصر لكي يكثر الخيل والرب قد قال لكم لا تعودوا ترجعون في هذه الطريق ايضاً ولا يكثر له نساء لئلا يزيغ قلبه وفضة وذهباً لا يكثر له كثيراً وعندما يجلس على كرسي مملكته يكتب لنفسه نسخة من هذه الشريعة في كتاب من عند الكهنة اللاويين) [1] .

ويمضي هذا السفر في مدوناته الى أن يدعى ان موسى عليه السلام قد كتب هذه التوراة وسلمها للكهنة من بني (لاوي) ولشيوخ بني اسرائيل وأمرهم بقراءتها في نهاية كل سبع سنوات[2] . لكن العجيب حقاً هو ما يسجله هذا السفر نفسه كبرهان لا يقبل المكابرة في تقرير عدم صلاحية الكهنة وشيوخ بني اسرائيل للقيام لهذه المهمة الجليلة وهي حفظ وصايا الرب وعهده ففي الإصحاح الحادي والثلاثين تقول الفقرات ٢٤ — ٢٩ (فعندما كمل موسى كتابة كلمات هذه التوراة في كتاب الى تمامها امر موسى اللاويين حاملي تابوت عهد الرب قائلاً : خذوا كتاب التوراة هذا وضعوه بجانب تابوت عهد الرب إلهكم ليكون شاهداً عليكم لأني عارف تمردكم ورقابكم الصلبة هوذا وأنا بعد حي معكم اليوم قد صرتم تقاومون الرب فكم بالحري بعد موتي . اجمعوا كل شيوخ اسباطكم وعرفاءكم لانطق في مسامعهم

---

(١) (سفر التثنية) الاصحاح السابع عشر فقرات ١٤ — ١٨ .

(٢) (سفر التثنية) الاصحاح الحادي والثلاثون فقرات ٩ — ١٢ .

في هذه الكلمات واشهد عليهم السماء والأرض لأني عارف انكم بعد موتي تفسدون وتزيغون عن الطريق الذي اوصيتكم به ويصيبكم الشر في آخر الأيام لانكم تعلمون الشر امام الرب حتى تغيظوه بأعمال ايديكم ، فنطق موسى في جميع مسامع كل جماعة اسرائيل بكلمات هذا النشيد الى تمامه)[1].

والامر بعد ذلك لا يحتاج إلى تعليق فالوصايا وما سجله موسى من امر الوحي وما أمر به ان يوضع في تابوت العهد ولوحي الحجر قد تركها جميعاً موسى أمانة وعقيدة مع من يعملون الشر امـــام الرب حتى يغيظوه بأعمال ايديهم . ولنا دراسة وتعقيب حول ما قرره سفر التثنية في هذا الإصحـــاح في مبحث وباب عقيدة الإله عند بني اسرائيل وما انتهوا إليه فيها من حيث التنزيه والتشبيه والتجسيم وغير ذلك مما انطوت عليه العقيدة الدينية عندهم من صور ونمـاذج تحدثت عنهـــا أسفار العهد القديم وسفر التثنيـــة على وجه الخصوص .

---

(١) (سفر التثنية) الاصحاح الحادي والثلاثون فقرات ٢٤ — ٢٩ .

الفصل الثاني

كتب الانبياء في العهد القديم

قلنا في مقدمة التعريف بالعهد القديم : ان كتب الأنبيـــاء تنقسم الى قسمـــين :

أ — الانبياء المتقدمون ولهم حقبة تاريخية وترتيب .

ب — الانبياء المتأخرون ولهم حقبة تاريخية وترتيب آخر .

ونحن هنا امام محاولة التعرف على ملامح ومقومات هذه الأسفار تمهيداً للتأريخ لها ودراستها ونقدها .

الانبياء المتقدمون في العهد القديم وتتحدث عنهم اربعة أسفار تجيء على الوجه الآتي :

يشوع : وله في العهد القديم سفر مستقل يتألف من أربعـــة وعشرين اصحاحاً وهي في معظمها تروي اقتحام بني اسرائيل لأرض فلسطين عقب الخروج وبعد موت موسى بقيادة يشوع الذي يضفي عليه السفر قدسية بل يعبر عنه على انه نبي تلقى الوحي الذي يجعله في نظر شراح العهـد القديم

خليفة موسى والمتلقي لبركته والمحقق لهم ما لم يحققه غيره [١] ويخص السفر يشوع بمعجزة شهيرة ينسبها اليه اثنــاء حربه ضد الأموريين في منطقــة (جبعون) وهي انه وقف أمام عيون اسرائيل قائلاً : (... ياشمس دومي على جبعــون ويا قمر على وادي ايـلون ، فدامت الشمس ووقف القمر حتى انتقم الشعب من اعدائه) [٢] .

ويمضي الاصحاح العاشر من سفر يشوع الذي اورد قصة هــذه المعجزة التي وقفت فيهـــا الشمس بأمر يشوع ولم تعجل للغروب نحــو يوم كامل (... ولم يكن مثل ذلك اليوم الذي قبله ولا بعده سمع فيه الرب صوت انسان لان الرب حارب عن اسرائيل[٣] فيقــول (أليس هــذا مكتوباً في سفر ياشر ؟ [٤] .

وسفر ياشر هذا غير موجود ولا مدوّن في كتب العهــد القديم ولا في الكتب غير القانونية التي تنسب الى العهد القديم ويرفضها بعض علماء اليهود المحدثين مثل (الأبوكريفا) التي تحتوي على نصوص شرعية خاصة باليهود . نقول ان سفر (ياشر) هذا غير موجود ولا متداول ومع ذلك فان الفقرة الثانية عشرة من الإصحاح العـــاشر في (يشوع) والتي تقص خبر معجزة الشمس ليشوع تؤكد بهذا الاستفهام وقوع الحادثة وبأنها في سفر (ياشر) الذي لا وجود له الآن في ما هو مدوّن من اسفار وما حفظ من تراث .

ومما يلفت النظر ويثير تساؤلا هو ان هذه الواقعة واقعة حبس الشمس ليشوع قــد اوردهــا ابن الأثير في الجزء الأول من كتابــه (الـكامل)

---

(١) في (التثنية) في الاصحاح الرابع والعشرين فقرة رقم ٩ تقول (اذكر ما صنع الرب إلهك بمريم في الطريق عند خروجكم من مصر) .

(٢) (سفر يشوع) الاصحاح العاشر فقرة رقم ١٣ .

(٣) (سفر يشوع) الاصحاح العاشر رقم ١٤ .

(٤) (سفر يشوع) الاصحاح العاشر فقرة رقم ١٣ .

صفحتي ١١٣ - ١١٤ مستدلاً عليها بحديث (لم تحبس الشمس على احد إلا يوشع بن نون) ومع ذلك فان السفر نفسه قد نسب إلى الرجل اخطاء وجرائم قد يكون بريئاً منها ولم يقع فيها ، مما يؤكد انه بطل السفر وليس كاتبه (١) .

وينتهي السفر بالحديث عن موت يشوع بعد سلسلة من المغامرات والأعمال العسكرية والسياسية التي يقود فيها الشعب الاسرائيلي فترة من الزمن بعد موت موسى ، وهذه الأعمال تتسم في جملتها بنوع من المعجزات التي يقوم بها إله الحرب في العهد القديم الذي ينزل وسط الجنود ليقاتل عن اسرائيل .

وفي نهاية حياة يشوع يدفن في بلدة (تمنه) من بلدان فلسطين .

وعند الكلام على مراحل تدوين وتسجيل كتب العهد القديم لنا عودة لمناقشة ما ينسب إلى يشوع بن نون من انه نسخ الشريعة التي تركها موسى على لوحي حجر غير اللوحين الذين تركهما موسى وانه أخذ من بني اسرائيل عهداً وميثاقاً غير الذي أخذه موسى .

هذا ومما يجدر ذكره ان هذا الرجل في كتب العهد القديم يتسم بنوع من الفدائية والتضحية التي قرنها كتاب العهد القديم بأعمال النبوة والرسالة الإلهية التي تحدثوا عنها في سيرة يشوع بن نون .

---

(١) الدراسة النقدية التي قدمها مجمع البحوث الاسلامية بالازهر الشريف عام ١٩٧٢ لكتاب (اليهود بين الدين والتاريخ) للباحث صفحة ١٤ عن مكتبة النهضة المصرية بالقاهرة بها تعليق ودراسة حول شخصية يشوع بن نون على ضوئها عدل المؤلف عن رأيه في ما كان ينظر به الى يشوع .

سفر القضاة

عقب موت يشوع ظهرت مجموعة من القواد والزعماء في بني اسرائيل كانوا يحاولون التمسك بالشريعة وعرفت الحقبة التي سادوا فيها باسم (عصر القضاة).

ويحتوي السفر الخاص بهم من واحد وعشرين فصلاً او اصحاحاً تتناول عهدة القضاة وحروبهم في مناطق غرب الاردن ونجاحهم في حروبهم وغزواتهم . وسفر القضاة يحسب الفترة الزمنية التي قاد فيها القضاة بني اسرائيل بنحو ٣٥٠ سنة مع انها لا تصل الى مائة عام اذا ما علمنا ان الخروج من مصر كان حوالي ١٢١٠ قبل الميلاد وان زعامة موسى ويشوع من بعده فترة استمرت نحو ثمانين عاماً بينما الملك الرسمي لبني اسرائيل لم يقم إلا في أواسط القرن الحادي عشر حوالي ١٠٣٠ [١] .

والقضاة بحكم انهم مجموعة من الزعماء السياسيين والعسكريين والدينيين حاولوا على مدى أكثر من مائة عام أن يمنعوا المجتمع الاسرائيلي من الانزلاق في الفجور والكفر والعصيان ، لكن يبدو أنهم لم يوفقوا في ذلك . بالرغم مما يقصه السفر من أحاديث المعجزات والمبالغات الروائية التي يفيض بها فان جهودهم لم تفلح في مقاومة الشر .

---

(١) (محمد عزة دروزة) (تاريخ بني اسرائيل من أسفارهم) المكتبة العصرية – صايد بيروت طبعة ١٩٦٩ ص ١٢٣ .

تقول الفقرات ١١ — ١٥ من الاصحاح الثاني من سفر القضاة [١] : (وفعل بنو اسرائيل الشر في عيني الرب وعبدوا البعليم وتركوا الرب إله آبائهم الذي اخرجهم من أرض مصر وساروا وراء آلهة أخرى من آلهة الشعوب الذين حولهم وسجدوا لها وأغاظوا الرب تركوا الرب وعبدوا البعل وعشتاروت فحمي غضب الرب على اسرائيل فدفعهم بأيدي ناهبين نهبوهم وباعهم بيد أعدائهم حولهم ولم يقدروا بعد على الوقوف أمام اعدائهم).

ولما كانت مقاومة الشعب الفلسطيني الأصلي بشتى قبائله مقاومة شديدة جداً على ضوء هذا النص فقد كانت الصفة العسكرية واضحة في الغزوات والوقائع التي قام بها هؤلاء القضاة وقصها السفر الذي حمل اسمهم ومن هؤلاء : (اهودا ، وباراق بن ابي نوعم وجدعون، عثنيئيل، يفتاح، شمشون الجبار ، امرأة نبية هي التي عاصرت باراق بن ابي نوعم واسمها : دبورة) .

يقول عنها الاصحاح الرابع من سفر القضاة فقرات ٤ — ٩ : (ودبورة امرأة نبية زوجة لفيدوت هي قاضية اسرائيل في ذلك الوقت وهي جالسة تحت نخلة دبورة بين الرامة وبيت ايل في جبل افرايم وكان بنو اسرائيل يصعدون اليها للقضاء فأرسلت ودعت باراق بن ابي نوعم من (قادش) نفتالي وقالت له : ألم يأمر الرب إله اسرائيل اذهب وازحف الى جبل تادور وخذ معك عشرة آلاف رجل من بني نفتالي ومن بني زبولون فاجذب اليك نهر قيشون سيسرا رئيس جيش يابين بمركباته وجمهوره وادفعه ليدك فقال لها باراق ان ذهبت معي أذهب وإن لم تذهبي معي فلا أذهب فقالت اني أذهب معك غير انه لا يكون لك فخر في الطريق التي أنت سائر فيها لأن الرب يبيع سيسرا بيد امرأة فقامت دبورة وذهبت مع باراق الى قادش) .

ولعل ملامح السفر قد وضحت أمامنا بعض الشيء وهي تكشف بغير

---

(١) (سفر القضاة) الاصحاح الثاني فقرات ١١ — ١٥ .

شك عن ملامح سياسية وعسكرية لهذه الحقبة حتى في المرحلة التي كانت فيها القاضية امرأة نبية كما يقص السفر الطويل .

إن الاصحاح الأول وحده من هـذا السفر يفيض عند الحديث عن سبط يهوذا متضامناً مع سبط شمشون وحربهم للكنعانيين ولا بأس في عهد القضاة أن يقوم القضاة كما يقص سفرهم بضرب الكنعانيين والفرزيين في (بازق) وأن يقتـلوا منهم عشرة آلاف وأن يأسروا ملك بازق ثم يقطعوا أوصاله ويأتوا به الى أورشليم ليموت فيها .

يقول الاصحاح الأول من سفر القضاة فقرات ٣ — ٧ [١] : (فقال يهوذا لشمعون أخيه اصعد معي في قرعتي لكي نحارب الكنعانيين فأصعد أنا أيضاً معـك في قرعتك فذهب شمعون معه فصعد يهوذا ودفـع الرب الكنعانيين والفرزيين بيدهم فضربوا منهم في بازق عشرة آلاف رجل ووجدوا (أدوني) بازق في بازق فحاربوه وضربوا الكنعانيين والفرزيين فهرب أدوني بازق فتبعوه وأمسكوه وقطعوا إيام يديـه ورجليه فقـال أدوني بازق سبعون ملكاً مقطوعة اباهم أيديهم وأرجلهم كانوا يلتقون تحت مائدتي كما فعلت كذلك جازاني الله وأتوا به الى أورشليم فمات هناك) .

ومن مثل هذه الأحداث والصراعات يفيض (سفر القضاة) بالحديث عن هـذه الحقبة التي سجلها رواة العهـد القـديم عن مرحلة من تاريخ بني اسرائيل انعدم بين سياق اصحاحات هذا السفر كل ما يتعلق بعمل النبوة والهداية الإلهية التي يمكن ان تكون في تعاليم الأنبياء او الذين هم على طريق الأنبياء .

---

(١) (سفر القضاة) الاصحاح الاول فقرات ٣ — ٧ .

سفر راعوث

هذا السفر يحتوي على أربعة اصحاحات فقط مضمونه كما يقول مؤلف كتاب : (السنن القويم في تفسير أسفار العهد القديم) .. انه حدث جوع في أرض يهوذا وتغرب اليمالك [1] وامرأته نعمى وابنيهما في بلاد مآب وانه تضمن موت اليمالك ، زيجة ابنيه بموآبيتين .. عرفه وراعوث ورجوع نعمى الى بيت لحم وتعلق راعوث بحماتها بمحبة شديدة وتركها وطنها وأهلها وآلهتها وذهابها مع نعمى الى بيت لحم [2] . ويمضي السفر في سرد قصة راعوث ونعمى في وسط المجاعة التي حلت بالبلاد الى أن ذهبت راعوث لتلتقط واتفق نصيبها في قطعة حقل (بوعز) من عشيرة اليمالك وبعد ما عرف انها من بلاد موآب أحسن اليها وسمح لها أن تلتقط في حقله حتى بين الحزم وأن .. تشرب مما استقاه الغلمان وتأكل من أكلهم فرجعت مساء الى حماتها بما التقطته وهو كمية غير قليلة من الشعير وحدثت حماتها عن لطف (بوعز) وفهمت منها أنه من ذوي قرباها .

هذا .. وقد اقتصر كتاب هذا السفر على هذا الجانب العائلي في تلك

---

(١) (اليمالك) اسم لرجل ومعناه عند مؤلف كتاب (السند القويم في تفسير أسفار العهد القديم) : (الله معك) .

(٢) (السنن القويم في تفسير أسفار العهد القديم) الجزء الثالث طبعة مجمع الكنائس في الشرق الأدنى عام ١٩٧٣ ص ٤١٤ .

الحقبة من تاريخ بني اسرائيل ولم يتضمن السفر اشارة الى نوع من الحياة الدينية والسياسية التي كانت تسود الحياة والمجتمع بين بني اسرائيل بل اقتصر على تلك الخلاصة التي قصتها الاصحاحات الاربعة وخلاصتها : ان اسرائيلياً من أهل بيت لحم ومن سبط يهوذا نزح مع زوجته وولديه الى موآب في ظرف الجوع الذي كان قد حل بالأرض فتزوج أحد الولدين وهو كليون بالمرأة الموآبية التي يحمل السفر اسمها (راعوث) ثم لما مات كليون وزال الجوع عن أرض كنعان عادت الحماة ومعها كنتها الى بيت لحم وتزوجت راعوث مرة ثانية من رجل قريب للحماة اسمه (بوعز) فولدت له ولداً سمي (عبيد) و (عبيد) هذا هو الذي حين تزوج بعد ذلك أنجب ولداً سمي (يسي) والد داود النبي الذي أنجب ابناً هو سليمان عليهما السلام . وهكذا يبرز لنا من بين ثنايا هـــذا السفر العائلي ان سلسلة نسب الملوك في بني اسرائيل ليست اسرائيلية خالصة فقد كان أحد أبنـاء الممالك زوجـاً للمرأة الموآبية (راعوث) وهي غير اسرائيلية طالما يقول سفرها انهـا موآبية . وسنتعرض بشيء من التفصيل عند الحديث عن نبي الله داود عليه السلام لهذه القضية قضية نقاء أصول جنس بني اسرائيل ورؤية العهد القديم لها .

سفر صموئيل

هذا السفر يتألف من واحد وثلاثين اصحاحاً للجزء الاول المسمى بصموئيل الأول واربع وعشرين اصحاحاً للجزء الثاني المسمى بصموئيل الثاني .

ويحتوي السفر الأول من سفر صموئيل على عـدة قضايا أساسية في الفكر والتراث الاسرائيليين .

وأول وأهم هـذه القضايا التي تبـدو بارزة في سفر صموئيل الأول فكرة (النبوة) عند بني اسرائيل فقد تحددت في هذا السفر فكرة النبوة عندهم وهي انهـــا وراء كل حكم اسرائيلي تديره من وراء ستار [1] . وبينما كانت صفات النبوة في فترة (القضاة) قائمـــة على الزعامة السياسية والدينية في صموئيل تبـدو فكرة النبوة لا تسعى الى تسلم تقاليد الحكم رسمياً بـل تبقى لتدير هذا الحكم من وراء ستار بينما الحاكم ملك يجلس على عرشه ويبايعه رعاياه بامر من هذا النبي وتوجيهه .

وتتجلى أهمية هذا السفر في تاريخ كتب العهـد القديم إذا مـا علمنا ان السلطة الدينيـة ظلت لفترة طويـلة عقب موت موسى محصورة في سبط اللاويين ولم يكن صموئيل من هذا السبط بل كان من (افرايم) وكان طبيعياً

---

(١) (حول تاريخ الانبياء عند بني اسرائيل) تأليف .. (م . ص . سيجال) ترجمه الى العربية من العبرية دكتور (حسن ظاظا) نشر جامعة بيروت العربية لبنان عام ١٩٦٧ .

أن يجد العراقيل والمعوقات أمامه بشكل لا يمكنه من تحقيق ما يصبو اليه إلا أن السفر يحتوي على الكثير من المتحولات الهامة في التاريخ الذي يقصه العهد القديم على ضوء الجهود التي بذلها صموئيل فيما يقص عنه سفره .

ومن هذه المتحولات التي يرويها هذا السفر انتقال صموئيل من صفة القاضي إلى صفة النبي عند بني اسرائيل وجهوده التي كللت ببعض النجاح من أجل توحيد شعب بني اسرائيل بكافة أسباطهم تحت تاج واحد ..

وفي هذه المرحلة التي يقصها سفر صموئيل ظهر نجم الملك شاول الذي لا تمكنه الحوادث من البقاء طويلاً يقود الصراع السياسي الذي كان بين بني اسرائيل والفلسطينيين إذ ينتحر على أثر موقعة حربية فاشلة ضد الفلسطينيين.

وتمضي رواية الاصحاحات الى ان يحدثنا سفر صموئيل الثاني عن جهود ذلك النبي في بروز وظهور نجم النبي داود وتوليه العرش في ظل مطاردة قامت فجأة بين شاول وداود انتهت باستيلاء داود على عرش بني اسرائيل وعلى أورشليم مدينة اليوبوسيين .

وينتهي الحديث في اصحاحات الجزء الثاني من سفر صموئيل عند مراحل شيخوخة داود ووجود منافسات وزعامات ضده الأمر الذي جعله يفكر في تعيين ابنه سليمان ملكاً على بني اسرائيل بعد جهود جماعة من بني اسرائيل في دفع سليمان الى اتخاذ هذا القرار .

هذا ولا يخلو السفران من سرد الحوادث والوقائع المشبوهه بالخيال او المنقولة من تداول الذكريات فمما جاء في الاصحاح الحادي عشر من سفر صموئيل الأول ان (ناحاش) زحف على مدينة (يابيش) جلعاد في شرق الاردن التي يقيم فيها فريق من بني اسرائيل فطلبوا منه الأمان على ان يخضعوا له فقبل منهم ذلك بشرط عجيب وهو أن يقلع كل عين يمنى لهم ليكون ذلك عاراً على جميع بني اسرائيل مما يمكن أن يكون وليد الخيال والذكريات المتداولة عن مراحل من الضياع او الأسر او يدل على بالغ

الازدراء .. والاحتقار والاستهانة الـتي مرت ببعض مراحل من التاريخ الاسرائيلي فيها قطاعات ضخمة من الشعب الاسرائيلي .

وفي الاصحاح الرابع عشر من سفر صموئيل الأول يبرز الخيال والغلو بل والتزييف وخلاصته.. ان (يوناثان) بن شاول وغلامـاً له اقتربا من معسكر الفلسطينيين واستطاعوا بضربة واحدة أن يقتلوا عشرين منهم فأثار عملهم الاضطراب والذعر والضجيج في الفلسطينيين وجعلهم ينهزمون ، وشدد هذا من قلوب بني اسرائيل فعادوا وتجمعوا تحت راية شاول وتتبعوا الفلسطينيين وضربوهم وغنموا ما معهم وظلوا يتعقبون فلولهم ويغنمون ما في أيديهم حتى أخرجوهم من حدودهم .

تقول فقرات الاصحاح الرابـع عشر من سفر صموئيل : (وفي ذات يوم قال يوناثان بن شاول للغلام حامل سلاحه تعال نعبر الى حفظة الفلسطينيين الذين في ذلـك العبر ولم يخبر أباه وكان شاول مقيماً في طرف جبعـة تحت الرمانة التي في (مغرون) [1] والشعب الذي معه نحو ستمائة رجل واخيـا ابن اخيطوب [2] . اخي انجابود بن فنحاص بن عـالي كاهن الرب في شيلوه كان لابساً افودا ولم يعلم الشعب أن يوناثان قد ذهب بين المعابر التي التمس يوناثان أن يعبرها الى حفظـة الفلسطينيين سن صخرة من هـذه الجهة وسن صخرة من تلك الجهة واسم الأولى (بوصيص) واسم الأخرى (سنة) والسن الواحد عمود الى الشمال مقابل مخماس والآخر الى الجنوب مقابل جبع فقـال (يوناثان) للغلام حامل سلاحه تعال نعبر الى صف هؤلاء الغلف لعل الله

---

(١) لم يوضح السفر هذا الاسم (مغرون) ومؤلف (كتاب السنن القويم في العهد القديم). في الجزء الرابع صفحة ٦٤ يقول لعل (مغرون) ليس اسم علم وبعضهم يقول انه اسم الرمانة التي في البيدر .

(٢) (أخيا) المظنون ان أخيا هذا هو (اخيالك بن اخيطوب المذكور) ومعنى أخيا عند شراح العهد القديم هو أخ الله واحتراماً لاسم الجلالة جعـله بعض المحدثين في تفسيراتهم أخ الملك غير انه من المحتمل أن اخيالك كان أخاً لأخيا وخلفه بالكهنوت .

يعمل بيننا لأنه ليس للرب مانع عن أن يخلص بالكثير او بالقليل فقال له حامل سلاحه اعمل كل مـا بقلبك تقدم هأنذا معك حسب قلبك فقال (يوناثان) هوذا نحن نعبر الى القوم ونظهر أنفسنا لهم فان قالوا لنا هكذا. دوموا حتى نصل اليكم نقف في مكاننا ولا نصعد اليه ولكن ان قالوا هكذا اصعدوا الينا نصعد ، لأن الرب قد دفعهم ليدنا وهذه العلامة لنا ، فاظهر أنفسهما لصف الفلسطينيين فقال الفلسطينيون هوذا العبرانيون خارجون من الثقوب التي اختبأوا فيها فأجاب رجال يوناثان وحامل سلاحه وقالوا اصعدوا الينا فنعلمكما شيئاً فقال يوناثان لحامل سلاحه اصعدوا ورائي لأن الرب قد دفعهم ليد اسرائيل ، فصعد يوناثان على يديه ورجليه حاملا سلاحه وراءه فسقطوا أمام يوناثان وكان حامل سلاحه يقتل وراءه ، وكانت الضربة الأولى التي ضربها يوناثان وحامل سلاحه نحو عشرين رجل في نحو نصف تلم فدان أرض [1] وكان ارتعاد في المحلة في الحقل وفي جميع الشعب الصف والخربون ارتعدوا هم ايضاً ورجفت الارض فكان ارتعاد عظيم) .

ومع كل ما ترسمه هذه الفقرات من الاصحاح الرابع عشر في صموئيل الأول [2] تطالعنا فقرات الاصحاح الثالث عشر من نفس السفر بما يناقض رواية الاصحاح الرابع عشر مما يدل على ان كاتبها ليس واحداً بل ان كاتب الاصحاح الرابع عشر لم يضطلع على ما في الاصحاح الثالث عشر وهما في سفر واحد وان سجل الحوادث عند بني اسرائيل في هـذه الحقبة التي يحددها شراح العهد القديم بسنة ١٠٨٧ ق.م لم يكن دقيقاً ولا منضبطاً حتى جاءت روايته بهذا الشكل المتهافت .

يقول الاصحاح الثالث عشر من صموئيل الاول : (كان شاول ابن سنة

---

(١) (نصف تلم فدان أرض) : (أي نصف فدان والمعنى أن المكان كان ضيقاً جداً نقلا عن السنن القويم في تفسير أسفار العهد القديم الجزء الرابع صفحة ٦٥) .

(٢) (سفر صموئيل الاول) الاصحاح الرابع عشر فقرات : ١٠ — ١٥ .

في ملكه وملك سنتين في اسرائيل واختار شاول لنفسه ثلاثة آلاف من اسرائيل فكان الفان مع شاول في مخماس وفي جبل بيت ايل والفاً كان مع يوناثان في جبعة بنيامين وأمـــا بقية الشعب فأرسلهم كل واحد إلى خيمته وضرب يوناثان نصب الفلسطينيين الذي في جبـــع [1] فسمع الفلسطينيون وضرب شاول بالبوق في جميع الارض قائلاً ليسمع العبرانيون فسمع جميع اسرائيل قولاً قد ضرب شاول نصب الفلسطينيين وأيضاً قد أنتن اسرائيل لدى الفلسطينيين فاجتمع الشعب وراء شاول الى الجلجال وتجمع الفلسطينيون لمحاربة اسرائيل : ثلاثون الف مركبة وستة آلاف فارس وشعب كالرمل الذي على شاطىء البحر في الكثرة وصعدوا ونزلوا في مخماس شرقي بيت (آون)[2] ولما رأى رجال اسرائيل انهم في ضنك لأن الشعب تضايق اختبأ الشعب في المغاير والغياض والصخور والصروح والآبار وبعض العبرانيين عبروا الأردن الى أرض جاد وجلعاد وكان شاول بعد في الجلجال وكل الشعب ارتعد وراءه فمكث سبعة أيام حسب قول صموئيل ولم يأت صموئيل الى الجلجال والشعب تفرق عنه فقال شاول : قدموا الى المحرقة وذبائح السلامة فاصعد المحرقة وكان لمـــا انتهى من اصعاد المحرقة إذا صموئيل مقبل فخرج شاول للقائه لمباركته فقال صموئيل ماذا فعلت فقال شاول: لأني رأيت ان الشعب قد تفرق عني ، وأنت لم تأت في أيام الميعاد ، والفلسطينيون متجمعون في مخماس ، فقلت الآن ينزل الفلسطينيون إليّ الى الجلجال ، ولم اتضرع الى وجه الرب فتجلدت وأصعدت المحرقة ، فقال صموئيل لشاول : قد تحمقت لم تحفظ وصية الرب إلهك التي أمرك بها لأنه الآن كان الرب قد ثبت مملكتك على اسرائيل الى الأبد وأما الآن فمملكتك لا تقوم قد انتخب الرب لنفسه رجلاً حسب قلبه وأمره الرب أن يترأس على شعبه لانك لم تحفظ ما أمرك

(١) (جبع) يقول عنها (السنن القويم) لم تزل باسمهـا إلى اليوم وبينها وبين مخماس واد عمقه نحو ٨٠٠ قدم وجانباه منحدران .

(٢) (بيت آون) بيت الأصنام والشر كان بيت ايل ومخماس .

به الرب وقام صموئيل وصعد من الجلجال الى جبعة بنيامين وعـــد شاول الشعب الموجود معه نحو ستمائة رجـــل وكان شاول ويوناثان ابنه والشعب الموجود معهما مقيمين في جبع بنيامين والفلسطينيون نزلوا في مخماس فخرج المخربون من محلة الفلسطينيين في ثلاث فرق الفرقة الواحدة توجهت في طريق عفرة الى أرض شوعال، والفرقة الأخرى توجهت في طريق بيت حوزون، والفرقة الأخرى توجهت في طريق التخم المشرف على وادي صبوعيم نحو البرية ولم يوجد صانع في كل أرض اسرائيل لأن الفلسطينيين قالوا لئلا يعمل العبرانيون سيفاً أو رمحاً بل كان ينزل كل اسرائيل الى الفلسطينيين لكي يحدد كل واحد سكته ومنجله وفأسه ومعوله عندما كلت حدود السكك والمناجل والمثلثات الأسنان والفؤوس ولترويس المتاسيس وكان في يوم الحرب انه لم يوجد سيف ولا رمح بيد جميع الشعب الذي مع شاول ومع يوناثان)[1].

واضح تمامـــاً الاختلاف في المناخ وفي تناول الحوادث بين منهج وخبر الاصحاحين الثالث عشر والرابع عشر من سفر صموئيل الاول ففي حين يقص علينا الاصحاح الثالث عشر انــه في يوم الحرب لم يوجد سيف ولا رمح بيد جميع الشعب الذي مع شاول ومع يوناثان وفي حين تفصح الفقرة رقم ١١ من الاصحاح الرابع عشر عمـــا ينبىء عن ضعف .. وحصار العبرانيين من الفلسطينيين [2] فان معظم فقرات الاصحاح الرابع عشر تمتزج بهـذا الخيـال المغرق في متاهات القصص الاسرائيلي في العهد القديم عن حروب الاسرائيليين وانتصاراتهم على أعدائهم . وقبل ان نترك التعريف بسفر صموئيل والتعرف على اسهابه في تصوير شاول كواحد من أبطال اسرائيل فإنا نود أن نشير الى ما جاء دون قصد من مؤلفي الجزء الثاني من (صموئيل) والتي تعالج احداث

---

(١) (سفر صموئيل الاول) الاصحاح الثالث عشر فقرات : ١ – ٢٢ .

(٢) نص عبـارة الاصحاح الرابع عشر في سفر صموئيل تقول (فقـال الفلسطينيون هوذا العبرانيون خارجون من الثقوب التي اختبأوا فيها) .

ما بعد شاول الى حادثة وردت في الاصحاح الحادي والعشرين من صموئيل الثاني تقص خبر جوع الناس من بني اسرائيل في ايام داود ولفترة ثلاث سنين فسأل داود ربه عن سبب البلاء فقال له : إن هذا من أجل شاول وبيته بيت الدماء لأنه قتل الجبعونيين بعد أن حلف لهم بنو اسرائيل ويهوذا فتك بهم شاول ونكث عهده معهم واستضعفهم وأوقع فيهم مذبحة عظيمة فاستحق بنو اسرائيل غضب ربهم . وهكذا تبرز روح التحلل من العهود في بني اسرائيل ضد غيرهم [1] .

---

(١) تقول فقرات من الاصحاح الحادي والعشرين من صموئيل الثاني : (وكان جوع في أيام داود ثلاث سنين سنة بعد سنة فطلب داود وجه الرب فقال الرب هو لأجل شاول ولأجل بيت الدماء لانه قتل الجبعونيين فدعا الملك وقال والجبعونيون ليسوا من بني اسرائيل بل من بقايا الاموريين وقد حلف لهم بنو اسرائيل وطلب شاول أن يقتلهم لأجل غيرته على بني اسرائيل ويهوذا ، فقال داود للجبعونيين ماذا أفعل لكم وبماذا أكفر فتباركوا نصيب الرب فقال له الجبعونيون ليس لنا فضة ولا ذهب عند شاول ولا عند بيته وليس لنا أن نميت أحداً في اسرائيل ، فقال مهما قلتم أفعل لكم ...)

سفر الملوك

يقوم هـــذا السفر أيضاً مثل سفر صموئيل على جزئين : الملوك الأول والملوك الثاني والجزء الأول يحتوي على اثنين وعشرين اصحاحاً والجزء الثاني يحتوي على خمسة وعشرين اصحاحاً .

يتناول الجزء الاول من سفر الملوك الاول ظهور نجم النبي سليمان واخبار مملكته وبنائه الهيكل الذي يتحدث عنه العهد القديم كما يسهب هذا السفر في الحديث عن مظـاهر البذخ والاسراف الذي أحاط بـه سليمان نفسه فيما نسب اليه السفر كما يتحدّث هذا السفر في استفاضة ابتداء من الإصحاح الثاني عشر عن تصدع الكيان السياسي لمملكة سليمان بعد موته وانقسامهـــا إلى مملكتين : مملكة يهوذا في الجنوب وعاصمتها اورشليم[1] ويجلس على عرشهـا رحب عام بن سليمان ومملكة اسرائيل في الشمال وعاصمتها السامرة في منطقة (نابلس اليوم) وقد جلس على العرش فيها ضابط يهودي متمرد على سليمان[2] كان قد هرب منه الى مصر اسمه (يربعام) .

---

(١) (صابر طعيمه) : (التاريخ اليهودي العام) الجزء الأول الطبعة الأولى صفحة ٢٤٦ بيروت عام ١٩٧٥ .

(٢) (حسن ظاظا) : (الفكر الديني الاسرائيلي اطواره ومذاهبه) معهـــد البحوث والدراسات العربية عام ١٩٧١ صفحة ٥٠ .

ويفيد الاصحاح الثالث من سفر الملوك الأول ان سليمان صاهر فرعون مصر وأتى بزوجته إلى مدينة داوود وأقام فيها إلى ان أتم بناء بيته وبيت الرب في اورشليم .

هـذا ويرجح (هنري بريستيد) في كتابه (تاريخ مصر من أقدم العصور) في صفحة ٣٥٧ أن يكون الفرعون الذي صاهره النبي سليمان هو (شيشنق) اول ملوك الاسرة الثانية والعشرين وان هذا الفرعون صعد إلى (جازر) وأخذها وأحرقها بالنار وقتل اهلها ووهبها لسليمان مهرا لابنته ومعنى هـذا ان مصر في عهد الاسرة الثانية والعشرين تكون قد استردت قوتها ومارست سيادتها على فلسطين في زمن سليمان[١] .

ويطالعنا الاصحاح السابع من سفر الملوك الأول بأخبار قصور سليمان وما تعلق حولها في التراث الاسرائيلي من أقاصيص وروايات شابها الغلو والخيال في معظم حالات وصفها وقد احتوى الاصحاح السابع على وصف للهيكل والقصر ممزوجاً بكثير من الخيال والمبالغة وخاصة في مقادير الذهب التي وضعت في الهيكل ، فالمحراب الذي يمتد الى عشرين ذراعاً في عرض عشرين ذراعاً في سمك عشرين ذراعاً مغشّى بالذهب والمذبح القائم امامه مغشى بالذهب وداخل البيت مغشى بالذهب والسلاسل الممتدة امام المحراب من الذهب وجميع البيت بتمامه مغشّى بالذهب وتماثيل الملائكة المسماة : (بالكروبين) مغشاة بالذهب . مع ملحوظة ان سمك كل منها عشر اذرع وكل جناح من أجنحتها خمس اذرع وارض البيت داخلاً وخارجاً مغشاة بالذهب ؟ . والمصراعان .. مغشيان بالذهب وجميع الأدوات من مذبح ومائدة قدس الأقداس ومنائره وسرجه وازهاره ومقاطبه وطسوته ومقاريضه وجاماته وصحونه وحجاموه ومفاصل مصاريعه كل ذلك من ذهب .

---

(١) (زكريا الحجاوي) : في (موسوعة التراث الشعبي) من الجزء الاول عن حكاية اليهود الصادر عام ١٩٦٨ القاهرة ، صفحة ١٤٩ .

تقول فقرات الإصحـــاح السابـع من الملوك الاول ٤٨ – ٥١ (وعمل سليمان جميع آنية بيت الرب المذبح من ذبح والمائدة التي عليها خبز الوجود من ذهب والمنائر خمساً عن اليمين وخمساً عن اليسار امام المحراب من ذهب خالص والأزهار والسرج .. والملاقط من ذهب والطقوس والمقاص والمناضح والصحون والمجامر من ذهب خالص والوصـل لمصاريـع البيت الداخلي أي لقدس الأقداس ولأبواب البيت اي الهيكل من ذهب) .

وسفر الملوك هو الذي ورد بين سياق اصحاحاته اخبار المملكة العربية (بلقيس) ملكة سبأ فقد جاء في الاصحاح العاشر ان ملكة سبـأ سمعت بخبر سليمان فأتت لتمنحه بموكب عظيم وحملت معها من بلادهـا هدايا وخير كثير وأصبحت بينهما علاقات جوار طيبة .

يقول الاصحاح العاشر من الملوك الاول : (وسمعت ملكة بلقيس بخبر سليمان لمجد الرب فأتت لتمتحنه بمسائل فأتت الى اورشليم بموكب عظيم جداً بجمال حاملة اطيـــاب وذهباً كثيراً جداً وحجارة كريمة واتت إلى سليمان وكلمته بكل ما كان يقلبها وأخبرها سليمان بكل كلامها لم يكن امراً مخفياً على الملك لم يخبرها به فلما رأت ملكة سبأ كل حكمة سليمان ، والبيت الذي بناه ، وطعام مائدته ومجلس عبيده وموقف خدامه وملابسهم وسقـــاته ومحرقاته التي كان يصعدها في بيت الرب لم يبق فيها روح بعد فقالت للملك صحيحاً كان الخبر الذي سمعتـه في ارضي عن امورك وحكمتك ولم اصدق الاخبار حتى جئت وأبصرت عينـاي فهوذا النصف لم أخبر : زدت حكمة وصلاحاً على الخير الذي سمعتـه ، طوبى لرجالك وطوبى لعبيـدك هؤلاء الواقفين أمامك دائمـاً السامعين حكمتك ليكن مباركاً الرب إلهـك الذي سر بك وجعلك على كرسي اسرائيل لان الرب أحب اسرائيل الى الابـد جعلك ملكاً لتجري حكماً وبراً ، واعطت الملك مائة وعشرين وزنته ذهب واطياب كثيرة جداً وحجارة كريمة لم يأت بعد مثل ذلك الطيب في الكثرة التي اعطته ملكة سبأ الملك سليمان) .

هذا ويطالعنا الاصحاح الحادي عشر من سفر الملوك بهذه الصورة الغريبة وهذا السلوك الغير الطبيعي ولا نظن ابداً ان نبي الله سليمان عليه السلام على ضوء ما اخبرت عنه الملكة بلقيس في الاصحاح العاشر من سفر الملوك الاول ومع استقامة فطرته فضلاً عن عصمة النبوة وانشغاله بها تساعده على الوقوع فيما نسب اليه الإصحاح الحادي عشر من سفر الملوك الأول في الفقرات الاولى يقول الاصحاح المذكور[1] (.. وأحب الملك سليمان نساءاً غريبة كثيرة مع بنت فرعون : موآبيات وعمونيات وأدوميات وصيدونيات وحثيات من الامم الذين قال عنهم الرب لبني اسرائيل لا تدخلون اليهم وهم لا يدخلون اليكم لانهم يميلون قلوبكم وراء آلهتهم فالتصق سليمان بهؤلاء بالمحبة وكانت له سبعمائة من النساء السيدات وثلاثمائة من السراري فأمالت نساؤه قلبه ، وكان في زمان شيخوخته سليمان ان نساءه أملن قلبه وراء آلهة اخرى ولم يكن قلبه كاملاً مع الرب إلهه كقلب داوود ابيه فذهب سليمان وراء (عشتاروت) إلهة الصيدونيين (وملكوم) رجس العمونيين وعمل سليمان مرتفعه (لكموش) رجس الموآبيين على الجبل الذي اتجاه اورشليم (وللملوك) رجس بني عمون وهكذا فعل جميع نسائه الغريبات اللواتي كن يوقدن ويذبحن لآلهتهن فغضب الرب على سليمان لان قلبه مال عن الرب إله اسرائيل الذي تراءى له مرتين واوصاه في هذا الامر : أن لا يتبع آلهة اخرى فلم يحفظ ما اوصى به الرب .

ولسنا هنا في مقام التناول النقدي لما نأتي عليه من نماذج وأمثلة في التعريف بالاسفار لان لذلك مبحثاً آخر سنتناول فيه جوانب من الخلل التدويني والتباين الموضوعي في معطيات العهد القديم لكن هذه النماذج نوردها للتعريف ببعض موضوعات وقضايا ومحتويات اسفار العهد القديم ولعل في هذا الذي أشرنا إليه من سفري الملوك الاول والثاني ما يكفي للتعريف به ككتاب تناول حقبة مهمة من تاريخ بني اسرائيل .

---

(١) (سفر الملوك الاول) الاصحاح الحادي عشر فقرات ١ – ١٠ .

سفرا اخبار الايام الاول والثاني

هذا السفران يعتبران في العهدان القديم بمثابة سفر واحد وقد كانا كذلك بالفعل وفصل الأول عن الثاني في الترجمة السبعينية[1] . والدارس لهما يرى ان قسماً كبيراً من اخبارهما قد ورد في سفر صموئيل بجزئيه الاول والثاني ويحتوي الجزء الأول من هذا السفر المسمى بسفر اخبـار الايام الاول على تسعة وعشرين اصحاحاً بينما يتألف الثاني من ست وثلاثين اصحاحاً . تقص هذه الاصحاحات اخبار فرق اللاويين ووصايا داوود لابنه سليمان وكل مـا يتعلق بشأن بناء الهيكل والتجأ الكهنة واللاويين الى رحبعام بعد انقسام مملكة سليمان ، كذلك يتضمن اخبار مقاومة (عزيرا) الكاهن ومعه ثمانون من الكهنة (لعزيا) الملك حينما دخل الهيكل ليوقد على مذبح البخور ، كذلك يتضمن سفر اخبـار الأيام جداول الانساب من ايام آدم إلى داوود عليهما السلام ويتنـاول بالتفصيل سيرة رؤساء اللاويـين والوزراء ورؤساء فرق الكهنة .

وكما قلنا في التعريف بهذا السفر وهو انه يتضمن الكثير مما جاء في سفر صموئيل فانا نرى الاصحـاح الرابع من اخبـار الايام الاول يتضمن نصوصاً عن التعاليم الروحية قد وردت بمضمونها وأحياناً بنصها في صموئيـل كما هو

---

(١) السنن القويم في تفسير اسفار العهد القديم) الجزء الخامس ، صفحة ٤ .

الحال في صلاة (بعيبص) : (ليتك تباركني وتوسع تخومي وتكون يدك معي وتحفظني من الشر حتى لا يتبعني) [1] كذلك يتناول اخبار انتصار بني (رأوبين) لانهم صرخوا إلى الله فاستجاب لهم .

والاصحاحات التسعة الأولى من أخبار الايام الاول تحتوي على جدول النسب من آدم ، وهي سلسلة طويلة تحتوي على اسماء أماكن وعشائر وأعلام ومعظمها اسماء عبرية دونت في العهد القديم وكشف عن دلالتها (قاموس الكتاب المقدس) المعجم العصري الذي بذل مجموعة من علماء اللاهوت جهداً ممتازاً في اخراجه للتعريف بمحتويات .. الكتاب المقدس بعهديه القديم والجديد :

وبعد ان ينتهي سفر الايام في الاصحاحات التسع الاولى من الايام الاول نرى الاصحاح العاشر يدخل في تناول تفصيلي لتاريخ جزء مهم من شعب اسرائيل وهم الذين كان مقر مملكتهم وعبادتهم في اورشليم فيتناول موت شاول الذي كان مقدمة لتاريخ داوود ومن جاء بعده من ملوك يهوذا . وما جاء في هذا الاصحاح من سفر اخبار الايام الاول مضمونه قد جاء في آخر اصحاح من سفر صموئيل الاول ، بل ان الدارس في موضوعية لمنهج العهد القديم التدويني يلحظ ذلك التكرار الذي لا معنى له ولا دلاله ، بل انه في منهج الدراسة النقدية نستطيع القول بأن كتّاب سفر صموئيل بجزئيه لم يطلعوا على مدونات : اخبار الايام بجزئيه ، وكذلك كتاب اخبار الايام لم يتح لهم أن يطلعوا على ما كتبه كتاب صموئيل او ان مجموعة نقلت عن الاخرى بغير تبصر او اعمال للعقل فضلاً عن تمحيص الحقائق .

يقول الاصحاح العاشر من اخبار الايام الاول ومن الفقرات ١ — ١٣ : (وحارب الفلسطينيون اسرائيل من امام الفلسطينيين وسقطوا قتلى في جبل

---

(١) (سفر اخبار الأيام الأول) الاصحاح الرابع فقرة ١٠ .

جلبوع وشد الفلسطينيون وراء شاول ووراء بنيـــه وضرب الفلسطينيون يوناثان وآبيناداب وملكيشوع ابنـــاء شاول ، وشدت الحرب على شاول فأصابته رماة القسيّ فانجرح من الرماة ، فقال شاول لحامل سلاحـه استل سيفك واطعني به لئلا يأتي هؤلاء الغلف ويقبحوني فلم يشأ حامل سلاحـه لأنه خاف جداً فأخذ شاول السيف وسقط عليه فلما رأى حامل سلاحه انه قد مات شاول سقط هو ايضاً على السيف ومات ، فمات شاول وبنوه الثلاثة وكل بيته ماتوا معاً ولما رأى جميع رجال اسرائيل الذين في الوادي انهم قد هربوا وان شاول وبنيه قـــد ماتوا تركوا مدنهم وهربوا فأتى الفلسطينيون وسكنوا بها وفي الغد لما جاء الفلسطينيون ليعروا القتلى وجدوا شاول وبنيه ساقطين في جبل جلبوع ، فعروه وأخذوا رأسه وسلاحه وارسلوا الى ارض الفلسطينيين في ناحية لاجل تبشير أصنامهم والشعب ووضعوا سلاحه في بيت آلهتهم وسمروا في بيت (دجوان) ولمـا سمع كل يابيش – سكان – جلعاد بكل ما فعل الفلسطينيون بشاول قام كل ذي بأس وأخـــذ جثة شاول وجثث بنيه وجاؤوا بها الى يابيش ودفنوا عظامهم تحت البطنـه في يابيش وصاموا سبعة أيام فمات شاول بخيانته التي بها خان الرب من أجل كلام الرب الذي لم يحفظه وأيضاً لأجل طلبـه إلى الجان للسؤال ، ولم يسأل من الرب فأماته وحول المملكة إلى داوود بن يسى) .

هذا هو نص الاصحاح العاشر من سفر اخبار الأيام كما انتهى الينـــا في الترجمة العربية التي بين ايدينا أما نص الاصحاح الحادي والثلاثون من صموئيل الأول فقد جاء هو الآخر عن نفس الموقعة والحادث على الوجه الآتي ودون أدنى تعديل وبين تدوين السفرين فترة زمنية لا بأس بهـــا : (وحارب الفلسطينيون اسرائيل فهرب رجال اسرائيل من أمام الفلسطينيين وسقطوا قتلى في جبـــل جلبوع فشد الفلسطينيون وراء شاول وبنيـــه وضرب الفلسطينيون ناثان وأبيناداب وملكيشوع ابناء شاول واشتدت الحرب على

شاول فأصابه الرماة رجال القسي فانجرح جداً من الرماة فقال شاول لحامل سلاحه استل سيفك وأطعني به لئلا يأتي هؤلاء الغلف ويطعنوني ويقبحوني ، فلم يشأ حامل سلاحه لأنه خاف جداً فأخذ شاول السيف وسقط عليه ولما رأى حامل سلاحه انه قد مات شاول سقط هو ايضاً على سيفه ومات معه فمات شاول وبنوه الثلاثة وحامل سلاحه وجميع رجاله في ذلك اليوم معاً ، ولما رأى رجال اسرائيـــل الذين في عبر الوادي والذين في عبر الاردن ان رجال اسرائيل قد هربوا وان شاول وبنيه قد ماتوا تركوا المدن وهربوا فأتى الفلسطينيون وسكنوا بها وفي الغد لما جاء الفلسطينيون ليعروا القتلى وجدوا شاول وبنيه الثلاثة ساقطين في جبل جلبوع فقطعوا رأسه ونزعوا سلاحــه وارسلوا الى ارض الفلسطينيين في كل جهة لأجل التبشير في بيت اصنامهم وفي الشعب ووضعوا سلاحه في بيت (عشتاروت) وسمروا جسده على سور (بيت شان) ولما سمع سكان بيت يابيش جلعاد بما فعل الفلسطينيون بشاول قام كل ذي بأس وساروا الليــل كله واخذوا جسد يابيش واحرقوها هناك)[1] .

أعتقد انه بعد هذه المقابلة بين هذين النصين وبينهما في التقدير اليهودي فترة زمنية لا تقل عن سبعمائة عام على الأقل ما يسوغ القول بأن كتاب أسفار العهد القديم كانوا من الكثرة بحيث لم يتح لهم أن يتحروا الدقة فيما دونوا ان لم يطلع اللاحقون على ما كتبه السابقون او ان ينسبوا ما نقلوه الى اصحابه في دقة وأمانة ، وإذا علمنا ان شراح العهد القديم[2] يؤرخون لسفر صموئيل الأول بان ولادته كانت في سنة ١١٤٩ ق. م وان دعوته كانت في ١١٣٧ ق. م وان تعيين شاول كان عام ١٠٧٩ ق. م ومسح داوود ملكاً عام ١٠٦٥ ق.م وموت صموئيل كان عام ١٠٥٩ ق. م ويؤرخون لسفر اخبار الايام الاول

(١) (سفر صموئيل الاول) الاصحاح الحادي والثلاثون فقرات ١ — ١٢ .

(٢) (السنن القويم) في تفسير أسفار العهد القديم الجزء الرابع صفحة ٤ .

والثاني بأن كتابتهما كانت ما بين ٤٥٠ ، ٤٣٥ ق. م[١] وسواء أكان كاتبهما (عزرا) او كاتب مجهول من اللاويين كما يميل الشراح .. المحدثون[٢] فان فترة تدوين هذا السفر وهي الخمسة عشر عاماً على الأقل كانت بينهما وبين كتابة صموئيل وأحداثه ، ثنتان وسبعمائة سنة على الاقل اذا ما تصورنا ان بدء كتابة صموئيل اقترن بتاريخ دعوته في سنة ١١٣٧ ق. م وان كتابة سفر الأيام كان في نهاية ٤٣٥ ق . م لادركنا ان طول الزمن الذي استغرقه تدوين وتسجيل اسفار العهد القديم لم يتح للأجيال اللاحقة ان تطلع على ما دونته الاجيال السابقة من الكتاب فضلاً عن الظروف التاريخية التي مر بها المجتمع الاسرائيلي ومعاناته الطويلة ومن هنا ترى ذلك الخلل الواضح في معطيات الأسفار من حيث المنهاجية والموضوع .

هذا وقد أفاض سفر اخبار الايام الثاني في الحديث عن سليمان وتشدده في أمر المملكة وقيادته لكل الالوف ورؤساء القضاة ورؤساء الآباء وتوجيهه من المرتفعات التي في (جبعون) الى (اورشليم) من أمام خيمة الاجتماع ، كما أفاض السفر في الاصحاحات من الرابع إلى الثالث في الحديث عن كل ما يتعلق بخدمة الهيكل والاعياد والكهنة ، ويطالعنا الاصحاح التاسع عن ملكة سبأ وزيارتها لاورشليم في موكب عظيم جداً واعجابها بحكمة سليمان وتدعى الفقرة ٢٥ ، ٢٦ من هذا الاصحاح في غير ما مستند انه كان لسليمان أربعة آلاف مزود خيل ومركبات واثني عشر الف فارس فجعلها في مدن المركبات ومع الملك في اورشليم وكان متسلطاً على جميع الملوك من النهر الى ارض .. الفلسطينيين والى تخوم مصر ، كما يتناول الاصحاح الثاني عشر أخبار مملكة رحبعام ومجيء اشعيا النبي ورؤساء يهوذا الى اورشليم وتذللهم أمام رحبعام باثر مما صنعه جنده خدمة (لشيشنق) ملك مصر الذي تقول الفقرة التاسعة عنه من هذا الاصحاح :

---

(١) (السنن القويم) في تفسير أسفار العهد القديم الجزء الرابع صفحة ٤ .

(٢) (السنن القويم) في تفسير اسفار العهد القديم الجزء الرابع صفحة ٥ .

(فصعد شيشنق ملك مصر على اورشليم وأخذ خزائن بيت الرب وخزائن بيت الملك أخذ الجميع وأخذ اتراس الذهب التي عملها سليمان) . ويذكر (هنري بريستيد) في كتابه (تاريخ مصر من أقدم العصور) صفحات ٣٥٧ – ٣٦٢ ان شيشنق اول ملوك الاسرة الثانية والعشرين المصرية هو الذي حرض يربعام الذي كان لاجئاً عنده بسبب الصراع الذي كان بينه وبين رحب عام ، ولقد غزى هذا الملك المصري فلسطين فعلاً في عهد رحب عام ويربعام وصعد على اورشليم وبسط سيطرته على دولة يهوذا ثم دولة اسرائيل ، وقد امتد سلطانه إلى الجليل ، وأيد ذلك .. النقوش التي امر بنقشها شيشنق في صدد غزوته لفلسطين على الصور القبلي من هيكل الكرنك [١]. وفيها صورة لمائة وستة وخمسين رجلاً من ارض كنعان كل منهم يرمز الى مدينة من المدن التي استولى عليها وقد كتب تحت كل رجل اسم المدينة التي جيء به منها ومن الأسماء التي اوردها عالم المصريات هنري بريستيد في كتابه تاريخ مصر من أقدم العصور) : بجذو ، وراحوب ، وحفرايم ، وبيت شين ، وايالونا وجيبون ، وسكو ، وبيت انون ، وشيحان وهي بلاد منتشرة في انحاء فلسطين الشرقية والجنوبية والشمالية ، وكتاب الاصحاح الثاني عشر من سفر اخبار الأيام الاول قد وقعت في ايديهم هذه المعلومات التاريخية فدونها ولم يستطيعوا اغفالها .

يقول الاصحاح الثاني عشر :

ولما تثبتت مملكة رحب عام وتشددت ترك شريعة الرب وكل اسرائيل معه في السنة الخامسة للملك رحب عام صعد شيشنق ملك مصر على اورشليم لانهم خانوا الرب ومائتين مركبة وستين الف فارس... وأخذ المدن الحصينة التي ليهوذا وأتى لاورشليم [٢] .

---

(١) تاريخ مصر من أقدم العصور تأليف هنري بريستد صفحات ٣٥٧ – ٣٦٢ .

(٢) (سفر أخبار الأيام الأول) الاصحاح الثاني عشر فقرات ١ – ٤ .

هذا وقد تناثرت بين اصحاحات الجزء الأول والثاني من سفر اخبار الايام .. تواريخ ملوك يهوذا ومقتطفات عن سيرتهم والحوادث التي وقعت في أيامهم . وقد حكم رحبعام ابن سليمان بناء على معطيات سفر الملوك الأول والثاني وكذلك سفري اخبار الأيام الاول والثاني مدة سبعة عشر عاماً ، وحكم ابيام ابن رحبعام ثلاث سنوات ، وحكم أسّى ابن ابيام واحداً وأربعين عاماً ، وحكم يهوا شافاط ابن أسى خمساً وعشرين عاماً وحكم يهورام ابن يهوا شافاط ثمانية اعوام وبين من حكم يا بين ابن يهورام الذي مات مقتولاً حكم عاماً . وعتيا ام اخذيا التي ماتت مقتولة هي الاخرى حكمت ست سنوات ويواش ابن اخذيا الذي مات قتيلاً حكم اربعين عاماً كما حكم اماصيا ابن يواش الذي مات قتيلاً تسعاً وعشرين عاماً وحكم عزيا ابن اماصيا اثنتين وخمسين عاماً وحكم يوثام ابن عزيا ستة عشر عاماً وحكم حزقيا ابن احاز تسعاً وعشرين عاماً ، ومنسى ابن حزقيا خمساً وخمسين عاماً وحكم امون ابن منسى خمساً وخمسين عاماً وحكم يوشيا ابن امون الذي مات قتيلاً واحداً وثلاثين عاماً وحكم يهوا احازبن يوشيا ثلاثة اشهر وحكم يواقيم ابن يوشيا احد عشر عاماً وحكم يهواكين ابن يواقيم ثلاثة اشهر أما آخر حكام دولة يهوذا فهو صدقيا ابن يواقيم الذي حكم عام ٥٨٦ ق. م ومات مقتولاً على يد الملك الكلداني البابلي (نبوخذ نصر) الذي نهب اورشليم وسبى اهلها وأقام عليها والياً من قبله .

كما يتناول سفر اخبار الايام الاول والثاني تاريخ وسيرة ملوك دولة اسرائيل وكانوا هم الآخرون تسعة عشر ملكاً ، كانوا في ظل المتغيرات والانقلابات والاضطرابات يضيعون واحداً بعد الآخر .

وقد بدأت سلسلة ملوك دولة اسرائيل التسعة عشر بيربعام ابن ناباط الافرائيمي الذي حكم اثنتان وعشرين سنة وقد انتهت بـ (فقح ابن رمليا) الذي حكم عشرين عاماً قتل على اثر الثورة التي قادها (هوشع ابن ايله)

الذي حكم اسرائيل حتى جاء الملك الاشوري (سرجون الثاني) ونفاه مع عدد كبير من اهل مملكته وجعل المملكة الاسرائيلية ولاية اشوريه .

وقد أرسل الملك سرجون ثم حفيده (أسرحدون) بعض جماعات من العراق فسكنوا مكان المنفيين وهم الذين عرفوا بالسامريين على الارجح نسبة للسامرة التي كانت اسم عاصمة الدولة التي سكنوا في ارضها ، والغالب انها تسمية اسرائيلية للتمييز بينهم وبين بني اسرائيل لانهم هم الآخرون اعتنقوا الشريعة الموسوية ولكنهم كانوا على خلاف .. ونزاع مع بني اسرائيل ومن هنا يرجح الباحثون في التاريخ الاسرائيلي ان سليمان مات حوالي ٩٣٥ ق.م فقد كان قيام الدولتين على اثر موته .

هذا ويفيض سفر أخبار الأيام الاول والثاني بالكثير من الاخبار عن دولتي اسرائيل ويهوذا وأحوالهما الداخلية والخارجية ولا يعثر الباحث فيهما إلا على حقب قصيرة هي التي كانت فيها السيادة تامة لبني اسرائيل ويهوذا على غيرهم من الشعوب التي كانت تسكن الارض العربية في فلسطين ، ويبرز الاصحاح الثالث عشر من سفر الاخبار الايام الثاني حالة العداء والقطيعة والحرب التي كانت في زمن (ابيا ابن رحب عام) وبين يربعام وغضب الرب على يربعام بسبب المعاصي والانحرافات فدارت الدائرة عليه ؟!

يقول الاصحاح الثالث عشر : (وكانت حرب بين ابيا ويربعام وابتدأ أبيا في حرب بجيش من جبابرة القتال اربعمائة الف رجل مختار ويربعام اصطف لمحاربته بثمانمائة الف رجل مختار جبابرة بأس) [1] .

أما الاصحاح السادس عشر فينقلنا الى مرحلة اخرى من الصراع في بيت اسرائيل وعلى دائرة اوسع . ذلك انه كان بين أسا ابن ابيام وبين (بعشا) الذي قتل ناداب ابن يربعام واستولى على عرش اسرائيل مواجهات صعد

---

(١) (سفر أخبار الايام الثاني) الاصحاح الثالث عشر فقرة ٣ .

فيها (بعشا) على يهوذا وبنى الرامة لكي لا يدع أحداً يخرج او يدخل إلى (اسا) ملك يهوذا لكن (أسا) استطاع أن يوقف هـذا الحصار عندمـا أرسل الى (بنهدد) ملك دمشق الآرامي وطلب منه نقض العهد الذي بينه وبين (بعشا) واستجاب (بنهدد) فسير جيوشه على اسرائيـل وضرب مدن عيون (ودان) (وكناروس) مـع ارض نفتالي فكف بعشا عـن حركته وارسل أسا من هدم الرّامة وحصونها [1] . يقول الإصحاح السادس عشر (في السنة السادسة والثلاثين للملك آسا صعد بعشا ملك اسرائيل على يهوذا وبنى الرامـة لكي لا يدع أحداً يدخـل أو يخرج إلى آسا ملك يهوذا واخرج آسا ذهبـاً وفضـة من خزائن بيت الرب وبيت الملك وأرسل إلى (بنهدد) ملك آرام الساكن في دمشق قائلاً : ان بيني وبينـك وبين أبي وأبيك عهداً هوذا قـد ارسلت لك فضة وذهباً فتعال انقض عهـدك مع (بعشا) ملك اسرائيل فيصعد على مسمع (بنهدد) الملك (آسا) وارسل رؤساء الجيـوش التي له على مدن اسرائيل فضربوا عيون (ودان) وأبوا المياه وجميع مخازن مدن نفتالي فلما سمع بعشا كف عن بناء الرامة وترك عمله فأخذ آسا الملك كل يهوذا فحملوا حجارة الرامة وأخشابها التي بنى بهـا بعشا وبنى بها جبع والمصفاة .

هذه أهم القضايا والسير التي احتواها سفر أخبار الأيام بعهديـه الأول والثاني وليس فيهما مـا يعثر عليه الباحث من أثر لقيم النبـوة او الرسالة الإلهية توجه العمل وتضبط الخطى في حياة بني اسرائيل .

---

(١) (سفر أخبار الايام الثاني) الاصحاح الثالث عشر فقرات ١ – ٦ .

سفر عزرا

يتألف هذا السفر من عشر اصحاحات فقط ، ومؤلفه كاتب وكاهن ماهر في العقائد الاسرائيلية [1] . وهو : عزرا بن سرايا من نسل هارون ، وكان (عزرا) من بين المسبيين في بابل لكنه استطاع أن يرجع الى فلسطين، وقد قدمت له تبرعات كثيرة من الذهب والفضة لخدمة وبناء بيت الرب الذي يتحدث عنه السفر ، وهذا السفر يعتبر عند شراح العهد القديم سفراً تاريخياً يلي سفر أخبار الايام الثاني ويكاد أن يكون الاصحاحان الأخيران من سفر الأخبار الثاني هما نفس الكلمات الافتتاحية لسفر عزرا .

وقصة هذا السفر تتمثل في انه لما سكن اليهود المسبيون في مستعمرات مملكة بابل أتيح لهم أن يبنوا بيوتاً وأن يغرسوا أشجاراً وأن يقتنوا عبيداً واماء ، وبعضهم جمع مالاً وفيراً ، ولم يخضع بعضهم لملك بابل فتعرضوا لمشقة وقصاص [2] .

وفي زمان السبي كان طبيعياً أن توقف خدمة العبادة عند بني اسرائيل ، فكان بيت أورشليم خرباً وأرض بابل التي يسكنونها تعتبر عندهم نجسة كما

---

(١) (مفاتيح كنوز الاسفار الالهية) المجلد الاول مق بهنام سنة ١٩٦٧ الطبعة الثانية مكتبة الاخوة بجزيرة بدران القاهرة صفحة ١٦١ .

(٢) (السنن القويم) في تفسير اسفار العهد القديم وليم مارش الجزء الخامس ص ٨٠ .

يقول سفر عاموس في الاصحاح السابع في فقرتي ١٦ ، ١٧ : (فالآن اسمع قول الرب : أنت تقول لا تتنبأ على اسرائيل ولا تتكلم على بيت اسحق لذلك هكذا قال الرب : امرأتك تزني في المدينة وبنوك وبناتك يسقطون بالسيف ، وأرضك تقسم بالحبل وأنت تموت في أرض نجسة ، واسرائيل تسبى سبياً عن أرضه) [١] .

ولكنهم كانوا بالرغم من ذلك يحافظون على يوم السبت ويمارسون الختان وبانتهاء السبي عقب سقوط مملكة بابل على يد (قورش) ملك الفرس الذي أطلق سراح اليهود نظر اليهود اليه باهتمام لأنهم كانوا راجين منه الخلاص ، وسفر عزرا يخبر عن رجائهم في قورش ويخبر عن الأعداء الذين كانوا حولهم ، وقد تميزت الأمور الدينية عند اليهود بعد السبي عما كان قبله : وهي انهم لم يعودوا الى العبادة الغريبة عنهم ، ولم يتقربوا كثيراً للآلهة الوثنية لانهم اعتقدوا ان العقاب الذي حل بهم كان بسبب خطيئة عبادة الاصنام كما ان الانبياء الذين تحدث عنهم هذا السفر بعد السبي كانوا قليلين ، ودائرة النبوة كانت أضيق مما كانت عليه قبل السبي ، وزاد اعتبار اليهود للناموس والفرائض الدينية فقد رأوا فيها أداة اتحاد شعبي لهم أكثر من الأمور السياسية ومشاكلها .

هذا وتنقسم موضوعات هذا السفر الى قسمين الاول : يخبر عن رجوع بعض اليهود من بابل بقيادة (زربابل) واقامة الخدمة الدينية في أورشليم وبناء الهيكل على الرغم من مقاومة السامريين .

القسم الثاني : يخبر عن رجوع الجماعة الثانية من المسبيين بقيادة (عزرا) وفصل النساء الاجنبيات عن رجالهن ، ومع ان الشائع ان كاتب السفر هو (عزرا) إلا أن بعض العلماء المحدثين من دارسي الكتاب المقدس يرون ان

---

(١) سفر عاموس الاصحاح السابع في فقرتي ١٦ ، ١٧ .

كاتب هذا السفر اسمه مجهول وان مجهولاً هو الذي كتب سفر نحميا وسفري أخبار الايام وجمع الاخبار من مصادر شتى ودافعهم الى هذا القول ما يرونه في هذه الأسفار من احاديث عن اصحابها تتناولهم بصيغة الغائب .

وشراح العهد القديم يجعلون لهـذا السفر اعتباراً خصوصياً لأن فيه خبر الرجوع من السبي واقامة أسوار أورشليم وبنـاء الهيكل وتجديد الخدمـة الدينية ، وهناك سفران غير قانونيين باسم : (اسدراس الاول) و (اسدراس الثاني) يطابقان سفر عزرا ويساعدان على فهمه ولم يذكرهما العهد القديم[1].

ومما يجدر ذكره في هذا المقام ان موضوع هذا السفر له أهميـة خاصة في نصوص اليهود من قديم الزمان ويرمز هذا الاسم الى قيمة روحية عندهم فقد اقترنت قضايا هذا السفر واسم مؤلفه (عزرا) بمرحلة بعد السبي ، ويغالي بعض المحدثين من شراح العهد القديم [2] ويقول : (ان عزرا كاهناً وكاتباً تميزت خدمته بالناحية الدينية بين الشعب لـمدة ثمانين عامـاً والمرجح ان هـذا الكاتب الماهر في شريعة الله والمؤرخ الدقيق هو الذي جمع أسفار العهد القديم) [3] .

ويروي الاصحاحان الاول والثاني من سفر عزرا خبراً يبيّن عن مدى مرونة الكاتب الاسرائيلي في أن يخلع الألقاب والصفات وان ينسب أشياء إلى من يحب أو من يكلف بنعته من النـــاس دون أدنى تحرج من أن تكون طبيعة الصفة المخلوعـــة على الموصوف تتنافى ودوره التاريخي او طبيعته الشخصية ، فمؤدى الخبر الذي يرويه الاصحاحان : ان قورش ملك الفرس أطلق نـداء في كل مملكته ، بأن الله أوصاه بأن يبني له بيتـاً في أورشليم

---

(١) (السنن القويم) في تفسير اسفار العهد القديم القس وليم مارش الجزء الخامس ص ٨٠ .

(٢) مفاتيح كنوز الاسفار الالهية المجلد الاول مق بهنام ص ١٦٢ .

(٣) مفاتيح كنوز الاسفار الالهية المجلد الاول مق بهنام ص ١٦٣ .

فحرك روح الله كثيرين من الشعب للصعود الى أورشليم حتى بلغ عدد الذين رجعوا إلى أورشليم خمسين الف تقريباً . وقد أخرج الملك آنية بيت الرب المقدسة وعددها ٥٤٠٠ وأعطاها إلى (زربابل) رئيس يهوذا .

ويحكي الاصحاح الرابع في سفر عزرا قصة طلب بعض الأجانب بأن تكون لهم شركة في بناء الهيكل مدعين أنهم يطلبون الله ويعبدونه ولكن الله كما يدعي الاصحاح يدعوهم أعداء ، إذ رفض (زربابل) وبقية الرؤساء قبول أية مساعدة منهم الأمر الذي أثار غضبهم ومقاومتهم لهم ولكن عددهم على ضوء مغالاة الاصحاح الثاني في ذكرهم فقد أحصاهم (٤٢٣٦٠) غير عبيدهم وامائهم الذين كان عددهم (٧٣٣٧) وغير المغنين والمغنيات كان كثيراً بحيث أصبح أعداؤهم كما يقول الاصحاح الرابع من سفر عزرا يقولون لزربابل ورؤساء الآباء المسبيين العائدين نريد أن نبني معكم لأنا نطلب إلهكم مثلكم ونذبح له من ايام (اسرحدون) الذي سيرنا الى هنا . ولا جدال في انه في الفترة التي تجاور فيها اليهود في مستعمرات بابل مسبيين تأثر بالديانة اليهودية غير اليهود بواسطة الكهنة اللاويين [١] .

ومن المعقول أن يكونوا قد طلبوا إلى (زربابل) وسائر رؤساء آباء اسرائيل أن يعاونوا اليهود العائدين من السبي في بناء البيت ، لكن زربابل والقيادات اليهودية معه رفضوا هذا العون من العناصر المتهودة وذلك بسبب العقدة التاريخية التي تحكم الجنس اليهودي والتي تجعله يرفض المشاركة مع غير جنسه حتى ولو كان يدين بنفس الدين فعقدة اصطفاء الجنس ونقائه في الاسباط والسلالات هي الدعوى التي تبرز كثيراً بين ثنايا وسياق العهد القديم [٢] .

هذا ومما يجدر ذكره ان بني اسرائيل عقب عودتهم من السبي واستعدادهم لمزاولة نشاطهم واستئناف حياتهم بأساليب المراوغة التي يتقنونها جعلت

---

(١) محمد عزة دروزة (تاريخ بني اسرائيل من اسفارهم) ص ٢٧٠ .

(٢) (جمال حمدان) : اليهود انثروبولوجيا سلسلة اقرأ القاهرة الطبعة الاولى .

شعوب البلدان التي عادوا اليها بعد السبي يتحركون نحوهم منزعجين، واستطاع سكان البلاد. الاصليين أن يمنعوهم من بناء الهيكل فترة من الزمان، وقد بذل سكان البلاد في ذلك مساعي كثيرة كما يقول الاصحاح الرابع من سفر (عزرا) الذي سجل الرسالة التي كتبها سكان البلاد يشكون اليهود العائدين من السبي الى الملك (ارتحششتا) والتي تقول : (عبيدك القوم الذين في عبر النهر إلى آخره ليعلم الملك ان اليهود الذين صعدوا من عندك الينا قد أتوا إلى أورشليم يبنون المدينة العاصية الردية وقد أكملوا أسوارها ورمموا أسسها — ليكن الآن معلوماً لدى الملك أنه إذا بنيت هذه المدينة وأكملت أسوارها لا يؤدون جزية ولا خراجاً ولا خفارة فأخير قصر الملك) . [1]

يقول القس (وليم مارش) في كتابه (السنن القويم في تفسير أسفار العهد القديم في الجزء الخامس عند شرح عبارة) : (عبيدك القوم الذين في عبر الاردن في عبر النهر أي إلى جهة الغرب من نهر الفرات لأن الجهات الأربع كانت ترى من عاصمة المملكة ، ونستنتج ان الرسالة كانت من كثيرين في كل جهات سوريا وجميعهم أبغضوا اليهود وخافوا تجديد قوتهم السياسية ونفوذهم ضد الملك . [2]

ويحدثنا الاصحاح التاسع من سفر (عزرا) بوضوح لا لبس فيه عن مستوى الانحدار الديني الذي وصل اليه بنو اسرائيل والهبوط الاخلاقي الذي وقعوا فيه بحيث أصبح لدى الشعوب التي تعاملت معهم أو تعرفهم المبرر القوي والدوافع الحقيقية لرفضهم أو مقاومتهم . ومع ان كتّاب الأسفار لم يكونوا فيما دوّنوا يستهدفون تسجيل الحقيقة التاريخية أو تقرير الخطيئة التي وقعت فيها أجيال اليهود لكن البراهين والأدلة التي يخرج بها الباحث من بين سياق

---

(١) (سفر عزرا) الاصحاح الرابع فقرات ١٢ — ١٤ .

(٢) (السنن القويم) في تفسير اسفار العهد القديم الجزء الخامس ص ٩١.

النص تصبح شاهد صدق على مفتريات العهد القديم والخلل التدويني الذي بين نصوصه .

تقول الفقرات الاولى من الاصحاح التاسع من سفر (عزرا) : (ولما كملت هذه الايام تقدم الى الرؤساء قائلين لم ينفصل شعب اسرائيل والكهنة واللاويون من شعوب الاراضي حسب رجساتهم من الكنعانيين والحثيين والفرونيين واليبوسيين ... والعمونيين والموآبيين والمصريين والاموريين لأنهم اتخذوا من بناتهم لأنفسهم ولبنيهم ، واختلط الزرع المقدس بشعوب الأراضي وكانت يد الرؤساء والولاة في هذه الخيانة اولاً ، فلما سمعت بهذا الأمر مزقت ثيابي وردائي ونتفت شعر رأسي وذقني وجلست متحيراً ، فاجتمع الى كل من ارتعد من كلامي إله اسرائيل من أجل خيانة المسبيين ، وأنا جلست متحيراً الى تقدمة المساء ، وعند تقدمة المساء قمت من تذللي وفي ثيابي وردائي الممزقة جثوت على ركبتي وبسطت يدي الى الرب إلهي وقلت : اللهم اني أخجل وأخزى من ان ارفع يا إلهي وجهي نحوك لأن ذنوبنا قد كثرت فوق ... رؤوسنا .. ، وآثامنا قد تعاظمت السماء منذ أيام آبائنا نحن إثم عظيم إلى اليوم ، ولأجل ذنوبنا قد رفعنا نحن وملوكنا وكهنتنا ليد ملوك الاراضي للسيف والسبي والنهب وخزي الوجوه كهذا اليوم) .

هل يحتاج معلق أو ناقد لبراهين تبين عن تغلل الخطيئة والمعاصي في دم شعب العهد القديم أكثر من تلك الدلالات التي تجييء عفواً بين سياق أخبار وروايات العهد القديم ، فكما تقول الفقرات السابقة : اتخذوا من بناتهم لأنفسهم ولبنيهم واختلط الزرع المقدس أي المخصص للرب على حد ما يذهب شراح العهد القديم ووقع الرؤساء والولاة في الخيـــانة ، والخطيئة والذنوب والآثام قد كثرت بحيث تعاظمت الى السماء ، ويسجل النص دوام واستمرار وقوع أجيال بني اسرائيل في المعصية والخطيئة منذ أيام آبائهم الى أيام (عزرا) حوالي عام ٥٣٨ ق. م. تقريباً ومع ذلك يغالي بعض آباء الكنيسة

اتباع العهد الجديد ويقولون في تعليمهم عن العهد القديم : (ان رجوع البعض من المسبيين في بابل الى أرضهم بعد مدة السبي الطويلة التي بلغت سبعين عاماً كان إتماماً لنبوات (ارميا) واستجابة لاعترافات وتوسلات (دانيال) كما سبقت النبوة عن اسم المنقذ لذلك الشعب أعني (كورش) [1].. ولا جدال في ان تلك النظرة وذلك الايمان من اتباع العهد الجديد بسبب القصور العقلي الذي يرى في كل ما سبق العهد الجديد بأنه كان بشارة ونبوءة بمجيء السيد المسيح ، مع انه فضلاً عما وقع من تحريف وتزييف لكل ما يمكن أن يكون بشارة بالسيد المسيح قبل ميلاده فان الطوائف اليهودية على اختلاف ما بينها حين جاءهم السيد المسيح كان منهم جميعاً ما قصته الأناجيل الأربعة بدءاً بالرفض والمطاردة وانتهاءاً بالمحاكمة وما أعقبها مما قصته الأناجيل وتقوم عليه عقيدة المؤمنين بالعهد الجديد) [2] .

(١) (متى بهنام) مفاتيح (كنوز الاسفار الالهية) المجلد الاول عام ١٩٦٧ ص ١٦١ .

(٢) (صابر طعيمة) : (اليهود بين الدين والتاريخ) النهضة المصرية الطبعة الاولى عام ١٩٧٣ ص ٣٧٦ .

– ومن الممكن الرجوع الى موسوعة القس (وليم مارش) المسماة في (السنن القويم) في تفسير اسفار العهد القديم الجزء الخامس وخاصة عند صفحتي ٨٢ ، ١٠٥ .

سفر نحميا

هذا السفر يتألف من ثلاثة عشر اصحاحاً. وهو باسم : نحميا بن حلكيا أحد المسبيين في بلاد فارس وكان ساقياً للملك (ارتحشستا) وقـد سمح له بالرجوع من أرض السبي لبناء أورشليم ودعا اسمه (الترشاثا) أي الحاكم [١] وسفر نحميا و (عزرا) كان سفراً واحداً باسم (عزرا) في النص العبري للتوراة في مراحل متقدمة وكانا كذلك في الترجمة السبعينية والترجمة اللاتينية التي أقرت في مجمـع (ترانت) سنة ١٥٦٣ ميلادية ثم انفصل الواحـد عن الآخر في القرن السادس عشر الميلادي [٢] باسم عزرا الاول وعزرا الثاني ، وانتهى الينا كما هو في النسخة العربية التي نعتمد عليهـا باسمي : (عزرا) ، (نحميا) . والمنهج التدويني لهذا السفر يدل على وجود جامع جمع ما في هذا السفر من مصادر شتى ، وقد يكون نقل شيئاً مما كتبه نحميا نفسه فالكلام في هذا السفر قد جاء مرة بصيغة المتكلم ومرة بصيغة الغائب [٣] . وينظر شراح العهد القديم الى هذا السفر على أنـه آخر الاسفار التاريخية في العهـد ويرونه تكملة لتاريخ اليهود لأنه يخبر عن بناء الهيكل وترميم أسوار أورشليم

---

(١) (مق بهنام) الجزء الاول من (مفاتيح كنوز الاسفار الالهية) ص ١٦٧ .

(٢) (السنن القويم في تفسير اسفار العهد القديم) الجزء الخامس ص ١١١ .

(٣) » » » » » » » » » » ص ١١١ .

وتجديد نظام اليهود الديني ، كما يصف صفات (نحميا) الطيبة فيقول عنه : انه كان يتكل على الرب في كل الأمور وانه كان ذكياً وبسيطاً ومخلصاً .

ويؤرخ شراح العهد القديم لسفر نحميا بأن أخباره ومروياته تدور حول المرحلة من عام ٥٣٨ ق. م. عقب نداء (قورش) وصعود (زربابل) وجماعته الى أورشليم وتأسيس الهيكل . والحوادث المذكورة في هـذا السفر ليست التفصيلية عن هذه المرحلة وإنما المهمة فقط وبين سفري المدونات المنسوبة الى عزرا والمدونات المنسوبة الى (نحميا) حوالي ١٣ عاماً فقط .

وحوادث السفر ذات الأهمية تدور حول نداء قورش وصعود (زربابل) وجماعته الى أورشليم وتملك (سمرديس) الكاذب وتملك (داريوس) وتجديد بنـــاء البيت في السنة الثانية من ملكه وتدشين الهيكل في السنة السادسة وتملك (احشويروش) ابن (داريوس) والشكايات على اليهـــود وجلوس (ارتحشستا) ابن (احشويروش) .. وصعود عزرا وجماعته في السنة السابعة وطلاق النساء الغريبة وصعود (نحميا) في السنة العشرين للملك (ارتحشستا) وترميم الأسوار وصعود (عزرا) مرة ثانية الى أورشليم وممارسة عيد المظال والمعاهدة بـين الله وشعبه ، وصعود (نحميا) ثانية والاصلاحات التي قـام بها وهكذا .

ويقص كذلك أخبار استهزاء اعداء (نحميا) به وتآمرهم على محاربـة أورشليم ويعلل السفر قدرة الشعب الاسرائيلي على مقاومـة اعدائه بسبب صلاة (نحميا) واهتمامه بالمظلومين وتوبيخه الاغنياء الظالمين المخالفين لشريعة الرب ويتحدث عنه السفر بأنه أعطى القدوة بنفسه ، إذ أطعم مائة وخمسين رجلا على مائدته ولم يأخذ على ذلك أجراً ، لكن الاصحاح الخامس من هذا السفر يحدثنا عن آلام وضيق بل وصراخ الكثرة الكثيرة من أبناء الشعب اليهودي وذلك بسبب موقف اخوانه اليهود الأغنياء .. الدائنين لهم بالفائدة

والربا[1] بعد أن كسد حال الشعب وتعطلت مصالحه في فترة بناء الاسوار وترميم بنـــاء الهيكل فتعطلت المصالح وافتقر الشعب واضطر الناس الى الاستقراض بعد أن يئس تماماً وعاش بـــلا طعام يكفيه ، وعندما رهنوا حقولهم وكرومهم وبيوتهم أصبحت الضرائب المفروضة عليهم ثقيـلة وتزيد من ضيقهم وآلامهم ومع ذلك لا يلقون من اخوانهم الاغنياء إلا كل ظلم وقسوة .

ولننظر الى الاصحاح الخامس من سفر نحميا وهو يقول[2] (وكان صراخ الشعب ونسائهم عظيماً على اخوانهم اليهود وكان من يقول بنونا وبناتنا نحن كثيرون دعنا نأخذ قمحاً فنأكل ونحيا ، وكان من يقول حقولنـا وكرومنا وبيوتنا نحن راهنوهـا حتى نأخـذ قمحاً في الجوع وكان من يقول قـد استقرضنا فضة لخراج الملك على حقولنا وكرومنا والآن لحمنا كلحم اخوتنا وبنونا كبنيهم ، وها نحن نخضع بنينا .. وبناتنا عبيداً ، ويوجد من بناتنا مستعبدات وليس شيء في طاقة يدنا وحقولنا وكرومنا للآخرين) .

والذي يدعو للتساؤل هو .. كيف في ظل مناخ العودة من السبي ومع كل تضحيات (عزرا) وصلوات (نحميا) ان يتعرض الشعب الاسرائيلي لهذا القهر الذي أوقعته فيه القيادات اليهودية من الأغنياء والمرابين .. ومع ان الفقرات الأولى الـتي استشهدنا بهـا من الاصحاح الخامس في سفر نحميا جاءت عرضاً بين السياق العام للسفر إلا انهـــا تبقى برهاناً على ان الشعب الاسرائيلي لم يستقر به الحال عقب العودة من السبي حتى بعد بناء الهيكل والأسوار ، والتي كانت سبباً في المحنة الاقتصادية التي حلت بهم .

---

(١) (القس وليم مارش) في موسوعته (السنن القويم في تفسير اسفار العهد القديم) الجزء الخامس وعند شرح الاصحاح الخامس من (سفر نحميا) ص ١٢٤ .

(٢) (سفر نحميا) الاصحاح الخامس فقرات ١ – ٥ .

ومع كل المفارقات التي يجدهـا الباحث في سفري نحميا وعزرا لا يزال من الشارحين المحدثين للكتاب المقدس من يطالعنـا بهـذا الوصف الانشائي الذي لا مضمون له ولا سند لهذين السفرين فيقول [1] .. (ولسفري نحميا وعزرا قيمة روحية فائقة إذ انهما يبينان هذا المبدأ الإلهي الهام وهو انه في يوم الخراب الروحي والأدبي تكون لله دائماً بقية تقية تمثل كل الجماعة وتنال رحمة وتتمتع بأسمى وأحسن الامتيازات التي أعدها الله للتدبير الذي تعيش في زمانه ونود أن نقرر انه ليس لدى الشارحين المحدثين الذين يذهبون الى وصف أسفار العهد القديم بهـذه النعوت .. الانشائية من أساس فكري أو برهان مادي يقيمون عليه منهجهم فيما يذهبون اليه .

---

(١) (متى بهنام) : (مفاتيح كنوز الاسفار الالهية) الجزء الاول ص ١٧١ .

سفر استير

هذا السفر يتألف من عشرة اصحاحات وليس هناك اتفـاق على من هو مؤلف هذا السفر فبعض شراح العهد القديم يقولون : ان كاتبه هو (عزرا) وبعضهم يقول ان .. كاتبه هو (مردخاي) وهذا السفر تاريخي زين الاخبار التاريخية وفصلها ومن هنا يرجح بعض الشراح للعهد القديم أن تأليف هـذا السفر كان بعد أيام الملك (احشويروش) بقليل من الزمان ويميلون الى ان يكون المؤلف من بلاد الفرس اطلع على بعض سجلات الحكومة .

هذا ويشك بعض المؤمنين بالعهد القديم في قانونية السفر لعـدم وجود اسم الله او اشياء من التعاليم الدينية فيه فضلاً عن وجود مبالغـات فيه لا يسلم بها العقل دائماً كالوليمة التي دامت نصف سنة وكالعشرة آلاف وزنة من الفضة التي وعد بها هامان بتأديتها لخزانة الملك وكالخشبة التي يبلغ ارتفاعها خمسون ذراعاً والاعداد .. الضخمة التي قتلها اليهود وذكرها السفر .

أما الذين يرون قانونية السفر فيبنون رأيهم على شهادة الجمهور من رجال الدين اليهودي له وممارسة عيد (فوريم) عند اليهود حتى اليوم تذكاراً لمـا روى في هذا السفر كذلك اتفاق واخبار السفر بما ورد في التاريخ ممـا يعرف عن الفرس واخـلاق الملك (احشويروش) فضـلاً عن فوائد السفر الادبيـة وعدم وجود السخافات والمناقضات التي تكثر في الاسفـار غير القانونيـة .

هذا ويدور السفر حول شخصية امرأة فاضلة كما يعبر عنهـا السفر هي (هدّسته) بنت أبي بيجال ابن شمعي البنياميني وقد نشأت يتيمة بلا أب ولا أم قام على تربيتها (مردخاي) ابن عمها وقد دعيت بهذا الاسم الفارسي (استير) للدور الذي لعبته في فترة السبي وبعدها .

ويكشف السفر عن بداية الدور الذي لعبتـه استير في الحيـاة اليهودية فيقول : انها كانت جميلة الصورة وحسنة المنظر ، وقد اعطاها الله نعمـة في عيون رجال بيت الملك وفي عين الملك (احشويروش) ومع انها كانت بين السبايا إلا ان هـذا الملك (احشويروش) اختارها لتكون زوجـة له اي ملكـة [1] .

ويقص السفر من اخبـار هذه الملكة ما يفيد ان (مردخاي) رفض الاذعان (لهامان) فاستصدر هامان امراً ملكياً باهلاك جميع اليهود في كل الامبراطورية وكان على (استير) أن تتدخل لدى الملك بعد وصية (مردخاي) لها بذلك ، فصامت (استير) ومعها الشعب اليهودي ثلاثة أيام وثلاثة ليال، وعلى خلاف القواعد المتبعة التي يقصها السفر دخلت الملكة على الملك ، ويخبر السفر بأن الله أعطاها في هذا الظرف صلاحية ونعمة فمد لها الملك قضيب الذهب فأخبرت الملك بأن (هامان) باعها وشعبها للهلاك فأرتاع الملك وامتلأ غضباً ضد (هامان) وأصدر الملك أوامره فوراً بان يعلق هامان على الخشبة[2] ويسرد السفر اخبار موقف مشابه للملكة عرضت فيـه نفسها المخـاطر

---

(١) (الملك) (احشويروش) : هو كسركسيس ابن داريوس الذي ملك من سنة ٤٨٥ – ٤٦٥ ق. م يدعي اليهود انـه حارب المصريين الذين عصوا أباه وأخضعهم وأولم الوليمة الشهيرة التي بقيت نصف سنة وتبدو المفارقات في هذا الخبر وعدم صحته حين يضطر اليهود فيما دوّنوا بعد ذلك للاعتراف بأنه حارب اليونانيين فاندحر اسطوله أمامهم .

(٢) (سفر استير) الاصحاح السابع فقرات ٧ – ١٠ .

ودخلت على الملك بدون امره وفوضها الملك في العمل على انقاذ اليهود من الهلاك .

هذا ويفيض السفر بنوع من القصص الروائي إذ يفيد : ان العناية دبرت تعظيم (مردخاي) في عين الملك واعطائه المركز الرفيع الذي كان (لهامان) ، وذلك اعطى لليهود امتيازات عظيمة فكل الرؤساء والولاة ساعدوا اليهود لان رعب (مردخاي) سقط عليهم ، ولما جاء اليوم المعين تبدل الحال فبدلاً من إبادة واهلاك اليهود استطاع هؤلاء لا أن يدافعوا عن انفسهم فقط بل ان ينتقموا ايضاً من اعدائهم . وفي النهاية استراحوا وصار ذلك اليوم يوم وليمة وفرح وقد جعلت استير (ومردخاي) أيام الخلاص هذه اعياداً سنوية .

وعيد (الفوريم) الذي ذكرته أسفار (الاوبوكريفا) التاريخية هو لذكرى نجاة الشعب من تدبير (هامان) ويسمى ايضاً (بيوم مردخاي).

هذا ويطالعنا الاصحاح التاسع من سفر (استير) بسرد جملة من الوقائع وذكر مواقف وسلوكيات تتنافى تماماً وكل روح السياق العام لكثير مزاسفار العهد القديم ، فبينما معظم الأسفار تحدثنا عن آلام اليهود ومحنهم وعذاباتهم وقدرتهم على مواجهة اعدائهم مرة وهروبهم عشرات المرات كتّاب سفر (استير) في الاصحاح .. التاسع يصورون موقفاً مبايناً تماماً لحال اسرائيل في عهد (عزرا) ، واستير ونحميا (ومردخاي) : انهم هنا شجعان فرسان يقتلون من اعدائهم المئات والألوف وايديهم نظيفة لا تسرف ولا تنهب ولا تبطش يقول الاصحاح المذكور (... اجتمع اليهود الذين في (شوشن) في اليوم الرابع عشر من شهر آذار وقتلوا في (شوشن) ثلاثمائة رجل ، ولكنهم لم يمدوا ايديهم إلى النهب ، وباقي اليهود الذين في بلدان الملك اجتمعوا ووقفوا لاجل أنفسهم واستراحوا من اعدائهم وقتلوا من مبغضيهم خمسة وسبعين الفاً ، ولكنهم لم يمدوا ايديهم الى النهب في اليوم الرابع عشر

منـه وجعلوه يوم شرب وفرح واليهود الذين في شوشن في الثالث عشر والرابع عشر منه واستراحوا في الخامس عشر وجعلوه يوم شرب وفرح)[1].

ويبقى لنا بعد التعرف على هذا السفر وتفحصه والوقوف على أهم ما فيه ان نرى .. أمامنا تلك النماذج التي لا يمكن أن تكون حركتها واهدافها في اتجاه الحق والخير فضلاً عن القداسة الدينيـة ، فظهـور (هامان) ابن (همداثا) الاجاجي وترقيته الى درجة دونها كل الرؤساء الذين في خدمـة الملك مع انه شرير كما يصفه الاصحاح التاسع من سفر (استير) ليس له مقدمـــات ويقول عنه (متى هنري) في تفسير سفر (استير)[2] .. (لا ادري ما الذي رآه الملك محبوباً في (هامان) ، واضح انه لم يكن رجلاً نبيلاً أو عادلاً بل كان متكبراً سريع الغضب محباً الانتقام ومع ذلك فقد رقى وعزز .

ونرى (مردخاي) الذي ثبت على مبادئه بعزم ثابت وجرأة وقد رفض ان يقدم الاحترام لهامان كما كان يفعل الجميع : (وأما مردخـاي فلم يجث ولم يسجد) ظلت علاقته باستير التي رباها ونمت في رعايته حتى تزوجهـا الملك قوية مع انه لم يصل الى اكثر من كونه أحد بوابين وحراس قصر الملك.

والخلل التدويني في ذكر الحوادث يبدو واضحاً في علاقة (استير) (بمردخاي) فالسفر يصوّر ضوابط الدخول والخروج على الملـك ويصف حديث (استير) مع الملك بشأن انقاذ حياة اليهود مع مكيدة (هامان) بأنه مغامرة نجت منها هكذا يعبر السفر عن مجرد الحديث مع الملك ومن زوجته بانه مغامرة . لكن السفر يصور لنا (مردخاي) بانه لما علم بالكارثة جاء إلى باب الملك فلم يسمح له بالدخول والاصحاح الرابع يقول : (... كانت مناحة عظيمة عند اليهود وصوم وبكاء ونحيب) .

---

(١) (سفر استير) الاصحاح التاسع فقرات ١٥ – ١٩ .

(٢) (تفسير سفر استير) متى هنري تعريب القس مرقص داوود مكتبة المحبـة بالقاهرة صفحة ٣٢ بدون تاريخ .

وهنا تبرز المفارقة .. (... فدخلت جواري (استير) وفتيانها فاخبروها فاهتمت الملكة جداً وأرسلت ثياباً لالباس مردخاي ولاجل نزعه عنه فلم يقبل[1] هذا موقف والموقف الآخر (... فدعت استير – هتاخ – واحداً من خصيان الملك الذي اوقفه بين يديها وأعطته وصيته الى (مردخاي) لتعلم ماذا ولماذا)[2].

وهذا موقف ثان (فخرج هتاخ إلى مردخاي الى ساحة المدينة التي أمام بيت الملك فاخبره مردخاي بكل ما أصابه وعن مبلغ الفضة التي وعد (هامان) بوزنه لخزائن الملك عن اليهود لابادتهم واعطاه صورة كتابة الامر الذي أعطى فيه (شوشن) لاهلاككم لكي يريها لاستير ويخبرها ويوصيها أن تدخل إلى الملك وتتضرع اليه وتطلب منه لاجل شعبها[3]. وهذا موقف ثالث ثم يفيض الاصحاح الرابع وهو تاريخي كما يقولون في مفارقات فتقول الفقرة التاسعة من الاصحاح الرابع (فأتى هتاخ واخبر استير بكلام وأعطته وصية الى مردخاي فكلمت استير هتاخ واعطته وصية إلى مردخاي): وأي وصية قالت استير لمردخاي الفقرة الحادية عشر من نفس الاصحاح تفصح لنا عن هذه الوصية وما يمكن أن يترتب عليها : تقول هذه الفقرة على لسان استير لمردخاي (... ان كل عبيد الملك وشعوب بلاد الملك يعلمون ان كل رجل دخل او امرأة إلى الملك الى الدار الداخلية ولم يدع فشريعته واحدة أن يقتل إلا الذي يمد له الملك قضيب الذهب فإنه يحيا وأنا لم أدع لأدخل إلى الملك هذه الثلاثين يوماً) .

فاذا كان هذا هو حال النظام في قصر الملك ، وإذا كانت هذه امكانات

---

(١) (سفر استير) الاصحاح الرابع فقرة ٤ .

(٢) (سفر استير) الاصحاح الرابع فقرة ٥ .

(٣) (سفر استير) الاصحاح الرابع فقرات ٦ – ٨ .

الملكة لا تستطيع الدخول على الملك ؟ وإذا كان حال رجل (كمردخاي) أياً كانت قيمته بين سبايا اسرائيل لا يقدر على الوقوف أمام باب قصر الملك؟ ما بال سفر (استير) يصوّر لنا الملكة وكأنها وحدها الأمر الناهي في قصر الملك ، تستطيع أن ترسل خدامها وحراسها إلى من تشاء بل وترسل ثياباً بدل ثياب الى (مردخاي) ليدخل عليها في قصر الملك وبغير امر الملك ، ومن يكون (مردخاي) في عبارة السفر : انه اشبه ما يكون بالثائر الذي يلتف حوله الجمهور وكل الشعب ، تقول عنه الفقرة الأولى من الاصحاح الرابع من سفر (استير) : (خرج الى وسط المدينة وصرخ صرخة عظيمة مرة وجاء إلى قدام باب الملك) . إلا تبدو عبارات التدوين المسجلة للحوادث في السفر متهافتة ولا تربطها وحدة موضوعية في عرض الحوادث وسرد المواقف ، وفضلا عن ذلك كيف استطاعت استير في ظل هذه الطاعة العمياء التي يفرضها الملك على المجتمع وعلى الجميع حتى على زوجاته كيف استطاعت في ظل السيطرة الكاملة (لهامان) الذي اعطاه الملك خاتمه وهو عدو اليهود الحاقد عليهم أن تحتفظ بعلاقتها واتصالها بعلمها (مردخاي) خاصة وانه كان قد اوصاها أن لا تخبر الملك عن جنسها وشعبها ، ويدعى الاصحاح الثاني فيالفقرة العشرين انها وهي في قصر الملك : (... كانت تعمل حسب قول (مردخاي) كما كانت في تربيتها عنده)[1].

والكنيسة المعاصرة ترى في سيرة استير دروساً وعظات تستحق عند اتباعها التأمل ، فعندما يتناولون سيرتها يقولون :[2] (... كانت يهودية من بني السبى شريكة لشعبها في مرارة العبودية ، كانت يتيمة لم يكن لها أب ولا أم ، لكن عندما تركاها ضمها الرب ، وكانت جميلة الصورة وحسنة

---

(١) (سفر استير) الاصحاح الثاني فقرة رقم ٢٠ .

(٢) (تفسير سفر استير) — مق هنري تعريف القس مرقس داوود مكتبة المحبة — بالقاهرة صفحة ٢٤ .

المنظر لكن أفضل جمال فيها كان حكمتها وفضيلتها ، لكنه امتيـاز عظيم لقطعة الماس قبل أن توضع في وضع حسن وقد عنى بتربيتها (مردخاي ابن عمها) ، وتقول الترجمة السبعينية انه كان يفكر في أن يتخذها لنفسه زوجة .

هذا ومما يجدر ذكره في التعريف ببعض ملامح ومعطيـات هذا السفر هو أنه من بين الأسفار المنقوصة ، وهو كما قلنا موضوع خلاف بـين شراح العهـد القديم هل يعتبر من الأسفار القـــانونية أم لا ، وقد أورد القس (وليم مارش) في كتابه (السنن القويم في تفسير اسفار العهد القديم) : ان للاصحاح العاشر من هذا السفر تتمة في الإصحاح العاشر في الأسفار الغير القانونية (الابوكريفا) كذلك يلحق به اصحاحات رقم ١١ — ١٦ في هذه الأسفار غير القانونية والتي سنتعرّض لها هي الاخرى بالتعريف .

وتتداول اليوم النسخة الكاثوليكية من العهد القديم وفيهـا اصحاحات (استير) ستة عشر اصحاحاً ، بينما النسخة البروتستانتية قد دوّن فيها عشر اصحاحات فقط وقد ذكرت النسخة الكاثوليكية الزيادات التي فيها هي في النسخة العامية وغير موجودة في النسخة العبرانية [١] .

(١) تاريخ بني اسرائيل من اسفارهم (محمد عزة دروزه) صفحة ٢٨٠ .

سفر ايوب

يتألف هذا السفر من اثنين واربعين اصحاحاً، يتناول بشيء من التفصيل سيرة هذا الرجل الذي وصفته اصحاحات هذا السفر بكثير من الخصال الحميدة.

وكل ما يمكن دراسته حول شخصية ايوب يوجد في هـذا السفر المسمى باسمه وان كان بعض الدارسين للعهد القديم يعتقدون ان اسم ايوب رمز لرجل (آبا أوباً وأياباً : بمعنى رجع وتاب) [١] ويستندون في اعتقادهم هـذا الى عـدم زيوع وشهرة ايوب كشخصية تاريخية أو قومية أو دينية في تاريخ اسرائيل ، فضلاً عن ان العبارة الأولى من الاصحاح الأول من السفر المنسوب الى ايوب تقول بصيغة الحديث عن الغائب الماضي : (وكان رجل في أرض عوص اسمه (ايوب) وكان هذا الرجل كامـلاً ومستقيماً ومتقي الله ويحيد عن الشر) [٢] .

ويتعرض هـذا السفر بشيء من التفصيل لأحوال وأوضاع ايوب واهـله فيقول : (وولد سبع بنين وثلاث بنات وكانت مواشيه سبعة آلاف من الغنم وثلاثة آلاف جمـل وخمسمائة فدان بقر وخمسمائة أتان وخدمـه كثيرين جداً فكان هذا الرجل أعظم بني المشرق [٣] .

---

(١) (السنن القويم في تفسير أسفار العهد القديم الجزء الخامس ص ٦٤) .
(٢) (» » » » » » » » ص ٤٦) .
(٣) (» » » » » » » » ص ٦٥) .

وهذه الأرقام في عدد الاولاد وحجم الثروة تساعد على القول بأن هذا السفر ليس تاريخياً محققاً بل هو تدوين روائي قد يعتمد على معلومات تاريخية، لكن افكار القدماء من بني المشرق تبدو فيه جلية حيث تكون الرغبة في زيادة عدد البنين عن البنات قوية .

واتباع الكنيسة المحدثين يقفون كثيراً عند اخبار ايوب ، فيرونه قد تألم كثيراً بسبب خسرانه لكل أمواله وأملاكه ومواشيه وبسبب قتل أبنائه جميعاً في وقت واحد ، والمعضلة التي أمامهم: هي ان سياسة الله مع ايوب كما يقولون [١] . ليست كما كانت مع اسرائيل بكيفية مباشرة ويعللون ذلك باعتقادهم بأن عنايته (تعالى الله) تسير في عالم دخلته الخطيئة والموت وفيه يستخدم الشيطان قوته العدائية إذا سمح له بذلك .

هذا ويتعرض السفر لنوع من أدب الرواة والقصاصين أو ما يسمونه (بالفلكلور) الشعبي حين يصور الاصحاح الاول العلاقة بين السماء والآلهة والبشر ، وقد حذا حذو السفر كثير من الشعراء مثل هوميروس اليوناني الذي حاول أن يصور الله وما يحدث في السماء .

تقول الفقرات ٦ — ١١ من الاصحاح الأول من هذا السفر : (... وكان ذات يوم انه جاء بنو الله ليمثلوا أمام الرب وجاء الشيطان ايضاً في وسطهم — فقال الرب للشيطان من أين جئت فأجاب الشيطان الرب وقال من الجولان في الأرض ومن التمشي فيها ، فقال الرب للشيطان هل جعلت قلبك على عبدي ايوب لأنه ليس مثله في الارض ، رجل كامل ومستقيم يتقي الله ويحيد عن الشر فأجاب الشيطان الرب وقال : مجاناً يتقي ايوب الله ؟ أليس انك سيجت حوله وحول بيته وحول كل ماله من كل ناحية ، باركت أعمال يديه ، فانتشرت مواشيه في الارض ، ولكن أبسط يدك الآن ومس

---

(١) (مفاتيح كنوز الاسفار الالهية (متى بهنام الجزء الاول ص ١٧٧) .

كل ماله فانه في وجهك يجدف عليك فقال الرب للشيطان هوذا كل مـاله في يدك ، وإنما اليه لا تمد يدك ثم خرج الشيطان من وجه الرب) .

هذا الحوار الروائي الذي تقصه هـذه الفقرات والذي يريد أن يقرر على لسان الشيطان ، أن مطمح ايوب هو المتعـة الجسدية والتنعم بالدنيـا ، وان التقوى وسيلة لنيل هذه الغايات فقط والأمر الذي يستدعي من الله . (تعالى الله عن ذلـك علواً كبيراً) أن يسمح للشيطان أن ينزع من ايوب كل هـذه الخيرات وهذه النعم ليبرهن الله للشيطان على أن ايوب لم يعمـل الصالحات لينال بها أجراً بل فعلها لأنها واجبات تؤدى وكان لا بد ان يعملها ولو خسر ما في يده هو الذي كان بعد ذلك وراء كثير من الأفكار المجسمة والمشبهة ، والتي كانت تراثاً شائعاً بين بني اسرائيل في جملة ومعظم عقائدهم بذلوا جهدهم بعد ذلك على أن يكون عقيدة كثير من قضايا الإيمان حتى عند غيرهم وقـد تأثرت بعض الطوائف القليـلة من المسلمين بنوع من هـذا التفكير المجسم في نظرتهم لبعض صور العقيدة الدينية وهم الكرامية على وجـه الخصوص نسبة الى ابي عبدالله محمد بن كرّام الذي يعين تاريخ ميلاده .. المستشرق الفرنسي (ماسينيون) بأنه في عام ١٩٠ هجرية [١] وذلك في العصر العباسي بأثر من الثقافة الفارسية التي أثر فيها الى درجة لا بأس بها التراث الاسرائيلي وخاصة في صور ونماذج العقيدة الدينية القائمة على التجسيم [٢] . هذا ومما يجدر ذكره ان كل المذاهب الاسلامية قـد كفرت الكرامية فيما ذهبوا اليـه من عقيدة التجسيم .

وفي التعليق على مـا جاء في سفر ايوب يقول القس (وليم مارش) في

---

(١) (سهير محمد مختار) : (التجسيم عند المسلمين – مذهب الكرامية) ، رسالة لنيل درجة الماجستير في الفلسفة الإسلامية من كلية البنات من جامعة الازهر عـام ١٩٧١ الطبعة الاولى ص ٤٨ .

(٢) المصدر السابق ص ٢٥ .

كتابـه : (السنن القويم في تفسير أسفار العهـد القديم) في الجزء الخامس صفحة ١٦٦ . (وفي قول الشيطان هـذا اهانـة للرب كأن الرب لا يعرف قلوب الناس وغاياتهم السرية وكأن القس وليم يريد أن يقول انه لا يسلم بمـا جاء في سياق كاتب سفر ايوب من عبارات لا تعبر عن عقيدة في الإله ولا إيمان به منزه يليق بالحديث عنه على لسان نبي فيما ينسب اليه) .

هـذا ويتناول السفر بشيء من التفصيل ايضاً جمـلة المصائب التي حلت بأيوب في يوم واحد: الريح الشديدة التي دارت فصدمت زوايا البيت الاربع والشيطان الذي لم يترك لأيوب فرصة ليستريح ويتعزى وسجوده على الارض ورضوخه لما أعطى الإله ولما أخذ ، وينتهي الاصحاح الاول بعد سرد العديد من المصائب التي حلت بأيوب الى أن يقرر ان الايمـــان لا يتزعزع بزوال الخيرات الزمنية لأنه ليس مؤسساً عليها ، ويحاول شراح العهد القديم ان يجعلوا هذا المعنى هو هدف السفر ، كما اهتموا بأن ينتهوا إلى أن السفر يقرر ان المصائب لا تحدث اتفاقـاً فهي وإن كانت من الناس أو القوى الطبيعية فيد الله فيها وانه يجب علينا ان نعتبر أموالنا وديعة من الله فهي ليست لنا وله حق أن يأخذها متى شاء ، إنه لا يمكننا أن نفهم كل ما يعمله الله بنا .

تقول الفقرات ١٣ — ٢٢ من الاصحاح الاول من سفر ايوب : (وكان ذات يوم وابناؤه وبناته يأكلون ويشربون خمراً في بيت أخيهم الأكبر ان رسولاً جـاء الى ايوب وقال البقر كانت تحرث والأتن ترعى بجانبهـا فسقط السبئيون وأخذوها وضربوا الغلمان بحد السيف ونجوت انا وحدي لأخبرك ، وبينما هو يتكلم إذ جاء آخر وقال : نار الله سقطت من السماء فأحرقت الغنم والغلمان ونجوت أنا وحدي لأخبرك ، وبينما هو يتكلم إذ جـاء آخر وقال : بنوك وبناتك كانوا يأكلون ويشربون خمراً في بيت أخيهم الأكبر، وإذ بريح شديدة جاءت من عبر القفر وصدمت زوايا البيت الأربع فسقط على الغلمان فماتوا ونجوت أنا وحدي لأخبرك ، فقـــام ايوب ومزّق جبته وجزّ شعر

رأسه وخرّ على الأرض وسجد وقال : عرياناً خرجت من بطن أمي وعرياناً أعود إلى هناك ، الرب أعطى والرب أخذ فليكن اسم الرب مباركاً في كل هذا لم يخطىء ايوب ولم ينسب لله جهالة) .

وهذا الصبر العظيم الذي تفيض به سيرة ايوب والامتثال التام لقضاء الله على ضوء هذا التصوير يؤكد لنـــا أن الرجل على قدر كبير من الايمان بالله ولعل هذه السيرة هي التي كانت وراء ذلـك النسيج الشعبي في أمثـلة الصبر والرضا بالقضاء مثل قصة ايوب المصري وسعد اليتيم وغيرهما من القصص الشعبي الذي وقع في المنطقة العربية بعد عصر الميـــلاد [١] . وليس أمـام الباحث في مدونات العهد القديم من مآخذ يمكن أن يحاسب عليهـا مؤلفوا مثل تلك المدونات التي بين أيدينا سوى ذلك التكرار في المشهد وحركة الايقاع ، وكأننا على خشبة مسرح ، فيه الادوار مرسومة يحركها بطل من وراء ستار ، وقد لا يكون ذلك عيباً جوهرياً في تناول الحوادث والمرويات فهو منهج معظم أسفار ومدونات العهد القديم في تناول الأشياء .

هذا ويقص الاصحاح الثاني أخبار ابتلاء ايوب ودور الشيطان في ذلك حين ضرب الشيطان ايوب بقرح رديء من باطن قدمه الى هامته طلبت منه زوجته ان يطلب من الله الموت فعاب عليها أن تتكلم معه هكذا كالجاهلات وقال لها : الخير نقبل من الله والشر لا نقبل ؟. وامتثل الرجل وصبر وكان

---

(١) يقول الدكتور (حسن ظاظا) في كتابـه (الفكر الاسرائيلي أطواره ومذاهبـه) في ص ٥٥ : إن جرين في تلخيصه التاريخي للعهد القديم يقول ان النبي ايوب أقدم من موسى نفسه إذ حدد تاريخه بعام ١٥٢٠ ق . م . وكان الاديب الفرنسي الكبير (فولتير) قد سبق الى القول بأن ايوب وسفره أقدم من التوراة وان العبريين أخـذوه عن العرب وترجموه الى لغتهم ويستدل على ذلك بأن اسم الشيطان الذي يشغل مكاناً رئيسياً فيه ليس كلمة عبرية بل هو لفظ (كلداني) . ومن الادلة على الاصل العربي لسفر أيوب أيضا نسبة أيوب نفسه إلى أرض (عوص) وهي تقع في شمال شبه الجزيرة العرب وان أصدقاؤه كانوا فيما يبدو من العرب (اليفاز) من تيمان (وبلدد) كان شوحيا من منطقة السويس في رأي فولتير و (صوفر) كان من نعمات .

لصبره وامتثاله تأثيراً عظيماً في نفوس أصحابه الثلاثة الذين ورد ذكرهم في السفر وهم (الفاز التيماني) الذي تسمت بلاده (تيمان) باسمه واشتهر كأهل بلده بالحكمة (وبلدد الشوحي) وهو من نسل (شوح) أحد أبناء ابراهيم من امرأة اسمها (قطورة) ورد ذكر اسمها واسم ابنها في سفر التكوين [1] (وصوفر) النعماني المجهول الهوية [2] . ويبدو ان الثلاثة كانوا على علاقة قوية بأيوب فعندما علموا بابتلائه قطعوا مسافة شاسعة وذهبوا اليه ليعزوه فيما ابتلي به تقول الفقرات ١١ — ١٣ من الاصحاح الثاني من سفر ايوب : (فلما سمع اصحاب ايوب الثلاثة بكل الشر الذي أتى عليه جاءوا كل واحد من مكانه ، (الفاز التيماني) (وبلدد الشوحي) (وصوفر النعماني) وتواعدوا ان يأتوا ليرثوا له ويعزوه ورفعوا أعينهم من بعيد ولم يعرفوه فرفعوا أصواتهم وبكوا ومزّق كل واحد جبته وذروا تراباً فوق رؤوسهم نحو السماء. وقعدو معه على الارض سبعة أيام وسبع ليال ولم يكلمه أحد بكلمة لأنهم رأوا ان كآبته كانت عظيمة جداً) [3] .

ولكن الذي يلفت النظر حقاً في سفر ايوب أمام الدارس والباحث هو ذلك النغم النشاز في الاصحاحات الاربع تحت أرقام : الثالث والرابع والخامس والسادس فقد علت فيهم نبرة الشكوى المرة وعلى غير ما قدمت الاسفار وظهرت على ايوب كما تصف هذه الاصحاحات حالات الجزع الشديد واليأس الحاد ، ومع انه من المتفق عليه ان كتاب سفر ايوب كثيرين لكن يبدو ان كتبة هذه الاصحاحات الاربع قد دونوها في وقت متأخر نسبياً

---

(١) (سفر التكوين) الاصحاح الخامس والعشرون فقرات ١ — ٣ ونصها: (وعاد ابراهيم فأخذ زوجة اسمها (قطورة) فولدت له زمران ويقشان ومدان ومديان ويشباق وشوحا وولد يقشان : شبا وودان) .

(٢) السنن القويم في تفسير أسفار العهد القديم الجزء الخامس ص ١٧٠ .

(٣) سفر أيوب الاصحاح الثاني فقرات ١١ — ١٣ .

وعبّروا فيها عن ظروف موت ايوب وصوّر لهم خيالهم بؤس الحال الذي كان عليه ايوب فجاءت عبارات الاصحاحات الاربع وهي تفيض أسى ونقمة وجزعاً ، حتى ان شراح العهد القديم يقولون في التعليق عليها (... لا نبرر ايوب في كل أقواله ولكنه معذور فيها لأنه لم يشعر بأنه قد عمل ما يستوجب مصائبه العظيمة ولأنه أصبح بلا أمل في مستقبل حياته) [١] .

وينسى كتّاب العهد القديم والذين علّقوا عليه من القدامى والمحدثين ان الذين دوّنوا على ايوب شكواه وتضرره ولعنه لقدره ومصائبه قد أكدوا صواب وصحة قولة الشيطان للرب كما هي في الاصحاح الاول من سفر أيوب والتي هي على الوجه الآتي : (... هل مجاناً يتقي أيوب الله اليس انك سيجت حوله وحول بيته وحول كل ماله من كل ناحية باركت يديه) .

لكن يبدو ان وحدة المضمون لم تكن تهم كتاب العهد القديم لا في قليل او كثير .

يقول الاصحاح الرابع من سفر أيوب : (... فتح أيوب فاه وسب يومه واخذ أيوب يتكلم ليته هلك اليوم الذي ولدت فيه ، والليل الذي قال قد حبل برجل ، ليكن ذلك اليوم ظلاماً ، لا يعتن به الله من فوق ولا يشرق عليه نهار ليهلكه الظلام وظل الموت ، ليحل عليه سحاب ، لترعبه كاسفات النهار اما ذلك الليل فليمسه الدجى ولا يفرح بين ايام السنة ولا يدخلن في عدد الشهور هو ذلك الليل ليكن عاقراً لا يسمع فيه هتاف ، ليلعنه لاعنوا اليوم المستعدون لايقاظ التنين لتظلم نجوم عشائه لينتظر النور ولا يكن ،ولا يرى هدب الصبح لانه لم يغلق ابواب بطن امي ولم يستر الغشاوة عن عيني ، لِمَ لم امت من الرحم ، عندما خرجت من البطن لِمَ لم اسلم الروح ، لماذا اعانتني الركب ، ولِمَ الثدي حتى ارضع ، لاني قد كنت الان مضطجعاً ساكناً ، حينئذ كنت نمت مستريحاً مع ملوك ومشيري الارض الذين بنو اهراما لانفسهم) .

---

(١) السنن القويم في تفسير أسفار العهد القديم الجزء الخامس ص ١٧٠ .

وعلى نفس الوتيرة تقريباً او اشد تقول فقرات ٧ — ١٢ من الاصحاح السابع من هذا السفر المسمى باسم ايوب : (... اذكر ان حياتي انما هي ريح وعيني لا تعود ترى خيراً ، لا تراني عين ناظري ، عيناك عليّ ولست أنا السحاب ، السحاب يضمحل ويزول ، هكذا الذي ينزل الى الهاوية لا يصعد ، لا يرجع بعد الى بيته ولا يعرف مكانه بعد، انا ايضاً لا امنع فمي، اتكلم بضيق روح، اشكو مررة نفسي أبحر انا أم تنين حتى جعلت على حارينا، ان قلت فراشي يعزيني ، مضجعي ينزع كربتي تريعني بالاحلام وترهبني برؤى فاختارت نفسي الخنق ، الموت على عظامي هذه قد ذبت لا إلى الأبد أحيا كفّ عني لأن أيامي نقمة) [١] .

واضح تماماً في هذه الاصحاحات الروح الشعرية الآسية الناقمة والتي استعملت نماذج بيانية بليغة مثل: ليته هلك اليوم، ومثل (كاسفات النهار) ومثل (اعانتني الركب) ومثل (كنت مستريحاً) ومثل (ولا يرَ هدب الصبح) . وكلها صور تحتاج الى مزاج فني يتعذر تصوره من رجل مثل أيوب وهو على ما وصف السفر من البلاء والشدة فيه ، والأقرب الى التصور ان مجموعة الكتبة الذين قاموا بتدوين سفر أيوب كانوا على قدر من البيان والشاعرية لا بأس به ومن هنا راحوا يدوّنون ذلك السياق البليغ القائم على الأسى واللوعة والمرارة .

هذا وتعتبر الاصحاحات من السابع والعشرين حتى الحادي والثلاثين بمثابة خلاصة ختامية للمقارنة بين ماضي ايوب المشرق البهيج وحاضره المظلم الأليم، وملامح هذه الاصحاحات الخمس تعطي صورة وصفية جيدة لقديس عاش فترة طويلة في آلام مبرحة كنموذج في تحمل الألم والصبر عليه لكن الاصحاحات من الثامن والثلاثين حتى الثاني والاربعين نهاية السفر تنقلنا الى مواقف مثيرة لعب فيها خيال المؤلف واستحضر صوراً ومواقف نسبها إلى الله (تعالى الله)

---

(١) سفر أيوب الاصحاح السابع فقرات ٧ — ١٢ .

وهو يواجه عبده ايوب تؤكد استمرار ايوب في الشكوى ، أو وقوعه في المعصية فتقول فقرات الاصحاح الثامن والثلاثين الاولى (فأجاب الرب ايوب من العاصفة وقال : مَن هذا الذي يظلم القضاء بكلام بلا معرفة اشدد الآن الآن حقويك كرجل فاني أسألك فتعلمني : أين كنت حين أسست الارض ؟ أخبر إن كان عندك فهم ؟ من وضع قياسها لأنك تعلم ؟ أو من مدّ عليها مطماراً ؟ على أي شيء قرت قواعدها ؟ أو من وضع حجر زاويتها عندما ترنمت كواكب الصبح معاً وهتف جميع بني الله ؟ ومن حجز البحر بمصاريع حين التدفق فخرج من الرحم إذ جعلت السحاب لباسه والضباب قماطه وجزمت عليه وحدي وجعلت له مغاليق ومصاريع وقلت إلى هنا تأتي ولا تتعدى ، وهنا تتخم كبرياء لججك هل في أيامك أمرت الصبح هل عرفت الفجر موضعه ليمسك بأكناف الارض فينفض الاشرار منها تتحول كطين الخاتم وتقف كأنها لابسة ويمنع عن الاشرار نورهم وتنكسر الذراع المرتفعة ؟ هل انتهيت إلى ينابيع البحر أو في مقصورة الغمر تمشيت ، هل انكشفت لك ابواب الموت أو عاينت أبواب ظل الموت ؟ هل أدركت عرض الأرض؟ أخبر ان عرفته كله ، أين الطريق حيث يسكن النور ؟ والظلمة أين مقامها، حتى تأخذها إلى تخومها وتعرف سبيل بيتها ، تعلم لأنك حينئذ كنت قد ولدت وعدد أيامك كثير ، أدخلت إلى خزائن الثلج أم أبصرت مخازن البرد التي أبقيتها لوقت الضر ليوم القتال والحرب في أي طريق يتوزع النور وتتفرق الشرقية على الارض ، من فرع قنوات للهطل وطريقاً للصواعد ، ليمطر على أرض حيث لا إنسان على فقر لا أحد فيه ليروي البلقع والخلاء وينبت مخرج العشب) (١) .

وعلى نفس الوتيرة تماماً تقول الفقرات الاولى من الاصحاح التاسع

---

(١) (سفر أيوب) الاصحاح الثامن والثلاثون فقرات ٢ — ٢٧ .

والثلاثين : (... أتعرف وقت ولادة وعـول الصخور ، أو تلاحظ مخاض الايائل أتحسب الشهور التي تكملها أو تعلم ميقات ولادتهن)[1] .

وهذه العظات البليغة ذات النغم الشعري إذا تصورت من واعظ بليغ لخطيء أو عبد آبق كيف يمكن أن تكون موجهة لتأديب وتربية أيوب ؟ وإذا كان حاله قد أصبح هكذا على مستوى من الخطيئة بحيث أصبح يستحق كل هذه الدروس؟ أينسى كتّاب السفر انهم نسبوا الى ايوب والشيطان والله (تعالى الله) في أول اصحاحاته حواراً [2] أوكل الله فيه للشيطان مهمة تخريب حياة ايوب مع استمرار إيمانه وطاعته وصبره وبقائه على حاله كرجل كامل ومستقيم يتقي الله ويحيد عن الشر حتى مع سحب كل ما أنعم الله عليه وافقاره وابتلائه كافحام من الله للشيطان على عبده ايوب ، ومع ذلك فان ايوب هنا هو الشاكي المتضرر المتألم الساخط الرافض الذي نجحت ضده غواية الشيطان على هداية ربه .

وعلى ضوء ما في الاسفار أيستحق بعد كل هـذا تلك المكاشفة وذلك العتاب والتوجيه من الله مباشرة على ضوء مـا تنسب هـذه الاصحاحات ، اعتقد ان المفارقات والخلل الواضح هنا في وحدة وتكامل الموضوع المتعلق بسيرة ايوب تدويناً يؤكد لنا ان سفر ايوب قد كتبه كثيرون وبعضهم على درجة من التقوى وفي أزمنة متباعدة ، ولم يطلع اللاحقون على ما كتب السابقون ومن هنا كان الخلل الواضح الذي يجـــابه الباحث في موضوعات أسفار العهد القديم .

ومن الجدير بالذكر ان الكنيسة المسيحية ، وهي التي تقوم عـلى فكرة المسيح المخلص بالعهد الجديد عند تناولها دراسة الاصحاحات الخمس من سفر

---

(١) (سفر أيوب) الأصحاح التاسع والثلاثون فقرات ١ — ٣ .
(٢) « « « الاول فقرات ٨ — ١٠ .

ايوب ابتداء من الثامن والثلاثين حتى الثاني والاربعين لم تستطع معالجة هذا المشكل الصعب فيقول أحد كتابها تلخيصاً لمـــا في هذه الاصحاحات : (... وأخيراً يتكلم الرب من العاصفة في موضوع ايوب، وبواسطة الكلام عن حكمته الإلهية وجلاله وقوته في الطبيعة يظهر بالمباينة مع ذلـك حقارة ايوب ، وإذ يبيّن الرب لأيوب حكمته في كل طرقه ، فهل يستطيع ايوب ان يدعي بأنه يعلم الله تعالى ، لذلك لم يسع ايوب إلا ان يجيب قائلاً : (أنا حقير) ثم يصمت ، ولكن الرب يستمر محاجاً مع ايوب : (العلك تناقض حكمي تستنبذني لكي تتبرر انت ؟)

ثم يشير الرب ثانية الى قوته الفائقة في الطبيعة ويذكر حيوانين هائلين قد خلقهما وهمـا (بهيموث) (ولوياثان) ليشعره بحقارته وضعفه وبجهالته في اقواله التي نطق بها اولاً ولذا اعترف ايوب ثانية : (قد نطقت بمـا لا أفهم بعجائب قوتي لم أعرفها : بسمع الاذن قد سمعت عنك ، والآن رأتك عيني. لذلك ارفض نفسي واندم في التراب والرماد) [1] .

ويرى بعض المشتغلين باللاهوت من اتباع الكنيسة انه بهذا الدرس الذي تعلمه ايوب قـد وصل الى المكان الصحيح اللائق به ، ومتى ؟ بعد ان وضع نفسه في التراب والرماد .

ويعتبر ايوب في التراث الاسرائيلي رمزاً لشعب اسرائيل في التوبة ، فعندما يجيء وقت الرحمة لذلك الشعب البعيد عن الله يتوب ويستغفر ويرجع الى الله ويندم ، وعندئذ تحل عليه الرحمة وينزل عليه العون ويعرف طريق الهداية، ولعل الكثير من الملاحم والسير الشعبية التي نسجت حوادث لرجال أو ابطـال اتصف دورهم التاريخي أو تصور بنغم روائي حزين كثرت فيـه المصائب وعمت البلوى كل ما كان يحيط بهم، هو بأثر من إيحاء وتوجيه فكر

---

(١) (متى بهنام) في مفاتيح كنوز الأسفار الإلهية المجلد الاول ص ١٨٠ .

البلاء والمصيبة التي فاضت بها سيرة ايوب في تراث بني اسرائيل في العهد القديم .

هذا .. ومما يجدر ذكره في هذا المقام أن كاتب سفر ايوب مثل معظم الذين تناولوا سيرة رجال العهد القديم ، لم ينتبه إلى مقررات في الاخلاق أو قواعد في الدين وآدابه ، ولم يتركوا في معظم ما دوّنوا غير تلك البصمات الباهتة والمفتريات الآثمة على ملامح وسيرة رجل من خير خلق الله في تاريخ بني اسرائيل ، فضلاً عن تلك الصور الشائنة المشينة التي لا يعثر فيها الباحث إلا على المزاج الفني الوثني المتأثر بكل دروب الرموز والاشكال والالوان المادية عند كاتب سيرة ايوب الذي كان واحـــداً من أنبياء الله الصابرين الشاكرين ، وظلت سيرته تتداول في اسرائيل ويختلط فيهـا الحق بالباطل وضروب الوثن بأساليب الخرافة والاسطورة حتى جاء الذكر الحكيم وكشف القرآن وحده عن وجهه الطيب وفطرته المستقيمة والتزامه المطلق بكل قواعد النبوة ومقرراتها الاخلاقية والادبية وما يترتب عليها في علاقات العبد النبي بالله رب العالمين .

سفر المزامير

هذا السفر اشبه ما يكون بموسوعة ادبية شعرية تفيض بكثير من المشاعر الطيبة والاحاسيس الصادقة ففيه ترنيمات ادبية وموسيقية تؤدى في الصلوات اليهودية والمسيحية والاحزان والاعترافات وعمليات النسك التي يقوم بها المؤمنون بالعهد القديم والجديد على السواء .

وهذا السفر يتألف من مائة وخمسين مزموراً وهو من حيث قيمته الدينية يعتبره بعض المؤمنين بالكتاب المقدس[1] (قلب الكتاب المقدس) وروحه القوي .

وكتاب هذا السفر بالقطع عديدون ، وتناوبوا التدوين والتأليف في هذه المزامير فترة تمتد تاريخها من أيام النبي موسى عليه السلام الى ما بعد السبي البابلي وهي على اقل تقدير حوالي الف عام .

وهذا السفر في جملته أشبه ما يكون بوعظ الوعاظ ومأثورات الحكماء وتتخلل كل فقرات مزاميره نغمة موسيقية حزينة ومتأملة ، حتى سماه بعض المؤمنين بالعهد القديم من اتباع الكنيسة المعاصرة : (كتيب جوقة المغنين الارضية) [2] .

---

(١) (متى بهنام) في كتابه (مفاتيح كنوز الاسفار الالهية) الجزء الاول صفحة ١٨٣ .

(٢) (فخري عطية) دراسات في سفر المزامير الجزء الاول صفحة ٤ مطبعة الفجالة الجديدة بدون تاريخ .

ويعلق البعض الآخر من اتباع الكنيسة ايضاً على اهمية سفر المزامير فيقول (... ان كانت الاسفار التاريخية تقدم لنا الله متكلماً عن الانسان والاسفار النبوية ترينا الله متكلماً الى الانسان فان المزامير تعرض لنا بصورة عجيبة الانسان متكلماً الى الله ومع الله ساكباً نفسه امامه تارة بالصلوات والطلبات والتضرعات وتارة اخرى بالحمد والتسبيح والشكر . انه مجموعة اختبارات تكريسية لا مثيل لها في كل كتب العالم .)

وبهذا التعريف الغامض الدلالة المغالي في وصف المزامير يدخل احد الكتاب المعبرين عن جوهر التعاليم الكنسية في هذا الموضوع ويسأل المؤلف ويقول : (في أي الكتابات المقدسة يعد سفرنا هذا العجيب[1] هل هو سفر نبوي ام .. تاريخي ام تعليمي ؟ في الواقع انه يضم هذه جميعاً في شموله العجيب ويزيد عليها انه يضم صلوات وتسابيح .

ونظراً للاهمية القصوى التي جرت حول المزامير من اليهود اصحاب المزامير ومن اتباع الكنيسة اصحاب العهد الجديد فاننا سنفرد دراسة موسعة عن هذا السفر .

وبادىء ذي بدء فان منشأ تسمية : جملة الادعية والصلوات التي يتألف منها المزامير المائة والخمسون باسم المزامير : ان الاسم العبري (تهليم) اي : (تسابيح) الذي أشتقت منه كلمة : (هللويا) العبرية أي (حمدا ليهوه) في الترجمة اليونانية للعهد القديم استعمل فعل : حمد دعاءاً اشتقاقاً من فعل يفيد العزف على آلة موسيقية قد يكون من بينها المزمار[2] آلـة النفخ التي تتخذ من البوص وغيره ، ومن هنـا أصبحت هذه التسمية المزامير) رمزاً على ترنيات الحمد المنسوبة الى الانبياء في كتب العهد القديم . والشائع عند شراح كتب العهد القديم نسبة معظم المزامير إلى النبي داود عليه السلام ، وان

---

(١) (فخري عطية) المصدر السابق صفحة ٥ .

(٢) فخري عطية دراسات في سفر المزامير الجزء الأول صفحة ٦ .

كان لا خلاف على اشتراك عدة أشخاص في أزمنة مختلفة في كتابة المزامير وبالتالي في تدوينهـا ، فهناك من يرى أن موسى عليه السلام لم يكتب غير المزمور رقم تسعين (٩٠) [١] .

ويرى آخرون ان (داوود) أنشأ ثلاثاً وسبعين مزموراً (وأساف) اثني عشر و (هيان) واحداً هو مزمور رقم ٨٨ . وهنـاك مزامير كثيرة مجهولة النسب كما انـه ليس بين جملة المزامير ترتيباً تاريخياً او موضوعيـاً : (والمفهوم انها ليست مرتبة ترتيباً تاريخياً او نبوياً) [٢] .

كما يبدو ان هذه المزامير ظلت فترة من الزمـان مهجورة لا تستعمل في الهيكل ولا يتعبد بها وقد تكون باثر من هذا الاهمال الذي تعرضت له ضاع منها شيء مما قاله الانبياء المنسوبة اليهم او اضيف اليها ما لم يقولوه . يقول فخري عطية فى الجزء الاول من كتابه دراسات في المزامير : (... ان حزقيا هو الذي أعاد مزامير داوود الى مكانها من الاستعمال في الهيكل اعتماداً على قول الكتاب : وقال حزقيا الملك والرؤساء للاويين ان يسبحوا الرب بكلام (داوود) و (أساف الرائي) .

هذا ويقسم بعض شراح الكتاب المقدس سفر المزامـير إلى خمسة اقسام او خمسة كتب محاولاً بذلك ترتيبها ترتيباً موضوعياً حتى تمثل وحدة متكاملة من حيث المضمون ... وترتيبات الموضوع ، ولكنه في الحقيقـة في غير موضعه ، إذ ان المزامير كما سنتعرّض لها بشيء من التناول النقدي ليس بينها ترتيباً موضوعياً او زمنياً .

والاقسام الخمسة او الكتب التي تضمنتها المزامير بدعوى ان لكل منها مميزاته النبوية تجيء على الوجه التالي :

---

(١) (فخري عطية) المصدر السابق صفحة ٧ .

(٢) (فخري عطية) المصدر السابق صفحة ١١ .

الكتاب الأول من المزامير

يتضمن الكتاب الاول من المزامير على ضوء تقسيمات كتاب العهد القديم العدد من رقم ١ الى المزمور الحادي والاربعين ويدور حول البقية الباقية من (يهوذا) قبل طردهم خارج اورشليم ، ويطالعنا في هـذا السفر المزموران الاول والثاني بدون عنوان ، واولهما يصف المتقى أمام ربه وقد صار رجاوءه ان يعمل في طريق الابرار ، والثاني عن الساكن في السماوات يضحك ، وعن الملوك الذين تآمروا على الرب وعلى مسيحه بينما المزمور الثالث يقص علينـا دعوة داود لربه حين هرب من وجه (ابشالوم) ابنه قائلاً : يا رب ما اكثر مضايقي كثيرون قائمون عليّ ، كثيرون يقولون لنفسي ليس له خلاص بالهه .

والمزمور الرابع يبدو انه كان على عود موسيقى او مزمار من البوص كما عنونوا له في سفر المزامير فهو يقول : (لكلماتي اصغ يا رب ، تأمل صراخي ، استمع لصوت دعائي ، يا ملكي والهي لاني اليك اصلي ، يا رب .. بالغداة تسمع صوتي بالغداة اوجه صلاتي نحوك وانتظر) .

لكن المزمور السادس يطالعنا بهذه النغمة النشاز والتي يجب ان لا تكون في رجاء العبد لربـه فضلاً عن ادب النبي في مقام مناجاته ويبدو ان الدعاء هنـا كان ايضاً على وتر : (يا رب لا توبخني بغضبك ولا تؤدبني بغيظك ، ارحمني يا رب لاني ضعيف ، اشفني يا رب لان عظامي قد جفت ونفسي قد

ارتاعت جداً وانت يا رب فحتى متى – عد يا رب نج نفسي خلصني من اجل رحمتك لانـــه ليس في الموت ذكرك ، في الهاوية من يحمدك ؟ . تعبت في تنهدي ، اعوّم في كل ليلة سريري بدموعي اذوّب فراشي ، شاخت من الغم عيني ، شاخت من كل مضايقي) .

ولا يختلف مضمون المزمور السابع عن سابقه مـع انه كما عنون لـــه : (شجويه) غناها داود للرب بسبب كلام (كوش البنياميني) .

ومن العجيب ان يجيء واحـد من كتاب الكنيسة اتباع العهـد الجديد ويقول :(أن ترتيب المزامير قد جاء في غاية اللياقة والاتساق ويضرب مثالاً على ذلك مزامير رقم ٢٢ – ٢٣ – ٢٤ ويقول [١] ان مزمور رقم ٢٢ يرسم امامنا آلام (المسيا أي المسيح) التي تحملها لاتمام عمل الفداء والتي كان فيها متروكاً من الله لاجل مجده العـــالي والتي تؤول الى جريان النعمة في ازدياد مستمر حتى ترجع الى الرب كل اقاصي الارض ، وبره سيخبر بـــه شعب سيولد بأن الرب قـد فعل . وفي مزمور ٢٣ نرى نتيجة لذلك الفداء الذي تم : ان الرب هو الراعي الذي يعتني بقطيعه ويحرسه لا سيما في الوقت الذي يملك فيه الشر وفي مزمور ٢٤ نرى الاحتفال بدخول ملك المجد من الابواب الدهرية إلى ملكوته وإلى بيت الرب) .

فأي اتساق وأي كمال ولباقة في هذا النموذج الذي أورده كاتب مفاتيح كنوز الأسفار الألهية : انه لا اتساق بين المواضع الثلاثـة التي أوردها فضلاً عن عدم صلتها تماماً بنصوص المزامير الثلاثة المسجلة في سفر المزامير بين أسفار العهد القديم فالمزمور رقم ٢٢ يقول بالحرف :(إلهي إلهي لماذا تركتني بعيداً عن خلاصي عن كلام زفيري ، إلهي في النهار أدعو فلا تستجيب في الليـل أدعو فلا هدوء لي ، وأنت الجالس بين تسبيحات اسرائيل ، عليك اتكل

(١) (متى بهنام) الجزء الاول في مفاتيح كنوز الاسفار الالهية صفحة ١٨٧ .

آباؤنا ، اتكلوا فنجيتهم اليك صرخوا فنجوا ، عليك اتكلوا فلم يخزوا أما أنا فدودة لا إنسان ، عـــار عند الشعب ومحتقر الشعب كل الذين يرونني يستهزؤون يعفرون الشفاه وينغضون الرأس قائلين: اتكل على الرب فلينجه لأنه سر به ، لانك جذبتني من البطن جعلتني مطمئناً على ثدي أمي ، عليك القيت من الرحم من بطن أمي ، أنت إلهي لا تتباعد عني لأن الضيق قريب لأنه لا معين) .

ومن هذا تمضي باقي فقرات المزمور .

أما المزمور رقم ٢٣ فيقول هو الآخر بالحرف :(الرب راعي فلا يعوزني شيء ، في مراع خضر يربضني ، إلى مياه الراحة يوردني، يرد نفسي يهديني إلى سبل البر من أجل اسمه ايضاً إذا سرت في واد ظل الموت لا أخاف شراً، لانك أنت معي ، عصاك وعكازك هما يعزيانني ، ترتب قدامي مائدة تجـــاه مضايقي مسحت بالدهن رأسي كاسي ريّا إنمـــا خير ورحمة يتبعانني كل أيام حياتي ، واسكن في بيت الرب الى مدى الايام) .

هذا هو ما تضمنه المزمور الثالث والعشرون بالنص .

أمـــا المزمور الرابع والعشرون فهو على الوجه التـــالي : (للرب الارض وملؤها المسكونة وكل الساكنين فيهــــا لانه على البحار أسسها وعلى الانهار ثبتهـــا ، من يصعد الى جبل الرب ومن يقوم في موضع قدسه الطـــاهر اليدين والنقي القلب الذي لم يحمل نفسه الى الباطن ولا حلف كذباً ، يحمل بركة من عند الرب ونجاة من إله خلاصه ، هذا هو الجيل الطالبة الملتمسون وجهك يا يعقوب سلاة [١] . ارفعن ايتهـــا الارتاج رؤوسكن وارتفعن ايتهـــا الابواب الدهريات فيدخل ملك المجد ، من هو هذا ملك المجد : الرب القدير الجبـــار

---

(١) هذه العبارة (سلاة) اشبه ما تكون باللازمة الموسيقية وسنراها سمة بارزة في معظم فقرات المزامير .

الرب الجبار فى القتال، ارفعن ايتها الارتاج رؤوسكن وارفعنها ايتها الابواب الدهريات فيدخل ملك المجد ، من هو هذا ملك المجد ، رب الجنود هو ملك المجد سلاة) .

هذه هي المزامير الثلاثة كما وردت في السفر ، فأين صورة آلام المسيح التي تحملها لإتمام عمل الفداء كما يقول صاحب (مفاتيح كنوز الأسفار الإلهية).

أهو ملك المجد : الفقرة الثامنة التى جاءت في المزمور الرابع والعشرين المسيح عيسى بن مريم لم يكن جباراً في الحرب ولم يحارب أصلاً .

الطاهر اليدين والنقي القلب : ان الفقرة السادسة من المزمور الرابع والعشرين قد اوضحت انه الجيل الملتمس وجه يعقوب . نحن لا نتصور معنى معقولاً لما يقوله صاحب (مفاتيح كنوز الأسفار الإلهية) في الجزء الاول صفحة ١٨٧ : (في أماكن عديدة نرى بصورة واضحة وبكيفية اخاذة ان ترتيب المزامير هو في غاية اللياقة والاتساق مثال ذلك مزمور رقم٢٢—٢٣—٢٤ فمزمور ٢٢ يرسم أمامنا آلام المسيح التي تحملها لإتمام عمل الفداء والتي فيها كان متروكاً من الله لأجل مجده العالي، والتي تؤول الى جريان النعمة بازدياد مستمر حتى ترجع الى الرب كل أقاصي الارض وبره سيخبر به شعب سيولد بأن الرب قد فعل وفي مزمور ٢٣ نرى نتيجة لذلك الفداء الذي تم ان الرب هو الراعي الذي يعتني بقطيعه ويحرصه ولا سيما في الوقت الذي فيه يملك الشر وفي مزمور ٢٤ نرى الاحتفال بدخول ملك المجد من الابواب الدهرية الى ملكوته والى بيت الرب) .

مرة ثانية ما علاقة هذه الحاشية في مفاتيح كنوز الاسفار الإلهية بمضمون ونص المزامير التي أتينا عليها من قبل ، نعتقد انه بسبب قصور الادراك في

فهم العلاقة بين العهد القديم والجديد وايضاً بسبب الجهود اليهودية المسيحية لربط الكتاب المقدس بعهديه في وحدة موضوعية الكتاب المقدس أبعد ما يكون عنها .

هـذا ويستمر القسم الاول أو الموضوع الاول من تقسيمة المزامير المـائة والخمسون الذي يبـدأ بالمزمور الاول وينتهي بالحادي والاربعين في ترنيمـة موسيقية حتى تطالعنا أنغام المزمور الثالث والثلاثين وينسى الكتّاب الذين سجلوا المزامير أن يقولوا لنا لمن تكون لكن يبدو انها ايضاً منسوبة لداود فالمزمور الثاني والثلاثين سجل تحت عنوان : (لداود قصيدة) والرابع والثلاثون سجل تحت عنوان : (لداود عندما غير عقله قدام ابي مالك فطرده فانطلق)ولم يخرج المزمور الثالث والثلاثون عن مضمونها الموسيقي والشعري، يقول المزمور الثالث والثلاثون : (اهتفوا ايها الصديقون بالرب ، بالمستقيمين يليق التسبيح احمدوا الرب بالعود ، بربابة ذات عشرة أوتار رنموا له غنوا له أغنية جديدة ، احسنوا العزف بهتـاف لأن كلمة الرب مستقيمة وكل صنعه بالامانة ، يحب البر والعدل ، امتلأت الارض من رحمة الرب ، بكلمة الرب صنعت السموات وبنسمة فيه كل جنودها) .

أما المزمور السابع والثلاثون والمنسوب في المزامير (لداود) ايضاً ففيه وصايا وعظات طيبة إذ يقول : (لا تغر من الاشرار ولا تحسد عمـال الإثم فانهم مثل الحشيش سريعاً يقطعون ومثـل العشب الأخضر يذبلون ، اتكل على الرب وافعل الخير، اسكن الارض وازرع الامانة، وتلذذ بالرب فيعطيك سؤال قلبك ، سلّم للرب طريقك واتكل عليـه وهو يجري ويخرج مثـل النور برك وحقـك مثـل الظهيرة ، انتظر الرب واصبر له ولا تغر من الذي ينجح في طريقه، من الرجل المجري مكايد، كفّ عن الغضب واترك السخط ولا تغر لفعل الشر لان عاملي الشر يقطعون، والذين ينتظرون الرب هم يرثون

الارض بعد قليل لا يكون الشرير تطلع في مكانه فلا يكون ، أما الودعاء فيرثون الارض ويتلذذون في كثرة السلامة [1] .

والطابع العام الغالب على المزامير في القسم الاول من تقسيمة كتاب العهد القديم من المزامير من الاول حتى الحادي والاربعين هو تلك السمة التي يبرز فيها نغم الشعور بالمعصية والمذلة أمام الرب من كثرة الذنوب والمآثم التي وقع فيها الشعب الاسرائيلي وجاء النساخ والكتاب ليدونوا ذلك النمط الآسي الحزين من المزامير والذي يفيض بالمرارة واللوعة .

(١) (سفر المزامير) المزمور السابع والثلاثون فقرات ١ - ١١ .

الكتاب الثاني من المزامير

الكتاب الثاني او القسم الثاني من التقسيم الشائع للمزامير والذي يبدأ من المزمور الثاني والاربعين حتى الثاني والسبعين نرى فيه الفاظاً مختلفة الدلالة على اسم الجلالة منها : (يهوه) وهو الاسم الخاص لاله اسرائيل ، (الوهيم) وهي في العبرية لفظة عامة للدلالة على اسم (الله) عندهم .

وهذا القسم من المزامير يستعمل كلمة (الله) اكثر من غيره ويلاحظ ان القسم الاول من المزامير كان اسم الجلالة فيه يرد باسم (الرب) وقد استعملت فيه ٢٧٢ مرة ولم تستعمل كلمة الله الا ١٥ مرة خمسة عشر مرة فقط اما هنا فاسم الجلالة قد جاء باسم (الله) ١٦٤ مرة ولم يجيء باسم (الرب) الا ٣٠ مرة ثلاثون مرة .

وفي سبعة مزامير منسوبة :(لبني قورح) ليس فيها ما ينسب الى(داود)[١].

وهـذا القسم من المزامير على ضوء التقسيم الشائع للمزامير يبدأ بقصيدة لامام المغنين : (لبني قورح) يقول فيهـا المزمور الثاني والأربعون : (كما يشتاق الايّل) الى جداول المياه هكذا تشتاق نفسي اليـك يا الله عطشت

---

(١) (القس وليم مارش) : (السنن القويم في تفسير أسفار العهـد القديم) الجزء السادس ص ١١٩ .

نفسي الى الله ، الى الاله الحي ، متى اجيء واتراءى قدام الله صارت لي دموعي خبزاً نهاراً وليلاً ، إذ قيل لي كل يوم اين الهك [1] .

وتريد هذه الفقرات ان تقول كما يعرج الايل على جداول المياه حينما يعطش فان نفس المغنى هنا عطشى تطلب الله وتشتاق اليه لانه نبع الحياة ، وهو الذي يجري ينابيع النعمة التي لا تنضب ولا تنقطع ، وفي هذا العدد من المزامير يشرح لنا المغنى [2] . لماذا شوقه فهو لا يغتذي بالطعام المادي ولا يرتوي بالشراب العادي بل يريد عون الهه ، وذلك لكي يدحض به اداعاءات مبغضيه الهازئين به الذين يسألون محقرين : اين الهك هذا لكي ينجيك .

هذا ويطالعنا المزمور الرابع والاربعين بصورة من الهوان والمذلة التي وصل اليها بنو اسرائيل ، (واغلب الظن ان ذلك الحال كان ايام المكابيين) حينما حاول اليهود الثورة على : (انطيوخس ابيفانوس) ولم ينجحوا فتعرضوا لنوع من الاضطهاد كان قاسياً ، ويعضد هذا الرأي ان هذا المزمور الرابع والاربعين والذي يستغيث به ناظمه بربه ويذكره بأياديه وكرمه على آبائه ينسب اليه المزمور الخامس والثمانون وفيه يقول : (رضيت يا رب على ارضك ارجعت سبى يعقوب غفرت اثم شعبك ، سترت كل خطيتهم) [3] .

اما هنا فيبدأ المرنم او المغني بذكريات قديمة منذ ايام موسى ويشوع ويظهر في لغة الناظم الفرق بين الماضي والحاضر ، ففي الماضي لم يكن مجد اسرائيل بذراعه او قوته بل بقوة الله التي خلصتهم وعاونتهم وصاروا في وسط الصعاب بنور وجهه الذي اشرق عليهم ، والفقرة الرابعة من هذا المزمور الرابعة والاربعين تقول : (انت هو ملكي يا الله فأمر بخلاص يعقوب) .

---

(١) (المزمور الثاني والاربعون) فقرات : ١ — ٤ .

(٢) (المزمور الثاني والاربعون) معنون بأنه لامام المغنين (قصيدة لبني قورح) .

(٣) (المزمور الخامس والثمانون) فقرات : ١ — ٣ .

ولغة الناظم هنا رقيقة ورفيعة المستوى فالناظم يريد ان يقول : ان الله هو الملك والسيد وشعب اسرائيل هم بحمايته يعيشون فان كان الله هو الملك فلمن يذهب شعبه ؟ لكن الناظم ينحدر فجأة من مستوى ادبي لا بأس به كان يتعامل به مع الله ومن خلاله يطلب في رجاء عون ربه وحمايته لشعب اسرائيل: (فأمر بخلاص يعقوب) الى طلب الهجوم وتوسيع الرغبات وتحقيق الاماني والتمثيل بالاعداء ، فبعد الفقرة الرابعة التي تقول (انت هو ملكي يا لله فأمر بخلاص يعقوب) تجيء الفقرة الخامسة على هـذا المستوى العدواني : (بك ننطح مضايقتنا ، باسمك ندوس القائمين علينا) .

وبغير ادنى ارتباط موضوعي بين المزامير يطالعنا المزمور الخامس والاربعون بقصيدة حب على : (السوسن) لامام المغنين لبنى (قورح) في ترنيمـة محبه [1] تقول الفقرات الاولى من المزمور : (فاض قلبي بكلام صالح متكلم انا بإنشائي الملك : لساني قلم ماهر ، انت ابرع جمالاً من بنى البشر انسكبت النعمة على شفتيك لذلك باركك الله الى الابد) .

هـذا الكلام في الحب البشري حاول سفر العبرانيين كما يقول صاحب السنن القويم [2] في الجزء السادس صفحة ١٢٧ ان يعده (نبوءة) ووصفاً بارعاً لما سيكون عليه المسيح ، لكن هذا الرأي لم يقبله جمهور شراح المزامير وانتهوا الى انه ترنيمة محبة بشرية كما جاء في عنوان المزمور، وقد نظم لأجل ظرف خاص هو : زواج الملك أو ابنه والشاعر الناظم معاصر لهما فتكلم عن أمور جرت أمام عينيه [3] .

وبدء الكلمات يستوقف النظر فان قلب الشاعر قد امتلأ حتى فاض بالحب

---

(١) انظر عنوان المزمور الخامس والاربعون في سفر المزامير من العهد القديم في الكتاب المقدس .

(٢) (وليم مارش) في السنن القويم في تفسير أسفار العهد القديم الجزء السادس ص١٢٧ .

(٣) » » » » » » » » » » » » » ص١٣٧ .

وفيضه كان بأشياء صالحة ونظيفة ويقول: إنه يسره ان يكون لسانه مترجماً عما في أفكاره من معـان ويتمنى أن يسرع في التعبير حتى يكاد يسابق قلم الكاتب الماهر ويقول ان الموضوع جليل وأجلّ منه شخص الملك الذي يتكلم عنه فلا عجب ان فاض في الكلام ، فالموضوع هو جمال الملك وبهاؤه فيقول الشاعر انه بالرغم من كل مهارته في الكلام والتعبير سيظل عاجزاً عن إيفاء الملك حقه في المديح لا سيما وان هذا الملك قد اشتهر ببلاغة الكلام لانه بنعمة الله يفعل ذلك وبعد أن يصف مظهره الخارجي بالجمال والجلال ، يقول انه لا يعني ذلك الشيء الفاني الزائل ولكنه جمال النعمة السماوية والبركة .

أمـا المزمور (الستون) فهو يسمونه في التراث الاسرائيلي : إحدى المذهبات التي تنسب لداود ، وهو قد يخرج عن الروح العامة للقسم الثاني من مجموعة المزامير والتي يتغلب فيها نظم بني قورح واساف على نظم داود وهي روح باكية متضرعة أو متـألمة شاكية ، فروح هـذا المزمور فيها من القوة ومرويات التاريخ ما لا ينسجم والسياق العام لمجموعة القسم الثاني من المزامير والتي تبـدأ بالمزمور الثـاني والاربعين حتى الثاني والسبعين . تقول فقرات المزمور التي لا تتعدى اثنتي عشر فقرة عنونت تحت هذا العنوان الطويل : (لامام المغنين على السوسن ، شهادة مذهبة لداود للتعليم ، عند محاربة آرام النهرين وآرام صوبه ، فرجع يوآب وضرب من ادوم في وادي الملح اثني عشر الفاً) . هـذا العنوان الطويل المزمور رقم ٦٠ تبدأ أولى فقراته على هـذا الوجه وتقول: (يا الله رفضتنا ، اقتحمتنا ، سخطت أرجعنا زلزلت الارض قصمتها ، اجبر كسرها لأنهـا متزعزعة ، أريت شعبك عسراً ، سقيتنا خمر الترنح ، اعطيت خائفيك ، ترفع لأجل الحق ، « سلاه » لكي ينجو احباؤك خلّص بيمينك واستجب لي) ..

هذا الكلام ينسب الى (داود) في ظرف معيّن عندما كان يحارب بين النهرين وعندما كان يحارب (آرام صوبـه) بين الفرات والعاصي ، وكان

يوآب قد ضرب ادوم في وادي البحر الميت ، ويدعى هـذا النص الذي بين أيدينا انه قد ضرب ادوم وضرب منهم اثني عشر الفاً ، بينما سفر صموئيل الثاني في الاصحاح الثامن في الفقرة رقم ١٣ عن نفس الموقعة ساقت رقماً غير هذا الرقم تقول فقرة صموئيل الثاني : (ونصب داود تذكاراً عند رجوعه من ضربه ثمانية عشر الفاً من آرام في واد الملح) .

والاصحاح الثامن عشر من سفر الأخبار الايام الأول تقول الفقرة رقم ١٢ منه : (وابشاي) ابن صروية ضرب في ادوم في وادي الملح ثمانية عشر الفاً .

فالقائد (أبشاي) و (يوآب) كانا من قواد (داود) الملك فما جاء في السفرين المشار اليهما عن عدد الذين تم قتلهم يتنافى مع العـدد الذي ورد في المزمور رقم ٦٠ .

وأمـــام مثل هذا الخلل في رواية الحدث الواحد في العصر الواحد يجد الباحث نفسه في حيرة أمـام رواية الأسفار الثـلاث : أيصدق رواية سفري صموئيل الثاني وأخبار الأيام الأول باعتبارهما سفران تاريخيان ويكذب رواية المزمور رقم ٦٠ وهو المنسوب لداود ؟ وأياً كان الأمر فالذي لا جدال فيه ان الرواية التاريخية أياً كان نوعهـا في معطيات كتّـاب أسفار العهد القديم ليست دقيقة والمثال الذي بين أيدينا برهان واحد من كثير .

ومن مجموعـة القسم الثاني من المزامير يطالعنا المزمور التاسع والستون لإمام المغنين على السوسن (لداود) . وفقراته تؤكد ما سبق ان قلناه وهو ان الوحدة الموضوعية لم تكن تشغل بال الذين دوّنوا المزامير تمامـاً ، فضلاً عن عدم الاتساق وعدم تحديد فتراته التاريخية التي تتحدث عنهـا أخبـار العهد القديم ، فهذا المزمور يعود بنا الى صرخات الاستنجاد بأثر من حـال الحزن والشقاء الذي تحمـله نفس المرنم ، أكان داود صاحب هذا المزمور أم غيره وهذا المزمور تبدو فيه واضحة روح الفرد الإنسان بينما المزمور السابق

عليه الثامن والستون كان يفيض بالحديث عن الجماعـة ، بل الفقرة رقم ٣٢ منه تقول : (يا ممالك الارض غنوا لله رنموا للسيد سلاة) .

ويرجح شراح العهـد القديم ان مثل هـذا المزمور ترنم بـه داود وقت اضطهاد شاول ، فكان داود يصرخ من أعماق قلبه يطلب الخلاص من الله . هــذا وتشبه لغة هـذا المزمور التاسع والخمسون وان كان فريقـاً من المفسرين اللاهوتيين يعزو كتابته (لارميا) وليس لداود بالنسبة للاضطهاد الذي احتمله ارميا من أهل قريته،والصورة التي أمامنا على ضوء نص المزمور ان المرنم في حالة الغرق والضيـاع ، والويلات حوله تطغي عليه حتى تشبه الطوفان الذي تطغي مياهه على كل شيء حولها ، وقوله: (دخلت الى نفسي) أي لم تعد هذه الويلات خارجية بل أصابت المؤمن المرنم ، والشيء المؤسف هو ان المرنم أصبح مدعاة الهزء والسخرية فقد غرق في حمأة مملوءة بالاوحال وهذه الحمأة لا مفر لها من كثرة عمقها فهي تبتلع كل من ينزل فيها ولا يعود يظهر ، وقد تبين له انه قد رسب في العمق ، وقد أصبح في حالة اليأس لأنه كلَّ من الصراخ بدون جدوى ، وقد نشف حلقه ويبس .

ولننظر الى المزمور وهو يقول : (خلصني يا الله لأن الميـاه قد دخلت الى نفسي غرقت في حمأة عميقة وليس مقر ، دخلت إلى أعماق المياه والسيل غمرني ، تعبت من صراخي ، يبس حلقي ، كلَّت عيناي من انتظار إلهي ، أكثر من شعر رأسي الذين يبغضونني بلا سبب اعتز مستهلكي اعدائي ظلماً ، حينئذ رددت الذي لم اخطفه .

وينتهي القسم الثاني بالمزمور رقم ٧٢ والمنسوب لسليمان وهو مزمور يثير كثيراً من الجدل حوله فلغته لا تدل على ان ناظمه (سليمان) أو أبيه (داود) فأول فقرة فيـه تقول : (اللهم) اعط أحكامك الملك ، وبرّك لابن الملك يدين شعبك بالعدل ومساكينك بالحق.. وأمام هذه المفارقة التدوينية يضطر القس : (وليم مارش) صاحب مجموعة السنن القويم في تفسير أسفار العهد

القديم أن يقول في الجزء السادس : ليس من الضرورة أن يكون العنوان لسليمان ان يكون سليمان قد كتبه بل انه كتب في وصف سليمان ومدح ملكه لا سيما وان عصر سليمان هو العصر الذهبي الممتاز في مملكة اسرائيل الموحدة فالناظم يذكر أمجاد عصر قديم يجعله مثالاً عالياً للعصر الذي عاش فيه كما نفعل نحن اليوم ، وكثيرون من الناس حينما نقول : (سقى الله أياماً مضت). ولكن الصعوبة هنا ان المزامير كلها يوضع عليها عادة اسم ناظميها فكيف نستطيع تغيير هذا الترتيب ، ولا شك ان نسق الكتابة يبعد كثيراً عن نسق داود وهو أقرب لضرب الامثال لتصوير المعاني واختصارها ، والناظم قد اطلع على سفر ايوب الذي يظن انه كتب في عصر سليمان ، وربما كان هذا المزمور لتحية ملك ممسوح جديدة ، وكان يغنى الشعب ابتهاجاً بذلك. ولذلك فان الكنيسة المسيحية قد استعملت هذا المزمور لعيد دخول المسيح إلى الهيكل .

يذكر المزمور اسم :(الوهيم) العبري في الافتتاح بقوله : (اللهم) فهو إذن من مزامير : (الوهيم) والصلاة موجهة اليه لكي يعطي أحكامه للملك الذي هو ابن ملك أيضاً أي من سلالة ملوكية عريقة ، أي أن يعطى الحكمة حتى تكون آراؤه مصيبة ، وقضاؤه عادلا ولا يكفي أن يطلب له الاحكام بل والبر أيضاً .

يقول المزمور : (اللهم اعط احكامك للملك وبرّك لابن الملك يدين شعبك بالعدل ، ومساكينك بالحق ، تحمل الجبال سلاماً للشعب ، والاكام بالبر يقضي لمساكين الشعب يخلص بني البائسين ويسحق الظالم) .

وبين ثنايا المزمور تجيء الفقرات التي تتحدث عن العلاقات التي كانت لمملكة هذا الملك الذي باركه الرب ومنحه سلطاناً واسعاً يصل من البحر الأحمر إلى البحر الابيض ومن الفرات إلى أبعد مدى .

(ويملك من البحر إلى البحر ومن النهر إلى أقاصي الأرض ، أمامه تجثو أهل البرية وأعداؤه يلحسون التراب) [١] .

وليت الأمر يقف بالمزمور عند هذا الحد من الدعوى عن المملكة التي ما ان مـــات مؤسسها حتى تمزقت على الفور إلى مملكتين وإلى قوى متصارعة وإنما : (... ملوك (ترشيش) والجزائر يرسلون تقدمة ، ملوك (شبا) وسبأ يقدمون هدية ويسجد له كل الملوك ، كل الأمم تتعبد له) .

هــذا الملك صاحب السلطان والسطوة له هيبة في قلوب الناس في أبعـد الأمكنة حتى ترشيش (لعلهـا اسبانيا) [٢] وجزائر البحر حتى كريت وما جاورها .

بهذا النغم الذي يسوق دعوى الملك والتوسع والقوة والسلطان يغلب على الطابع العام لهذا المزمور هذه السمة التي تسوق، دعوات بغير مقدمات دون غيره من المزامير .

وهكذا تنتهي المجموعة الثانية من المزامير التي تبدأ من الثاني والاربعين حتى هذا المزمور الثاني والسبعون أتينا على نماذج منها للتعرف من خلالها على المناخ العام الذي تعبّر عنه المزامير ولنقف على أهم قضايا التراث الاسرائيلي الذي تدعيه المزامير وتعرضه في لغـة تفتقد التكامل الموضوعي والعقائدي ، ولعلنا قد انتهينا إلى انـــه ليس بين المزامير وخاصة المجموعة الثانية أدنى ترابط موضوعي أو تدويني فهذا القسم من المزامير رأينا فيه مجموعة (لداود) وأخرى لنبي (قورح) وثالثة (لاساف) ومزمور (لسليمان) ليس فيه ما يدل على علاقة سليمان عليه السلام به بل ان ختام هذا المزمور فقرة تقول بالحرف (تمت صلوات داود بن يسى) .. ومهما تكن التبريرات والتفسيرات اللاهوتية

---

(١) المزمور ٧٢ فقرات : ٨ — ٩ .
(٢) الجزء السادس ص ٢٢٧ من (السنن القويم في تفسير أسفار العهد القديم) .

حول هذا الخلط والخلل الذي تقول عنه التفسيرات اللاهوتية في أنه العبرة في التسمية بمبدع هذا النوع من الشعر الغنائي والديني وانه ليس من الضرورة أن يكون كل مـا يحمله اسم داود ان يكون من نظمه بل ربمـا يكون من روحه (١) فان هذا الكلام لو سلم به لأصبح دليلاً على ان المزامير قد قـام بنظمها العديد من الكتّاب نسبت إلى أنبياء الله وبالتالي تفقد ما يدعي الشارحون لها من انها ثمار روح الايمان والالهام إلى الأنبياء القدامى من بني اسرائيل ابّان المحن والآلام التي تعرض لها الشعب، أو في مراحل الذكريات واجترار الأحداث أو في قمة النعمة التي ساقها الله للشعب في بعض مراحله هذا ولا تعدو المزامير على ضوء ما قدمنا مما انتهى الينا حالها وما توحي به في المدونات التي هي فيها اليوم إلا أن تكون نوعـاً من العزاء والأدعيات والمناجات الدينية التي استحضرها مجموعة مـن الكتّاب في اسرائيل ابان العصر المكابي وأثناءه أو بعده بقليل كنوع من الاسى والحسرة لكل صور المآثم والمفاسد التي مرت بالمجتمع الاسرائيلي عبر مراحل تاريخه الطويل .

---

(١) الجزء السادس ص ٢٢٨ من (السنن القويم في تفسير اسفار العهد القويم) .

القسم الثالث من المزامير

هـــذا القسم الثالث من تقسيم المزامير من خمسة كتب او اجزاء يتناول المزامير من الثالث والسبعين حتى التاسع والثمانين وملخص هذا الجزء كما هو في التراث الاسرائيلي : ان الله قد صار لأنقياء القلب من بني اسرائيل .

وفي هذا القسم نرى على ضوء تفسيرات علماء التراث الاسرائيلي اهتمام الله بهذا الشعب كما يشار فيه بصورة بارزة الى : (القدس) . وليس في هذا القسم إلا مزموراً واحداً (لداود) هـو المزمور رقم ٨٦ امـا باقي المزامير فكلها (لاساف) او (لأبناء قورح) من اللاويين .

ويرى شراح التراث الاسرائيلي ان المزمور رقم ٧٣ يتكلم عن اسرائيل فبوياً اي بالأشارة والوحي بينما مزمور رقم ٧٤ يتحدث عن اعدائهم واعداء يهوه ويرون في المزمور رقم ٧٥ برهاناً على المسيح متداخلاً ليقضي بالعدل عندما تذوب الأرض وكل سكانها .

اما المزمور السادس والسبعون فهو الذي يتكلم عن القضاء الرهيب الذي سيحمل بملوك الأرض عندما يسكن (يهوه) في صهيون ، وستكون هناك نجاة داخلية كما يقص المزمور ٧٧ لكن المزمور رقم ٧٨ هو الذي يحدثنا انه بعد النجاة ورجوع اسرائيل إلى أرضه ستظهر كراهية الامم لهم، وحمقهم عليهم.

وفي المزمور رقم ٣٠ الشعب يصلي إلى راعي اسرائيل بان يشرق ، وان تكون يده على رجل ميت — ابن آدم — أي ابن الإنسان .

والمزمور رقم ٨١ يدعو إلى النفخ بالبوق في رأس الشهر عند الهلال وفي ذلك إشارة إلى إيقاظ وجمع اسرائيل ، كما ان المزمور رقم ٨٣ ينذر القضاة بقيام (يهوه) لادانة الأرض ، وان تحالف الامم صغيراً كان او كبيراً لن يفلح وان طمع تلك الشعوب في امتلاك (مساكن الله) سيؤول إلى اعلان بأن الذي وحده اسمه (يهوه) هو العلي على كل الأرض ، ويعلن المزمور رقم ٨٤ ان البركة ، او الطوبى للساكنين حيث يسكن (يهوه) أي في بيته ثم لمن يصعدون إلى هناك لان طرق بيته في قلوبهم .

هذا ويعلن المزمور رقم ٨٥ في سجل التراث الاسرائيلي رضى الله على ارضه وشعبه ولو كان ذلك لن يتم نهائياً الا عندما يسكن المجد في تلك الأرض .

اما مزمور رقم ٨٧ فيشير إلى امجاد صهيون بالمباينة مع عظماء الأرض الذين تسلطوا عليها قبلا ومع ذلك فاننا نجد في المزمور رقم ٨٨ صرخة مرّة تعبر عن تعرض النفس لغضب الله بسبب وجودها تحت الناموس المكسور ، ولكنها تصرخ اليه لأجل الخلاص ، ونتيجة لذلك نجد في المزمور رقم ٨٩ اغنية حمد لأجل مراحم (يهوه) المبنية على عهده غير المتغير في عقيدة القوم ونظرتهم للتراث

هذا هو مضمون القسم الثالث من المزامير والمتضمن الاعداد من رقم ٧٣ حتى رقم ٨٩ في سفر المزامير على ضوء تناول التراث الاسرائيلي له فما الذي يمكن ان يراه الباحث في رحلة هذه المزامير الستة عشر التي يتضمنها القسم الثالث عند شراح المزامير .

أولاً : المزمور الثالث والسبعين تقول اولى فقراتـه : (إنمـا صالح الله اسرائيل لأنقياء القلب اما انا فكادت تزل قدماي ، لولا قليل لزلقت خطواتي لأني غرت من المتكبرين إذ رأيت سلامـة الاشرار ، لأنـه ليست في موتهم شدائد وجسمهم سمين ليسوا في تعب الناس ومع البشر لا يصابون لذلك تقلدوا

الكبرياء ، ليسوا كثوب ظلمهم ، جحظت عيونهم من الشحم ، جازوا تصورات القلب ، يستهزئون ويتكلمون بالشر ظلماً من العلاء يتكلمون) .

واضح هنا تماماً ان المرنم في هـذا المزمور تقلب على تجربة الارتداد عن الايمان واستطاع ان يتمسك بالهه مرة اخرى بصورة ارسخ واثبت . لقد كان من قبله متردداً ضعيف الارادة يذهب مع كل ريح لأن إيمانه كان إسماً ظاهرياً أما الآن فأصبح إختيارياً حقيقياً ، وافتتح الكلام بـ (إنما) التي يعنون بها شراح المزامير (هكذا) [1] . ويبدو ان المرنم كان يتكلم عن اخبار شخص كان فيه صريحاً يتكلم عن نفسه بكل تواضع وخجل ولا يخفي انـه كان في خطر الخطيئة والاضمحلال من جزاء آثامه .

والمزمور الثاني في القسم الثالث أي المزمور رقم ٧٤ وهو قصيدة لاساف صاحب المزمور الثالث والسبعون وصاحب تجربة الارتداد عن الايمان والعودة له ينقلنا إلى مشهد مغاير تماماً لما يخبر عنه المزمور السابق هذا المزمور يعبر عن زمان اضطهاد ويستنجد بالله ان ينهض لمعاقبـة العدو الذي دنس مقادس الله وهدم معابده ، وكأنما لم يعد اثر لنبي الله بعد (لماذا رفضتنا يا الله إلى الابد لمـاذا يدخن غضبك على غنم مرعاك اذكر جماعتك التي اقتنيتها منـذ القدم وفديتها سبط ميراثك ، جبل صهيون هذا الذي سكنت فيه ارفع خطواتك إلى الخرب الابدية ، الكل قد حطم العدو في المقدس) .

والمرنم في هذا المزمور يعود إلى الذكريات القديمة التي يمليها عليه التراث الاسرائيلي من ان الله اقتنى شعبه خاصة لنفسه ، والمرنم وهو يراجع التاريخ يذكر شعب اسرائيل بكامله ثم يأتي لسبط ميراثه وهو على الارجح (يهوذا) الذي منه خرج الملوك في اورشليم ويعود فيزيد ايضاحاً حينما يخصص جبل

---

(١) الجزء السادس صفحة ٢٢٩ من موسوعـة القس وليم مارش (السنن القويم في تفسير اسفار العهد القديم) .

صهيون حينما قام الهيكل وهو الموضع المقدس فى التراث الاسرائيلي المخصص للعبادة ، ويرجو المرنم من الله ان يرفع خطواته صاعداً إلى الجبل (الموريا) حينما يقوم الهيكل الخرب لكي يرى ما تركه العدو من خراب وما حطمه من أقدس الأشياء وأغلاها، فقد تمادى هذا المخرب في غيه وعدوانه، فقد امتهن كل شيء ، وعند هذه النقطة يتساءل المرنم كيف يجوز أن يذهب هذا الجاني الأثيم بدون أي عقاب ؟

ثم يطالعنا المزمور السادس والسبعون بتقرير معرفـة الله في يهوذا واسمه العظيم في اسرائيل ومظلته ومسكنه في صهيون كما يفيض هـــذا المزمور بالتبجيل والثنـــاء على اسم الله العظيم الذي ظهرت قوته العظيمة وجبروته وسلطانه الذي بهما سحق السهام في الهدوء من قبل أعداء اسرائيل . ويحدثنا هذا المزمور عن سحق الله المجن وكل أنواع الاسلحة المسنونة والمعدة للقتال إذ لم يستطع الاعداء أن يصمدوا في وجه الرب الذي جاء لنجدة شعبه وينتهي الكلام بنغم موسيقي مرتفع لزيادة تمجيد اسم الله وتكريمه لأنه وحده يستحق السجود والعبادة الى منتهى الدهور. ولننظر الى فقرات المزمور وهي تقول : (الله معروف في يهوذا اسمه عظيم في اسرائيل كانت في ساليم مظلته ومسكنه في صهيون ، هناك سحق القسي البارقة ، المجن والسيف والقتال (سلاه) أبهى انت أمجد من جبـــال السلب سلب أشداء القلب ناموا سنتهم كل رجال البأس لم يجدوا أيديهم ، من انتهارك يا إله يعقوب ، يسبح فارس وخيل انت مهوب انت فمن يقف قدامك حال غضبك ، من السماء أسمعت حكماء الارض فزعت وسكنت عند قيام الله للقضاء لتخليص كل ودعاء الأرض – سلاه – لان غضب الانسان يحمدك بقية الغضب تنطق بها) .

هذا ويختم المزمور التاسع والثامنون القسم الثالث من تقسيمة المزامير الخمس وهو كما جاء في سجل المزامير : (قصيدة لايثان الازراحي) يبتهل فيها الى الله لكي يجدد مراحمه على عبده داود أي على نسله الى الابد وايثان الازراحي

هو أحد الموسيقيين الثلاثة مع أساف وهمان وكان رئيساً على ست فرق فرعية ترأسها بنوه الستة [1] .

وقد يكون هذا المزمور من بين المزامير القليلة التي يمكن أن يجزم شراح العهد القديم بظروف نظمه : (ذلك انه في السنة الخامسة لملك) (رحبعام) ابن سليمان قـــام فرعون مصر (شيشنق) على مملكة يهوذا ونهب الهيكل والقصر معاً وأخـــذ كما يقول سفر الملوك الاول في الاصحاح الرابع عشر فقرات ٢٥ — ٢٨ تروس سليمان الذهبية [2] .

ويبـدأ المرنم كلامه بأن يغني بمراحم ويخبر عن حق الله بصوت مسموع لجميع الناس غير متردد ولا بأس في التراث الاسرائيلي ان يعبر الابتهاج بمراحم الله وانعمه بالغناء ، بل ان الغناء هنا هو الوسيلة المثلى في التراث الاسرائيلي في مختلف مراحل تاريـخ بني اسرائيل ، يقـول المزمور التاسع والثمانون : (بمراحم الرب أغني الى الدهر لدور فدور أخبر عن حقك بفمي ، لأني قلت ان الرحمة الى الدهر تبني ، السموات تثبت فيها حقك ، قطعت عهـداً مع مختاري ، حلفت لداود عبدي إلى الدهر أثبت نسلك وابني الى دور فدور كرسيك . سلاه والسموات تحمد عجائبك يا رب وحقـك أيضاً في جماعـة القديسين لأنه من في السماء يعادل الرب من يشبه الرب بين أبناء الله إله مهوب جداً في مؤامرة القديسين ومخوف عنـد جميع الذين حولك ، يا رب يا إله الجنود من مثلك قوي رب وحقك من حولك) .

وفي هذه الفقرات يعلن المرنم عن وعد الله لداود بأن يثبته ويبني ملكه دوراً فدوراً والكرسي في هذا العدد إنما هو عرش الملك ، وبعد ذلك ينتقل

---

(١) الجزء السادس ص ٢٩٧ من كتاب (السنن القويم في تفسير أسفار العهد القديم) .

(٢) الفقرة رقم ٢٥ من الاصحاح الرابع عشر من الملوك الاول تقول بالحرف : (وفي السنة الخامسة للملك رحبعام صعد شيشنق ملك مصر الى أورشليم وأخذ خزائن بيت الرب وخزائن بيت الملك وأخذ كل شيء وأخذ جميع أتراس الذهب التي عملها سليمان) .

المرنم إلى وصف لجلال الله وعظمته وجبروته لأن ذلـــك مدعاة اطمئنان لعرش الملك الارضي الذي يمثله لأن هذا الملك هو من الله ، فأحرى بـه أن يتمثل بهذه العظمة الإلهية التي ترح العجائب وتذيع الحق بين النـاس ، ولا سيما جماعة القديسين ، وحينما يقابل بين الآلهة بين العالم الثاني بين الارواح لا يجد شبهاً له قط ، والناظم هنا يعلن بأن الله يرعى العهد والأمانة لشعبه ولا سيما لبيت داود عبده ، وهذه الفكرة متوارثة عند معظم الناظمين باعتبارها تراثاً قومياً ودينياً متداولاً .

ويبقى لنا في النهاية أن نقرر هنا ما انتهينا اليه في القسمين الاولين من المزامير ، وهو انـه ليس بين أي منهما وحدة موضوعية تتعلق بالمضمون أو بالتدوين أو تسجيل مراحل الحوادث والمواقف والمشاهد التي تتحدث عنهـا المزامير ، حتى مواقف الابتهال أو الدعاء أو التضرع أو البكاء أو السخط أو الشكوى ليس في المنهج التدويني الذي أنهت به الينا المزامير وحدة فكر في الموضوع العقائدي أو التاريخي مما يؤكد ان مراحل الجمع لمنظومات المزامير كانت طويلة والكتّاب عديدون ولعـــل مراحل الكتابة قد استمرت في المزامير حتى قبيل عصر الميلاد .

القسم الرابع من المزامير

القسم الرابع من تقسيم المزامير من خمسة أقسام يبدأ بالمزمـور رقم ٨٩ وينتهي بالمزمور رقم ١٠٦ .

والدارس لهذا القسم يطالعه المزمور رقم ٩٠ الذي ينسب لموسى عليـه السلام ومن عجب أن ينسب هذا المزمور لموسى عليه السلام ويعنون بهذا ... العنوان .. : (صلوات لموسى رجل الله) مع ان الكتب الخمسة الاولى من العهد القديم والتي تنسب إلى موسى عليه السلام على انها (التوراة) تخلو من ذكر فقرة أي فقرة تنسب ما يساق في بعض الأسفار الى موسى عليـه السلام مباشرة مثل سفر التكوين مثلاً ، والكتب التي ذكرت فيهـا امور تتصل او تتصور من موسى عليه السلام قليلة جداً ، وكان من الممكن لو ان هذه الترانيم المذكورة في هذا المزمور لموسى حقيقة وانه ترنم بها وان تدون في واحد من الأسفار الخمسة التي ذاع صيتها على انها لموسى عليه السلام لا ان تظل مهجورة من أيام موسى حتى عصر تدوين المزامير .

ويبدأ هذا القسم من المزامير بصلاة شكر ينسبها المزمور لنبي الله موسى يقول فيها : (يا رب ملجأ كنت لنا في دور فدور من قبل ان تولد الجبال او ابتدأت الارض او المسكونة ؛ منذ الأزل الى الأبد أنت الله) .

وهذا الاسلوب فيه من التميز والوضوح عن باقي لغة المزامير وترانيمها ما

جعل بعض الشرّاح [1] يشبهونه باسلوب سفر (التثنية) خاصة وان النعت الذي وصف به موسى في عنوان المزمور : (صلوات لموسى رجل الله) قد جاء من قبل في الاصحاح الثالث والثلاثين في الفقرة الاولى من سفر التثنيه وبالنص الآتي: (وهذه هي البركة التي باركها موسى رجل الله بني اسرائيل) .

هذا ويرى القس وليم مارش ان هــذا المزمور قد يكون مأخوذاً عن بعض الكتابات القديمة التي فقدت مثل كتاب (ياشر) والتي ترجع بمستنداتها فيما يذهب اليه وليم مارش الى عصر موسى .

وهنا في هذا المزمور يبدأ المرنم كلامه بأنه يرى ان الله واحده هو الملجأ منذ قديم الأزمنة والى الأبد ، ثم ينتقل الى شواهد وبراهين لهذا الايمان فيرى ان عملية خلق الجبال على ظهر اليابسة تشبه وقت المخاض للوالدة فهو قرين الاوجاع والآلام .

ويقرر المرنم هنا ان الله موجود قبل ان توجـد الارض والجبال ، فالله هو القديم منذ الأزل وسيبقى الله بعــد كل شيء الى الأبد فلا حد له في الزمان بينما هذه الجبال ذاتها محدودة الزمان .

ثم ينتقل المرنم الى الانسان الذي طالما نسي كل الشواهد التي حوله وتكبر وتجبر في االارض فيناديه المرنم بما يذكره بمادته الترابيــة فيقول في الثالثة والرابعة من المزمور : (ترجع الانسان الى الغبار وتقول .. إرجعوا يا بني آدم ، لأن الف سنة في عينيك مثل يوم أمس بعدما عبر وكهزيع من الليل) .

وتمضي فقرات المزمور التسعون وهي سبع عشرة فقرة وليس فيهــا ما ما يعتبر نشاطاً على النسق الذي بدأت به لكن المزامير من الحادي والتسعين حتى المائة تجيء مجهولة النسب تماماً ومع ذلك فبينها اتساق يفتقد في كثير

---

(١) (القس وليم مارش) في مجموعته الكبرى : (السنن القويم في تفسير العهد القديم) الجزء السادس صفحة ٣٠٤

من المزامير المعنون لاصحابها والمنسوبة الى معنيين او انبياء في العهد القديم فمثلا المزمور الحادي والتسعون يفتتح بهـــذه الفقرات : (الساكن في ستر العلي في ظـل القدير يبيت ، أقول للرب ملجئي وحصني ، الهي فاتكل عليه) وتقول مقدمة المزمور الثـاني والتسعون : (حسن هو الحمد للرب والترنم لاسمك ايها العلي ان يخبر برحمتك في الغداء وأمانتـك كل ليلة على ذات عشر اوتار وعلى الرباب على عزف العود لأنك فرحتني يا رب بصنائعك باعمال يديك ابتهج ، ما اعظـم اعمالك يا رب) وتقول فقرات من المزمور الثالث والتسعين : (الرب قد ملك لبس الجلال لبس الرب القدرة) .

ويقول المزمور الرابع والتسعون : (يا إله النغمات يا رب يا إله النقمات أشرق ارتفع يا ديّان الارض ، جاز صنيع المستكبرين ، حتى متى الخطاة يا رب ، حتى متى الخطاة يشمتون) .

وتقول الفقرة السادسة من المزمور الخامس والتسعين :) هلم نسجد ونركع ونجثو امام الرب خالقنا ، لانه هو إلهنا ونحن شعب مرعاه وغنم يده) .

ويقول المزمور السادس والتسعون : (رنموا للرب ترنيمة جديدة ، رنمي للرب يا كل الارض ، رنموا للرب باركوا إسمه ، بشروا من يوم ليوم بخلاصه .

ويقول المزمور السابع والتسعون : (الرب قـد ملك فلتبتهج الأرض ولتفرح الجزائر الكثـيرة ، السحاب والضباب حوله العـدل والحق قاعدة لكرسيه) .

ويقول المزمور السابع والتسعون (رنموا للرب ترنيمة جديدة لأنه صنع عجائب ، خلصتـه يمينه ، وذراع قدسه اهتفي للرب كل الأرض ، اهتفوا ورنموا وغنّوا ، رنموا للرب بعود وصوت نشيد بالابواق وصوت السور اهتفوا قدام الملك الرب) .

ويقول المزمور التاسع والتسعون : (الرب قد ملك ترتعد الشعوب هو جالس على الكروبيم تتزلزل الارض ، الرب عظيم في صهيون ، وعالٍ هو على

كل الشعوب يحمدون إسمك العظيم والمهوب ، قدوس هو وعز الملك ان يحب الحق ، انت ثبّت الاستقامة أنت أجريت حقاً وعدلاً في يعقوب) .

أما المزمور المائة من العشرة المزامير المجهولة النسب في القسم الرابع من تقسيم المزامير فيقول : (اهتفي للرب يا كل الارض ، أعبدوا الرب بفرح ، ادخلوا الى حضرته بترنم ، اعلموا ان الرب هو الله ، هو صنعنا وله نحن شعبه وغنم مرعاه ، ادخلوا ابوابه بحمد ، دياره بالتسبيح ، احمدوه باركوا اسمه لأن الرب صالح الى الأبد رحمته ، والى دوو فدور أمانته) .

ولعل السر وراء اتساق وتكامل هذه المزامير العشر المجهولة النسب هو صيغت في ظرف تاريخي فيه استقرار نفسي في بيت جماعة اسرائيل والمترنمون او المغنون كانوا على وتيرة واحدة في تناول الاحساس الذي تعبر عنه هذه المزامير العشر وهو : الدعاء والرجاء والعرفان ومشاهدة براهين بغير ضجيج ولا عنفوان كما هو الشأن في معظم المزامير .

هذا ويطالعنا المزمور الواحد بعد المائة وينسب الى داود وليس فيه سوى ترنيمة : (لك يا رب ارنم) .

اما المزمور الثاني بعد المائة فهو صلوات لمسكين وهي جملة أدعية وتضرعات وتأملات في لغة جيدة وعبارة مهذبة وأيضاً على غير المعهود .

والمزمور الثالث بعد المائة ينسب الى داود وهو خليط من الشكر وتقرير لصفات الرب وأدعية وعرفان من عبده داوود .

والمزموران الرابع والخامس جاءا بغير نسب لكنهما افاضا في ذكر آيات كونية ومشاهد حسية تذكي في النفس المؤمنة يقينها وايمانها بالإله .

ويختم القسم الرابع من المزامير بالمزمور رقم ستة بعد المائة ويبدأ بذلك الاصطلاح الذي استعمل لأول مرة في العصر المكابي ، وهي عبارة (هللويا) ثم يسوق المذمور هذه العبارات : (احمدوا الرب لانه صالح لأن

الى الابد رحمته ، من يتكلم بجبروت الرب ، من يخبر بكل تسابيحه ، طوبى للحافظين الحق ولصانع البر في كل حين ، اذكرني برضى شعبك ، تعهدني بخلاصك لأرى خير مختاريك ، لافرح بفرح امتك ، لافتخر مع ميراثك) .

ونلاحظ ان هذا المزمور يتشابه مع المزمور رقم ٧٨ والمنسوب الى (اساف) من حيث ان كلا منهما يعطي بين سياقه شيئاً مختصراً عن تاريخ شعب الله اسرائيل وإن يكن كل واحد منهما مختلفاً في سرده بعض الاختلاف عن الآخر لكن هذا المزمور يتشابه كثيراً مع الفقرات ٨ — ١٣ من الاصحاح السادس عشر من سفر أخبار الايام الاول والتي تقول : (احمدوا الرب ادعوا بإسمه اخبروا في الشعوب بأعماله غنوا له ، ترنموا له ، تحادثوا بكل عجائبه ، افتخروا بإسم قدسه ، تفرح قلوب الذين يلتمسون الرب ، اطلبوا الرب وعزه ، التمسوا وجهه ، دائماً اذكروا عجائبه التي صنع آياته وأحكام فهمه ، يا ذرية اسرائيل عبده وبني يعقوب مختاريه) .

تقول فقرات من المزمور رقم ١٠٦ (اخطأنا مع آبائنا ، أسأنا وأذنبنا لم يفهموا عجائبك ، لم يفهموا كثرة مراحمك فتمردوا عند البحر ، عند بحر سوف فيبس وسيّرهم في اللجج كالبرية وخلصهم من يد مبغض وفداهم من يد العدو ، وغطت المياه مضايقيهم واحد منهم لم يبق فآمنوا بكلامه غنّوا بتسبيحه اسرعوا فنسوا اعمالك ، لم ينتظروا مشورته بل اشتهوا شهوة في البرية وجربوا الله في الفقر فأعطاهم سؤلهم وأرسل هزالاً في أنفسهم) .

هذه الفقرات من السادسة حتى السادسة عشر نرى فيها المرنم في هذا المزمور يتواضع امام الله ويعترف بالخطأ الذي وقع فيه ووقع فيه الآباء. فما يراه من محنة وآلام يعيش فيها الشعب انما هي نتيجة الشرور التي ارتكبها الآباء والابناء وبالرغم من ان الاساءة هذه تؤلمه إلا انه يشعر بالتأديب الالهي ومن هنا يعود الى التاريخ القديم ويذكر الآباء في مصر ويرى انهم لم يفهموا

العجائب، ولم يقدروا المراحم التي أصبغها عليها الإله حق قدرها ويتألم المرنم في هـذا المزمور كثيراً من هؤلاء الآباء الذين تمردوا وعصوا ، فبـدلاً من أن يكونوا على مستوى من الشكر والعرفان والتقدير لله ، إذا بهم نسوا حـالاً وأخذوا يتذمرون من أمور بسيطة فقدوها .

ويذكر المرنم ان الله حين خلصهم من يـد أعدائهم ليس لأنهم يستحقون ذلك الكرم والعفو منه بل لانه تعالى يوفي بعهده معهم . إن الفقرة التاسعة من المزمور تتعجب من نعم الله وتذكرها حين تقول : (وانتهر بحر يوسف فيبس وسيرهم في اللجج كالبرية) .

أي ان الله سبحانه حوّل البحر الخضم إلى أرض يابسة .

ومن الجدير بالذكر ان كلمة (سوف) مصرية قديمة ومعناها: عشب البحر .

وفي التعليق على مـا جـاء في باقي المزمور من عصيان آباء اسرائيل يقول (القس وليم مارش) في موسوعته السابق الإشارة اليها: (كان من أهم شرور بني اسرائيل انهم ينسون أعمال الله وذلك بسرعة كلية ، كأن لا معرفة لهم بما جرى من قبل فكان الشعب متقلباً غير شكور ، وغير ذاكر لما فعله الله معهم من عظائم ، وشر ما في الأمر ان فعلوا ذلك دون أن يطلبوا مشورة الرب أو ان ينتظروا ماذا ينصح ، وبالطبع لو فعلوا لكانت النصيحة عكس ما يشتهون ، لقد كانت شهوتهم أن يمـلأوا بطونهم فقط وتمردوا على الله بأن تساءلوا هل يقدر الله أن يعطينا من الخيرات التي كانت لنا في أرض مصر ، ولكن الله قد أعطاهم ما سألوه وإذا بنفوسهم المتكبرة المتعظمة تتخزل أمام الله القـدير ولم يكن عصيانهم وكنودهم خطيئتهم الوحيدة بـل كانت لهم خطيئة أخرى هي تمردهم على رؤسائهم وحسدهم لهم فـلم يطيعوا الأوامر كما ينبغي وقد احتمل موسى وهارون ذلك الأسى منهم صابرين ، ولكن الله قد قاصهم قصاصاً شديداً إذ فغرت الأرض فاها وابتلعتهم) انتهى .

ونود أن نقرر ان ما ذهب اليه (القس وليم مارش) وخاصة قوله : « ففرت الارض فاها وابتلعتهم) له أصل في مرويات ومعطيات العهد القديم فقد جاء في الاصحاح السادس عشر من سفر العدد وهو يقص أخبار موسى وهارون وموقف بني اسرائيل منهما بعد حوار شاق وجهد بذله موسى مع جماعته من بني اسرائيل تقول الفقرة رقم ٣١ من الاصحاح السادس عشر في سفر (العدد) : (فلما فرغ من التكلم بكل هذا الكلام ، انشقت الارض التي تحتهم وفتحت الارض فاها وابتلعتهم وبيوتهم) .

هذا وينتهي المزمور السادس بعد المائة بتلك النهاية السعيدة التي يصورها المزمور وكأنها حفل قومي فيه جميع الشعب يغني .. (... خلصنا أيها الرب إلهنا ، واجمعنا من بين الأمم لنحمد اسم قدسك ونتفاخر بتسبيحك ، مبارك الرب إله اسرائيل من الازل وإلى الأبد ويقول كل الشعب آمين هللويا).

وينتهي القسم الرابع من تقسيم المزامير ونسبة الخلل التدويني وانعدام الوحدة الموضوعية فيه أقل قليلاً من الاقسام الثلاثة التي سبقته .

القسم الخامس من المزامير

القسم الخامس من المزامير من تقسيم شراح العهد القديم لسفر المزامير هو الذي يضم المزامير من رقم ١٠٧ حتى المزمور الاخير رقم ١٥٠ .

وشراح التراث الاسرائيلي يرون في هذا القسم الأخير شخص (الرب يهوه) فادياً لشعبه من يد مضايقيهم .

وعندهم ان هذا القسم من المزامير وإن كان يشبه سابقه لكنه يزيد عليه عدة حقائق لأن فيه تسرد طرق العناية الإلهية في الماضي فقد أصبح عندهم كما يقولون في شرحهم لهذا القسم من المزامير شعب اسرائيل متعقلاً ومدركاً لرحمة الله .

ويرون في المزمور رقم ١٠٨ فرح الله ورضاه عندما يعيد شعبه لامتلاك ميراثهم الأرضي الذي فقدوه زماناً طويلاً .

هذا وفي مجموعة المزامير ١١١ – ١١٨ يرى بعض أتباع الكنيسة [١] انها تحتوي على مجموعة من التسبيحات للرب (يهوه) من أجل أعماله وعجائبه ورحمته التي هي إلى الأبد ، والتي يتغنى بها اسرائيل وبيت هارون ،

---

(١) (متى بهنام) الجزء الاول ص ١٩٣ من (مفاتيح كنوز الأسفار الإلهية) .

ويتعالى تسبيحهم للرب وهم يعلقون على ما في هذه المجموعة من المزامير التي تبدأ في القسم الخامس من المزمور رقم ١١١ إلى رقم ١١٨ .

أما مزمور رقم ١١٩ فيرون فيه ان شعب اسرائيل يتغنى بناموس الله الذي سيكون قد كتب على قلوبهم ، ويلهجون بخواص كلمة الله عندهم وفضائلها .

والمزامير من رقم ١٢٠ الى ١٢٤ يسميها شراح اللاهوت والذين درسوا المزامير على وجه الخصوص (ترنيمات المصاعد) وقد جمعت هذه المزامير معاً وينسبون أربعة منها لداود وواحد لسليمان والباقون بدون اسماء ويطالع الباحث لهذا القسم الخامس من المزامير والذي يبدأ بالمزمور رقم١٠٧وينتهي بالمزمور الأخير المائة والخمسون ، ان المزمور رقم ١٠٧ تفيض لغته بالشكر والثناء على الله الذي أنجى شعب اسرائيل من ويلات وشرور كان من الممكن أن يكون هولها أشد من كل ما تعرض له اسرائيل .

ونظرة موجزة على بعض مزامير هذا القسم نجدها متداخلة مع بعض مزامير القسم الرابع حتى ان بعض الشراح ذهب الى ان المزامير رقم ١٠٤ الى ١٠٧ ، رباع من المزامير قائم بنفسه ، ذلك ان المزمور رقم ١٠٤ يعتمد في كلامه على حوادث الخليقة ، والمزمور رقم ١٠٥ يعتمد على حالة الشعب الاسرائيلي الاعدادية وحياته البدائية والمزمور ١٠٦ يتناول تاريخ الشعب في أرض مصر وخروجه منها وضياعه في البرية والمزمور رقم ١٠٧ الذي يبدأ به القسم الخامس من المزامير يتناول ما بعد الرجوع إلى السبي بذلك الرجاء الموجه الى المسبيين العائدين ، ثم راح المرنم في استغراق طويل يصف التيه في البرية في أرض مقفرة وعدم وجودهم في مدينة سكن ، وكانوا في البرية جياعاً وعطاشاً ، وعلا صراخهم إلى الرب في ضيق وشدة وبعد محن وآلام هداهم طريقاً مستقيماً فذهبوا إلى مدينة سكن ومن ثم، يطلب المرنم ويكرر منهم الطلب ان يحمدوا الرب على رحمته . والملحظ الذي قد يأخذه الباحث على المرنم أو على الناظم هو ذلك التكرار في مشهد واحد لا يتكرر ، وإذا

جاز أن يكون ذلك المشهد متكرراً في الغناء أو وسط (الجوقة) مع هتاف أحد من بني اسرائيل ، فلا معنى عند الذي دوّن وسجّل لنا هذا المزمور وغيره من المزامير التي يكثر فيها تكرار المشاهد والمواقف مع انها قد تكون مقتبسة أو صورة طبق الأصل من مزامير أخرى لها نفس السياق والمعنى والنغم .

لننظر الى المزمور رقم ١٠٧ ولننظر إلى عدد فقراته وما يتكرر فيها من حواش لا تقوم برهاناً على معنى من معاني التأمل أو النظر أو التدبر .

١ — احمدوا الرب لأنه صالح ، لأن الى الأبد رحمته .

٢ — ليقل مفديو الرب الذين فداهم من يد العدو .

٣ — ومن البلدان جمعهم، من المشرق ومن المغرب من الشمال ومن البحر .

٤ — تاهوا في البرية في قفر بلا طريق ، لم يجدوا مدينة سكن .

٥ — جياع عطاش أيضاً أعيت أنفسهم فيهم .

٦ — فصرخوا الى الرب في ضيقهم ، فأنقذهم من شدائدهم .

٧ — وهداهم طريقاً مستقيماً ، ليذهبوا الى مدينة سكن .

٨ — فليحمدوا الرب على رحمته وعجائبه لبني آدم .

٩ — لأنه أشبع نفساً مشتهية ، وملأ نفساً جائعة خيراً .

١٠ — الجلوس في الظلمة وظلال الموت ، موثقين بالذل والحديد .

١١ — لأنهم عصوا كلام الله ، وأهانوا مشورة العلي .

١٢ — فأذل قلوبهم بتعب ، عثر ولا معين .

١٣ — ثم صرخوا إلى الرب في ضيقهم فخلصهم من شدائدهم .

١٤ — أخرجهم من الظلمة وظلال الموت ، وقطع قيودهم .

١٥ — فليحمدوا الرب على رحمته وعجائبه لبني آدم .

١٦ – لأنه كسر مصاريع نحاس وقطع عوارض حديد .
١٧ – والجهال من طريق معصيتهم ومن آثامهم يزلون .
١٨ – كرهت أنفسهم كل طعام ، واقتربوا الى أبواب الموت .
١٩ – فصرخوا الى الرب في ضيقهم فخلصهم من شدائدهم .
٢٠ – أرسل كلمته فشفاهم ، ونجاهم من تهلكاتهم .
٢١ – فليحمدوا الرب على رحمته ، وعجائبه لبني ادم .
٢٢ – وليذبحوا له ذبائح الحمد وليعدوا أعماله بترنم .
٢٣ – النازلون إلى البحر في السفن ، العاملون عملاً في المياه الكثيرة .
٢٤ – هوذا رأوا أعمال الرب وعجائبه في العمق .
٢٥ – أمر فأهاج ريحاً عاصفة فرتمت أمواجه .
٢٦ – يصعدون إلى السماوات ، يهبطون إلى الأعماق ، ذهبت أنفسهم بالشقاء .
٢٧ – يتمايلون ويترنحون مثل السكران وكل حكمتهم ابتلعت .
٢٨ – فيصرخون إلى الرب في ضيقهم ومن شدائدهم يخلصهم .
٢٩ – يهدىء العاصفة فتسكن وتسكت أمواجها .
٣٠ – فيفرحون لأنهم هدأوا فيهديهم إلى المرفأ الذي يريدونه .
٣١ – فليحمدوا الرب على رحمته وعجائبه لبني آدم .
٣٢ – وليرفعوه في مجمع الشعب ، وليسبحوه في مجلس المشايخ .
٣٣ – يجعل الأنهار قفاراً ، ومجاري المياه معطشة .
٣٤ – والأرض المثمرة سبخة من شر الساكنين فيها .
٣٥ – يجعل القفر غزير حياة ، وأرضاً يبساً ينابيع مياه .
٣٦ – ويسكن هناك الجياع فيهيئون مدينة سكن .
٣٧ – ويزرعون حقولاً ويغرسون كروماً ، فتصنع ثمر غلة .
٣٨ – ويباركهم فيكثرون جداً ولا يقلل بهائمهم .

٣٩ – ثم يقلون وينمون من ضغط الشر والحزن .

٤٠ – يسكب هواناً على رؤساء ويضلهم في تيه بلا طريق .

٤١ – ويعلي المسكين من الذل ، ويجعل القبائل مثل قطعان الغنم .

٤٢ – يرى ذلك المستقيمون فيفرحون ، وكل آثم يسد فاه .

٤٣ – من كان حكيماً يحفظ هذا ، ويتعقل مراحم الرب .

هذا هو المزمور الذي يبدأ به القسم الخامس من تقسيم المزامير وهو كما أتينا عليه بالنص الذي هو عليه في سفر المزامير في العهد القديم ، لم يكن هناك أدنى ضرورة لأن يدوّن بكل هذا الاستطراد ، حتى على فرض انه كان يترنم به على هذا المنوال ، فقد بدأت الجملة الأولى من هذا المزمور بـ : (احمدوا الرب لأنه صالح ولأن إلى الأبد رحمته) ، والجملة الثامنة على نفس النغم والمعنى : (فليحمدوا الرب على رحمته وعجائبه لبني آدم) ، والجملة رقم ١٥ جاءت بنفس نص الجملة رقم ٨ والمشهد الذي تلفت اليه لم يتغير فهي الأخرى تقول : (فليحمدوا الرب على رحمته وعجائبه لبني آدم) ، وجاءت الجملة رقم ٢١ صورة طبق الأصل من الجملة الثامنة والخامسة عشر فهي تقول : (فليحمدوا الرب على رحمته وعجائبه لبني آدم) ، وجاءت الجملة رقم ٣١ مثل سابقاتها ٨ ، ١٥ ، ٢١ فهي الاخرى تقول : (فليحمدوا الرب على رحمته وعجائبه لبني آدم) .

وهذه الجملة التي وردت في فقرات عديدة على قدر ما فيها من خير الحمد وبره ليست لازمة موسيقية حتى تجيء على هذا المنوال ، كما ان الجمل والفقرات أو المشاهد التي تتخللها ليست من البراهين المتعددة أو المتغايرة في الدلالة على الخالق بحيث في كل مشهد يغاير الآخر يصبح هناك المبرر لهذه اللازمة خاصة وان الحمد المطلوب تقديمه للرب في التراث الاسرائيلي هو تقديم ذبائح خاصة [١] لكي يبرهن بها الشعب الاسرائيلي للرب على طاعته .

---

(١) (القس وليم مارش) السنن القويم في تفسير اسفار العهد القديم الجزء الثالث ص ٣٦٣ .

هـذا ويطالعنا المزمور رقم ١٠٨ والمزمور رقم ١٠٩ منسوبان الى داود وفيهما نغمـة تسبيح وشكر وعرفان هادئة لا صخب فيهـا ولا ضجيج ، ولم تفض بالشكوى او المرارة وطلب الانتقام من الأعداء وسحق الخصوم كما هو شأنه في كثير من المزامير المنسوبة (لداود) ، وقـد تكون نغمة المزمور رقم١٠٨ اهدأ واسكن من المزمور اللاحق له لكنهما على وجه الخصوص ليسا على الدرجة التي تستمطر الانتقام من الله على خصوم شعب اسرائيل .

وأما المزمور العاشر بعد المائة فهو منسوب لداود أيضـاً لكن موضوعه يختلف عن سابقيه ، ان الكنيسة ترى فيه بشارة بالعهد الجديد وقد اتخذوه نبوءة عن انتصار المسيح النهائي ، وهذا المزمور ينسب لداود على انه نظمه على أثر انتصاره في الاعالي وهذا المزمور ينسب لداود على انه نظمه أيضاً على أثر انتصاره على العمونيين ويرى البعض انـه نظم في عصر (يهوذا المكابي) إذ يتكلم عن شخص هو كاهن ملك أو برتبة ملكية، ولم يكن هذا في تاريخ اسرائيل من عصر داود إلا بعد عصر المكابيين [١] .

تقول الفقرات الأولى من هذا المزمور: (فقال الرب لربي اجلس عن يميني[٢] حتى أضع أعـداءك موطئـاً لقدميك ، يرسل الرب قضيب عزك من صهيون تسلط في وسط أعدائك) .

أما المزامير الثلاثة تحت أرقـام ١١١ ، ١١٢ ، ١١٣ فهي بدون عنوان ولا نسب لكنها — الثلاثة — تفتح بالعبارة التي تعني عندهم الحمد والتسبيح : (هللويا) . ونسق المزامير الثلاثة يكاد يكون متقارباً فهي تدور حول أنعم الله الذي أعطى الخائفين وأرسل فـداء لشعبه وأقام الى الأبد عهد هذا الإله القدوس المهوب الذي يشرق نوره في الظلمة ، ويعطي الرغد والغنى للأبرار ،

---

(١) (القس وليم مارش) السنن القويم في تفسير أسفار العهد القديم الجزء الثالث ص٣٦٤ .
(٢) » » » » » » » » » » » » » ص٣٦٤ .

وتطرح الفقرتان الخامسة والسابعة من المزمور الثاني عشر بعد المـــائة قيمة اخلاقية قلمــا توجد بين ثنايا حكم ومواعظ العهــد القديم تقول : (سعيد هو الرجل الذي يترأف ويقرض ، يدبر أموره بالحق . لا يخشى من خبر سوءاً ، قلب ثابت متكلا على الرب) .

لكن المزمور الرابع عشر بعد المائة يطالعنا بما يصعب على العقل تقبلـه وبما يستحيل على الأمزجة الفنية التي تهتم بالتراث الاسرائيلي تصوره . ان هذا المزمور العجيب، والذي لم يعنون ولم ينسب لأحد ينقلنا من جو التهاليل والتسابيح التي فاضت بها المزامير الثلاثة عليه، وبدون أدنى علاقة يجيء هذا المزمور ليتحدث عن خروج بني اسرائيل من مصر، ان هذا المزمور من ثمانية فقرات أو اعداد كما يحب البعض أن يسميها ، لكن أسفار العهــد القديم كلها لم يبلغ بهــا الغلو والشطط في الخيال مثلما ذهب هذا المزمور انه يصور لنــا انه ساعة الخروج وفي أعقـــابه ، البحر هرب والاردن رجع الى الخلف ، والجبال قفزت مثل الكباش ، والتلال أصبحت مثل حملان الغنم ، وكل ذلك يتم للشعب العاصي الذي لم يذكر لنا المزمور في قيادة من كان هذا الشعب ، أمع نبي كان أم ولي ؟ فضلاً عن افتقاد النبي موسى عليه السلام وعدم ذكره في المزمور تماماً يقول المزمور : (عند خروج اسرائيل من مصر وبيت يعقوب من شعب أعجم، كان يهوذا مقدسه واسرائيل محل سلطانه البحر رآه فهرب، الاردن رجع الى الخلف ، الجبال قفزت مثل الكباش ، والاكام مثل حملان الغنم ، مالك أيها البحر قد هربت ، ومـــالك أيها الاردن قد رجعت الى الخلف ، ومالكن أيتها الجبال قد قفزتن مثل الكباش وأيتهــا التلال مثل حملان الغنم ، أيتهــا الأرض تزلزلي من قدام الرب ، من قــدام إله يعقوب ، المحول الصخرة الى غراران مياه ، الصوان الى ينابيع مياه) .

ونحن نسأل كيف قفزت الجبال والتلال وهذه الصورة الشعرية الخيالية : (الجبال قفزت مثل الكباش كيف ولِمَ ؟ والاردن رجع الى الخلف كيف

ولِمَ ؟ والبحر هرب ممن والى اين ؟) كاتب المزمور لم يقل لنا شيئاً اكثر من هـذا ولم يوضح مراده ، هل رأى المرنم لهـذه الكلمات شيئاً من الزلازل والبراكين ، وشاهد نيراناً تنقذف من فوهة بركان ورأى قطعاً من الجبال تتطاير أمامه الى مسافات بعيدة ، وهل رأى المرنم البحر يهرب ؟ هل كان رجل مع النبي موسى حين وقعت واقعة البحر الأحمر التي ذكرها القرآن الكريم فلِمَ لم يذكر اسم موسى في ذلـك ؟ ولِمَ لم يشر اليـه ومهما تكن جهود المفسرين وشراح العهـد القديم في التأويل والتعليل وهي جهود ضخمة مجهدة فالذي لا شك فيه ان المزمور يحمل صورة شعرية بلاغيـة عن هروب البحر وقفز الجبال أو ان يكون قد سجل المرنم ما تناهى اليه من المأثورات الشعبية عن أمم وشعوب تكثر في بلادهـا الزلازل والبراكين فجاءت هـذه الصورة الوصفية التي فاض بها المزمور الرابع عشر بعد المائة .

هذا وتذكر المزامير طوراً جيداً من الصناعة اللفظية بالمزمور رقم ١١٩ فهذا المزمور يعتبر أكثر المزامير صناعة لفظية وقد رتب على حسب أحرف الهجاء العبرية وهو يخل من التكرار الممل،ويبدو ان ناظمه كان شاباً مضطهداً محتقراً من الذين يحتقرون الهداية وكلمة الله في الناس والمزمور باللغة التي تعالج بها المزامير التراث الاسرائيلي وتتداوله يكاد يكون كله صـلاة لكي تمنح المؤمنين نعمة وبركة ويكرر القول المـأثور في الأسفار والمزامير بخاصة : (يا رب حتى متى) ؟ وقد اختلف في عصر كتابته ، أكتب في العصر المكابي ؟ حيث جرى لشعب اسرائيل الاضطهاد وتعرضوا للعذاب والهوان . ويذهب بعض المشتغلين بالدراسات اليهودية مثـل هتزج الى القول بان الناظم هو اسرائيلي قضى فترة طويلة من السجن مضطهداً مظلوماً ولمـا أطلق سراحه أخذ يسجل تلك المظالم التي وقعت عليه وعاناها ، لكنه من الممكن رد هذا القول إذ المزمور يقوم على صناعة لفظية جيدة ومرتبة على الابجدية ويحتـاج ذلك الى مهارة ودراسة ، وأيـاً كان الاختلاف حول عصر المزمور وصاحبه فالمتفق عليه ان المزمور مجهول النسب وقـد تكون وراءه جماعـة من شيوخ

اسرائيل وأوكلوا مهمة صياغته الى واحـد منهم حيث يبدو المزمور بالرغم من طوله في نسق فكري واحد يمثل وحدة فنية في الصياغة لا بأس بها .

تقول كلمات المزمور رقم ١١٩ : (طوبى للكاملين طريقـاً السالكين في شريعة الرب طوبى لحافظي شهـادته ، من كل قلوبهم يطلبونه ، أيضاً لا يرتكبون إثماً في طرقه يسلكون ، أنت أوصيت بوصاياك أن تحفظ تمامـاً ، ليت طرقي تثبت في حفظ فرائضك ، حينئذ لا أخزى ، إذا نظرت الى كل وصاياك أحمدك باستقامة قلب ، عند تعلمي أحكام عدلك وصاياك احفظ ، لا تتركني الى الغاية) .

ثم يبدأ المزمور بعد هـذه المقدمة في ترتيب وصاياه وعظاته ومراجعاته وشكواه وآلامه ودعوته للحفاظ على شريعة الرب على غرار الابجدية العبرية التي تختلف في ترتيب أحرفها عن العربية وقد جاءت على غير الترتيب الابجدي العربي في العهد القديم . فعند حرف الباء يقول المزمور :

– بم يزكي الشاب طريقه ، بحفظه إياه حسب كلامك .

– بكل قلبي طلبتك ، لا تضلني عن وصاياك .

وهذه الفقرات تصور شاباً ولعله الناظم يريد ان يسلك باستقامة وأمانة طريق الرب .

وعند حرف ج تجيء الفقرات التي تقول : (أحسن الى عبـــدك فأحيا وأحفظ أمرك ، أكشف عن عيني فأرى عجائب من شريعتك ، غريب أنا في الارض لا تخف عني وصاياك) .

وعند حرف ه تجيء فقرات المزمور التي تقول : (علمني يا رب طريق فرائضك فاحفظها الى النهاية ، فهمني فألاحظ شريعتك واحفظها بكل قلبي دربني في سبيل وصاياك لأني به سررت ، أمـــل قلبي الى شهادتك لا الى المكسب حوّل عيني عن المنظر الى الباطل في طريقك احيني) .

وعند حرف ل تقول فقرات المزمور : (الى الأبد يا رب كلمتك مثبتة في السموات الى دور فدور أمانتك ، أسست الأرض فثبتت ، على أحكامك اليوم لأن الكل عبيدك) .

وعلى هذا النسق والترتيب تمضي فقرات المزمور التي أتينا على بعض منها كنموذج لهذا المزمور الذي يتميز بأهمية تدوينية خاصة ويعبر عن نظرة دينية لا يشوبها الخلل الكثير .

وبعد هذا المزمور يطالع الباحث في التراث الاسرائيلي والدارس للمزامير تطالعه المزامير من رقم ١٢٠ الى ١٣٤ وهي تحوي عنواناً لموضوع واحد هو هو (ترنيمة المصاعد) وعدد هذه المزامير خمسة عشر مزموراً ، غير متفق على زمان نظمها ، وغير متفق ايضاً على من نظمها ، والخلاف أشد حول معنى (مصاعد) والرأي الراجح هو ان الذكور من بني اسرائيل كان عليهم ان يعبدوا الرب ثلاث مرات في العام صاعدين الى أورشليم فلعلهم كانوا يترنمون بهذه الدعوات في الطريق ، أو لعلهم كانوا يترنمون بهذه الدعوات في طريق العودة من السبي على يد (عزرا) [١] .

وكما سبق القول أربعة منها (لداود) وواحد لسليمان والباقون بدون اسماء والسياق العام لهذه الترانيم الشكوى الى الله في الضيق وطلب النجاة والبكاء والنوح من الغربة والرغبة في السلام المفقود وانتقاد العون من أحد إلا الله الذي يطلبون عونه ولا يجدونه ، وبعض هذه المزامير تتخللها فرحة بلقاء بيت الرب ووصف لمدينة الرب وللسلام في الأبراج والراحة في القصور ، كما نرى في بعض هذه المزامير نغمة دعاء فيها تنزيه لرب العالمين عن الاوصاف والنعوت التي تتحدث عنها المزامير والاسفار عامة مثل قول المزمور الثالث والعشرين بعد المائة : (اليك رفعت عيني يا ساكن في السموات) .

---

(١) (متى بهنام) : الجزء الاول ص ١٩٥ من (مفاتيح كنوز الاسفار الالهية) .

وفيها بعض الشكر لله كما جاء في ترنيمة داود رقم ١٢٤ : (لولا الرب الذي كان لنا عندما قـــام الناس علينا إذاً لابتلعونا أحياءاً عند احتماء غضبهم علينا) .

أما المزمور الأخير من ترنيمة المصاعد وهو المزمور رقم ١٣٤ فهو يطلب هداية لجميع الواقفين أمام بيت الرب بالليالي ويطلب المزمور من الكهنة أن يباركوا الرب قبـل أن يباركوا الشعب لأن منه تعـالى يجب ان يستمد كل بركة : (هـوذا باركوا الرب يا جميع عبيد الرب ، الواقفين في بيت الرب بالليالي ، ارفعوا أيديكم نحو القدس وباركوا الرب يباركك الرب من صهيون الصانع السموات والأرض) .

وتجيء المزامير بعد ذلك قصيرة بسيطة لا تحمل غير الادعية والصلوات التي سبق وان تحدثت عنها المزامير السابقة منذ المزمور الاول حتى الرابـع والثلاثين بعد المائة .

والمزامير الستة عشر الأخيرة يفتتح معظمها بعبارات الحمـــد والتسبيح التقليدية بطلب الحمـد أو بتقرير النعمة التي اسبغها الله على المترنم والأعتراف بها فالمزمور رقم ١٣٩ يفتتح بعبارة : (يا رب قد أخبرتني وعرفتني).

والمزمور ٤٠ بعد المائة يطلب فيه داود : (أنقذني يا رب من اهل الشر) والمزمور رقم ١٤١ :) يا رب اليــك صرخت أسرع إليّ) والمزمور ١٤٦ يفتتح بالاصطلاح المعروف: (هللويا) ويقول:(هللويا سبحي يا نفسي الرب).

والمزمور رقم ١٤٨ يجيء على نفس الوتيرة تقريباً التي سبقت في المزمور رقم ١٤٦ فقد افتتح : (هللويا) . سبحوا الرب من السموات سبحوه في الأعالي .

وعلى نفس النسق يجيء المزمور الخمسون بعد المائة : (هللويا) . سبحوا الله في قدسه ، سبحوه في فلك قوتــه ، سبحوه على قوتــه ، سبحوه حسب

كثرة عظمته ، سبحوه بصوت الصور ، سبحوه برباب وعود ، سبحوه بدف ورقص ، سبحوه بأوتار ومزمار ، سبحوه بصنوج التصويت، سبحوه بصنوج الهتاف ، كل نسمة فلتسبح الرب . (هللويا) .

وبهذا العرض الموجز للأقسام الخمسة التي ارتضاها معظم شراح العهد القديم لسفر المزامير نكون قد تناولنا المزامير بشيء من التعريف وشيء من الدراسة النقدية دون التعرض لكثير من القضايا التي كانت تستحق الوقوف عندها نظراً لضخامة حجم التراث الاسرائيلي المدون في تسع وثلاثين سفراً هي جملة أسفار كتب العهد القديم حسب النسخة الكاثوليكية التي بين أيدينا.

غير اننا نحب قبل أن نترك موضوع المزامير أن ننبه الى أننا اعتمدنا التقسيم الشائع والمتفق عليه للمزامير مع انه كما انتهينا اليه من دراستنا له تقسيم غير موضوعي ولا أهمية له في وحدة موضوع المزامير على ضوء ما هي عليه في سفر المزامير . وهناك تقسيمات أخرى للمزامير بعضها مثلاً يجعلها ثلاثة فقط بدل خمسة وبعضها يجعلها ستة بدل خمسة [١] .

وليس أمامنا في المزامير ما يمكن ان يمثل معنى متفقاً عليه من معاني التراث الديني على عصمة الوحي واملائه أو توجيهه ، كل ما يمكن ان يقال عنها انها أناشيد دينية [٢] رددها شعب اسرائيل القديم على مستوى الافراد والجماعات وهي في قيمتها كان فيها جانباً روحياً متعبداً به كان اليهودي القديم يجد فيه مدداً روحياً وأداة تعبيرية يستنطق بها ماضيه أو يجتر ذكرياته أو يطلب بها على هواه رب اسرائيل للدعاء والمغفرة مرة ولجلب النقمة والانتقام من أعداء اسرائيل مرات ومرات .

---

(١) (حبيب سعيد) : (المدخل الى الكتاب المقدس) صدر عن دار التأليف والنشر للكنيسة الاسقفية بالقاهرة بالاشتراك مع مجمع الكنائس بالشرق الادنى بدون تاريخ ص ١٤٦ .
(٢) (حبيب سعيد) : (المدخل الى الكتاب المقدس) .

واليست المزامير في العهد القديم تراثاً روحياً يمكن ان يجد فيه الانسان يقينه الديني أو أن يربطه برب يعبده الناس جميعاً تقوم العلاقة بينه وبين من يعبده بروابط الأدعية والابتهالات والتسابيح ، فمع التجاوز عن كل النعوت التي تخلعها المزامير على الخالق جل وعـــلا وهي صفات ونعوت لا تليق كما سنتعرض له عند الحديث عن العقيدة الدينية في الإله عنـد بني اسرائيل بين التنزيه والتجسيد في العهد القديم فان الجوانب النقيـة في المزامير والمواقف التي تعبر عنها والتي قد يكون فيها بعض صدق في طلب المغفرة أو المناجاة. هـذه الجوانب لم ينفرد بها بنوا اسرائيل في التاريخ الديني بالمنهج الذي دون بين أيدينـــا بل مسبوقة سبقاً باهراً وفي اصالة وجدانية لمشاعر وصدق الانسـان المصري القديم الذي لم يزيف التاريخ صدقه بحكم مـــا ترك من آثار ومعالم لا تقبل التزييف .

يقول امنتو محتب الرابع[1] عن الإله الذي رمز له في لغته اسم (آتون):

يا آتون الحي يا بدء الحياة

انك تشرق جميلاً في أفق السماء

ملأت كل بلد بجمالك وحميتك

انك جميل ، انك عظيم

انك تتلألأ عالياً فوق على بلد

ان أشعتك تحيط بالأراضي كلها وبكل شيء خلقته لأنك : (ر ع)

وتستطيع الوصول الى نهايتها

وتستطيع ان تجعل كل بلد أسيراً لك !

انك الإله الذي دان الجميع بحبك

---

(١) (فجر الضمير) هنري برستيد ترجمة سليم حسن سلسلة الالف كتاب عام ١٩٦١ — يراجع : (تطور الفكر والدين في مصر القديمة) للمؤرخ هنري برستيد ترجمة زكي سوس صادر عن دار الكرك القاهرة عام ١٩٦١ .

انك ناء ولكن أشعتك على الارض
انك تشرق على وجوه الناس
ولا يستطيع أحد أن يتكهن بسر قدومك
حينما تغيب في أفق السماء الغربي
أظلمت الارض وأصبحت تبدو وكأنها ميتة
فيستقر الناس في حجراتهم وقد غطوا رؤوسهم وانخفض صوت زفيرهم
ولا ترى عيناً أخرى
ويتسلل اللصوص الى المنازل
ويولول الفرار دون ان ينتبه أحد اليهم
اما السباع فهي تخرج من عرانها
والثعابين تنساب وتلدغ ويخيم الظلام ويعم الارض السكون
عندما يذهب خالقها ليستريح في أفقه الغربي
وإذا أصبح الصباح تشرق متألقاً في الأفق
وعندما تضيء كأتون أثناء النهار
تبدد الظلام ويستيقظ كل من القطرين متهللاً
ويصحو الناس ويقفون على أقدامهم
لأنك أنت الذي توقظهم
فيغتسلون ويلبسون ملابسهم
وترتفع أذرعتهم مستعدين لشروقك
ثم ينتشرون في الارض يباشر كل منهم عمله
اما الماشية فهي فرحة في مروجها
والأشجار والنباتات فهي تزدهر
والطيور فهي ترفرف تاركة أوكارها
وتسبح أجنحتها بحمدك
وتقفز الحملان على أقدامها

وكل ما يطير أو يحط تهتز أعطافه
لأنك تشرق من أجله
وتبحر السفن شمالاً وجنوباً
وتعج الطرق بالناس
أما الأسماك في النهر فهي تقفز أمامك
ان أشعتك تقفز الى أعماق البحر
انك تعطي الحياة للجنين في أحشاء النساء
وانك تصنع من النطفة الرجال
وانك أنت الذي يعنى بالطفل في بطن أمه
وتسكن روعه فلا يبكي
انك بمثابة المربية للجنين وهو لا يزال في بطن أمه .
انك تهب نسيم الحياة لكل إنسان خلقته
إذا خرج الجنين من بطن أمه
جعلت من ذلك يوم ولادته
ثم تفتح فمه ليتحدث
وتدبر ما يحتاج اليه
وإذا صاص الفرخ في بيضتـه
فانك تهبه الهواء ليبقيه حياً
ثم تمده بالقوة ليثقب بيضته
ويخرج معها وهو يصيص بكل ما لديه من قوة
ويسعى على قدميه إذا خرج منها
ما أكثر مخلوقاتك
وما أكثر ما خفي علينا منها
أنت إله يا أوحد ولا شبيه الك
لقد خلقت الارض حسبما تهوى انت وحدك

خلقتها ولا شريك لك
خلقتها مع الانسان والحيوان كبيرة وصغيرة
خلقتها وكل يسعى على قدميه فوق الأرض وكل ما يخلق بجناحيه في السماء
خلقت بلاد سوريا والنوبة ومصر
وأقمت كل إنسان مكانه
ودبرت لكل إنسان ما يحتاج اليه
وجعلت لكل منهم أيامه المعدودة
لقد تفرقت ألسنتهم باختلاف ألوانهم
كما اختلفت أشكالهم وألوان أجسادهم
لأنك أنت الذي يميز أهل الأمم الأجنبية .

***

يا عظيماً في جلالك
ما أعظم تدابيرك يا سيد الأبدية
وهبتني للسماء لشعوب الجبال
فأحييت حيوانها وكل ما يسعى في اقدامه
أما النيل فهو يخرج لمصر وحدها من العالم السفلي
تغذي أشعتك كل حديقة
ويحيا وينمو كل نبات إذا ما أشرقت عليه
لقد خلقت الفصول تحيي مخلوقاتك
وجعلت لهم الشتاء ليتعرفوا على بردك
ثم جعلت لهم الصيف ليتذوقوا حرارتك
لقد خلقت السماء البعيدة لتشرق فيها
حتى ترى كل مـا صنعت
وذلك عندما كنت وحيداً

أنت الوحيد الذي يشرق في صورته (كأتون) الحي ساطعاً متلألئاً
رائحا وغادياً
لقد خلقت من نفسك تلك الأشكال التي تعد بالملايين ، مدناً وقرى
وقبائل وجبالاً وأنهاراً
كل العيون ترنو اليك
لأنك أنت أتون الذي يشرق في النهار على الأرض
وحينما تغيب وكل الخلق الذين أمدهم بالحياة
لكي لا تجد نفسك وحيداً
يغشاهم النعاس حتى لا يرى واحداً منهم ما خلقته ، انك في قلبي وليس
هناك من يعرفك غير ابنك: (نفر خبر وع – رع – ان رع)(اخناتون)
انك انت الذي ثقفته بتدبيراتك وقوتك
انك أنت الذي أمددته بالحكمة
أنت الذي صنعت الدنيا بيدك
وخلقت الناس كما شئت ان تصورهم
إذا أشرقت عاش الناس
وإذا ما أغربت ماتوا
انك أنت الحياة
ولا يحيا الناس إلا بك
تستمتع العيون بجمالك حتى تغرب
فإذا غربت في الأفق الغربي
ترك الناس أعمالهم كلها
ولكن عندما تشرق ثانية
يزدهر كل شيء لأجل الملك
لأنك الذي خلقت الارض
وأنت الذي خلقت الناس لأجل ابنك الذي وُلد من صلبك

ملك مصر العليا وملك مصر السفلى
الذي يحيا في الحق
سيد الاراضين (اخناتون)
الذي يحيا إلى الأبد .

***

هذه هي بعض ترانيم الملك المصري الشاب (اخناتون) أتينا عليها على ضوء ما انتهت الينا كنموذج في التراث الديني يتناول صلوات وتسابيح وأدعية وشكر وعرفان للخالق الذي آمن به اخناتون . ورأى فيه وحده معطي الحياة للجنين في أحشاء النساء وصانع الرجال من النطفة ، وواهب الحياة للفرخ في بيضته الذي تسبح له الطيور في الفضاء شاكرة له حين تخرج من أوكارها . واذا كان للباحث أن يقارن بين مثل هذه الترانيم ذات الصبغة الدينية الصادقة وذات الشعور الصادق والرؤية المتأملة فان المرنم للمزمور رقم ١٠٤ في سفر المزامير حين حذا حذو هذه الترانيم التي تتحدث عن مجد الله وجميل صنعه لم يوفق في اختيار الصور والمشاهد التي مرت بخاطر ومشاعر اخناتون .

ولا يستطيع الناقدون بأي حال ان يرفعوا المستوى الأدبي للمزمور الرابع بعد المائة وهو الذي يعقدون بينه وبين ترنيمة اخناتون مقابلة باعتباره شبيهاً لترنيمة اخناتون الى المستوى الرفيع الذي بلغته شاعرية واحساس وقلب العبد اخناتون وهو يناجي ربه الذي رآه اخناتون بدء الحياة، والذي أمد الخلق كله بالحياة ومنح ابنه اخناتون الحكمة .

تقول فقرات من المزمور الرابع بعد المائة : (... اللابس النور كثوب الباسط السموات كشقة ، المسقف علاليه بالمياه ، الجاعل السحاب مركبته ، الماشي على أجنحة الريح ، الصانع ملائكته رياحاً وخدامه ناراً ملتهبة ، المؤسس الارض على قواعدها ، فلا تتزعزع الى الدهر والأبد ، كسوتها القمر

كثوب ، فوق الجبال تقف الميــاه ، من انتهارك تهرب ، من صوت رعـدك تفر ، فاصعد الى الجبال ، تنزل الى البقاع ، الى الموضع الذي أسسته لهـا ، وضعت لها تخماً لا تتعداه، لا ترجع لتغطي الأرض، المفجر عيوناً في الأودية بين الجبال تجري، تسقي كل حيوان البر ، تكسر الفراء ظمأها فوقها طيور السماء تسكن ، من بين الاغصان تسمع صوتاً ، الساقي الجبال من علاليه ، من ثمر أعمالك تشبع الارض ، المنبت عشباً للبهائم، وخضرة لخدمة الأنسان لاخراج خبز من الارض ، وخمر تفرح قلب الإنسان لالمـــاع وجهه أكثر من الزيت ، وخـبز يسند قلب الإنسان ، تشبع اشجار الرب أرز لبنـان الذي نصبه ، حيث تمشمش هنـاك العصافير ، أمـا اللقلق فالسرو بيته ، الجبال العالية للوعول، الصخور ملجأ للوبار، صنع القمر للمواقيت، والشمس تعرف مغربها تجعل ظلمة فيصير ليل، فيه يدب كل حيوان الوعر ، الاشبال تزمجر ، لتخطف وتلتمس من الله طعامها، تشرق الشمس فتتجمع وفي مآويها تربط، الإنسان يخرج الى عمله والى شغله الى السماء ، ما أعظم اعمالك يا رب، كلها بحكمة صنعت ، ملآنـة الارض من غناك ، هـذا البحر الكبير الواسع الاطراف ، هنـــاك دبابات بلا عدد صغار حيوان مع كبار ، هناك تجري السفن) [1] .

هذا معظم ما جاء في المزمور الرابع بعد المائة ، ولقد عقد بين ما جاء في هذا المزمور وبين ترنيمات وصلوات اخناتون المؤرخ (هنري برستيد) في كتـابه فجر الضمير [2] . وانتهى الى سبق وتقرير اصالة وعبقرية الفرعون المصري الشاب (اخناتون) الذي خاطب إلهه الواحد بلغة أقرب ما تكون الى التطهير والتوحيد من لغة المزمور الرابع بعد المائة .

---

(١) (المزمور الرابع بعد المائة) فقرات : ٢ – ٢٦ .

(٢) فجر الضمير (هنري برستيد) ترجمة (سليم حسن) سلسلة الألف كتاب عام ١٩٦١ .

ولا نريد هنا أن ننتهي بهذه المقابلة الى ترجيح رأي (برستيد) أو غيره من المؤرخين أو حتى ابداء رأينا في هذه المقابلة لأن للصورتين اللتين أمامنـا لأدعية وصلوات اخناتون وتسابيح وأدعية المزمور في تقديرنا لهما نظرة أخرى غير تلك التي يقدمها شراح العهد القديم أو الذين يعقدون مقـابلة بينهما وبين أدعيــة اخناتون لترجيح وسبق واصالة اخناتون في أدعيته لأدعية وصلوات المزامير .

وإنما أردنا بعرض هذه المقابلة ان نقرر ان التراث الاسرائيلي في المزامير بالرغم من سمو ونقاء وخصوبة بعض مـا جاء فيه فانه مسبوق بنفس هـذا النوع من التراث الديني في النظرة والتأمـل إن لم يفقـه بالخصومة الروحية ودقة المشاهد فهو على أقل تقدير مثله فضلاً عن السبق الزمني الذي يتميز به فكر اخناتون .

وهذا هو الذي جعل (هنري برستيد) يعتقد ان المرنم الاسرائيلي ربما تكون قد وصلته أخبار آثار من عقيدة المصريين في الايمـــان وخاصة ان الترانيم التي وردت في المزامير لم تنظم وبالتالي لم تسجل إلا بعد زمان طويل من هجرة أبناء اسرائيل من مصر ولا بد انهم قد حملوا معهم بعض تأثيرات هذه العقيدة الدينية والتي كانت في عصر الملك المصري اخناتون أشبه بالضياء في ليل العقيدة الدينية التي كان عليها المصريون وغيرهم من الشعوب قبل تلك الدعوة الدينية التي ظفر بها اخناتون بروحه الوثابة من مجال الطقوس والرسوم والأدعية والاشكال المادية الى ذلك المجال الارحب والاوسع الى التأمل في مظاهر الكون ومخاطبة أكبر براهينه .

سفر الامثال

هو ديوان من النثر والشعر الغير الموزون يتألف من واحد وثلاثين اصحاحاً تتضمن حكماً وامثلة مصوغة في عبارة وجيزة ليسهل حفظها وتداولها والعمل بها إذا ما امكن. وهو سفر دنيوي يقوم على مبادىء عامة للتأديب والمعرفة والعدل والاستقامة. وقد جاء في سفر (حزقيال) في الاصحاح السابع عشر في الفقرتين الثانية والثالثة ما يشير إلى أهميـة سفر الامثال وما يوضح المراد منه. فقد جاء فيه (يا ابن آدم حاج أحجة ومثل مثلاً لبيت اسرائيل، وقل هكذا قال السيد الرب : نسر عظيم كبير الجناحين، طويل القوائم، واسع المناكب، ذو تهاويل جاء إلى لبنان واخذ فرع الارز) [1] .

وقيمـة هذا السفر في التراث الاسرائيلي او مبررات تدوينه بين اسفار العهد القديم ان الله قـد اعد في هذا السفر مبادىء وأوامر لازمة لارشاد وصيانة المؤمن اثناء عبوره وسط التجارب المعرض لها في عالم شرير (ومخافة الرب) [2] هي مفتاح السفر إذ أنهـا رأس المعرفة وأساس كل التعاليم التي يضمنها هذا السفر، والنصائح والانذارات التي فيه مصوغة في لهجة العطف والتحذير الدال على الشفقة .

---

(١) (سفر حزقيال) الاصحاح السابع عشر فقرات ٢ — ٣

(٢) (مفاتيح كنوز الاسفار الإلهية) (متى بهنام) المجلد الاول ص ٢٠٠

وعند المؤمنين بتأثير هذا التراث على سلوك المؤمنين بما فيه يشير هذا السفر إلى العالم مبيناً الاشياء التي يجب السعي اليها وطلبها، والاشياء التي يجب تجنبها . ويبين ايضاً بأن سياسة الله التي يتحدث عنها هذا التراث هي ان : (ما يزرعه الانسان اياه يحصد) .

وليس في هذا السفر كما في غيره إشارة إلى البركات الروحية التي يهبها الله بالنعمة والتي تسمو فوق دائرة هـذا العالم ، ولكن الأهمية القصوى في هـذا السفر تتمثل في وجوب الاستقامة والنزاهة في علاقات الحياة الارضية التي لا يمكن التسامح في انتهاكها .

والباحث في اسفار العهد القديم يطالعه في سفر الامثال تسعة اصحاحات تتعلق بمبادىء وامور عامـة وعظات بليغة وقيم اخلاقية لا بأس بها فمثلاً الفقرات من ١٢ — ١٥ في الاصحاح السادس تقرر قيما ومبادىء قلما نعثر عليها بين العديد من اسفار لها أهمية اكثر من سفر (الامثال) .

تقول هذه الفقرات : (الرجل اللئيم — الرجل الاثيم يسعى باعوجاج الفم يغمز بعينه يقول برجليه ، يشير باصابعه ، في قلبه اكاذيب ، يخترع الشر في كل حين يزرع خصومات ، لأجل ذلك بغتة تفاجئه بليته ، في لحظة ينكسر ولا شفاء [١] وباقي الاصحاحات من العاشر حتى الحادي والثلاثين : الامثال والحكم والمرويات التي ينسبها السفر إلى النبي سليمان عليه السلام ، وهي من العاشر حتى الرابع والعشرين لسليمان مباشرة فيما نسب اليه السفر ، أي ان السفر يريد ان يقول إن الكلمات المدونة بين هذه الاسفار الخمسة عشر قـد قالها سليمان ، اما الاسفار من الخامس والعشرين حتى التاسع والعشرين فالسفر يقول انها لسليمان ، لكن الذي نقلها هم رجال حزقيا ملك يهوذا ، اما السفران الاخيران فكلام (لاجور) وكلام (لموئيل) ملك (مسّى) الذي علمته إياه امه .

---

(١) (سفر الامثال) الاصحاح السادس فقرة ١٢ - ١٥

هذا ومن المتفق عليه ان هذا السفر لم يصل إلى وضعه النهائي إلا في عهد (عزرا) وبعده بكثير وهو العصر الذي ازدهرت فيه مدارس الحكمة ، ولعل هذا السفر في وضعه الحالي يمثل الطور النهائي لاحاديث متوترة ترجع في مراحلها الاولى إلى عصر سليمان ، الذي ينسب اليه السفر كثيراً من الحكم والامثال .

ولننظر إلى بعض نماذج من هذا السفر باعتبار احد مصادر حفظ التراث الاسرائيلي على المدى الطويل .

يقول الاصحاح العاشر المنسوب لسليمان في اولى فقراته : (الابن الحكيم يسر اباه ، الابن الجاهل حزن امه ، كنوز الشر لا تنفع ، اما البر فينجي من الموت الرب لا يجيع نفس الصديق ، ولكنه يدفع هوى الاشرار ، العامل بيد رخوة يفتقر اما يد المجتهدين فتغني ، من يجمع في الصدف فهو ابن عاقل، ومن ينام في الحصاد فهو ابن مخز) .

وهذه الامثال تمثل عظمة بليغة وقيما طيبة ويكفى ان فيها صفة العموم في تمجيد قيم اخلاقية والتنفير من قيم سيئة .

امـــا الاصحاح الحادي عشر فهو في مجال التدبير السياسي وبلغة مهذبة وحكمة عاقلة تقول الفقرات ١٢ — ١٥ منه : (المحتقر صاحبه هو ناقص الفهم اما ذو الفهم فيسكت ، الساعي بالوشاية يفشى بالسر ، والامين الروح يكتم الامر حيث لا تدبير يسقط الشعب ، اما الخلاص فبكثرة المشريين) .

وتقول الفقرة رقم ٢٢ من الاصحاح الثاني عشر : (الرجل الذكي يستر المعرفة وقلب الجاهل ينادي بالحمق) .

وتقول الفقرة الاولى من الاصحاح الرابع عشر : (حكمة المرأة تبني بيتها والحماقة تهدمه بيدها) .

وتقول الفقرة ١١ من نفس الاصحاح : (بيت الاشرار يخرب وخيمـة المستقيمين تزهر) .

اما الاصحاح الثامن عشر فيطالعنا بهذا الالمام الوصفي لأخلاق سلبية واخرى ايجابية يبين عنهـا مضرب المثل في الاصحاح يقول : (المعتزل يطلب شهوته بكل مشورة يغتاظ ، الجاهل لا يسر بالفهم ، بل يكشف قلبه ، إذا جاء شرير جاء الاحتقار ايضاً ومع الهوان عار ، كلمات فم الانسان عميقة ، نبع الحكمة نهر متدفق ، رفع وجه الشرير ليس حسنا) .

اما الوضوح في سوق المثل من اجل سلوك افضل فنراه في بساطة الفقرات الاولى من الاصحاح التاسع عشر التي تقول : (الفقير السالك بكماله خير من ملتوي الشفتين وهـــو الجاهل ، ايضاً كون النفس بلا معرفة ليس حسناً ، والمستعجل برجليه يخطىء ، حماقة الرجل تعوج طريقه ، وعلى الرب يحنق قلبه ، الغني يكثر الاصحاب والفقير منفصل عن قريبه ، شاهد الزور لا يتبرأ ، والمتكلم بالأكاذيب لا ينجو) .

وعلى هذا النحو تمضي اصحاحات سفر الامثال ليس في واحد منها اقل من عشر عظات او مثل او محاجه ، وهو كتاب في جملته وثيقة وعظية في التراث الاسرائيلي من طراز جيد وليس للعنصرية او المذهبية او العلو الفكري فيـه مجال وهو باعتبار مضرب مثل دنيوي وسجل للحكمة لم يتطرق إلى مواضيع وقضايا أبعدته عن هدفه المحدد ، ونستطيع ان نرى في هذا السفر وحده وحدة الموضوع والهدف فضلا عن سلامة السياق ونظافة العبارة .

ولا يستطيع دارس منصف للعهد القديم يتناول سفر الامثال ان يمر ليقف امام نموذج هنا او فقرة هناك دون ان تبهره تلك اللفظة البليغة وتشد انتباهه تلك القدرة التعبيرية والبلاغة الوصفية التي كانت عليها تلك المرأة التي علمت ولدها (موئيل) ملك (مسى) ما جاء في الاصحاح الأخير من سفر الامثال الحادي والثلاثين : إنها تقول له تنبيهاً وتعليماً وتحذيراً وتوجيهاً (ماذا يا بني

ثم ماذا يا بن رحمى [١] ثم ماذا يا بن ، نذوري ، لا تعط حيلك للنساء ولا طرقك لمهلكات الملوك ، ليس للملوك يالوموئيل ليس للملوك ان يشربوا خمراً، ولا للعظماء المسكر ، لئلا يشربوا وينسوا المفروض ، ويغيروا حجـــة بني المذلة : اعطوا سكراً لهالك ، وخمراً لمري النفس يشرب ، وينسى فقره ، ولا يذكر تعبه بعد . افتح فمك لأجل الاخرس في دعوى كل يتيم ، افتح فمك، اقض بالعدل وحام عن الفقير والمسكين ، امرأة فاضلة من يجدها لان ثمنهـا يفوق اللآلي بها يثق قلب زوجها فلا يحتاج إلى غنيمة تصنع له خيراً او شراً كل أيام حياتها تطلب صوفاً وكتاناً وتشتغل بيدين راضيتين هي كسفن التاجر .

تجلب طعامها من بعيد ، وتقوم إذ الليل بعد وتعطى اكلا لأهل بيتهـا وفريضة لفتياتها ، تتأمل حقلا فتأخذه ، وبثمر يديهـا تغرس كرماً تنطلق حقويها بالقوة وتشدد ذراعيها تشعر ان تجارتها جيدة ، سراجها لا ينطفىء في الليل تمد يدها إلى المغزل وتمسك كفاها بالفلكه تبسط كفيهـا للفقير ، وتمد يدهـا إلى المسكين لا تخشى على بيتها من الثلج ، لأن كل اهل بيتها لابسون حللا ، تعمل لنفسها موشيات ، لبسها بوص وارجوان ، زوجها معروف في الأبواب ، حين يجلس بين مشايخ الأرض ، تصنع قمصانا وتبيعها وتعرض مناطق على الكنعاني ، العز والبهاء لباسها ، وتضحك على الزمن الآتي ، تفتح فمهـا بالحكمة ، وفي لسانها سنة المعروف تراقب طرق اهل بيتها ولا تأخذ خبز الكسل يقوم اولادها ويطيبونها ، زوجها ايضاً فيمدحها ، بنات كثيرات عملن فضلا اما انت ففقت عليهن جميعاً ، الحسن غش والجمال باطل ، اما المرأة التقية الرب فهي تمدح ، اعطوها من ثمر يديها ، ولتمدحها اعمالها في القلوب) .

يغلب على الظن إن قارىء هذا الاصحاح من سفر الامثال يشعر بشيء من الرضا والراحة لهذا المستوى الرفيع من التوجيهات التي تقدمها ام لولدها الملك

---

(١) (سفر الامثال) الاصحاح الحادي والثلاثون فقرات ٢ – ٣٠ .

كذلك فان لغة عافه وأخلاقية تبدو بارزة وواضحة ذلك ان المتتبع لاسفار العهد القديم لا يجد فيها مواقف كثيرة او قليلة تنهي عن شرب الخمر وتحذر من الوقوع فيه وتجعله جريمة ومفسدة مثلمـــا تقدم المرأة التي معنا نصائحها لابنها الملك . ويبدو ان المدون لهذا السفر والناظم له كان على قدر من التقوى والورع لا بأس به لكن المحير حقاً بعد ذلك هو لماذا في الاسفار غير المنسوبة إلى انبياء او زعماء مشهورين نرى المطروح فيها اقرب من الممكن وإلى المعقول وإلى البساطة وإلى الرؤية التي يمكن ان تكون مدخل إلى ايمان بالله بينما اسفار ذات أهمية قصوى في العهد القديم تنضح خللاً وتفاوتاً من سوء العبارة وتهافت الموضوع .

سفر الجامعة

الجامعة كلمة مؤنث باللفظ مذكر المعنى وهي تقابل كلمة (فوهلت) العبرية ومعناها الحال الذي يجتمع فيه الناس ليعظهم واعظ وهذه التسمية (الجامعة) تشير إلى كاتب جملة من المواعظ والمراثى والحكم [1] .

ويتألف سفر الجامعة من اثني عشر اصحاحاً اتفق عليهما اليهود وآباء الكنيسة والمفسرون القدماء على ان كاتب هذا السفر هو سليمان عليه السلام . ويبنون رأيهم هذا على ما جاء في اول السفر في الاصحاح الاول : كلام الجامعة ابن (داود) الملك في اورشليم (كذلك جاء في نفس الاصحاح في الفقرة ١٢ :) (انا الجامعة كنت ملكاً على اسرائيل في اورشليم) .

وتبني الكنيسة رأيها في ان سليمان هو صاحب السفر في رجائها ان يكون الملك ابن الملك داود سليمان الحكيم باني الهيكل ومؤلف جزء مهم من الكتاب المقدس على ضوء ما يقول شراح التراث الاسرائيلي بل يأملون ان يكون قد رجع إلى الله في آخر حياته بعدما نسبوا اليه جملة المعاصي والمآثم التي اتهموه بها وكتب هذا السفر ليحذر الناس من الخطايا التي سقط فيها [2] .

---

(١) (القس وليم مارش) في الجزء الثامن صفحة ١ من موسوعته (السنن القويم في تفسير أسفار العهد القديم .

(٢) (القس وليم مـارش) في الجزء الثامن صفحة ١ من موسوعته (السنن القويم في تفسير اسفار العهد القديم .

ومع ان هذا يكاد ان يكون الرأي السائد في نسبة السفر إلى سليمان لكن هناك اتجاهاً قوياً في دراسة الكتاب المقدس يعتقد ان هذا السفر ليس لسليمان وذلك لأسباب كثيرة ، ويذهب الدارسون المحدثون إلى تعداد هذه الاسباب ويرون منها : لغة السفر نفسه تختلف عن سفر الامثال ونشيد الانشاد وغيرهما فهي أشبه مـا تكون باللغة الحزينة الباكية التي كتبت بعد السبي ! ويستند الباحثون إلى إضافة أخرى في هذا الدليل وهي ان الاسفار كثيراً ما تحدثت عن حال ومجد الشعب ايام سليمان ومضمون الجامعة لا يوافق ما عرف عن هذا الحال . ان الفقرات الاولى من الاصحاح الرابع من هذا السفر لا تساعد ابداً على القول بأن صاحب السفر هو سليمان وان المناخ الذي سجلت فيه لا بد وان يكون مختلفاً تمامـاً عن الحال الذي صور من قبل في اسفار أخرى عن شعب سليمان ومجد سليمان : ان الاصحاح الرابع من هذا السفر يقول : (ثم رجعت ورأيت كل المظالم التي تجرى تحت الشمس فهوذا دموع المظلومين ولا معزي لهم ، ومن ظالميه قهر اما انا فلا معز لهم ، فغضبت انا ، الاموات الذين قد ماتوا منذ زمان اكثر من الاحياء الذين هم عائشون بعد وخير من كليهما الذي لم يولد بعد) .

اعتقد لو صحت نسبة هذا الكلام إلى سليمان لتعارض ذلك تماماً وناقض كل ما قيل عن سليمان ومملكته ومجده وملوك الارض الذين سجدوا له .

ان في الاصحاح الخامس من السفر فقرة واحدة تنبىء وتدل على حالة من اليأس وفقدان الأمل لا يمكن ان تتصور من سليمان عليه السلام ، تقول الفقرة رقم ٨ : (ان رأيت ظلم الفقير ونزع الحق والعدل في البلاد فلا ترتع من الامر) هل تتصور هذه العبارة من فم الملك النبي الذي أقام مجده على الحق والعدل ، ومع ذلك فإن كاتباً من اتباع العهد الجديد [١] يلح في نسبة السفر إلى سليمان مع انه لا يجد مناصاً من الاعتراف بالفرق بين هـذا السفر وسفر الامثال وانعدام اسم الرب في سفر الجامعة مع ان اسم الجلالة بلفظ الله قد ورد في

---

(١) (مق بهنام) في كتاب (مفاتيح كنوز الاسفار الالهية) الجزء الاول ص ٥٠٥

هذا السفر ويعلل ذلك بأن موضوع السفر ليس علاقة شعب الله مع ربه بل الانسان بصفة عامة في طلاقته مع الله الخالق ، وبداهة ان هذا النظر فيه الكثير من القصور فكيف يمكن ان يقوم موضوع سفر على التوبة والندم والألم من شعب وقع في هذه المعاصي لا يذكر فيه اسم الرب كما يقول ولا يبين عن العلاقة الخاصة التي بين شعب الرب والرب ، ثم تجيء القرائن والشواهد والادلة على عدم صلته بسليمان من لغة السخط والنقم السائدة فيه ويصر هو على نسبته لسليمان لمجرد العبارة التي افتتح بها السفر مغضيا بعد ذلك عن كل محتويات السفر التي تقوم شاهداً على عدم نسبة السفر إلى نبي الله سليمان عليه السلام .

وايا كان الامر فالسفر بنصه ومضمونه الذي بين أيدينا اليوم يفيض بالاسى والحسرة والمرارة والهوان وعلى نقيض السفر السابق تماماً ، ووضع سفر كهذا في التسجيل والتدوين لأسفار الكتاب المقدس وراء سفر الامثال الذي يفيض بالخير والامل ويبني كل مقومات الحب والعدل والسلام في النفس البشرية لهو دليل آخر على افتقاد الذوق الفني التدويني عند نساخ ومدوني اسفار العهد القديم في مراحل نقوله المختلفة .

يقول الاصحاح السادس من سفر الجامعة : (يوجد شر قد رأيته تحت الشمس وهو كثير بين الناس رجل اعطاه الله غنى ومالاً وكرامة ،وليس لنفسه عوز من كل ما يشتهيه ، ولم يعطه استطاعة على ان يأكل منه بل يأكله انسان غريب هذا باطل ومصيبة رديئه [1] .

ويقدم الاصحاح السابع من سفر الجامعة صورة كئيبة لحالة اشبه ما تكون بالموت ،لا صبر فيها ولا جلد ولا ارادة وانما تدل على كامل الانسحاب امام المواجهة والشدة تقول الفقرات الاولى من هذا الاصحاح: (الصمت خير من الدهن الطيب).

ويوم الممات خير من الولادة ، الذهاب إلى بيت النوح خير من الذهاب إلى

---

(١) (سفر الجامعة) الاصحاح رقم ٦ فقرة ١

بيت الوليمة ، لان ذاك نهاية كل انسان والحي يضعه في قلبه ، الحزن خير من الضحك لأنه بكآبة الوجه يصلح القلب ، قلب الحكماء في بيت النوح وقلب الجهال في بيت الفرح .

وهذه الحالة اليائسة التي تغلب على الطابع العام بسفر الجامعة والتي تجعله مناحة في كل فقرات اصحاحه لا يمكن ان تقوم برهاناً على العصر الذي كان يعيش فيه سليمان ولا ان تكون نبوءة له استنطقه الله اياها عما يمكن ان يؤول اليه الشعب بعد وقوعه في سلسلة المعاصي والمآثم التي وقع فيها فلقد كانت احوال الشعب على ضوء ما صورت الاصحاحات التي حكت عن اوضاع واحوال عصر المملكة التي أسسها سليمان لا تسمح بأن يطل النبي الملك من فوق هذا المناخ ليقدم هذه الصورة القاتمة الباهتة التي تدعو اليها هذه الفقرات التي استشهدنا بها وغيرها كثير ولا يمكن لسفر الجامعة إلا أن يكون تعبيراً في عصره عن مناخ سياسي واجتماعي تعيس وجاء المرنم او الناظم او الحكيم وصاغ هذه البكائية الحزينة الساخطة ولا بد ان يكون ذلك الرجل الذي صاغ سفر الجامعة غير النبي سليمان سواء أكان في مجده الذي تحدثت عنه الاسفار او إبان الخطيئة التي ادعتها عليه اسفار العهد القديم .

سفر نشيد الانشاد

هذا السفر الذي يتألف من ثمانية إصحاحات فقط لم يجر جدل حول أي من كتب العهد القديم او مناقشات وتفاسير لأي منهـــا مثلما حدث لهذا السفر الصغير .

ومن عنوان السفر (نشيد الإنشاد) : أي أفضل الإنشاد مثل ما ورد في سفر الجامعة (باطل الأباطيل) : أي أعظم الأباطيل من هـــذا العنوان يتبين ان هـــذا السفر يتغنى به ويترنم بلغتـــه . وحقيقة هو يتضمن معاني شاعرية ويحتوي على صياغة عذبة رقيقة . وقبل ان نتعرض لرأي العلماء اليهود في التراث الاسرائيلي وأصحاب العهـــد الجديد ونظرتهم لهذا السفر نحب ان نقرر بادىء ذي بدء ان موضوع النشيد وهو حوار جيـــد وترنيمة عذبة وأغنية حب بشري موضوع هذا السفر رواية غزل وعشق أبطالها هم: (شلوميت) . (والراعي المجهول الشخصيـــة) وسليمان نفسه فيما نسب اليه السفر .

وفي الرواية التي تضمنهـــا سفر نشيد الإنشاد إشارة إلى (بيشنق) الشولمية المرأة الجميلة التي يقال انها كانت لداود بعد موت زوجها اوريا الحثي فيما نسبته الاسفار وطلبها (ادونيا) أخو سليمان فأمر بقتله ، وشلوميت في الرواية موضوع هذا السفر امرأة جميـــلة ادعى السفر ان سليمان أحبها وأراد ان يأخذها ، ولكنها رفضت الملك ومجده وغناه وظلت على حبها للراعي .

والعجيب حقاً هو ما يناله هذا السفر من اهمية في الزمن القديم والحديث مع ان لغة الجنس فيه صارخة ، فالحاخام (اكيبا) [١] وهو من رجال العهد القديم وأتباعه في القرن الأول الميلاد يقول : (لا شك في ان قانونية سفر نشيد الإنشاد في انه مقدس ، ان كل الأسفار مقدسة ، ولكن نشيد الإنشاد هو قدس الاقداس) .

واهمية هذا السفر في التراث الاسرائيلي عند أتباع الكتاب المقدس بعهديه القديم والجديد تتمثل في شرح وتفسير اتباع العهد الجديد لما جاء فيه مما هو حب بشري وجنسي محض [٢] على ضوء النبوءة التي يؤمنون بها في العهد القديم بشارة بالسيد المسيح .

وعلى سبيل المثال جاء في الفقرة الاولى من الاصحاح الاول من السفر (نشيد الانشاد) : ليقبلني بقبلات فمه) علماء اللاهوت يفسرون هذه العبارة باشتياق الكنيسة المسيح وهي طالبة الاتحاد معه كحبيبته وليس كعبدته [٣] .

وجاء في نفس الاصحاح : (وأرعى جدائك عند مساكن الرعاة) يفسرونها بأنه على الامهات ان يأخذن اولادهن الى الكنيسة ليسمعوا مواعظ

---

(١) الجزء الثامن صفحة ٤٠ من موسوعة القس وليم مارش (السنن القويم في تفسير اسفار العهد القديم) .

(٢) يقول المؤرخ (ولديورانت) في موسوعته (قصة الحضارة) في الجزء الثالث من المجلد الثاني الطبعة الثانية الصادرة عن لجنة التأليف والترجمة والنشر ٩٣ يقول عن سفر نشيد الانشاد : (قبل اختتام القرن الثالث الف شاعر أو شاعرة يهودية نشيد الانشاد الجميل : في هذا النشيد كل ما حواه السفر اليوناني من (سافو) الى (ثاو) فريطوس من روعة فنية ولكن فيه فوق هذا ما لا يمكن العثور عليه من مؤلفي ذلك العصر فيه قوة الخيال وعمق الشعور واخلاص مثالي حوى من الحب ما يكفي للترحيب بجسم الحب وروحه .

(٣) الجزء الثامن من صفحة ٤١ من موسوعة القس وليم مارش (السنن القويم في تفسير أسفار العهد القديم) .

القسوس [1] . وجاء في نفس الاصحاح : (صوت اليمامة سمع في أرضنا) يقولون ان صوت اليمامة هو صوت يوحنا المعمدان وهو صارخ في البرية اعدوا طريق الرب ، ويقولون ايضاً انه صوت الروح القدس يوم الخمسين [2] .

وفي محاولة غير موضوعية للربط بين سفر الجامعة الذي يفيض سخطاً ونقمة على هذا العالم وبين هذا السفر الذي يروي في الحس كل مبتغاة من دروب اللذات والمتع بصوره الوصفية الجميلة تقول التفسيرات الروحية اللاهوتية [3] : (ان هذا السفر يجيء بعد سفر الجامعة الذي يرسم امامنا بطلان كل ما هو تحت الشمس وكلمات [يسوع] مع المرأة السامرية تبين الفرق بين كل من السفرين ففي سفر يوحنا – كل ما يشرب من هذا الماء يعطش ايضاً – اشارة إلى اباطيل هذا العالم المشروحة في سفر الجامعة – ولكن من يشرب من الماء الذي اعطيه انا فلن يعطش إلى الأبد – إشارة إلى الشبع والارتواء بالعريس الحبيب في سفر النشيد) [4] .

وفي واقع الامر فان هذا التكلف في تأويل صريح النصوص في تتابعها بغير قرينه تساعد على هذا التكلف في ربط هذا التتابع غير الموضوعي فضلاً عن ان هذا التكلف في تأويل صريح النصوص منهج غير عقلي بل وغير روحي كما يحاول دعاة التفسير الروحي وكما يدعون . فلو ترك باب فهم التراث الديني في الزمن القديم والحديث لهذا المنهج الذي يفسر النصوص على ضوء ما يريد بغير قرينة سابقة او لاحقة وكأن هذه النصوص شفره يعرف المفسر

---

(١) الجزء الثامن صفحة ٤١ من موسوعة القس وليم مارش (السنن القويم في تفسير اسفار العهد القديم) .

(٢) الجزء الثامن ص ٤١ من موسوعة القس وليم مارش (السنن القويم في تفسير اسفار العهد القديم) .

(٣) الجزء الثامن من ص ٤١ من موسوعة القس وليم مارش (السنن القويم في تفسير اسفار العهد القديم) .

(٤) (متى بهنام) مفاتيح كنوز الاسفار الالهية الجزء الاول ص ٢١٢ .

سرها لاختلطت معاني ومفاهيم وضاعت أمور لا يمكنها أن تقوم إلا ببرهان النص وعلاقته بغير من النصوص .

فسفر (نشيد الانشاد) أكان لسليمان أم لغيره وهو بالقطع ليس لسليمان مثله في ذلك مثل السفر الذي لم يعتبره سفراً قانونياً والمسمى (بسفر الحكمة) الذي يرجع تاريخه الى ما قبل الميلاد بنحو مائة سنة وعلى ذلك نسبوه لسليمان على اعتبار عندهم وهو ان سليمان رأس كل حكمـاء ومصدر كل خير ، أقول سفر (نشيد الانشاد) صياغة جنسية صارخة لعلاقات حب وغرام متأجج بين عناصر وأبطال السفر .

ولننظر بعض فقرات ونماذج من هذا السفر في صريح العبارة وبغير لفظ أو غلو أو تأويل .

تقول : شوليت لحبيبها الراعي الغائب بعـد أن احتجزها المالك غصبـاً وقهراً وأدخلها الى قصره فدعت حبيبها ليحبها فمـاذا قالت له ، قالت له كما عـبر ناظم السفر في الفقرات الاولى من الاصحاح الاول من السفر : (ليقبلني بقبلات فمه ، لان حبك أطيب من الخمر كرائحة أدهانك الطيبة، اسمك دهن مهراق، لذلك أحبتك العذارى ، اجذبني وراء ظهرك فنجري ، ادخلني الملك الى حجاله نبتهج ونفرح بك ، نذكر حبك أكثر من الخمر ، بالحق يحبونك) .

ثم تنتقل المرأة المحبة والحبيبة الى الحديث عن نفسها ولعلها في ذلك ترد على بعض ممن كن من النساء ينظرن اليها ويرون فيهـا بعض الصفات التي قد تعاب مثل السمرة أو غيرها فتقول (شوليت) في السفر : (والعجيب حقاً هو أن ينسب مثل ذلك النبي سليمان ويقولون بعد ذلك انه مصدر كل حكمة) . فماذا قالت المرأة المحبّة (شوليت) ؟ قالت : (أنا سوداء وجميلة يا بنـات أورشليم ، كخيام قيدار ، كشقق سليمان ، لا تنظرن إليّ لكوني سوداء لان الشمس قد لوحتني ، بنوا أمي قد غضبوا علي ، جعلوني ناطورة الكروم ،

أما كرمي فلم أنطره ، أخبرني يا من تحبه نفسي أين ترعى ، اين ترابض عند الظهيرة ، لماذا أنا أكون كمقنعة عند أصحابك) .

وفي هذه الفقرات وقفة فنية لا بأس بها ، فالمرأة تقول :(جعلوني ناطورة الكروم ، اما كرمي فلم أنطره . أي انها تقول ان سبب سوادها رعايتها للكروم في الشمس انهـا تقول انهـا لو نظرت الى كرمها هي أي جمالهـا ما اسودّت) .

ولما كانت تبحث عن حبيبها عند قطعان الغنم وتفتش عنه ولا تجده ولا ترى شيئاً جلياً عن حبيبها امامها فكانت كمقنّعة اي كئابة ، وهذه صورة وصفية خصبة تـدل على وجدان مشبع بالحب هيمن فيه الحبيب على العقـل والحواس .

لكن الادهى والاشد ايغالاً في تعميق هذه الصورة الحسية والجمالية المعبرة عن الحب الغريزي والوصف الجمالي هو القول ، أورد الفعل المنسوب في السفر في باقي فقرات الاصحاح الأول لسليمان فماذا قال في السفر قـال [١] : إن لم تعرفي ايتها الجميـلة بين النساء فاخرجي على آثار الغنم وارعي جداءك عنـد مساكن الرعاة ، لقد شبّهتك يا حبيبتي بعرس في مركبات فرعون ، ما أجمل خدّيك بسموط وعنقك بقلائد نصنع لك سلاسل من ذهب مع جمان من فضة . سليمان هنا يشبّه (شوليت) بفرس ، ويبدو انه كان اغلى واجمل شيء عنده ، والسموط سلاسلاً من اللؤلؤ صنعوها لها فقد قال : نصنع لـك ، اي يبدّل زينتها البسيطة بما هو افضل واجمل اي بسلاسل من ذهب مع جمان من فضة عوضاً عن الخرز الذي كان بين يديها ورقبتها .

وفي باقي فقرات الاصحاح جواب (لشلوميت) فماذا قالت ؟ قالت ما هو عجب : قالت ما دام الملك في مجلسه أفاح نارديني رائحته ، صرّة المر

---

(١) سفر نشيد الانشاد – الاصحاح الاول – فقرات ٨ – ١١ .

حبيبي لي بين ثدي يبيت ، طاقة فاغية حبيبي لي في كروم عين جدي . ففي قولها ما دام الملك في مجلسه أي ما دام الملك غائباً عنها فأفكارها في حبيبها الراعي ، وهـــذه الافكار تهيمن عليها وهي عندها أفكار حلوة ولذيذة كرائحة الناردين ، ويبدو انه نبات عبق كريم على النفس وهذا العطر الذي تتحسسه وتتلمسه في الافكار تنتعش به وتحيا فيه ، وبين ثدييها يبيت وزهر نبات الفاغية وزهر الحنّاء والازهار البيضاء ذات الرائحة الحبيبة ، كلها تعبّق وجدانها كلما تذكرت حبيبها (طاقة فاغية) وتتذكره استحضاراً في نفسها ومعايشة كاملة. ولم تزل موجودة في جوار عين جدي (١) أو وهي معه وبينهما صغار عين المعز – فالجدي كما جاء في قاموس الكتاب المقدس اسم لصغير المعز وكان يعدّ من أفخر انواع الاطعمة – .

ويمضي بنا سفر الحب والجنس بل قل سفر الاثارة الجنسية الصاخبة الى ان يحدثنا الاصحاح الثالث عن حلم رأته (شوليت) وكان حبيبها لم يأتها بعد ، فطلبته حتى في الحلم ثم ذهبت في الحلم أيضاً تطوف المدينة وتسأل الحراس عن حبيبها حتى وجدتـه وامسكته وادخلته بيت أمهـا ، وفي أي مكان في البيت ادخلته ، في الحجرة التي حبلت فيها أم شوليت بشلوميت ، هكذا جاء نص العبارة في النشيد ولا يستطيع احد ان يفسّر لنا الى اي شيء يمكن ان ترمز هـذه العبـارة : محبة بحثت عن حبيبها وسألت الناس جميعـاً حتى الحراس ، حراس الملك ووجدته وذهبت بـه الى الحجرة التي حبلت فيها أمها بها وكل ذلك في حلم على الفراش ، وإذا كان يمكن التفسير بالرمز كما يعشق أحباب العهد القديم والجديد ، أترمز هذه الحاجة المستكنة في قلب ومشاعر شوليت نحو الراعي الحبيب أقل او أكثر من سيطرة الجنس

---

(١) قاموس الكتاب المقدس – طبعة مجمـــع الكنائس في الشرق الادنى الطبعة الثانية ص ٢٥٤ باب الميم .

الصاخب والمهيمن على قلب وجسد المرأة التي يتحدث عنها سفر الحب والجنس والإثارة ولننظر ما سجله السفر [1] .

في الليل على فراش طلبت نفسي من تحبه فما وجدته، اني اقوم واطوف في المدينة في الأسواق وفي الشوارع اطلب من تحبه نفسي،طلبته فما وجدته، وجدني الحرس الطائف في المدينة، فقلت أرأيتم من تحبه نفسي، فما جاورتهم إلا قليلاً حتى وجدت من تحبه نفسي فأمسكته ولم أرخه حتى أدخلته بيت أمي وحجرة من حبلت بي أحلفكن يا بنات اورشليم بالظباء وبأيائل الحقل، ألا تيقظن ولا تنبهن الحبيب حتى يشاء [2] .

وينقلنا الاصحاح السادس الى مشهد روائي أشد إثارة وذلك من خلال سؤال توجهه بنات اورشليم الى (شولميت) يسألونها عن الحبيب واخباره ، المفرطة على الحبيب اجابتهن (شولميت) بأنه لا يجب عليهن ان يسألنها عن الحبيب .. فالحبيب لها وهي له ، وما كان لهن ان يسألنها عنـه .

لكن المشهد الغير المتصور هو ظهور سليمان فيما ينسب اليه الاصحاح فعقب الحوار الذي بين (شولميت) وصاحباتها من بنات اورشليم ينسب الاصحاح الى سليمان غزلاً ومع رقته وعذوبته إلا ان المشهد في الاصحاح كان مفاجئاً ويبدو انه حين التدوين والتسجيل زج بهـذا المشهد في غير موضعه . فمـاذا يقول الاصحاح السادس بالفقرتين الاولى التي قصت الحوار بين المحبة وبنـات اورشليم والثانية التي سجلت الغزل المنسوب لسليمان .

يقول الاصحاح [3] : أين ذهب حبيبك ايتها الجميلة بين النساء أين توجه حبيبك فنطلبه معك ، حبيبي نزل الى جنته الى خمائل الطيب ، ليرعى في

---

(١) سفر نشيد الانشاد – الاصحاح الثالث ١ – ٥ .

(٢) » » » » » ١ – ٥ .

(٣) » » » » السادس فقرات ١ – ٧ .

الجنات ويجمع السوسن ، انا لحبيبي وحبيبي لي [1] الراعي بين السوسن ، أنت جميلة يا حبيبتي ، حسنة كأورشليم ، مرهبة كجيش بألوية ، حولي عني عينيك فانهما قد غلبتاني ، شعرك كقطيع المعز الرابض في جلعاد ، أسنانك كقطيع نعاج صادرة من الغسل اللواتي كل واحدة متئم وليس فيها عقيم ، كفلقة رمانة خدك تحت نقابك .

هذا هو النص للمشهدين المتقابلين وكانا يجب ان يكونا تدويناً على الأقل في موضعين متغايرين .

هذا ويطالعنا الاصحاح السابع في السفر العجب ، بما تعجز ريشة فنان او قلم شاعر عن تصويره ، ولا بد لمن يقترب من تصنيع هذا النص الذي يحتويه الاصحاح السابع ان يكون صاحب خبرة ماجنة في عالم النساء الجميلات العاريات أي انه لا بد وبالضرورة ان يكون رجلاً غير سليمان النبي لكن الاصحاح السابع والسير معاً ومعها المؤمنون بهما يصرون على نسبة هذا الوصف : (الحريمي) الى سليمان ، فماذا قال الاصحاح السابع : (... ما أجمل رجليك في النعلين يا بنت الكرام ، دوائر فخذيك مثل الحلى ، صنعة يدي صناع ، سرتك كأس مدور لا يعوزها شراب ممزوج ، بطنك صبرة حنطة مسيجة بالسوسن ، ثدياك كخشفتين توأمي ظبية ، عنقك كبرج من عاج ، عيناك كالبرك في حشبون [2] عند باب بثروبيم [3] ، انفك كبرج لبنان

---

(١) مما يجدر تعليقاً على هذه العبارة (أنا لحبيبي وحبيبي لي) انها جاءت بالنص موضوعاً لأغنية عاطفية غنتها وتغنيها المطربة اللبنانية الاصل المسيحية الديانة (فيروز) أنا لحبيبي وحبيبي لي يا عصفورة بعيدة لا ترعلي لا يعتب حدا ولا يزعل حدا : أنا لحبيبي وحبيبي لي .

(٢) (حشبون) اسم لمنطقة (حسبان) على بعد ١٥ ميلاً الى الشرق من الشمال من البحر الميت .

(٣) (بثروبيم) : .. ابنة كثيرين اسم لباب حشبون وبقربه البركة المتصورة في التراث الاسرائيلي .

الناظر تجـاه دمشق ، رأسك عليك مثـل الكرمل وشعر رأسك كأرجوان ملك قد اسر بالخصل ، ما اجملك وما احلاك ايتها الحبيبة باللذات ، فامتك هذه شبيهة بالنخلة ، وثدياك بالعناقيد ، قلت اني اصعدالى النخـلة وامسك بعروقها وتكون ثدياك كعناقيد الكرم ، ورائحة انفك كالتفاح ، وحنكك كأجود الخمر لحبيبي السائغ المرقرقة السائغة على شفاه النائمين) .

هـل يستطيع عاقل يطلع على هذه النصوص ولا يقول انهـا أشد انواع الادب الجنسي حدة وصراخاً ؟ أيستطيع عـاقل يقدس النصوص المقدسة ويقول ان هذه النصوص التي أتينا على بعضها رمزاً ونبوءة لخلاص قـادم او معبد سيقام او نبي سيجيء اعتقد انه لا وألف مرة لا . إن الذي نستطيع قوله هو ان هذه النصوص صيغت في جو تحلل من كل ضوابط الخلق والدين والقيم الاخلاق القائمة على توجيه وحي السماء وحين ترجمت الى لغات العـالم وآدابه ، اصبحت مصدراً رئيسياً وأساسياً لكل الفنون الجنسية والمنظمات والهيئات التي جعلت من الجنس والتعلق به أساساً لها في تحقيق كل هدف[1].

إن الفقرات الاولى من الاصحاح الثامن من السفر الذي يعتبر حجة ودليلاً لكل علاقة متصورة في السفر بالنبوءة والنبوءات تفاجئنا بالعجب الذي يضج بالصور الانحلالية التي تطالعنا بها كل مـا يمكن ان يفترى به في هـذا السفر على لسان سليمان عليه السلام . إن الإصحاح الثـامن يتحدث على لسان (شلوميت) بطلة السفر وموضوعه الحقيقي فتقول : انهـا تتمنى ان يكون حبيبها الراعي أخاً لها من أمها حتى تستطيع الخروج معه والصعود الى الجبل واياه وان تدخل به الى بيت أمها ، والى أي شيء تريد لتسقيه خمراً ممزوجة من سلاف الرمان ، تعانقه وتقبله نائمـة على يده الشمال ، واليمين تداعبها وتعانقها ، وهذا الحبيب الذي تتمنى لو يكون أخاً من الأم ، لتفعل به ومعه

(١) في كتاب (اليهود بين الدين والتاريخ) (للباحث) دراسة موسعة عن هـذا الجانب صادر عن النهضة المصرية عام ١٩٧٣ .

كل هذا الذي تحلم به تستحلف بنات اورشليم ان لا يزعجنه ولا يعملن على ما يقلقه .

هذه الصورة الموجزة لما توحيه وتنطق به في صراحة تامة لا تقبل التأويل، كلمات السفر في الاصحاح الثامن أيمكن ان تكون برهاناً على غير الجنس ورغباته المجنونة ؟؟ لا وألف لا . ولننظر الى ما يقوله الاصحاح الثامن : (... ليتك كأخ لي الراضع ثدي أمي ، فأجدك في الخارج ، واقبلك ولا يخزونني، واقودك وادخل بيت أمي وهي تعلمني، فأسقيك من الخمر الممزوجة من سلاف رماني ، شماله تحت رأسي ويمينه تعانقني ، احلفكن يا بنات اورشليم ألا توقظن ولا تنبهن الحبيب حتى يشاء) [1] .

هذا موجز بالتعريف بالسفر الصغير الذي لم يبلغ أكثر من ثماني اصحاحات في ورقات معدودة وقد ملأت اخباره الدنيا ضجيجاً وتناوله اصحاب العهد القديم والجديد على السواء بنوع من الاهتمام والتبجيل لم يحظ سفر من أسفار الكتاب المقدس بما حظي به سفر نشيد الانشاد : إن (القس وليم مارش) في كتابه (السنن القويم في تفسير اسفار العهد القديم في الجزء الثامن منه) صفحة ٤١ يقول :(في القرن الثالث بعد المسيح الف(اريجانوس)، تفسيراً في نشيد الانشاد في عشرة مجلدات كاملة) [2] .

وفي القرن الثالث عشر الميلادي ألف (برنارد كليرفو) ستة وثمانين موعظة على الاصحاحين الاول والثاني من هذا السفر فقط .

وفي عام ١٩٤٥ في (شانبج كنج) في الصين نشر الكاتب الصيني تأملات في سفر الاناشيد في كتاب كامل نشره الى العربية في عام ١٩٧٦ م (فؤاد حبيب) وفيه ينتهي الكاتب الصيني (وتشمان) الى ان السفر نبوءة عن

---

(١) (سفر نشيد الانشاد) الاصحاح الثامن فقرات : ١ — ٤ .

(٢) (السنن القويم) في تفسير اسفار العهد القديم الجزء الثامن ص ٤١ .

العهـد الجديـد والكنيسة ، كيف انتهى الكاتب الصيني الى هذا ، هـذا هو العجب ؟

ومع ان بعض المعتدلين في فهمهم ودراستهم للعهد القديم مثل : (حبيب سعيد) في كتابه :(المدخل الى الكتاب المقدس) يقول [1] : (وإن يكن سليمان قد وضع فعـــلا طرائف من الاناشيد فليس من المحتمل ان يكون هو نفسه واضع هذا السفر) إلا أن النغمة السائدة هي ربط مضمون هذا السفر بشعب العهد الجديد في نبوءة رمزية عن الكنيسة والمسيح ، وهذا يقتضي منا انشاء الله تمحيص هذا الموضوع في توسع وتخصيص دراسة في هذا المجال .

---

(١) (تأملات في سفر نشيد الانشاد) تأليف (وتشيان تي) ترجمة فؤاد حبيب طبعة لجنة خلاص النفوس للنشر عام ١٩٧٦ .

سفر أشعيا

يعرف أشعيا بأنه : (ابن آموص) ومعنى الاسم : (خلاص يهوه) او خلاص الرب[1] . ومع أن أشعيا من اشهر انبياء العهد القديم إلا انه لا يعرف عنه إلا القليل من سيرته ، وفي مقدمات اسفار هوشع وعاموس وميخا ما يدل على ان هؤلاء كانوا معاصرين لأشعيا ، وقد تنبأ في ايام عزيا ويوثام واحدز وحزقيا وهؤلاء من ملوك يهوذا .

ولم يختلف اليهود والنصارى في شيء قدر اختلافهم حول هذا السفر وكل ما يتعلق به من قضايا ودعوات .

وعن هذا السفر يقول الكاتب المصري النصراني (حبيب سعيد) في كتابه (المدخل إلى الكتاب المقدس). اختلفت اراء الشراح والباحثون حول هذا السفر اختلافاً لا نظير له في أي سفر آخر .

هذا ويجمع الدارسون في العهد القديم على ان أشعياء قد يكون كتب جزءاً من هذا السفر بينما يرى البعض ان كتّاب السفر ثلاثة او اكثر .

والاصحاحات من رقم ٤٠ إلى رقم ٦٦ تمثل مشكلة حادة امام الباحث ذلك ان فيهم براهين قوية وأدلة صريحة تؤكد عدم صلة هذه الاصحاحات من

---

(١) (مق بهام) كنوز الاسفار الإلهية جزء ١ ص ٢٢٥ .

السفر لأشعيا ، ولا تتصل بالزمن الذي يدعيـه المؤرخون عصراً لأشعيا وهو الفقرة من ٧٦٥ – ٧٠٠ ق.م [١] ذلك ان اسم أشعيا في بداية هذه الاصحاحات لم يذكر تماماً . ويبدو ان الاصحاحات من رقم ١ – ٣٩ كانت كتاباً منفصلا وأدمجا بطريق الصدفة عند نسخ اسفار الانبياء [٢] .

هذا وقد كانت نهاية اشعيا في ايام الملك الاشوري : (منسّى) الذي امر بقتله نشراً .

والسفر كتاب ضخم ، او قل هو اضخم واوسع كتب العهد القديم اخبار وقضايا ومشاكل – فهـو يتألف من ست وستين اصحاحاً في صورته التي بين ايدينا في الكتاب المقدس .

والعدد الاول من هذا السفر يقول صراحة بأن هذا السفر هو : (رؤيا) على يهوذا واورشليم وهذه الرؤيا يرونهـــا نبوة او نبوة تدور حول الاخطاء والشرور التي سقطت فيها أمة اليهود .

ومن الممكن تقسيم الاصحاحات التسع والثلاثون إلى قسمين القسم الاول ويحتوي على خمس وثلاثين اصحاحـاً تدور حول معاملات الله مـــع يهوذا والاسباط العشرة والامم في الايام الاخيرة والقسم الثاني وهـــو من خلال الاصحاحات الاربع يكشف الاسباب والبواحث التي افقدت اسرائيل مملكتهم وذلك بسبب وثنيتهم ورفضهم الايمان .

هذا ويغلب على طابع واسلوب الكتابة في السفر من خلال التسع والثلاثين اصحاحاً الاولى جملة صفات منهـا : اننا نرى الكتابـة في السفر في هـــذه الاصحاحات احياناً بلغة اقرب ما تكون للشعر وحين تكون كذلك تحاول

---

(١) (مق بهنام) مفاتيح كنوز الاسفار الالهية جزء ١ ص٢٢٥ .

(٣) (حبيب سعيد) المدخل الى الكتاب المقدس ص ١٠٣ .

الكلمات من خلال السياق ان تنسب للنبي أي لاشعيا واحياناً تكون بلغة نثرية خفيفة او قل بلغة ضعيفة وفيها يتحدث السفر عن اشعيا صراحة على ان المتحدث هو اشعيا نفسه بدون واسطة واحياناً وبين سياق الاصحاحات في سفر اشعيا نرى فقرات اقرب ما تكون من النظم في نسبة لاشعيا على انه هو ايضاً ناظمها .

واكثر ما في الاصحاحات الاولى من رقم ٦ – ١٢ احاديث يرجع تاريخها إلى الفقرة التي كان فيهـا ملوك اسرائيل ودمشق في حرب مع عاهل آشور ويحاولون اقناع ملك يهوذا بالانضمام اليهم كذلك تتضمن هـذه الاصحاحات الفترة التي كان فيها شعب اسرائيل منفياً في بلاد بابل في ظروف المحنة القاسية التي تعرض لها .

ثم نرى ما جاء في الاصحاحات من رقم ١٣ – ٢٣ عن نبوءة تتعلق بالخراب المتوقع على بعض الشعوب والامم مثل الخراب التي تعرضت له بابل هذا ومن الجدير بالذكر ان بعض المشتغلين بالدراسات النقدية في العهد القديم يرون هذا النذير الذي تحدثت عنه الاصحاحات الاحد عشر من ١٣ – ٢٣ لم تكن على يد اشعيا ولم ينظمها بل جاءت هذه الاصحاحات وهذا النذير من خلالها عن طريق نبي متأخر عاش في بابل في الخمسمائة سنة الاخيرة قبل الميلاد ، ويبنون رأيهم هذا على انه لم يكن في زمن اشعيا ادنى خطر يهدد شعب اسرائيل من بابل ، وقضاء الله الذي تحدثت عنه هـذه الاصحاحات الاحدى عشر تناول بلاداً مثل : دمشق والنوبة ومصر وبرية البحر وادوم وبلاد العرب وصور .

هذا والاصحاحات من رقم ٢٥ إلى ٢٧ تختلف اختلافاً بيناً عن كل مـا عداها في سفر اشعيا ، فهي ليست من عمل نبي بالمعنى الذي يمكن ان يفهم من عمل النبوة في العهد القديم وفي التراث الاسرائيلي عامة إنما هي لغات رؤى. ثم تقدم صوراً ليهوه يتخذ كرسيه ملكاً ومجداً بعد دمار كل اعدائه ، وفي الصورة وليمة كبرى تتضمن اناشيد يغنيها القديسون حمداً وتسبيحاً .

ومجموعة الاصحاحات من رقم ٢٨ — ٣٥ تعتبر آخر مجموعة اصحاحات تعلن اشارات اشعيا في القسم الاول وبينها من التفاوت ما يؤكد ان اجزاء اصحاحات سفر اشعيا على ضوء لغتها وما تسوقه تتعلق بازمنة مختلفة واطوار متعددة يرجع تاريخها الذي تتحدث عنه احياناً إلى عصر مبكر قبل سقوط السامرة في عام ٧٢١ ق . م ويرجع بعضها الآخر إلى العصر الذي رفع فيه حزقيا السلاح ضد الملك (سنحارب) .

ودلائل الاصحاحات ٣٣ — ٣٥ على وجه الخصوص تؤكد انها ليست من صنع اشعيا بل صنع كاتب بعد السبي وبعد السبي بفترة طويلة وذلك لأن الصور الجميلة للطريق الجديد في البرية التي تحدثت عنه الاسفار الثلاثة تبدو لنا قيمتة وروعته حين نقرنه بالعصر الذي علق فيه اليهود املهم على العودة من السبي إلى اورشليم .

وفي الاصحاحات الاربع من ٣٦ — ٣٩ اضافة لكل ما يمكن ان ينسبه شراح العهد القديم لاشعيا هذه الاضافة اضافها جامع السفر في وضعه الحالي الذي انتهى بـه الينا من منتجات استقاها من تاريخ يهوذا ، وفي الاخبار المضافة هذه نراها أخبار متأثرة او متعادلة مع ما جاء في سفر الملوك الثاني في الاصحاحات ١٧ — ١٨ — ٢٠ مع وجود بعض الفوارق الطفيفة مثلما نراها في اشعيا في الاصحاح ٣٨ فقرات من رقم ٩ — ٢٠ نرى نشيد (حزقيا) في تسبيح يهوه من اجل ان يخلصه من داء ألم به ، هذا النشيد لا نراه على الاطلاق في سفر الملوك الامر الذي يجعلنا نرجح ان سفر الملوك الثاني واشعيا مضمونهما معاً وان تقاربا لم يأخذ احدهما عن الآخر بل ربما اخذا كاتب مضمون سفر الملوك الثاني وكاتب سفر اشعيا عن مصدر ثالث ربما كان هذا المصدر هـو سجل حكم (حزقيا) الملك [١] .

---

(١) (حبيب سعيد) المدخل الى الكتاب المقدس ص ١٠٦ .

ونرى على ضوء هذه الدراسة انـه حق بمجموعة الاصحاحات من ١ — ٣٩ التي احتواها سفر اشعيا والتي يدعي شراح التراث اتصالهـا باشعيـا اتصالاً مباشراً ليس لدى القائلين بهذه الدعوى التي تقول بأن اشعيا هو ناظم هـذه الاصحاحات دلائل قوية تمنع القول الآخر الأقوى الذي يرى ان المجموعة على ضوء ما فيها من تقسيمات في سفر اشعيا من رقم ١ — ٣٩ قد كتبها كتّـاب عديدون .

وبعض الباحثين يحاول في تعضيد هذا القول ومساندته أن يحدد زمن بعض الحوادث التي أوردتها هذه المجموعة من الأسفار—فمثلاً حوادث الاصحاح الاول تتحدث عن زمن كانت فيه مملكة يهوذا نهباً لجيوش أمـة أخرى وقد تكون هذه الحوادث هي بعينها التي وردت في الاصحاحين رقم ٧ ، ٨ ويمكن تحديد تاريخها الى حد ما بالفترة من ٧٣٥ — ٧٠١ ق . م حينما كان سنحاريب في فلسطين بعد لعودة اليهود من بابل وعلى هذا يمكن ان يقـال ان المجموعة من الاصحاحات رقم ١ — ٣٩ من سفر اشعيا لم تصبح في وضعها الحالي الذي تتحدث عنه إلا بعد السبي بزمن طويل .

وحين يقلب الباحث نظره في اصحاحات سفر اشعيا الطويل فانه يتساءل في دهشة عن علاقـة الاصحاحات من رقم ٤٠ — ٥٦ مثلاً بمـا سبقها من اصحاحات و كيف يمكن أن تكون هذه المجموعة مع ما سبقها من اصحاحات تتضمن موضوعات وقضايا واحداث مغايرة تماماً في كتاب واحد .

والأعجب أن تنسب هذه المجموعات كلها الى كاتب واحد على مـا بينها من اختلافات ضخمة حتى في طريقة الكتابة واسلوب التداول .

فالأسفار الاولى من المجموعتين رقم ١ — ٣٩ تحدثنا عن مملكة يهوذا التي يعيش شعبها في أرجاء فلسطين بل ان هذه المجموعة تؤكد صلة وحياة اشعيا في هذا الزمن الذي تتداول به، ولكن الباحث ما ان تقع عينه على الاصحاح

رقم ٤٠ إلا ويفتقد ، الشعب اليهودي في فلسطين إنما يجـده في الاصحاح رقم ٤٠ مسبياً في بابل يعاني آلام السبي .

وتطالعنا المجموعة الاولى ايضاً من الاصحاحات رقم ١ — ٣٩ من السفر عن اخبار واسماء وسيرة ملوك هم :(آحاز) (وحزقيا) في يهوذا (وفقح) في اسرائيل (وراصين) ملك دمشق (وسنحاريب) ملك آشور (ومردوخ) ملك بابل . ولم يتجاوز احدهم السبعمائة سنة الأخيرة قبل الميلاد .

أما المجموعة الثانية من السفر والتي تبدأ بالاصحاح رقم ٤٠ فلا تتعرض إلا للملك واحد هو (داريوس) ملك الفرس الذي استولى على بابـل وجعل نفسه سيد المملكة البابلية وكان ذلك عام ٥٣٨ ق . م أي بعد انقضاء ١٥٠ عاماً على زمان اشعيا والملوك الذين تحدثت عنهم على الأقل . ومـا هو أكثر من ذلك اننا نرى في المجموعة الثانية الاصحاح رقم ٤٠ نرى اورشليم وقـد خربت ونهبت واختفى الهيكل ولم يعـد له مـا كان من أثر او وجود ويحاول الاصحاح الاربعون ان يوحي الى الدارس بأن الله قد تخلى عن أرضه وشعبه وإذا كان ذلك كذلك فكيف يمكن التوفيق بين هـذه المرويات وبين سوابقهـا في المجموعة الاولى . إن بعض المشتغلين باللاهوت يحاولون في غير ذي موضوع وغير دقـة أيضاً ان يقولوا : إن الله لقن اشعيا هذه التعاليم ليتعزى بها الشعب وتملأ قلبه بالرجاء في العودة بعد المائة والخمسين عامـاً ، ولما لم يكن هناك من داع في زمن اشعيا لهذه النبوءة فلا مجال لها هنا ابداً في ان تنسب لاشعيا ولكن الاقرب الى التصور والى العقـل هـو ان هـذه الاعلانات او الاشارات من عمل كاتب او نبي من يهوذا عاش في بابل مسبياً في وقت (داريوس) وهو الذي اذاع نداء الأمل والخلاص من السبي ، على ان اسم النبي قد طمر في بطن التاريخ وحين كان التدوين أضيفت اقواله بعد اقوال اشعيا وسجل الناسخون الكتابة للرجلين بغير تفرقة ، وظن من جاء بعد ذلك عبر رحلة التاريخ الطويلة والمتغيرات التي مرت بشعب اسرائيل ان

السفر كله كتاب واحد منسوب الى (اشعيا) وبالقطع فان ذلك الذي ذهب اليه الناسخون أبعد مـا يكون عن الحقيقة ومع ذلك أيضـاً فان هناك من الكتاب مثل (القس وليم مارش) في موسوعته التي سبق وان أشرنا اليهـا من يجزم بنسبة السفر كلـه سفر اشعيا في الكتاب المقـدس الى اشعيا النبي ويستدل على ذلك بأنه حتى القرن الثالث قبل الميلاد كانت جميع اصحاحات الكتاب تعتبر منسوبة الى اشعيا النبي وان الترجمـة السبعينية تضمنت هـذه الاصحاحات الست والستون على انها كتاب واحد وان جميع معلمي اليهود كثيراً ما أشاروا الى الجزء الثاني من الاصحاحات على انـه لاشعيا نفسه وفي رده [1] على القول بوجود اختلافات في الكلمات والمواضيع ومغايرة الاسلوب بين القسم الاول والثاني يقول : إن الاختلاف وارد لأن الجزء الاول يتضمن كثيراً من التوبيخ والانذار والنطق بالويل على اليهود والأمم ، والجزء الثاني يتضمن كثيراً من المواعيـد والتعزية والنظر الى مستقبل الكنيسة المجيد ولا سيما بمجيء المسيح ، ثم يقول : وإذا فرضنـا ان الجزء الثـاني من هـذا السفر لمؤلف آخر غير اشعيا،فإنا نسأل من هو هذا المؤلف هل هو يهودي أو أممي؟ وبالطبع ليس بأممي ، لأن الأممي لا يقدر ان يكتب ما كتبه هذا المؤلف ، وإذا كان يهودياً فلماذا لم يذكر اسمه ، فانـه كان من أعظم الانبيـاء وكان معاصراً (لحزقيال) و (دانيال) وكيف انضم هذا السفر الى سفر اشعيا، هل عرف انه لمؤلف آخر غير اشعيا ، وإذا عرف ذلك فلماذا جمعه مع سفر اشعيا وباسم اشعيا لا باسم مؤلفه ؟ أو من هو الذي أضاف هـذا السفر الى سفر اشعيا وكيف يمكنه ان يضيف والاسفار المقدسة محفوظة عند اليهود بكل ضبط واعتناء [2] .

هذا هو رأي المؤرخ وباحث اللاهوت الموسوعي (وليم مارش) أوردناه

---

(١) الجزء الثامن من السنن القويم في تفسير أسفار العهد القديم(القس وليم مارش)ص٦٨ .
(٢) » » » » » » » » » » » » » ص٦٨ .

على ما هو عليه كوجهة نظر مغايرة لما ذهبنا اليه في نقدنا لسفر اشعيا ذالك ان (وليم مارش) رغم توسعه وإلمامه بالكثير من قضايا العهد القديم لكن السطحية التي تناول بها الرجل تحقيق نسبة السفر سفر اشعيا كله الى اشعيا أقل من أن ينظر اليها المرء في همة نقدية ذلك ان أبسط نظرة نقدية تهدم أهم وأعظم ما ذهب اليه الحبر الجليل فليقل لنا مثلاً كيف كانت تحفظ الاسفار الموسوعية هـــذه بكل ضبط واعتناء كما يقول في مراحل السبي وتعاقب الغزوات وصراع الملوك والأنبياء في اسرائيل كما يروي تراثهم في العهد القديم انه صراع لم يفتر ولم يهدأ يوماً واحداً نسأل العالم الموسوعي ونقول أكان بين سبايا بيت اسرائيل ويهوذا حفظة بالألوف او بالمئات يحفظون هذه المطولات في منفاهم ؟ وهل استطاع الحفاظ ان يحفظوا إن كانت الذاكرة هي الوسيلة كل ما قاله أنبياء العهد القديم ومـــا بين أيدينـــا عنهم من تراث يقول انهم لم يكونوا في أي عصر بأقل من ثلاثة أو أربعـــة وهم في تتابعهم كانوا يكتبون ويدوّنون ان المعروف والشائع عن تراث بني اسرائيل في العهـــد القـــديم على ضوء ما تروي النصوص ان الوسيلة التي كانت لديهم في حفظ ما يحفظون هي الكتابة والتدوين ، أيستطيع العلامة ان يدلنا على أقدم نسخة دوّنت فيهـــا كتب العهد القديم لنعرف منهـــا كم مائة من السنين بين بـــدء التدوين وعصور الحوادث نفسها التي نظمت فيها أسفار الكتاب المقدس ، وبعد ذلك لا بأس من أن نعرض بعض فقرات ونماذج مما احتواها السفر الطويل للست والستين اصحاحاً كبرهان هو دليل على تنوع وتعدد واختلاف قضايا واسلوب ومناهج اصحاحات السفر الواحد، يقول الاصحاح الاول من سفر اشعيا تحت عنوان: (الأمور التي رآها اشعيا بن اموص من جهة يهوذا واورشليم) .

(ويكون في آخر الايام ان جبل بيت الرب يكون ثابتاً في رأس الجبال ويرتفع فوق التـــلال وتجري اليه الأمم وتسير شعوب كثيرة ويقولون : هلمّ نصعد الى جبـــل الرب الى بيت إله يعقوب فيعلمنا من طرقه ونسلك في سبله لانه من صهيون تخرج الشريعة ومن اورشليم كلمة الرب) .

واضح هنا ان الاصحاح يتحدث عن الأمور التي رآها اشعيا بن اموص من جهة يهوذا ويبدو ان زمن الكتابة كان في أول ملك (آحاز) وكان وقت نجاح للشعب في اسرائيل والحديث نبوءة عن اقامة مملكة المسيح وامتدادها، والاصحاح الرابع من هذا السفر ترى فيه الكنيسة انباءاً محدداً بمجيء المسيح وارتفاع شأن الكنيسة في زمن ملكه السعيد ، ويؤمن أتباع الكنيسة بأن النبي اشعيا من خصائصه إذا ذكر أحكام الله ذكر مراحمه ومواعيده على أثر ذلك ففي الاصحاح يعتقدون بأنه ذكر صفات رئيس الكهنة العظيم أي المسيح وسماه (غصن الرب) باعتبار لاهوته عندهم (وثمر الارض) باعتبار ناسوته عندهم ايضاً ثم ذكر صفات المشتركين في بركات الكنيسة تحت رئاسته. ثم بيّن ان التقاء الكنيسة الى تلك الدرجة من العظمة يترتب على نزع الخطايا، هكذا يؤمنون؟ فماذا قال الاصحاح الرابع حتى فسرته الكنيسة هذا التفسير يقول في الفقرات الاولى منه :(في ذلك اليوم يكون غصن الرب بهاءاً ومجداً وثمر الارض فخراً وزينة للناجين من اسرائيل ويكون الذي يبقى صهيون والذي يترك في اورشليم يسمى قدوساً كل من كتب للحياة في اورشليم ، إذا غسل السيد قذر بنات صهيون ونقى دم اورشليم من وسطها بروح القضاء. وبروح الاحزان يخلق الرب على كل مكان من جبل صهيون وعلى محفلها سحابة. نهاراً ودخاناً ولمعان نار ملتهبة ليلاً لان على كل مجد غطاء وتكون مظلة. للفيء نهاراً من الحر وللملجأ ولمخبأ من السيل ومن المطر) .

ومع ان الحديث عن صهيون وعن اورشليم هو الوارد وهو الذي يشغل اهتمام كاتب هذه الفقرات لكن المغرمين بتحويل النصوص الصريحة الى رموز أو (شفرة) خاصة بهم دون سواهم يرون في صهيون واورشليم دلالات تعبّر عن مستقبل ومجد الكنيسة الإنجيلية لا اليهودية [1] . غصن الرب يرونه. المسيح لا سواه وثمر الارض يرونها أيضاً تشير الى المسيح وولادته البشرية.

---

(١) (القس وليم مارش) السنن القويم في تفسير أسفار العهد القديم الجزء الثامن ص٨٨ .

وعبارات (فخراً وزينة للناجين من اسرائيل) اي الذين نجوا من الدينونة بإيمانهم بذلك الغصن البهي يرونها كناية عن الكنيسة الصحيحة : ويكون ان الذي يبقى في صهيون يرون في هذه العبارة ايضاً نبأ النبي اشعيا عن مجيء المسيح وجلاله لا عن واقع الشعب الاسرائيلي الذي يمكن ان يرجع الى صهيون في عصر نظم هذا النص .

وأما الاصحاح الخامس من سفر اشعيا فمستقل بنفسه وليس له كما تفصح نصوصه في غير تأويل أو التواء علاقة بما قبله أو بعده ومضمونه توبيخ أهل اورشليم ويهوذا على خطاياهم وانذارهم بقضاء الله عليهم بسببها وشبههم الاصحاح بكرم وفرت عليه أسباب النمو والخصب ولكنه جاء بثمر رديء وبهذا المدخل بيّن الاصحاح ما سينزله الله بأهل اورشليم من العقاب ثم ذكر بعضه .

أما الاصحاحات رقم ٨ ، ٩ ، ١٠ فهي تدور حول توبيخ الله على حد ما تذهب هذه الاصحاحات (لآحاز) الملك على تركه إياه تعالى واستغاثته بملك آشور اوثني كما تضمنت هذه الاصحاحات ذكراً للمصائب التي ستقع على الذين يطلبون غير الله وحملة التهديد بخراب مملكة (آحاز) وفي الاصحاح الثامن بالذات تضمن أقوال كثيرة لتنشيط الشعب وحثّه على الاتكال على الله ويبدو ان علاقة الشعب الاسرائيلي بالله كانت من وجهة نظر ناظمي هذه الاصحاحات ضعيفة فأراد أن يوجهه اليه هذا ويورد الاصحاح التاسع براهين وآيات متعلقة بأخبار في الاصحاح الثامن تتضمن نبوءة بأن الظلام الذي ذكر في الفقرة الاخيرة من الاصحاح الثامن سيصير نوراً ، وأما فقرات الاصحاح العاشر فهي تتضمن انذاراً من الله لمملكتي اسرائيل ويهوذا للحرب والدمار من الخارج والفتن والقلاقل من الداخل .

وفي الاصحاح التاسع عشر نبوءة ادعاها كاتب الاصحاح بسقوط مصر ثم رجوعها الى الله ، وهذه النبوءة على ضوء مـا هي عليه في الاصحاح ذات

شقين: الشق الاول منها : وعيد لمصر استهدفه كاتب الاصحاح يتضمن وقوع المصائب على مصر والضيق والازمات واستعمل الاصحاح عبارات وتشبيهات عن عادات المصريين وخواصهم مما يؤكد أثر الثقافة المصرية في حياة كاتب الاسفار الذي كان يدوّن لاصحاحات سفر اشعيا على مختلف اقسامه ومراحله المختلفة .

والشق الثاني : وعد لمصر ويتضمن في النبوءة انباء برجوع الشعب المصري الى الله واشتراكهم مع غيرهم من الأمم كآشور في عبادة الله .

والفقرة رقم ٢٢ من الاصحاح التاسع عشر تلخص الاصحاح كله في كلمة مفيدة وهي :(يضرب الرب ضارباً فشافياً)أي ان الله قصد بالضرب التأديب لا الاهلاك وفي خاتمة الاصحاح نرى عبارات تؤكد ان الرب هو إله جميع الأمم وذلك على خلاف ما تذهب أسفار العهد القديم،وفيه ذكر لمصر وآشور وهما الامتان العظيمتان بالايمان ستصير كلا منهما شعباً واحداً يعبد الله ، وبعض شراح العهد القديم يرون في خاتمة هذا الاصحاح نبوءة تعم جميع الممالك والشعوب ويرون انها أوسع واوضح نبوءة في شأن خلاص الأمم .

وبعد مطالعات واخبار وانباء في اصحاحات القسم الاول من سفر اشعيا والذي ينتهي بالاصحاح رقم ٣٩ نرى ان الرأي السائد في الاصحاحات من رقم ٤٠ الى ٦٦ هي انها لعصر غير العصر الذي تحدثت الاصحاحات الاولى وهذا القسم من اصحاحات سفر اشعيا والذي يبدأ من الاصحاح رقم٤٠—٦٦ يحاول الدارسون له من علماء اللاهوت أن ينتهوا الى ان هذا الجزء قد كتبه اشعيا في آخر حياته أيام حكم (منسى بن حزقيا) الذي عمل الشر في عيني الرب فعاد وبنى المرتفعات واقام مذابح للبعل وبنى مذابح لكل جند السماء في داري بيت الرب وسفك دماً كثيراً جداً حتى ملأ اورشليم خراباً ونحن نستبعد ما ذهب اليه بعض شراح العهد القديم في نسبتهم اصحاحات سفر اشعيا كلها من رقم ٤٠ حتى الاصحاح رقم ٦٦ وذلك لما سبق وان تعرضنا له بالدراسة .

هـذا ويشبه بعض اتباع العهد الجديد في دراستهم للعهـد القديم احوال اشعيا في آخر حياته بأحوال (يوحنا في شيخوخته) لأن يوحنا كان منفياً في جزيرة من أجل كلمة الله فرأى في رؤيا الأمور المختصة لشعب الله وفي صورة كلية شمولية الى انقضاء الدهر والكنيسة الجديدة التي يتحدثون عنها في السماء ، وهكذا عندما اضطر اشعيا في شيخوخته ان ينفرد عن العالم ورفع نظره عن رجاسات الملك والشعب اليهودي فرأى في رؤيا الأمور المذكورة في هذا القسم النبوءات على دعوى منهم انها لافادة الاجيال .

وهذه القول مردود كما سبق الاشارة الى ذلـك بقرائن وأدلة أبسطها ان مرويات واخبار هـذا القسم من السفر الذي يبدأ من الاصحاح الاربعين حتى نهاية السفر يخلو من حوادث واخبار ورجـال عصر اشعيا ، وغير منطقي ما يذهب اليه علماء التفسير اللاهوتي من ان الرجل كان يرى مطالعات هذا القسم كأنه ليس في الجسد بل اصبح فيما يقولون بالروح فقط يتحدث عن المستقبل كأنه ماثل مشاهد .

ومع انـه لا برهان في الاسفار او الاصحاحات التي تضمنها سفر اشعيا على وجه الخصوص لمـا يذهب اليه القائلون بهـذا التفسير كما انه ليس لديهم الاساس النظري الذي يعبّر عن أسس او منطلقات او قواعـد فكرية او دينية تقوم كقاعدة على مـا يذهبون اليه إلا أن هـذا شأن المغرمين بالاتجاه الروحي في تفسير بعض النصوص أو معظمها بغير قرينة .

يقول الاصحاح الاربعون الذي نظر اليه المشتغلون باللاهوت تلك النظرة الى اشعيا بخيالهم فقط على انه رأى ما رآه بالروح وكأنه تجرد عن الجسد : (عزوا عزوا شعبي يقول إلهكم ، طيّبوا قلب اورشليم ونادوها بأن جهادها قد كمل ، ان اسمها قد عفى عنه ، انها قد قبلت من يد الرب ضعفين عن كل خطاياهـا ، صوت صارخ في البرية أعـدوا طريق الرب ، قوموا في الحفر سبيلاً لآلهنا ، كل وطاء يرتفع وكل جبـل وأكمة ينخفض ، ويسير المعوج

مستقيماً والعراقيب سهلاً فيعلن مجد الرب ويراه كل بشر معاً لان فم الرب تكلم . صوت قائل : ناد فقال بماذا أنادي كل جسد عشب وكل جماله كزهر الحقل ، يبس العشب ذبل الزهر لان نفحة الرب هبت عليه ، حقاً الشعب شعب عشب يبس العشب ذبل الزهر وأما كلمة إلهنا فتثبت الى الأبد على جبل عال اصعدي يا مبشرة صهيون، ارفعي صوتك بقوة يا مبشرة اورشليم، ارفعي ولا تخافي قولي لمدن يهوذا هوذا إلهك هوذا السيد الرب بقوة يأتي وذراعك تحكم له،هوذا اجرته معه وعملته قدامه كراع يرعى قطيعه بذراعه يجمع الحملان وفي حضنه يحملها ويقود المرضعات) .

هذا هو ما تضمنه وما احتواه أهم ما في الاصحاح الاربعين فاين القرائن التي كانت دليلاً او برهاناً او أساساً لما ذهب اليه شراح التراث من ان هذه العبارات جاءت بشارة ونبوءة عن مطلع العهد الجديد الذي تضمن مجيء وقيام السيد المسيح .

أما الاصحاح الستون الذي يجيء بعد التطواف بما حل باسرائيل واورشليم من اخبار ودعاوى عنهما عبر الاصحاحات المتناثرة في سفر اشعيا بين الاصحاح الاربعين والستين فان موضوعه يتناول اورشليم الجديدة المجيدة في نظر شراح التراث الاسرائيلي .

ويقول عنها (اورشليم) الاصحاح الستون في أولى فقراته : (قومي استنيري لانه قد جاء نورك ومجد الرب اشرق عليك) .

وهذا الاصحاح يقول لنا : (مدينة الرب صهيون قدوس اسرائيل رآها اشعيا في حالة من الذل والخراب وأهلها في حالة سبي في بابل ورأى ايضاً اشعيا نورها وقيام أسوارها ورجوع شعبها وانضمام كثيرين اليها وخدمة الأمم لها فدعاها على ضوء ما في الاصحاح من المسرة والمجد) .

يقول نص الاصحاح : (قومي استنيري لانه قد جاء نورك ومجد الرب اشرق عليك ، لانه ها هي الظلمة تغطي الارض والظلام الدامس الأمم ، أما

عليك فيشرق الرب ومجده عليك يرى ، فتسير الأمم في نورك والملوك في ضياء اشراقك ، ارفعي عينيك حواليك وانظري، قد اجتمعوا كلهم ،جاءوا اليك يأتي بنوك من بعيد وتحمل بناتك على الايدي، حينئذ تنظرين وتنيرين ويخفق قلبك ويتسع لانه تتحول اليك ثروة البحر ويأتي اليك غنى الأمم ، تغطيك كثرة الجمال بكران مديان وعيفة كلها تأتي من شبا تحمل ذهباً ولباناً وتبشر بتسابيح الرب ، كل غنم قيدار تجتمع اليك كباش نبايوت تخدمك تصعد مقبولة على مذبحي وأزين بيت جمالي ، من هؤلاء الطائرون كسحاب، وكالحمام الى بيوتها،ان الجزائر تنظرني والسفن ترشش في الاول لتأتي ببنيك من بعيد وفضتهم وذهبهم معهم لاسم الرب إلهك وقدوس اسرائيل لأنه قد مجدك ، وبنو الغريب يبنون أسواري وملوكهم يخدمونك ، لاني بغضبي ضربتك وبرضواني رحمتك ، وتنفتح ابوابك دائماً، نهاراً وليلاً لا تغلق ليؤتى اليك في غنى الامم وتقاد ملوكهم لان الأمة والمملكة التي لا تخدمك تبيد وخراباً تخرب الأمم مجد لبنان ، اليك يأتي السرو والسنديان والشربين معاً لزينة مكاني مقدسي وأمجد موضع رجلي ، وبنو الذين قهروك يسيرون اليك خاضعين ، وكل الذين اهانوك يسجدون لدى باطن قدميك ، ويدعونك مدينة الرب صهيون قدوس اسرائيل ، عوضاً عن كونك مهجورة ومبغضة بلا عابر بك اجعلك فخراً ابدياً فرح دور فدور، وترضعين لبن الأمم ، وترضعين ثدي ملوك وتعرفين اني انا الرب مخلصك ووليك عزيز يعقوب،عوضاً عن النحاس آتي بالذهب وعوضاً عن الحديد آتي بالفضة وعوضاً عن الخشب بالنحاس وعوضاً عن الحجارة بالحديد ، واجعل وكلائك سلاماً وولاتك براً لا يسمع بعد ظلم في ارضك ولا خراب او سحق في تخومك ، بل تسمين اسوارك خلاصاً وابوابك تسبيحاً ، لا تكون لك بعد الشمس نوراً في النهار ولا القمر ينير لك مضيئاً بل الرب يكون لك نوراً ابدياً وإلهك زينتك ، لا تغيب بعد شمسك وقمرك لا ينقص لأن الرب يكون لك نوراً ابدياً وتكمل ايام نوحك

وشعبك كلهم ابرار الى الابد يرثون غصن غرسي عمل يدي لأتمجد ، الصغير يصير الفاً والحقير أمة قوية ، انا الرب في وقته اسرع به)[1] .

وتمضي الاصحاحات الست الباقية حول حالة الشعب هـذه التي اصبحت شريرة ويعمل الرب على تخليصها من شرورها على ضوء هذه النصوص التي أتينا عليها في الاصحاح رقم ٦٠ ثم يختم الاصحاح السادس والستون السفر بعبارات فيها البشارة للشعب بالخلاص وانهم سيغسلون من آثامهم وشرورهم كأنما قد خرجوا من نهر يقول الاصحاح الاخير من اشعيا في بعض فقراته : (يقول الرب هكذا يثبت نسلكم واسمكم ويكون من هـلال الى هلال ومن سبت الى سبت ، ان كل ذي جسد يأتي ليسجد امامي قال الرب، ويخرجون ويرون جثث النـــاس الذين عصوا عليّ لأن دودهم لا يموت ونارهم لا تطفأ ويكونون رذالة لكل ذي جسد. وقبل ان نختتم التعريف بهذا السفر الطويل وتعليقنا الموجز عليه ونقدنا لبعض قضاياه نود ان ننوه الى ان شراح العهد الجديد وكثرة من المؤمنين به ومن الملقين على التراث الاسرائيلي بوجه عام يقولون كما يذهب متى بهنـــام في كتابه كنوز الأسفار الإلهية الجزء الاول صفحة ٢٣٤ (ان الله هو مؤلف هذا السفر بواسطة عبده اشعيا) . وعليه فيعقدون مقابلات بين معظم فقرات هذا السفر وبين ما جـاء في الأناجيل كنوع من الاشارة والاعلان عن المسيح والكنيسة في العهد القديم ، ولما كان الموضوع لا يتسع وخشية الاطالة فيه فاننا بعون الله سنفرد دراسة لهذا الجزء المهم من كتب العهد القديم وعلاقة الكنيسة به والله نسأله العون والهداية).

---

(١) (سفر اشعيا) الاصحاح الستون فقرات ١ – ٢٢ .

سفر ارميا

أرميا هـو احد انبياء العهد القديم في التراث الاسرائيلي واسمه (ارميا ابن حلقيا الكاهن من عناثوت في ارض بنيامين) [1] . ويتألف هذا السفر من اثنين وخمسين اصحاحاً تتضمن مجموعة من الاقوال بعضها نثر وبعضها نظم على غرار النظم الذي في كتاب العهد القديم – شعر غير موزون – . ويتميز هذا السفر عن باقي اسفار العهد القديم بأنه لا خلاف يذكر حواليه فالاسفار عادة إنما تمثل رسالة قام بها اصحابها في تبليغ الشعب الاسرائيلي وتوجيهه امـــا رسالة ارميا فقد اقترنت بكثير من الشؤون السياسية والتاريخية التي كان لها كبير اهمية في عصر ارميا كما اقترنت بكثير من حياته الخاصة [2] .

والسفر كما هو بين ايدينا اليوم وبشهادة كاتبه ، ليس من وضع النبي ارميا ولا من تأليفه ، بل قد دبجه وصاغه صديقه وكاتبه (باروخ بن نيريا) .

ونصوص السفر ذاتها تحدثنا عن كيفية جمـع أجزائه المختلفة والاسباب والعوامل التي لعبت دورها في صياغته والزمن الذي جمعت فيه هذه الاجزاء المتناثرة ، وماذا حل ببعضها ، واكبر الظن ان باروخا هذا او ربما مؤلفاً غيره

---

(١) سفر ارميا الاصحاح الاول فقرة ١ .

(٢) حبيب سعيد (المدخل الى الكتاب المقدس) ص ١١٢ .

هو الذي اضاف الفصول التاريخية عن حياة النبي أرميا وعن الحوادث السياسية التي جرت في ذلك العصر [١] .

هذا السفر في جملته وهو من الاسفار المطولة كثيراً أشبه ما يكون بوثيقة تاريخية سياسية تتضمن جوانب دينية ، فيستطيع الباحث ان يرى فيه مصير مملكة يهوذا في صراعها مع جيرانها الاقوياء كذلك يسجل السفر صوراً من هلاكها ودمارها النهائي .

ولقد كان العصر الذي يعيش فيه (ارميا) خصباً للغاية ، فقد شهد هذا النبي بنفسه قبل موته سقوط مملكة يهوذا صاحبة الهيكل وقبل ذلك بقليل مائة سنة او تزيد كانت المملكة الشمالية (اسرائيل) التي انفصلت عن بقية الشعب بعد موت سليمان ومقاومة الاسباط لابنه (رحبعام) استطاعت ان تقف على قدميها وان تزدهر لكنها لم تصمد في وجه اعدائها فاصبحت هي الاخرى في عصر ارميا اثراً بعد عين . وفي وسط ذلك كله كان شعب يهوذا الذي يعيش في وسطه ارميا ناسياً ومتناسياً كل هذه المحن ، وان تنبه او ذكر شيئاً فإنما يذكر شيئاً من الزهو والاعتزاز والاعتماد على الذات حاسبين ذلك الهلاك المشين حكم الله العادل على شعب ضل وكفر وفي مواقفهم هذه التي يمليها التراث الاسرائيلي امعنوا في الخيلاء والكبرياء .

اما ارميا فقد ادرك بثاقب بصيرته ما اجراه الله بالأمس على مملكة اسرائيل في الشمال كان انذاراً لما يمكن ان يحل بيهوذا ، ولذلك علا صوته وكثرت تحذيراته دون جدوى .

ويبدو ان ارميا قد ولد بعد موت الملك (منسى) الذي حكم خمساً وخمسين عاماً ، وكان حكمه حكماً سيئاً فسفر الملوك الثاني يصفه بأنه عمل شراً في عيني

---

(١) (تفسير سفر ارميا) . (القس الفريد نيلسون الدغاركي) تنقيح حبيب سعيد صادر عن دار النشر والتأليف للكنيسة الاسقفية بمصر – بدون تاريخ ص ٥ .

الرب حسب رجاسات الامم الذين طردهم الرب من امام بني اسرائيل ، وعاد فبنى المرتفعات التي ابادها حزقيا ابوه واقام مذابح للبعل وعمل سارية كما عمل (اخاب) ملك اسرائيل وسجد لكل جند السماء وعبدها ، وبنى مذابح في بيت الرب الذي قال الرب عنه في اورشليم اضع اسمي وبنى مذابح لكل جند السماء في داري بيت الرب وغير دينه في النار ، واستخدم جانا وتوابع واكثر عمل الشر في عيني الرب لاغاظته ، هذا هو مضمون مــا جاء عن الملك منسى في سفر الملوك الثاني وحين مات هذا الملك خلفه : (يوشيا الملك) الذي لم يكن بينه هو الآخر وبين ارميا ثقة متبادلة مع انه على ضوء سيرته في التراث الاسرائيلي كان ملكاً معتدلاً وظل ارميا كما يصوره سفره يدعو طوال حكم يوشيا وثلاثة من بعده ولم يهدأ ولم يكف عن دعوته حتى مع خراب المملكة وزوالها .

وعلى ضوء ما في التراث الاسرائيلي المدون في الاسفار كان على ارميا بعد موت (يوشيا الملك) ان يعمل على تجنب الويلات والشدائد التي ستحل بالشعب وخاصــة في ذلك المناخ الرهيب الذي احاط بنهاية يهوذا ، فآشور في الشمال ومصر في الجنوب وبين هاتين الدولتين الكبيرتين قامت دويلات صغيرة ففي دمشق الآراميون وفي شرق الاردن العمونيون والموآبيون والآدميون وفي هذا المناخ وجد ارميا شعبه أكثر من ضائع وقد أدرك ان بلاده ستعاني الويل والدمار ، خاصة وان أحداً لا يريد أن يسمع أو يصغي إلى النصح وكان على الرجل على ضوء سيرتــه أن يقنع القيادات اليهودية السياسية أن تقف موقف الحياد فلا يجاروا إحدى الدولتين دون الأخرى ولا يصانعوا مصر وينصرفوا عـــن بابل ، ولكن دون جدوى فرؤساء الشعب اليهودي كانوا من انصار التحالف مع مصر ، وكان ارميا مطمئناً تماماً إلى جانب مصر ، وفي تقديره إن المصائب ستأتي من الشمال ، فلم يصدقوه بل أتهموه بأنه صنيعة آشور وخائن للوطن وخاصة حين بدأت بابــل هجومها على يهوذا اثناء حربهــا مع مصر .

وقد حققت الحوادث للشعب الاسرائيلي اليهودي نذر ارميا التي لم يسمع لها أحداً .

ويحدثنا سفر الملوك عن خلفاء (يوشيا) الملك وما حل في ايامهم بيهوذا فاولهم (يهو آحاز) ولم يمض في الحكم عليه اكثر من ثلاثة أشهر لأن ملك مصر صعد بجيشه الجرار وفتح اورشليم وأسر الملك وسباه إلى مصر بعد ما مات ابوه (يوشيا) على أثر جرح اصابه في موقعة (مجدو) وهو يحارب مصر ثم اقام فرعون مصر على عرش يهوذا عوضاً عن (يهوآحاز) اخاه وغير اسمه إلى (يهوياقيم) وظل هـذا الملك أداة لفرعون مصر إلى أن قامت في الشمال دولة بابـل وقهرت آشور ، ونزلت جيوش بابل إلى الجنوب لمحاربـــة مصر فاغتنمها (يهوياقيم) فرصة ونفض عنه سلطان فرعون مصر ، وليخضع لبابل ثلاثة سنين يحاول بعدها التمرد على بابل ، لكنه يموت فجأة قبل وصول جيش بابل الذي كان متوجهاً لتأديبه فسلم ابن (يهوياقيم) وهو (يهواياكين) بلا قيد ولا شرط وحملوه مسبياً إلى بابل وعينوا بدلاً منه عمه (متنيا) الذي سمى نفسه (صدقيا الملك) وظل عشر سنوات خاضعاً لنفوذ بابل راودته نفسه خلال هذه المدة مرات كثيرة ان يشق عصا الطاعة على سادته في بابل ، حتى فعلها فارسل اليه عاهل بابل جيوشه القوية التي دخلت اورشليم مرة ثانية ، وفي هذه الجولة التي كانت ايام (صدقيا) خربت المدينة خراباً نهائياً فاحرق البابليون الهيكل وسبوا الملك وكل قيادات الشعب وحملوهم اسرى إلى بابل ولم يبق في يهوذا إلا الفقراء وكان ذلك حوالي عام ٥٨٧ ق.م .

وفي وسط هذا المناخ المختلف الاطوار والمتعدد التطورات والمراحل كان ارميا ينادي ويكابد وكان من الممكن أن يموت على يـد (يهواياقيم) الذي طارده فعلا وأذاقـه صنوف وألوان العذاب وكان من الممكن ان يكون بين السبايا لكن ملك بابل تركه في اورشليم مع مجموعات الفقراء الذين قاموا فقتلوا الملك الذي نصبه البابليون عليهم (جدليا) وأخذوا ارميا وهربوا به إلى مصر .

هذا هو الجو العام المحيط بارميا وهذا هو المناخ العام الذي يمكن ان تقصه اصحاحات سفره الطويل وقد كان الرجل بأثر الشدائد التي عاناها يحمل تجربة ممتازة صقلتها المحن وقوت روحـه وانضجته والقاريء لسفره في تمعن ودقة يمكن أن يرى من خلاله كواحد من اهم مصادر التراث الاسرائيلي لا يحمل مفارقات عقائدية أو تاريخية كثيرة نفساً معذبة متألمة مجاهدة المحن التي حولها وان وقعت في الأسى والاستسلام احياناً فهي مرات قليلة وإذا مـا اردنا ان ننظر نظرة اشمل واوسع في هذا السجل فماذا في هذا السفر الطويل .

في الاصحاح الثاني مثلاً نرى افكاراً متواصلة متلاحقة تبدأ من الاصحاح الثاني حتى الاصحاح السادس وحين يقرأ الباحث هـذه الفصول الخمسة يحس وكأنها فصلاً واحداً تتصل افكاره ويلاحق بعضه بعضاً ، وقـد كتبت كلها بلهجة تنم على الحزن والألم ولعلها كتبت إبان محنة شديدة مثل تلك الفترة التي قتل فيها (يوشيا) الملك الذي يعتبره التراث الاسرائيلي ملكاً صالحاً والذي لم تقم بالرغم من ذلك ثقة مبادلة بينه وبين ارميا وسواء أكانت الاصحاحات الخمسة التي بدأت بالاصحاح الثاني قد كتبها ارميا نفسه أو كتبها (باروخ) كاتبه بإملائه فإنهـا تهدف من وراء الصور والتشابيه التي ذكرتها إلى تنبيـه الشعب وإيقاظه للتفكير في علاقته المقطوعة بالله .

تقول الفقرات الاولى من الاصحاح الثاني في سفر ارميا : (وصارت إلى كلمة الرب قائلا : هكذا قال الرب ، قد ذكرت لك غيرة صباك محبة خطبتك ذهابك ورائي إلى البرية في ارض غير مزروعة ، اسرائيل قدس للرب اوائل غلته ، كل آكليه يأثمون ، شر يأتي عليهم يقول الرب : اسمعوا كلمة الرب يا بيت يعقوب وكل عشائر بيت الرب هكذا قال الرب ، ماذا وجد في آبائكم من جور حتى ابعدوا عني وصاروا وراء الباطل ، وصاروا باطلاً في البرية في ارض قفر وحفر في ارض يبوسة وظل الموت في أرض لم يعبرهـا رجل ولم يسكنها انسان ، وآتيت بكم إلى أرض بساتين لتأكلوا ثمرها وخيرها فأتيتم

ونجستم أرضي وجعلتم ميراثي رجساً ، الكهنة لم يقولوا أين هو الرب وأهل الشريعة لم يعرفوني والرعاة عصوا عليّ والأنبياء تنبأوا ببعل وذهبوا وراء ما لا ينفع لذلك أخاصمكم بعد يقول الرب وبني بنيكم أخاصم فاعبروا جزائر كتيم وانظروا وارسلوا إلى قيدار وانتبهوا جداً وانظروا هل صار مثل هذا، هل بدلت أمة آلهة وهي ليست آلهة ، أما شعبي فقد بدل مجده بما لا ينفع ، ابهتي ايتها السماوات من هذا واقشعري وتحيري جداً يقول الرب : لأن شعبي عمل شريراً ، تركوني انا ينبوع المياه الحية ، لينقروا لأنفسهم آباراً آباراً لا تضبط) .

وهذه الصياغة الجميلة المنسقة بقدر من ما فيها من لوعة وحزن على المعاصي التي وقع فيها شعب يهوذا لكنها وعلى غير المعهود هادئة متزنة جديرة بأن تكون توجيهاً آخذاً بين مصادر التراث الاسرائيلي يمكن أن يصل موجهاً إلى قلوب المؤمنين به .

فهذه العبارة الدقيقة الآسية ، التي جاءت في الاصحاح الثاني والمنسوبة إلى ارميا : (تركوني انا ينبوع الحياة الحية لينقروا لانفسكم آباراً آباراً لا تضبط مياه) لا جدال انها بين مرويات التراث الاسرائيلي تمثل عظة بليغة وتأنيباً وتجريحاً للسلوك المنحرف لأهل اورشليم عصر ارميا ومن الجدير بالذكر ان هذه العظة البليغة التي أتينا عليها في الاصحاح الثاني من ارميا تطالعنا مثيلتها في الاصحاح الثالث لأهل الشمال ، وكانوا قد ضاعوا وانتهت دولتهم قبل ارميا بحوالي مائة وخمسين عاماً ولعل في استحضار ما حل بهم وتوجيه النداء لهم ما يزجر أو يعظ اهل اورشليم الذين كان يعنيهم ارميا بالدرجة الاولى .

تقول فقرات السفر الدقيق العبارة المحكم الموضوع ومن بين ثنايا الاصحاح الثالث : (اذهب وناد بهذه الكلمات نحو الشمال وقل ارجعي ايتها العاصية اسرائيل ، يقول الرب لا ارفع غضبي بكم لأني رؤوف يقول الرب لا احقد

الى الأبد ، اعرفي فقط اثمك انك الى الرب إلهـك ، أذنبت وفرقت طرقك للغرباء تحت كل شجرة خضراء ولصوتي لم تسمعوا يقول الرب :(ارجعوا ايها البنون العصاة يقول لأني سدت عليـكم فآخـذكم واحد من المدينة واثنين من العشيرة، وآتي بكم الى صهيون، واعطيكم رعاة حسب قلبي فيرعونكم بالمعرفة والفهم ويكون إذ تكثرون وتثمرون في الارض في تلك الايام يقـول الرب انهم لا يقولون بعـد تابوت عهد الرب ولا يخطر على بـال ولا يذكرون ولا يتعهدون ولا يصنع بعد في ذلك الزمان يسمون اورشليم كرسي الرب ويجتمع اليهـا كل الأمم الى اسم الرب الى اورشليم ولا يذهبون بعـد وراء قلبهم الشرير ، في تلك الايام يذهب بيت يهوذا مع بيت اسرائيل ، ويأتيان معـاً من أرض الشمال الى الارض التي ملّـكت آباءكم إياها،وانا قلت كيف اضعك بين البنين وأعطيك أرضاً شهية ميراثاً مجد أمجاد الأمم،وقلت تدعينني يا أبي ومن ورائي لا ترجعين ، حقاً انه كما تخون المرأة قرينها هكذا خنتموني يا بيت اسرائيل يقول الرب : سمع صوت على الهضاب بـكاء تضرعات بني اسرائيل لأنهم عرجوا طريقهم ، نسوا الرب إلههم ، ارجعوا ايها السبيئيون العصاة فأشفي عصيانكم ، ها قد أتينا اليك لأنك انت الرب إلهنـا ، حقاً باطلة هي الآكام ثروة الجبال حقاً بالرب إلهنا خلاص اسرائيل ، وقد أكل الخزي تعب آباءنا منـذ صبانا غنمهم وبقرهم بنيهم وبنـاتهم ، نضطجع في خزينا ويغطينا خجلنا لاننا الى الرب إلهنا أخطأنا نحن وآباؤنا منذ صبانا الى هذا اليوم ولم نسمع لصوت الرب إلهنا) [١] .

وامام هذه النصوص يبدو ان الحال الذي كان ارميا يرصده ويتابعه في يهوذا ويتناهى اليه أخباراً ومرويات عن اسرائيل قد بلغ درجة من الفساد والانحلال والهوان بحيث لم يعد بين الشعب جماعة دون أخرى صمدت في وجه موجات الفساد والتي اجتاحت شعب اسرائيل ويهوذا في أمسه قبل ارميـا

---

(١) (سفر ارميا) الاصحاح الثالث فقرات ١٢ — ٢٥ .

ويومه الذي يراه ارميا واصبح كل شيء فاسداً وضاعت كل البقية الباقية من حق او خير في اسرائيل . إن الاصحاح الخامس في ارميا يتابع هو الآخر كسوابقه وصف الاثام والشرور التي تردى فيهـا شعب اسرائيل ، وفيـه تشخيص لكل مظاهر الزيف والخداع الذي ملأ حياتهم وسكن قلوبهم ويخص الاصحاح أخباراً مماثلة ومحاولات فاشلة بذلها ارميا في البحث عن عناصر من الشعب تعاونه في مقاومة الشرور والخطيئة دون جدوى . انه وهو بين الجمهور الفقير من يهوذا وجد مبرراً لفساد هذا الجمهور وابتعاده عن الله ومن هنا راح أقصى جهـده في البحث عن خلاص الشعب فالبـلاد المضيعة والحكم منهـار ولا سيد يرجعون اليه والجهل ساد وتفشى وقد تكون الخطيئة بسبب جهل عامة الشعب وبذل الرجل جهداً مضنياً في البحث عن العناصر التي يمكن ان تسمع كلمة الله وتتطهر من الدنس وتكف عن الخطيئة بين الاغنياء والمترفين من يهوذا ولكن ايضاً دون جدوى فلم يسمع له احـد وظل الشعب جميعاً في غوايته وضلاله وخطيئته ، ولعل هذا هو السر في تتابع وتكامل . أخبار الكثير من اصحاحات هذا السفر الطويل في تصوير العلاقة التي ساءت بين الله والشعب وتتابعها في ابراز جوانب المعاصي والشرور التي يمارسها ويقع فيهـا كل يوم والتي كانت سبباً في البلاء والنقمة التي حلت باورشليم .

يقول الاصحاح الخامس : (طوفوا في شوارع اورشليم ، واعرفوا وفتشوا في ساحاتها هل تجدون إنساناً او يوجد عامل بالعدل طالب الحق فاصفح عنها وان قالوا حي هو الرب فانهم يحلفون بالكذب يا رب أليست عيناك على الحق ؟ ضربتهم فلم يتوجعوا افنيتهم وأبوا قبول التأديب ، صلبوا وجوههم اكثر من الصخر أبوا الرجوع امـا انا فقلت إنما هم مساكين قـد جهلوا لأنهم لم يعرفوا طريق الرب قضاء الههم ، انطلق إلى العظماء وكلمهم لأنهم عرفوا طريق الرب قضاء الههم أما هم فقد كسروا النير جميعاً وقطعوا الرب من أجل ذلك يضربهم الاسد من الوعر ذئب المساء يهلكهم يكمن النمر حول مـدنهم ، كل من يخرج منها يفترس لأن ذنوبهم كثرت تعاظمت معاصيهم).

ويكاد يكون السفر كله تسجيلاً جيداً اصور المعصية التي كان عليها الشعب في عصر ارميا فلا يخلو موضع منه إلا وفيه بالتصريح أو بالاشارة دلالات قوية وبراهين حادة توقف الباحث أمام طبيعة الشعب في هذه المرحلة وتؤكد بما لا يدع مجالاً للشك ان الشعب الاسرائيلي اليهودي على ضوء ما سجلت مختلف مصادر تراثه وفي مقدمتها اسفار العهد القديم وسفر ارميا الذي بين ايدينا على وجه الخصوص قد انقطعت صلته بالله فضلاً عن وقوعه واستمراره مراحل طويلة في الآثام والشرور والمفاسد عقب تلك الهزيمة المرة التي حلت بـه في أيام (صدقيا) عام ٥٨٧ ق . م ففي الاصحاح السابع عشر فقرات تقول : (ملعون الرجل الذي يتكل على الانسان ويجعل البشر ذراعه وعن الرب يحيد قلبه) .

وحين يرسل الملك صدقيا إلى ارميا وكان ذلك في أواخر أيام ارميا وقد جاءت أخبار ذلك الطلب في الاصحاح الحادي والعشرين من هذا السفر يطلب الملك في اثر هذا الطلب من ارميا بعض الآراء وبعض النصح في تلك المشكلات التي اثارتها الدولة السيدة والمسيطرة والمستعمرة ليهوذا دولة بابل وكانت هذه المشكلات التى اوجدتها بابل من خلال جيشها الذي وضعته في وجـه الملك الذي نصبته على يهوذا لم تجد هذه المشكلات جواباً مرضياً من قبل الملك الذي نصبته جيوش بابل أو بابـل نفسها وقد سجل الاصحاح الحادي والعشرون بعض هذه النصائح على انها الجواب الذي نطق بـــه ارميا في وجه صدقيا تقول فقرات الاصحاح الحادي والعشرين من السفر : (ولبيت ملك يهوذا نقول اسمعوا كلمـة الرب يا بيت داود هكذا قـال الرب اقضوا في الصباح عدلاً وانقذوا المغصوب من يد الظـالم ، لئلا يخرج كنار غضبي فيحرق وليس من يطفىء من أجل الشر أعمالكم ، هاانذا ضدك يا ساكنة العمق صخرة السهل يقول الرب ، الذين يقولون من ينزل علينا ومن يدخل إلى منازلنا ، ولكنني اعاقبكم حسب ثمر أعمالكم يقول الرب واشعل ناراً في وعرة فتأكل مـــا حواليها) .

ولقد كان المتصور ان تبدأ مراحل الصفح والمغفرة وجمع الشمل للشعب المدلل في العهد القديم بعد تلك الرحلة الغاشية التي أبغضها ارميا وأبان عنها بين سفره الطويل لكن يبدو ان النقمة والسخط والغضب من رب اسرائيل على اسرائيل كان لا يزال على ضوء معطيات التراث الاسرائيلي على مـا هو عليه وأشد ان الاصحاح الرابع والاربعين يصور لنا رب اسرائيل ويهوذا في حالة غيظ شديد حتى خلال تلك الفترة التي كان فيها اليهود في اسر بابل بعد عهد (صدقيا) ٥٨٧ ق . م ووجود جماعة منهم في مصر ، ان مقررات التراث تشير الى ان رب الجنود إله اسرائيل قد أعطى لأرميا كلمة بها يخاطب الشعب،ويبدو ان الخطاب كان هذه المرة من الانذارات الاخيرة والتهديدات الشديدة التي أنذر بها رب اسرائيل شعبه على لسان ارميا فماذا قال الاصحاح من خلال ذلك السفر الطويل : (الكلمة التي سارت الى ارميا من جهة كل اليهود الساكنين في ارض مصر ، الساكنين في مجدل ، وفي تفنحيص ، وفي نوف ، وفي ارض فتروس قائلة هكذا قال رب الجنود إله اسرائيل أنتم رأيتم كل النصر الذي جلبته على اورشليم وعلى كل مدن يهوذا فهـا هي خربة هذا اليوم وليس فيها ساكن من اجـــل شرهم الذي فعلوه ليغيظوني إذ ذهبوا ليتجروا ويعبدوا آلهة أخرى لم يعرفوها هم ولا انتم ولا آباؤكم فأرسلت اليكم كل عبيدي الانبياء مبكراً ومرسلاً قائـلاً لا تفعلوا أمر هـذا الرجس الذي ابغضته فلم يسمعوا ولا أمالوا أذنهم ليرجعوا عن شرهم فلا ينجر لآلهة اخرى فانسكب غيظي وغضبي واشتعل في مدن يهوذا وفي شوارع اورشليم فصارت خربة مقفرة كهذا اليوم ، فالآن هكذا قال الرب إله جنود اسرائيل ، لماذا انتم فاعلون شراً عظيماً ضد انفسكم لانقراضكم رجالاً ونساءاً اطفالاً ورضّعاً من وسط يهوذا ولا تبقى لكم بقية ، لاغاظتي بأعمال اياديكم إذ تنجرون بآلهة اخرى في ارض مصر التي أتيتم اليها لتتغربوا فيها لكي تنقرضوا ولكي تصيروا لعنة وعاراً بين كل أمم الارض ، أنسيتم شرور آباءكم وشرور ملوك يهوذا وشرور نسائكم وشروركم وشرور نسائكم التي فعلت في ارض يهوذا

وفي شوارع اورشليم لم يذللوا الى هذا اليوم ولا خافوا ولا سلخوا في شريعتي وفرائضي التي جعلتها امامكم وأمام ابنائكم ، لذلك هكذا قال رب الجنود إله اسرائيل هأنذا أجعل وجهي عليكم للشر ولأقرض كل يهوذا ، وآخذ بقية يهوذا الذين وجهوهم للدخول الى ارض مصر ليتغربوا هناك فيفنون كلهم في ارض مصر يسقطون بالسيف وبالجوع يفنون من الصغير الى الكبير بالسيف والجوع يموتون ويصيرون حلفاً ودهشاً ولعنة وعاراً وأعاقب الذين يسكنون في ارض مصر كما عاقبت اورشليم بالسيف والجوع والوباء ، ولا يكون ناج ولا باق لبقية يهوذا الآتين ليتغربوا هناك في ارض مصر ليجمعوا الى ارض يهوذا التي يشتاقون الى الرجوع لأجل السكن فيها لانه لا يرجع منهم إلا المنفلتون) [١] .

وهذه النغمة الناقمة المسجلة في الاصحاح الرابع والاربعين من سفر اشعيا على صنيع الشر الذي عملته اسرائيل واورشليم تبرر ما صنع الإله بهم وبأنه كان بأسباب فعلوها في عمد عن معتقد منهم وهو أنهم يغيظون ربهم لكن الذي يحير الباحث حقاً هو تلك الفقرة التاسعة التي أتينا عليها من بين سياق هذا الاصحاح والتي تقول : (هل نسيتم شرور آبائكم وشرور ملوك يهوذا وشرور نسائكم وشروركم وشرور نسائكم التي فعلت في ارض يهوذا وفي شوارع اسرائيل) [٢] .

إن شرور الآباء قد تتصور وهي انهم عصوا الله وارتكبوا الا ثام والموبقات وما عرفوا حقاً او عدلاً ولم يتقربوا الى ربهم بصورة من صور العبادة التي كانوا يقومون بها احياناً وكذلك قد تكون شرور ملوك يهوذا أما شرور نساء الآباء وبالتالي شرور نساء الملوك وشرور نساء الذين يتوجه اليهم ارميا

---

(١) (سفر ارميا) الاصحاح الرابع والاربعون فقرة ١٠ .

(٢) » » » » » » فقرات ١ — ١٤ .

بالخطاب وأين؟ وفي شوارع اسرائيل فهذا ما لم يوضحه كاتب السفر ولا واحد من شراح كتب العهد القديم ، وايا كانت هذه الشرور وهي مزعجة لا محالة فيكفي في الدلالة على ما بلغته الحالة الاخلاقية مع الدينية والسياسية التي كانت في أمس ارميا ويومه، إن شرور نساء يهوذا كانت في شوارع اورشليم، وبالقطع انها كانت من الأشياء والممارسات التي أغاظت رب يهوذا واسرائيل على حد تعبير كتاب التراث ونساخه .

هـذا ويسوق الاصحاح الحادي والخمسون بشارة خراب بابـل وانحطاط عظمتهم من ارض الكلدانيين لأن الرب مخرب بابـل لكن الاصحاح الثاني والخمسين يجيء على غير السياق الذي كانت الاصحاحات السابقة تتميز به من ترابط فيما تخبر عنه الى حد ما ، فالاصحاح الأخير نقلنا الى أخبار (صدقيا) وتاريخ ملكه وولاته ومجيء (نبوخذ نصر) وجيشه من بابـل الى اورشليم واخبار قتل (صدقيا) واولاده بأمر الملك البابلي ، وهذه الوقفة التاريخية القصصية التي أوردها الاصحاح الاخير استحضاراً واستقراءاً لكل ما يفيض به التراث الاسرائيلي من ذكريات لعلها كان تمهيداً وتجهيزاً لتلك الادعيات والتسبيحات والتبجلات التي فاضت بهـا الاصحاحات الخمسة التي احتواهـا (كتيب) المراثي المنسوب ايضاً الى (ارميا) بعنوان : (مراثي ارميا) وهذه المراثي أشبه ما تكون بترنيمة حزن هادئة [1] فيها الكثير من الرضا بالقضاء الذي حـل دون ضجيج : (كيف جلست وحدهـا المدينة الكثيرة الشعب ، كيف سارت كأرملة عظيمة في الأمم السيدة في الأمم صارت تحت الجزية تبكي في الليل بكاء ودموعها على خديها ليس لهـا معز من كل محبيها كل اصحابها غدروا بهـا صاروا لهـا اعداء قد سبيت يهوذا من المذلة ومن كثرة العبودية هي تسكن بين الأمم لا تجد راحة قـد ادركها كل طارديها بين الضيقات ، طرق صهيون نائحة لعـدم الآتين الى العيد كل ابوابهـا خربة ،

---

(١) (مراثي ارميا) الاصحاح الاول فقرات ١ - ٥ .

كهنتها يتنهدون عذاراها مذللة وهي في مرارة صار مضايقوها رأساً نجح اعداؤها لأن الرب قد أذلهـا لكثرة ذنوبها) [1] .

وتنتهي المراثي هي الاخرى في الاصحاح الخامس بتلك النغمـة الحزينة الباكية المتضرعة لكن ذلك على حد ما توحي بـه عبارة السياق يبدو انـه كان بلا أمل لأن الكاتب الذي سجل على الداعي هذه الفقرات ألح وأكثر في الرجاء .

يقول الاصحاح الخامس من سفر المراثي : (اذكر يا رب ماذا صار لنـا أشرف وانظر الى عـــارنا قد صار ميراثنا للغرباء بيوتنا للأجانب ، صرنا ايتاماً بلا أب أمهاتنا كأرامل ، شربنا ماءنا بالفضة ، حطبنا بالثمن يـأتي على اعناقنا نضطهد ، نتعب ولا راحة لنا ، اعطينا اليد المصريين والاشوريين لنشبع خبزاً ، آباؤنا اخطأوا وليسوا بموجودين ونحن نحمل آثامهم ، عبيد حكموا علينا ليس من يخلص من أيديهم بأنفسنا نأتي لخبزنا ، من جري سيف البرية جلودنا اسودت كتنور من جري نيران الجوع ، أذل النساء في صهيون العذارى في مدن يهوذا ، الرؤساء بأيديهم يعلقون ولم تعتبر وجوه الشيوخ ، أخذوا الشبان للطحن ، والصبيان عثروا تحت الحطب) .

ويختتم الاصحاح الخامس فقراتـه في سفر المراثي بتلك العبارة الآسية الجازعـة التي تؤكد روح اليأس بأثر الخطيئة والوقوع في المفـاسد في قلوب اسرائيل ويهوذا : (ويل لنا لأننا أخطأنا من اجل هذا حزن قلبنا من اجل هذه اظلمت عيوننا من اجل جبل صهيون الخرب ، الثعالب ماشية فيه ، انت يا رب الى الابد تجلس ، كرسيك الى دور فدور) .

---

(١) (دروس من سفر ارميا) – (كلايد – ت . فرنسيسكو) استاذ العهد القديم في معهد ومدرسة اللاهوت المعمدانية (لو يفبل) ترجمـة اديب غرزوزي منشورات المعمدانية عام ١٩٦٣ . ص ١٥٢ .

وينتهي دور ارميا في شعب يهوذا بعد رحلة من أشد مراحل التضحيات والآلام التي قادها واحد من رجال العهد القديم ينتهي دور ارميا في شعب يهوذا وهو في أقسى وأشد مراحل تاريخه خطورة ومحنة لكن صدى هـذه العظات البليغة وجد صداها آذاناً صاغية عند قلة قليلة جلست مع مراحل التـاريخ تستنطق من خلال دروس المـاضي وتصوغ تراث بني اسرائيل من اجل غد صهيون (١) .

---

(١) المصدر السابق ص ١٥٣ .

سفر حزقيال

حزقيال في تراث العهد القديم يتداول على انه كاهن وأحد الانبياء الكبار الذين ذكرهم العهد القديم مثل : (اشعيا – ارميا – حزقيال – دانيال) واسمه (حزقيال الكاهن ابن بوذي) كان بين المسبيين الذين أخذهم ملك بابل مع الاسرى في عهد (يهوه ياكين) الذى لم يملك أكثر من ثلاثة شهور وكان ذلك قبل خراب اورشليم نهائياً في عام ٥٨٧ ق . م وكان حزقيال معاصراً لارميا في الثمانية سنين الأولى التي تنبأ فيهـــا ، وكان دانيال في تلك الفترة ايضاً ، وعاش حزقيال بين المسبيين ما يقرب من اثنين وعشرين عامـاً قـام خلالها بدور متميز فكان لا يكف عن توبيخ الشعب الاسير وبذل الجهود من أجل شحذ همته وتقوية روحه المنهارة وجعل (حزقيال) من دلالة اسمه في تراث العهد القديم أي (المتشدد بالله) قوة له فقد كان يؤدي دوره بقوة وصلابة ، ولم يلجأ الى سفح الدموع وتقديم العزاء ورفع التضرعات والاستكانة كما حاول غيره ومن هنا فقد اختلف حزقيال عن ارميا اختلافاً بيناً وإن كان كل واحد منهما قد أدى دوره بمهارة (فارميا) كان رجلاً رقيقاً هادئاً تاقت نفسه للسلام في وسط الخراب والدمار الذي حـل بالارض والشعب قد تـألم كثيراً للمحن التي حلت بالشعب والخطايا التي وقع فيها واعتبر الخطايا والذنوب التي وقع فيها شعب يهوذا الفقراء فيــه والأغنياء على حد سواء كأنها خطاياه

الشخصية ، أما (حزقيال) فكان على نقيض ذلك تماماً [1] . اتخذ موقفاً متأبياً على الهوان الذي وقع فيه شعبه وكان أشبه بالقاضي الذي يتخذ احكاماً يعاقب بها على الجرائم ولم يحسب نفسه واحداً من الشعب الضائع والمسبي ، وكان ذلك بحسب عقيدته لأن كل انسان مسؤول عن اعماله لا عن اعمال الآخرين ، فالآخرون قد اخطأوا ومن واجبه كقيادة دينيه للشعب ان يبصرهم بآثامهم وان يحثهم على الانابة والاستغفار وعند ذلك يرى (حزقيال) انه يكون قد أدى مهمته .

والسفر الذي بين ايدينا يتألف من ثمانية واربعين اصحاحاً أي انه من الأسفار المطولة في العهد القديم .

والزمن الذي يرجح شراح العهد القديم وكتّاب سيرة التراث الديني حسب مجيء أقوال هذا السفر على ضوء ما ورد في هذا السفر نفسه ذلك ان أول اقواله التي دوّنت تشير الى انه في السنة الخامسة بعد سبي (يهوه ياكين) من اورشليم الى بابل [2] . هو في سنة ٥٩٣ او ٥٩٢ ق . م وآخر اقواله يرجعها بعض الشراح الى سنة ٥٧٢ ق . م أي بين البداية والنهاية التي ذكر السفر اخبارها وحوادثها زمناً يصل الى اكثر من عشرين عاماً لذلك يصح القول ان اكثر اجزاء هذا السفر تتعلق بالفترة ما بين ٥٩٣ - ٥٧٢ ق . م وان لم يتعين ان يكون ذلك هو تاريخ تدوين وتسجيل السفر لانه بالقطع دوّن بعد ذلك بفترة طويلة .

وقد يبدو للنظرة الاولى ان هذا السفر الطويل من وضع (حزقيال) وحده على ان الرأي السائد بين المهتمين بأخبار ودراسة العهد القديم ان بعض اجزاء هذا السفر كتبت في وقت متأخر كثيراً عن زمن حزقيال وان

---

(١) (حبيب سعيد) : المدخل الى الكتاب المقدس ص ١١٦ .

(٢) (سفر حزقيال) الاصحاح الاول فقرة رقم ١ .

(حزقيال) نفسه لم يضع السفر الذي بين ايدينا كله فضلاً عما في قضايا السفر من حوادث ومراحل تاريخية تنفي صلتها (بحزقيال) والباحث في السفر يرى نفسه امام اساليب مختلفة وصياغات عديدة ممـــا يؤكد انه من المتعذر ان تكون كتابة السفر في نفس عصر (حزقيال) بل بعد فترة طويلة كما قلنـا اختلط فيها أمر تاريخ (حزقيال) والحوادث التي جرت في عصره بمـا جد بعد ذلك من حوادث وتصورات وخاصة قبيل العصر المكابي [(١)] .

هذا ويمكن تقسيم سفر (حزقيال) الى ثلاثـة اقسام الاول من اصحاح رقم ١ — ٢٤ وفي هـــذا القسم نرى بوضوح تمجيداً وانذاراً للشعب بسبب خطاياه وآثامه بل نرى من خلال نصوص هـذه الاصحاحات في هـذا القسم بالاعلان بالعقوبة واضحاً ومحدداً ويبدو ان هذا الجزء كان قبــل خراب اورشليم فنجده حين التدوين يلقي باللوم على شعب اسرائيل عـامة واورشليم خاصة ، ولذا فصورة هذه الاصحاحات تبدو على وجه عـام محزنة ومقبضة شأن كثير من الاسفار التي تحدثت عن مراحل السبي والضياع وتناولت نماذج الخطيئة والإثم الذي وقع فيه شعب اسرائيل ويهوذا .

القسم الثاني من سفر (حزقيال) يمكن ان ينحصر في الاصحاحات من رقم ٢٥ — ٣٢ وفيه تحاول فقرات السياق العام لهذه الاصحاحات ان تذكر ما قيضه الله لارض الموعد من خلال الامم المحيطة بها والتي كانت لهـا علاقة كبيرة أو صغيرة باسرائيل لكي تعاونها على اجتياز المحن التي حلت بها ويرى شراح التراث الاسرائيلي انه في هـــذا القسم من سفر حزقيال والمتضمن الاصحاحات من رقم ٢٥ — ٣٢ مجموعـة من الاعلانات والرؤى عن الشعوب المحيطة باسرائيل [(٢)] .

هـذا ومن الممكن ايضاً ان نرى مجموعة الاصحاحات من رقم ٣٣ — ٤٨

---

(١) (حبيب سعيد) : المدخل الى الكتاب المقدس ص ١١٦ .

(٢) (مق بهنام) مفاتيح كنوز الاسفار الالهية الجزء الاول ص ٢٥٣ .

تنضوي تحت قسم ثالث ذلك انها كما تحاول العبارات ان توحي تحفل بالأمل في الله وفي عونه ومساعدته لشعب يهوذا في العودة من السبي وفي مستقبل افضل .

ونظرة سريعة على الاصحاحات الثمانيـة والاربعين التي احتواهـا السفر الطويل نراها تحاول في الاصحاحات الثلاثة الاولى ان تقدم حزقيال وهو في بابل يرى رؤية عجيبة غريبـة وغير معقولة ولا متصورة على الاطـلاق ، إذ يجيء اليه الله – تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً – في مركبة متلمعة مصنوعة من كائنات حية بعضهـا في شكل حيوانات كبيرة وأخرى صغيرة ولكن بأجنحة مثل الطيور وبوجوه مثل وجه الانسان ، ومن هذه المركبة العجيبة يقدم يهوه إله اسرائيل في هذه النصوص وفي غيرها (لحزقيال) رسالة ويصنع كتاباً في فمه ويبدو ان كاتب الاصحاحات الاولى كان قد تأثر بأفكار وثنية من الأمم التي كانت حول شعب اسرائيل ويهوذا ويريد ان ينقل لنـا عقيدة التجسيد والحلولية التي كانت عليها بعض مذاهب الهند والصين القديـة لكي ينتهي الى ان كل ما نطق به حزقيال بعد ذلك في اصحاحات سفره إنما هو بأثر الرسالة الإلهية التي نطقهـا بفمه عن إله اسرائيل في الهيئة التي ترسم ملامحها اصحاحات سفر حزقيال (الثلاثة الاولى) .

أما الاصحاحان الرابع والخامس فيقصان خبراً مؤداه انه بأمر الله الذي تحدثت عنه الاصحاحات الثـلاثة الاولى بالطبع يأتي حزقيال ويأتي بأعمال غريبة ، فقد غرته قوة (يهوه) بحيث لم يعد قادراً على التفوه بألفاظ ولذلك يدعي التراث انه يحاول ان يقوم وان يقدم تعاليم بواسطة اعمـال وممارسات وتلك الاعمال عددها خمسة وهي تنتهي كبراهين لهجوم (نبوخذ نصر) على اورشليم وتدميرها تدميراً كاملاً .

وفي الاصحاحين السادس والسابع يحاول (سفر العقوبة) المدعو بسفر (حزقيال) ان يشرح لنا نمط العقوبة التي ستحل في اسرائيل بدأ بالجبال جبال اسرائيل التي عبدوا فوقهـا الآلهة الكاذبة كما يحاول الاصحاحان ان يرسما وصفاً للنهاية المحتومة لشعب اسرائيل ويهوذا .

أما في الاصحاحات من رقم ٨ – ١١ فانهـا تحاول ان تقـدم حزقيال وهو يرفض ويعلن رجاسة عبادة الاوثان في بيت اورشليم .

وتتوسع الاصحاحات من رقم ١٢ – ١٩ في الحديث عن عقـاب مملكة يهوذا من أجل ذنوبها وتسجيل هذه العقوبة على آبائهم وأبنائهم هذا وتسجل هذه الإصحاحات أعمالاً محددة قام بها (حزقيال) كإنذار للشعب لسقوط اورشليم ثم تعاود هذه الاصحاحات فتحدد نماذج وأنماط من هذه الخطايا التي اقترفها الشعب ومحاولة بعض النساء اصطياد نفوس الرجال وازهاق حياتهم .

والاصحاح السادس عشر من هذه المجموعة يعقد مقارنة بين يهوذا وبين امرأة رعاها يهوه طفلة صغيرة ثم تزوجت إلهها ولكنها خانت عهده على حد عبارات الاصحاح ولغة التراث عامة ثم ركنت هـذه المرأة بعد ان خانت عهد الإله المدعي في السفر وركضت وراء عشاق آخرين فحل بهـا القصاص ولكن متى ، في الاصحاح ولغته بعد ان احترقت خطاياها ردها يهوه اليه ، والاصحاح رقم ١٧ يحـاول ان يشرح دور حزقيال في مقاومة مسلك يهوذا وخيانة اليهود لسيدهم ملك بابل والتجائهم في مصر فيرى كاتب الاصحاح ولا سبب لما يراه ان يهوه أرسل عاهل بابـل للاقتصاص من يهوذا بسبب لجوئهم الى مصر .

والاصحاح رقم ١٨ الذي يعتبره الشراح والمعلقون على التراث الاسرائيلي أهم اصحاحات السفر كلـه من حيث عـلاقته بالدين اليهودي يرون فيه ان (حزقيال) يتناول تعاليم (ارميا) الذي كان (حزقيال) قـد رآه وهو شاب في اورشليم يسوق للشعب تعاليمه ولا نظن ان تعليق الشراح على هذا الاصحاح واهتمامهم به هو لأنه حقيقة له علاقة بالدين اليهودي فـلا يعدو الاصحاح ان يكون اكثر من غيره من الاصحاحات فيما تضمنه من سوق عظات ومواقف ، ذلـك ان كاتب الاصحاح يحاول ان يقول إنـه على ضوء عقيدة القوم درج الناس على ان يقبـلوا على إلههم بواسطة رموز ودلالات تضبط

سلوكهم او تبعدهم عن الارتباط بقواعد عقيدتهم ولذلك كانت عقيدتهم حتى عهد ارميا ان الانسان قد ينال قسطاً من القصاص عن ذنوب لم يقترفها وذلك على ضوء عقيدتهم في الإله الذي كما تقول لغة التراث عنه يفتقد ذنوب الآباء في الأبناء وكان من امثالهم التي يتداولونها كبرهان على ما يذهبون اليه :(الآباء أكلوا الحصرم وأسنان الأبناء ضرست) [1] .

وما انتهى اليه حزقيال وما قام به من ممارسات أساسها ذلك النمط من التراث المتداول كان ارميا من قبل قد نادى بخطأ هذا الاسلوب ورفض هذه الفكرة وقال فيما ينسب اليه سفره : (بل كل واحد يموت بذنبه كل إنسان يأكل الحصرم تضرس اسنانه) [2] .

لكن (حزقيال) انطلق من هذه القاعدة وتوسع في شرحها بلغة حادة واسلوب فيه صرامة وقرر القصاص على من يتبع الخطأ او الجريمة بكل صور الممارسة او المشاركة .

وهكذا نرى في عصر واحد وفي بيئة واحدة (ارميا) و (حزقيال) وقد رأى كل منهما الآخر على ضوء مـا في أسفارهما أي انهما ليسا بينهما شقة زمنية ولم يطرأ تطورات او لم يقع من الحوادث ما غير الظرف والمناخ الذي كان يعمـــل فيه كل منهما ومع ذلك بينهما ذلك الاختلاف البيّن في المنهج ومعالجة الواقع اليهودي ولعل ذلك بأثر مما كان يتداول عن سيرة الرجلين وعن انتماء جماعـــة لكل منهما لم يكن بعضها يعرف بعضاً او لم تشع روح الدعوة بين اتباع كل منهما وعندما جـــاء النساخ والذين دوّنوا تراث ارميا وحزقيال دوّنوا ما انتهت اليه الذاكرة او ما تداولوه عبر الأجيال التي كانت في عصر ارميـا وحزقيال حتى عصر التدوين الذي نرجح انـه بعـد عصر (المكابيين) .

---

(١) (حبيب سعيد) : المدخل الى الكتاب المقدس ص ١١٩ .

(٢) (سفر ارميـا) اصحاح رقم ٣١ فقرة ٣٠ .

هـذا والاصحاحات من رقم ٢٠ الى ٢٤ تتضمن الاعـلان عن فضائح اسرائيل ويهوذا وقد اعتمدت هذه الاصحاحات في سياقها على لغة تشبيهية أقرب ما تكون الى أدب الرمز وان لم تتضمن منهج وقواعد الأدب الرمزي فقد تضمنت هـــذه الاصحاحات حديثاً عن صورة صانع معادن يدخل في صناعته زغلاً ومواد غريبة فتحترق لكي تصفى من الزغل ، وهـذه الصورة الرمزية التي تنطوي عليها الاصحاحات من ٢٠ — ٢٤ في بعض عباراتها تعقد مقـارنة بين اسرائيل ويهوذا في جانب واختين في الجانب الآخر ، تزوجت الاختان الكبرى والصغرى معاً وقد حل القصاص بالأخت الكبرى منذ زمن ولكن سلوك الصغرى أقذر وأشر فحل عقابها هي الأخرى واقترب دمارها ومن مثل هذا المنهج التصويري الرمزي تفيض لغة هذه الاصحاحات الخمسة ونقرأ في الاصحاح رقم ٢٤ صورة رمزية عن حياة (حزقيال) الشخصية إذ تموت زوجته الحبيبة فيتحطم قلبه ويرى في النكبة الشخصية نذيراً بسقوط اورشليم وعند هذا الخبر الذي ترويه فقرات الاصحاح رقم ٢٤ يبرز التناقض فجـأة الذي يرويه السفر في سيرة وشخصية (حزقيال) وهـذا هو العجب العجاب في سيرة بعض الرجال الذين يتحدث عنهم العهد القديم .

هـــذا والاسفار من رقم ٢٥ — ٣٢ تطالعنا فيما تذهب اليـه بالرؤى والتنبوءات التي رآها حزقيال ضد الشعوب والأمم الأخرى غير بني اسرائيل ويهوذا ، مثل عمون وموآب وأدوم وفلسطين وصور ومصر ، وهي لا تخلو من ألم وحقد تجاه هذه الشعوب بسبب الحال الذي كانت عليه أمة اسرائيل ويهوذا في السبي فضلاً عن ان مثل هذه النبوءات التي يتحدث عنها لو شاعت في مناخ كالمناخ الذي كان يعمل فيه (حزقيال) وبلغته وأسلوبه في العمل لساعدته على دعوته في جمع شمل الشعب وتقوية ساعده .

تقول فقرات من الاصحاح الثلاثين [١] : (يا بن آدم اني كسرت ذراع

(١) (سفر حزقيال) اصحاح ٣٠ فقرات ٢٠ — ٢٦ .

فرعون ملك مصر وها هي لن تجـبر بوضع رفائـد ولا بوضع عصابة لتجبر فتمسك السيف ، لذلك هكذا قال السيد الرب هأنذا على فرعون ملك مصر فاكسر ذراعه القوية والمكسورة واسقط السيف من يده واكسر ذراع يشن قدامه أنين الجريح واشدد ذراعي ملك بابل ، أمـا ذراعا فرعون فتسقطان فيعلمون اني انا الرب حين أجعـل سيفي في يـد ملك بابل فيمده على ارض مصر وأشتت المصريين بين الأمم وأذريهم في الاراضي فيعلمون اني انا الرب) .

أما الاصحاحات من رقم ٣٣ — ٤٨ من هـذا السفر فتعود وترجع مرة ثانية لوصف حالة الأمة في مراحل السبي والقصاص العادل الذي حل بها وكل الجديد الذي تضمنته هذه الاصحاحات انها تحمل بين ثناياها نبوءة العودة من السبي وبناء الهيكل من جديد كما تكثر في هذا السفر الأحاديث والأخبار وعبارات الرمز التي ينظر اليها على انهـا نبوءة ، ومع ذلـك لم يختلف حول هذه الاصحاحات في سفر (حزقيال) شراح الكتاب المقدس ، كثيراً نظراً لخلوها من الاشارة الى مجيء المسيح بالنعمة او بالمجد على حد ما يذهبون [١] .

ففي الاصحاح السابع والاربعين يتحدث كاتبـه عن (حزقيال) الذي يتحدث عن نهر عظيم ينبع من تحت بيت الله في اورشليم (الهيكل) ويجري جنوبـاً بشرق ويتسع مجراه وتتعمق مياهه الى ان يصب في البحر الميت فتستحيل مياهه المرة الى حلوة عذبة ، هذه اللغة مثيلها نراه كثيراً في اخبار المعجزات المدعاة بين سياق اسفار العهد القديم .

ويستطيع الدارس للعهد القديم ان يقول عن سفر حزقيال انـه مهما بلغ القـول في نسبته الى صاحبه ومهما اختلفت الآراء حول تاريخ تدوينه ومهما حمله ايضاً من اخطاء في التعريف والتعبير عن الإله : إنه مجموعة من الاخبار والمرويات والاوامر والنواهي تحمل طابعاً شخصياً حاداً في تشخيص الجرائم

---

(١) (متى بهنـام) (مفاتيح كنوز الاسفار الالهية) ص ٢٥٢ .

واخطاء بني اسرائيل ويهوذا معتمدة في ذلك على سوق نماذج وصوراً عن الإله لا تختلف كثيراً عن الصور الوثنية التي فاضت بها عقائد شعوب لا تعرف عقيدة التوحيد كما تتضمن في الوقت نفسه على ضوء هذا الاسلوب منهجاً في جمع شمل الشعب الذي تمزق وخربت دياره كما انها تحمل بين سياقها روحاً عدوانية تجاه غير الشعب اليهودي وخاصة الشعب المصري الذي انحاز في المقابلة بينه وبين الشعب البابلي كاتب الأسفار فصب نقمته على مصر بأثر مما يحمله من تراث الذكريات عن هذا الشعب الذي استضاف ابناء اسرائيل فترة من الزمن غير قصيرة . هذا وصيغة التقرير الذي تحمله الاصحاحات الأخيرة من سفر حزقيال هو ايضاً الحديث عن وقوع بني اسرائيل في الخطايا والآثام واصرارهم على الاستمرار فيها ، ولننظر الى كلمات الاصحاح الخامس عشر من هذا السفر في شكل حوار يحرص دائماً كتّاب الأسفار في العهد القديم على ان يصوغوه على انه بين الوحي الإلهي وبين الأنبياء انه هنا كما يحاول الاصحاح ان يصوّر بين الوحي و (حزقيال) على النحو التالي :

(وكان إليّ كلام الرب قائلاً : يا بن آدم ماذا يكون الكلام فوق كل عود او فوق كل عود او فوق القضيب الذي من شجر الوعر هل يؤخذ منه عود لاصطناع عمل ما او يأخذون منه وتداً ليعلق عليه اناء ما ، هوذا يطرح أكلاً للنار ، تأكل النار طرفيه ويحرق وسطه فهل يصلح لعمل ، هوذا كان صحيحاً لم يكن يصلح لعمل ما ، فكم بالحري لا يصلح بعد لعمل إذا أكلته النار فاحترق . لذلك هكذا قال السيد الرب مثل عود الكرم بين عيدان الوعر التي بذلتها أكلاً للنار ، كذلك ابذل سكان اورشليم واجعل وجهي ضدهم يخرجون من نار فتأكلهم نار فتعلمون اني انا الرب حين اجعل وجهي ضدهم واجعل الأرض خراباً ، لأنهم خانوا خيانة يقول السيد الرب)[١] .

---

(١) (سفر حزقيال) الاصحاح الخامس عشر فقرات ١ — ٨ .

وهكذا نجد هذه النغمة الناقمة واضحة على امتداد الاصحاحات كلها في طول السفر كما هي في هذا الاصحاح الخامس عشر لكنها تكون أشد ولهجتها أعنف وأحد وملامح منهج حزقيال تتحدد اكثر وأكثر على ضوء المروى في سفره عن تلك الصورة المرفوضة عقلاً وديناً والقائلة بأنه ينطق بفمه من خلال ذات الرب فيما يرويه الاصحاح التاسع والثلاثون الذي يقول: (وأنت يا بن آدم تنبأ على جوج وقل : هكذا قال السيد الرب هأنذا عليك يا جوج رئيس روش .. (ماشك وتوبال) وأردك وأقودك وأصعدك من اقاصي الشمال وآتي به على جبال اسرائيل واضرب قوسك من يدك اليسرى وأسقط سهامك من يدك اليمنى فتسقط على جبال اسرائيل انت وكل جيشك والشعوب الذين معك ، أبذلك مأكلاً للطيور الكاسرة من كل نوع ولوحوش الحقل على وجه الحقل تسقط لأني تكلمت بقول السيد الرب وأرسل ناراً على أجوج وعلى الساكنين في الجزائر آمنين فيعلمون اني انا الرب ، وأعرف باسمي المقدس وسط شعبي اسرائيل ولا أدع اسمي المقدس يتنجس بعد ، فتعلم الأمم اني انا الرب قدوس اسرائيل) .

وعلى هذه الوتيرة في العرض لصور النقمة والعذاب والآلام تمضي اصحاحات سفر حزقيال متميزة بهذه الحدة التي فاق فيها حزقيال كثيراً من أنبياء ورجال العهد القديم .

سفر دانيال

(دانيال) من سبط يهوذا ويمتد نسبة إلى عائلة داود ابن يسى ودلالة اسمه اللغة العبرية : (الله دياني او قاضي)[1] عاش هذا الرجل عصر المحنة الكبرى التي تعرض لهـا شعب يهوذا ، وقد اخذ اسيراً مسبياً إلى بابل ولحداثة سنه وحسن مظهره اختير ضمن الفتيان الاسرى الذين يقفون أمام ملك بابل لتعليم اللغة الكلدانية ويرى شراح التراث الاسرائيلي ان البابليين غيروا اسمه إلى اسم بابلي فأصبح دانيال (بلطشا صر) .

وسفره يقول : ان رب اسرائيل باركه مبكراً فقد كان سنه حين الاسر اربعـة عشر عاماً فقط ويقص السفر خبراً مؤداه ان الملك حلم حلـماً غريباً فطلب من الحكماء ان يخبروه عن الحلم وعن تفسيره وكان ذلك الحلم من الملك بمثابة اختيار للحكماء لأنه على حد ما يروون قال في نفسه لو استطاعت الهتهم ان تخبرهم عن تفسير الحلم فتستطيع ان تخبرهم عن الحلم نفسه ، ولكن حكماء بابـل عجزوا . وكاتب سفر دانيال يطالعنا بأن دانيال طلب من ربـه رب اسرائيل المرحمة والعون في ان يفسر الحلم فاخبر رب اسرائيل (دانيال) عن الحلم في الليل وكان الحلم عن التمثال العظيم الذي يتحدث عنه السفر ولم يكشف عن هويته سوى ان ملك بابل أمر جميع رعاياه حتى الاسرى اليهود بتقديم

---

(١) (متى بهنام) مفاتيح كنوز الاسفار الالهية ص ٢٦٠ .

القرابين له وعبادته ، فاخبر دانيال الملك بالحلم وسعد الملك بهذه البشارة كثيراً وقال : إن إله دانيال هو رب الارباب وإله الآلهة واصدر الملك وأمر بجعل دانيال رئيساً على كل حكماء بابل ويستمر سفر دانيال في رواية واسعة النطاق يتناول فيها أخبار صعود نجم دانيال مع الملك عن طريق تفسير الاحلام فاستطاع ان يفسر مثلاً انباء جنون (نبوخذنصر) في آخر أيام حياته ثم فسر الكتابة التي كانت على حائط (بلشاصر) وقت الوليمة ولما تولى الملك (دريوس) الحكم جعل دانيال وزيراً وفيما يرى السفر كان ذلك سبباً في كثرة حساد دانيال والحاقدين عليه ومع ذلك فالسفر يقص انه كان يقابل النجاح والاعداء والحاسدين بكثير من الصلوات .

هذا ويتألف السفر من اثني عشر اصحاحاً فقط وله طابع أشبه ما يكون بالوثيقة السياسية التي تتناول أخبار الامم غير الاسرائيلية ، فالحديث فيه عن اسرائيل قليل ولكنه يدور حول ما ارتآه كاتب السفر نبوآت عن امبراطوريات اربع التي سادت في عصر ضياع وسبي اسرائيل في الأسر هذا ويمكن تقسيم السفر إلى قسمين القسم الاول ويتضمن الاصحاحات الست الاولى وهي على حد ما تذهب اليه تتناول علاقة دانيال بالملوك العظام الذين كانوا في عصره وعلى أيامه .

القسم الثاني يتضمن الاصحاحات الست الاخيرة ويحتوي على ما اعتبره الشراح للسفر جملة الاعلانات والرؤى التي اعطيت لدانيال وجرت على يديه .

ويبدأ القسم الاول من السفر في عبارات طويلة ومستفيضة يصف ترحيل (دانيال) مسبياً إلى بابل مع الملك الذي لم يحكم أكثر من ثلاثة شهور ثم جاءت الطامة فاخذ هو الآخر أسيراً (يهوه ياقيم) .

ويقص القسم الاول المزيد من الاخبار التي تتناول أساليب تربية دانيال مع الانبياء من رجال بابل ورجال حاشية الملك .

أما الاصحاح الخامس فينفرد برواية حادث غريب الدلالة غريب الهدف

فقد أقام (بلشاصر) وليمة حضرها (دانيال) مع ان الاسفار الاولى من السفر تضع كاتب الاصحاح الخامس في مأزق تدويني شديد لا يجد جواباً فيما ذهب اليه وادعاه ذلـــك ان الاسفار الاولى من سفر (دانيال) تقول ان (دانيال) وثلاثة من رفاقه اقسموا الا يتناولوا طعاماً على مائدة الملك وان يكتفوا بقليل من الزاد ، ولا يوضح كتاب الاصحات أكانت وليمة (بلشاصر) قبل هذا القرار أم بعده لكن الذي حدث في الوليمة ان يدأ خفية لم يرها أحد كما يسوق السفر ويدعي خطت سطوراً على الحائط اثناء الوليمة ولم يقو على شرحها غير (دانيال) ، وكان مضمونها لا يتناسب والوليمة فقد كانت تحمل أخباراً مزعجة للملك ، لكن دانيال كان شجاعاً فقد أخبر (بلشاصر) انه سيموت ومق في نفس الليلة وقـد صدق دانيال فيما يدعيه السفر وجلس على العرش (دريوس) الذي عين دانيال احد وزرائه .

وسفر دانيال في مضمونه ودلالته الاخبارية تثير كثيراً من التساؤل حول وضعه في العهد القديم فهو في الطبعة العربية المتداولة بين اسفار الانبياء بينما هـــو في النص العبري بين الكتابات [١] ويرى بعض الباحثين المعاصرين في دراسة العهد القديم ان هـذا هو الوضع الصحيح لسفر دانيال لأنه لا ينسجم في معطياته مع اسفار الأنبياء وان وضعه في النص العبري بين اسفار الكتابات اصح واسلم من وضعه في النص العربي .

ومما يثير تساؤلاً اكثر واكثر حول تاريخ هذا السفر ان الاصحاحات من رقـم ٢ — ٧ كانت مدونة باللغة الآرامية التي كانت شائعة في فلسطين قبل ميلاد عيسى بن مريم ببضع مئات من السنين أي ان هـذا السفر بعضه كان باللغة الارامية وبعضه الآخر بالعربية مما يؤكد الرأي القائل بوجود اكثر من كاتب وناظم لهذا السفر وبالتالي أكثر من ناسخ نسخ اصحاحاته ودونها .

---

(١) (حبيب سعيد) المدخل الى الكتاب المقدس ص ١٦٥ .

هذا وتفيض جوانب السفر بالكثير من أحاديث الرواة وقصص الاسطورة المتداول في آداب كثير من الشعوب فالاصحاح الثالث مثلاً يقص قصة التمثال العظيم الذي صنعه الملك (نبوخذنصر) وامر جميع افراد الشعب البابلي وجميع عبيده من الاسرى والكهان والولاة والقضاة وغيرهم ان يسجدوا لهذا التمثال، واخبار هذا الاصحاح التي ادعاها على الملك ان من لا يسجد لهذا التمثال العظيم المصنوع من الذهب يحرق بالنار في (اتون) متقدة .

هذا ويقص الاصحاح اخبار عدم سماع وسجود ثلاثة من اليهود الاتقياء لما دعاهم اليه الملك البابلي من السجود لتمثال من الذهب وكأنه يريد ان يقول لنا ان بعض اليهود كانوا على درجة من التقوى وعلى صلة بالإيمان الصحيح بحيث لم يكن يقبل السجود لصنم او تمثال ، ذهباً كان ام من غير ذهب وهؤلاء اليهود الاتقياء الثلاثة الذين هم في لغة كاتب الاصحاح الثالث لم يسمعوا كلام الملك ولم يسجدوا لتمثال الذهب (شدرخ وميشح وعبدنغو) وعلم الملك بموقفهم وعدم سماعهم لما امر به فالقاهم في النار الشديدة الاحراق ، لكنهم على حد ما ذهبت اليه رواية الاصحاح في سفر دانيال لم يحرقوا : (سراويلهم لم تتغير ورائحة لم تأت عليهم) فاكبر الملك إيمانهم واحترم الهم الذي انجاهم واصبحوا في مكان مرموق في بابل ، ولم يفصح لنا كاتب الاصحاح ان كان ملك بابل (نبوخذنصر) امام هذا البرهان الحسي الذي يسوقه كاتب الاصحاح ويدعيه قد آمن باله هؤلاء الثلاثة الاتقياء من اليهود وأصبح يهودياً ام لا .

ولننظر إلى بعض الاسلوب القصصي الاخباري الروائي الذي تميز به سفر دانيال والذي جعل كثيراً من الباحثين لا يقبل ان يكون مكانه بين سفر الأنبياء وذلك بسبب اسلوبه في التدوين فضلاً عن عدم ورود إشارات ونبوءات فيه ذات أهمية على غرار ما تعج به أسفار أخرى في كتب الأنبياء من العهد القديم .

يقول الاصحاح الثالث من سفر دانيال : (نبوخذنصر الملك) صنع تمثالاً من ذهب طوله ستون ذراعاً وعرضه ست أذرع ونصبه في بقعة (دورا) في

ولاية بابل ثم ارسل (نبوخذنصر) ليجمع المزاربة والشحن والولاة والقضاة والخزنة والفقهاء والمغنين وكل حكام الولايات لتدشين التمثال الذي نصبه (نبوخذنصر الملك) حينئذ، اجتمع المزاربة والشحن والولادة والقضاة والخزنة والفقهاء والمغنون وكل حكام الولايات لتدشين التمثال الذي نصبه (نبوخذنصر الملك) ووقفوا امام التمثال الذي نصبه (نبوخذنصر) ، ونادى منادٍ بشدة : قد أمرتم ايها الشعوب والامم والألسنة عندما تسمعون صوت القرن والناي والعود والرباب والسنطير والمزمار وكل أنواع العزف ان تخروا وتسجدوا لتمثال الذهب الذي نصبه الملك (نبوخذنصر الملك) ومن لا يخر ويسجد ففي تلك الساعة يلقى في وسط أتون متقدة لأجل ذلك وقتما سمع كل الشعوب صوت القرن والناي والعود والرباب والسنطير وكل أنواع العزف ، خر كل الشعوب والامم والالسنة وسجدوا لتمثال الذهب الذي نصبه (نبوخذنصر الملك) لأجل ذلك تقدم حينئذ رجال كلدانيون واشتكوا على اليهود أجابوا وقالوا للملك نبوخذنصر : ايها الملك عشت إلى الابد انت ايها الملك قد اصدرت أمراً بأن كل انسان يسمع صوت القرن والناي والعود والرباب والسنطير والمزمار وكل أنواع العزف يخر ويسجد لتمثال الذهب ومن لا يخر ويسجد فانه يلقى في وسط أتون نار متقدة ، يوجد رجال يهود الذين وكلتهم على اعمال ولاية بابل : (شدرخ — ميشخ — عبدنغو) هؤلاء الرجال هم يجعلوا لك ايها الملك اعتباراً ، الهتك لا يعبدون ولتمثال الذهب الذي نصبت لا يسجدون ، حينئذ أمر (نبوخذنصر) بغضب وغيظ بإحضار (شدرخ وميشخ وعبدنغو) فأتوا بهؤلاء الرجال قدام الملك فأجاب نبوخذنصر وقال لهم : تعمدا يا شدرخ وميشخ وعبدنغو لا تعبدون آلهتي ولا تسجدون لتمثال الذهب الذي نصبت ، فان كنتم الان مستعدين عندما تسمعون صوت القرن والناي والعود والرباب والسنطر والمزمار وكل أنواع العزف ان تخروا وتسجدوا للتمثال الذي عملته ، وان لم تسجدوا في تلك الساعة تلقون في وسط أتون النار المتقدة ، ومن هو الاله الذي ينقذكم من يدي ؟

فاجاب شدرخ وميشخ وعبدنغو وقـالوا الملك : يا نبوخذنصر لا يلزمنا ان نجيبك على هذا الامر ، هوذا يوجد الهنا الذي نعبده يستطيع ان ينجينا من أتون النار المتقدة وان ينقذنا من يدك ايهـا الملك والا فلتكن معلوماً لك ايها الملك اننا لا نعبد الهتك ولا نسجد لتمثال الذهب الذي نصبته ، حينئذ امتلأ نبوخذ نصر غيظـاً وتغير منظر وجهـه على شدرخ وميشخ وعبدنغو فأجاب وأمر بأن يحموا الاتون سبعة اضعاف اكثر مما كان معتاداً أن يحمى، وأمر جبابرة القوة من جيشه بأن يوثقوا شدرخ وميشخ وعبدنغو ويلقوهم في أتون النار المتقدة ، ثم اوثق هؤلاء الرجال في سراويلهم وأقمصتهم وأرديتهم ولباسهم والقوا في وسط أتون النار المتقدة ، ومن حيث ان كلمة الملك شديدة والاتون قـد حمي جداً قتل لهيب النـار الرجال الذين رفعوا شدرخ وميشخ وعبدنغو ، وهؤلاء الرجال الثلاثة شدرخ وميشخ وعبدنغو سقطوا موثقين في وسط أتون النار المتقدة ، حينئذ تحير نبوخذنصر الملك وقام مسرعاً فأجاب وقال لمشيريه : ألم نلقي ثلاثة رجال موثقين في وسط النار ؟ فأجابوا وقالوا للملك صحيح ايها الملك ، اجاب وقال : هـا انا ناظر اربعة رجال محلولين يتمشون في وسط النار ومـا بهم ضرر ومنظر الرابع شبيـه بابن الآلهة ، ثم اقترب نبوخذنصر إلى باب أتون النار المتقدة فأجاب وقال يا شدرخ وميشخ وعبدنغو يا عبيد الله العلي : اخرجوا وتعالوا فخرج شدرخ وميشخ وعبدنغو من وسط النار فاجتمعت المزاربـة والشحن والولاة ومشيروا الملـك وراؤا هؤلاء الرجال الذين لم تكن للنـار قوة على اجسامهم وشعرة من رؤوسهم لم تحترق ، سراويلهم لم تتغير ورائحة النـار لم تأت عليهم فأجاب نبوخذنصر وقال تبارك إله شدرخ وميشخ وعبدنغو الذي ارسل ملاكه وانقذ الذين اتكلوا عليه وغيّروا كلمة الملك وأسلموا اجسادهم لكي يعبدوا او يسجدوا لإله غير إلههم ، فمني قد صدر أمر بأن كل شعب وأمـــة ولسان يتكلمون بالسوء على إله شدرخ وميشخ وعبد نغو فانهم يصيرون إرباً إربـــاً وتجعل

بيوتهم مزبلة إذ ليس إله آخر يستطيع ان ينجي هكذا ، حينئذ قدم الملك شدرخ وميشخ وعبد نغو في ولاية بابل) .

هذا هو نص الاصحاح الثالث في سفر (دانيال) أتينـا عليه كما هو في السفر لنؤكد به مـا سبق ان قلناه وهو ان السفر يغلب عليه الطابع الاخباري القصصي الاسطوري الذي أخذ من مرويات الأمم والشعوب بعضاً ما عندها وصاغه في مثل هذا القالب الذي بين ايدينا ، ونحن هنـا لا نريد ان نسجل كل ملحوظاتنا على اخبـار الاصحاح الذي بين ايدينا او باقي اصحاحات السفر فمعظمها كما قلنـا اسطوري منقول بغير تصرف من آداب الشعوب المجاورة ولا يستطيع الاصحاح ان يفسر لنـا هذه الظاهرة الغريبة التي أوردها الكاتب في سياق كلامه والتي لا تشيع بل ولا تتكرر كثيراً في تاريخ اليهود قليلاً او كثيراً وهي التزام ووفاء اليهودي لدينه ولإلهه وخاصة في مراحل السبي والتشرد ، والأسفار السابقة في معظم مـا ترويه تقول لنا عكس ذلك تماماً عن اليهود العامة منهم والسادة والثلاثة الذين معنا في رواية الاصحاح الثالث كانوا بين السبايا وفي ظل سيادة وسلطان ملك خرب ارضهم وسبى شعبهم ولأمر رآه الملك لو صحت رواية الاصحاح جعلهم عمـالاً على ولاية بابـل اي انهم وفي ظل القهر والسبي من الطبقة التي تعتبر قريبة من حاشية الملك ، فاذا جاز انهم لم يسمعوا أمر الملك ولم يسجدوا لتمثال الذهب الذي صنعه وتوعد من لم يسجد له بالقتل حرقاً بالنار فان المستحيل على ضوء حياة الأسر التي كان يحياها اليهود ان يجيء هؤلاء الثلاثة ويجابهوا الملك بهذا التحدي الذي يقص اخباره كاتب الاصحاح ، وعلى فرض انهم فعـلوا ذلك وظهرت على ايديهم تلك المعجزات والبراهين العملاقة التي لم تتكرر في التاريخ الديني كثيراً باستثناء نبي عظيم من اولى العزم هو ابراهيم عليه السلام فلماذا لم يحفل العهد القديم بسيرتهم واخبارهم ودورهم في تاريخ بني اسرائيل وفي مرحلة السبي خاصة وان الدارس لأسفار العهـد القديم لا يشاهد كثيراً من اخبـار مثل هذه المعجزة في سيرة أنبياء ورجال العهد القديم بينما هي هنا كما يقص

الاصحاح قد وقعت بهؤلاء الثلاثة والملك والشعب يرى بعينه ويسمع بأذنه ولماذا لم يسق كاتب الاصحاح لنا اخبار آثار استجابة مجموعات من أهل بابل وغيرهم او حتى من الشعب اليهودي الأسير الذي يقول عنـــه الاصحاح انه سجد وعبد تمثال الذهب لهؤلاء الثلاثة الذين قدموا برهاناً على صحة إيمانهم وحقيقة نقاء عقيدتهم ودليل ربهم لهم ، ولو كان بين ابناء السبي من يحمل بين جوانحه قلباً وعقيدة يستطيع بها ان يقوم بما قام به هؤلاء الرجال الثلاثة الذين تحدث عنهم الاصحاح فلِمَ كانت كل اشجان واحزان ارميـا وسخط ونقمة حزقيا وكلاهما كان بالأمس القريب يبكي على مـا سار اليه حال ابناء اسرائيل واليهود جميعاً من اغراق في المعصية والشرور والآثام وان كان كل منهما بطريقته الخاصة ، ان تلك الواقعة وحدها التي يسوقها كاتب الاصحاح الثالث من سفر دانيال لو كانت قد تمت لـكانت كفيـلة بأن تجمع الشعب كله في السبي حول هذه الزعامات الروحية المستكنة في ضمير وقلب بني اسرائيل من خـلال نمـاذج كتلك التي يتحدث عنها كاتب الاصحاح الثـالث في سفر (دانيال) ، ولكن علماء ونساخ وشراح وكتّـاب العهد القـديم في غفلة عقلية ودينية من تصور المستقبل وما يمكن ان يجيء به من امكان النظر الى هذا التراث نظرة علمية نقدية تضع كل هذه المرويات امام ما يجب ان تكون عليه مرويات التراث الديني من تكامل موضوعي وعقائدي يتفق وكال الهداية الإلهية وسيرة الرجال الانبياء الذين يصطفيهم الله من بين البشر ليكونوا أداته في توجيه الناس وضبط سلوكهم . أقول لكن كتاب الاسفار لا يستحضرون مثل هذه المعاني وغير مجهزين علمياً لتقبل مثل هذا المنهج ومن هنا نرى ذلك الخلل والخلط الذي يجيء بين سياق اخبار ومرويات التراث الاسرائيلي في اسفار العهد القديم وما سفر دانيال الذي بين ايدينا إلا انموذجاً من كثير .

سفر هوشع

هو هوشع بن بئيري عاش في زمن عزيا ويوثان وآحاز وحزقيا من ملوك يهوذا تنبأ في أيام يربعام بن يوآش ملك اسرائيل في الفترة من ٧٨٦ — ٧٢٤ قبل المسيح [١] أي في الفترة التي كان فيها اشعيا ، وتنحصر نبوة (هوشع) على ضوء ما هي عليه في السفر الذي تسمى باسمه في العهد القديم في حالة الشعب الأدبية .

هذا ويقص السفر انه في أبان دعوة ونبوة (هوشع) كان شعب اسرائيل غارقاً في لجة المعصية وعبادة الاصنام وخاصة عبادة العجلين الذهبيين اللذين أشارا اليهما السفر بكثير من الاستفاضة في: (دان وبيت ايل) .

والسفر يحتوي على اربعة عشر اصحاحاً وهو في نظرة شراح التراث الاسرائيلي له يضعونه باعتباره يلي سفر دانيال في سلسلة الانبياء الصغار ، واصطلاح التسمية بالأنبياء الصغار والانبياء الكبار اصطلاح جرى على الأسفار الاثني عشر التي تلي سفر (دانيال) وليس ذلك إلا بسبب كونها أصغر واقصر مما سبقها من أسفار هذا فيما يذهب اليه شراح التراث الاسرائيلي من مذاهب ونظريات في تناولهم لأسفار العهد القديم .

---

(١) (مق بهنام) في كنوز الاسفار الالهية ص ٢٧٩ .

وفي النص العبري للعهد القديم الأسفار التي تلي سفر (دانيال) كلها يضمها كتاب واحد تحت عنوان : (الانبياء الاثنا عشر) [1] .

هذا ويجابه الباحث في هذا السفر ما يشبه العجب العجاب في سيرة هؤلاء الرجال الذين يتناولهم العهد القديم ، فالرجل في منطق كاتب السفر ولغته اختير ليكون نبياً ينطق بالوحي ، وبما انه يعيش في مجتمع عصى الله ووقع في المعصية ، وكانت أبرز معصية وقع فيها شعب اسرائيل على حد ما تذهب اليه الأسفار قاطبة والسفر الذي بأيدينا على وجه الخصوص هي معصية أو جريمة : (الزنا) وبما ان الرجل في كاتب السفر سيحارب جريمة الزنا فلا بد وان يوقعه كاتب السفر في جريرة الزواج بامرأة زانية ، وبالفعل يتزوج (هوشع) كما يدعي سفره من : (جومر بنت دبلايم) وهي امرأة سيئة السلوك لكن كاتب السفر يجعلها تلد لهوشع ثلاثة اولاد يسميهم باسماء ذات دلالات في شعب اسرائيل .

الصبي الاول :(يزراعيل) تذكاراً للفعلة الشنيعة القاسية التي اتاها (ياهو) يوم ذبح عبدة البعل ، ولئن كانت الفعلة هذه دفاعاً عن عبادة (يهوه) حسبما يقص التراث الاسرائيلي إلا ان الطريق التي أتاها بها كانت على ضوء المعتقد اليهودي في تناول سيرة الانبياء مشينة تستوجب قصاصاً يحل باسرائيل .

والطفل الثاني : كانت بنتاً اسماها فيما يتحدث عنها السفر : (لورحامه) ومعناها الطفلة الطريدة من بيت أبيها [2] اشارة الى بيت اسرائيل الذي لا يرحمه الله بل ينزعه نزعاً .

والطفل الثالث : وكان صبياً آخر اسماه (لوعمي) ومعناه ليس شعبي هذا ويذهب بعضهم الى حد القول ان هذه الأسماء إنما اختيرت استناداً الى

---

(١) (حبيب سعيد) في المدخل الى الكتاب المقدس ص ٢٢١ .
(٢) (سفر هوشع) الاصحاح الاول .

ما عرفه (هوشع) من سوء تصرف زوجته (جومر)[1] وكان بعض نقاد ودارسي العهد القديم حين يتناولون سيرة (هوشع) و (جومر) يريدون أن ينتهوا الى ان هؤلاء الاولاد الثلاثة ليسوا من صلب (هوشع) وانه ليس والدهم .

والمزعج حقاً في سفر (هوشع) هو ما جاء في الاصحاح الثاني فانه على ضوء رواية الاصحاح الثاني الرجل الذي اختبر بالزواج في منطق كتّاب السفر من امرأة زانية في الاصحاح الأول لم يصمد للاختبار ، إنما ثار وتمرد وسخط، ففي الاصحاح الثاني توجه بالخطاب الى اسرائيل يقول لهم على حد ما يدعي الاصحاح : (قوموا لاخوتكم عمى ولاخواتكم رحامة حاكموا أمكم لأنها ليست امرأتي وانا لست رجلها ، لكي تعزل زناها عن وجهها وفسقها عن ثدييها لئلا أجردها عريانة وأوقفها كيوم ولادتها،واجعلها كقفر وأصيرها كأرض يابسة وأميتها بالعطش ولا ارحم اولادها لأنهم اولاد زنا ، لان أمهم قد زنت التي حبلت بهم صنعت خزياً لانها قالت اذهب وراء محبي الذين يعطون خبزي ومائي ، صوفي وكتاني ، زيتي واشربتي لذلك هأنذا أسيج طريقها بالشوك وأبني حائطها حتى لا تجد مسالكها فتتبع محبيها ولا تدركهم ، وتفتش عليهم ولا تجدهم ، فتقول اذهب وارجع الى رجلي الاول ، لأنه حينئذ كان خيراً لي من الآن) .

وفيما دون السفر على (هوشع) في الاصحاح الثالث يتلقى (هوشع) أمراً آخر مشابهاً للأمر الذي ادعاه الاصحاح الاول بالزواج من زانية مضمون هذا الاصحاح الثالث انه أي (هوشع) اشترى زوجته بعد ان انزلقت الى مهاوي الرذيلة وبيعت في سوق العبد وكان عليه بعد شرائها ان تبقى بعيدة عن كل الرجال وفي منطق كاتب الاصحاح الثالث وعنه هو ايضاً فترة من الزمن .

---

(١) (حبيب سعيد) المدخل الى الكتاب المقدس ص ١٢١ .

وعند تناول بعض المشتغلين باللاهوت لمثل هذه المفارقات التي تضج بها بعض أسفار العهد القديم في حالات كثيرة يفسر هؤلاء مثل هذا النص بالرمز او قل (بالشفرة) التي لا أساس لها كما قلنا من برهان في كتب العهد القديم او حتى تصور نظري يقوم على فكرة في النقد الأدبي والاخلاقي فيؤولون مثل هذا النص على انه عبارة عن نبوءة جاءت الاصحاح الثالث من سفر (هوشع) مضمونها بأن الشعب سيحرم من خدمة الكهنة ومن وسائل العبادة فترة طويلة .

في هذا الموقف الذي تناولناه بالنقد يقول الاصحاح الثالث من سفر (هوشع) وبالنص : (وقال الرب لي اذهب ايضاً أحبب امرأة حبيب وزانية كمحبة الرب لبني اسرائيل وهم ملتفتون الى آلهة أخرى ، ومحبون لأقراص الزبيب فاشتريتها لنفسي بخمسة عشر شاقل فضة ، وبحومر ولثك شعير وقلت لها تقعدين اياماً كثيرة لا تزني ولا تكوني لرجل وأنا كذلك ، لأن بني اسرائيل سيقعدون اياما بلا ملك وبلا رئيس وبلا ذبيحة وبلا تمثال وبلا افود وتراكيم بعد ذلك يعود بنوا اسرائيل ويطلبون الرب إلههم وداود مليكهم ويفزعون الى الرب والى جوده في آخر الايام) .

ونحن هنا إذا ما أردنا ان ننظر الى هذا النص نظرة نقدية وسألنا ما الذي كانت عليه علاقة (هوشع) بزوجته ولماذا كل هذا الذي يقصه علينا الاصحاحان الاول والثالث ، اننا نجد انفسنا في موقف يصعب علينا فيه التوفيق بين ما في الاصحاحين فاما ان يكون (هوشع) قد تزوج مرتين من امرأتين وعليها فتصبح زوجة الاصحاح الثالث ليست (جومر) ، واما ان يكون قد تزوج من امرأة واحدة هي (جومر) هربت منه وباعت جسدها الى رجال آخرين وراحت تنحط الى أسفل الدركات فان محبة (هوشع) لهذه المرأة كما ادعى الاصحاح الثالث لم تفتر بينما هو في لغة السفر كان يطلب وجه رب اسرائيل وكان يطلب من شعب اسرائيل بعدما قرر زناها وبأن اولادها

اولاد زنـا ان لا يرحموهـا بـل كان يطلب من اسرائيل ان يميروا المرأة ويوبخوها واولادها الثلاثة .

وقد تكون الزوجة كما قلنا في الاصحاحين الاول والثالث واحدة ولكن البيانات والمعلومات التي وردت في الاصحاحين مختلفة ومصدرهما ايضاً غير واحد [1] وبالتالي فان الاحتمال يصبح قوياً في ان سفر (هوشع) قد كتبه كتّاب عديدون وان بعضهم لم يطلع على ما كتبه البعض الآخر هذا فضلاً عن هذه اللغة التي تسوق نمطاً من الفساد الاخلاقي لا يقوم برهاناً او دليـلاً يعـاون على أداء (هوشع) لمهمته في وسط مناخ اسرائيل الفاسد لأنـه على ضوء ما ادعاه كتبة الاصحاحات يكون الرجل قد تورط هو الآخر في شكل من أشكال الفساد الذي أخذ على عاتقه أصلاً أن يحاربه .

هذا ويطالع الدارس للكتاب المقدس الاصحاح الخامس من سفر (هوشع) صورة واضحة من الفساد السياسي والقهر الاجتماعي الذي كان عليه الحال في مجتمع اسرائيل كما يبرز من بين ثنايا سياق الاصحاح الخامس في هـذا السفر عبارات تفصح عن ضروب القسوة والاعنات والمعـاناة التي كان يتعرض لهـا الفقراء من الاغنياء في مجتمع اسرائيل وهي صور ونماذج كثيرة كثرة تلفت النظر مما يدل على انعدام روح التكامل في هذا المجتمع الذي يتحدث عنه سفر (هوشع) فضلاً عن افتقاد كل أثر للدين الذي كان يمكن ان ينتقي من خلاله شعب اسرائيل كما ان الاصحاح السادس من سفر (هوشع) يقدم صوراً ونماذج يصف فيهـا ندم الشعب وحزنه على خطاياه الكثيرة ورغبته المدعـاة في الغفران ذلـك ان الاصحاح يعود فيكشف عن ان الحزن الذي عليه الشعب ليس الحزن الصادق المعبّر عن عمق نظيف يقبل على التوبة ويهرب من الخطيئة، ومن هنا ففكرة الخلاص والغفران طاشت من عقولهم يؤكد هذا مـا جاء بالاصحاح الخامس كنماذج ساقها عن انماط من الفساد المحدد المعالم حيث يقول:

---

(١) (حبيب سعيد) المدخل الى الكتاب المقدس ص ١٢٢ .

(اسمعوا هذا ايهـا الكهنة وانصتوا يا بيت اسرائيل واصغوا يا بيت الملك لان عليكم القضاء إذا صرتم فخاً في مصفاة وشبكة مبسوطة على (تابور) وقد توغلوا في ذبائح الذوغان فأنا تأديب لجميعهم، انا أعرف (افرايم) واسرائيل ليس مخفيـاً عني ، انك الآن زنيت يا (افرايم) ، قـد تنجس اسرائيل ، افعالهم لا تدعهم يرجعون إلى إلههم لأن روح الزنا في باطنهم وهم لا يعرفون الرب وقد أذلت عظمة اسرائيل في وجهه فيتعثر اسرائيل وافرايم في اثمهما ويتعثر يهوذا معهما يذهبون بغنمهم وبقرهم ولا يطلبون الرب ولا يجدونه قد تخلى عنهم ، غدروا يا رب لأنهم ولدوا اولاداً أجنبيين ، الآن يأكلهم شهر مع انصبتهم) .

وسفر (هوشع) على ضوء النماذج التي عرضناها ومن النقـد الذي تناولنا به منهج وموضوع وظروف وتاريخ السفر يتأكد لنا انه لا يمثل أهمية كبرى في كتب الاسفار وطابعه العام لا يعدو ان يكون أكثر من تلك السيرة الذاتية التي شغل بها (هوشع) معظم الاصحاحات مع ان الذين دوّنوه وسجلوه قد خلعوا عليه تلك الموبقات التي قد يكون الرجل بريئاً منها والسفر بعد بموضعه من مكانه في النص العبري حيث وضع ضمن سلسلة صغار الأنبياء كدلالة على مضمونه من حيث أهمية الحوادث ومتابعة وتسجيل ما جرى في اسرائيل في مرحلة ذات أهمية عظمى على طول امتداد تاريخ كتب العهد القديم وليس في التراث الاسرائيلي الذي يحتويه هذا السفر ويعرضه من اضافة يمكن ان تسجل له على ضوئهـا بانه طرح أمثلة ونماذج يمكن ان تجـدد في الشعب الاسرائيلي أمله في العودة والتوبة .

سفر يوئيل

(يوئيل) هو ابن (فانوئيل) ولفظة (يوئيـل) تعني (يهوه مع الله)، (ويوئيل) سفر صغير من أسفار العهد القديم وسياق السفر ولغة اصحاحاته يدل على ان الرجل الذي يحمـل السفر اسمه كان من مملكة يهوذا ومن سكان اورشليم وعلى ضوء ما يسوقه السفر وما انتهى اليه الذين تناولوه بالدراسة فان الرجل (يوئيل) كان كما وصفه السفر نبياً لا كاهناً وهذا السفر صغير الحجم من اربعة اصحاحات فقط لأنــه كما سبق القول يدخل ضمن سلسلة الانبياء الصغار وأسلوب السفر دقيق حلو الجرس في رقة وليس فيه ما يدل على تاريخ تدوينه او نظمه وموضوعه يـدور حول معظم مـا تدور عليه أسفار العهد القديم الخراب الذي حل باسرائيل ويهوذا لكنه هنا في سفر (يوئيل) خراب من نمط وبأسلوب يغاير الاساليب السابقة انه هنا محدد الاسلوب والوسيلة فيما انتهى اليه السفر كان هذا الأسلوب هو الخراب الذي حصل من جيش الحشرات التي أتلفت الارض وسببت جوعاً عظيماً وهلاكاً مدمراً للشعب .

واستهل السفر حديثه عن الغمامة الكثيفة من الجراد التي غطت البـلاد فأحالتها خرابـاً يابساً وعند تنـاول السفر لهـذه الواقعة التي شغلت أهم ما احتواه فانـه تناولها بلغة فيهـا خيال ونبرة فيها تصوير جيد حدت ببعض الشراح الى القول بأن حادثة الجراد ليست تاريخية انمـا هي حادثة وقعت في فكر وخيـال (يوئيل) وتصوراته الذاتية كدلالة فيما انتهى اليه الذين

استبعدوا وقوع الحادث وقوعاً مادياً على يوم الله في اسرائيل وبأنه قريب ، على ان بعض المؤرخين للعهد القديم حين يتناولون سفر (يوئيل) يرون انه لا بأس في ان تكون الواقعة التاريخية وان يكون (يوئيل) قد صورها بلغته الخصبة .

وليس لسفر (يوئيل) تاريخ مدوّن متفق عليه يمكن ان تنسب اليه حادثة الخراب بالجراد التي حلت بالبلاد ولكن بعض الثقات من المؤرخين يجزم بأن (يوئيل) هو آخر الانبياء الصغار ويضعه هو والحادثة في حوالي عام ٣٠٠ ق . م [١] على ان البعض الآخر يظن بأن (يوئيل) بدأ دوره في خدمة بيت يهوذا عام ٧٦٠ ق . م وان ما جاء في سفره من حادثة الجراد وخراب البلاد إنما كان نبوءة لما سيكون [٢] .

هذا وتستغرق تلك الحادثة الشهيرة في السفر والمتعلقة في عقيدة الذين دوّنوا تراث اسرائيل وعقل الذين تناولوا بالدرس والتحليل ليوم الرب الاصحاحات الاربع لكن نغمة قوة في سياق العبارات التي وردت في الاصحاحات الاربع متعلقة بطلب التوبة والمغفرة تبرز من بين سياق الاصحاحات تشير الى ان السفر لم يقتصر كتابه على حادثة الجراد فقط وإنما ألقوا نظرة على ما يمكن ان يكون عليه الشعب فمثلاً الفقرات رقم ١٢ — ١٤ من الاصحاح الثاني في سفر (يوئيل) : (لكن الآن يقول الرب ارجعوا إليّ بكل قلوبكم وبالصوم والبكاء والنوح ومزقوا قلوبكم لا ثيابكم وارجعوا الى الرب إلهكم لأنه رؤوف رحيم بطيء الغضب وكثير الرأفة ويندم على الشريعة يرجع ويندم فيبقي وراءه بركة تقدمة وسكيباً للرب إلهكم) .

هذا ومما يجدر ذكره ان السفر على قدر اهتمام كتّابه بحادثة الجراد لا يخلو من انشودة أمل ورجاء في ان يخرج الرب من صهيون وان يعيد الشعب

---

(١) (حبيب سعيد) المدخل الى الكتاب المقدس ص ١٢٤ .

(٢) (مق بهنام) مفاتيح كنوز الاسفار الالهية ص ٢٨٤ .

مرة ثانية لكنه لا يعيب السفر سوى تلك الامثلة والنماذج الوثنية التي يخلعها كاتب السفر على الصور التي يراها برهاناً في علاقته بربه ، فعند حديثه عن الأمل والرجاء في العودة نراه يصوغ عبارات فيها خروج الرب من صهيون يزمجر ومن اورشليم يعطي صوته فترتجف السماء والارض ، وذلك اليوم الذي يخرج فيه الرب من صهيون على ضوء ما تبرزه عبارات سفر (يوئيل) يكون ان الجبال تقطر عصيراً والتلال تفيض لبناً وجميع ينابيع يهوذا تفيض ماءاً ومن بيت الرب يخرج ينبوع يسقي واد الصنط . ثم ينتقل الكاتب في هـذا المشهد وهو يتحدث عن انعم ربـه بهذه الصور المادية والوثنية الى مصر التي يراها تصير خرابـاً وكل الارض قفراً من أجل بني يهوذا الذين سفكوا دمـاً بريئـاً في أرضهم ولكن كاتب السفر ينتهي الى ان يهوذا يسكن الى الأبد اورشليم دوراً فدور ومن الغريب حقاً ان هذا السفر المنسوب إلى (يوئيل) على ضآلة حجمه وقلة ما جاء فيه من سرد لحوادث سياسية او اجتماعية قـد ظهرت فيه تلك النبرة العنصرية التي بدت في سياق حديث الاصحاحات عن الامل عند شعب يهوذا في مواجهة الغير وحذا الكاتب في هـذا السفر حذو (حزقيال) في نبوءاته عن الخراب الذي سيحل بالامبراطوريات الاربع التي كانت في عصره ركز كاتب (يوئيل) في عدوانية عنصرية نبوءته بالخراب على الأمم وعلى مصر على وجه خاص كما فعل على وجه التحديد (حزقيال) ويبدو ان التراث الاسرائيلي في هذه الحقبة التي كانت قبيل عصر الميلاد حين راح الكتّاب والنسّاخ يدوّنون ما انتهت اليه الذاكرة وما اسعفهم به الخيال حول تاريخهم ورجـالهم وانبيائهم كان لديهم الكثير من المرارة التي يحملهـا شعب اسرائيل واليهود نحو مصر عبر السنين نحو الهجرة التي خرجوا فيهـا على ضوء مـا قص سفر (الخروج) الذي عالجنا أهم مـا فيه وهم مكرهون مضطرون للاستجابة لنبيهم موسى عليه السلام .

سفر عاموس

(عاموس) هو أحد الانبياء الصغار يتألف سفره من تسع اصحاحات فقط يدور جزء منها حول الشعوب الأخرى والجزء الآخر يتناول بنوع من الاستفاضة الخطيئة والمعصية التي كان يقع فيهـا الشعب ألاسرائيلي مع ذكر العقوبة التي تنتظر الشعب بسبب معاصيه

ومولد الرجل (عاموس) على ضوء مـا في سفره كان في قرية (تقوع) الواقعة في جنوب اورشليم القديمة على حدود برية اليهودية التي يتحدث عنها السفر ، ولم يكن (عاموس) نبياً فترة طويلة من عمره ويبدو انه لم يكن كذلك على ضوء مـــا ينعته السفر على قدر من الثقافة تؤهله لذلك بل ان الملامح التي يرينا إياها كاتب السفر عن الرجل : أنـه كان راعي غنم وجاني جميز ، وكانت اشجار الجميز تزرع في منطقة اورشليم القديمة للانتفاع بثمارها واخشابها القوية ومن هنا جاءت الرسالة المنسوبة اليه وهي فقرات هذا السفر الصغير وكلها تشبيهات وصور من واقع طبيعة عمله فعناصر الطبيعة ومظاهرها وزمجرة الاسد في الوعر ونزع الراعي من فم الاسد والدب الذي يخافه الراعي اكثر مما يخاف من الاسد والجراد يأكل الحشيش وغير ذلك من الصور الطبيعية للبيئة التي كان يعيش فيها الرجل احتواها السفر .

وقد كان (عاموس) و (هوشع) نبيين في وقت واحد وكل منهما على ضوء سيرتهما في سفرهما كان يتنبـأ ضد خطايا اسرائيل وبينما كان (هوشع)

قلبه ممتلئاً حماساً وحرارة ضد خطايا الشعب كان (عاموس) هادئاً بسيطاً في دعوته ولعل ذلك بسبب تأخر وقت نبوته ، وقد قال كما جاء عنه في الاصحاح السابع من سفره في فقرتي ١٤ ، ١٥ (لامصيا)(كاهن بيت ايل): (لست أنا نبياً ولا أنا ابن نبي بل راع وجاني جميز ، فأخذني الرب من وراء الضأن وقال لي اذهب تنبأ لشعبي اسرائيل) وكأن كاتب السفر يريد بهذه الفقرات ان ينبهنا الى طبيعة اسلوب (عاموس) البسيط المؤثر ، ومن سيرة الرجل في سفره يتبين انه كان كثير التفكير في ظلم الاغنياء للفقراء، وابتزاز اصحاب الاملاك لأجور الفلاحين والرعاة ومن هنا فيخبر السفر عنه ان العبادة التي كان يراها الرجل لمرضاة الله لم تكن العبادة التي كان عليها الشعب من تقديم الكباش والتيوس على المذابح على أمل انها تشفع ولم يكن في نظره اسلوب السبوت والاعياد وترديد الاناشيد والادعية في المقادس كافية لمرضاة الله ومن هنا يرينا السفر الرجل وكأنه يغلي هائجاً حيال هذه العبادة الشكلية أو الوثنية التي كان عليها شعب اسرائيل ويهوذا ولعلها المرة الوحيدة في سفره التي يكون فيها صوته عالي النبرات حاداً بعض الشيء مع انه في جملة ملامحه التي يصورها هذا السفر هادئاً ساكن النفس لكنه في هذا الموقف المتعلق بما كان يقوم به الشعب من تقديم الكباش والتيوس عالي الصوت انه يقول : (... بغضت كرهت أعيادكم ، ولست أتلذذ باعتكافاتكم اني إذا قدمتم لي محرقاتكم وتقدماتكم لا ارتضي .. ابعد عني ضجة أغانيك ونغمة ربابك لا أسمع) .

هذا وتتضمن الاصحاحات التسع أخباراً وكأنها تريد ان تنهي إلى القارىء (رؤى) رآها (عاموس) مقترنة بحديث عن جراد يدمر الارض مثلما تناول سفر (يوئيل) الحديث عن الجراد لكن سفر (عاموس) يخبر بأن (عاموس) يصلي حتى لا تقع المصيبة فيجيبه يهوه الى سؤال قلبه ولا يخلو السفر من قصة تروى على لسان غير (عاموس) وخلاصتها ان (امصيا) (كاهن بيت ايل) يعمل على إثارة الملك ضد (عاموس) ، ويأمر الملك

(عاموس) بأن يرحل من بيت (ايل) الى يهوذا ولكن (عاموس) يثور غاضباً ويكشف لنا السفر عن انه في زحمة غضبه قد أبرز سوء الحال الذي كان عليه الكهنة في بيت اسرائيل ، فالكاهن الذي يقدر على الوشاية والحديث مع الملك يرد عليه (عاموس) بتلك العبارات التي سجلها الاصحاح السابع في فقرتيه الاخيرتين ومن خلالها يكشف السفر عن المناخ الفاسد الذي تعاقب عليه رجال العهد القديم في مجتمع اسرائيل ويهوذا ومن خلال كل المستويات وكل الطبقات : (فالآن اسمع قول الرب انت تقول لا تتنبأ على اسرائيل ،ولا تتكلم على بيت اسحق ، لذلك هكذا قال الرب امرأتك تزني في المدينة وبنوك وبناتك يسقطون بالسيف وأرضك تقسم بالحبل وانت تموت في أرض نجسة واسرائيل يسبى سبياً عن أرضه) .

لكن الكلمات الختامية مع كل هذه النقمة الموجزة والتي لا تتكرر كثيراً في سفر (عاموس) تحفل بالأمل وبالرجاء وانقضاء المحنة التي بشر بها كل رجال العهد القديم غير انها لم تنقض أبداً .

ويبدو ان عصر (عاموس) كان في ايام الملك (يربعام الثاني) ملك اسرائيل المرحلة التي اتخمت فيها الأمة الاسرائيلية بالثراء فاستمرأت الفساد ونسيت كل علاقاتها بربها ولذا رأينا أصوات اولئك الرجال الذين تعاقبوا على اسرائيل عالية تحذر وتنبه وتخوف لكن دون جدوى ومما يجدر ذكره في هذا المقام ان بعض الباحثين في العهد القديم حاول شططاً أن يربط بين حدوث كسوف للشمس وقع في يونيه عام ٧٦٣ ق . م وبين ما سجله كاتب سفر (عاموس) عن قوله لعاموس في الاصحاح الثامن من سفره فقرة ٩ يقول فيها :(ويكون في ذلك اليوم يقول السيد الرب ، اني أغيّب الشمس في الظهر وأقتم الارض في يوم نور) .

وهؤلاء الذين يريدون أن يجعلوا من كل نصوص وفقرات أسفار العهد القديم نبوءة وبشارة لكل ما جد بعد ذلك من عهد وجيل حين يفتقدون

نصوصاً تعاونهم على الاستمراء فيما يذهبون اليـه يحيثون الى ربط بعض المظاهر الكونية التي قد يصح وقوعها وقد لا يصح ثم يربطونها ببعض فقرات ونصوص من الاسفار ، ويريد بعض هؤلاء ان يعقد هذه المقابلة ليقرر من غير قصد ان السفر بدأ صياغة نصه وتسجيله في الفترة التي اعقبت عام ٧٦٣ قبل المسيح أو بعدها بقليل لكن الاقرب الى روح السفر ومضمونه انه كتب بعد ذلك بزمن طويل وليس هناك قرينة تساعد على ما ذهب اليه البعض من أن لفظـة غياب الشمس تعني البشارة بالكسوف الذي وقع عـام ٧٦٣ قبل المسيح أكان وقع فعلاً ذلك الكسوف أم لم يقع .

سفر عوبديا

هذا الرجل (عوبديا) كما تقول عنه الجمل والفقرات المدوّنة عنه في السفر الذي يحمل اسمه في العهد القديم المعلومات المتوفرة عنه قليلة جداً ولا تكاد ان تكون هناك اشياء او حوادث تتصل بـه تفصح عن شخصيته وان كان هناك قلة قليلة من الباحثين في التراث الاسرائيلي يرون انـه الرجـل التقي الذي ذكر قبـل ذلك في بعض الاسفار مجهول الهوية وكان وكيـلا على بيت الملك (آخاب) حين أنقذ مائة نبي عندما قامت (ايزابيل) الشهيرة وأمرت بقطع أنبياء الرب ، هذا الفريق الذي يرى ان (عوبديا) هو الرجل التقي الذي قام بعملية إخفاء مائة نبي في مغارتين وعالهم بخبز ومـاء يستندون إلى تحديد هويته وخلع هذا الموقف عليه بما جاء في سفر الملوك الاول في الاصحاح الثامن عشر في الفقرتين الثالثة والرابعة ومع ان هذا الرأي ليس قوياً وبراهين قيامه ليست كثيرة في امكان خلعها على (عوبديا) لكنها من الممكن أن تكون دلالات متصلة برجل من نمط (عوبديا) او (عوبديا) نفسه هذا ومن الجدير بالذكر ان الفقرة الثالثة والرابعة اللتان اوردهما سفر الملوك قد جـاءتا على الوجه التالي : فدعى (آخاب) عوبديا الذي على البيت وكان عوبديا يخشى الرب جداً وكان حينما قطعت (ايزابيل) انبياء الرب ان عوبديا أخذ مائة نبي وخبأهم خمسين في مغارة وعالهم بخبز وماء وقال (آخاب) لعوبديا اذهب في الارض الى جميع عيون المـاء والى جميع الأودية لعلنـا نجد عشباً

فتحيي الخيل والبغال ولا نعدم البهائم كلها ، فقسما بينهما الارض ليعبرا بهـا فذهب آخاب في طريق واحد وحده وذهب عوبديا في طريق آخر وحـده وأخبار هذا السفر الصغير جداً والذي لا يتجاوز اكثر من إحدى وعشرين فقرة تدور حول مملكة آدوم المنبثقة أصول آبائها من عيسو شقيق يعقوب بن اسحق بن ابراهيم عليهم السلام . والدارس لهذا السفر يطالعه بعض الاخبار التي تشير الى خراب أورشليم بواسطة بابل كإرادة يهوه لهلاكهم تقول فقرة ١٧ من هذا الموجز الذي لا يصح ان يطلق عليه سفراً ، وامـــا جبل صهيون فتكون عليه نجاة ويكون مقدساً وبيت يوسف لهيباً وبيت عيسو فيشعلونهم ويأكلونهم ولا يكون باق من بيت عيسو لأن الرب تكلم ويرث أهل الجنوب جبل عيسو وأهل السهل الفلسطينيين ويرثون بلاد افرايم وبلاد السامرة ويرث بنيامين جلعاد وسبى هذا الجيش من بني اسرائيل يرثون الذين هم من الكنعانيين الى صرفة وسبي اورشليم الذين في صفارد يرثون مدن الجنوب ويصعد مخلصون على جبل صهيون ليدينوا جبل عيسو ويكون الملك للرب .

وقد تبدو في هذا السفر على قلة القضايا التي أثارها بل وعلى قـلة اهميته بالنسبة لغيره روح غير عادلة تسود بعض القضايا التي طرحتها أسفار كثيرة من العهد القديم وبعضها في الاسفار الخمسة الاولى ومنها حظوة يعقوب عنـد يهوه وتميزه وانفراده بكل ضروب الخير والنعمة دون أخيه عيسو وبالتـالي فان هذا الميراث الذي يقوم على العـدل وان اختفى في طول الاسفار فانـه يتداول مع الايام حتى نراه هنا في لغة عوبديا وان يكن بلكنة هادئة وبدون صخب او ضجيج .

سفر يونان

لا يعرف شيء بالتفصيل عن سيرة هـذا الرجل سوى المقتطفات اليسيرة التي وردت عنـه في سفر الملوك الثاني في الاصحاح الرابع وعند الحديث عن خطايا (امصيا بن يوآش) ملك يهوذا و (يربعام بن يوآس) ملك اسرائيل في السامرة الذي عاون على وقوعها في الخطايا التي كان عليها يربعام بن ناباط الذي جعل اسرائيل يخطىء .

هذا وفي سفر يونان تجيء الجمل والعبارات التي تتعلق بـه وتعرف بعض التعاريف بشخصه مثل تلك التي تقول (هو رد تخم اسرائيل من مدخل حماه إلى بحر العرب حسب كلام الرب إله اسرائيل الذي تكلم به عن عبده يونان ابن امتاي الذي من جت جافر) .

والدارس لسفر يونان يطالعه في الكتاب المقدس ومن خلال اسفار العهد القديم ان هذا السفر يحتوي على اربعة اصحاحات فقط أي انـه من الاسفار الصغيرة لكنـه بالرغم من صغر حجمه في اسفار العهد القديم اثار الكثير من التساؤلات والاستفسارات [1] خاصـة وان السفر لا يتضمن تعليماً او فكراً خاصاً القاه يونان ونسب اليه في السفر كما هو الشأن في معظم الأسفار .

---

(١) (فخري عطيـة) في (قطوف في سفر يونان النبي) من كتابـه (راعوث – استير يونان) سلسلة كتب تأمل معي بدون تاريخ ص ١٠٢ .

والدارس لهـذا السفر يرى ان شخصية يونان التاريخية يحيطها الكثير من الغموض ومن هنا يرجح بعض شراح اسفار العهد القديم انه كان نبياً قومياً من الانبياء العاديين او المغمورين في عصر يربعام الثاني ملك اسرائيل [١] .

والسفر على ما هو عليه وبالشكل الذي انتهى الينا عبارة عن سلسلة من الحوادث لا نرجح ان يكون يونان قد وضعها ولعل كاتباً أراد ان يروي قصة نبي عاش في قرون تسبق الميلاد بقليل فكتب هذه الاصحاحات في قالب قصصي تغلب عليه سمة الادب الروائي الذي تفيض به أداب ومأثورات أمم وشعوب كثيرة والقصة البارزة في هذا السفر متعلقة بابتلاع الحوت للشخصية التي يتحدث عنها السفر وهي شخصية يونان بعد أن ركب السفينة هارباً كما ادع عليه السفر من تكليف ربه له بأن يذهب إلى اهل نينوى فحمل معصية وغضب الرب عليـه فاهاج الرب في مـــا يروي السفر البحر هياجاً عظيماً وخاف الملاحون وصرخوا ليعرفوا السبب ويخبر السفر انهم عرفوا السبب وهـو معصية يونان فالقوه في البحر بعد ان ركب السفينة فابتلعه الحوت ، هذه الحادثة التي يخبر عنهـا سفر يونان عن يونان تناولها الباحثون في كتب العهد القديم بشيء من الاختلاف فبعضهم نظر اليهـــا على انها حدث تاريخي والبعض الآخر نظر اليها على انها رمز وجوهر الهدف فيه هو ما تضمنه الحادثة من اخبار المعجزة على ان بعض الباحثين راح يؤيد الرأي القائل بوقوع هذا الحادث ليونان بكل الأدلة والبراهين حتى لقـد بلغ الغلو ببعض الباحثين في حماسه لتأييد الحادث انـــه راح يدلل على وقوع الحادث بالبراهين العلميـة والحوادث المعاصرة وعلى وجه التحديد راح فخري عطيه وهو من الكتاب المهتمين بدراسة التراث الاسرائيلي المعاصر يرد على الذين يرفضون القول بحادث بابتلاع الحوت ليونان ويقول : (لكل الذين يطلبون برهاناً واقعياً على انه توجد عينات من الحيتان في مقدورها ان تبتلع انساناً مهما كبر حجمه نورد

(١) (حبيب سعيد) المدخل الى الكتاب المقدس ص ١٢٧ .

هذه الواقعة مقتبسة من : (ذي لترارى ديجست) بتأييد الاستاذ (م . ديارفيل) العالم ومحرر جورنال دي باتس يقول في شهر فبراير سنة ١٨٩١ م كانت سفينة الصيد (نجمة الشرق) تجوب البحر المتوسط بالقرب من سواحل فلسطين ولا يستبعد ان تكون في نفس البقعة حيث طرح يونان من السفينة وفجأة وقع نظر الرقيب على حوت كبير الحجم على مسافة بعيدة فاتجه نحوه قاربان من قوارب صيد الحيتان بحملات صيادين مدربين تدريباً جيداً فضربوه بحراب الصيد ، وبينما هو في نزع الموت ضرب احد القاربين بذيله ضربة حطمته قطعاً ، وسقط الصيادون في البحر فاسرع اليهم زملائهم في القارب وانقذوا ما عدا اثنين لم يعثروا عليهما كان احدهما (جيمس بارتلي وبعد ان يئسوا من العثور عليهما ابتدأوا في تقطيع الحوت وظلوا على ذلك طوال النهار وجزء كبير من الليل ، وفي الصباح استأنفوا اعمالهم ، وإذا هم يتأهبون لنقل معدته الضخمة إلى سطح السفينة لاحظوا داخلها حركات تشنجية ولما فتحوها وجدوا بداخلها (جيمس بارتلي) احد الصيادين المفقودين [١]) .

ونحن لا نريد ان نعلق على هذه الواقعة ولا على رأي القائلين بوقوع حادث ابتلاع الحوت ليونان والرافضين له فقد يكون الرجل يونان بن امتاي هو النبي يونس بن متى الذي قص القرآن الكريم بعض انعم الله عليه بعد ابتلاع الحوت له وعندئذ يصبح لا مجال لرأي ولا حاجة لبرهان وان كنا نرجح ان معالم وملامح الرجل الذي يتحدث عنه سفر يونان في واقعة الحوت بالذات قد يكون هو يونس بن متى الذي عناه القرآن الكريم .

هذا ومن المتفق عليه على ضوء لغة السفر الذي يتألف من اربعة اصحاحات فقط ان السفر يمكن ان يعد بين الاسفار التاريخية لكن هذه المشكلة تجابه بعض المدافعين عن صلة السفر بيونان وهي وجود السفر بين الاسفار النبوية

---

(١) (فخري عطيه) في كتابه المعنون : (راعوث ، استير ، يونان) وعند الحديث عن هذا الموضوع في قطوف من التأملات في سفر يونان النبي ص ١٠٣ — ١٠٤ .

وليس بين الاسفار التاريخية مع انه لا يتضمن كثيراً مما يتعلق بالرؤى والنبوءات وغير ذلك مما تمتلىء به وتقوم عليه اسفار النبوة ـ كذلك يجابه الدارس لسفر يونان في العهد القديم عدم الاتفاق بين مـا قيل في توبة اهل (نيونوي) من كبيرهم إلى صغيرهم وما يعرفه نقاد وشراح العهد القديم عن اهل نينوى : انه (ويل لمدينة الدماء كلها ملآنة كذباً وخطفاً . جرحك عديم الشفاء كل الذين سمعوا خبرك يصفقون بايديهم عليك) ويعتقد علماء التراث الاسرائيلي ان هذه العبارة جاءت على لسان ناحوم [١] وناحوم كما يفصحون عنـه بعد يونان والاجابة عن مثل هـذه المشكلات التاريخية والعقلية التي تفجرها النصوص غالباً مـا تكون غير مقنعة مثل قولهم ان الكلام وارد على سبيل التشبيه .

هذا ويتضمن الاصحاح الثاني من السفر كلمات لابأس بها بالمقارنة بكلمات ومنطق رجال العهد القديم الذين يفيض السفر بالحديث عنهم يقول يونان فيما نسب السفر اليه : (صرخت من صوت الهاوية فسمعت صوتي لأنك طرحتني فى العمق في قلب البحار فاحاط بي نهر جارت فوقي جميع تياراتك ولججك ، فقلت طردت من أمام عينيك ، ولكني اعود انظر إلى هيكل قدسك ، قد اكتنفتني ميـاه إلى النفس احاط بي غمر التف عشب البحر برأسي نزلت إلى سافل الجبال مغاليق الارض علي إلى الأبـد ثم اصعدت من الوهدة ، حياتي ايها الرب إلهي [٢] .

ثم يعود الاصحاح الثالث فيقص اخباراً مؤداها ان يونان امتثل لربـــه وقبل التوجـه إلى نينوى ودخلها في يوم واحد وبعد اربعين يومـاً لم يكن هناك بيتاً في نينوى إلا وسمع النداء وانقلب من الخطيئة إلى خوف الله هكذا زعم الاصحاح الثالث ثم انتقل إلى الحديث عن خروج يونان من المدينة وجلس

---

(١) القس وليم مارش في الجزء رقم ١٢ من السنن القويم في تفسير أسفار العهـــد القديم ص ٧٩ .

(٢) سفر يونان الاصحاح الثاني فقرات ٣ — ٦ .

شرقيها ووضع لنفسه مظلة وجلس تحتهـا في الظل لينظر مـاذا يحـدث في المدينة ثم يختتم السفر أخباره عن يونان بذلك الأختيار الذي اراد به فيما يزعم كاتب السفر رب اسرائيل ان يخلص يونان من غمه فأعد الرب الإله يقطينة فارتفعت فوق يونان لتكون ظلاً على رأسه ثم يقول كاتب السفر ان الله اعد دودة عند طلوع الفجر في الغد فضربت اليقطينة فيبست وحدث عند طلوع الشمس ان الله اعد ريحاً شرقية حارة فضربت الشمس على رأس يونان فذبل فطلب لنفسه الموت وقال موتي خير من حياتي فقال الله فيما يزعم السفر ليونان هل اغتظت بالصواب حتى الموت فقال الرب انت اشفقت على اليقطينة التي لم تتعب فيها والتي بنت ليلة كانت وبنت ليلة هلكت افلا اشفق انا على نينوى المدينة العظيمة التي يوجد فيهـا اكثر من اثنتي عشر ربوة من الناس الذين لا يعرفون يمينهم من شمالهم وبهائم كثيرة . وعلى ضوء هـذه الصور التي يقصها سفر يونان فإن كلمات السفر لا تقوم برهاناً على ما يمكن ان يكون في التراث الاسرائيلي من قيم بوجه او تضبط آمال الشعب ويستطيع الباحث ان يرى في هذه الفقرات التي آتينا عليها كلمات النهاية في السفر وهو يترك بصماته بين اسفار العهد القديم على انه مهما تكن الآلام والمحن فلا بد من التبشير بالامل وبانفراج الأزمـة على ضوء رحمـة رب اسرائيل الذي لم يبخل بيده على كل المواقف التي يقصها كتّاب العهد القديم .

هذا ويمتد أثر هذا الذي طالعنا في سفر يونان إلى عقيدة المؤمنين بالعهد الجديد فيرون فيه ان يونان كان رمزاً للمسيح لأنه حسبما يعتقدون يرون ان السيد المسيح أشار إلى هذا في الانجيل ، ومع ان روح يونان على ضوء ما رسم السفر كانت ذاتيـة متعصبة إلا ان روح المسيح عندهم تقابل روح يونان في التكامل إذ ان روح المسيح مملوءة بالرأفة والحلم .

وبهذا يقول فخري عطيه في كتابـه قطوف من التأملات في سفر يونان النبي بين سلسلة كتب تأمل معي : (كانت صلاة يونان في بطن الحوت عبارة

عن اقتباسات من المزامير [١]) مختصه بالمسيح ثم يقول : (اننا لا نجد صعوبة في تطبيق اختيارات يونان على اختيارات المسيح كالانسان المطيع الذي لتتميم مشيئة الآب .

ومع انه كما سبق وان علقنا كثيراً على الـ المنهج الذي يرى في بعض نصوص والفاظ كتب العهد القديم إشارة إلى نبوءة بالمسيح او الكنيسة لا يقوم على قرائن محددة واضحة المعالم في فكر كتب العهد القديم او اساس نظري فكري او فلسفي وضعت له القواعد والضوابط والاسس التي يلتقي المفكرون عليها جميعاً فإن هذا المنهج يصبح مدعاة لاختلاف وجهات النظر وتعدد الآراء بل يصبح مجالاً ميسراً للتأويل والتفسير حسبما يريد الذي يتناول النص ان يفسره لمصلحته وهواه .

كما انه ليس شرطاً جوهرياً او عقائدياً تلك العلاقة المتصورة التي يحاول بعض الباحثين ان تكون بين العهد القديم في كل مروياته وبين بشارات ونبوءات العهد الجديد . وفي نهاية نظرتنا لسفر يونان نرى انه هكذا تمضي اسفار العهد القديم جميعاً بهذا الشكل الذي وقفنا على اهم مقوماته من خلال ما عرضنا وما تناولناه بالنقد وسفر يونان من هذه الاسفار التي يفتقد فيها اهم مقومات عمل النبوة فيما يتعلق بالتوجيه او الأخلاق فضلاً عن فروض العبادة وشعائرها وفي نهاية التعليق والدراسة لسفر يونان فانه هكذا كما رأينا بعض آراء الشارحين والدارسين له انه لا عضاضة عند بعض اتباع العهد القديم في ان تكون كل الاسفار في العهد القديم الروائي منها والشعري والجنسي والوصفي والتاريخي رؤى وبشارات واختبارات تنطبق على بشارات فيما بعد امتلأت بها كتب وأسفار العهد القديم .

---

(١)(فخري عطية) قطوف من التأملات في سفر يونان النبي سلسلة كتب تأمل معي ص١٢٩ .

سفر ميخا

(ميخا) اختصار لجملة (ميكايهوه) ومعناها : (مَن مثل يهوه) ويستدل الشراح والدارسون في التراث على ذلك الاصل بما جاء على لسان ميخا نفسه في هـذا السفر المنسوب اليه في الاصحاح السابع فقرة ١٨ بقوله : (مَن هو إله مثلك) [١] .

والرجل (ميخا) كان قروياً ساذجاً ومن سلالة مغمورة ليس لها دور في تاريخ اسرائيل او يهوذا ومن قرية ينسبه السفر اليها لا شأن لهـا مثل غيرها من القرى الفقيرة بما يجري في المـدن الكبيرة من صراعات ودعوات وهـذه القرية هي (مورشه) او (مرشه) وهي إحدى القرى المنبطحة نحو عشرين ميلاً جنوب غرب اورشليم القديمة وعلى ضوء مـا في السفر من سيرة وأخبار فقد نشأ الرجل كواحد من الفلاحين والمعوزين شأنه شأن عاموس فكان شيئاً طبيعياً ان يهتم ميخا بهؤلاء الفقراء وان تكون نظرته الى المدينة كلهـا حذر وتخوف ولا يرى فيهـا غير كل الشر والآثام ، ولذلك نراه ينـذر السامرة وأورشليم بالدمار المحتوم [٢] .

والدارس لسيرة (ميخا) و (عاموس) و (حزقيال) وغيرهم من الأنبياء

---

(١) (وليم مارش) في السنن القويم في تفسير أسفار العهد القديم جزء ١٢ ص ٨٧
(٢) (حبيب سعيد) المدخل الى الكتاب المقدس ص ١٢٩ .

الصغار في العهد القديم يجد ان (ميخا) لم يكن مثـل (حزقيال) مهتمـاً بشؤون السياسة والساسة لكنه انشغل بالجوانب الاجتماعية والدينية ومعالجة الموبقات التي تئن فيها أمته . هذا ويحتوي السفر على سبعة اصحاحات فقط يخصص كاتب السفر الثلاثة الاولى منها في التنديد باخطاء وخطايا اسرائيل ويهوذا مثل عبادتهم الاوثان وتعددهم الآلهة كا تتناول هذه الاصحاحات الثلاثة قسوة الملاك وجشع الأغنياء وانحراف مسلك القيادات .

ثم تمضي الاصحاحات الباقية في السفر فتتناول صورة وحال الأمم التي ستهجم على يهوذا وتنتقم منها بسبب العصيان الذي وقعت فيه وكأن الكاتب يريد ان ينسب الى من قاموا بتدوين سفر (ميخا) نبوءات وبشارات رأوها قبـل وقوع الأسر ومع ذلك فالسفر مثل غـيره من الاسفار الخاصة بكتب الانبياء الصغار يختتم بالأمل في صحوة وتوبـة وعودة الى حياة حـافلة بالحق والخير مع ان احداً من هؤلاء الانبياء الذين تحدثت عنهم أسفارهم واحداً بعد الآخر لم يقل لنا عن أثر من آثار ذلك الرجاء الذي كان كل كاتب يضعه أمام أجيال اسرائيل ويهوذا وهـو ان يتوبوا ويرجعوا لكنهم جميعـاً يطالعوننا بتصوير المآسي والمخازي والمفاسد ثم ينددون بهـــا وينتهوا بعد ضرب جملة أمثلة ونماذج في العظات الى ذلك الأمل في التوبة والصلاح وهو الأمل الذي لم يتحقق في اسرائيل أبـداً على ضوء اخبـار التراث الذي نتداوله في كتب الأنبياء الصغار . هذا وتضعنا الدراسة النقدية امام بعض التساؤلات (فميخا) على ضوء ما هو عليه في سفره في كتب العهد القديم كان في ايام يوثام وآحاز وحزقيا مـلوك يهوذا أي انه فيما يريـد أن يقول السفر كان معاصراً لاشعيا وهوشع وعاموس وكان ذلك حوالى عام ٧٥٨ ق . م . [١].

فلماذا هذا الرباعي المكون من اشعيا وهوشع وعاموس وميخا والجميع في

---

(١) (حبيب سعيد) (الانبياء الاقدمون يتكلمون) دار الشرق والغرب للتأليف والنشر القاهرة بدون تاريخ ص ٧٤ .

لغة العهد القديم وأخباره ومعاييره أنبياء ؟ بل ان هذا التساؤل تتضح قيمته ويصبح مطلباً علمياً يتطلب الاجابة الدقيقة إذا علمنا ان أسفار بعض هؤلاء الأنبياء ينقل منها اللاحق ما سجل او قاله ان نسب الى السابق وبدون تصرف او اعمال في بعض المواقف وتناول الحوادث والأشياء وإذا جاز وهو بالقطع لا يجوز ان تكون نصوص ومدوّنات الاول والثاني فالذي لا يعقل أبداً أن يكون النبيان معاً في زمان ومكان وبيئة واحـدة ولأمة واحدة ثم يسجل أحدهما لنفسه ما ينسب الآخر ولنطالع مثلاً ما جاء في سفر اشعيا في الاصحاح الثاني وبالحرف [١] : (... ويكون في آخر الأيام ان جبل بيت الرب يكون ثابتاً في رأس الجبال ويرتفع في التلال وتجري اليه الأمم، وتسير شعوب كثيرة ويقولون .. هلمَّ الى جبل الرب الى بيت إله يعقوب فيعلمنا من طرقه ، ونسلك في سبله لأنه من صهيون تخرج الشريعة ، ومن اورشليم كلمة الرب فيقضي بين الأمم ، وينصف لشعوب كثيرين فيطبعون سيوفهم سككاً ورماحهم مناجل، لا ترفع أمة على أمة سيفاً ولا يتعلمون الحرب فيما بعد).

هذا النص الذي ورد بين فقرات الاصحاح الثـاني في سفر اشعيا الطويل هذا السفر السياسي والتاريخي ذو الأهمية القصوى في تراث العهد القديم مـا بالنا نراه بنفس النص والتناول على يد رجل قروي من قرية مغمورة في التاريخ هي (مورشه) في الاصحاح الرابع [٢] من سفر ميخا ذي الاسفار السبع نرى الآتي : (ويكون في آخر الأيام ان جبـل بيت الرب يكون ثابتـاً في رأس الجبال ويرتفع فوق التلال وتجري اليه شعوب ، وتسير اليه أمم كثيرة، ويقولون هلمَّ نصعد الى جبـل الرب والى بيت إله يعقوب فيعلمنا من طرقـه ونسلك في سبيله لأنـــه من صهيون تخرج الشريعة ومن اورشليم كلمة الرب فيقضي بين شعوب كثيرين ينصف لأمم قوية بعيدة فيطبعون سيوفهم سككاً ورماحهم مناجل، لا ترفع أمة على أمة سيفاً ولا يتعلمون الحرب فيما بعد).

---

(١) (سفر اشعيا) الاصحاح الثاني فقرات ٢ — ٤ .

(٢) (سفر ميخا) الاصحاح الرابع فقرات ١ — ٣ .

هذا هو نص مـا جاء في الاصحاح الرابع من سفر (ميخا) فأيهما نقـل النص عن الآخر ونسبه لنفسه ؟ او من هو صاحب النص الذي نقـل عنـه الاثنان معاً اشعيا وميخا ما جاء في سفريهما لعل هـذا المثل الذي نسوقه ونضعه امـام القائلين بعصمة الكتاب المقدس بعهديه يدفعهم الى البحث عن جواب ، وقد تتبعنا ونحن ندرس التراث الاسرائيلي بعض بحوثهم ودراساتهم في هذا المجال فلم نعثر على جواب ولم نجد سوى ذلـك الاصرار والتعنت فيه حول عصمة وقداسة العهدين معاً القديم قبل الجديد [١] . بل رأينا مـا هو عجب رأينـا واعظ الاقباط بالاسكندرية في طبعة كتابـه الثـالثة الصادرة عام ١٩٦٨ عن مطبعة محرم بك بالاسكندرية بعنوان : (... عصمة الكتاب المقدس) وفي صفحة ١١١ وتحت عنوان : (وجوب الايمـان لكل أجزائه يقصد .. الكتاب المقدس) يورد فيـه القس الآية الكريمة رقم ٨٥ من سورة البقرة التي يريد بها ان يستدل على عصمة الكتاب المقدس بل ويطالب بوجوب الايمان بهذه العصمة : (...أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض فمـا جزاء من يفعل ذلك منكم إلا خزي في الحيـاة الدنيا ويوم القيامة يردون الى أشد العذاب وما الله بغافل عما تعملون) .

وينتهي القس في آخـر الصفحة المذكورة بتفسير كنسي للآية القرآنية الكريمة فيقول تحت عنوان : (... العمل بأحكامه ويقصد ايضـاً الكتاب بعهديه) يقول بالحرف : (اذا كان الايمـان بالكتاب المقدس فرض على كل مسلم ، كما هو فرض على كل مسيحي فيجب الطاعة لأوامره والعمل بأحكامه لأن الايمان بدون أعمال ميت كما أن الجسد بدون روح ميت) .

وقبـل أن نسأل القس من أين له القول .. بأن الايمان بالكتاب المقدس فرض على كل مسلم فان لذلك السؤال دراسة واسعة ومجالاً سنناقشه في باب

---

(١) ينظر في هـذا الموضوع كتاب : (عصمة الكتاب المقدس) للقس يسي منصور واعظ الاقباط بالاسكندرية ، مطبعة الاسكندرية لمحرم بك طبعة ثالثة عام ١٩٦٨ .

مستقل من هذه الرسالة انشاء الله لنبرهن له بالدليل نقيض مـــا يذهب اليه لكننا نسأله مـا رأيه في الواقعة التي أسلفنا فيهـا القول والخاصة بنقل ميخا نصوصاً باشعيا او نقل اشعيا نصوصاً لميخا او نقلهما معاً من مصدر ثالث .

هذا وقد سبق لنا القول في ايراد أمثلة كثيرة من ذلـك النمط ولكننا نضيف هنا ونسأل مؤلف عصمة الكتاب المقدس الذي راح يستشهد في غير موضع بآيات من الذكر الحكيم نسأله ما رأيه في اعتراف القس : (... وليم مارش) مضطراً اضطراراً علميـــاً في موسوعته الضخمة والمسماة بـ (السنن القويم في تفسير أسفار العهد القديم) في الجزء الثاني عشر صفحة ٩٥ الصادرة عن مجمع الكنائس في الشرق الأدنى في بيروت عـام ١٩٧٣ م إلى ان يقول عند شرحه للاصحاح الرابع من سفر ميخا بالحرف : (وردت الآيات ١ — ٣ في اشعيا ايضاً : اش ٢ : ٢ — ٤ والارجح ان اشعيا اقتبسها من ميخا لانها توافق القرينة في ميخا اكثر القرينة في اشعيا: انظر ميخا ٣ : ١٢ :(وتصير اورشليم خزياً وجبل البيت شوامخ وعر) وما يليه (٤ : ١) (جبل بيت الرب يكون ثابتاً في رأس الجبـال وفي ميخا ٣ : ٦ ليلة بـلا رؤية) انتهى وليم مارش .

ونحن لا نريد أن نعلق هنـا لكنها كلمـة حق يجب ان تقـال وهي ان المسلمين إذا كانت اخلاقهم على ضوء وهدى كتاب الله تعالى قد جعلتهم لا يتعرضون بالأذى او المضايقة لأصحاب العقائد والملل المختلفة فانهم لم يؤمنوا ولم يطالبهم أحد على طول امتداد التاريخ الاسلامي بأن يؤمنوا بغير كتاب ربهم وهو القرآن الكريم وسنّة نبيّه محمد ﷺ بعد ذلك . واذا كان القرآن الكريم قد أخبر المسلمين بان الله سبحانه قبل الاسلام قد منّ على بني اسرائيل بكتابين نزلا من عنده تعالى على قلب عبدين له هما : موسى وعيسى عليهما السلام وهذان الكتابان بالاضافة الى ما أنزله الله تعالى من وحي على غيرهما من أنبيائه هما التوراة والانجيل فان المسلمين مطالبون بالايمان بجميع ما أنزل

الله وبعصمة هذين الكتابين وانهما في ضوء عصمة الوحي الإلهي مقدسين وانهما نزلا من عند الله وليس فيهما خيال ولا شعر ولا قصة ولا مسرح ولا عشق ولا غزل لكنهما بعد ارادة الله ومشيئته قـد رفعا من أيدي العباد لمجيء ونزول الكتاب الأتم الذي يحتوي مـا فيهما ويهيمن عليهما ويقيم الدين الخالد ولا يؤمن المسلم إلا بهـذا الكتاب المبين وإيمانه بهـذا الكتاب كتاب رب العالمين يتضمن باليقين الإيمان بكتابي موسى وعيسى عليهما السلام اعني يتضمن الإيمان بالتوراة والإنجيل وذلك من خلال القرآن الكريم .

أما العهد القديم أو العهد الجديد أو قل الكتاب المقدس بعهديه فليس مما يطالب المسلم بالإيمان به أو بجزء منه قل أو كثر وصدق رب العالمين في شأن كتابه القرآن الكريم : ألم ذلك الكتاب لا رب فيه هدي للمتقين .

مرة ثانيـة نعود لميخـا في الاصحاح السابع من سفره فنراه وهو يتكلم نيـابة عن الاتقياء من الشعب الذين اعترفوا بالخطأ والخطيئة وعموم الفساد يقول : (ويـل لي لأني صرت كجني الصيف كخصاصة القطاف لا عنقود للأكل ولا باكورة تينة اشتهتها نفسي قد باد التقى من الارض وليس مستقيم بين النـاس جميعهم يكمنون للدماء يصطادون بعضهم بعضاً بشبكة اليدان الى الشر مجتهـدان الرئيس طالب والقاضي بالهدية ، والكبير متكلم بهوى نفسه فيعكـشونها ، أحسنهم مثل العوسج وأعدلهم من نبات الشوك يوم مراقبيك عقابك قد جـاء الآن يكون ارتباكهم لا تأتمنوا صاحباً لا تثقوا بصديق احفظ ابواب فمك من المضطجعة في حضنك لا الابن مستهين بالأب والبنت قائمة على أمها والكنة على حماتها وأعداء الانسان أهل بيته) بهذه الملامح العامة يريد ميخا في السفر المنسوب اليه ان يصف لنا حال شعب وسلوك أمه كان بين ظهرانيها في وقت واحد أربعة من الانبياء لكل منهم سفراً وعظات وبشارات حق وإن أخذ بعضهم عن الآخر فـلم يفلحوا في توجيـه الشعب المعوج صاحب تراث العهد القديم .

سفر ناحوم

ناحوم احد رجال العهد القديم الذين عالج التراث الاسرائيلي سيرتهم على انه من (الأنبياء) وقد تكون دلالة اسمه في التراث الاسرائيلي : (الرحوم) وهو ايضاً على ضوء المعلومات المتوفرة عنــه في اسفار العهد القديم وشروحها من الرجال المغمورين الذين لا يعثر عليهم الباحث كثيراً الا في مواقف قليلة بين سياق صفحات اسفار العهد القديم . فالسفر الذي تسمى باسم ناحوم ينعت صاحبه بصفة القرية المغمورة التي نشأ فيهــا وهي (لقوشي) وهي من القرى المغمورة غير ذات الشأن في تاريخ يهوذا وعلى حد ما يذهب (ايرونيموس) يبدو انها كانت في الزمن القديم شمال الجليل [1] .

والسفــر صغير الحجم قليل الرواية في الأحداث والاوضاع التي كانت في عصر ناحوم وان كانت لغتــه صارمة في بعض الفقرات ويتألف من ثلاثـــة اصحاحات فقط يدور معظمها حول خراب (نينوى) عاصمة الاشوريين وعدو اسرائيل اللدود التي ينظر اليهــا كتّاب الاسفار بنوع من العداء والحقــد في معظم ما نقلوا وما دونوا ويبدو ان موضوع السفر له علاقة قوية بموضوع يونان وان اختلفت طرائق كل منهما ويرجح شراح العهد القديم الذين تداولوا سيرة ناحوم انــه لم يكن وحده هو الآخر المكلف بمهمة إلى اهل نينوى التي

---

(١) (حبيب سعيد) المدخل الى الكتاب المقدس ص ١٣١ .

كلف بهـا بعد يونان بحوالي مائة وخمسين عاماً بل كان معاصراً لأحد رجال العهد القديم الذي يحمل درجة نبي ومـا اكثر الذين يحملون هـذه الدرجة في التراث الاسرائيلي واعني به فيما دون كتاب التراث (صفنيا) [1] وعلى ضوء مـا في سفر ناحوم فان زمن نبوته تختلف فيـه كثيراً فالمعتمد عند بعض الباحثين [2] انها كانت حوالي ٧١٣ او قبل ذلك بعام عندما هاجم سنحاريب مدن يهوذا الحصينـة واخذهـا كما تقول بذلك الفقرة رقم ١٣ من الاصحاح الثامن عشر في سفر الملوك الثاني لكن البعض الآخر من الدارسين للعهد القديم يؤرخ لهذه المرحلة من نبوة ناحوم بانها كانت في الفترة من ٢٦٥ ق‌م او ٦١٠ ق‌م.

وقـد تضمن السفر اخباراً عن ملوك آشور وهم : (فول وتغلث فلاسر شلمنـاصر — وسرجون — وسنحـاريب — واسرحدون — وسراقس) (سدشارشكن) الذي قام عليه الرافضون وحاصروا نينوى ثلاث سنين حتى فاضت مياه دجلة كما يخبر التراث الاسرائيلي فاغرقت الاسوار وسقطت المدينة وفي مرويات هذا التراث ان الملك سراقس لما ايقن هلاكه جمع نساءه في قصره وشب فيـه النار فاحترقن جميعهن وكان ذلك نحو سنة ٦٠٧ ق . م وانتقلت السلطة إلى بابل .

هذا ويبدأ السفر في الاصحاح الاول بنغم حاد مرتفع الصوت وكأنـه تعليق على حادث في الذهن معروف ومستقر لدى المخاطبين الذين توجه اليهم كاتب الاصحاح : (الرب إله غيور ومنتقم الرب منتقم وذو سخط ، الرب منتقم من مبغضيه ، وحافظ غضبـه على اعدائه الرب بطيء الغضب وعظيم القدرة ولكنه لا يبرىء البتة) وبعد رحلة قصيرة لفقرات الاصحاحين الاول والثاني كانت فيهـا الفقرة الاخيرة من الاصحاح تجابه الباحث وكأنهـا تشبه النعي او مقالة في التحسر والأسى : (مأوى الاسود ومرعى اشبال الاسود

---

(١) (حق بهنام) مفاتيح كنوز الاسفار الإلهية جزء ١ ص ٣٠١ .

(٢) (حبيب سعيد) المدخل الى الكتاب المقدس ص ١٣١ .

حيث يمشي الاسد واللبوة وشبل الاسد وليس من يخوف) يستمر سياق السفر على هذا المعنى .

ثم يطلع الاصحاح الثالث بما نراه في كل موقع من بيت جماعة يعقوب جماعة تنتمي اليه بصلة او نسب فالنبي الذي يتحدث السفر عن سيرته يؤدي دوره بالتوبيخ بالتهديد بالانذار باستحضار العقوبة بزلزال الأرض بدك المعابد بسبي النساء بتمريغ الوجوه في التراب ثم يسدل السفر الستار بعد ان يكون قد اعلن عن التوبة لكن في هذا السفر نقلة اخرى ينقلنا اليها وقد تكون البيئة او العصر الذي كان فيه لها اثره في هذه الصورة التي نقلنا اليها فنينوى التي تركها يونان بارة مؤمنة ها هو ناحوم في الاصحاح الثالث يناديها وهو كما هو معروف ليس من بيت جماعة يعقوب : ويل لمدينة الدماء كلها ملآنة كذباً وخطفاً ، لا يزول الافتراس صوت الصوت وصوت رعشة البكر وخيل تحب ومركبات تقفز وفرسان تنهض ولهيب السيف وبريق الرمح وكثرة الجرحى وكثرة قتلى ولا نهاية للجثث يعثرون بجثثهم من اجل زنى الزانية الحسنة الجمال صاحبة السحر البائعة امما بزفاها وقبائل بسحرها ها انذا عليك يقول رب الجنود فاكشف اذيالك إلى فوق وجهك وأرى الامم عورتك والممالك خزيك واطرح عليك اوساخاً واهينك واجعلك عبرة ويكون كل من يراك يهرب منك ويقول خربت نينوى من يرثى لها ؟ من اين اطلب لك معزين)

وهكذا تنتهي فقرات هذا السفر بهذا المشهد الدرامي الحاد العالي النبرات والذي كانت عليه نينوى من فساد وانحراف استدعى من الناظم ان يختم مشاهد السفر بهذه النبرة العالية إلى ان يقدم لنا السفر في النهاية تلك الصورة المفجعة التي تبين لنا عن افلاس عمل النبوة التي يتحدث عنها كتاب الاسفار في بيت يهوذا واسرائيل بالرغم من كثرة ظهورها وتتابع الداعين لها لكن المشهد النهائي يجيء هكذا ، (ليس جبر لانتصارك ، جرحك عديم الشفاء كل الذين يسمعون خبرك يصفقون بايديهم عليك لأنه على من لم يمر شرك على الدوام ؟ ؟) .

سفر حبقوق

حبقوق ومعنى الاسم في التراث الاسرائيلي (المعانق) ويعللون منشأ هذا الاسم ومعناه ان الرجل كان فيما يزعمون كيعقوب يصارع الله بالصلاة .

والنبوءة التي في هـــذا السفر جاءت على شكل حوار يتكلم فيه النبي ويحاوبه الرب وفي دراسة كتاب التراث لسيرة هذا الرجل يقررون انه كان (لاوياً) من سبط لاوي ابن يعقوب وانه ليس مغموراً لأنه خـدم الهيكل وله فيما يقولون خبرة بالكهانة والحياة العامة [1] . ومع ذلـك فليس للرجل في تاريخ العهد القديم دراسات أو آثار واسعة تدل عليه سوى ذلـك السفر الصغير الذي يتألف من ثلاثة اصحاحات تنسب اليه ومع كل ما ينعت به وما ينسب اليه من انه خدم الهيكل فلم يجزم الدارسون لسيرته من خلال اسفار العهد القديم بالتاريخ الذي ظهر فيه بالضبط وان كان بعض الكتاب يميل الى انه كان في عهد الملك (يهوه ياقين) ملك يهوذا حوالي ٦٠٩ – ٥٩٧ ق . م [2] ففي هذه الفترة كان الكلدانيون قد أخذوا يزحفون من المشرق ويكتسحون البلدان في طريقهم بعد أن قضوا على دولة الاشوريين وحلت بابل محل نينوى، فانتهت الى اورشليم أنباء زحفهم وبطشهم ويحاول كتّـاب سفر حبقوق أن

---

(١) الجزء ١٢ ص ١١٦ من كتاب (السنن القويم في تفسير أسفار العهد القديم) .

(٢) (حبيب سعيد) المدخل الى الكتاب المقدس ص ١٢٢ .

ينهوا الى الدارسين ان الرجل قد رسم في ذهنه صورة عن مظالم الكلدانيين لعله في تقديرهم قد بدأ يكتب أفكاره بعد ان قام نبوخذ نصر بهجمته الاولى على أورشليم في سنة ٦٠١ ق . م وقــــد أذاق نبوخذ نصر في فترة حصاره للمدينة الشعب الاسرائيلي كل ضروب المرارة والهوان ، ويبدو ان حبقوق حين شاهد هذه المرحلة قد أثرت في فكره كثيراً ذلـك لأن محتويات السفر الذي بين أيدينا تتمثل في انها أشبه ما تكون بثمرات ناضجة لتفكير عميق وصراع نفس طويل سجل فيه حبقوق الأسئلة التي جالت بخاطره والأجوبة التي رآها وتخلل هذا المضمون جزء روائي أخذ شكل حديث روائي طوّره الناظم للسفر الى أحاديث ثنائية بين حبقوق وربه فيما نسب السفر لحبقوق ، كذلك تضمن مجموعة من الويلات والنداءات الشعرية ضد الشر وفاعليه ،والجزء الأخير يضم ترنيمة هادئة صلى فيها حبقوق باللازمة الموسيقية التي كانت بين ثنايا وفقرات مزامير داود (سلاه) وفيها يقول السفر فيما نسب الى حبقوق :

(يا رب قد سمعت خبرك فجزعت يا رب عملك في وسط السنين احييه في وسط السنين عرف الغضب اذكر الرحمة الله جاء من تيمان والقدوس من جبل فاران (سلاه) جلاله غطى السموات والارض امتلأت من تسبيحه وكان لمعان كالنور له من يده شعاع وهناك استتار قدرته ، قدامه ذهب الوبأ وعند رجليه خرجت الحمى وقف وقاس الارض نظر فرجف الامم ودكت الجبال الدهرية وخسفت آكام القدم ، مسالك الأزل له ، رأيت خيام كوشان تحت رجليه ، رجفت شقق أرض مديان هل على الانهار حمي يا رب هل على الانهار غضبك أو على البحر سخطك حتى انــــك ركبت خيلك مركبات الخلاص عريت قوسك تعرية سباعيات سهام كلمتك (سلاه) شققت الأرض انهـاراً أبصرتك ففزعت الجبال سيل المياه طما اعطت اللجة صوتها رفعت يديها الى العلاء الشمس والقمر وقف في بروجهما لنور سهامك الطائرة لمعان برق مجدك بغضبك خطرت على الارض بسخط دست الأمم خرجت لخلاص شعبك).

هذا وينظر شراح العهــد القديم الى السفر في التراث الاسرائيلي على انه

حبقوق يصور فيه تدريب القلب المملوء بالعطف على شعب الله قـد آلمته كثيراً حالة الشر والإثم التي كانت بينهم لذلك كما يدعي السفر انه كان يصرخ بقوة الى الله الذي أجابه الى دعائه بأنـه سيقيم الكلدانيين (الأمـة المرة) الظالمة على يهوذا لمعاقبتهم ولكنه الى حين فقط فسرعان في لغة هـذا السفر ما تمتليء الارض من معرفة مجد اسرائيل ويهوذا كما تغطي المياه البحر كما يحـاول كتّـاب السفر ان ينتهوا الى انه في وسط السنين ستقوم اعمـال الله العظيمة لشعب يهوذا الذي امتلأت الارض بتسبيحه من الخطايا التي سجلها حبقوق عليه . وهكذا ينتهي الاصحاح بعد هذه الصور والمشاهد التي ساقها عن النهـاية المؤمنة بنغمـة أمل مشوبة بشيء من الحزن والخوف كما هي في النص رقم ١٧ من الاصحاح الثالث من سفر حبقوق :(... سمعت فارتعدت أحشائي من الصوت رجفت شفتاي ، دخل النخر في عظامي وارتعدت في مكاني لاستريح في يوم الضيق عند صعود الشعب الذي يزحمنا) .

سفر صفنيا

معنى اسم صفنيا في كتب التراث الاسرائيلي على ضوء معطيات اللغة العبرية ومفرداتها فيما ذهب اليه بعض شراح : (يستره يهوه) [1] وعلى غير العادة في عدم ذكر سلسلة نسب أو بيت الأنبياء الصغار في كتب العهد القديم فان (صفنيا) سلسلة نسبه مدوّنة الى الجيل الرابع من آبائه ، وربما لأنه من بيت غير مغمور ولا مهمل في تاريخ اسرائيل ويهوذا كالشأن مع الرجال الذين دوّنت سيرتهم في العهد القديم ، فالرجل يمتد نسبه الى نسل الملك (حزقيا) ، وعلى ضوء ما في سفره فانه حين تنبأ كان ذلك في أيام (يوشيا) الذي تولى الملك وهو ابن ثمانيـة اعوام لكن يوشيا في التراث الاسرائيلي ينظرون اليه على انه كان رجلاً فاضلاً ابتدأ يعرف ربه بعد ثمانية اعوام من توليه ، وفي السنة الثانية عشر من توليه الملك ابتدأ يطرد الاصنام والرجاسات في بيت يهوذا واسرائيل لكنه كما نطالع في مختلف أسفار كل كتب الانبياء الصغار في العهد القديم فان المناخ الذي ابتدأ يعمل فيه (صفنيا) كان فاسداً للغاية شأن كل مرحلة وكل جمـــاعة من جماعات اسرائيل ويهوذا يطلع علينا من بينها رجالات العهد القديم ، ولعل الهجوم العنيف الذي قـام به السكبنيون في سنة ٦٢٦ ق . م ضد يهوذا واسرائيل واحداث هـذه المرحلة تركت آثارها

---

(١) (السنن القويم) في تفسير اسفار العهد القديم الجزء ١٢ ص ١٣٦ .

على فكر هـذا التراث الذي يشبه في سفر (صفنيا) الى حد كبير مضمون ولغة سفر ارميا ، وان كان سفر ارميـا يتميز على صفنيا برحابة الفكر الى حد ما بخلاف صفنيا الذي ركز على يوم الرب والخلاص بينما كما تقول سيرته الشعب في أكبر المحن وفي حاجة الى تعاليم .

ومضمون (صفنيا) الذي بين أيدينا والذي يتألف من ثلاثة اصحاحات فقط أي انه صغير الحجم يدور حول المدينة المتمردة النجسة اورشليم لانـه في منطق ومضمون هذا السفر فان الجميع،القضاة والانبياء والكهنة في العهد القديم الذين نظر اليهم صفنيا يحملون نجاسة [1] .

ولذا فبين الفقرات التي نراها في اصحاحات سفر (صفنيا)نرى ان (صفنيا) ابن كوش بن جدليا بن امريا بن حزقيا يطلب من كلمة الرب ان تعاونه على مواجهة المدينة التي يراها تحمل نجاسة فيقول : (نزعاً أنزع الكل عن وجه الارض يقول الرب : أنزع الحيوان والإنسان ، أنزع طيور السماء وسمك البحر والمعاشر مع الاشرار وأقطع الإنسان عن وجه الأرض يقول الرب ، وأمد يدي على يهوذا وعلى كل سكان اورشليم وأقطع من هـذا المكان بقيـة البعـل : اسم الكمارين مـع الكهنة والساجدين على السطوح لجنـد السماء والساجدين الحالفين بالرب والحالفين بملكوم، والمرتدين من وراء الرب والذين لم يطلبوا الرب ولا سألوا عنه) .

ولذا فانه على ضوء هذا المدخل الذي يحدد فيه المناخ الوصفي سفر صفنيا فإنا نرى الاصحاح الثالث من هـذا السفر وقد جاء عالي النبرة يحمل ذلـك الهياج المتوعد للمدينة الظالمة وكل من فيهـــا . ويبدو ان الظرف السياسي والحال الاجتماعي الذي كان يعيشه كل اولئك الذين يتناولون بالتدوين او حتى بالنظم أو التسجيل الأسفار كان يملي عليهم لغة السفر وسياق الكلمات فهنا

---

(١) (متى بهنام) مفاتيح كنوز الاسفار الالهية الجزء ١ ص ٢٠٨ .

في سفر صفنيا نرى صوت الناظم يعلو بالوعيد وربما يكون على خلاف العادة عند معظم أصحاب الأسفار من سلسلة الانبياء الصغار : (ويـــل للمتمردة النجسة المدينة الجائرة ، لم تسمع الصوت ، لم تقبـل التأديب ، لم تتكل على الرب ، لم تتقرب إلى إلهها ، رؤساءها في وسطها أسود زائرة، قضاتها ذئاب لا يبقون شيئـاً إلى الصباح ، أنبياؤها متصاغرون أهـل غدرات ، كهنتها نجسوا القدس خالفوا الشريعة ، الرب عادل في وسطها لا يفعل ظلماً ، غداة يبرز حكمه الى النور لا يتعذر أما الظالم فـــلا يعرف الخزي ، قطعت أمماً خربت شرفاتهم أقفرت أسواقهم بلا عابر دمرت مدنهم بلا إنسان بغير ساكن فقلت انك لتخشينني تقبلين التأديب فلا ينقطع مسكنها حسب كل ما عينته عليها لكن بكروا وأفسدوا جميع أعمالهم) .

ومع كل الذي نراه في هذا السفر من تلك النغمة العالية الصوت بالسخط والنقمة فان السفر يختتم بتلك الترنيمة المتفـائلة والمفرحة بعد ذلـك السخط الذي رأينـا الفقرات الأولى من الاصحاح الثـالث يسجلها على شعب يهوذا واسرائيل في عصر صفنيا : (ترنمي يا ابنـة صهيون ، اهتف يا اسرائيل ، إفرحي وابتهجي بكل قلبك يا ابنة اورشليم قد نزع الرب الاقضية عليك ، أزال عدوك ملك اسرائيل الرب وسطك لا تنظرين يعود شراً ، الرب إلهك في وسطك جبار يخلص يبتهج بك فرحاً يسكن في محبته يبتهج بك يترنم).

هـذا ولا يسجل علماء اللاهوت من هـذا السفر أية نتائج يعلقونها ضمن المنظومة القائـلة عندهم على طول امتداد كتب العهـد القديم ببشارة السيد المسيح في كل ما ينظرون اليه من نصوص الكتاب المقدس،وباستثناء شواهد قليلة يربطون بين بعضها وبين فقرات من الاناجيل فـانه لا يطالعنا إلا قول (مق بهنام) في التعليق على هذا السفر بقوله [1] : (من المهم مراعاة وفهم هذه الحقيقة وهي التوافق التام في أسفار العهد القديم النبوية ذلك التوافق

(١) (مق بهنام) مفاتيح كنوز الاسفار الالهية الجزء الاول ص ٣٠٩ .

الذي يرينا بوضوح بأن فكراً إلهياً واحداً يربطها كلها .. وينسى الكاتب قوله في نفس الصفحة من كتابه مفاتيح كنوز الأسفار الإلهيـة .. إن ارميا تناول الناحيتين الأدبية والتاريخية (وصفنيا) تنـاول الموضوع تاريخياً فقط وحبقوق تناوله أدبيـاً وصفنيا يتنـاول الموضوع الذي في سفر ارميـا وحبقوق أدبياً .

ومع ان المسألة في تناول هـذه الاسفار لقضايا واحداث المراحل التي تتناولها لا تتجاوز حدود التناول كما يضطر بالافصاح بذلك وكما يقوله بالنص لكنه مع ذلك يحاول ان يطلع بهذا القول الذي ساقه في غير دليل ولا برهان على ان مستوى جميع الأسفار فيما سجلت وفيما تحمله من مضامين وأفكار إنمـا تنطلق من مصدر واحد هو الوحي بالرغم من ذلك التفاوت الحاد فيما بينها .

سفر حجى

حجى اسم معناه عند شراح العهد القديم (عبد الرب) ويسمون اسرائيل الذي هـو يعقوب كذلك عبد الرب ، ويبدو ان معاني الأشياء ودلالتها عند الذين يتناولون بالشرح والتعليق على العهد القديم تجيء حسب المصلحة والدواعي التي يرونها .

وحجى من الشخصيات المغمورة في تاريخ العهد القديم فـلم يذكر في أي سفر معلومات عنه ولا عن سلسلة نسبه ، اللهم إلا ما يرجحه البعض من ان الرجل كان ثالث ثلاثـه بعد رحلة العودة من السبي ابتدأوا أعمالهـم ووظيفتهم في اسرائيل وهم : (حجى وذكريا وملاخى) ، وهناك من يرجح ان سبب عدم شهرة حجى انـه ربما يكون قد ولد في بابل وسط المسبيين وان رجوعه إلى اورشليم كان مع رزبابل حوالي عام ٥٣٦ ق م وهذا السفر اوقل هذه المذكرة الصغيرة لحجى تتألف من اصحاحين فقط يرى فيهما شراح العهد القديم وخدام اللاهوت عـدة بشارات إلى زربابل الحاكم العائـد من السبي وإلى (يهوشع) رئيس الكهنة يومئذ .

وفي الأعلان الاول أو البشارة الاولى كما يحب ان يعبر شراح اللاهوت رغبة حجى في بناء بيت الرب الجديد ، وبالفعل كان اول عمل قاموا به بعد العودة من السبي بنـاء مذبح محروقات في السنة الثانية أسسوا هيكلا للرب

لكنهم يبدو انهم كانوا في مراحل التنفيذ يأخذون وقتاً طويلاً حتى ينتهوا مما يشرعون فيه على ضوء ما توحي بذلك كلمات السفر .

وتستغرق أحاديث الحوار بين زربابل ويهوشع وحجى الفقرات الواردة في سفر حجى حتى يسمع العائدون فيما يقول السفر صوت الرب ويصدقوا بالبشارات التي امامهم فيجدوا في بناء بيت الرب .

وقيمة هذا السفر في التراث الاسرائيلي انهم يرون فيه جملة النبوات التي وردت والمتعلقة بزربابل على وجه الخصوص ترمز إلى المسيح الذي لا تزول مملكته [1] وينطلق شراح التراث بهذه الدعوى مما جاء في العبارة الأخيرة من السفر والتي تقول : (في ذلك اليوم يقول رب الجنود اخذك يا رزبابل عبدي ابن شالتيئيل يقول الرب واجعلك كخاتم لأني قد اخترتك يقول رب الجنود) .

ومما في هذه العبارة يتبين ان نظمها كان بهدف تقوية قلب رزبابل مع طرح الامل المرموق امامه في ان يحتل مكانه علياً بين الشعب الاسير العائد .

هذا ومن المتفق عليه ان اسفار الرجوع من السبي هي (عزرا) الذي يدور سفره حول الحالة الروحية وبناء الهيكل ونحميا الذي يدور سفره حول الحالة العامة للشعب وحجى الذي يتضمن تشجيعاً للشعب وزكريا الذي يرسم مستقبلاً للشعب وملاخى الذي يرسم حالة الراجعين المنحطة روحياً . هذا ما يطالع دارس الاسفار والمتفحص فيها بين كتب الأنبياء الصغار .

---

(١) القس وليم مارش في الجزء رقم ١٢ من كتاب السنن القويم في تفسير أسفار العهد القديم ص ٤٤ .

سفر زكريا

هو زكريا بن برخيا بن عدوا ، كان معاصراً لحجي ويبدو انه كان هو الآخر مع المجموعة التي أطلق سراحها من أسر بابل وكان بينهم (عدوا) جد زكريا وأحد رؤساء الكهنة الاثني عشر كما أحصاهم نحميا في الاصحاح الثاني عشر الذي جعل سجل (عدوا) حين قال : (وهؤلاء الكهنة واللاويون الذين صعدوا مع زربابل بن شالتيئيل ويشوع : سرايا ويرميا وعزرا وامريا وملوخ وحطوش وشكنيا ورحوم ومريموت وعدوا وجنتوى وابيا وميامين ومعديا وبلجا وشمعيا ويوياريب ويدعيا وسلو وعماموق وحلقيا ويدعيا هؤلاء هم رؤساء كهنة واخواتهم في أيام يشوع)[1].

وعلى ضوء ما في سفر زكريا من سيرة فيبدو انه ورث عن جده (عدوا) وظيفة الكهنوتية وعلى هذا يمكن القول انه كان شاباً يافعاً حين ابتدأ يمارس مهام وظيفته أو كما تريد ان توحي بذلك تعبيرات سفره الذي يتألف من أربعة عشر اصحاحاً ، أي انه بين أسفار الانبياء الصغار يعد سفراً موسعاً بعض الشيء ويمكن تقسيم الاصحاحات الأربعة عشر الى مجموعات . المجموعة الأولى من الاصحاح ١ حتى الاصحاح ٨ وفيها يتكلم زكريا على ضوء ادعاء السفر بنفسه ويسرد رؤى ظهرت له مضيفاً اليها بعض التعاليم المستقاة من

---

(١) سفر نحميا الاصحاح ١٢ فقرات ١ — ٨ .

روح الوحي الذي كثيراً ما تتحدث عنه الاسفار كما تتضمن هذه المجموعة بياناً عن بعض الشعائر الدينية مثل الصوم وعما يطلبه الله من عباده الصالحين وعلاقة الانسان بأخيه الانسان ومثل هذه المعاني التي في المجموعة الاولى من سفر (زكريا) والمتعلقة ببعض امور العبادة الدينية مفتقدة كثيراً في معظم الاسفار.

فالمجموعة الثانية من الموضوعات التي تضمنها سفر زكريا فهو ما تضمنته الاصحاحات من رقم ٩ — ١١ عن احاديث تنسبها او تعبر عنها على انها : (وحي كلمة الرب) ضد الشعوب الاخرى .. دمشق — حماه — صور — صيدا اي ان هذه المجموعة تحمل بين سياق هذا السفر روحاً عدوانية تستمطر من قبل رب اسرائيل ضد الشعوب والامم غير يهوذا واسرائيل. ومثل هذه الروح في هذه الاصحاحات من هذا السفر مثل غيرها من الاسفار التي تنقلنا الى هذا المشهد العدواني الذي نراه بين حين وآخر من خلال ما يسمونه بالنبوءة او البشارة التي يوجهونها فجأة ضد الامم والشعوب وبغير قرينة او مبرر في السياق يساعد على هذه النقلة العدوانية .

وفي هذه المجموعة ايضاً يسجل الاصحاح التاسع حديثاً منسوباً لزكريا يرى فيه شراح التراث الاسرائيلي من اتباع العهد القديم بشارة ونبوءة بالسيد المسيح : (عيسى بن مريم) فالفقرة التاسعة التي تقول : (ابتهجي جداً يا ابنة صهيون اهتفي يا بنت اورشليم ، هوذا ملكك يأتي اليك هو عادل ومنصور وديع وراكب على حمار وعلى جحش ابن اتان) ولان الدلالة المباشرة لهذه العبارة لا تعطي للقائلين بهذه البشارة مراداً محدداً فانهم يفسرونها بلغة الرمز التي يعالجون بها معظم اسفار العهد القديم على الوجه التالي [١] : (ابتهجي جداً) لا يليق بنا ان نبتهج بنجاح زمني كما نبتهج بالمسيح الذي يخلص الى التمام والى الآبد . (ملكك) : اي ليس ملكاً اجنبياً كاسكندر بل ملكهم الخاص من

---

(١) (القس وليم مارش) الجزء ١٢ من السنن القويم في تفسير اسفار العهد القديم ص ١٦٥ .

نسل داود مسكنه بينهم يحبهم ويحبونه ويعتني بهم عنـاية خاصة وهو الملك الموعود به والمنتظر منذ أجيال (يأتي اليـــك) أتى من السماء الى الأرض وبالجسد أتى الى أورشليم كملك وهو ملك عادل أتى ليبشر المساكين وبعصب منكسري القلب وملك منصور على الموت وجميع أعدائه وملك وديع راكب على حمار أي ملك للسلام وليس ملك حرب .

هـذه هي لغة بعض شراح وكتّاب التراث الاسرائيلي من أتبـاع العهد القديم فيما يرونه من بشارة ونبوءة خاصة بالسيد المسيح وهم يعلقون على الفقرة رقم ١٩ في الاصحاح التاسع من سفر زكريا ومـا نقوله بالتعليق والنقـد على هذا المنهج سبق ان أشرنا اليه كثيراً وهو انه منهج غير ديني فضلاً عن عدم استقامته عقليـــاً على ضوء افتقاده لكثير من البراهين والأدلة التي يجب ان تكون وسط الدلالات التي يراد تقريرها أو اثباتها .

وتنتهي هـذه المجموعة بنوع من التحذيرات والتوجيهات بعد ان تضمنت جمـلة من الوصايا والدعوات والأدعيات على نفس وتيرة الأسلوب المـألوف في أسفار ما بعد السبي : (اطلبوا من الرب المطر في أوان المطر فيصنع الرب بروقاً ويعطيهم مطر الوبل) (١).

لكن هذه المجموعة من اصحاحات سفر زكريا تنتهي بنوع من التحذيرات والتوجيهات تشمل الجميع كباراً وصغاراً لكنها تركز على الكبار : (ويل للراعي الباطل التـــارك الغنم والسيف على ذراعه وعلى عينه اليمنى ذراعه تيبس يبساً وعينه اليمنى تكل كلولاً) (٢) .

أما المجموعة الأخيرة من سفر زكريا وهي التي تتألف من الاصحاح رقم ١٢ ــ ١٤ فهي ايضاً على حد ما تحاول ان توحي به الالفاظ أقربما تكون

---

(١) (سفر زكريا) الاصحاح العاشر فقرة رقم ١ .
(٢) » » » الحادي عشر فقرة ١٧ .

الى الرؤية او البشارة منها الى أي شيء آخر انها تصف دمار الشعوب الأخرى وخلاص اليهود وفي الاصحاح رقم ١٣ ينسب الى زكريا انه يرسم صورة ينبوع تطهر مياهه أرجاس البشر .

ومن الصعب لعدم وجود مصادر كافية تحديد الزمن الذي قيلت فيه هذه الرؤيا التي نسبت الى زكريا لكنه بالقطع بعد العودة من السبي بزمن طويل ، وفي المجموعة الأخيرة من هذا السفر كما تحاول الالفاظ ايضاً ان توحي بذلك تبرز نبوءة الاصحاح الرابع عشر التي تتحدث عن نهر ينبع من اورشليم للتطهير ويبدو ان هذه الفكرة فكرة النهر تستمد فكرتها بل وربما أسلوبها من نبوءة مشابهة تماماً ساقها سفر حزقيال وادعاها عليه الاصحاح رقم ٤٧ .

فالنبوءة أو البشارة التي ساقها الاصحاح الرابع عشر من سفر زكريا والتي قلنا ان لها شبيهاً بما جاء في سفر حزقيال ولعل الذين كتبوا، نقل بعضهم عن الآخر الفكرة ونسبوها للرجلين كل في سفره قد جاءت على ضوء ما هي عليه في الاصحاح على الوجه الآتي : (... ويكون في ذلك اليوم ان مياهاً حية تخرج من اورشليم نصفها الى البحر الشرقي ونصفها الى البحر الغربي في الصيف وفي الخريف تكون ويكون الرب ملكاً على كل الارض ، ذلك اليوم يكون الرب وحده واسمه وحده) [1] .

أما نفس النبوءة التي ساقها هذا الاصحاح الرابع عشر من زكريا وقد سبق ان دوّنت في الاصحاح السابع والاربعين في سفر (حزقيا) فقد جاءت على الوجه التالي وان اختلفت الصياغة لكن الفكرة واحدة : (ثم ارجعني الى مدخل البيت وإذا بمياه تخرج تحت عتبة البـاب نحو المشرق لأن وجه البيت نحو المشرق والمياه نازلة من تحت جانب البيت الأيمن نحو الجنوب ، ثم أخرجني من طريق باب الشمال ، ودار بي في الطريق من خارج الى البـاب

---

(١) (سفر زكريا) الاصحاح الرابع عشر فقرات ٨ - ٩ .

الخارجي من الطريق الذي يتجه نحو المشرق ، وإذا بمياه جارية من الجانب الأيمن ، وعند خروج الرجل نحو المشرق والخيط في يده قاس الفا ذراع وعبر في المياه والمياه الى الكعبين ،ثم قاس الفاً وعبرني في المياه والمياه الى الركبتين، ثم قاس الفاً وعبرني والميـــاه الى الحقوين ثم قاس الفاً وإذا بنهر لم استطع عبوره لأن المياه طمت مياه سباحة نهر لا يعبر) [1] .

وهكذا تمضي أسفار الانبياء في العهد القديم كباراً وصغاراً وعملية التعاون فيما بينهم بالنقل او الاقتباس او الحذف او الاضافة على أقوى مـا تكون لا يرى الكتّاب والنساخ حرجاً في أن ينشغل نبي ممن يتحدثون عنهم في عصره بجمع جملة من المواقف والمشاهد ونقد الصور بأسلوب ومنهج يكون غيره في عصر سابق أو يعيش معه في نفس المهمة ونفس الرسالة قـــد تداول المهمة بنفس الاسلوب الذي يقوم به ولعل السر في ذلك التتابع المشاهد والمواقف والاساليب المتكررة لأحداث بعينها أو لصور بذاتهـا هو الزحام الذي وقع فيه الكتّاب والنساخ في عملية تدوين تراثهم قبيـل العصر المكابي وبعد رحلة السبي الطويلة .

---

(١) (سفر حزقيال) الاصحاح السابع والاربعون فقرات ١ — ٥ .

سفر ملاخى

لا توجد دراسات حول ملاخى تفصح عن شخصيته وسلسلة نسب ابائـه كذلك في كل كتابات العهد القديم لا يعثر له الباحث على اثر يذكر من قريب أو بعيد (وملاخى) لعلهـا اختصار الكلمة (ملاخيا) التي تعبر في العبرية عند شراح التراث عن (ملاك الرب) أو (مرسل الرب) .

ونظراً لعدم توفر معلومات عـن ملاخى فان هناك رأياً لبعض العلمـاء المشتغلين بالتراث على أن كاتب هذا السفر الصغير المؤلف من اربعة اصحاحات فقط كاتب مجهول والبعض الآخر ينسب هـذه الاصحاحات لسفر (عزرا) وان كان هذا الرأي الذي يرى نسبـة هذه الاصحاحات الأربع المسماة بسفر (ملاخى) إلى عزرا لا دليل عليه مع ان لغـة الاصحاحات الأربع وسياق العبارة المتداولة فيه قريبة في بيانها من سفر (عزرا) ولما لم يكن عزرا هو كاتب سفره على ضخامته فان المرجح ان يكون الكتاب الذين قاموا بكتابة سفر (عزرا) هم الذين كتبوا هذه الاصحاحات المسماة بسفر (ملاخى) .

هذا وليس هناك ما يمنع ان يكون هناك رجلاً من رجال العهد القديم تسمى بهذا الاسم وخلعت عليه صفات ودلالات هذا الاسم عاش في عصر ما بعد السبي قام بمهام دينيـة وكهنوتية تركت أثرها في حياة مجتمع يهوذا فجاء الكتاب والنساخ ودونوا ما ينسب إلى هذا الرجل فجاءت هذه الاصحاحات الاربع التي تحمل اسم (ملاخى) .

والاحوال والاوضاع التي يتعرض لها هذا السفر ويعالجها هي نفس الاحوال والاوضاع تقريباً التي سبق (لنحميا) ان سجلها وحاول علاجها .

فقد دلت الدراسات المتعلقة بالتراث الاسرائيلي ومصادره على ان نحميا كان ساقياً لملك فارس وفي السنة العشرين من ملكه والتي يرجح البعض انها كانت حوالي ٤٤٥ ق.م وقد أذن الملك له ولمجموعة من شعب يهوذا بالذهاب إلى اورشليم لترميم السور واصلاح الاحوال وبعد حوالي ثمانية سنوات رجع الرجل إلى بلاط الملك قضى فيه فترة ثم عاد إلى اورشليم مرة ثانية ليجد الانحطاط الأخلاقي والفساد والآثام والشرور قد بلغت أعلى ذروتها في مجتمع اورشليم فعلى حد ما جاء في اشعيا في الاصحاح الستين ان اليهود طلقوا نساءهم اليهوديات وأخذوا نساءاً وثنيات ليندمجوا باغنياء البلاد وترتب على ذلك أن اهملوا الهيكل ورفضوا دفع العشور والتقدمة ودنسوا يوم السبت ولم يعودوا يهتمون به .

والمطالع لسفر (ملاخى) يرجح ان مضمون الاصحاحات الاربع يبدو انها تتعلق بهذا الوقت الذي بلغ فيه هبوط الأخلاق وممارسة الفساد اقصى درجة له فعند الزيارة الثانية التي قام بها نحميا لأورشليم وجد اليهود في حال أشبه ما يكون برد الفعل المعاكس لكل ما علقوا عليه آمالهم ولذا فقد كانوا في وضع يرفضون معه كل دعوة للاصلاح ذلك ان اشعيا كان قد تنبأ بالرجوع من سبي بابل وبراحة الشعب ودعوته إلى مجده بل كانوا يحملون املا اكبر من هذا على ضوء ما وعوه وما انتهى اليهم من نبوءات اطلقها أو نسبت إلى اشعيا: (وبنو الذين قهروك يسيرون اليك خاضعين وكل الذين اهانوك يسجدون لدى باطن قدميك ويدعونك مدينة الرب صهيون قدوس اسرائيل) . لكن شيئاً من هذا لم يحدث على الاطلاق ومن هنا فحين قال (حجى) كما ينسب اليه في الاصحاح الثالث فقرة ٩ : (مجد هذا البيت الاخير يصير اعظم من مجد البيت الاول) لم يسمع احد له فقد كان طبيعياً على ضوء هذه البشارات التي لم يتحقق منها شيء ان يكون الشعب في حالة من اليأس والضياع حيث لم يتح لهم ان

ينجزوا شيئاً منها مما علقوا عليه آمالهم ويبدو ان شعب يهوذا واسرائيل كان يعلق أمله على وقوع نوع من المعجزات وخوارق لذا فارتكن إلى يومه وممارسة ما يشغله على أمل ان يحدث شيء من هذا لكن شيئاً مما علقوا عليه آمالهم لم يقع .

وعلى ضوء ما في سفر (ملاخى) وما تناوله بعض الشراح لهذه الحقبة من التاريخ كان اليهود في عهد ملاخى وطوال ستة وخمسين عاماً في وضع يقوم على الخصام والظلم والضيق والخوف . فشكوا كمهدهم في علاقة ربهم بهم وكان على (ملاخى) ان يذكرهم بمواعيد الله التي يتحدثون عنها وكان عليه ان يبكتهم على الخطايا والمآثم التي وقعت منهم ومع ذلك فان جهود ملاخى في هذه الحقبة لم تكلل بنوع من التوفيق أو النجاح وذلك لسوء الحال وفساده الذي كان يتصاعد في مواجهة جهوده المحدودة التي لم تقدر على مجابهة الظرف والمحنة التي اختبر بها شخصياً .

هذا والمتفحص في السفر الصغير المنسوب إلى (ملاخى) لا يعدم ان يرى نعرة التعصب التي طالما لقيناها واضحة بارزة بين معظم الأسفار لكنها هنا تتعلق بالبداية التي قصها وقسمها سفر (التكوين) حين كان يقص انباء بيت الاباء الاول (اسحق) و (يعقوب) و (عيسو) فان التراث المتداول عن هذا البيت هو ان رب بيت اسرائيل اصبغ نعمه على يعقوب دون اخيه (عيسو) الأمر الذي ترتب عليه ان فرع بيت الاباء الاول (يعقوب) حمل ميراث وتراث هذه الأفضلية التي كانت نعمة في عين الرب الذي يتحدثون عنه حظى بها (يعقوب) دون اخيه (عيسو) فكان بينهما ما كان من فرقة ونفرة وتعصب فاضت بسيرتها اخبار ومرويات سفر التكوين .

والغريب الذي يطالع الباحث هنا في سفر (ملاخى) هو ابراز تلك القسمة الجائرة التي تداولوها عن نصيب كل من الرجلين في علاقة رب اسرائيل بهما خاصة اذا علمنا ان بين سياق الاصحاح الاول من سفر (ملاخى) ما

يشعر بان كاتب السفر يتحدث عن الله رب جميع الأمم العظيم بين جميع الأمم وليس بين اسرائيل ويهوذا وحدهما لكن يبدو ان التراث الاسرائيلي في هذه الحقبة كان يجتر صراعاً قبلياً بين بعض البيوت وفي ظل أوضاع اجتماعية ظالمة فاستحضر كتّاب التراث تلك المرحلة من هـــذه العقيدة التي ترى في ولد (اسحق) أساساً لرضى الرب على فرع دون فرع .

والاصحاح الأول من هــذا السفر يبين نوع الخطايا التي قدمهـا اسرائيل للرب وهي التقدمات المشوهة والخـــبز النجس على المذبح كما انه يبرز دور الكهنة الذين كان يجب أن يكونوا قـــادة للشعب وأن يجعلوا قلوبهم عليه لاصلاحه لكنهم لم يفعلوا .(من أيام آبائكم حدتم عن فرائضي ولم تحفظوها)[١] هــذا وتمضي الاصحاحات الأربعــة في (ملاخي) حول رواية تقليدية حول التوبة والمعصية وما كان في أمس اسرائيل ويهوذا وما ينبغي ان يكون حتى يختم الاصحاح الرابـع والأخير بتلك النبوءه المزعومة عن يوم الخلاص المنتظر والذي يصبح فيه الشعب قـادراً على عمل شيء وبالكلمات المتفائـلة عن يوم ومجد ومستقبل تحدثت عنه كثيراً أسفار الأنبياء الصغار لم يتحقق منها شيء تختم آخر كلمات كتب وأسفار العهد القديم القانونية والمعترف بها على الوجه الآتي : (ولكم ايهـــا المتقون باسمي تشرق شمس البر والشفاء في أجنحتها فتخرجون وتنشأون كعجول الصيرة وتدوسون الأشرار لأنهم يكونون رماداً تحت بطون أقدامكم يوم أفعل هذا قال رب الجنود .. اذكروا شريعة موسى عبدي التي أمرته بها في حوريب على كل اسرائيل الفرائض والأحكام)[٢] .

وبهذا التعريف البسيط والموجز بأسفار العهـد القديم تناولنا فيه بالنقد والتعليق بعض قضاياه التي لم تستقم أمامنا في وحـدة موضوعية أو عقائدية فضلاً عما طالعناه من تناقض بعض النصوص وبعضها الأمر الذي جعلنا ننتهي

---

(١) (سفر ملاخي) الاصحاح الثالث فقرة ٧ .
(٢) » » » الرابع فقرات ٢ — ٤ .

الى ما قررناه من أن عصمة العهد القديم المدعاة على انه في جملته يمثل مشيئة الله على يد رسل وأنبياء ورجال العهد القديم وانهم ما نطقوا إلا حقاً ووحياً أمر يتعذر تصديقه على ضوء نصوص وسياق ما انتهى الينا من أسفار وكتب العهد القديم ولعلنا نكون بهذا العرض الموجز والنقد المحدود الذي لم نشأ التوسع فيه نظراً لطول وضخامة حجم التراث المدوّن في كتب العهد القديم نكون قد جهزنا واعددنا بذلك التمهد للدخول في دراسة ومناقشة أهم القضايا والموضوعات التي التزمنا بها في منهج خطتنا لدراسة التراث الاسرائيلي في العهد القديم . لكننا نود ان نشير الى أنه يجب قبل أن نبدأ بمناقشة الاسفار الخمسة الأولى من كتب العهد القديم باعتبارها مصدر صلب العقيدة والشريعة اليهودية على أساس الدعوة القائلة بأن هذه الكتب الخمسة هي (التوراة) أن نتعرف ببعض أسفار وكتب تتعلق بالعهد القديم لكنها أسفاراً غير معتمدة أو غير قانونية والمسماة بـ (الابوكريفا) نظراً لأهميتها كجزء من تراث العهد القديم .

الفصل الثالث

اسفار الابوكريفا

يجدر بالباحث في كتب العهد القديم لمحاولة التعرف عليها والوقوف على قضاياها أن لا يكتفي بما وقفت عنده نسخة الكنائس البروتستانتية ، والتي اكتفت بما اعتمد وشاع عن كتب العهد القديم في تسع وثلاثين سفراً : تبدأ بسفر التكوين ، وتنتهي بسفر (ملاخي) ، بينما نسخة الكنائس الكاثوليكية والارثوذكسية الشرقية تحمل أسفاراً أكثر من الاولى ، وتصل هذه الاسفار على النسخة البروتستانتية الى خمسة عشر سفراً، وتعرف هذه الاسفار الزائدة باسم (أسفار الابوكريفا) . وهي لفظة استعملت في اللغة اليونانية الخاصة بالكتاب المقدس وهي هنا بمعنى : (خفي أو غامض وسر) [١] .

وفي أوائل العصر المسيحي ، استعملت الكلمة للدلالة على الكتب التي حوت تعاليم خفية مستورة لا يعرفها إلا الأقلون ، ثم تطور معناها بمرور الزمن الى : باطل ومزيف، ومن ثم أصبحت تعني : الكتب الدينية المصنوعة

---

(١) (محمد بيومي مهران) في كتابه : (دراسات في تاريخ الشرق الأدنى القديم) جزء ٢ مطبعة الأمانة القاهرة عام ١٩٧٣ ص ٥١ .

أو الموضوعة التي لم ترد أصلاً الى التوراة ، أو في الكتب الخمسة التي يسمونها (توراة) .

ويبدو ان كتب (الابوكريفا) من وضع يهود فلسطين إذ كان معظمها مكتوباً باللغة العبرية أو الارامية ، وقليل منها كتب بالاغريقية بعد ان اهتم يهود الاسكندرية بكتب (الابوكريفا) . يقول الدكتور مصطفى كمال عبد العليم في الرسالة التي تقدم بها لكلية الآداب جامعة عين شمس عام ١٩٦٠ لنيل درجة الدكتوراه وكانت بعنوان : (اوضاع اليهود في مصر في العصر الروماني) ثم طبعت كتاباً بعنوان : (اليهود في مصر في عصري البطالمة والرومان) [١]. وكان واضعوا هذه الاسفار يهدفون الى نقد الاوضاع الظالمة التي يعيش فيها اليهود ، والى اشاعة الامل في مستقبل أسعد وقد كان اليهود يألفون هذا النوع من الادب (الابوكريفا) عندما كانت بابل وآشور تهددان بالقضاء عليهم قضاء مبرماً وما لبثوا ان عادوا اليه في الشطر الثاني من حكم البطالمة ، كرد فعل للضغط الذي أحسوا به والكراهية التي أحاطت بهم عندما أثاروا حقد اغريق الاسكندرية عليهم .

والابوكريفا بالاصطلاح الذي تعنيه اليوم وهو الدلالة على الاسفار غير القانونية ليست قديمة قدم الافتراضات الزمنية التي تدور وتدعي حول كتب العهد القديم ولكن يبدو ان اول استعمال لها كان عام ٤٢٠ م على يد (ايرونيموس) وعنه تطور الاستعمال ، وتدريجياً صار لقب (الابوكريفا) يقتصر على الكتب الكنسية أو الأسفار التي لم يكن لها وجوداً في الكتاب المقدس العبري [٢] وان تكن متضمنة في الكتاب المقدس اليوناني واللاتيني ، واستعملت الكلمة بهذا المعنى المحدد منذ عهد الاصلاح .

---

(١) (مصطفى كمال عبد الحليم) في كتابه : (اليهود في مصر في عصري البطالمة والرومان) مكتبة القاهرة الحديثة الطبعة الاولى عام ١٩٦٨ ص ١٢١ .

(٢) (محمد بيومي مهران) (دراسات في تاريخ الشرق الادنى القديم) ج ٢ ص ٥٣ .

هذا وتأبى الكنائس اليونانية والكاثوليكية استعمال الكلمة (ابوكريفا) بالمعنى الذي قصد اليه (ايرونيموس) وتقول : ان هذا الاصطلاح يشير الى المؤلفات المكتوبة تحت اسماء منتحلة مزورة وليست صحيحة تاريخياً ، غير أنه في أواخر القرن السادس عشر الميلادي كان المعنى قد تأصل في الأذهان ، بحيث اضطر علماء اللاهوت الى الاذعان والقبول .

وأسفار (الابوكريفا) هي الاسفار المسماة بـ (عزرا الاول ، عزرا الثاني، ويهوديت ، وطوبيت، وتتمة سفر استير، وحكمة سليمان، ويشوع بن سراخ، وباروخ النبي ، ورسالة ارميا ، ونشيد الفتيان العبرانيين الثلاثة ، وقصة سوسنة ، وقصة بعل والتنين ، صلاة منسى وسفرا المكابيين الاول والثاني) .

ومكان هذه الأسفار في الكتاب المقدس يختلف باختلاف المذاهب التي يقوم أصحابها بطبع الكتاب المقدس ، فالكنائس البروتستانتية تحذف من طبعتها للعهد القديم كتب (الابوكريفا) تماماً بينما تضعها بعض الطبعات الانجليزية بين العهد القديم والعهد الجديد [١] . أما الكنائس الكاثوليكية والارثوذكسية فتضعها في أماكن مختلفة من العهد القديم .

وهذا الخلاف في الرأي والعقيدة بين الكنائس حول أسفار (الابوكريفا) قديم يرجع الى حوالي الفي عام . ومن الجدير بالذكر ان نلقي ضوءاً على البدايات الاولى لهذا الموضوع والتي على ضوءها ظهر الخلاف .

كانت البداية حين قسم اليهود الكتاب المقدس العبراني الى ثلاثة أقسام .

اطلقوا على القسم الأول وشاع ذلك عليه فعلا تحت عنوان (الناموس) وهي الكتب التي تبدأ من سفر التكوين الى سفر التثنية ، خمسة أسفار من العهد القديم وتقرر عندهم اعتبارها رسمية وقانونية حوالي عام ٤٤٠ ق.م.

---

(١) المصدر السابق ص ٥٢ .

(الانبياء المتقدمون) من سفر يشوع الى الملوك الثاني .

(الانبياء المتأخرون) وهم اشعيا وارميا وحزقيال وصغار الأنبياء الاثني عشر ،وهذه الأسفار ينظر اليها اليوم نظرة تقدير واحترام عند المؤمنين بها واعتبروها قانونية ربما من سنة ٢٠٠ ق . م فقط [١] .

(الكتابات) وهي المزامير والامثال وأيوب ونشيد الانشاد وراعوث والمراثي والجامعة ودانيال وعزرا ونحميا والايام الاولى والثانية على انه من المهم ان نسجل ان فكرة الكتاب القانوني برزت في أواخر القرن الثاني الميلادي أو في مطلع القرن الثالث الميلادي ، وقد نشأت الفكرة من جديد بأثر من ظهور عاملين مهمين أولهما: ظهور الثقافة والآداب والمؤلفات اليونانية .

والثاني : انتشار الكتب التي حوت التنبوءات عن المستقبل التي كتبها اليهود وأذاعوها فيما بينهم ، ورغبة في ابعاد ما حسبه قادة الفكر اليهودي خاطئاً وضاراً تعين عليهم أن يفرزوا من مجموعة الكتب المتداولة ما اعتقدوا انه حق ، ولم تكن ثمة صعوبة في تقرير رأي حاسم عن الاسفار الخمس المسماة (بالتوراة) وكتب الانبياء ، لأنها كانت قد اكتسبت بمضي الزمن نوعاً من الكرامة والتقدير عندهم .

أما النوع الثالث من الكتب وهي المسماة : (كتابات) فلم يكن الاجماع حولها معقوداً ، فشجر خلاف في الرأي مثلاً حول : أسفار نشيد الانشاد والجامعة واستير وظل الجدل حول قانونية بعض الأسفار زمناً طويلاً .

على ان الخلاف بين الفرق والطوائف اليهودية لم يكن سهلاً ، فمنذ اواسط القرن الاول قبل الميلاد، لم يتبع اليهود اليونانيون وخاصة(يهود)الاسكندرية أخبار فلسطين اليهود في تحديد الكتب الرسمية القانونية ولم يوافقوهم في نظرتهم العامة الى أسفار العهد القديم ، فهم قد سلكوا مسلكاً مغايراً في

---

(١) (حبيب سعيد) : المدخل الى الكتاب المقدس ص ١٨٠ .

ترتيب الأسفار العبرية القديمة الكثير من الكتابات المتأخرة [1] . وبعض هذه الكتب في الأصل بالعبرانية مثل سفر المكابيين الاول وحكمة يشوع بن سيراخ وطوبيا ويهوديت وباروخ . وللبعض الآخر كتب في الأصل باليونانية مثل أسفار حكمة يونان والمكابيين الثاني وبعض الكتب الأخرى مثل : نشيد الفتيان الثلاثة ، وعلى هذا الأساس يرى بعض شراح العهد القديم ان العهد القديم الاسكندري المسمى : (بالسبعين) أوسع مدى من الكتاب المقدس الفلسطيني .

وحدث انه لما انفصل المسيحيون في القرون الاولى عن اليهودية لم يكن معهم كتاباً معين الأوضاع محدد المعالم ووجدت الكنيسة نفسها أمام كتاب موسع هو العهد القديم المسمى : (بالسبعين) السكندري او اليوناني وكان هو الكتاب المقدس الوحيد المعترف به في الكنيسة المسيحية أجيالاً متعددة، وبالقطع اكتسبت اسفار (الابوكريفا) أهمية بوجودها في هذا النص ما كانت لتحصل عليها لولا ذلك .

على أنه من المعروف بين العلماء اليهود الذين اتخذوا موقفاً نقدياً وتمحيصياً من الكتاب المقدس انه كان لهم كتاباً قانونياً آخر أصغر حجماً يسمى عند بعض شراح الكتاب المقدس (بالكتاب اليهودي) [2] فايرونيموس الذي كان سنة ٤٢٠ م اتخذ الكتاب اليهودي من معلميه اليهود وكان أول من قام في الكنيسة ببحث شامل وبجهد ممتاز للتمييز بين الاسفار القانونية وأسفار الابوكريفا ، وهو يقول في إحدى كتاباته كما ينقل عنه أحد الكتاب المتخصصين في دراسة اللاهوت المعاصرين [3] : ان كل كتاب آخر يشير بذلك الى الكتاب السكندري يعتبر من أسفار ابوكريفا ، انها تقرأ لتبيان الشعب

---

(١) (حبيب سعيد) : المدخل الى الكتاب المقدس ص ١٨١ .
(٢) » » » » » » ص ١٨٢ .
(٣) » » » » » » ص ١٨٣ .

لا لتـأييد العقائد وبسبب كتابات ارنيموس علق في الاذهـان عنـد بعض الباحثين الفارق بين الكتابين العبري واليوناني وبسبب بحوثه العلمية المتتابعة مال الناس الى الحيطة والحذر في استخراج الادلة الجدلية من كتابات الابوكريفا.

وفي عهد الاصلاح الديني الذي ظهر في اوروبا في العصور الوسطى تبلورت آراء الكنيسة المختلفة والمتعددة وصارت عقائد ثابتة فألغت الكنيسة الكاثوليكية مثـلا في مجمع (ترانت) الذي عقد سنة ١٥٤٦ م كل تمييز بـين الكتابين ، وأدمج هـذا المجمع في صلب الكتاب المقدس القانوني كل أسفار الابوكريفا ما عدا عزرا وصلاة منسى واعتبر الكتاب المقدس جميعاً باضافة أسفار الابوكريفا حجـة رسمية في مسائل العقيدة اليهودية المسيحية ، وفي هذا يقول قرار المجمع : (من لا يقبل هذه الكتب بكل اجزائهـا كأسفار مقدسة قانونيـة كما تقرأ في الكنيسة الكاثوليكية وكما هي الطبعـة اللاتينية القديمة فليكن ملعوناً ومع ذلك فان هذا القرار لم يمنع من ان يجيء بعض العلمـاء الكاثوليك المتأخرين ويميـز بين الاسفار التي اعتبرت قانونية أصلية وبين أسفار الابوكريفا) [1] .

هذا وقد كان (مارتن لوثر) زعيم حركة الاصلاح الكنسية واضحاً تماماً مع هذه الاسفار بل وحاسماً فيما فعل فقد أدمجها مع الكتاب المقدس ولكنه وضعها تحت تذييل خاص وفصل بينها وبين الأسفار القانونية ، وجاءت تحت عنوان : (ابوكريفا .. اسفار لا تحسب في مستو واحد مع الاسفار المقدسة ولكنها مع ذلك صالحة للقراءة ونافعة للتعليم) [2] .

وقد أخذت الكنيسة الاسقفية بوجهة نظر (مارتن لوثر) ووضعت في قواعد آدابها ما يدعو الى الأخذ بمـا ارتآه وأخذ به (لوثر) فقد جـاء في المادة السادسة من المواد الثلاثين للكنيسة الاسقفية الآتي : (... وأما بقية

---

(١) (محمد بيومي مهران) دراسات في تاريخ الشرق الادنى القديم ص ٥٣ .

(٢) (حبيب سعيد) : المدخل الى الكتاب المقدس ص ١٨٣ .

الاسفار كما قال (ايرونيموس) فان الكنيسة إنما تقرأها لقدوة السيرة وتهذيب الاخلاق ، ولكن لا تستند اليها في اثبات أحد التعاليم) .

وبينما قبل (مارتن لوثر) أسفار الابوكريفا على انها سيرة تصلح للتعليم فان انصار (كالفن) قد رفضوا الابوكريفا كلية ولم ينظروا اليها إلا على انها كتابة بشرية شأنها شأن أي كتابة بشرية لا تدخل في مجال العبادة أو التعليم الديني وجاء في قرار (وستمنستر) عام ١٦٤٣ م : (انه ليس لهذه الاسفار أي سلطان في كنيسة الله ولا يجوز قبولها أو استعمالها إلا ككتابات بشرية) .

ونرى آثار هذا الاختلاف في موقف اتباع العهد القديم من أسفاره المختلفة وانقسامهم الى مذاهب واتجاهات في ظل نظرات عديدة من امتناع جمعية التوراة البريطانية عن طبع هذه الأسفار في الكتاب المقدس وقد حذت حذو جمعية التوراة البريطانية الكنيسة الايرلندية [١] .

ومما يجدر ذكره ان الرجل الذي يعتبر من القديسين في نظر الكنيسة (اثناسيوس) وهو يقسم الكتابات الدينية عدا أسفار الابوكريفا من الكتابات التي اصطنعها الهراطقة عمداً بعد ترويج التعاليم الخاطئة تحت اسماء كبيرة [٢] .

وبالرغم من كل ما أثير ويثار من جدل ولغط حول هذه الأسفار فان هناك من شراح التراث الاسرائيلي وبعض اتباع رجال الكنيسة من يرى في أسفار الابوكريفا قيمة روحية واخلاقية مهمة جداً في حياة التعبد الكنسي ، بل ان هناك من يرى في أسفار حكمة سليمان وحكمة يشوع بن سيراخ والمكابيين الأول من المقومات والخصائص والقيم ما تفوق به بعض أسفار العهد القديم المعتمدة [٣] . ولا جدال ان هذا الرأي أو هذه النظرة تؤكد ان هناك نوعاً

---

(١) (محمد بيومي مهران) دراسات في تاريخ الشرق الادنى القديم ج ٢ ص ٥٣ .
(٢) (حبيب سعيد) المدخل الى الكتاب المقدس ص ١٨٦ .
(٣) » » » » » » ص ١٨٦ .

من الارتباط غير العلمي بين كل مصادر كتب التراث اليهودي في كل مروياته ومعطياته سواء أكانت قانونية معتمدة أو غير قانونية مصنوعة ومزيفة .

ومما يجدر ذكره انه بعد ان عرفنا الظروف والمراحل والآراء التي حول أسفار الابوكريفا المرتبطة أو المتصلة بالعهد القديم وبعد ان تعرفنا على رأي الرافضين لها او المؤمنين بهـــا وبموقعها من العهد القديم عند أكثر من رأي وأكثر من فريق أن نعرف ببعضها بمجرد التعريف وفي إيجـاز وذلـك لعدم أهميتها من وجهة نظرنا بالنسبة لمـــا سبقها من كتب وأسفار متداولة في النسخة التي بين أيدينا والتي هي مرجع دراستنا ونقدنا للتراث الاسرائيلي في العهد القديم .

عزرا الاول :

يتضمن هذا السفر مقتطفات من سفر الايام الثاني فضلاً على احتوائه على كل سفر عزرا كذلـك يتضمن بعض اصحاحات نحميا كما يتضمن قصة عن الملك الفارسي داريوس والفتيان الثلاثة وهذه القصة لا مقابل لها في الأسفار القانونية المعتمدة وأغلب الظن عند الدارسين لأسفار الابوكريفا ان هذا السفر كتب في مصر بين اليهود الناطقين باليونانية قبل الميلاد ولا قيمة لهذا السفر فيما يرويه بعيداً عن سفري عزرا ونحميا المعتمدين .

عزرا الثاني :

هذا السفر يتناول المشكلات الاجتماعية بلغة بليغة ويعتمد كشأن بعض الأسفار القانونية على الرؤيا والبشارة ، ونظراً لأن لغته تحمل طابعـاً حزيناً وعبارة شعرية رقيقة في تناول عذب كان من أشهر أسفار الابوكريفا . وفي هـذا السفر فصلان يشكو فيهما على ضوء النصوص التي وردت فيهما رب اسرائيل شعبه ويكلف عزرا ان يعزي الشعب ويقويه والمرجح ان هذا السفر بفصليه كتبهما يهودي مسيحي بعد الميلاد بأكثر من مائة عام على الأقل .

ومعظم السفر قام على الرؤى والبشارات التي أعلنت لعزرا او استنطقها بنفسه بدليل ما جاء في أحد فقرات هذا السفر منسوباً الى عزرا نفسه قوله : (كنت في بابل واضطجعت مهموماً على فراشي وفاضت افكاري على قلبي) .

هذا ويعالج السفر مسائل متعلقة بالأمور الأخروية مثل يوم الدينونة الذي هو مصير الاشرار وهل يمكن للانسان أن يتجاوز مآثمه في آخر يوم الدينونة وكيف يمكن التوفيق بين هلاك الكثيرين وبين رحمة الله ؟ ولعله السفر الوحيد من بين الاسفار الابوكريفا الذي تناول هذه القضية المعقدة في العهد القديم بل ان معظم كتب التراث لم تتناول كثيراً من هذه الامور برأي محدد وعقيدة حاسمة ومع ذلك فهذا السفر (سفر عزرا الثاني) لم يقبله (مجمع ترانت) ولم يعتبر من الكتب القانونية المعتمدة عندهم .

سفر طوبيت :

هذا السفر عبارة عن قصة روائية مثيرة لعب فيها خيال الكاتب دوراً مهماً في تصوير الوقائع والمشاهد التي كان بصدد كتابتها (فطوبيت) هذا على ضوء ما في النصوص كان أحد الرجال المسبيين الى (نينوى) ويبدو ان ذلك كان في عصر الملك (سنحاريب) او ابنه (اسرحدون) .

ولما كان طوبيت يقوم (على ضوء سيرته) متعهد مؤونة الملك فقد اقتنى ثروة طائلة لكن تقواه وورعه الذي يقصه عليه السفر عرضه للاضطهاد فافتقر ، ويظهر في السفر دور البطل وهو ابن (طوبيت) : (طوبياس) الذي يرسله ابوه بعد ان ألم به الفقر الى أحد التجار المسبيين ليأخذ مبلغاً من المال كان لأبيه عند هذا التاجر ثم يظهر في رواية السفر دور خادم مرشد للشاب ابن طوبيت الذي يبحث عن مال أبيه هو : (عزاريا) الذي ينظر اليه في التراث الاسرائيلي وفي عقيدة بعض المشتغلين باللاهوت على انه رمز الملاك (رفائيل) وكان ذلك الملاك كما يعتقدون قد بعث استجابة لصلاة

طوبيت ولتعليم امرأة تدعى (سارة) ابنة (راجول) التي أحبها واضطهدها الشيطان (اسموديوس) لكنه في سيرة السفر وشرح كتب التراث المتعلق به تكتمل صورة (طوبيت) بالدور الذي يقوم به الملاك (رفائيل) فبفضله تمكن (طوبياس) بن (طوبيت) من صرع (اسموديوس) والتزوج من (سارة) والنجاح في الحصول على المـــال وأخيراً يعود الى بيته ليرد الى أبيه البشر ويفرح قلب أمه .

هذا المناخ الروائي الاسطوري الذي نراه في قصص أمم وشعوب كثيرة هو مضمون سفر (طوبيت) وإن كان شراح التراث يرون فيه رمزاً للاحسان واستجابة الدعوات لكنه لا برهان على ما يذهبون اليه ومع ذلك فلهذا السفر شعبية بين الأسر اليهودية عبر التاريخ اليهودي نظراً لخصوبة خيال كاتب السفر .

سفر يهوديت :

هـذا السفر مثل سفر (طوبيت) يتضمن هو الآخر نموذجاً من أعمـــال كاتب القصص اليهودي يقوم في جملته على أساس رواية عاطفية سجلت بعض الحوادث التي كانت في عصر (نبوخذ نصر) ومقاومة بعض الجماعات اليهودية لقائـده الشجاع (هولوفرنس) وتعرضهم لأنواع من المحن والشدائد التي تبرز فيها وبغير مقدمات (يهوديت) كامرأة يهودية جميلة من ذوات اليسار والغنى وكأرملة يهودية تقرر المخاطرة بكرامتها وشرفها فتخوض معركة ضد معسكر أعدائها ذلك أنه على ضوء ما روي عنها في السفر انها في ظلام الليل قررت أن تتسلل الى معسكر (هولوفرنس) وتقف أمـــامه فيستهويه سحر جمالها وبالتالي يودعها ثقته فتستطيع من خـــلال ذلك الخداع أن تفعل شيئاً لبني جنسها . وفي ذات ليلة بعد وليمة كبيرة وكان القائـد قد اطمأن كثيراً الى هذه المرأة وتركها حرة بين معسكره وفي فراشه فاستلت سيفاً وقامت بقتله غـدراً ثم عادت أدراجها الى مدينتها وقومها وأذيع في الناس هـذا العمل

العظيم الذي قامت به المرأة (يهوديت) ولا يكتفي كاتب هذا السفر بسوق الخبر لكنه يقدمه لنا في مشهد تمثيلي بحت إذ يرينا يهوديت وهي وسط بني جنسها ترفع رأس (هولوفرنس) بين يديها ويصفق لها القوم يهللون ويطربون ويرقصون .

هذا هو أهم ما احتواه وما تضمنه سفر (يهوديت) ومن الطبيعي أن يكون مؤلفه غير مهتم بالجوانب التاريخية او الدينية وبالفعل يتعذر على دارسي أسفار (الابوكريفا) أن يجد فيها أثراً ملحوظاً للحوادث السياسية أو الاجتماعية التي تسجلها الأسفار عادة وبالقطع بعض أجزاء هذا السفر أملتها ظروف حملة كسرى عاهل الفرس التي قام بها ضد فينيقية ومصر سنة ٣٥٠ قبل المسيح وهي الحملة التي كان فيها القائد (هولوفرنس) يقود المعارك .

تتمة سفر استير :

سفر استير من الاسفار المعتمدة بين كتب العهد القديم ، وهو على ما هو عليه في العهد القديم خال من الصبغة الدينية لكن هذه الاضافات التي تنسب اليه في أسفار الابوكريفا والتي كتبت على الأغلب فيما بعد الميلاد بمائة عام على الأقل تحمل الطابع الديني الذي خلى منه السفر العبري القانوني الذي اعتمدوه ولعلهم بتلك الاضافة أرادوا أن يكملوا النقص الذي في السفر العبري حيث لم يذكر فيه اسم الله كثيراً .

سفر حكمة سليمان :

في التراث الاسرائيلي مجموعة من المؤلفات يطلقون عليها (مؤلفات الحكمة) وهي من اعمال رجال يختلفون في تناولاتهم الفكرية عن رجال الكهانة ومن هذه المؤلفات أسفار : (الأمثال ، الجامعة) في الاسفار المعتمدة (وحكمة يشوع بن سيراخ وحكمة سليمان) في الاسفار غير القانونية أي بين أسفار (الابوكريفا) .

وسفر حكمة سليمان له أهمية قصوى بين اسفار (الابوكريفا) وللتعرف به وللتدليل عليه يقول (حبيب سعيد) في كتابه (المدخل الى الكتاب المقدس) حين نقارن سفر حكمـة سليمان بأسفار الحكمة القانونية في العهد القديم نجدها تمتـاز عليها لا من حيث أسلوبها الادبي والخيالي فقط بل من حيث التفكير الفلسفي واللاهوتي أيضاً ، فان القارىء يجد نفسه محمولاً على أجنحة حيث يقرأ أوصاف الكاتب للحكمة وصفاً حماسياً رائعاً ويتمثلها من جهة انها صفة شخصية لله أو شبه شخصية أو من الجهة الأخرى كأنها منحة للانسان يخلصه بها ويحييه ويجمله وهي تقدم لكل انسان ولكنها لا تخلع في الواقع إلا على الأبرار الصالحين استجابة لصلواتهم الحارة اللحوحة انتهى .

وهكذا تختلط الامور عنـد شراح التراث ويصبح غير القانوني في قوة القانوني والمعتمد المتعبد به عند القوم في رتبة غير المعتمد وما ذلك إلا لان جميع الاسفار مـا كان منهـا قانونياً معتمداً ومـا رفض ولم يعتمد لا تحكمه مضامين وغـايات وقوانين تقوم على عقيدة كامـلة في فكرة النبوة أو عمـل الرسالة الدينية والوحي الإلهي .

هذا ويطالع المؤمنون بالكتاب المقدس سفر حكمة سليمان ولا يعنيهم إن كان من الاسفار الزائفة او الاسفار المعتمدة طالما يجدون فيه ما يساعدهم على ما يذهبون اليه وما يحملونه للنصوص بغير قرينة وبغير سند فيرون فيه اكثر من أي كتاب آخر من كتب العهد القديم علاقة قوية بالعهد الجديد فيرون في سفر الحكمة معنى مؤداه عندهم (ان الله محبة) . فالله في مؤلفات العهد القديم المعتمدة رب وملك قبـل كل شيء ولكن كاتب سفر الحكـة ينفرد بجعل المحبة الباعث الاول الى الخلق ممثـلا للإله كأب يحب كل خلائقه صبور طويل الأناة في موقفه حيال الاشرار المسيئين .

هذا ويطالعنا كاتب سفر الحكمة في الاصحاح الحادي عشر فقرات ٢٤-٢٦ بالآتي : (أنت تحب كل الاشياء ، ولا تبغض شيئاً مما خلقت فانك لو كنت

تبغض شيئاً لما خلقته ، أنت تبقي كل الاشياء لأنها لك ايها الرب الملك يا محب البشر) .

وللسفر في نظر المسيحيين أصحاب العهد الجديد منزلة خاصة من حيث انه من وجهة نظر علماء العهد الجديد على وجه الخصوص أول اجتهاد للتآليف عن الحقائق التي علم بها موسى والأنبياء .

هذا وينقسم السفر الى جزئين منفصلين الجزء الاول من الاصحاح رقم ١ الى ٩ وهو في جملته يقوم على نزعة اخلاقية فلسفية تعتمد على التحذير ولا تفتقد نظرة تأمل ، والجزء الثاني من الاصحاح رقم ١٩ وهو أقرب ما يكون الى تناول الحوادث والأخبار أي انه من الممكن أن يقال عنه انه قسم تاريخي ومع ذلك فالاصحاحات من رقم ١ — ٩ تتفوق وتمتاز على الاصحاحات من رقم ١٠ — ١٩ بلغة عذبة وبيان واضح مشرق مما يؤكد ان كتّاب هذا السفر أكثر من واحد وأرجح الآراء عندي ان كتّاب هذا السفر مجموعة أو لجنة يهودية يونانية من اليهود المحافظين ومن المقيمين في مصر وان ذلك كان حوالي نهاية القرن الاول قبل الميلاد أو بعده بقليل .

سفر حكمة يشوع بن سيراخ :

هـذا السفر محدود بين مؤلفات الحكمة ومؤلفه اهتم كثيراً بالمشكلات الاجتماعية والاخلاقية ويبدو انه عاش في فلسطين وتأثر بالثقافة العبرانية فجاء الكتاب وهو صغير الحجم خالياً من الفلسفة اليونانية ومن المرجح ان كاتبه (فريسي) من الجيل القديم لذا نراه معتنياً بالسلوك البشري في معناه الواسع وقد ألمّ إلماماً كاملاً بالطبيعة البشرية ومشاكل النفس وقد جاءت بعض محتويات السفر مطابقة أو متأثرة بما جاء في سفر الأمثال المعتمد وان كان ابن سيراخ قد طور فكرة المثل المحدود وحوّلها الى ما يشبه المقال او المذكرة الصغيرة ، وفي الكتاب مقتطفات ونماذج تشهد للكاتب أو الكتّاب بأنهم اهتموا بجانب التقوى والورع .

سفر باروخ :

هذا السفر في أغلب الآراء مؤلفه كتبه في بابل في عصر السبي وقرأه على مسامع الملك (يهوه ياكين) والأسرى اليهود لانه يتضمن الاعتراف العام بالذنب ويسوق جملاً وألفاظاً على انها صلاة للرحمة كما يتضمن صوراً بلاغية على انها دعوات صادقة ولا يعيبه سوى ان هذه الدعوات تشوبها نغمات حزينة يائسة ويعلل شراح التراث سر هذه الظاهرة الحزينة اليائسة في مجال الاعتراف والدعوة في سفر باروخ ان الكاتب اضطر الى أن يصوغ ما رآه بهذه اللغة لأن حال الشعب كان يؤثر فيه كثيراً .

هذا ويحتوي السفر على جزء شعري من النمط اللاهوتي في شكل ترانيم يبدو انها أضيفت اليه تذليلاً وتعقيباً .

وتاريخ جمع هذا السفر لا يمكن معرفته بالضبط خاصة وان جزءاً منه ليس بينه وبين الجزء الآخر علاقـة فسياق كل منهما يختلف عن الآخر لغـة ومضموناً لكن يرجح البعض ان السفر جمـع في سوريا لان اليهود السوريين كانوا يستعملون مقتطفات منه في عبادتهم مرتين كل سنة .

هـذا وفي الكتاب المقدس باللغة اللاتينية وضع هـذا السفر بين الاسفار القانونية بعد مراثي ارميـا وفي قراءات الكنيسة الأسقفية خصصت دروس منـه ليوم أحد واحد وبعض ايام الاسبوع [1] . أي ان لهذا السفر أهميـة قصوى ونظرة خاصة عند اتباع العهد القديم والجديد على السواء أكان هـذا السفر معتمداً قانونياً أو غير ذلك وهذه هي أهم مشكلات ومفارقات دروس التراث الاسرائيلي في العهد القديم .

رسالة ارميا :

يبدو من سياق موضوعات هـذه الرسالة ان ارميا هو الذي كتب بعض

---

(١) (حبيب سعيد) المدخل الى الكتاب المقدس ص ١٩٩ .

موضوعاتها الى اليهود المسبيين في بابل لكن النظرة النقدية الفاحصة تؤكد ان الرسالة في جملتها ليست من وضع ارميا، ولعل ما جاء في سفر ارميا القانوني في الاصحاح التاسع والعشرين فقرة : (... هذا كلام الرسالة التي أرسلها ارميا النبي من اورشليم الى بقية شيوخ السبي)هي التي أوحت الى كاتب يهودي متأخر بفكرة ان ينشيء هذه الرسالة وينسبها الى ارميا لكي توضع بعد ذلك بين أسفار (الابوكريفا) كما ان الدارس لهذه الرسالة يجد ان فيها مشابهات كثيرة بين أجزائها وبين عبارات جاءت في ارميا مما يدل على أن نسق هذه الرسالة قد دوّن وجاء على غرار أسلوب ارميا وان الكاتب كان أمامه بعض نصوص السفر الذي اعتبر قانونياً .

والرسالة بمثابة حملة على عبادة الأوثان وتتضمن تهديداً بأن تستمر وتطول فترة السبي إذا هم ظلوا على ما هم عليه في عبادة الاوثان التي سيستمرون في عبادتها في الارض الغريبة التي سيحلون فيها أسرى كما تحث الرسالة المسبيين بأن يترفعوا عن عادات القوم الغاصبين .

وظل المشتغلون بالتراث الاسرائيلي لفترة طويلة يعتقدون ان رسالة ارميا قد كتبت في الأصل باللغة اليونانية لكن بعض الدراسات المقارنة انتهت ببعض الباحثين إلى أن يقولوا انها كتبت بالعبرانية مع انه ليس بين يديهم أبسط البراهين والأدلة على ما ذهبوا اليه وحتى الآن لم يعثر على أثر لهذه المخطوطة العبرانية المزعومة .

نشيد الفتية الثلاثة :

هذا السفر الصغير عبارة عن دعوة لكل الناس —ناس اسرائيل وحدهم— لكي تبارك الرب فتحمده وتعظمه الى الأبد — وتتحدث فقرات ومقاطع هذه الدعوة في نشيد عن عظمة الله وبهائه وفي لغة موسيقية عذبة وهو يتألف من ست وثمانين فقرة وهو موضوع في الترجمة السبعينية وفي الكتب المقدسة اللاتينية بعد الاصحاح الثالث فقرة ٢٨ من سفر دانيال القانوني أي ان هناك

بعض النسخ والطبعات من الكتاب المقدس العهد القديم على وجه الخصوص وفيها من النصوص ما هو قانوني معتمد وما هو غير معتمد وبعضه متداخل في سياق بعضه بعض . ونشيد الفتية الثلاثة يتضمن فقرات عن صلاة عزاريا في وسط أتون النار وفي فقرات هذا السفر من رقم ٢٣ — ٢٧ يكثر الحديث عن زيادة وقود النـار في الأتون ونزول المـلاك الى الأتون بالنيابة عن الفتية الثلاثة والفقرات من ٢٨ — ٦٥ تتضمن نشيد الفتية الثلاثة وهو كما قلنا عبارة عن بطاقة دعوة في لغة نشيد يدعو ناس اسرائيل للحمد وتعظيم الرب الى الابد ويرجح البحاث ان صلاة عزاريا كتبت في بـــداية حركة المكابيين التي طالبوا فيها بالحرية الدينية وهذا النشيد مطبوع في كتاب هذه الصلاة الذي تستعمله الكنيسة الاسقفية في عبادتها العامة كتسبيحة لهم في خدمة الصباح ولا بأس عنـد بعض المسيحيين المتعبدين بكل أسفـار الكتاب المقدس ان ينشدوه في آحاد صومهم .

قصة سوسنة :

يحكي هـذا السفر صورة دقيقة جداً لمـا يمكن أن تكون عليه أخـلاق واحوال بعض قيادات شيوخ اسرائيل وقضاتهم هذه الاخلاق والأحوال التي تقوم دائماً أبداً على الخطيئة والافتتان بالجنس والوقوع في أسره وخلاصة هذه القصة ان المرأة المدعوة (سوسنة) كانت على جانب كبير من الجمال والفتنة وإذ هي ذات يوم تتمشى في حديقة زوجها رآهـا شيخان من رجـال الدين اليهودي وكانا قاضيان ولما وقفت المرأة وتحدثت اليهما وقعت في قلبيهما وأثارت في نفسيهما عواطف مؤججة وشهوة ملتاعة فتقدما لهـا بمطالب مقيتة لكن المرأة وعلى غير المعهود في سيرة الشخصيات المهمة من نساء العهد القديم ردت الشيخان اليهوديان القاضيان بعنف ومـا كان عليهما على ضوء سيرتهما في قصة سوسنة إلا أن يلفقا لها تهمة الزنا ، وحوكمت أمام محكمة قضت عليها بالموت وقبيل جرها الى موقع الاعـدام في ساحة الموت تحكي قصة سوسنة ان شاباً

تدخل في هذا الموقف واسمه دانيال وأخذ يستجوب الرجلين على حدة ويستطيع في نهاية استجوابه لكل من الرجلين على حدة ان يقنع المحكمة بكذب الشيخين القاضيين ولا دلالة على القصة أكثر من هذه الرواية ويستدل من ملامحها انها ربما تكون قد كتبت قبيل الميلاد بقليل .

قصة بعل والتنين :

هذه القصة تتضمن أكثر من رواية دانيال بطلها باعتباره في هذه القصة هادم للوثنية ففقرات القصة من ١ — ٢٢ تروي انه كان في بابل تمثالاً لبعل أبى دانيال ان يسجد له بتقديم غذاء للآلهة وكانت الآلهة التي يعبدونها ويقصون أخبارها في أسفارهم تقدم لها كميات هائلة من الطعام على تصور واهم منهم انها تأكله ، ولما دخل دانيال في حوار مع الملك بخصوص هذا الموضوع طلب دانيال من الملك ان يغلق ابواب الهيكل وأن يختم الأبواب بعد أن يضع المائدة الحافلة بألوان الطعام وبعد مغادرة الكهنة للهيكل وقبل ختم الأبواب بخاتم الملك أمر دانيال أمام الملك وبعيداً عن أعين الكهنة أن ترش أرضية الهيكل بقليل من الرماد ، وفي الصباح على ضوء ما في القصة بعد أن فضت الاختام وفتحت الأبواب وجد الطعام الذي كان على المائدة مختفياً وكانت دهشة الملك شديدة لكن دانيال اطلع الملك على آثار رجال الكهنة العارية المطبوعة فوق الرماد بعد ان دخلوا خلسة من ابواب سرية وحملوا الأطعمة ليوهم الملك ان الآلهة تأكل فأمر الملك بقتل جميع الكهنة . هذه القصة واحدة من القصتين أو من أهم ما تضمنته قصة بعل والتنين بين اسفار الابوكريفا ، أما القصة الثانية فهي من الفقرات رقم ٢٣ — ٤٢ فتتحدث عن اهلاك دانيال وشجاعته في قتل التنين الذي كان يعبده الشعب لكن كل ما يعيب هذه القصة هو ما خلعه كاتبها على دانيال من كرامات إلهية تقوم على مظاهر وثنية مادية وذلك حين أشار الكاتب الى المادة السوداء الحالكة التي القاها دانيال بين فكي التنين لكي يدخل معركة قتله والتخلص منه .

صلاة منسى :

منسى هو ابن الملك حزقيا يؤخذ مما جاء في سفر الملوك الثاني في الاصحاح الحادي والعشرين فقرات ١ – ٢٨ القانوني ان منسى هبط في خـلال مدة حكمه التي استطالت خمساً وخمسين سنة الى أحط دركات الخزي والعـار في حياته الدينية وبلغ به سوء الحال الديني والاخلاقي درجة لا أمـل فيها في توبة أو خلاص ، ولكن سفر الايام الثاني في الاصحاح ٣٣ فقرات ١٢ – ١٩ يطـالع الباحث عن توبة منسى وهو أسير في بابل يحـاول ان يصلي لله وان يتوب بعد أن يقلع عن كل المآثم التي كان يقترفها ويقول بعض شراح التراث ان هذا السفر المسمى بين اسفار الابوكريفا بصلاة منسى هو عبارة عن جملة الأدعية والصلوات والتبتلات التي نطق بها الملك ليتوب ويرجع الى ربه عن كل ما اقترفه من آثام . لكن الدارس لسيرة سلسلة ملوك يهوذا لا يطمئن كثيراً الى هـذا القول فقد يكون الرجل قد تاب فعـلاً وأقلع عن خطيئته ودخل حظيرة الرب الذي يتحدث عنـه السفر لكنه من غـير المعقول ان يتفرغ لذلك الحشد من الادعيات والتضرعات والتبتلات التي فاض بها السفر الذي يحمل عنوان صلاة منسى والمرجح ان يهوديـاً في وقت متأخر قبيـل الميلاد جعل نفسه مكان منسى وجعل نفسه المعبّر عن مشاعره ونطق باسمه وأخذ يتضمن ما يقوله اعترافات بالخطيئة وابتهال لطالب الغفران .

سفر المكابيين الاول :

هـذا السفر يروي تاريخ فترة من الزمن تمتد الى أربعين سنة من جلوس (انتيخوس ابيفانوس) على العرش سنة ١٧٥ قبل الميـلاد الى موت سمعان المكابي ١٣٥ ق . م وهذا السفر هو المصدر الوحيد بالرغم من عدم قانونيته ووضعه بـين اسفار الابوكريفا الذي يتحدث عن جهـاد اليهود الجماعي في سبيل استقلالهم الديني والسياسي .

ويبدأ السفر بلمحة موجزة عن فتوحات الاسكندر ثم يسرد في استفاضة

عيوب انتيخوس ابيفانوس ومظالمـه ولا يعيب هـذا السفر مـن الناحية التدوينية إلا أن لغته لا تحمل طابعاً أدبياً او تصويرياً جيداً أي انه متهافت اللغة ضعيف العبارة ومن هنا فان كاتبه غير معروف ومع ان السفر يعبّر عن فكر يهودي محافظ غيور على الناموس والاسفار المقدسة إلا انه وسط لغته البسيطة الدارجة لم يلمح الكاتب ذكر اسم الله كثيراً .

سفر المكابيين الثاني :

المتصور والمعقول منهاجياً وتدوينياً أن يكون سفر المكابيين الثاني تتمة واستكمالاً لما جاء في المكابيين الاول لكن القارىء للسفرين لا يجـد ان سفر المكابيين الثاني يقوم بهـذا الغرض بـل هو كتاب مستقل يتضمن الحديث بالتفصيل عن ثورة المكابيين ويلخص هـذه القصة أو هذه الثورة التي تبدأ بعصر سلجوق الرابع وتنتهي بهزيـة تيكاتور والسفر يروي حوادث فـترة قصيرة ليس كالسفر الاول فالفترة التي يروي حوادثها سفر المكابيين الثـاني تمتد خمسة عشر عاماً فقط من ١٧٦ — ١٦١ ق . م وهو في جملته يتضمن حوادث هذه المرحلة وما فيه احتوته بعض الاسفار والاخبار التي شاعت في اسفار الابوكريفا لكن الجزء الأخير من هـذا السفر يتضمن الحث على بعض أمور العبادة مثل توجيه الدعوة لمراعاة شعائر عيد التكريس وعيد تيكاتور وغيره من أمور العبـادة اليهودية وينحصر اهتمام الكاتب في نهـاية السفر في الدين وطقوسه وشعائره أكثر من التاريخ وحوادثه والكاتب يعترف في سياق ما كتب انه يلخص ويجمل ويذوق ويعيد كتابة التاريخ بأسلوب بديع وهذا الذي يدعيـه لم يتحقق له فقـد كان فريسياً يبدو انـه كان خصماً لأسرة المكابيين ولذا فانه من الارجح ان يكون قد كتب ما كتبه بين ١٢٥ — ٧٥ قبل الميلاد .

هذا موجز سريع مقتضب أردنا به أن نعرف بأسفار الابوكريفا الخمسة عشر والتي لم تعتمدهم النسخة التي بين أيدينا لكننا أردنا بعد تعريف موسع

لأسفار العهد القديم التسع والثلاثين والوقوف على منهجهم ومضامينهم ومناقشة ونقد بعض أو أهم قضاياهم ألا نغفل جزءاً من هذا التراث الاسرائيلي دون ان نعرف به وإن آثرنا ألا نناقش بعض قضايا هذه الاسفار ونضعها في ميزان النقد كما فعلنا مع الاسفار القانونية .

وأردنا ان يكون عرضنا لأسفار الأبوكريفا نظرة مختصرة للتعريف خاصة وان أمر هذه الاسفار في حياة الرأي العام الديني ليس شائعاً ولا معروفاً ولا متداولاً فأردنا بعرض هـذه الأسفار أن تكون بشكل تعريف لظروف وتاريخ وأهم مقومات كل سفر منها باعتبار ان هذا الجزء من هذه الاسفار يعتبر جزءاً من التراث الاسرائيلي وانه في عقيدة أصحاب التراث الاسرائيلي لا يزال هذا الجزء يشكل ركيزة من ركائز التراث ومقومات الاخلاق عند قطاع من اتباع العهدين القديم والجديد على السواء .

الباب الثاني

مراحل كتابة كتب العهد القديم

الفصل الأول

كتابة التوراة

يعنينا بالدرجة الأولى الوقوف على مراحل وتاريخ وكيفية كتابة الأسفار الخمسة الأولى من كتب العهد القديم والمنسوبة الى النبي (موسى عليه السلام) على انها (التوراة) التي أنزلت عليه وحياً من الله تعالى . وسواء أصحت هـذه الدعوى التي تنسب الكتب الخمسة الى موسى على انهـا التوراة أو لم تصح ، وهي بالقطع لا تصح لما سنذكره بعد من دلائل وبراهين ، فانها أي الخمسة التي نعنيها هنا بالوقوف على مراحل وتاريخ وكيفية كتابتها لأنها هي المعول عنـد جميع الطوائف اليهودية ، وهي التي يستمد منهـا اليهود أسس ومقومات عقيدتهم وشريعتهم ، ومـا تلاها من كتب إنما يترتب عليها بعد ذلـك . ولأن هذه الكتب الخمسة هي التي سنجعلها المصدر الأهم والأدق في دراستنا ونقدنا للتراث اليهودي ، ولأنها بعد ذلك هي التي يمكن ان تكون وحدهـا على أساس انهـا الآن مصدر عقيـدة وشريعة اليهـود تحت الرؤية القرآنية لسماع حكم الكتاب الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

يحدثنا سفر (الخروج) (أحد الخمسة) ان موسى عليه السلام تلقى الوحي أو التوراة بادىء ذي بدء مشافهة من ربه ، وبعد ان قرأها على قومه وأخذ

الميثاق منهم على اتباعها دوّنها كتابة ، في الاصحاح الرابع والعشرين تقول الفقرات ٣ – ٨ من الخروج وبالنص : (... فجاء موسى وحدث الشعب بجميع اقـوال الرب وجميع الأحكام ، فأجاب جميع الشعب بصوت واحد وقالوا كل الاقوال التي تكلم بهـا الرب نفعل ، فكتب موسى جميع اقوال الرب ، وبكر في الصباح وبنى مذبحاً في أسفل الجبل ، واثني عشر عموداً لأسباط اسرائيل الاثني عشر ، وارسل فتيان بني اسرائيل فأصعدوا محرقات ، وذبحوا ذبائح سلامة للرب من الثيران ، فأخذ موسى نصف الدم ووضعه في طسوس ، ونصف الدم رشه على المذبح ، وأخذ كتاب العهد وقرأ في مسامع الشعب ، فقالوا كل ما تكلم به الرب نسمع ونفعل) .

وهذا النص الذي بين أيدينا يقرر ان موسى تلقى وحياً شفهياً ، ثم دوّنه كتابة ، وما كتب أقره الشعب ، وزيادة في التحوط من كاتب السفر فـانه يخـبرنا في نفس الاصحاح من الفقرات ١٢ – ١٨ ان الرب أراد ان يسجـل بخط يده : – تعالى الله – التعليمات التي للاسرائيليين ان يسيروا على هديهـا وان يلتزموا بهـا فأمر الله موسى على ضوء مـا في هذه الرواية ان يصعد الى الجبل [1] وان يمكث اربعين نهـاراً واربعين ليلاً وبعدها سيعطى الوحي مكتوباً على حجر وباصبع الله ؟.

وتريـد رواية سفر الخروج ان تقول ان للتوراة التي يتحدث عنهـا سفر الخروج اعتباران احدهما الوحي القائم على المشافهة بين موسى وربه مباشرة والثاني الكتابة مدونة باصبع الله ؟ (تعالى الله) . وبالقطع ليس في السفر جواباً لهذا السؤال الذي نطرحه وهو : لماذا كان الله يرسل تعليماته الى موسى على ضوء رواية سفر الخروج مرة مشافهة ليسجلها موسى بنفسه ، ومرة أخرى يعفي الله موسى من مهمة الكتابة ويكتب هو له على لوحي الحجر وباصبعه ثم يعطيهما لموسى ؟

(١) (سفر الخروج) اصحاح ٢٤ فقرات ٣ – ٨ – ١٢ – ١٨ .

يقول الاصحاح الرابــع والعشرون من سفر الخروج فقرات ١٢ — ١٨ (وقال الرب لموسى اصعد الى الجبل وكن هناك ، فأعطيك لوحي الحجارة والشريعة والوصية التي كتبتها لتعليمهم ، فقام موسى ويشوع خادمه، وصعد موسى الى جبل الله ، وأما الشيوخ فقال لهم اجلسوا لنا هاهنا حتى نرجع اليكم ، وهذا هارون وحور معكم ، فمن كان صاحب دعوى فليتقدم اليهما ، فصعد موسى الى الجبل ، فغطى السحاب الجبل ، وحل مجد الرب على جبل سيناء وغطـــاه السحاب ستة ايام وفي اليوم السابع دعي موسى من وسط السحاب ، وكان منظر مجد الرب كنار آكلة على رأس الجبل أمام عيون بني اسرائيل، ودخل موسى في وسط السحاب، وصعد الى الجبل ، وكان موسى في الجبل اربعين نهاراً واربعين ليلاً) .

وبعد هذه الخلوة فان موسى كما في الاصحاح الحادي والثـلاثين من سفر الخروج فقرة ١٨ : (... أعطى موسى عند فراغه من الكلام معه في جبل سيناء لوحي الشهادة لوحي الحجر مكتوبين باصبع الله) .

لكن العجيب حقاً مما تحمل سيرة وقراءات اسرائيل في العهد القديم من الغاز وأحاجي هو الاخبار التي بين يدي الباحث من اصحاحات سفر الخروج من الرابع والعشرين حتى الحادي والثلاثين فهي تطالعنا ، بأحاديث عن الوحي القائم على المشافهة وعن العهد الذي أخذه موسى من الشعب وقبـله الشعب وعن الهجرة من مصر بقيادة الرجل الذي اطلعهم على الوحي وآمنوا به نبياً ورسولاً وقائداً كذلك تطالعنا بالبشارة في سيناء من منظر مبهر يعبّر عنه في السفر بمجد الرب كنار آكلة على رأس الجبل وموسى وسط السحاب كل ذلك الذي نراه يضيع تمامـاً ويفتقد فجـأة في الاصحاح الثاني والثلاثين من نفس السفر وليس بعد فترة زمنية طويلة ولكن عقب العودة من خلوة الجبل التي كان فيها موسى وشعب عهد الوحي في انتظاره فمـــا الذي حدث من مفارقات تحدثت عنها الاصحاحات من الرابع والعشرين حتى الحادي والثلاثين

وجاء نقيضها في الثاني والثلاثين الذي حدث كما يقول الاصحاح الثاني والثلاثون. وهو فيما يقوله كأنه يرد على القائلين بعصمة ووحدة العهد القديم : ان الشعب بعد ان غاب عنه موسى اربعين يوماً ضاق ذرعـاً بالانتظار ، وأحس انه في محنة ساقه اليها موسى بعد ان غرر بهم إذ اخرجهم من مصر فقاموا الى حلي نسائهم وصاغوا منهـا عجلاً ذهبياً وقضوا وقتهم حوله يرقصون ويلعبون ويعبدون ؟ ولقد كان المشهد أمام موسى حين العودة مزعجاً للغاية الى الحد الذي عبرت عنه فقرات اصحاح سفر الخروج بأنه طرح مـا كتبه له الرب باصبعه وكسر ما كتب باصبع الرب على لوحي الحجر في أسفل الجبل .

وهنا نجد أنفسنا أمام سؤال على ضوء رواية سفر الخروج هذه ؟ الوحي الإلهي حدث لموسى مشافهة ، والعهد الديني أخـذ من بني اسرائيل في جمع من بني اسرائيل وصعد موسى الى الجبـل في وسط بشارة أو كرامـة بادية واضحة والجمع ينتظر عودته ، وردة بني اسرائيل عن موسى مسجلة وواضحة كما تقول عبارات اصحاحات سفر الخروج وعبادة الصنم من الذهب في غيبة النبي مقررة ومدوّنة ، وكسر اللوحين اللذين كتبهما الله باصبعه لموسى منسوبة ومسجلة ، هـل يمكن القول بعد ذلـك ان شيئاً مقدساً مكتوباً او محفوظاً يمكن ان يظل على ما هو عليه مذكوراً او محفوظا بين بني اسرائيل ؟ وإذا كان يمكن القول على ما يقوله السفر نفسه بعد ذلـك من ان الرب سرعان ما وجه نداء آخر الى موسى بأن يبحث له عن لوحين من حجر مثل الاولين يكتب له فيهما مثلما كتب في اللوحين اللذين كسرهما موسى فانه ليس هناك ما يمنع من تكرار الموقف السابق ، فضلاً عن أن اللوحين كتبا هذه المرة بيد موسى لا باصبع الله كما ادعى السفر في المرة الاولى . ولننظر نص السفر في الموقفين في الاصحاح الثاني والثلاثين عن نقض العهد وعبـادة الصنم [1] :

(ولما رأى الشعب ان موسى أبطأ في النزول من الجبل اجتمع الشعب على

---

(١) (سفر الخروج) الاصحاح الثاني والثلاثون فقرات ١ – ٩ .

هارون وقالوا له قم اصنع لنا آلهة تسير أمامنا لأن هذا موسى الرجل الذي أصعدنا من ارض مصر لا نعلم ماذا أصابه ، فقال لهم هارون انزعوا اقراص الذهب التي في آذان نسائكم وبنيكم وبناتكم وآتوني بها ، فنزع كل الشعب اقراص الذهب التي في آذانهم وأتوا بها الى هارون فأخذ ذلـك من أيديهم وصوره بالازميل وصنعه عجلاً مسبوكاً ، فقالوا هذه آلهتك يا اسرائيل التي اصعدتك من ارض مصر فلما نظر هارون بنى مذبحاً امامه وناد هارون وقال غداً عيد الرب فبكروا في الغد واصعدوا محرقات وقدموا ذبائح سلامه وجلس الشعب للأكل والشرب ثم قاموا للعب فقال الرب لموسى اذهب انزل لأنه قد فسد شعبك الذي اصعدته من ارض مصر زاغـوا سريعـاً عن الطريق الذي اوصيتهم به ، صنعوا لهم عجلاً مسبوكاً وسجدوا له وذبحوا له وقالوا هذه آلهتك يا اسرائيل التي اصعدتك من ارض مصر) .

(وسفر التثنية) في الاصحاح الحادي والثلاثين فقرات ٩ — ١١ يلقي هو الآخر ضوءاً لا بأس به في الكشف عن المناخ والظروف والأحوال استقبل فيهـــا أصحاب التوراة : ان مضمون الاصحاح الحـادي والثـلاثين في التثنية يتلخص ان موسى عليه السلام بعـد ان كتب التوراة في اعقاب حادث كسر اللوحين الذي ذكره سفر الخروج سلمهـا مكتوبة مدوّنة للكهنة من بني (لاوي) ولجميع شيوخ اسرائيل وأمرهم بقراءتها في نهـاية في كل سبع سنوات وأراد موسى ان يأخذ عليهم من انفسهم وامرهم بوضع كتاب التوراة بجانب تابوت عهد الرب ، ويكشف السفر سر هذا النوع من التحوط وهو ان موسى يعلم مدى فساد وزيغان قومه فماذا يقول التثنية ؟ : (... وكتب موسى هذه التوراة وسلمها لكهنة بني لاوي حاملي تابوت عهد الرب ولجميع شيوخ اسرائيل وأمرهم موسى قائلاً في نهـــاية السبع سنين في ميعاد سنة الابراء في عيد المظال ، حينما يجيء جميع اسرائيل لكي يظهروا امام الرب إلهك في المكان الذي يختاره تقرأ هـذه التوراة امـام كل اسرائيل في مسامعهم) .

ولكن شيئاً من هذا لم يحدث فلم تحفظ التوراة بجانب التابوت ولم تقرأ كل سبع سنوات وهـــذه النتيجة التي نسوقها نحن هنا ليست اجتهاداً او اخباراً بما كان لكنها نبوءة وبشارة وتوقعاً من موسى نفسه لقومه ومن حاملي تابوت الرب لأنــه : (... عندما كمل موسى كتابة كلمات هــذه التوراة في كتاب الى تمامها أمر موسى اللاويين حاملي تابوت عهد الرب قـــائلاً خذوا كتاب التوراة هذا وضعوه بجانب عهد الرب إلهكم ليكون هناك شاهداً عليكم، لأني انا عارف تمردكم ورقابكم الصلبة هوذا وانا بعد حي معكم اليوم قد صرتم تقاومون الرب فكم بالحري بعد موتي، اجمعوا إلي كل شيوخ اسباطكم وعرفاءكم لأنطق في مسامعهم بهذه الكلمات ، وأشهد عليهم السماء والارض، لأني عارف بعد موتي تفسدون وتزيغون عن الطريق الذي أوصيتكم بــه ويصبكم الشر في آخر الايام، لأنـكم تعملون الشر امام الرب حتى تغيظوه بأعمال يديكم ، فنطق موسى في مسامع كل جماعة اسرائيل بكلمات هذا النشيد الى تمامه [1] .

والى هنا والأمر لا يحتاج الى تعلق ، فموسى اعطى التوراة لجماعة من بني اسرائيل وامرهم بوضعها بجانب تابوت عهد الرب ، وهو يعلم انهم لن يعملوا أكثر من الشر الذي يغيظون به هذا الرب ، لكن واحداً من عشاق التأويلات والتخريجات اللاهوتية القائمة على الرمز قد يقول لنا : وعلى فرض صحة نبوءة موسى في بني اسرائيل حين امرهم بوضع التوراة بجانب تابوت العهد وامرهم بالحفاظ عليها واخبر بأنهم يفعلون الشرور حتى يغيظوا الرب فانه بالضرورة ان تكون شرورهم قد تناولت التوراة بالحذف او الاضافة ، لكن العجيب والغريب الذي لم ينتبه له شراح التوراة هو ان يشوع كما جاء في سفره قـام بعملية تدوين ونسخ للتوراة التي تركت مع اللاويين، على حجارة غير الحجارة التي تركها موسى وقام بعملية النسخ والتدوين هذه في ظل عهد وحكم وفريضة اخذها على بني اسرائيل وهـــذا بالقطع اقرار من السفر بأول عملية حذف

---

(١) (سفر التثنية) الاصحاح الحادي والثلاثون فقرات ٢٤ — ٣٠ .

واضافة في التوراة التي يرد ذكرها بين الاسفار الخمسة . فماذا في سفر يشوع يقول الاصحاح الثامن ومن فقرات ٣٠ – ٣٥ وبالنص [١] : (... حينئذ بنى يشوع مذبحاً للرب إله اسرائيل في جبل عيبال كما أمر موسى عبد الرب بني اسرائيل ، كما هو مكتوب في سفر توراة موسى ، مذبح حجارة صحيحة ، لم يرفع أحد عليها حديداً واصعدوا عليه محرقات للرب واذبحوا ذبائح سلامه وكتب هناك على الحجارة نسخة توراة موسى التي كتبها أمام بني اسرائيل وجميع اسرائيل وشيوخهم والعرفاء وقضاتهم وقفوا جانب التابوت من هنا ومن هناك مقابل الكهنة اللاويين حاملي تابوت عهد الرب،الغريب كما الوطني، نصفهم الى جهة جبل جرزيم ونصفهم الى جهة جبل عيبال كما أمر موسى عبد الرب اولاً لبركة شعب اسرائيل وبعد ذلك قرأ جميع كلام التوراة البركة واللعنة حسب كل ما كتب في سفر التوراة لم تكن كلمة من كل ما أمر به موسى لم يقرأها يشوع قدام كل جماعة اسرائيل والنساء والاطفال والغريب السائر في وسطهم) .

ومع ان يشوع لم يقل لنا في هذه النصوص ما الذي فعلوه بالنسخة الحجرية التي تركها موسى بعد ان كتب هو نسخة عن توراة موسى ، هل ابقوها معهم ؟ وهل كانت تصلح للقراءة وللأخذ منها، وإذا كان ذلك كذلك فلمَ كانت نسخة يشوع وعلى فروض وعهود جديدة ثم وعلى فرض بقاء النسختين معاً فأيها كان عند بني اسرائيل اكثر اهمية بل اكثر قداسة النسخة التي تركها موسى أم تلك التي نسخها يشوع عن نسخة موسى ولِمَ كان العهد وجمع يشوع الشعب عند كتابة نسخته وإذا كان الأمر يتعلق بمجرد نسخ نسخة للتداول فلمَ اقتصر على نسخة واحدة لِمَ لم ينسخوا عشرات النسخ للتداول ولذيوع النص الذي تركه موسى .

وايا كان الأمر حول النسخة التي تركها موسى وتلك التي نسخها او

---

(١) (سفر يشوع) اصحاح ٨ فقرات ٣٠ – ٣٥ .

دونها يشوع فان سفر صموئيل الاول يخبرنا عن مصير التابوت الذي كان على الاسرائيليين ان يحفظوا التوراة التي تحدثت عنها الأسفار الى جواره بناء على اوامر وتوجيهات موسى لهم ، ذلك انه امام إحدى المعارك العنيفة التي كانت بين بني اسرائيل والفلسطينيين على حد ما يزعم سفر صموئيل ، نقل الاسرائيليون التابوت من مكانه في (شيلو) الى ميدان القتال على أمل ان يجلب نصراً على اعدائهم ، لكن الدائرة تدور عليهم ويستولي الفلسطينيون على التابوت ويصبح في محلتهم ، وحتى ولو سلمنا بما يخبر به العهد القديم فان التابوت كما هو في الاصحاح السادس من سفر صموئيل الاول [1] يظل متنقلاً بين بلاد الفلسطينيين والاسرائيليين الى ان يستقر آخر المطاف في اورشليم داود وفي عهد ابنه سليمان وبعد بناء الهيكل حين نقل اليه التابوت لم يكن به سوى لوحي الحجر اما التوراة التي كتبها موسى والتي نسخها يشوع فلم يرد لهما ذكراً ، ولم يتحدث احد عن اخبار نسختي موسى ويشوع ولننظر ما يقوله صموئيل الاول في الاصحاح الرابع [2] ..(وخرج اسرائيل للقاء الفلسطينيين للحرب ونزلوا عند حجر المعونة ، واما الفلسطينيون فنزلوا في أفيق واصطف الفلسطينيون للقاء اسرائيل واشتبكت الحرب فانكسر اسرائيل امام الفلسطينيين ، وضربوا من الصف في الحقل نحو اربعة آلاف رجل ، فجاء الشعب الى المحلة ، وقال شيوخ اسرائيل لماذا كسرنا اليوم الرب امام الفلسطينيين لنأخذ لأنفسنا من شيلوه تابوت عهد الرب فيدخل في وسطنا ويخلصنا من يد اعدائنا ، فأرسل الشعب الى شيلوه ، وحملوا من هناك تابوت عهد رب الجنود الجالس على الكاروبيم وكان هناك ابنا عالي حفني وفينحاص مع تابوت عهد الله وكان عند دخول تابوت عهد الرب الى المحلة ان جميع اسرائيل هتفوا هتافاً عظيماً حتى ارتجت الارض ، فسمع

---

(١) (سفر صموئيل الاول) الاصحاح السادس فقرة ١ . وكذلك صموئيل الثاني في الاصحاح السادس فقرة ١٣ .

(٢) (سفر صموئيل الاول) الاصحاح الرابع فقرات ١ — ١١ .

الفلسطينيون صوت الهتاف فقالوا ما هو صوت هـذا الهتاف العظيم في محلة العبرانيين ، وعلموا ان تابوت الرب جـاء الى المحلة ، فخاف الفلسطينيون ، لأنهم قالوا قد جاء الله إلى المحلة ، وقالوا ويل لنا لأنه لم يكن مثل هذا منذ أمس ولا ما قبله ، ويل لنا من ينقذنا من يد هؤلاء الآلهة القادرين ، هؤلاء هم الآلهة الذين ضربوا مصر بجميع الضربات في البرية، تشددوا و كونوا رجالاً ايهـا الفلسطينيون لئـلا تستعبدوا للعبرانيين كما استعبدوا هم لكم ، فكونوا رجالاً وحاربوا، فحارب الفلسطينيون وانكسر اسرائيل، وهربوا كل واحد الى خيمتـه ، وكانت الضربة عظيمة جـداً وسقط من اسرائيل ثلاثون الف راجل وأخذ تابوت الله ، ومات ابنا عالي : حفني وفنحاص) .

وهذا النص على مـا فيه من مبالغات وخيـال يطالعنا بأخبار الحروب الاسرائيلية الفلسطينية التي كان ينكسر فيها الاسرائيليون حتى مع استحضار البركات والبشارات وشحذ الهمم لهذا الجانب الديني الضعيف أصلاً في وجدان الانسان الاسرائيلي ويطالعنا بجلد وصبر وشجاعة الانسان الفلسطيني القديم الذي يبدو انه استعبد العبراني اكثر من مرة في مواجهات سابقة عن تلك التي يحدثنا عنهـا هذا الاصحاح . وتبرز وتتضح هـذه المعاني من عبـارة الاصحاح الرابع في صموئيل التي جاءت بين السياق : (... كونوا رجالاً ايها الفلسطينيون لئلا تستعبدوا للعبرانيين كما استعبدوا هم لكم). كما يخبرنا النص بأن تابوت الله قد أخذ من ايدي العبرانيين ، لكن رقم الثلاثين الف راجل الذين سقطوا من اسرائيل مزعج للغاية ومبالغ فيه من جانب كاتب السفر فاذا كان الذين سقطوا قتلى فقط بهذا الحجم فكم كان عدد الجيش الاسرائيلي أصلاً بل كم كان عدد الشعب الاسرائيلي جميعه ؟

ومن الجدير بالذكر ان الاساطير الحبشية تروي عن التابوت الاسرائيلي في عهد سليمان ان (ابن الحكيم) الذي ولدته (مكيدا) من سليمان بطريق

غير مشروع [1] ، طلب من سليمان أبيه جزءاً من غطاء تابوت العهد ليهديه لأمه وشعبها .

وحين أجاب سليمان على سؤاله استطاع بعض مرافقيه من ابناء اورشليم بتوجيه من الكاهن (عازر بن صادوق) ان يصنعوا صندوقاً على صورة تابوت العهد ثم استبدلوه بالتابوت الأصلي وهكذا كان لابن الحكيم عند سفره من اورشليم الى الحبشة التابوت والغطاء معاً ، ودون ان يدري بأمر سرقة التابوت إلا حين وصل إلى مصر ورأى ان تماثيل آلهتها كانت فيما تقول الاساطير الحبشية تنحني للتابوت وتسجد له ، ونحن هنا لا نريد ان نعلق على هذه الاسطورة كبير اهمية في دراستنا النقدية لمراحل وكيفية تدوين كتب العهد القديم وخاصة سفر التوراة أي الكتب الخمسة التي نحن بصدد الحديث عنها . لكن الذي نود ان ننبه اليه وفي وضوح ان الدارس للتراث الاسرائيلي يجد ان الفترة التي اعقبت موت سليمان قد تعرض بعدها بنو اسرائيل لمراحل من الصراع السياسي والوان من التمزق الاجتماعي استتبع ذلك كله حدوث فجوة وهوة عميقة بين الشعب الاسرائيلي بمختلف طوائفه وبين القيادات القائمة على قيم الشريعة وكان طبيعياً ان تتسع الفجوة بين الشعب وبين البقية التي يمكن ان تكون باقية من قيم الشريعة حتى عهد سليمان ، ثم لما انتهى دور سليمان كان شيئاً طبيعياً ألا يرى الشعب الاسرائيلي جمهوره وقيادته وكهانته وشيوخه شيئاً ما مرتبطاً بقيم هذه الشريعة وبعد زمن طويل من وفاة سليمان الى عصر ظهور الملك اليهودي الذي يراه العهد القديم رجلاً فاضلاً ومستقيماً في عيني الرب واعني به (يوشيا الملك) كان الشعب اليهودي الاسرائيلي بكافة طوائفه وقياداته من عصر سليمان قد انقطعت صلته تماماً بكل ما يمكن ان تكون لديه بقية من قيم الشريعة ثم لما تولى الملك يوشيا بعد ثمانية عشر عاماً من حكمه كلف احد موظفي قصره

(١) (محمد بيومي مهران) دراسات في تاريخ الشرق الادنى القديم ج ٢ ص ٢٧ .

وهو (شافان بن اصليا بن مشلام) بأن يذهب الى بيت الرب ويقابل كبير الكهان وهو (حلقيا) ليحسب له الفضة المدخلة الى بيت الرب التي جمعت من امـوال الشعب . والأمر الذي لم ينتبه اليـه المفكرون اليهـود القدامى والمحدثون وكان يجب عليهم ان يفطنوا له ويدركوه هو انه من موت سليمان وحتى عصر ظهور يوشيا الملك حوالي ٦٢٢ قبل الميلاد اي اكثر من ثلاثمـائة عام ولا توجد أدنى معلومات عن التوراة ولم يسأل احد من الشعب او قادته عن سفر الشريعة ثم فجأة وبعد عمليات عديدة من الهـدم والبناء يكتشف الكاهن حلقيا وبطريق الصدفة المجردة (سفر الشريعة) ومتى يكون ذلك؟ عندما يرسل اليه الملك يوشيا خادمه (شافان بن اصليا بن مشلام) للمحاسبة ومراجعة الاموال المجبية من الشعب ، وعندمـا يقرأ الجميع الكاهن حلقيا وشافان والملك والشعب يدرك الجميع انهم حادوا وضلوا وزاغوا عن الطريق المستقيم ، والعجيب الغريب الذي يقصه علينا سفر الملوك الثاني في الاصحاح رقم ٢٢ ومن الفقرات ٣ – ١٣ وكذلك اخبار الايام الثاني من الاصحاح ٣٤ فقرات ٨ – ٢٨ مما يتعلق بهذه الوقائع لم يفطن اليه كما قلنا العقل اليهودي في القديم والحديث ويدرك انه امام محنة قاسية وانه واقع امـام عملية تزييف كبرى قـام الكاهن حلقيا في دعواه الكاذبة التي ادعى فيهـا انه وجد سفر الشريعة في ركن من اركان الهيكل .

إن الهيكل قبل عهد يوشيا وقبل عهد آحاز ملك يهوذا قد تعرض للنهب والعدوان ولم يكن مغلقاً على اسرار فضلاً عن ان الكهنة والسدنة والخـدم يدخلونه كل يوم وليس بالقطع فيه من الجوانب او الحجرات او السراديب شيئاً يمكن ان لا تكون قد وقعت عليه يد الكهان . ثم ان يوشيا لم يرسل الى حلقيا شافان إلا بعد مضي ثمانية عشر عاماً على ملكه كما يقول الاصحاح الثاني والعشرون من الملوك الثاني فأين كان حلقيا طوال هذه المدة ولِمَ لم تقع عينه على سفر الشريعة طوال سبعة عشر عامـاً لم يقل لنـا كاتب الملوك الثاني أي نسخة من الشريعة وجدها حلقيا أتلك التي كتبها موسى واخـذ

عليها العهد من بني اسرائيل ، أم النسخة التي خطها يشوع واضاف اليهـا ما اضاف وحذف منها ما حذف على ضوء ما في سفره أم لوحي الحجر اللذين تركهما موسى مع تابوت العهد ؟ ان شيئاً من هـــذا لم يوضحه لنا حلقيا فيما نسبت اليه الأسفار .

ولننظر الى ما يقصه علينا في هذا الشأن الاصحاح الثاني والعشرون من الملوك الثاني : (... وفي السنة الثامنة عشرة للملك يوشيا ارسل الملك « شافان ابن اصليا بن مشلام » الكاتب الى بيت الرب قائلاً اصعد الى حلقيا الكاهن العظيم فيحسب الفضة المدخلة الى بيت الرب التي جمعها حارسوا الباب من الشعب فيدفعوها ليد عاملي الشغل الموكلين لبيت الرب ويدفعوها الى عاملي الشغـل الذي في بيت الرب لترميم سلم البيت للنجـارين والبنائين والنحاتين ولشراء أخشاب وحجارة منحوتة لأجــل ترميم البيت إلا انهم لم يحاسبوا بالفضة المدفوعة لأيديهم لأنهم إنمـا عملوا بأمانة فقـال حلقيا الكاهن العظيم لشافان الكاتب قـد وجدت سفر الشريعة في بيت الرب وسلم حلقيا السفر لشافان فقرأه وجاء شافان الكاتب الى الملك ورد على الملك جواباً وقال قد افرغ عبيدك الفضة الموجودة في البيت ودفعوها الى يد عـاملي الشغل وكلاء بيت الرب واخبر شافان الكاتب الملك قائلاً قـــد اعطاني حلقيا الكاهن سفراً وقرأ شافان امـام الملك فلما سمع الملك كلام سفر الشريعة مزق ثيـابه وأمر الملك حلقيـا الكاهن واخيقام بن شافان وعقبور بن ميخا وشافان الكاتب وعسايا عبد الملك قـائلاً اذهبوا اسألوا الرب لأجلي ولأجل الشعب ولأجل كل يهوذا من جهة كلام هذا السفر الذي وجد لأنه عظيم هو غضب الرب الذي اشتعل علينا من أجــل ان آباءنا لم يسمعوا لكلام هذا السفر ليعملوا حسب كل ما هو مكتوب علينا) .

ونفس النص تقريباً يسوقه عن هذه الواقعة نفسها سفر أخبار الايام الثاني في الاصحاح الرابع والثلاثين وقد أراد كتّاب السفرين : الملوك الثاني واخبار

الايام الثاني بمـــا اورداه للتدليل على حفظ وصون سفر الشريعة لكنهم لم يفطنوا الى الخلل الموضوع والتدوين الذي جاء بين سياق ما ورد في السفرين فضلاً عن عدم إلمامهم بما سبق الحادثة التي يروونها في السفرين مما يجعل قبول مـا في السفرين عن سفر الشريعة المكتشف على يـد حلقيا متعذراً بل وغير متصور على الاطلاق .

يقول الاصحاح الرابع والثلاثون من سفر اخبار الايام الثاني فقرات ٨ — ٢٢ : (في السنة الثانية عشرة من ملكه بعد ان طهر الارض والبيت ارسل شافان ابن اصليا ومانسيا رئيس المدينـة ويوآخ بن آحاز المسجل لأجـل ترميم بيت الرب إلهه ، فجاءوا الى حلقيا الكاهن العظيم واعطوه الفضة المدخلة الى بيت الله التي جمعها اللاويون حارسوا الباب منسى وافرايم ومن كل بقية اسرائيل ومن كل يهوذا وبنيامين ثم رجعوا الى اورشليم ودفعوها لأيدي عاملي الشغل المـوكلين في بيت الرب فدفعوها لعاملي الشغـل الذين كانوا يعملون في بيت الرب لاجـل اصلاح البيت وترميمه واعطوهـا للنجارين والبنـائين ليشتروا حجارة منحوتة وأخشاباً للوصل ولأجل تسقيف البيوت التي أخربهـا ملوك يهوذا وكان الرجـــال يعملون العمل بأمانة وعليهم وكلاء : تحت وعوبديا اللاويان من بني مراري وزكريا ومشلام من بني القهاتيين لاجل المناظرة ، ومن اللاويين كل ماهر بآلات البناء وكانوا على الحمـال ووكلاء على كل عـامل شغل في خدمة فخدمه وكان من اللاويين الكتّاب وعرفاء وبوابون . وعنـد اخراجهم الفضة المدخلة الى بيت الرب وجد حلقيا الكاهن سفر شريعة الرب فأجاب حلقيا وقال لشافان الكاتب قد وجدت سفر الشريعة في بيت الرب وسلم حلقيا السفر الى شافان فجـاء شافان بالسفر الى الملـك ورد الى الملك جواباً قائلاً : كل ما أسلم ليد عبيدك هم يفعلونه وقد افرغوا الفضة الموجودة في بيت الرب ودفعوها ليد الوكلاء ويد عاملي الشغل واخبر شافان الكاتب الملك قائلاً : قد اعطاني حلقيا الكاهن سفراً وقرأ فيه شافان امام الملك ، فلما سمع الملك كلام الشريعة مزق ثيابه وأمر الملك حلقيا واخيقام بن شافان

وعيدون بن ميخا وشافان الكاتب وعسايا عبد الملك قائلا : اذهبوا اسألوا الرب من أجل من بقي من اسرائيل ويهوذا من كلام السفر الذي وجد لأنه عظيم غضب الرب الذي انسكب علينا من أجل ان آباءنا لم يحفظوا كلام الرب ليعملوا حسب كل ما هو مكتوب في هذا السفر .

هذا هو نص ما جاء في اخبار الايام الثاني ولا تفسير عند اتباع وشراح العهد القديم لهذا التوافق العجيب في رواية الحدث الواحد في سفرين بينهما حقبة زمنية طويلة وبالقطع أحدهما ولو في مراحل التدوين فقط متقدم عن الآخر فلِمَ لم يكتف اللاحق بالاشارة الى هذا الحادث الذي كتبه السابق أو من يعرضه لكن بصياغة يخالف بها احدهما الآخر ، وأياً كان الامر فهذان المصدران من كتب العهد القديم يريدان أن يقولا : إن سفر الشريعة في عهد يوشيا كان موجوداً ومتداولاً وان حلقيا لم يكن له دور اكثر من كونه مكتشفاً لسفر الشريعة ، والسؤال الذي بين أيدينا هو ما الذي جعل حلقيا الكاهن على فرض صحة الرواية التي تقول انه عثر على سفر الشريعة في ركن من اركان الهيكل ما الذي جعله يوقن ان ما وجده كان هو سفر شريعة الرب الذي كان بيد موسى كما يقول اخبار اليوم الثاني محدداً على غير ما فعل الملوك الثاني خاصة وان السفر كما تؤكد عبارات اصحاحاته يقول ان الآباء وبالقطع بينهم آباء حلقيا لم يعرفوا ولم يحفظوا كلام الرب فمن أين عرف حلقيا ان ما عثر عليه من نصوص هو كلام الرب خاصة وان عهد الآباء والابناء بكلام الرب كما يقول النص انهم لم يعرفوا ولم يحفظوا كلام الرب .

وإذا لم يكن حلقيا هو الذي ألف وصنع ما قدمه من نصوص وما صنعه من سفر لشافان فمن أين له ان يعتقد ان ما عثر عليه هو سفر شريعة الرب ، لِمَ لا يكون مدسوساً في البيت اعني في الهيكل من اعداء يهوذا واسرائيل ، ثم ولماذا لم يتحقق الملك هو الآخر هذا الملك الذي تعبر عنه الاسفار بأنه يعمل المستقيم في عيني الرب اعني يوشيا الملك لماذا لم يتحقق من سلامة

وصحة اكتشاف حلقيا خاصة وإنه طوال سبعة عشر عاماً من ملكه واخبار الهيكل تأتيه . ولا معلومة واحدة قد وصلته عن سفر الشريعة ، ولم يكن قد كلف احداً بالبحث عنه فضلاً عن انقطاع صلة الشعب والكهان بنصوص سفر الشريعة وما بقي منها إذا كان قد بقي شيء فهو ما حفظته الذاكرة في وعي بعض الرجال عبر أجيال طويلة . فاذا لم يكن الحادث حادث اكتشاف حلقيا لسفر الشريعة المدعي في السفرين المذكورين مسرحية مدبرة بين الملك يوشيا وكاتبه شافان والكاهن حلقيا فالذي لا جدال فيه ان حلقيا يكون قد نجح في اقنـاع الشعب والملـك بهذه الاكذوبة التي سجلتها فقرات السفرين المشار اليهما آنفاً .

وفي هذا يقول العلامة رحمه الله (رحمة الله بن خليل الرحمن الهندي) في كتابه (اظهار الحق) : (العجب كل العجب ان تكون النسخة في البيت لا يراها احد فهذه النسخة ما كانت إلا من مخترعات حلقيا فانه لما رأى توجه السلطان والاراكين إلى اتباع الملة الموسوية جمعها من الروايات اللسانية التي وصلت اليه من افواه الناس سواء كانت صادقة أو غير صادقة وكان الى هذه المدة يقصد فترة حكم يوشيا في جمعها وتأليفها فبعدما جمـع نسب الى موسى عليه السلام ، ومثل هذا الافتراء والكذب لترويج الملة واشاعة الحق كان من المستحبات الدينية عند متأخري اليهود وقدماء المسيحيين)[1] .

ويجدل علمي متزن راح (رحمة الله) في كتابه (اظهار الحق) يناقش حادث اكتشاف حلقيا لسفر الشريعة ويقول : (ولكني اقطع النظر ها هنا عن هذا وأقول[2] انه وجدت نسخة التوراة في العام الثامن عشر من سلطنة

---

(١) (اظهار الحق) (رحمة الله بن خليل الرحمن الهندي) اخراج وتحقيق عمر الدسوقي الجزء الاول وزارة الشؤون الاسلامية بالمملكة المغربية مكتبة الوحدة العربية بالدار البيضاء عام ١٩٦٤ ص ٣٢٥ .

(٢) المرجع السابق ص ٣٢٦ .

يوشيا وبقيت معمولة إلى ثلاث عشرة سنة مدة حيـــاته ، ولما مات جلس (يهوحاز) على سرير السلطنة ارتد وأشاع الكفر وتسلط عليه سلطان مصر وأسر وجلس أخاه على سرير السلطنة وهو كان مرتداً كأخيه ، ولمـا مات جلس ابنه على السرير وكان مرتداً كأبيه وعمه وأسره بختنصر مع جم غفير من بني اسرائيل ونهب بيت المقدس وكنز بيت الملك واجلس عمه على سرير السلطنة وكان مرتداً ايضاً كابن أخيه فاذا على هذا فأقول : ان تواتر التوراة في اليهود منقطع قبـــل زمان يوشيا والنسخة التي وجدت في عهده لا اعتماد عليها ولا يثبت بها التواتر ، ومع ذلك ما كانت معمولة إلا إلى ثلاث عشرة سنة وبعدها لم يعلم حالها ، والظاهر انه لما رجع الارتداد والكفر بين اولاد يوشيا زالت قبل حادثة بختنصر وكان وجودها بين أزمنة الارتداد ولو فرض بقاؤها او بقاء نقلها فالمضمون زوالها في حادثة بختنصر) .

هـذا ومن المؤكد ان اليهود في مرحلة السبي والتي تكررت مرات بعـد هجمـة نبوخذنصر لم يكونوا يتداولون فيما بينهم ولو سراً شيئاً من سفر الشريعة ولم يشر الى ذلك واحد من انبياء مرحلة السبي الذي فاض بذكرهم العهد القديم باستثناء (عزرا) الذي شرع يقرأ على العائدين طوال يوم كامل ما قيل عنه انه (سفر شريعة موسى) ولما فرغ من قراءتها ومجموعة المعاونين له أقسم الكهنة والزعماء على ان يطيعوا هذه الشرائع ويتخذوها دستوراً لهم وأغلب الظن عندي ان مجموعة الشرائع التي قرأها (عزرا) حين العودة على انها سفر شريعة موسى ليست هي سفر الشريعة وليست هي كذلك السفر الذي ادعى حلقيا انه سفر الشريعة في عهد يوشيا وذلك لسبب واحد وبسيط وهو ان سفر الشريعة الذي ادعى حلقيا العثور عليـه قرأه على الملك في يوم واحـد أو في جلسة واحدة ثم بكوا بعدهـا جميعاً بينما الشرائع التي قرأهـا عزرا على الشعب حين العودة على انها من سفر الشريعة احتاجت في نصوصها الى اسبوع كامـل كما يقول (نحميـا) في سفره بالاصحاح الثامن يقول في الفقرة ١٣ : (وفي اليـوم الثاني اجتمع رؤوس آباء جميع الشعب والكهنة

واللاويون إلى (عزرا) الكاهن ليفهمهم كلام الشريعة) والفقرة رقم ١٨ من نفس السفر في نفس الاصحاح المنسوب لنحميا تقول : (وكان يقرأ في سفر شريعة الله يوماً فيوماً من اليوم الاول الى اليوم الاخير وعملوا عيداً سبعة أيام وفي اليوم الثامن اعتكاف حسب المرسوم) .

واعتقد انه بهذه المقابلة بين الموقف الذي قرأ فيه حلقيا الكاهن سفر الشريعة أمام الملك وبين الايام التي كانت تقرأ فيها الشريعة على يد (عزرا) يوم بعد الآخر يتأكد لنا ان هذه التي كان يقرأها حلقيا غير تلك التي كان يقرأها (عزرا) .

ويكاد يجمع علماء الحضارة وفيهم : (ول ديورانت) [١] (واسبينوزا) [٢] على ان اليهود قد قاموا بتجميع ما سمي بالتوراة أثناء السبي البابلي في شكل شرائع وتعاليم وانهم كتبوا هذه الشريعة التي أرادوا بها ان ينظموا مجتمعهم ولقد كتبت هذه التعاليم بتأثير من قوانين حمورابي .

ولئن كنا هنا لا نريد ان نقول ما يقوله علماء الغرب عن التشابه الكبير بين قوانين حمورابي وقوانين التوراة وشرائع العبرانيين [٣] فان الذي لا شك

---

(١) يقول (ول ديورانت) في (قصة الحضارة) في الجزء الثالث من المجلد الثاني طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر الطبعة الثانية في صفحة ٩٣ : (... كتب اليهود بالعبرية او الارامية او اليونانية روائع خالدة كأسفار الجامعة ودانيال وأجزاء من الامثال والمزامير والجزء الأكبر من الأسفار الابوكريفية ، كتبوا بعضها في أورشليم ومعظمها في الاسكندرية وبعضها الآخر في غيرهما من موانيء شرق البحر الابيض المتوسط وكتبوا تواريخ كسفر الاخبار وقصصاً صغيرة كأستير ويهوديت وأناشيد للأسر كسفر طوبيت .. ويقول ديورانت وقبل ان يختم القرن الثالث كان علماء المجمع العظيم قد فرغوا من نشر الأدب القديم كله وانتهوا بكتب العهد القديم ، وقد حكموا في ذلك الوقت ان عصر الانبياء قد انتهى وان الوحي اللفظي قد انتهى زمنه ، وكانت نتيجة هذا الحكم ان كثيراً مما كتب في ذلك العصر وان كان مليئاً بالحكمة والجمال لم تتح له فرصته من السند الإلهي) .

(٢) (اسبينوزا) رسالة في اللاهوت والسياسة .

(٣) (محمد بيومي مهران) دراسات في تاريخ الشرق الأدنى ج ٢ ص ٣٧ .

فيه ان التوراة الحالية التي بين أيدينا ومن خـــلال الاسفار الخمسة في العهد القديم قد مرت مراحل متعددة تطورت خلالها مادتها الاخبارية وتغيرت بالطبع أساليب تدوينها وتسجيلها بل لقد تغيرت وظيفة النبي والكاهن من حال الى حال فطوراً يقوم بدور القاضي وآخر يقوم بدور السياسي والثالث يقوم بدور مقيم الشعائر وحارس الهيكل ورابع في خدمة المحتل او المستعمر عدو رب الشعب والشعب وهكذا بل تغيرت صفات ومعالم العقيدة الدينية التي تعرضها الأسفار الخمسة من مرحلة عن الأخرى وكان ذلك بأثر التنقيح والحـــذف والاضافة الذي تعرضت له الاسفار الخمسة ونعتقد ان النسخة الأصلية لم يعد منها متداولاً او معروفاً إلا ما علق بذهن بعض الكهان وكان نقله بهذا الشكل الضيق المحصور المتمثل في النقل الشفهي عبر أجيـال بعض الكهان ثم كان يتداول على بعض الالسنة كتراث ديني وقومي ، وظل الحال على هـذا المنوال دون ان يكون بين ايدي الشعب كتاباً مدونـاً أو مسجلاً يتداول على انه سفر الشريعة حتى العودة من السبي وبعد عـدة أجيال بـدأ تدوين التوراة العبرية مما انتهى وتناهى الى الكهان وخاصة في أعقاب عملية التخزين والاستحضار التي قـام بها بعضهم في ظل القهر البابلي وقـد أخذت الاسفار الخمسة صورة أقرب ما تكون الى وضعها الحالي في كتب العهد القديم ثم تناولتها يد التنقيح منذ هذه المرحلة بعد العودة من سبي بابل حتى قيـام دولة الاسكندر ، بل ان هنـاك بعض الباحثين المعاصرين من يرى على ضوء دراسته لتاريخ حركات الشعوب في الشرق الادنى القـديم ان اسفـار بعض كتب الانبياء في العهد القديم فيما ترويه من حوادث وأخبار تاريخية ترجح انها اقدم من الكتب الخمسة المسماة (بالتوراة) والى مثل هذا الرأي يذهب الاستاذ الدكتور نجيب ميخائيل في كتابه الموسع (مصر والشرق الادنى القديم) الجزء الثالث صفحة ٢٠٣[1]. ومع اننا قد لا نرجح مثل هذا الرأي

(١) (نجيب ميخائيل) مصر والشرق الادنى ج ٣ ص ٢٠٣ الاسكندرية عام ١٩٦٦ .

الذي يذهب اليه الاستاذ الدكتور نجيب ميخائيل بالرغم من اهميته إلا انـه يصبح في مجـــال التأريخ لمراحل تدوين الكتب الخمسة والتعرف على هذه المراحل عاملاً مساعداً على الكشف عن كامل ما يحيط بمراحل تدوين الكتب الخمسة من غموض . كما انه يعاون في التدليل على ان هذه الكتب لم تحفظ قبل عصر السبي بالتواتر ولم تنقل الينا كما هي دفعة واحدة وإنمـا تمت لهـا عمليات من التتميم والتكميل وأصبحت على حال غير الحال الذي تركه عليها نبي الله موسى عليه السلام بين بني اسرائيل. وإن كان هذا القول لا يعود بتاريخ التوراة التي في العهد القديم الى ما قبل العودة من السبي لا يمنع من انـه قد يكون بين سياق الكتب الخمسة فكراً بشرياً مدوناً اقرب ما يكون الى روح مـا أملاه بعض الكهان حين تم تدوين التوراة العبرية ممـا كان عالقـاً بذهنهم عن اخبار سفر الشريعة أي تعاليم التوراة . أما نص الوحي الإلهي الذي تلقاه موسى والذي دوّن على لوحي الحجر أو حتى النسخة التي نسخها يشوع عن نسخة موسى فيما روت الاسفار لو صحت روايتها فان شيئاً من هذا لم يثبت تواتره ولم ينته الينا عبر الاسفار الخمسة أو غيرهـا من كتب العهد القديم .

الفصل الثاني

كتابة الأسفار

يطالعنا في العهد القديم بعد الاسفار الخمسة مباشرة (سفر يشوع) ومضمون هذا السفر يؤكد لنا ان يشوع هو بطل السفر والشخصية الرئيسية فيه لكنه بالقطع ليس كاتبه، وان كانت بعض المصادر اليهودية تصر على ان كاتب السفر هو يشوع لكن (كلفن) يرى ان الكاتب للسفر هو (اليعازر بن هارون) وان كان آخرون يرون انه فيدحاس أو صموئيل أو ارميا ولأن السفر يتضمن معلومات موت يشوع ومكان دفنه وعدد سني عمره حين موته كما هو في الاصحاح الرابع والعشرين من فقرتي ٢٩ — ٣٠ واخبار عن جبال يهوذا واسرائيل كما هو في الاصحاح الحادي عشر فقرة ٢١ التي تتحدث عن غزة وأشدود وحبرون فيصبح من المتيقن ان يشوع لم يكتب السفر الذي يحمل اسمه أو على الأقل لم يكتب معظم ما جاء فيه لأن بعض ما جاء فيه كما تقول الفقرة ٢٦ من الاصحاح ٢٤ صراحة قد كتبه يشوع إذ تقول : (... وكتب يشوع هذا الكلام في سفر شريعة الله وأخذ حجراً كبيراً ونصبه هناك تحت البلوطة التي عند مقدس الرب) [1] .

---

(١) (سفر يشوع) الاصحاح الرابع والعشرون فقرة ٢٦ .

أمـا وقت كتابة السفر جملة أو الدخول في تدوينه فهو في وقت متأخر كثيراً عن عصر يشوع فهناك اشارات منه على انه كتب قبل عهد داود بقليل فهو يذكر مدينة صيدا على انها عاصمة الفينيقيين وعلى ان اليبوسيين ما يزالون من سكان اورشليم [١] وعلى ان الكنعانيين كانوا يسكنون في جازر ، وهناك اشارات منه ايضاً كما في الاصحاح الثامن عشر وفي الفقرات الاولى منه مـا يوحي بأنه كتب زمان السبي البابلي [٢] وهناك من العلماء المعاصرين ومنهم الدكتور فؤاد حسنين علي يرى ان سفر يشوع جمـع في القرن الخامس قبـل الميلاد بالرغم من وجود فقرات فيه توحي ان زمن كتابته يرجع الى القرن التاسع قبل الميـلاد [٣] هذا ويقول الاصحاح الثامن عشر من سفر يشوع : (... واجتمع كل جماعة بني اسرائيل في شيلوه ونصبوا هناك خيمة الاجتماع واخضعت الارض قدامهم وبقي من بني اسرائيل من لم يقسموا نصيبهم سبعة اسباط فقال يشوع لبني اسرائيل حتى متى أنتم متراخون عن الدخول لامتلاك الأرض التي اعطاكم إياها الرب إله آبائكم هاتوا ثلاثة رجـــال من كل سبط فأرسلهم فيقوموا ويسيروا في الارض ويكتبوها بحسب أنصبتهم ثم يأتوا إلي وليقسموها إلى سبعة أقسام فيقيم يهوذا على تخمه من الجنوب ويقيم بيت يوسف تخمهم من الشمال وانتم تكتبون الارض سبعة أقسام ثم تأتون الى هنا فأقيم لكم قرعة ها هنا أمام الرب إلهنا .

ونقاد العهد القديم يرون في لغة هذه الفقرات وسياقها مـا يشعر بل وما يؤكد بأنها كتبت بعد السبي حتى مع ورود ذكر للاويين بعدها ، ذلك ان تقسيم الانصبة والتراخي عن دخول الارض التي سيمتلكونها واحضار رجال

---

(١) (محمد بيومي مهران) دراسات في تاريخ الشرق الادنى ج ٢ ص ٣١ .

(٢) (سفر يشوع) الاصحاح الثامن عشر فقرات ١ — ٦ .

(٣) (فؤاد حسنين علي) : (التوراة الهيروغليفية) دار الكاتب العربي للطباعة والنشر صفحة ٦٤ القاهرة بدون تاريخ .

من كل سبط ليكتبوا الارض بحسب الأنصبة واقامـة بيت يهوذا على تخم في الجنوب وبيت يوسف على تخم في الشمال ، كل ذلك من الأحوال والاوضاع التي لازمت اليهود عقب العودة من السبي وأثناءه .

وسفر القضاة الذي ينسب إلى مجموعة من الرجال تحدث السفر عنهم بأن الله قد أعانهم على انقاذ الاسرائليين وتدبير أمورهم بعد سلسلة من الكوارث على يـــد سكان الارض الأصليين فان شراح التراث الاسرائيلي من اليهود والمسيحيين يذهبون الى أن كاتبه هو صموئيل وهذا الرأي لا سند له من شواهد أو براهين تاريخية او نصية خاصة وان لصموئيل سفر طويل كان يمكن ان تساق فيه وان تدوّن مرويات القضاة لو كان هو الكاتب لهذا السفر ، على ان بعض الدارسين للعهـد القديم يرون ان خصائص لغـة سفر القضاة تؤكد ان مجموعة كتّاب هم الذين قاموا على أمر تدوين هذا السفر وان زمن كتابته ، وتدوين مروياته كان فيما بـين الفترة من ٦٠٠ — ٤٩٠ ق . م وقـد يكون هذا الرأي الاقرب الى مضمون السفر هذا وسفر (راعوث) هو الآخر من الاسفار التي طال الجدل حول شخصية مؤلفـه مع ان بعض نصوص التلمود تنسب كتابته الى صموئيل صراحة ، بينما هناك رأي يهودي يميل الى ان كاتبه (حزقيا) في الوقت الذي ترجح فيه اللجنة العلمية لقاموس الكتاب المقدس ان كاتبه هو (عزرا) أو (نحميا) .

أما سفر صموئيل بجزئيه الاول والثاني فقد كان سفراً واحـداً وبدون تقسيم ولم يصبح هكذا إلا في الترجمـة السبعينية واطـلاق اسم صموئيل على السفرين لا يعني بالضرورة أن يكون هو كاتبهما بل اشارة الى اهتمام السفرين بشخصية صموئيل ونسبة السفر الى صموئيل على أنه هو كاتبه كما يزعم التلمود غير صحيح فيكفي ان سفر صموئيل الاول في الاصحاح رقم ٢٥ وفي الفقرة الاولى عبارة تتضمن خبر موت صموئيل فضلاً عن افتقاد السفر بجزئيه لوحدة الموضوع بين سياق السفرين كما سبق وان قررنا بذلك عند التعريف بهما ،

من أخبار الكهنة والتابوت الى سيرة صموئيل وشاول الى ظهور نجم داود واعتلائــه عرش المملكة الى غير ذلـك من القضايا التي فاض بها السفران لا يمكن ان تنسب الى جهد رجل واحد دون كل ذلك الحشد الطويل من الاخبار والأحداث فضلاً عن ان يكون هو بطل ومحرك هـذه الحوادث وكما يقول الدكتور مراد كامل في كتابه (الكتب التاريخية في العهد القديم) يبدو ان تأليف السفرين استغرق حوالي مائة عام في الفترة من ٨٥٠ – ٧٥٠ ق . م فانه من غير المعقول ان تكون كل تلك الفترة الطويلة يقوم فيهـا وخلالهـا رجل واحد يدوّن ما تضمنه السفران ، والمرجح عندنا ان الكهنة من بيت اسرائيل كانوا يوظفون مجموعة من مـــدوّني الحوادث يتفرغون لتدوينها وتسجيلها ولذا تجيء في معظم الاحوال وفيها ذلك التصوير الجيد والعرض الطيب الذي نراه في الكتب التاريخية على وجه الخصوص [١] .

هذا ويذهب بعض شراح التراث الى أن صموئيل كتب الأربعة والعشرين اصحاحاً الأولى وان ناثان وجاد النبيان اكملاها معتمدين في ذلك على ما جاء في أخبار الايام الثاني في الاصحاح رقم ٢٩ عند قوله في الفقرتين ٢٩ ، ٣٠ : (وعند انتهاء المحرقة خرّ الملك وكل الموجودين معه وسجدوا وقال حزقيا الملك والرؤساء اللاويين ان يسبحوا الرب لكلام داود وآساف الرائي فسبحوا بابتهاج وخرّوا وسجدوا) .

وأما سفر الملوك الاول الثاني فيزعم التلمود ان كاتبها هو (ارميا) ولكنه زعم لا يستند الى دليل خاصة وان السفر تمتد حوادثه الى مـــا بعد عصر ارميا، ويظن بعض شراح التراث ان كاتب السفرين هو (باروخ أو عزرا)[٢] وعلى أية حال فقــد كان السفران في النص العبري سفراً واحــداً ثم فصلا في الترجمة السبعينية .

---

(١) (مراد كامل) الكتب التاريخية في العهد القديم معهد الدراسات العربية العالي .

(٢) (قاموس الكتاب المقدس) ج ٢ ص ٩٢٠ .

ومن الجدير بالذكر ان الفيلسوف (اسبنوزا) في دراسته النقدية الدقيقة للكتاب المقدس والتي ضمهـا كتابه الجديد (رسالة في اللاهوت والسياسة)، يرى ان اسفار صموئيل الاول والثاني والملوك الاول والثاني واخبار الايام جميعها جمعها مؤلف واحد أراد أن يروي تاريخ اليهود القديم منذ نشأتهم الأولى حتى خراب أورشليم الاول ويدلل اسبنوزا على رأيه هـذا بدلائله النقدية الكثيرة ومن بينها فيما يذهب اليه تتابع الروايات والربط بينها وتحديد غاية معينة جعلت الاسفار عنده تتميز بخصائص ثلاث وحدة الغرض وارتباط الروايات وتدوينها المتأخر بعد الحوادث بعدة قرون هـذا ويرجح اسبنوزا ان الكاتب الذي قـام على جمع هذه السلسلة من الكتب هو (عزرا) لان الروايات كلها تنتهي عنده وعليها فيصبح عمل (عزرا) عند (اسبنوزا) هو جمع الروايات من كتب او من مأثورات التراث الشعبي المتداولة على الألسنة ثم نسخها ونقلها دون ترتيب أو تحقيق وهو بهذا يحاول ان يفسر سر وجود نفس الروايات بالفاظ تختلف قليلاً أو كثيراً عنها في عدد من الأسفار وهذا مما يؤكد أن الفاظ الروايات قد دوّنت بعد الأحداث التي تتعرض لها بزمن طويل ، ومن هنا فقد كانت عند (اسبنوزا) مهمة (عزرا) صعبة ذلك لأنه لم يستطع إلا ان ينقل الروايات دون تحقيق ومن هنا جاءت النصوص في معظم هـذه الكتب منقوصة ومتعارضة لان مصادرها عديـدة ولم يطلع بعض الكتّاب على ما كتب بعضهم وحين حاول الاحبار والكهان بعد ذلك التوفيق بين هذه الأسفار لم يفلحوا ولعل هذا ما يخفف من امكان توجيـه النقد الى مجموعة الكتّـاب الذين أشرفوا على مجموعة الاسفار التي تنـاولها (اسبنوزا) بالنظر على ان كاتبهـا هو (عزرا) فقد كان هؤلاء الكتّـاب المفترض انهم كانوا يعملون تحت اشراف (عزرا) وبتوجيهه يأخذون معلوماتهم من مصادر شتى ومن هنا جـاء ذلك الخلل والتباين الذي بين نصوص هـذه الأسفار في الرواية والتدوين .

وأما سفر الايام الاول والثاني فيبدو ان كتابتهما كان متأخراً الى حد ما

عن غيرهما ، فهناك من يذهب الى انهما قد صنفا في الفترة بين ٤٠٠ — ٣٥٠ قبل الميلاد على حين يذهب آخرون الى ما هو أقرب الينا من هـذا التاريخ إذ يرى انهما كتبا بين ٣٠٠ — ٢٥٠ قبل الميلاد ويعتمد في ذلـك على امتداد تسلسل النسل ، وعلى اخبار في الايام الثاني فيها ذكر لكورش ملك الفرس مما يرجح ان عصر الفرس حين كانت تدوّن مرويات هـذا السفر قـد انتهى تماماً ، إذ لو كان حكم الفرس قائماً لاكتفى بذكر اسم (كورش) فقط دون ان تجيء الفقرة قبل الاخيرة من الاصحاح السادس والثلاثين من أخبار الايام هكذا : (وفي السنة الاولى لكورش ملك فارس لأجل تكميل كلام الرب بفم ارميا نبيّه الرب روح (كورش) ملك فارس فأطلق نداء في كل مملكته وكذا بالكتابة قائلاً هكذا قال كورش ملك فارس) [١] .

هذا ومن المرجح عنـد كثير من المشتغلين بالدراسات الاسرائيلية انـه بالمقابلة بين آراء (عزرا) وبين مضامين السفرين يتأكد ان كاتبهما هو (عزرا) لكنه في نفس الوقت وعند فريق آخر من علماء التراث الاسرائيلي لا يكتفي بعدم وجود دليـل بأن (عزرا) هو كاتب السفرين بـل يستبعد ان يكون (عزرا) قد كتب أو عاصر كتابتهما ، بل ان (اسبنوزا) يرى انهما قـد كتبا بعد زمن(عزرا) بفترة طويلة قد تكون بعد اعادة الهيكل .

وكذلك الحـال في سفري (عزرا ونحميا) اختلف في تاريخ ومراحل كتابتهما كثيراً كذلك اختلف في مَن كتبهما وإن تكن فيهما عند بعض الباحثين والدارسين لها بعض الفقرات التي يمكن ان تكون من صنعهما،لكن السفران في وضعهما الحالي لم يكتبهما (عزرا) أو (نحميا) ، وذلك بقرائن كثيرة تنفي صلة الرجلين بالسفرين، فنحميا في الاصحاح الثاني عشر فقرة ٢٢ يورد سلسلة من الكهان بينهم الكاهن (يبدوع) على انه واحد من رؤوس

---

(١) (سفر اخبار الايام الثاني) الاصحاح السادس والثلاثون فقرتا ٢٢ - ٢٣ .

الآباء في عصر (داريوس) الفارسي بينما (يبدوع) كان رئيس الكهنة في عصر الاسكندر الاكبر وذلك الخبر وحده يؤكد ان السفر في وضعه الحالي لم يتم إلا بعد عام ٣٠٠ ق . م [١] .

تقول فقرة الاصحاح الثاني عشر في نحميا : (وكان اللاويون في أيام الباشيب ويواداع ويوحاناان ويبدوع مكتوبين رؤوس آباء والكهنة ايضاً في ملك داريوس الفارسي . كذلك فان الاصحاح رقم ١٢ في فقرتي ٢٦ ، ٤٧ نراه يتحدث عن عصر (زربابل) (وعزرا) (ونحميا) بصيغة الماضي ، كذلك يذكر نحميا في الفقرة ٢٢ من الاصحاح الثاني عشر عن (دارا) الثالث الذي انتصر عليه الاسكندر) .

ومن هنا كان (اسبينوزا) في رسالته (رسالة في اللاهوت والسياسة) ومن خلال صفحات ٣٤ ، ٣١٦ ، ٣١٨ على جانب من الصواب لا بأس به[٢] ، حين يرى ان هناك مؤلفاً واحداً ، لكل مجموعة هذه الأسفار وان لم يستطع ان يقول لنا من هو لكنه يرى وبغير دلائل كثيرة سوى منهجه النقدي للنصوص ان هناك كاتباً واحداً كتب اسفار (عزرا) و (دانيال) (ونحميا) وقد أخذ معلوماته عن سجلات الاحبار والقضاة والأمراء الذين كانوا يحتفظون فيها بأخبارهم .

هـذا ويكاد يكون سفر استير مجهول الهوية وليس له نسباً يرجـع اليه وذلك لكثرة الآراء حوله ، ويبدو ان تاريخه كان متأخراً كثيراً إذ انه ربما يكون قد كتب قبل الميلاد بمائة عام أو أقل قليلاً ، وشاهين مكاريوس في كتابه (تاريخ الأمة الاسرائيلية) [٣] صفحة ١٥٥ ، يرى انه من الجائز ان

---

(١) (حبيب سعيد) المدخل الى الكتاب المقدس ص ١٧٠ .

(٢) (اسبينوزا) في بحثه (رسالة في اللاهوت والسياسة) ترجمة وتقديم الدكتور حسن حنفي القاهرة عام ١٩٧١ .

(٣) (شاهين مكاريوس) تاريخ الأمة الاسرائيلية ص ١٥٥ .

يكون الكتاب قد ترجم من تاريخ فارس ونسب الى عزرا او مردخاي ، ولأن أحداث السفر تعكس وجهة نظر المكابيين فربما يكون من صنع أحدهم.

هذا وهناك فريق من العلماء المشتغلين بالتراث وتاريخ المنطقة يرى ان كتابة سفر (استير) كانت في منتصف القرن الاول قبل الميلاد [1] .

وأما سفر (ايوب) ومكانه في الترجمة السيرانية بين سفري (التثنية) (ويشوع) فيرى فيه بعض شراح التوراة والدارسين القدامى للعهد القديم تاريخاً حقيقياً ، وينسبه بعضهم الى موسى بينما يذهب البعض الآخر الى ان ايوب شخصية تاريخية عاش قبل عهد موسى عاش على ايام يعقوب وتزوج من ابنته (دينه) بدليل قول الكاتب في مستهل السفر:(رجل في ارض عوص) فضلاً عن الاشارة في سفر (حزقيال) في الاصحاح الرابع عشر فقرة ١٤ إذ يقول : (وكان فيها هؤلاء الرجال الثلاثة ، نوح ، ودانيال ، وايوب فانهم إنما كانوا يخلصون انفسهم ببرهم يقول السيد الرب) .

ولكن البعض الآخر ومنهم (موسى بن ميمون) وبعض الاحبار يحسبون السفر قصة روائية ، ويرى (ابن عزرا) [2] ان سفر ايوب قد ترجم الى العبرية من لغة أخرى،ومن هنا اتجه البعض الى اعتبار السفر عربياً وليس يهودياً وعلى هذا فيصبح سفر ايوب الذي بين ايدينا ترجمة لأصل عربي مفقود وان كل الدلائل التي في سفر ايوب تدل على انه من العرب ، فقد كان من أرض عوص ، وعوص ان اختلف العلماء في مكانها فالراجح عندهم انها في بلاد العرب في ارض نجد واما زمن كتابة سفر(ايوب)فيرى بعضهم انه يرجع إلى عصر الآباء الاول وحجتهم في ذلك انه لم يشر بكلمة واحدة إلى الخروج ولا إلى خراب المدن التي دمرتها الزلازل بجواره ، ولم يرد ذكر (يهوه) في صلب كتابه وإنما ورد

---

(١) (محمد بيومي مهران) (دراسات في تاريخ الشرق الادنى) — اسرائيل ج ٢ ص ٣٥٠ .
(٢) » » » » » » » » » » ج ٢ ص ٣٥٠ .

في المقدمة والذيل وهما مضافان بعد عصره كما هـو الراجح عند الشراح ، وذهب فريق آخر إلى ان السفر قد كتب في عصر (سليمان) وحجتهم على ذلك انه يحمل بين ثناياه إشارات من ذلك العهد ، ويستدلون على ذلك بالفقرة الثامنة من الاصحاح الخامس عشر من السفر والتي تقول : (هل تنصبت في مجلس الله او قصرت الحكمة على نفسك) . امـا لغة السفر ففيها مؤثرات آرمية او عربية آرمية ، ومن هنا فان المرجح ان يكون زمن كتابة السفر هو الثلاثمائة سنة الاخيرة قبل الميلاد وهذا هو ما نرجحه .

واما سفر (المزامير) فهو على العذوبة والنقاوة التي قـد يجدها الباحث بين بعض فقراته مجموعات من الترانيم والمأثورات والادعية لاحوال ومواقف ورجال متغايرة ومتباعدة ، ولا جـدال في ان المزامير قبل ان تكون في وضعها الحالي قد مرت باطوار وحقب مختلفة من بني اسرائيل ، فبعض هذه المزامير على ضوء مـا فيه من سياق يرجع إلى عصر الملكية ، فالحديث عن المملكة والملك والمجد يبدو فيها واضحاً وبعضها الاخر يرجع إلى عهد السبي فلغة المذلة والهوان والانكسار يرجع فيما يوحيه إلى هـذه المرحلة ، وبعضها الاخر دوّن بغير قرينة تساعد على التعرف على عصره وبدون تحديد صلة نسب لقائله ، وسياق سفر المزامير في جملتـه من الناحية التدوينية يدل على قربه من عصر سفر الامثال الذي دوّن في وقت ازدهار مدارس الحكمة .

واما سفر الجامعة فيعتقد بعض العلماء المشتغلين باللاهوت ان كاتبه قد عاش فى فترة التاريخ اليوناني التي عاصرت الاسكندر الاكبر فقد تأثر السفر بالفلسفة اليونانية وبفكرة القضاء والقدر التي اشبعت بها الثقافة اليونانية ، وكما يقول حبيب سعيد في كتابه (المدخل الى الكتاب المقدس [1] هناك على الاقل بعض التماثل بين اقواله وبين فلسفة الابيقوريين ، لأن الحكيم ينصح باقتناء الفرص وافتداء اليوم والتمتع بالملاذ الزائلة قبـل ضياعها ، ويبدو ان

(١) (حبيب سعيد) المدخل الى الكتاب المقدس ص ١٦٢ .

كاتب الجامعة كان متأثراً بالفعل الى حد ما بروح الثقافة اليونانية ، وانه استنشق عبير هذا الجو في تفكيره والهامه .

واما سفر (اشعيا) اكبر اسفار العهد القديم حجما ، فقد اختلفت حوله الاراء اختلافاً يفوق أي سفر من اسفار العهد القديم فقد ظل الرأي حول هذا الرجل الذي يحمل السفر اسمه (اشعيا) يحمل علم النبوة التي تحدث عنها السفر في يهوذا حوالي اربعين عاما من ٧٤٠ — ٧٠٠ ق م بنفسها وكان الرأي الشائع ان اشعيا هو كاتب هذا السفر بالرغم من كبر حجمه وكثرة ما فيه لكن الدراسة النقدية لكتب العهد القديم ، تناولت هذا السفر بشيء دقيق من الدراسة وانتهت الى تقسيمه الى عدة اقسام لعدة مراحل تاريخية كما سبق وان اشرنا اليها عند تناولنا لهذا السفر بالتعريف الى ان كان عام ١٧٧٥ ميلادية انكر (ج . س دودرلين) الرأي القائل بأن اشعيا هو كاتب السفر ورأى ان اشعيا كتب المجموعة الاخيرة من اصحاحات سفره من رقم ٤٠ — ٦٦ فقط ثم اتى (ب — ديم) وذهب الى ان الوحدة مفقودة حتى بين هذه الاصحاحات الاخيرة [١] وان هناك اشعيا اخر هو كاتب اصحاحات ٥٦ — ٦٦ ثم تابعه مجموعة من العلماء الذين كانوا يرون غير ذلك على رأيه ومنهم : ارنست سيللين وفي عام ١٩٢٨ ميلادية قدم . (س .س توري) نظريته في دراسة سفر (اشعيا) التي ذهب فيها الى ان الاصحاحات من رقم ٣٤ — ٣٦ باستثناء الاصحاحات من ٣٦ — ٣٩ قد كتبها مؤلف كان يعيش في فلسطين ، ويكاد يتفق العلماء الآن على ان سفر اشعيا هذا ينقسم الى ثلاثة اقسام القسم الاول من الاصحاح رقم ١ الى ٣٩ وينسب الى النبي (اشعيا ابن آموص) ، القسم الثاني من الاصحاح رقم ٤٠ الى ٥٥ وينسب الى نبي مجهول اطلقوا عليه اسم (اشعيا الثاني) كان يعيش في بابل مع يهود الاسر البابلي وان زمنه كان بعد قرن ونصف قرن من موت (اشعيا بن أموص)

---

(١) (محمد بيومي مهران) دراسات في الشرق الادنى القديم ج ٢ ص ٣٨ .

في اورشليم والقسم الثالث من الاصحاح رقـــم ٥٦ – ٦٦ وينسب الى نبي مجهول كذلك اطلق عليه اشعيا الثالث كان يعيش في فلسطين في فترة مــا بعد بناء الهيكل عام ١٥٦ ق . م .

ومن الجدير بالذكر انه عثر في عام ١٩٤٧ م في وادي القمران بالاردن على بعض الجرار عثر عليهــا عربي من الاردن بالصدفة كان فيهـــا بعض المخطوطات القديمة لكتب العهد القديم ، ثم تابعت اللجان العلميــة اعمالها في منطقة وادي القمران بين المخطوطات القديمة والتي يرجع عمرها إلى الف عام ووجـد مخطوطة تتضمن سفر (اشعيــا) من الاصحاح الاول حتى السادس والستين ، ولعل هذه النسخة التي عثر عليها تكون قد نسخت من اصل مدون بعد الميلاد او قبله بقليل .

واما سفر ارميا الذي يحتوي على الكثير من الشؤون التاريخية والسياسية فهو بشهادة نصوصه ليس من صنع ارميا ولا من تأليفه بل قد دبجه وصاغه صديقه : (باروخ بن نيريا) وقـد تكون عملية تأليفه قـد بدأت منذ عام ٦٠٥ ق . م واستغرق بعد ذلك زمناً طويلاً لأنه خليط من نصوص غير مرتبة وليس فيهـــا مراعاة للأزمنة فضلاً عن تعدد اسلوبـه ، وكذلك الامر في اصحاحات المراثي المنسوبة لارميا فهي اناشيد للتوجع والبكاء من اجـــل اورشليم يوم قهرها الكلدانيون هـذا وهناك بعض الباحثين يرى ان اسلوب المراثي بعيداً عن منهج واسلوب ارميا ويستبعدون نسبة سفر المراثي اليه فضلاً عن انه تضمن افكاراً لا يقرها (ارميا) وتتنافى مع من عرف عنه .

وينتهي (اسبينوزا) في رسالته (رسالة في اللاهوت والسياسة) على ضوء منهجه النقدي إلى أن كتّاب سفر المراثي عديدون .

واما سفر (حزقيال) فالرأي السائد هو أنـه كتب معظم اجزاء هذا السفر وان كان هناك من العلماء من يرفض نسبة الاصحاحات من رقم ٤٠ – ٤٨ اليه ويرى ان السفر طرأت عليه عوامل تحسينات عديدة في لغته ومضمونه

عبر المراحل الزمنيـة . ٥٩٣ – ٥٧٢ – ٥٧٠ ق . م لكن (اسبينوزا) يخالف هذا الرأي ويؤرخ لحزقيال بالفترة من عام ٢٣٠ ق . م فقط ودلائل (اسبينوزا) فيما يذهب اليه ليست قوية في هذه النقطة بالذات [١] .

واما سفر (دانيال) والذي وضع في التوراة العبرية مع الكتابات بين (استير) وسفري (عزرا ، نحميا) فيذهب القدماء من شراح العهد القديم إلى انه قد كتب في بابل وحمله (عزرا) مع الاسفار الاخرى عند عودته إلى اورشليم ، ولكن السفر في وضعه الحالي يتناول زمناً تاريخياً يمتد إلى (انتيخوس) ، (أبيفانوس) الذي وضع تمثالاً للاله (زيوس) اليوناني في بيت الرب في اورشليم لكي يستأصل اليهودية وشعبها [٢] هـذا إلى ان السفر يتضمن كلمات مقدونية على ضوء ما انتهى اليه الدكتور محمد بيومي مهران في دراسته عن تاريخ الشرق الادنى القديم [٣] على حين ان اليهود في زمن السبي لم يكونوا قد خالطوا اليونان ولا عرفوا لغتهم ، كما ان فيه وصفاً للكلدانيين لا يتسنى الاتيان به لكاتب سابق على عصر سليمان ، كما انه اقتبس طرفاً من اقوال (ارميا) ، (حزقيا) ، (زكريا) على حين ان هؤلاء الأنبيـاء ، لم يكونوا قد وجدوا بعد في ذلك الزمان الذي يزعمون ان السفر قد وجد فيه ، هذا إلى انه قد ورد في السفر اسم الملكين (جبرائيل ، ميكائيل) على حين ان اليهود لم يكونوا قد عرفوا شيئاً مدوناً في كتبهم عن الملكين (جبرائيل ، ميكائيل) ومن اليهما قبل السبي البابلي ، بل انه كما يذهب (عصام الدين حفني) في كتابه (محنة التوراة على ايدي اليهود) ان اول إشارة غامضة في العهد القديم إلى يوم البعث كانت في الاصحاح الرابع والعشرين من سفر اشعيا [٤] .

---

(١) (اسبينوزا) المصدر السابق ص ٣١ .

(٢) حبيب سعيد المصدر السابق ص ١٦٧ .

(٣) محمد بيومي مهران المصدر السابق ص ٤١ .

(٤) عصام الدين حفني (محنة التوراة على ايدي اليهود) الطبعة الاولى عام ١٩٦٥ .

هذا وينتهي معظم الدارسين للعهد القديم إلى ان سفر دانيال لا يمكن ان يؤرخ لفترة كتابته ولا ان يكون قد دون منه شيء على الاطلاق قبل عام ١٦٨ — ١٦٠ ق . م وانه قد بدأ التدوين فيه في بداية الصراع بين الهلينيين والمكابيين .

واما سفر (هوشع) اول المجموعة التي اطلق عليها صغار الانبياء فالرأي المرجح ان هذا السفر كتب بعد عام ٣٠٠ ق.م على الاكثر لكن سفر عاموس الذي فسر بعض الباحثين وعلماء اللاهوت بعض فقراته على انها نبوءة عن وقوع كسوف للشمس فيبدو انه كتب بعد عام ٧٦٠ ق . م بفترة طويلة وان مؤلفه تناهت اليه معلومات عن شهود رأوا وقوع كسوف الشمس في شهر يونيه عام ٧٦٣ الذي يتحدثون عن وقوعه [١] وقد كان (عاموس) يعيش في عصر يربعام الثاني ملك اسرائيل .

وسفر (عوبيديا) ليس حوله دراسة موسعة ومن هنا فلا يعرف عنه شيء كثير سوى اسم صاحبه وربما يكون كتب بعد العودة من السبي بمراحل زمنية طويلة ، (يونان) الذي يرجح بعض الباحثين انه ربما كان نبياً قومياً من الانبياء البسطاء وفي عصر يربعام الثاني فلا يعرف عنه شيء بالتفصيل لكنهم يؤرخون للسفر بأنه قد بدء في تدوينه من عام ٣٥٠ ق . م .

اما سفر ميخا فكما يدل مستهله فإن صاحبه عاصر يوثام ، احاز ، حزقيا ملوك يهوذا وشاهد مساوىء عصرهم ولا يمكن تحديد تاريخ كتابته من ثنايا نصوصه ففيه نبوءات ترجع الى عصر السبي او بعده .

واما سفر (ناحوم) فقد كان الرجل الذى يحمل السفر اسمه يعيش في يهوذا وربما كان معاصراً (لصفنيا) وبعض الباحثين يحاول تحديد زمن السفر

---

(١) (حبيب سعيد) المدخل الى الكتاب المقدس ص ١٢٦ .

فيما بين (استيلاء اشور) على طيبــه عام ٦٦٤ ق . م وبين سقوط نينوى عام ٦١٢ ق . م [1] .

وأما سفر (حبقوق) فيذهب كثير من الشراح الى أنــه كتب في عهد الملك (يهو ياقيم) ملك يهوذا ويبدو ان هــذا الرجل قد كتب اقواله بعــد هجمة نبوخذ نصر الأولى على اورشليم عام ٦٠١ ق . م . هذا والدارس لهذا السفر يجــــد ان الاصحاح الثالث لا ينسجم وباقي الاصحاحات من حيث الموضوع واختلاف الاسلوب الأمر الذي جعل بعض الباحثين يجزم بأنه لمؤلف آخر عاصر عصر ما بعد السبي ثم ضم هذا الاصحاح لأسفار (حبقوق) عند عمليات النسخ والنقول التي تعرضت لها أسفار العهد القديم .

وأما سفر (صفنيا) فيبدو ان صاحبه من أسرة ملوك يهوذا لأن تسلسل أسرته يرجع الى حزقيا ، وقد كتب السفر على عهد (يوشيا الملك) وان رأى البعض ان الجزء الأخير من عهد (يهو ياقيم) أكثر ملاءمة من عهد(يوشيا).

وسفر (حجى) لا يعرف عنه شيء سوى ان هذا الرجل (حجى) ولد في بابل وعاد مع السبي في صحبة مجموعة (زربابل) ويبدو ان اقوال حجى كانت في حكم (دارا) ملك فارس في عام ٥٢٠ ق . م لكن السفر في شكله الحالي لم يكتب إلا زمن الاسكندر بفترة لا بأس بها .

وأما سفر (زكريا) الذي كان معاصراً (لحجى) فلم يكتب هو الآخر إلا بعد العودة من السبي وسفر (زكريا) منهج تدوينه وسياق لغته وقضاياه تدل على انه ليس من عمل زكريا وانه كتب من خلال مجموعة وانه دوّن في القرن الثالث قبل الميلاد على اكثر تقدير .

وسفر (ملاخى) إذا جاز ان يعبر عنه بين الاسفار التي تضمنها العهــد

---

(١) (محمد بيومي مهران) المرجع السابق ص ٤٣ .

القديم بكلمة (سفر) لأنه لا يعدو إلا أن يكون مذكرة صغيرة فيها بعض الاقتباسات لما سبقها من أسفار ، لا بد وان تكون من عمل رجل واحد مجهول الهوية ولم يعرف الشراح عنه شيئاً وان رجح البعض تاريخ كتابة فقرات (ملاخى) الصغيرة في الجزء الأخير من القرن الرابع قبل الميلاد وان كنا نستبعد صحة هذا الرأي فهي على الارجح قد دوّنت في أبان عصر المكابيين أو بعده بقليل .

وبهذا العرض السريع والموجز للمراحل التاريخية التي كتبت فيها أسفار العهد القديم المعتمدة نرى ان حوالي الف عام على الاقل مرت فيها عشرات الأجيال ومئات التقلبات والاطوار السياسية والاجتماعية في بيت اسرائيل ويهوذا وان عمليات التدوين والتسجيل والرصد التي كان يقوم بها البعض من رجال وكهان وكتّاب اسرائيل ويهوذا كانت تتم في معظم مراحلها في ظل ظروف سياسية ضد ارادة الشعب الاسرائيلي اليهودي الذي يكتب له او عنه ، ومن هنا جـاء ذلك الحشد الهائل من المعلومات المكررة والافكار المتعارضة والمتناقضة مع بعضها في أسفار العهد القديم ، وحتى لو افترضنا انه كان هناك نوعاً من التضحية والمثابرة والجلد من رجال اسرائيل حول تدوين وتسجيل التراث الاسرائيلي وحفظه على ضوء ذلـك الحشد الضخم من الاسفار وأيضاً لو افترضنا ان ما حافظته ذاكرة الانسان اليهودي عن تعاليم الشريعة اليهودية ووصاياها وانهـا كانت وراء كل المسجلين والمدوّنين لهذا التراث حتى يظل بين مراحل التاريخ المختلفة وهو يحمل بعض آثار الوحي وعليه بصمات من البقية الباقية من تعاليم النبوة والهداية الدينية ، اقول لو افترضنا كل هذا وهو صعب التصور والافتراض فما الذي يمكننا أن نقوله أو أن يراه الباحثون وعلماء اللاهوت إزاء حوادث التاريخ العالمية التي لا يمكن انكارها أو اللغط أو الجدل حولها والتي تقوم برهاناً على ان اسرائيل ويهوذا لم تستطع القيادات الدينية او السياسية فيهما عبر مراحل التاريخ المختلفة ان تحافظ على ما لديها من نصوص او مدوّنات ، فمن حقائق التاريخ انه في عام

١٦١ ق . م ولمدة اكثر من ثلاث سنوات قام (انطويوكس) بفتح أورشليم بمعركة دموية عنيفة كان فيها جنده لا همّ لهم إلا احراق كل ما يقع في ايديهم من كتب اليهود كانوا : (يقتربون من ابواب البيوت وفي الساحات ومـا وجدوه من أسفار الشريعة مزقوه وأحرقوه وكل من وجد عنـده سفر من العهد أو اتبع الشريعة فانه مقتول بأمر الملك، هكذا كانوا يفعلون بسطوتهم في اسرائيل بالذين يصادفونهم في المدن شهراً فشهراً) [١] .

وفي هذه وللتدليل على هـذه الحقيقة يقول رحمة الله الهندي في كتابه (اظهار الحق) نقلاً عن سفر المكابيين :(... فكان يقتل مَن عنده نسخة من كتب العهد العتيق ، أو ثبت انه أدى رسماً من رسوم الشريعة وتعـدم تلك النسخة) [٢] .

وقد أعدم في هذه الحادثة جميع كتب العهد القديم التي كتبها (عزرا) وانقطعت صلة الشعب بهذه الأصول المدوّنة تماماً .

والحال الذي تعرضت له الكتب اليهودية على يد (انطويوكس) عام ١٦١ قبـــل الميلاد تعرضت له الكتب والمدونات بل وكل الطوائف اليهودية على اختلاف ما بينها على يد (تيطوس) عام ٧٠ ميلادية .

وينقل رحمـة الله الهندي في كتابه (اظهار الحق) عن (يوسيفوس) اخباراً يبالغ فيها (يوسيفوس) كثيراً عن المذبحة التي تعرض لها اليهود على يد تيطوس فيقول : (... وهلك في هذه الحادثة من اليهود في اورشليم ونواحيها الف الف ومائة الف بالجوع والنار والسيف والصلب ، وأسر سبعة وتسعون الفاً ، وبيعوا في الاقاليم المختلفة وهلكت جموع كثيرة في أقطار ارض اليهودية ايضاً) [٣] .

---

(١) (سفر المكابيين الاول) الاصحاح الاول فقرات ٥٧ — ٦٥ .

(٢) (رحمة الله الهندي) اظهار الحق الجزء الاول ص ٣٢٧ .

(٣) (رحمة الله الهندي) المصدر السابق ص ٣٢٨ .

وإذا صحت رواية (يوسيفوس) التي أخذ عنها رحمة الله وهي لا تصح عندنا للمبالغة الشديدة فيها ، ونعتقد انه كيهودي يؤرخ لتاريخ أمتـه لا بد وان يجسم حجم المحن التي تعرضت لها أمته بهذه الصورة المغرقـة في تضخيم العدد الذي تعرض لمحنة القائد الروماني في عام ٧٠ ميلادية .

وأيـاً كانت الحقيقة التي تعرض لهـا اليهود بالتضحية والمحن والآلام فان الذي لا شك فيه ان عصر (تيطوس) بالاضافة الى عصر (انطويوكس) تعرض فيهما اليهود لنوع من المطاردة بـــل والتدمير الجماعي وخاصة ان أعداءهم استهدفوا بالدرجة الأولى العناصر الدينية التي كانت وحدها تستطيع أن تجمع اليهود للثورة أو التمرد وبالتالي فلم تبق على أي شيء من مدوّنات أو سجلات يمكن أن يرجع اليها اليهود وعلى هذا فأي عقل يمكن ان يتصور ان شيئاً من كتب العهد القديم بقي على ما هو عليه دون ان يتعرض للحذف والاضافة بـل والمسخ والتشويه في ظل أجواء كتلك التي تعرض لهـا اليهود اجيالاً متعددة .

ويجب ونحن نسجل ونؤرخ لمراحل تدوين أسفار العهد القديم ألا يتبادر الى أذهاننا ان العهد القديم يمثل عصراً بعينه أو اسلوباً خاصاً على ضوء مصدر واحد فهذا السفر الواسع الذي يتضمن جملة كتب لم يوح به الى شخص واحد ولم يتناول عصراً بعينه فأسفاره كما أسلفنـا القول تنسب الى أفراد عديدين ففيه توراة موسى ، ومزامير داود ، وأمثال سليمان ، ومراثي ارميا ، وهلمّ جراً (١) . وإذا أضفنا الى هـذا ان هذا السفر (العهد القديم) استنفذ من عمر الدهر أكثر من الف عـــام وان أقدم نص فيه وهو قصيدة (دبوره) يرجع كما يرجح الباحثون الى المـائة الثانية بعد الألف ـ قبل الميلاد على حد

---

(١) فؤاد حسنين علي (من الادب العبري) معهد الدراسات العربية العالي جامعة الدول العربية عام ١٩٦٣ ص ٣١ .

ما يذهب اليه الدكتور فؤاد حسنين علي[1] وأحدث مزمور فيه لم يتعدّ العام السبعين قبل الميلاد ، وان جمع هذه الموسوعة لم يتم قبل القرن الاول للميلاد وفي ظـل اوضاع وتطورات متقلبة كما نبّه الى هذا نقـاد الكتاب المقدس ، وإذا علمنا ان اللغة العبرية كأخواتها السامية تعبر أصلاً عن الفكرة بحروف صامتة لا اعجام فيها ولا حركات وانه قـد مضت على ذلـك قرون وقرون حتى اهتدى القوم الى النقط والحركات لو وضع ذلك كله في الاعتبار لأدركنا كم هي عوامل التغيير والتطور التي طرأت على أسفار العهد القديم حتى انتهى الى مـــا انتهى به الينا في النص العربي الذي نعتمد عليه في تناول التراث الاسرائيلي في العهد القديم .

---

(١) فؤاد حسنين علي (من الادب العبري) معهد الدراسات العربية العالي جامعة الدول العربية عام ١٩٦٣ ص ٣١ .

الفصل الثالث

كيف انتهى الينا العهد القديم

الرأي اليهودي المسيحي السائد والشائع في مجال الدراسات اللاهوتية هو ان اسفار العهد القديم التي دوّنت على مراحل يقترب من الألف عام أو تزيد كتبت باللغة العبرية وإن كان هذا لا يمنع ان بعض الباحثين في اللاهوت من علماء الكتاب المقدس بعهديه القديم والجديد قد اعترفوا بأن مجموعات من اسفار كتب العهد القديم مثل دانيال وعزرا وغيرهما لم تخل اصحاحات كثيرة مما في كتبهما قد كتبت أول ما كتبت بلغة ارامية [١]، ولما كان الشكل الذي استعملت به اللغة العبرية القديمة غير متفق عليه بل وغير معروف فضلاً عن انها لم تكن وضعت لها قواعد او ضوابط تعرف بها نطقاً موحداً وطريقة كتابة واحدة، فقد رجح بعض العلماء ان تكون اللغة العبرية القديمة أشبه بتلك التي وجدت على الحجر الموآبي الذي اكتشف عام ١٣٦٨ ميلادية ورجح العلماء المكتشفون الى ان تاريخ هذه الكتابة التي وجدت على الحجر الموآبي ترجع الى عام ٨٦٠ ق . م وهذا الحجر الموآبي يعتبر أقدم وثيقة عبرية في العالم حتى اليوم وقد كانت الكتابة التي دوّنت على هذا الحجر

---

(١) (حبيب سعيد) المدخل الى الكتاب المقدس ص ٢٩ .

صادرة من ملك موآب كما حاول العلماء ان يستدلوا به على ما جاء في سفر الملوك الثاني في الاصحاح الاول ومن الفقرة التي تقول :(... وعصى موآب على اسرائيل بعد وفاة آخاب) .

ويبدو ان اليهود السامريين استخدموا في فترة مبكرة كتابة ما انتهى اليهم من عقيدة وشريعة على انها من سفر الشريعة او على انها الأسفار الخمسة بهذه اللغة القديمة ولعل هذا هو السر وراء موقف يهود السامرة من عدم الاعتماد على النقول التي تمت بعد ذلك للأسفار الخمسة وعدم اعترافهم بباقي كتب العهد القديم .

والمعروف ان العبرية القديمة كأخواتها السامية كما يقول الدكتور فؤاد حسنين علي [١] كانت تكتب بدون حركات ولا اشكال وكانت تعبّر عن الفكرة بدون حركة ولا ضوابط ولا توجد وثائق لهذه اللغة القديمة تدل عليها سوى القطعة التي يرجع تاريخها الى القرن الثاني بعد الميلاد وهي قطعة البردية المسماة (بردية ناش) [٢] ولعل ما عثر عليه العلماء في عام ١٨٦٨ ميلادية عن الحجر الموآبي الذي يرجع الى عام ٨٦٠ ق . م وتلك البردية المسماة بردية ناش التي يرجع تاريخها الى القرن الثاني بعد الميلاد يلقيان الضوء على مدى قلة وضعف وجود مصادر للغة العبرية القديمة يطمئن الى قواعدها ويعتمد بها أو ان يكون التدوين قد تم بأساس منها .

وعلماء المقابلة بين اللغات لم يعثروا على العبرية كلغة مضبوطة الأصل بالحركات والاشكال إلا حوالي عام ٩٠٠ ميلادية ولم يتح لهم ذلك إلا بعد أن وقفوا على جهود العلماء اليهود الذين خشوا ان يضيع النطق الصحيح للعبرية وأحسوا ان الحاجة تلح عليهم للاحتفاظ بها بطريق ما .

---

(١) فؤاد حسنين علي من (الادب العبري) ص ٣١ .

(٢) (حبيب سعيد) المدخل الى الكتاب المقدس ص ٣٠ .

ومـــا هو جدير بالذكر ان النطق الاصلي الصحيح لاسم الجلالة في اللغة العبرية على ضوء مـا يقرر الشراح للغة العبرية قد ضاع [١] أمـا الحركات التي توضع عادة حيثما توجد هذه الحروف الصامتة فهي متعلقة بكلمة أخرى هي : (ادوناي) وهي الكلمة التي ينطق بها عند قراءة الاسفار بدلاً من (يهوه) ، التي لم يكن يجوز النطق بها لقدسيتها عنـدهم إلا لرئيس الكهنة مرة واحدة في السنة [٢] .

هذا ومن المسلم به عند العلماء اليهود ان حركات وضوابط اللغة العبرية لم تتم إلا في اوائل القرن الثامن الميلادي وأطلق لقب (ماسوراتيون) على مجموعة من العلمـاء اليهـود قاموا بوضع الترتيب النهائي للنصوص العبرية المشكلة ، ولما كانوا يبدأون من فراغ فقد طال معهم وقت هذه المهمة الشاقة التي يقال انهم قضوا فيها اكثر من مائة عام أي ربما يكون أكثر من جيل اشترك في هذه المهمة .. ولا توجد مخطوطات عبرية للعهد القديم يرجع تاريخها الى مـا قبل القرن الثامن الميلادي ، وكان جهد العلماء متوجهاً الى ان تكون هنـاك لغة واحدة يتفق عليها اليهود وتكون اقرب ما تكون الى ما يتداولونه من أسفار ومأثورات بلغة عبرية قديمة غير مضبوطة تارة وبلغات أجنبية يونانية وآرامية تارة أخرى [٣] والكلمة (ماسورا) معناهـا على ضوء مـا لخص الشراح (الشيء الذي تسلم) وهي دلالة تعني او تشير الى مجموعة المذكرات والمناقشات التي دارت حول النصوص العبرية في ايدي العلماء (الماسوراتيين) والتي جمعها بعد ذلك بحرص وعناية العلماء اليهود أثناء التحضير لوضع القواعد والضوابط النهائية للغة العبرية .

ومما يوجب التنبه له هو انه قبل ان يشرع الماسوراتيون في مهمتهم وهي

---

(١) (حبيب سعيد) المدخل الى الكتاب المقدس ص ٢٠ .
(٢) « « « « « « « « ص ٣١ .
(٣) (رحمة الله الهندي) اظهار الحق الجزء الاول ص ٢٢٩ .

وضع اسفارهم في نصوص لغوية ثابتة أو وضع نصوص لغوية ثابتة لأسفارهم كان اليهود قد جاهدوا في ان تكون أسفارهم وهي مصبوبة في قوالب لغوية غير منضبطة بالحركة او بالشكل على حال سليمة من الخلل التدويني الذي يقع عـادة في عملية النقول التي تتم من اليونانية أو الارامية الى لغة غير منضبطة الحركة والاشكال لكن شيئاً من هـــذا لم يتح لهم ، وخاصة لأنه كان من المتعذر بل من المستحيل أمامهم ان يضعوا تسلسلاً للمخطوطات وان يقوموا بعملية المقابلة فيما بينها .

والذي حدث هو ان الترجمات التي وقعت للعهد القـديم من اليونانية الى العبرية بل وفي اليونانية نفسها من الفوارق اللغوية بالنطق تارة وبالاشكالات والنقط كان كثيراً الى الحـد الذي لا يمكن ان يكون أساساً لقاعـدة لغوية واحدة ، وحتى في فلسطين وهي مركز الحيـاة اليهودية قديمـاً وجدت نسخ الأسفار المختلفة في العهد القديم وهي تتفاوت في نصوصها. وفي مجمع (يمنيه) كانت هذه المعضلة أمام علماء اليهود لا تجد حلاً معقولاً او مقبولاً ومن هنـا نشأت عندهم الرغبة في اعداد أفضل النصوص وأقربها الى ما يمكن ان تكون عليه اسفار العهد القديم باللغة العبرية غير المنقوطة او المشكلة التي كانت عليها والتي ظلت تتداول بها مئات من السنين حتى كانت جهود العلماء الماسوراتيين الذين وضعوا قواعد لغوية للتداول العبري المنضبط .

ويبدو ان الحبر اليهودي (اكيبا) المتوفي سنة ١٣٥ م كان يقود مجموعة من زملائه لتحقيق بعض التقـــدم في أبرز مخطوطة مضبوطة لأسفار العهد القـديم لا تكون صورة طبق الأصل من النسخ التي تتعدد فيهـا المفارقات والمغالطات ولعله استطاع ومعه بعض من زملائه في هذه المرحلة من اوائل القرن الثـاني الميـلادي من نسخ نسخة عبرية باللغة غير المشكلة لم يجد فيهـا الماسوراتيون كبير فارق بينها وبين ما انتهوا اليه من صياغة ونسخ لأسفار العهد القـديم على ضوء قواعد وضوابط اللغة العبرية التي وضعت في أواخر القرن التاسع الميلادي .

ومع كل هـــذا الذي مرت به عملية نسخ العهد القديم بأساليب اللغة العبرية في أوضاعها المختلفة فان ترجمة (ايرونيموس) اللاتينية وهي منقولة عن العبرية قبل ظهور النصوص الماسوراتية بفترة اربعمائة سنة او تزيد فقد كانت ترجمة (ايرونيموس) حوالي عام ٤٠٠ ميلادية فان العلماء الماسوراتيين وجدوا فيهـا فوارق واختلافات عن تلك التي انتهوا اليها بعد وضع قواعد النصوص الماسوراتية .

وأمامنـا سؤال يطرح نفسه على ضوء كل هـذه المراحل والتطورات التي مرت بعملية تداول ونقول أسفار العهد القديم عبر اللغة العبرية غير المضبوطة القواعد واللاتينية التي قـام بها ايرونيموس وتلك التي انتهى اليها العلماء الماسوراتيون وهو : اين ذهبت المخطوطات العبرية التي تم تداولها في الأيدي خلال القرون الخمسة التي سبقت الميلاد والتي اعقبته وخاصة انـه كان هنـاك قراءات ومخطوطات مختلفة لأسفار العهد القديم كما يدعي بذلك معظم الذين تناولوا العهد القديم بالدراسة فضلاً عن اولئـك الذين قـالوا بعصمة الكتاب المقدس ؟. مع انه لا توجد اليوم مخطوطة تخالف في نصها الأخرى او تخرج على النصوص الماسوراتية والجواب بسيط ، وهو ان اليهود منذ القرن التاسع الميلادي وبعد انتهاء العلماء الماسوراتيين من عملهم قاموا ودمروا كل النسخ التي تختلف عن النصوص الأساسية الماسوراتية التي وضعها اليهود في القرن التاسع الميلادي فقط ، ويدعي بعض الشراح المحدثين انهم في هذا حذوا حذو الخليفة عثمان بن عفـان رضي الله عنـه حين نسخ نسخاً من القرآن الكريم وختمها بختمه ثم أحرق مـا عداهـا وتجيء عبارة حبيب سعيد في كتـابه (المدخل الى الكتاب المقدس) صفحة ٣٣ سطر ١٧ بهـذا الخطـأ العلمي التاريخي الشنيع : (وحذوا في هذا حذو الخليفة عثمان الذي بعد أن وضع نصوصاً أساسية للقرآن أمر بإحراق كل النسخ الأخرى التي تخالف هـذه النصوص) ، ومع انه لم يقل أحد من المسلمين على امتداد التاريخ الاسلامي ولا يوجد مصدر واحد في علوم القرآن المتخصصة ولا كتب التاريخ والحضارة

الاسلامية فضلاً عن أمهات كتب السنة به سطر واحد يفيد ان هناك نسخاً من القرآن الكريم كان بها نصوصاً تخالف النسخ التي نسخها عثمان رضي الله عنه من المصحف الامام الذي كان في بيت حفصة ومن قلوب الحفظة وملء عقل كل جمهور المسلمين من كتاب ربهم فان ذلك يدل على ان الكاتب يجهل هذا الجانب التاريخي الديني في هذه المقابلة التي وضعها لسر اختفاء نسخ العهد القديم بأساسها اللغوي قبل الميلاد وبعده اكتفاءاً بتلك التي وضع العلماء اليهود الماسوراتيون قواعدها ومع ذلك فان لنا مبحثاً وباباً في هذه الرسالة عن هذه القضية بالذات قضية عصمة نص الذكر الحكيم عما تعرض له العهد القديم من أساليب في التدوين ومراحل الكتابة فضلاً عن تداوله بين عديد من اللغات ليعرف علماء اللاهوت ان الفرق جوهري بين ما تم لكتاب الله الحكيم من حيث صيانته وحفظه على أيدي المسلمين وفي ظل دولتهم وتحت رعاية حاكمهم وما حدث لأسفار العهد القديم في ظل أكثر من الف عام وتحت أوضاع سياسية كانوا فيها دائماً ابداً تحت يد المستعمر وقبضته .

ومهما تكن تفسيرات وتأويلات العلماء اليهود في اختفاء النسخ الخطية القديمة لأسفار العهد القديم بلغاتها المختلفة فان المحقق والذي لا اختلاف عليه انه لا توجد من المخطوطات العبرية سوى تلك التي تحوي النصوص الماسوراتية والنصوص التي يتم تداولها اليوم للعهد القديم في طبعات لغوية انجليزية والمانية وعربية وغيرها منقولة عن النصوص التي كتبها ابن اشير وزملاء من الكتبة الفلسطينيين في القرن التاسع الميلادي وكانت على ضوء قواعد المدرسة الماسوراتية .

والعجيب الغريب في أمر أسفار العهد القديم انه في الوقت الذي كانت فيه النصوص العبرية للعهد القديم على ضوء القواعد الماسوراتية تنسخ وتدوّن بمعرفة ابن اشير في فلسطين كانت مدرسة أخرى ماسوراتية في بابل تدوّن نسخة عبرية أخرى للعهد القديم على يد (ابن نفتالي) وكانت هذه النسخة

مجهولة تماماً لم تعرفها أوروبا إلا بعد رحلة الاستكشاف والدراسة النقدية التي قام بها العلماء والباحثون حول الكتاب المقدس [1] . ومع ان المخطوطتين الخاصتين بابن نفتالي وابن اشير: أي الفلسطينية والبابلية قد فقدتا لكن يعتقد البعض من العلماء اللاهوتيين انه تم نسخ نسخة عنهما نقلت لنا نقط الخلاف فيما بينهما هذا الخلاف الذي أثبتت الدراسات النقدية ان طريقة (ابن اشير) تتفوق في أسلوبها وبيانها على طريقة ابن نفتالي .

هذا ومخطوطة ابن نفتالي التي تشتمل على كتابات بعض الانبياء تعتبر أقدم مخطوطة على ضوء القواعد الماسوراقية ويرجع تاريخها الى عام ٩١٦ ميلادية وتوجد الآن بمتحف لينبجراد [2] .

أما ما نسخ عن نسخة ابن اشير فيرجع تاريخها الى القرن العاشر الميلادي وهي تشمل الأسفار الخمسة المنسوبة الى موسى عليه السلام ومحفوظة بالمتحف البريطاني على ان بعض الشراح يذكر ان هناك نسخة خطية لأسفار الانبياء تعرف بمخطوطة القاهرة وقد دوّن تاريخها على نفس المخطوطة حيث قيل انها كتبت في سنة ٨٢٧ بعد خراب هيكل اورشليم لكن يبدو انها نسخة متأخرة منقولة عن نسخة أصلية يرجع عهدها الى ذلك التاريخ ويرى بعض الباحثين فيها انه قد نسخ الكاتب الذي كتبها نسخة طبق الأصل ووضع هذا التاريخ عليها .

هذا ومن النادر العثور على مخطوطة شاملة لكل أسفار العهد القديم ، ومع ذلك فمعظم المخطوطات الموجودة في العالم اليوم للعهد القديم ترجع الى القرن الثالث عشر او الخامس عشر الميلادي فقط [3] .

---

(١) (حبيب سعيد) المدخل الى الكتاب المقدس ص ٣٤ .
(٢) » » » » » » ص ٣٤ .
(٣) » » » » » » ص ٣٥ .

ولعل في هـذه الاشارة الموجزة الى مراحل تدوين ونقـل أسفار العهـد القديم من عـدة لغات ومن خلال أجيال ومؤتمرات ولجان بل من خلال مراحل متغيرة ومتطورة للغة العبرية الواحدة ما يؤكد لنا ان الاسفار المدونة في العهد القديم التي أمامنا اليوم هي على مـا هي عليه بعد عـدة تعديلات واضافات مختلفـة الأمر الذي يتعذر معـه تمامـاً القول بأن فيهـا بقية من روح الوحي الإلهي فضـلاً عن القـول بعصمتها ككتب مقدسة عنـد المؤمنين بها .

الفصل الرابع

العهد القديم في اللغة العربية

من المرجح أو شبه المؤكد عند معظم الباحثين والدارسين للعهد القديم ان اللغـة العربية لم تعرف الكتاب المقدس بعهديه حتى مطلع القرن السابع الميلادي أي حتى بعد ظهور الاسلام بفترة زمنية ليست قصيرة ، ومـا كان في يـد اهل الكتاب من العرب كان خليطاً من اليونانية والسريانية والعبرية غير المشكلة أو المضبوطة وكانت شرائعهم تتداول مشافهة ومـا كان مكتوباً من الكتاب المقدس بعهديه لليهود والنصارى العرب قبـل الاسلام لم تكن تتداوله إلا فئة قليلة ومن خلال اسماء محدودة وفي بيوت يهودية محدودة ولعلها كانت تعرف هذا الكتاب من خلال المصادر اللغوية العديدة التي كان فيها فمن المعروف ان كثيراً من العرب كان يعرف السريانية واليونانية ، امـا تداول الكتاب المقدس وخاصـة العهد القديم باللغـة العربية على نطاق واسع مدون ومكتوب ومتداول قبل الاسلام أو حتى بعده بفترة لا تقل عن مائة عام فهذا مـا لم يحدث ولعل هذا من فضل الله تعالى على الاسلام والمسلمين ومن قبيل الاعداد لظهور الاسلام ، وهـذا ايضاً مما قد يضايق عناصر غير مسلمة يبدو من سياق مـا تكتبه نوعاً من الحسرة لعدم حدوث ترجمـة للكتاب المقدس

متداولة وشائعة إلى اللغة العربية قبل الاسلام يقول : (جميل حناطر انجان) خريج مدارس اللاهوت الانجيلية فى كتابه (الكتاب المقدس في اللغة العربية) عام ١٩٣٦ : (لما ظهر الاسلام ولم يكن قد ترجم الكتاب إلى اللغة العربية لم يكن للكنيسة المسيحية القوة الكافية للوقوف امام رسالته) .

يقول خريج مدارس اللاهوت وهو يتابع هـذا الألم البادي في عبارته (لذلك لمـا ظهر الاسلام وظهر عندئـذ القرآن تهافت العرب على اعتناق الاسلام ديناً لهـم لوجود كتاب عربي فصيح يستطيعون قراءته وتداوله عند ذلـك شعرت الكنيسة المسيحية بضعفها وتقصيرها إذ رأت كتاباً آخر يحتل مكانة رفيعة في قلوب كثيرين) .

ونحن هنا لا نناقش اللاهوتي فيما يقوله لكننا ندلل به باعتباره واحداً من خدام اللاهوت والكتاب المقدس على ان اللغة العربية لم تعرف هذا الكتاب قبل الاسلام وبعده بفترة كبيرة .

وليس صحيحاً ما يقوله (الثعالبي) في كتابه (قصص الأنبياء) من ان كتب اليهود والنصارى كانت معروفة عند العرب وبلغتهم قبل ظهور الاسلام فلو كان هـذا القول صحيحاً عن ورقة وبحيرة وغيرهما من القيادات اليهودية التي كانت في المدينة واسلمت ولو كان الكتاب المقدس قـد نقل إلى اللغـة العربية قبل الاسلام فمـا كان هناك احداً اجدر من الحبرين الجليلين (ورقة ابن نوفل ، وبحيرة الراهب) ليقوم بهذا العمل والذي كان ولا بد ان تصاحبه شهراً وذيوعاً وتواتراً لكن شيئاً من هـذا لم يتم تداوله ولم يتحدث بـه احد من علماء التاريخ وحضارة المسلمين أو غيرهم .

ويبدو ان اول علاقة للغـة العربية بالكتاب المقدس كانت في الاندلس بعد ان شاعت ترجمة (ايرونيموس) اللاتينية المنقولة عن العبرية غير المشكلة ولا المضبوطة ، وقد قام بالترجمة عن اللاتينية اسقف من اساقفة (اشبيلية) الذي كان يعرف العربية وكان ذلك بعد عـام ٧٥٠ ميلادية ولم يتم ترجمـة

الكتاب المقدس جملة إلى اللغة العربية في هـذا التاريخ بل تم على مراحل واجزاء فقط .

وفي عام ٨٩٢ ميلادية قام رجل يهودي يدعى (سعد جدغاون الفيومي) وكان ينتمي لمدرسة بابل الماسورايته استعان الرجل بالترجمة السبعينية اليونانية ، وقد ترجم الاسفار الخمسة الاولى وبعض كتب العهد القديم وقد طبعت في القسطنطينية الاسفار الخمسة بالأحرف العربية .

وفي عام ٩٤٦ ميلادية تم طبع هـذه الاسفار في باريس وفي سنة ١٦٤٥ ميلادية تم طبعها في لندن كذلك تم طبعها في لندن ايضاً سنة ١٦٥٧ ميلادية بالحروف العربية ككتاب مكتمل باسفاره المختلفة [١] .

ومما يروى عن هذا الرجل (سعد جدغاون الفيومي) انـه لما كان ذات يوم سائراً في الطريق لمح اسكافياً يهودياً فقـال له مازحاً : كم غرزة تعمل في النهار ؟ فرد عليه الاسكافي مازحاً ايضاً : وكم حرف يحتوي كتابك المقدس، وعاد جدغاون وعكف عن المطالعة نحو ثلاثة اشهر احصى فيها عدد اعداد وكلمات وحروف العهد القديم لكنهم مع ذلك لم يقولوا لنا ولم ينقلوا لنا اعداد وكلمات وحروف العهد القديم عصر جدغاون ولم يتم ذلك إلا بعد عصر ظهور المعاجم الدينيـة للعهد القديم في أواخر القرن التاسع عشر واوائل القرن العشرين الميلاديين .

هذا ومـا يروى بغير براهين قوية عن (حنين بن اسحاق انـه نقل العهد القديم إلى اللغـة العربية من الترجمـة السبعينية في القرن التاسع الميلاد) والعجيب والمثير للدهشة ان العالم الالماني (تشين دوروف) عند زيارته لدير القديسة (ماري ديبارا) في صحراء فيتريان وجد نسخة عربية للعهد القديم

---

(١) جميل حناطر – انجان الكتاب المقدس في اللغـة العربية مطبعـة النيل المسيحية بالمناخ مصر عام ١٩٣٦ ص ١٠ .

منقولة عن ترجمة عربية لبعض اسفار العهد القديم ترجع إلى القرن العاشر الميلادي منقولة من الترجمة السبعينية والسريانية وعن المتنين السامري والماسوراتي وقد وضعت الترجمتان العربية والسريانية في كتاب واحد وفي كل صفحة منه قائمتان متحاذيتان تتضمن الترجمة العربية وقائمة تتضمن الترجمة السريانية [1] .

ويبدو ان رجلاً من يهود السامرة اسمه (بو سعيد) ترجم الاسفار الخمسة الاولى من العهد القديم وهي التي لا يتمسك يهود السامرة بما عداها وذلك في القرن الثاني عشر للميلاد ، ويبدو ان هذه الترجمة ظهرت في هولندا بحروف عربية عام ١٨٥١ ميلادية بعد أكثر من خمسمائة عام على ترجمتها وقد كانت باللغة العربية الدارجة وبحروف سامرية ولكن الطبعة الهولندية جاءت بحروف عربية [2] . وقد جاء في مقدمة الترجمة كلمات يظهر فيها بوضوح أثر الثقافة العربية الاسلامية في لغة اليهود السامريين بالذات فقد قال الرجل (قال العبد الفقير إلى رحمة الله ابو سعيد بن ابي الحسين بن ابي سعيد ! احمد الله عاقبته انني لما رأيت الكتاب الشريف الذي بأيدي اصحابنا كثرهم الله وأصلحهم مفسودة صورة ومعنى لجهلهم باللغة العربية ، يزعمون انها ترجمة الشيخ الفاضل ابي الحسن الصوري رحمه الله ، وليست له ، ويستحيل ان ينطق بها وخصوصاً ما ترجم في .... مما هو كفر صراح وما وقع مشبهاً له ، وإنما هي ترجمة الفيومي عالم اليهود قابله الله ، واقتضت المصلحة ان أترجم هذه النسخة وما تقدمها وما قد اكتب بعدها انشاء الله تعالى بعبارة صحيحة فصيحة لتنقل منها نسخ تنسخ الباطل الذي عليه الفيومي ومن رضي بعباراته ، وليصير لي جميل عند الله عز وجل ومتبعي الحق انشاء الله) .

والذي حدث بعد ذلك للكتاب المقدس بعهديه في اللغة العربية ان

---

(١) جميل حناطر انجان الكتاب المقدس في اللغة العربية ص ١١ .

(٢) المصدر السابق ص ١٢ .

ظهرت عدت ترجمات من القرن السادس عشر الميلادي لم تكن لتفي بالحاجة تماماً فقــــد كانت دائماً مشحونة بالاخطاء وكما يقول (جميل حناطر انجان) خريج مدرسة اللاهوت الانجيلية في مصر في كتابه الكتاب المقدس في اللغة العربية في صفحة ١٣ وبالنص (كانت هذه الترجمات تنقصها الدقة في التعبير والمتانة في الانشاء ، وكان جل المترجمين يعتمدون على ترجمات غير الاصل كالسريانية والقبطية والترجمة السبعينية فنتج عن ذلك ان الترجمات العربية لم تكن حتى القرن الثالث عشر لتعطي صورة صادقــة للعهــد القديم حسب علاقته باللغات التي كان يتداول بهــا بل نستطيع القول بناء على ما قام بــه المترجمون أنهم قد شوّهوا الكتاب المقدس بترجماتهم السخيفة هذه ، إذ كانوا غيورين أكثر منهم فاهمين ، وأحياناً كانت ترجماتهم حرفية وأحياناً أخرى غير مفهومة ، فكان محتماً أن ينهض بعض رجال اللغة الغيورين ويضعوا للكتاب ترجمات عربيــة يقبلهــا الذوق العربي السليم ، ويجب أن يكون في الاعتبار أنه بناء على هذا الاقرار الذي جاء بين سياق خريج مدرسة اللاهوت الانجيلية في مصر ، والذي كان أحد اثنين اختار لهما المدرسة ليكون له شرف القــاء خطبة توزيـــع الشهادات اللاهوتية عــام ١٩٣٤ أن اجيالاً كثيرة من اتباع الكتاب المقدس قد اطلعت عليه وتعلمت فيه وتعبّدت به في اللغة العربية وهو على ما فيه كما يصفه احد الانجيليين مشحوناً بالغلط تنقصه الدقة في التعبير .

وإذا كان هــو الحال في نقله من اللغــة اللاتينية أو السريانية أو اليونانية فكيف يكون حال هـــذه الترجمات نفسها ، اليونانية واللاتينية والسريانية والقبطيــة حين كانت تنقل من العبرية غـير ذات القواعــد أو من العبريــة الماسوراتيــة أو السامريــة التي دونت من أفواه بعض الرجال وذاكرة بعض الكهّان والاحبار ؟ نعتقد أن النسخ المتداولة الآن للكتاب المقدس بعهديــه بلغات العالم المختلفة ، بينهــا وبين روح الوعي المدّعي أو المتصور في أصول مفقودة أو منقولة هوّة سحيقة وانقطاع تام لا يتصور معه أن يكون ما في أيدي العالم الآن من أسفار العهد القديم فيه وحي الانبياء أو بقية من روح الشريعة .

هذا .. ومما يجدر ذكره في هذا المقام أن نسخة الكتاب المقدس التي بين أيدينا والتي نرجع اليها عند تناولنا لنصوص التراث الاسرائيلي في العهد القديم المطبوعة عام ١٩٦٦ عن جمعيات الكتاب المقدس في الشرق الادنى لم تسلم هي الاخرى في ترتيب طبعها من بعض الاخطاء التي تتمثل في تقديم وتأخير بعض اصحاحات سفر اشعيا في الصفحة الواحدة لعل ذلـــك يقوم كبرهان مادي عصري لايقبل الجدل فيما تعرض له هـذا الكتاب من تعديل وتغيير وحذف واضافة . فمثلا جاء الاصحاح التاسع والعشرين من سفر اشعيا بالصفحة رقم ٨٠١ والمنطقي أن يكون الاصحاح الثلاثون على الوجه المقابل للورقة التي تحمل رقم ٨٠٢ لكنها جاءت تحمل رقم ٨٠٦ وفيها الاصحاح الثالث والثلاثون وجاء الاصحاح الرابـع والثلاثون في الصفحة التي تحمل رقم ٨٠٧ وكان من الطبيعي لو صحّت الطبعة أن يكون الاصحاح الخامس والثلاثون في الصفحة رقم ٨٠٨ الوجه الثاني للورقة الواحدة لكنها جاءت تحمل رقم ٨٠٤ وفيهـا بقيـة الاصحاح الرابـع والثلاثين وأول الاصحاح الحادي والثلاثون ثم جاءت الصفحة بعدها تحمل رقم ٨٠٥ وفيهـا الاصحاح الثاني والثلاثون بينما جاء في الترتيب متأخراً عن صفحة ٨٠٦ ، ٨٠٧ ، ٨٠٣ وفيها الاصحاح الثلاثون وليكون في الوجه الثاني للورقة الواحدة التي تحمل رقم ٨٠٣ وجههـا التالي يحمل رقم ٨٠٥ وفيها بقية الاصحاح الثلاثون وأول الخامس والثلاثون .

وأمام مثل هذا المشهد الذي وجدناه ونحن نطالع نسخة واحدة رأيناها جاءت هكذا بهذا الخلل وبهذا الخلط ، مـا الذي كان يمكن أن تكون عليه نصوص السفر من تداخل والتباس لو لم تحمل الاصحاحات أرقاماً ؟ .

ولا جدال أن المثل الذي بين أيدينـا يقدم برهاناً يعاون على مـــا لدى الباحث من دلائل وبراهين تؤكد باليقين أن الكتاب المقدس بعهديـه القديم والجديد على السواء قد انتهى الينا وليس فيه بقية من وحي فضلاً عن افتقاده للوحدة الموضوعية والعقائدية بل والتدوينية على السواء .

الفصل الخامس

النسخة العربية المتداولة اليوم

بداية ما انتهى الينا اليوم من طبع (الكتاب المقدس) في لغة العرب كان بعد تلك المرحلة الطويلة من عمليات التراجم والنقول والطبع التي بدأت في نهاية القرن السادس عشر حتى أواخر القرن التاسع عشر .

هـذا ومن الجدير بالذكر انـه من أول تلك النسخ التي تم تداولها باللغة العربية ، كانت تلك التي تتضمن المزامير باللغة العربية ضمن لغات خمس هي: العبرية واليونانية والكلدانية واللاتينية ، وقد طبعت في ايطاليا عام ١٥١٦ ميلادية ، وبدار الكتب المصرية نسخة منها .

وفي عام ١٥٤٦ م ظهرت نسخة الاستانة ذات اللغات المختلفـة وتحتوي على أسفار موسى الخمسة باللغـــة العربية منقولة عن ترجمة (سعد جدغاون الفيومي) التي هاجمها كما قال عن نفسه العبد الفقير ابو سعيد بن ابي الحسين ابن أبي سعيد السامري .

هذا ومن الجدير بالذكر ان (جميل حناطر انجان) وهو يؤرخ للكتاب المقدس باللغة العربية يقول وفي عام ١٦١٤ م تم طبع المزامير في روما برعاية رجـل فرنساوي هو (سافاري دي بريف) الذي كان سفيراً لبـلاده لدى

حكومة اسطنبول ثم لدى حكومة روما وقد طبعت ترجمة أخرى للمزامير مطابقة للسريانية في لبنان عام ١٧١٠ م وفي عام ١٦٤٥ م طبع من نسخة العهد القديم التي كانت في باريس نسخة كاملة الى اللغة العربية .

هذا وفيما يذهب اليه جميل انجان انه في عام ١٦٧١ م تم تداول نسخة كاملة من الكتاب المقدس باللغة العربيـة بدون أية نقولات او تعليقات او ترجمة أخرى وهـذه الترجمة هي التي ظلت سائدة في اللغة العربية من هذا التاريخ ١٦٧١ م حتى ظهور الطبعة الحالية المطبوعة في بيروت والتي اشرف على ترجمتها وتنقيحها (فان ديك وسمث) في عام ١٨٤٨ كانت هذه الطبعة بمعـاونة (بطرس البستاني ، والشيخ ناصيف اليازجي) وتمت الترجمة من اللغة العبرية إلى العربية مباشرة ، وما ان جاء عام ١٨٥٧ م حتى كان معظم الكتاب المقدس مترجماً ومطبوعاً وصالحاً للتداول والفضل في هذا يرجع الى الدكتور (سمث) الذي تخرج من كلية بيل الامريكية ، وزار مالطة وروما واليونان وبعد ان رسم (قسا) استقر في بيروت عـام ١٨٣٣ م وافتتحت زوجته مدرسة نظامية للبنات في بيروت ، ثم قـام الدكتور سمث باصطناع حروف عربية زار من أجلها (اسطنبول ومصر) وألمّ باللغة العربية وكان يجيد التحدث بها .

وفي عـام ١٨٤٤ م اجتمعت لجنة من المبشرين الامريكان في بيروت مـع المستر اندروس والدكتور (هوز) وبعد أيام أعلن الدكتور سمث رغبته في ترجمة الكتاب المقدس إلى اللغة العربية وقد انضم اليه الدكتور (كبنبوش فانديك) وهو ايضاً من رجال نيويورك في امريكا بعد ان توفى الدكتور سمث تابع اعماله واشرف على ترجمة وطبع الكتاب المقدس (النسخة العربية المتداولة) حتى الآن وهـــذه الترجمة العربية للكتاب المقدس التي وضعها الدكتور سمث والدكتور فان ديـك والمعروفة باسم : (ترجمة فان ديك) قبلهـا كمقياس كل المرسلين المبشرين البروتستانت وجمعيات المرسلين في كل

انحاء العالم المسيحي ، غير ان ذلك لم يمنع الآباء اليسوعيين [1] من أن يدلوا بدلوهم في هذا المضمار ذي الأهمية العظمى وأن يبذلوا جهدهم في ابراز الكتاب المقدس بالشكل الذي يرون انه يمثل الغاية من اهدافهم الدينية والسياسية ، فمع علمهم بما قام به الدكتور فان ديك (وسمث) ومـا انتهى اليه قاموا به في عام ١٨٨١ م واصدروا ترجمة عربية جديدة بمعاونة (ابراهيم اليازجي) نجل (ناصيف اليازجي) وباشتراك (قس) اسمه (جمجمع) كان ذلك تحت اشراف بطريرك القدس ومن العجب انه قد رحب بابا روما بمشروع الآباء اليسوعيين مع علمه بوجود الطبعة التي اشرف عليها الدكتور (فان ديك) وأمر الكاردينال برنابو ان يتم الترجمة تحت اشراف بطريرك القدس ، وقـد تمت الترجمة من العبرية واليونانية ، وقد سجلت اللجان التي اشرفت على هذا العمل هذا القول في الترجمة : (اننا لن ندخر وسعاً في أن نجعل هذه الترجمة أجدر الترجمات بارضاء الأحبار المحترمين وأنفعها للكهنة والمؤمنين وأجلهـا لمجد الله الأعظم) [2] .

ويبـدو ان الترجمة اليسوعية أفصح من الترجمة الأمريكية التي أشرف عليها الدكتور (فان ديك) لكن بعض الناقدين المحـدثين يعلق على ترجمة الآباء بقوله : ظهر الكتاب المقدس من أوله إلى آخره كأنـه لمؤلف واحـد كتبه بنفس واحد مع أن كتبته كثيرون لكل منهم نفس خاص به وبعضهم قد تنوع نفسه بالنسبة إلى تنوع المواضيع التي كتب عنها ومع ان هذا القول الذي يدعيه بعض الآباء اليسوعيين مع ان الترجمة العربية التي بـين أيدينـا ظهرت بنفس واحـد وكأنها لمؤلف واحد يتناقض مع مـا انتهينا اليه من دراستنا ونقدنا السابقين فضلاً عن أنه حين يدعي ان النسخة العربية كأنهـا لمؤلف واحد مع انه يقر ان كتبة الكتاب المقدس كثيرون وان بعضهم كان

---

(١) الكتاب المقدس في اللغة العربية (جميل حناطر النجان) ص ٤١ .

(٢) الكتاب المقدس في اللغة العربية (جميل حناطر النجان) ص ٤١ .

يتنوع بالنسبة لتنوع الموضوع الذي يكتب عنه فان ذلك دليلاً على ان النص العربي خرج وهو لا يحمل سماة روح وسياق ولغة كتّاب العهد القديم الذين يختلفون بالقطع من كاتب إلى آخر .

ومع ذلك فيبدو ان الترجمة الامريكية تتميز بمحافظتها إلى حد ما على نفس الكاتب وأسلوبه بالقدر الذي يتسنى للمترجم مراعاته ، وفي التعليق على هذه الترجمة يقول (جميل خناطر الجان) انك لتكاد تعرف ان السفر الفلاني للكاتب الفلاني لمطالعتك بضع فقرات من كتاب هذا وسفر ذاك اما الترجمة اليسوعية فقد سكبت اقوال الكاتبين في قالب انشائي عربي واحد يتعذر معه التمييز بين كاتب وآخر [1] ، ومع كل الجهود التي بذلت من أجل الكتاب المقدس حتى يبدو كتاباً لا خلل فيه ولا تفاوت بين وحداته واجزائه فـان أبسط قواعد التدوين في وحداته وأجزائـه حتى في الأصول والنقول المبكرة من حيث التكامل ووحدة الموضوع لم يحظ بها العهد القديم على وجه الخصوص والأمر كما يقول حبيب سعيد في كتابه (المدخل إلى الكتاب المقدس) صفحة ٤٣ : (... ومما يؤسف له ان تقسيم الفصول والآيات ليس واحداً في الكتب المستعملة في العبادات الكنسية ، وهـذا يجعل الرجوع إلى الشواهد عسيراً ، فمثلاً تقسيم المزامير في نسخة الفولجات اللاتينية يختلف عن التقسيم المتبع في الكتب العبرية والانجليزية والعربية كذلك يختلف تقسيم الآيات العددي في كثير من المزامير ، وسبب الاختلاف في تقسيم المزامير يرجع إلى أن الكتب المقدسة الانجليزية والعربية منقولة عن التقسيم الأصلي في النسخة العبرية ، أما المزامير اللاتينية فمنقولة في تقسيمها حسب الوضع الذي جرى عليه كتاب الترجمة السبعينية) [2] انتهى .

وقد يقول قائل في التعليق على هذه الحقيقة التي يقررها ويسوقها واحد

---

(١) (جميل خناطر الجان) ص ٤٥ .

(٢) (حبيب سعيد) : المدخل الى الكتاب المقدس ص ٤٣ .

من الكتّاب المحدثين ومن اتباع الكنيسة ، ان هذا الاختلاف والتفاوت إنما هو شكلي وسببه عمل الكتّاب والنساخين والناقلين ، والجواب الذي نظن انه لا تعليق عليه هو انه إذا كان عمل الكتّاب والنساخين أنهى إلى العالم نصوص الكتاب المقدس لا معناها بهذا القدر من التفاوت فضلاً عن اختلاف طوائف من المؤمنين به حول معظمه كما هو الحال وحتى اليوم مع البقية الباقية في العالم من اليهود السامريين الذين لم يصح عندهم من العهد القديم غير الكتب الخمسة الأولى فقط وما عداها من اسفار لا يعترفون به ولا يقرونها [1] فأي، وأي معاني تلك التي بقيت تحفظ آثار الوحي وبصماته عبر مئات من السنين وعشرات التراجم لأكثر من لغة بدأت من عندنا وعلى ضوء قواعد اتفق عليها عمليات وضع وصياغة عبارات وألفاظ العهد القديم والجديد على السواء في اللغة العربية المعاصرة ؟

نعتقد انه بعد هذه اللمحة السريعة والموجزة عن أحوال وأوضاع وتطورات العهد القديم في لغاته القديمة حتى انتهى الينا في اللغة العربية يتأكد لنا ان ثمة فارقاً كبيراً بين ما يمكن أن تكون عليه نصوص الأسفار في ماضيها البعيد قبل الميلاد من بقية نصوص تحمل بعض بصمات الوحي وبين عملية نقله إلى لغات العالم ومن بينها بالقطع لغة العهد القديم العربية والتي بين أيدينا مصدراً للتراث الاسرائيلي في العهد القديم .

---

(١) التاريخ مما تقدم عن الآباء تأليف الحبر اليهودي (ابو الحسن السامري) طبع بالمانيا بتعليق المسيو دلمار دار الكتب المصرية تحت رقم ٢٢٠ .

الباب الثالث

الله بين التنزيه والتجسيم في العهد القديم

الفصل الأول

العقيدة الدينية والوصايا العشر

في هذا الموضوع الجليل والمتعلق بالذات العلية ، نود ألا نذهب بعيداً بين كل أسفار العهد القديم ، لنتعرف على قضية الألوهية ذاتاً وموضوعاً وصفاتاً لأن ذلـك قد يطول بنا كثيراً ، لكنه يكفينا في التعرف على منهج العهـد القديم في هذه القضية بعض ما في كتب العهد القديم وهو أيضاً من أهم مـا يعني بـــه المؤمنون بالعهد القديم في الوقوف على مصادر العقيدة والشريعة اليهودية وذلك من خلال الكتب الخمسة المدوّنة في العهد القديم على انها لموسى عليه السلام وعلى انها ايضاً سفر الشريعة : (التوراة) .

والدارس لأسفار العهد القديم بصفة عامة ، وأسفار (موسى) على وجه الخصوص يطالعه في الاصحاح العشرين من سفر الخروج سبعة عشر فقرة منسوبة لله تعالى في هذا السفر وموجهة إلى موسى عليه السلام ، وما تود أن تنتهي اليه هذه الفقرات وما توحيه تتحدد أبعاد ومقومات العقيدة اليهودية — معتقداً ، وعبادة ، وشريعة — على ضوء ما انتهت الينا به أخبار كتب العهد القديم .

تقول فقرات الخروج في الاصحاح العشرين بعد مقدمة انتهى بها الاصحاح

التاسع عشر تتحدث عن دعوة الله لموسى أن يصعد إلى الجبل ليتلقى ما هو معطيه إياه : (ثم تكلم الرب في جميع هذه الكلمات قائلاً : أنا الرب إلهك الذي أخرجك من أرض مصر من بيت العبودية، لا يكن آلهة أخرى أمامي، لا تصنع لك تمثالاً ، لا منحوتاً ولا صورة مما في السماء من فوق وما في فوق من تحت وما في الماء من تحت الأرض ، لا تسجد لهن ولا تعبدهن لأني أنا الرب إلهك إله غيور ، افتقد ذنوب الآباء في الأبناء في الجيل الثالث والرابع من مبغضي واصنع إحساناً الى ألوف من محبي وحافظي وصاياي ، لا تنطق باسم الرب إلهك باطلاً ، لأن الرب لا يبرىء من نطق باسمه باطلاً، اذكر يوم السبت لتقدسه ، ستة أيام تعمل وتصنع جميع عملك ، وأما اليوم السابع ففيه سبت للرب إلهك ، لا تصنع عملاً ما ، أنت وابنك وابنتك وعبدك وامتك وبهيمتك ونزيلك الذي داخل ابوابك ، لان في ستة أيام صنع الرب الأرض والسماء والبحر وكل ما فيها واستراح في اليوم السابع لذلك بارك الرب يوم السبت وقدسه أكرم أباك وأمك لكي تطول أيامك على الأرض التي يعطيك الرب إلهك : لا تقتل ، لا تزن ، لا تسرق ، لا تشهد على قريبك شهادة زور ، لا تشته بيت قريبك ، لا تشته امرأة قريبك ، ولا عبده ولا امته ولا ثوره ولا حماره ولا شيئاً مما لقريبك) (١) .

ليس في أسفار العهد القديم كله كلمات تتحدث عن العقيدة والعبادة والشريعة اليهودية بهذا القدر من الإيجاز وبهذا القدر من الإلمام والشمول ، فبصريح العبارة ودون أن يكون هناك مجال للبس أو تأويل جاءت الوصايا العشر تحمل بين سياقها الجانب العقائدي والتعبدي والشرعي في صلب العقيدة اليهودية كما يبرزها العهد القديم ويرويها ، ومن خلالها نستطيع ان نتعرف على بعض ما سجلته الأسفار الخمسة بعد ذلك عن عقيدة الإله عند اليهود

(١) (سفر الخروج) الاصحاح العشرون فقرات ١ — ١٧ .

على ضوء ما في أسفارهم تنزيهاً أو تجسيداً ، مماثلة المخلوقات وتشبيهاً بها ، أو تجرداً بالخالقية وانفراداً بها ومغايرة لما سواها .

إننا نستطيع أن نرتب ما جاء في الفقرات السابقة وبغير نسخ أو تشويه كما يحاول بعض علماء اليهود أن يفعلوا بالنصوص نستطيع أن نراها على الوجه الآتي :

(... أنا الرب إلهك .. لا يكن لك آلهة أخرى) .

(لا تصنع لك تمثالاً منحوتاً .. لا تسجد لهن ولا تعبدهن) .

(لا تنطق باسم الرب إلهك باطلاً لان الرب لا يبرىء من نطق باسمه باطلاً) .

وعند هذه العناصر الثلاث التي جاءت بين النص نستطيع ان نرى العقيدة اليهودية ، أو قل عقيدة التوحيد في اليهودية على ضوء ما هي عليه في هذا المشهد من كتب التوراة الخمسة وهي فيما نراه منها كعقيدة دينية بالمعيار المنزه لرب العالمين والموحد لذاته تعالى ، والمقر بمخالفته للحوادث لا نرى في هذه العناصر الثلاثة شيئاً يستحق الوقوف أمامه بالنقد أو التعليق ، وذلك سنعرض له مما هو آت في هذا الموضوع الدقيق .

ثم تطالعنا هذه العناصر بين سياق نصوص الفقرات التي ذكرناها لتقول هي الأخرى :

(اذكر يوم السبت لتقدسه) .

(أكرم أباك وأمك) .

وفي هذين العنصرين نستطيع أن نرى الجانب التعبدي في اليهودية يوم كان ويوم مورس ، وقد يتفرع عن هذين العنصرين معنى يقول : ان الله تعالى في اليهودية كان يعبد في يوم معلوم دون سواه وانه أمر باكرام الوالدين ، وقرن يوم تقديس السبت باكرام الوالدين ، فهذا الجانب التعبدي إن كان هكذا يوم كان وكما ترويه النصوص التي بين أيدينا فلا بأس فيه عندهم ولا

اعتراض لنـا عليه يوم مورس ، ثم تطالعنا فقرات سفر الخروج التي أتينـا عليها بخمس عناصر أو نقاط تتم بالخمس السابقين الوصايا العشر والتي نظن انها البقية الباقية مما حملته اسفار العهد القديم من آثار الوحي ، وهذه العناصر الخمس هي التي تقول : (لا تقتل ، لا تزن ، لا تسرق ، لا تشهد على قريبك شهادة زور ، لا تشته بيت قريبك) .

هـذه هي الوصايا العشر كما وردت في سفر الخروج ، ورب العزة فيهـا أقرب ما يكون الى التنزيه الذي يليق بذاته التي تتعالى عن المخلوقات .

غير انه قد يعيب هذه النصوص التي تنسب الى الله تعالى متضمنة هـذه الأوامر التي أمر الله رسوله موسى بها متضمنة مـا بين الفقرات المدعاة على انها من الله تعالى لعبده موسى بعض الصفات التي قد يمكن ان يقال عنهـا انها لا تتفق وعـــدل رب العالمين الذي ينسب اليه السفر تلك العبارة في الاصحاح العشرين التي تقول : (يفتقد ذنوب الآبـاء في الابناء في الجيـل الثالث والرابع)[1] ، كذلك فان العنصرية اليهودية تبدو بارزة في علاقات اليهود مع غيرهم من خلال توجيهات تلك الوصايا فمفهوم المغايرة في العبارات التي تقول : (لا تشهد على قريبك شهـادة زور ، لا تشته بيت قريبك) يمكن على ضوء هذه الوصايا ان يكون المؤمنون بها من اليهود في ممارساتهم مع غير اليهود في حل من تعاليم هـذه الوصايا لأن النص الذي بين ايديهم يقول : (لا تشهد على قريبك شهادة زور) وكأنه في حل من هذه الشهادة مع غير قريبه ، وتقول : (لا تشته امرأة قريبك ولا عبده ولا امته ولا ثوره ولا حماره ولا شيئاً مما لقريبك) وكأنه ايضاً في حل من أن يستحل كل هذه الأشياء مع غير قريبه ، بينما بقية عناصر الوصايا جاءت بالنهي عن السلوك المنهى عنه مطلقاً : (لا تقتل ، لا تزن ، لا تسرق) .

---

(١) (سفر الخروج) الاصحاح العشرون فقرة ٥ .

ويبدو ان هذا التفاوت جاء بأثر من الحال الذي كان عليه بنو اسرائيل عقب خروجهم من مصر ، وان ظل بعد ذلك يلازمهم أجيالاً وأجيالاً .

***

هذا وقد عرف العلماء المعنيون اليهودية بأنها أول دين سماوي مكتوب أنزله الله تعالى وحياً على نبيه موسى ليعبده بنو اسرائيل ولا يشرك به شيئاً أي انها دين سماوي يقوم على توحيد الواحد القهار، والمسلمون بهدى من كتاب الله تعالى مطالبون بالايمان به باعتبار اليهودية الدين الذي أنزله الله على قلب عبده موسى ينادي بوحدانية الله رب العالمين ، ولكن العجيب الغريب ان الباحث إذا ما ذهب يدرس العقيدة اليهودية من خلال مصادرها التي بين ايدينا : التوراة – كتب الأنبياء – التلمود – المدراش ، لا يعثر فيها على ما يدل على ان المعتقد اليهودي في الذات العلية قوامه (التوحيد) وتنزيه رب العالمين عن البشر ومخالفته للحوادث ، فلفظة الجلالة التي ترد في العهد القديم وخاصة في الأسفار الخمسة الأولى التي يهمنا أمرها بالدرجة الأولى ، حين تجيء بهذا المفرد العلم بين السياق العام (الله) تجيء وبغير علاقه الله تعالى بالخلق او التدبير او الرعاية، او تجيء وليس لها وظيفة في السياق الذي وردت فيه فلا يتعبد لها ولا يستعان بها ، ولا يرجع او يلجأ اليها ، ولكن الذي يبرز دائماً ابداً بجوار لفظ الجلالة في العهد القديم وفي الأسفار الخمسة ايضاً الله لفظة اخرى او الفاظ مغايرة للفظة الجلالة وتجيء هذه الألفاظ وهي تغاير تماماً خصائص ومقومات التوحيد المنبعث من قلب وعقل المؤمن حين يستشعر روابط العلاقة التي يمكن (في ضوء الايمان بالله) ان تقوم بينه وبين رب العالمين ، فمثلا نرى في سفر الخروج في الاصحاح الثالث فقرة ١٥ هذا النص الذي يقول : (وقال الله لموسى هكذا تقول لبني اسرائيل (يهوه) إله آبائكم إله ابراهيم وإله اسحق وإله يعقوب ارسلني اليكم هذا اسمي إلى الأبد وهذا ذكري إلى دور فدور) .

وفي هذه الفقرة مفارقة تجعل النص لا يستقيم .. (وقال الله لموسى...) بمنطق الإيمان الصحيح الذي يؤمن بوحي الله لبعض خلقه المصطفين لا غبار في مقدمة الفقرة التي تتحدث عن ان الله قال لموسى ، ويؤمن المسلمون بأن الله قد اوحى الى موسى بالقول او بغيره لكن المفارقة في سفر الخروج تجيء هنا وفي هذا القول،حين يستشرق الناظر لهذه النصوص ما الذي قاله الله لموسى؟ وتكون المغايرة التامة ان الله سبحانه كما يحكي السفر ويدعي . يقول لموسى . (هكذا تقول لبني اسرائيل) (يهوه) إله آبائكم إله ابراهيم وإله اسحق وإله يعقوب ارسلني اليكم وبمقتضى هـذا السياق فالله الذي قـال لموسى في العبارة يعبر عن عقيدة في الإله الذي يوحي ويهوه إله آباء اسرائيل يعبر عن عقيدة اخرى لأنـــه في عقيدة اسرائيل ان يهوه هو رب الجنود الخاص باسرائيل دون سواهم وكان مقتضى السياق ان يجيء هكذا .. (وقـال الله لموسى هكذا تقول لبني اسرائيل إله آبائكم ابراهيم واسحق ويعقوب ارسلني اليكم) خاصة وان الايمـان بعقيدة يهوه عصر موسى عليه السلام لم يكن من المعتقدات الشائعة عند بني اسرائيل لأنهم حين جعلوا من عقيدتهم في الإله خصوصية لا يشترك معهم فيها احد أطلقوا عليها اسم (يهوه) لكن يبدو ان النص الذي بين ايدينا كتب وسجل بعد ظهور عقيدة (يهوه) إله بني اسرائيل من دون البشر ومن هنا جاء ذلك الخلط والخلل في العبارة التي نسبها السفر لله رب العالمين موجهة إلى موسى عليه السلام .

الفصل الثاني

التجسيم والمشابهة في العهد القديم

لا يقف أمر الرواية في العهد القديم حول الذات العلية بأنها رب اسرائيل دون سواهم من البشر وانها نماذج وصور ينوب بعضها عن بعض ولكن الأدهى ان صوراً من التي تعرض عن الإله في العهد القديم ، تجعله مثل غيره من المخلوقات يغار ويغضب ويتألم ويندم ، وبعد كل تلك الصفات يلد ، وعنده من الاولاد مثل البشر : الولد البكر الذي يعتني به وله حظوة عند أبيه ليست لغيره وإذا ما مسه السوء فانه يغضب لذلك وينتقم ، وبغير لغط او تأويل المغرمين بتأويل النصوص وتمييعها بغير ما سند او قرينة او حق منهج نظري ، فان الأبوة والبنوة المتعلقة برب اسرائيل التي عناها كاتب الفقرات رقم ٢١ — ٢٤ من الاصحاح الرابع من سفر الخروج جــاءت على سبيل المماثلة والمشابهة والقرائن في النص لا تسمح بالتأويل او اللعب فيه على ضوء ما يذهب بعض علماء اللاهوت فماذا تقول الفقرات التي نعنيها ؟ تقول : (وقال الرب لموسى عندما تذهب لترجع الى مصر انظر جميع العجائب التي جعلتها في يدك واصنعها قدام فرعون ولكني أشدّد قلبه حتى لا يطلق الشعب ، فتقول لفرعون هكذا يقول الرب : اسرائيل ابني البكر ، فقلت اطلق ابني ليعبدني فأبيت ان تطلقه ، ها أنا اقتل ابنك البكر) .

وهكذا بغير لغط كما يفصح النص : بكراً ببكر ، والسؤال هنا هو لماذا اسرائيل الـذي هو (يعقوب بن اسحق بن ابراهيم) دون غـيره من الآباء والأبناء الذي حلت فيه تلك الخاصية العجيبة ، لكن العجب قـد يزول إذا عـلم ان اسرائيل ليس وحـده الابن الذي حظي بهذه المشاركة الحسيّة مع (يهوه) رب اسرائيل وإنما هنا من قديم كما تروي النصوص من اول الخلق تتعلق بهم وفيهم البنوة وهم أفراد في منطق كاتب الأسفار لم يشأ ان يذكر لنا اسماءهم ولا عددهم ولا زمانهم ، وإنما على ضوء ما ساقه وقصّه ، لما كثر الناس على الأرض كان منهم أبنـاء الله وأيضـاً فـلا يراد بالبنوّة عند كاتب الأسفار غير معناها الحسّي المجسّم والمحدّد لأن الكاتب وضع هذه البنوة في مقابلة أبناء الناس أي أنه يريد في هذه المقابلة أن يضع: أبناء الله في مقابلة أبناء الناس أي ، ويلعب الدور الحسّي عمله في عقل المصنّف للأسفار فيبرز تأثير أبناء الناس (البنات) في أبناء الله (الذكور) وعندئذ يدرك الأب وينسى كاتب الأسفار أن الأصل فيه عنده انه (إله) يدرك ان ابناءه زاغوا لأنهم بشر فعندئذ يصدر أحكامه وفرائضه .

هذه الصور الحسيّة المجسّمة والمعدّدة والمحدّدة على ضوء مـا هي عليه في اسفار العهد القديم وفي الكتب الخمسة على وجـه التحديد يستحيل معهـا تصور عقيدة التوحيد لله رب العالمين من خلال المعطيات التي بين ايدينـا في الأسفار الخمسة او غيرها من كتب العهد القديم ، فماذا تقول فقرات الاصحاح السادس الأولى من سفر التكوين بخصوص ابنـاء الله وبنـات الناس تقول : (وحدث لما ابتدأ الناس يكثرون على الارض وولد لهم بنات ، ان ابناء الله رأوا بنـات الناس أنهن حسنات فاتخذوا لأنفسهم نساء من كل مـا اختاروا فقال الرب لا يدين روحي في الانسان الى الأبد لزيغانه ، هو بشر وتكون ايامه مائة وعشرين سنة ، كان في الارض طغاة في تلك الايام ، وبعد ذلـك ايضاً إذ دخل بنو الله على بنات الناس وولدن لهم اولاداً ، هؤلاء هم الجبابرة الذين منذ الدهر ذووا اسم) .

والعجيب المزعج ان المصنّف للسفر لم يخجل ان يذكر اسم الجلالة (الله) الذي لا يرد كثيراً في العهـد القديم ليصفه بالأبوّة ولمن ؟ لأبناء يزيغون حين رأوا بنات الناس أنهن حسنات .

ولم يقل لنا المصنّف ما دخل اقتران ابنـاء الله ببنات الناس وفي الأرض طغاة ، وكيف يتأتى أن ينجب اولاد الله من بنـات الناس (جبـابرة منذ الدهر)[1] .. وقد يأتي مغالط مكابر من عشاق التفسير بالرمز أو (بالشفرة) ليقول لنا ما لا يفهم ولا يتصوّر في هذه القضية بالذات وما يتعلق بها عندهم بمعنى الأبوّة والبنوّة [2] لكن الذي ينفي وباليقين عن لغـة الأسفار صفـة (التوحيد) في حديثها عن الإله هو ذلك التراث المروى عن الأساطير الوثنية في الأمم البدائية التي لم تعرف ديناً ولم تتخذ لها رباً فراحت تنسج بالخيـال صوراً أقرب الى خيال الرسام منها الى عقيدة وقلب المؤمن ، وقد تجلى أثر ذلـك التراث الوثني فيما بين أيدينا من نصوص ، فنفس الاصحاح الذي معنا من سفر التكوين (السادس) ومن الفقرات ٥ — ٨ تضع أمامنا (الرب) الذي يتحدث عنه السفر وهو يفكر ، أي يعرض له أمراً بعد أمر وتعن له أشياء لم تكن ، وهكذا .. ثم حين رأى ما لا يروق له ولا يعجبه من اعمال الشر التي يقوم بها خلقه حزن ، ولا نريد هنا ان نقول لهم ان الحزن حـالة نفسية تؤثر في الانفعالات العصبية والفسيولوجية وهي وليدة موقف مادي او ذهني ولا يمكن ان ينطبق ذلك على الإله، لا بل انه هنا كما دوّنوا. يأسف ويود أن يدمّر مـــا صنع ، فماذا تقول فقرات الاصحاح السادس من سفر التكوين؟ أحد الخمسة على أنها سفر الشريعة او توراة موسى التي تعرض علينا

---

(١) (سفر التكوين) الاصحاح السادس فقرات ١ — ٤ .

(٢) كنموذج من هؤلاء : (القس سرجيوس) في كتابه : (ان لم يكن المسيح إلهـاً .. فديانته تكون باطلة لأنها قامت على أساس دعواه أنه إله متجسد) الجزء الاول ص ٢٧ ، القاهرة بدون تاريخ .

هذه الصور الوثنية والتي لا يمكن لعقل فضلاً عن مقررات وضوابط عقيدة التوحيد أن تقرها حول الذات العلية يقول : (ورأى الرب ان شر الإنسان قد كثر في الارض ، وان كل تصوّر أفكار قلبه إنما هو شرير كل يوم فحزن الرب أنه عمل الإنسان في الارض وتأسف في قلبه فقال الرب أمحو عن وجه الارض الانسان الذي خلقته .. الانسان مع البهائم ودبابات وطيور السماء لأني حزنت أني عملتهم) [(١)] .

هل يستطيع أي فكر ديني مهما بلغ في التأويل والتفسير بالرمز أن يقول لنا أي نمط من الأرباب هذا الرب الذي حزن لأنه عمل الإنسان في الارض ، وأين كان علمه المتعلق بارادته حتى فوجيء بتلك المصيبة التي جعلته يتأسف في قلبه ؟

ومن المفارقات ايضاً في لغة الاسفار الخمسة عند حديثها عن الإله والنبي ، أن النبوّة في منطق الأسفار قد ترقى الى مقام الألوهية فيصبح النبي إلهاً ومن الممكن ان يصبح صديق او شقيق ذلك النبي المترقي الى درجة الألوهية ان يصبح نبياً هو الآخر ، وهذا الخلل الديني الذي نعثر عليه بين سياق الاسفار ونصوصها هو بالقطع من أكبر البراهين على انعدام صفة (التوحيد) في العقيدة اليهودية على ضوء معطيات الاسفار الخمسة التي افتهت الينا .. فالاصحاح السابع في سفر الخروج الفقرات الثلاثة الأولى منه تقول : (فقال الرب لموسى انظر : انا جعلتك إلهاً لفرعون وهارون أخوك يكون نبيّك ، انت تتكلم بكل ما آمرك) [(٢)] .

وهذه التركيبة العجيبة في نصوص الاسفار مما تحيّر القلب والعقل معاً ولا تسعف فيها القواميس ولا المعاجم ولا التفاسير ولا التأويلات الكهنوتية

---

(١) (سفر التكوين) الاصحاح السادس فقرات ٥ — ٨ .
(٢) (سفر الخروج) الاصحاح الخامس عشر فقرة رقم ١١ .

فالرب ، والإله ، والنبي هنا في هذه النصوص دلالاتهـا غير محددة المضمون ولا معروفة الهوية ، فالرب جعل الانسان إلهاً ، ولم يقل لنا السفر ما الفرق عند كاتبه بين الرب والإله ؟ ومع ذلك فانه ساق لنـا الانسان وقـد أصبح إلهاً له نبي ووظيفة هـذا النبي بجوار (النبي الإله) الذي صنعه لنـا كاتب الاسفار ثانوية لأن تتمة الفقرات التي أتينا عليها تقول لموسى الذي جعله رب كاتب الاسـفار إلهاً (انت تتكلم بكل ما آمرك) .

ولكن الأدهى والأمر أن الإله الذي تحدثنا عنه التوراة في الأسفار الخمسة ليس الإله المنفرد بالخلق والواحد في الكون والخالق لكل شيء ولكنه الإله الأعظم بين الآلهة الأقل عظمة ، والمزعج حقاً ان فقرات في الأسفار من هذه النماذج التي تتحدث عن (الإله) بهذا الشكل الوثني والمتخلف كثيراً عن عقائد بعض الأمم والشعوب التي كانت قبل موسى بمئات السنين تنسب هذه العبارات ، لا أقول المجسّمة او المشبّهة في تصورها او حديثها عن (الذات العلية) ولكنها وثنية المضمون .. وثنية التعبير الى نبي الله موسى عليه السلام ، وكذلك الى سليمان عليه السلام ، ولا جدال ان النبيين العظيمين كانا موحدين لربهما لا يعرفان رباً سواه ويدركان باليقين انه وراء كل شيء وخالق كل شيء وهو على كل شيء قـدير ، لكن كاتب الاصحاح الخامس عشر فقرة رقم ١١ من سفر الخروج بعد افتتاح من الاصحاح عن ترنيم موسى وبني اسرائيل للرب ، ينسب الكاتب لموسى عليه السلام قوله : (مَن مثلك بين الآلهة يا رب ، من مثلك معتزاً في القداسة مخوّفاً بالتسابيح) .

ونحن نريد هنا ان نسأل مصنّف هذا الكلام : هل كان إله موسى بين الآلهة معتزاً في القداسة ؟ وإذا كان كذلك فما موقعه فيما نبحث عنـه في الأسفار الخمسة متعلقاً بموضوع : (الله بين التنزيه والتجسيم) هل يمكن أن يقال بعد ذلك على ضوء هذه الصور وتلك النماذج أن إله العهد القديم يقوم على التنزيه وأنه رب العالمين .. وليت الأمر اقتصر على موسى فيما ادعت عليه

الاسفار ولكنه بعد حقبة تاريخية ضخمة من عصر موسى الى عصر سليمان وقع المصنّف الأعجوبة لكتب العهد القديم في تلك المصيبة الوثنية ايضاً ونسبها الى نبي الله سليمان عليه السلام على انها عقيدته في الإله ، في الاصحاح الثاني من أخبار الأيام الثاني في الفقرة رقم ٥ يطالعنا الكاتب بحديث ينسبه الى سليمان عما سيفعله سليمان لبيت الرب ويقول : (والبيت الذي انا بانيه عظيم ، لأن إلهنا أعظم من جميع الآلهة) .

وهذه النصوص وغيرها كثير تدل على ان عقيدة اليهود في (يهوه) الإله الذي غلب عليهم التعلق به أكثر من غيره من الآلهة التي شاعت وكثر استعمالها في العهد القديم لم تكن عقيدة في الإله الواحد الذي يعترفون به ويقرّوا بربوبيته وبالاذعان له وحده دون سواه ، لكنه كما جاء حتى في الوصية الأولى من الوصايا العشر التي دوّنت في العهد القديم إله يطلب ان يكون مقامه فوق سائر الأرباب وهو يقر بأنه إله غيور ويأمر اتباعه بهدم مذابحهم وتكسير أصنامهم وابادتها ، وهو إله عنصري لاسرائيل دون سواهم من البشر ، ومن هنا قلما كان اليهود قبل (اشعيا) يفكرون في ان يكون يهوه إله الأسباط جميعاً او حتى إله العبرانيين كلهم ، فقد كان للمؤابيين إلههم (شمس) وكانت (نعمى) تظهر انه لا ضير من أن تظل (راعوث) على ولائها للإله (بعل) الذي كانوا يعظّمونه ويقدّسونه ، وقد ورد في السفر المسمّى باسمها ما يفيد امكان استبدال الإله بإله آخر عند القوم جميعاً حتى عند أنبياء العهد القديم أنفسهم يقول الاصحاح الأول من سفر (راعوث) فقرات ١١ — ١٥ : (فقالت نعمى ارجعا يا بنتيّ ، لماذا تذهبان معي ، هل في أحشائي بنون حتى يكونوا لكما رجالاً ، ارجعا يا بنتيّ واذهبا لأني قد شخت عن ان أكون لرجل ، وان قلت لي رجاء أيضاً بأني أصير هذه الليلة لرجل وألد بنين ايضاً هل تصبران لهم حتى يكبروا ، هل تنحجزان من أجلهم عن ان تكونا لرجل ، لا يا بنتيّ فاني مغمومة جداً من أجلكما لأن يد الرب قد خرجت عليّ ، ثم رفعن أصواتهن وبكين أيضاً ، فقبّلت عرف

حماتها وأما راعوث فلصقت بها ، فقالت هوذا قد رجعت سلفتك الى شعبها وآلهتها ارجعي انت وراء سلفتك) [1] .

وهكذا كما يقول عباس محمود العقاد في كتابه (ابراهيم ابو الأنبياء) نقلاً عن (انجيل) : ان الوحدانية التي كان يدركها الاسرائيليون في ذلك الزمن لم تكن وحدانية تفكير ولكنها وحدانية تغليب لرب من الارباب على سائر الارباب ، ولم يخط اليهود خطوة غير هذه الخطوة وهي ان لليهود إلهاً يعلو على آلهة غيرهم من البشر [2] .

وحتى في المراحل التي ارتقوا فيها بعقيدة الإله الذي يؤمنون به لم ينزهوه أبداً ، فهو إما حال في صورة وموقف .. وأما جسم وكيان وحيّز في صورة وموقف آخر .. وإما صور خيالية غير محـدد الهوية ولا معروف الصفات في موقف ثالث وهكذا .

فمثلاً (سفر القضاة) يصوّر لنا رب اسرائيل حالاً في مكان وهذا المكان موقع بركاني فيه نار ولهيب يأوي اليه رب العهد القديم أحياناً وحين يخرج منه ترتعد الأرض وتنفطر السماء ، وهذا الشكل الوثني المتخلف كثيراً مـا نراه بين سياق كتب العهـد القـديم .. يقول (سفر القضاة) في الاصحاح الخامس ناقلاً أخبار ترنيمة تعبّدية (لدبورة)، (باراق بن أبينوعم) تقول فيها دبورة : (اسمعوا ايها الملوك واصغوا ايها العظماء أنا أنا للرب أترنم أزمّر للرب إله اسرائيـل ، يا رب بخروجـك من سعير بصعودك من صحراء آدوم الارض ارتعدت السماوات ايضـاً فترت كذلك السحب قطرت مـاء ، تزلزلت الجبال من وجه الرب وسيناء هذا من وجه الرب إله اسرائيل) .

هذا ويعلل (هنري برستيد) لما جاء في العهد القديم عن الإله الخاص ببني اسرائيل من ظهوره بهذه الصور والنماذج التي ساقها كاتب الأسفار بأنه

---

(١) (سفر راعوث) الاصحاح الاول فقرات ١١ – ١٥ .

(٢) ابراهيم ابو الانبياء عباس محمود العقاد – دار الهلال – القاهرة بدون تاريخ .

لا بد وأن يكون عند خروج العبرانيين من مصر قد صحبتهم بعض الخوارق الطبيعية ، ولا يشك في انها كانت ذات صبغة بركانية ، فالمظهر الغريب الذي ظهر به (يهوه) في صورة عامود نار أو عامود من دخان ثم تجلّيه فوق سيناء نهاراً محدثاً الرعد والبرق والسحاب الكثيف ، هي بالبداهة عنده ظواهر بركانية ، حسبها العبرانيون مقترنة ومرتبطة ومتلبسة بإلههم ، وعلى ذلك كان من المعترف به عندهم منذ زمن بعيد أن (يهوه) ليس إلا إلهاً محلياً للبراكين وكان مقره المختار سيناء [1] .. ويبدو ان (يهوه) هذا كان كثير النسيان ينسى عهوده ثم يتذكرها ، ويستهويه ان يبرهن كثيراً على أنه الرب القادر على كل شيء ، فالاصحاح السادس من (سفر الخروج) فقرات ٢ — ٦ تطالعنا بما سجله المصنّف للسفر من تذكّر عهد كان قد نسيه (الرب) في العهد القديم تقول هذه الفقرات : (ثم كلّم الله موسى وقال له أنا الرب وأنا ظهرت لابراهيم واسحق ويعقوب بأني الإله القادر على كل شيء ، وأما باسمي (يهوه) فلم أعرف عندهم وايضاً اقمت معهم عهدي ان أعطيهم ارض كنعان ارض غربتهم التي تغرّبوا فيها وانا ايضاً قد سمعت أنين بني اسرائيل الذين يستعبدهم المصريون وتذكرت عهدي).

وإذا كان لنا من تعليق على هذا النص او غيره فنحن نسأل كاتب الاسفار اين يضع إلهه بين عقائد الأمم والشعوب ، أمع تلك التي قطعت شوطاً في الترقي بعقيدة الإله منزهة له عن بعض المخلوقات في اطوارها المختلفة ام تلك التي جعلته نمطاً ونموذجاً من النماذج المألوفة والمعروفة ام تلك الأمم والشعوب التي حاولت ان تتعرّف على رب خالق يعلو على المخلوقات ويترفّع عنها بضروب المغايرة ومخالفته للمخلوقات حتى هذه العقائد الوضعية التي قطعت فيها الإنسانية شوطاً قبل يهودية العهد القديم واثناءها وبعدها لم يرق كتّاب العهد القديم بفكرتهم عن الإله الى مستوى هذه الأمم والشعوب في معظم ما كتبوا وما دوّنوا عن الإله .

---

(١) (محمد بيومي مهران) في كتابه : دراسات في تاريخ الشرق الاقصى ج ٢ ص ٦٣ .

الفصل الثالث

افتقاد عقيدة التوحيد في العهد القديم

الدّراس للعهد القديم بصفة عامة وللأسفار لخمسة المنسوبة لموسى عليه السلام على أنها (التوراة) يجد أن كتّاب الاسفار لم يستحوا من أن يصفوا رب اسرائيل رب الخروج وقائده كما دوّنوا عليه بأن يكون زعيم لصوص (تعالى الله علواً كبيراً) يأمر موسى بأن يوجه الخارجين إلى أن يسرقوا كل ما يقع تحت أيديهم وأن يحتالوا في ذلك ، وفي ذلك تقول الفقرة الاخيرة من الاصحاح الثالث : (فيكون حينما تمضون أنه لا تمضون فارغين ، بل تطلب كل امرأة من جارتها ومن نزيلة بيتها أمتعة فضة وأمتعة ذهب وثياباً وتضعونها على بنيكم وبناتكم فتسلبون المصريين) .

لكن الذي يؤكد بالبرهان القاطع والحجة الدامغة على أنه في موضوع العقيدة الدينية في الاله عند بني اسرائيل تفتقد عقيدة التوحيد تماماً ذلك أنه على ضوء التراث الذي انتهى الينا لم يرق بنو اسرائيل بالفكرة الدينية ولم يعرفوا معنى التنزيه للاله الخالق وبالتالي لم يعرفوا التوحيد الخالص والعجب العجاب أنهم لم يحاولوا أن يقطعوا شوطاً في هذا الموضوع على غرار غيرهم من الشعوب بالاضافة إلى عمل الانبياء فيهم ودور الرسالة الالهية بينهم .

والناظر في الفقرات الاخيرة من الاصحاح الثاني عشر من (سفر الخروج) الذي كان طوال فقرات الاصحاح يقص أخبار أحاديث بين موسى وهارون والرب الاله الذي يحدد لهم مواعيد ومواقيت وشعائر وطقوس قبيل خروجهم من مصر يفاجـأ في نهاية الاصحاح بذلـك القرار المزعج والمؤسف والمنسوب عند الكتّاب وفي الاسفار زيفاً وبطلاناً لرب العالمين أنـه قرر أن ينتقم من المصريين ، وأن يكون أنتقامه شاملاً لكل شيء .. للناس والبهائم ، يطلب الرب فيما نسب كاتب السفر (الوثني) إلى موسى بأن يقوم ومعـه جماعـة اسرائيل على أهل مصر على بيوتهم ويرشوهـا بدمـاء الكباش المضحّاة حتى يكون ربهم على بيّنة منهـا حين يقوم بتدبير بيوت المصريين ، وحتى لا تمتد يده إلى بيوت بني اسرائيل ساعـة أن يدمر بيوت المصريين .. وهذا القول الفكر الوثني الجاهل الذي ينسب إلى رب العالمين فوق صفات الظلم والعدوان والعنصرية الجهل بالأشياء ، وعدم التمييز بين بيوت اعدائـه والمؤمنين بـه ، والعجيب المحيّر هو أن جماعة اسرائيل التي تتحدث عنها الاسفار لم تطالعنا بعبادة وعقيدة في الاله بغير ذلك النمط المعروف من خلال العجل والصنم ..
كاتب الفقرات رقم ١٢ — ١٤ من الاصحاح الثاني عشر في (سفر الخروج) يقول وبالنص كبرهان مادي لا يقبل الجدل في التدليل على عقيدة بني اسرائيل في نوع الاله الذي عرفوه والذي آمنوا بـــه حتى في تلك الفترة التي ما كان يتصور من كاتب الاسفار أن يقع في الحديث عنها في ذلك الخلل البيّن والمعتقد الوثني المتخلف يقول كاتب الفقرات اليهـا : (فإني أجتاز في أرض مصر هذه الليلة ، وأضرب كل بكر في أرض مصر من الناس والبهائم ، وأصنـع أحكاماً بكل آلهة المصريين ، أنا الرب ، ويكون لكم الدم علامة على البيوت التي أنتم فيهـا ، فأرى الدم وأعبر عنكم ، فلا يكون عليكم ضربة للهلاك حين أضرب أرض مصر ، ويكون لكم هـذا اليوم تذكاراً فتعبدونـه عيداً للرب في أجيالكم تعبدونه فريضة أبدية) .

والسؤال الذي بين أيدينا ويطرح نفسه من خلال هذا النص هو : شعب

قادم على شعب مستقر في أرضـه آمن في يومـه وغده ، أفسد الشعب القادم حياة الشعب المستقر المستوطن صاحب الارض والمعمّر لها ، ولما قرر الشعب القادم الخروج والهرب سرق الحلي والماشية بناء على أوامر الرب الذي يعبدونه ثم استمطر الشعب الخارج ربه الغضب والنقمة والتدمير لحياة الشعب المضياف. ونزل رب الشعب الذي تحدث عنه هـذا النص وهـو لا يميز بين بيت وبيت ويحتاج إلى علامة بالدم .. والسؤال هنا هل يمكن في منطق الايمان وعلى ضوء توجيه الرسالة الالهية أن يكون هذا رباً ؟ ولمـا يكون هـذا الحديث وهذا اليوم عيداً وفريضة أبدية ؟ ان شرّاح وكتّاب العهد القديم فيما اطلعنا عليه ليس عندهم جواباً شافياً لهذا السؤال ، وما عليهم إلا أن ينظروا إلى مـــا جاء في اسفار العهد القديم بكل الجمود فإذا ما جاء نص يرفضه العقل والبداهة والفطرة والتاريخ ومنطق الايمان قالوا نبوءة وبشارة ولجأوا إلى التفسير بالرمز او (بالشفرة) .

واذا كان كاتب (سفر الخروج) قد صوّر (الاله) بهذا الوصف الوثني وبهذا المضمون الظـالم – تعالى الله – الذي يتحول فيـه الخالق إلى زعيم او رئيس قبيلة ينزل بسيفه إلى حيث أصاب قومه الأذى وينتقم وهو من الغباء والقصور بحيث يريد علامات يميز بها بين مواقع اهله ومواقع عدّوه .

وإذا كان لنا أن ننظر هـــذه الصورة المرفوضة ففي أي دائرة يريد أن يضع كاتب الاسفار عقيدته في الاله .. هل يمكن أن تكون في غير موضعها من الفكر المـادي والوثني المتخلف ؟ ان كاتب (سفر التكوين) أرانا في مقام القضية التي نحن بصددها عقيدة (التنزيه والتجسيم للاله في العهد القديم) العجب العجاب أرانا كاتب التكوين رب العزة (سبحانه) .. لا بل الأجدر أن نقول : أرانا كاتب السفر وهو (وثني) ربـه في هذا السفر وهو يمارس من الأعمال والاشياء نفس الأعمال والاشياء التي يمارسها الانسان .. انه عند كاتب (سفر التكوين) يتمشى في الجنـة يتنزه تاركاً من مشيته أثر صوت

وحركة في الشجر وإذ كان الرب – تعالى الله وتنزه – يتمشى في الجنة سمع آدم وحواء صوته عند هبوب الريح فاختبأ آدم وامرأته من وجه الرب الاله في وسط شجر الجنـــة فنادى الرب الاله آدم وقال له : أين انت ؟ فقال : سمعت صوتك في الجنة لأني عريان فاختبأت .. ومن مثل هذه الصور والنماذج يكاثر الحديث في (سفر التكوين) عن الاله وحركته وتجواله في الجنـــة ومخاطبته بعض خلقه – تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً .

وهذه الصور المغرقة في المادية والوثنية ما كان لكاتب (سفر التكوين) او غيره من كتّاب الاسفار أن يقع فيهـا وأن ينقلهـا لولا المؤثرات الدينية الوثنية التي كان ينقل منها ممـا كان لدى الامم والشعوب [1] .. ولننظر اليه وهو يقص هذه الواقعة التي يدّعيها على الاله بلغته فماذا قال : (فرأت المرأة أن الشجرة جيدة للأكل وأنهـــا بهجة للعيون ، وأن الشجرة شهيـة للنظر فأخذت من ثمرهـا وأكلت وأعطت رجلها ايضاً معهـــا فأكل ، فانفتحت اعينهما وعلمـا أنهما عريانان فخاطا أوراق تين وصنعا لأنفسهما مآزر ، وسمعا صوت الرب الاله ماشياً في الجنـــة عند هبوب ريح النهار . فاختبـأ آدم وامرأته من وجه الرب الاله في وسط شجر الجنـة ، فنادي الرب الاله آدم وقال له : أين انت ، فقال سمعت صوتك في الجنـــة فخشيتك لأني عريان فاختبأت فقال من علمك انك عريان ؟ هل أكلت من الشجرة التي أوصيتك أن لا تأكل منهـــا ؟ فقال آدم : المرأة التي جعلتهـا معي هي أعطتني من الشجرة فأكلت) .

وهكذا يمضي كتّاب الاسفار المقدسة في العهـد القديم ولا يعقلون فبهذه الصورة التي ينقلها الينا كتّاب الاسفار تكون العقيدة عندهم في الاله ثم يجتر الكتّاب والمؤرخون بأن يهود العهـد القديم هم اول من عرف الالـه الخالق

---

(١) (جيمس فريزر) في كتابـه (الفلكلور في العهد القديم) ترجمـة نبيلة ابراهيم – مراجعة حسن ظاظا – الجزء الاول ص ٢٦٣ ، القاهرة عام ١٩٧٢ ،

رب العالمين[1] وأنهم اول من بشروا في كتبهم بالإيمان وبمجيء المخلص فالنص هنـا يريد ان يقول : سمع آدم وحواء صوت الرب ماشياً ولم يسمعهما الرب فقد نادى الرب الاله آدم وقال له : أين انت ، ولا يستحي كاتب السفر ان ينسب إلى خالق آدم هذا الاستفهام الدال على الجهـل التام عنـد السائل .. هل أكلت من الشجرة ؟ وكأنـه لا يعلم ان كان أكل او لا يأكل واضح تماماً من هذه النماذج وغيرها كثير تفيض به اسفار كتب العهد القديم ان اله بني اسرائيل في مرويات العهد القديم وتراثهم لم يعرفوه رباً خالقـاً يغاير الخلق والأشياء لكنـه ان صدق عندهم أنـــه رب فهو رب يغاير ارباب الشعوب والقبائل الوثنية التي كانت لا تزال بقاياهــــا في عقل وعواطف المجتمعات المتخلفة والتي انتقل تراثها إلى كاتب الاسفار فتأثر بها ونقل عنها ولم يخلص لهم في يوم من الأيام رباً تميز عن غيره من الارباب الوثنية التي كانت شائعة في العصور القديمة قبل البدء في كتابـة وتدوين الأسفار وبعدها ، وكيف يكون لهم غير ذلك وكاتب (سفر التكوين) يلعب بـه خياله ويشتط به الهوى الجامح في نقل اساطير الشعوب بغير رويّة وبغير عقل ايضاً ويذهب إلى بعيـد إلى عصر ابي الأنبياء ابراهيم عليه السلام .. ولا يكفيـه ان صوّر لنا موسى وسليمان عليهما السلام على ضوء الصور الوثنيـة في علاقاتهما بربهما تلك الصور التي نجزم بأن نبيا الله موسى وسليمان عليهما السلام مـــا عرفا منهـا شيئاً ولا تقربا لربهما بنمط من انماطها ، ومع ذلك يجيء الكاتب هنا إلى ابي الأنبياء ويصور لنـا حاله وبيته وامرأته عقب زيارة قام بها على حد مـــا ينسب كاتب السفر ويدّعي الرب – تعالى وتنزه رب العالمين – مع ملكين إلى ابراهيم وهناك على ضوء خيال الكاتب جلس الثلاثـة الرب والملكان عند ابراهيم يستريحون من وعناء السفر وعناء الرحلة واغتسلوا وأكلوا واستراحوا وفي ظـل شجرة قضى الرب .. هكذا يزعم كاتب السفر .. بعض الوقت

---

(١) (مرقس ويندسفورد) في كتابـه (المسيح يصلي لأجل خاصتـه) تعريب دكتور ماهر فهمي – نشر لجنة خلاص النفوس للنشر عام ١٩٦٧ ص ٧٠

مع ابراهيم ثم أعطاه البشارة بميلاد ولد من السيدة العقيم التي لم تكن قد ولدت بعد ، وهكذا يمضي كتّاب الأسفار ولا يعقلون أن اكثر العقائد القديمة تخلفاً لم تهبط بالمعتقد الديني في الاله إلى هذا المستوى ابداً . واذا ما اردنا أن ننظر مـا كتبه كاتب (سفر التكوين) احد الخمسة في الاصحاح الثامن عشر [1] ومن الفقرات ١ – ١١ فانا سنرى العجب : (ويظهر له الرب عند بلوطات ممرأ وهو جالس في باب الخيمة وقت حرّ النهار فرفع عينيه ونظر واذا ثلاثة رجال واقفون لديه فلمـا نظر ركض لاستقبالهم من باب الخيمـة وسجد إلى الارض ، وقال يا سيد ان كنت قـد وجدت نعمـة في عينيك فلا تتجاوز عبدك ، ليؤخذ قليل ماء ، واغسلوا أرجلهم واتكئوا تحت الشجرة ، فآخذ كسرة خبز فتسندون قلوبكم ثم تجتازون لأنكم قـد مررتم على عبدكم فقـالوا هكذا نفعل كما تكلمت ، فأسرع ابراهيم إلى الخيمـة إلى سارّة وقال اسرعي بثلاث كيلات دقيقـاً سميذاً اعجني واصنعي خبز ملة ، ثم ركض ابراهيم إلى البقر وأخذ عجلاً رخصاً وجيداً وأعطاه للغلام فأسرع ايعمله ، ثم أخذ زبداً ولبناً والعجل الذي عمله ووضعه قدامهم واذ كان هو واقفاً لديهم تحت الشجرة أكل وقالوا له ابن سارة امرأتك ، فقال ها هي في الخيمة ، فقال اني ارجع اليك نحو زمان الحياة ، ويكون لسارة امرأتك ابن وكانت سارة سامعة في الباب الخيمة وهو وراءه ، وكان ابراهيم وسارة شيخين متقدمين في الايام وقد انقطع أن يكون سارة عادة كالنساء فضحكت سارة في باطنها قائلة أبعد فنائي يكون لي تنعّم وسيدي قد شاخ فقال الرب لإبراهيم : لماذا ضحكت ساره قائلة أفبالحقيقة ألـد وانا قد شخت ؟ هـل يستحيل على الرب شيء ، في الميعاد أرجع اليك نحو زمان الحياة ويكون لساره ابن) .

وهذا النص العجيب هو الآخر يجعلنا نسأل هل يعقل او يقبل قلب مؤمن على الهه ما انتهى اليه كاتب الفقرات السالفة ؟ ولأي معنى يصبح رب العزة

---

(١) (سفر التكوين) الاصحاح الثالث فقرات ٦ – ١٢ .

خالق الخلق ثالث ثلاثــة : ملكان وخالقهما على هيئة ثلاثة رجال وفي منطق كاتب النص يسيرون ويتعبون ويستريحون ويشربون ، ويغسلون ارجلهم بل ودقيقاً سميذاً وزبداً ولبناً ولحم عجل يأكلون ، مرة ثانية نسأل كاتب السفر هل حقاً أكل ربه الذي يؤمن به طعام ابراهيم ؟ واذا كان قد أكل فهل كان هناك شهود عيان حضروا تلك الوليمة ونقلوهــا بالتواتر إلى كاتب السفر ام أن ابراهيم عليه السلام أذاع نبأها واعلنهــا ، واذا كان كذلك ففي اي مكان في الدنيا اطلع كاتب السفر على ما يثبت دعواه ، واذا كان كاتب (سفر التكوين) لا يستطيع ان يجد جواباً على زيف ما افتراه على رب ابراهيم رب العالمين ، فــان خطيئة كاتب (سفر الخروج) أدهى وأمرّ لأنــه نقل موقف يدّعيه زيفاً وبهتاناً عن الله مــع ابراهيم حين جعل الاله من نفسه بشراً مع ملكين جعلهما كذلك بشراً وجلس الثلاثة مــــع ابراهيم يأكلون ويشربون . كاتب (سفر الخروج) نقل هذا الموقف الذي انفرد بــه كاتب (سفر التكوين) الى صورة اخرى والى موقف شبيه نقل موقفاً ادّعاه لله مع مجموعة من شيوخ اسرائيل مع مئسى وهارون رأوا الله جميعاً وبادىء ذي بدء نرجو ألا يرهق عشّاق التفسيرات الرمزية انفسهم في معنى الرؤية فالنص الذي اورده صاحب (سفر الخروج) حدد نوع رؤيتهم لله — تنزه الله سبحانه عمّا يقولون بأنهــا رؤية شاملة لحدود الاله عندهم وجرمه وكنهه فقد رأوا مــا تحت رجليه على حد ما يذهب وما وصف كاتب السفر [1] .

وهذا الخلل الصارخ في منطق كتّاب الاسفار وفي اسلوب تدوين التراث الاسرائيلي يجعلنــا نسأل اذا جاز (جدلاً) ان يجهــد قوم انفسهم في تبرير وتفسير ما يساق عن الاله في العهد القديم من دعوة تقول عن الرؤية والمشاهدة الحسية للاله من مجموعات من الانبياء مثــل ابرهيم وموسى وداود وسليمان

---

(١) (عوض سمعان) (فلسفة الغفران في المسيحية) المطبعة التجارية الحديثة رقم الايداع بدار الكتب ٤٥٠٨ عام ١٩٧٢ ص ١٥٥ .

وغيرهم فأي مبرر في ان يتساوى الشيوخ من بني اسرائيل مع الانبياء في كل ما يحظون به من ربهم فيما تنسبه اسفار العهد القديم .

ولننظر الى ما يقصه كاتب (سفر الخروج) في الاصحاح الرابع والعشرين في الفقرات ٩ — ١١ يقول : (ثم صعد موسى وهارون وناداب وأبيهو وسبعون من شيوخ اسرائيل ، ورأوا إله اسرائيل وتحت رجليه شبه صنعة من العقيق الازرق الشفّاف وكذات السماء في النقاوة ، ولكنه لم يمد يده الى اشراف بني اسرائيل ، فرأوا الله وأكلوا وشربوا) .

وكأن النصوص تضج بما تحمله من زيف وعدوان على الله ، فبعد قول الكاتب : (... ورأوا إله اسرائيل وتحت رجليه شبه صنعة من العقيق) ويستدرك المؤلف ويحاول أن يخرج من الاستغراق في هذه الصورة الوثنية الصنمية إذ بعد ان يروا الله كما يقول النص حتى يروا ما تحت رجليه فانه من المتيسر إزاء ذلك أن تكون جلسة سمر يتحدث فيها الشيوخ من بني اسرائيل مع إله اسرائيل لكن الكاتب يعود على الفور ليقول في نفس الفقرات : (ولكنه لم يمد يده الى أشراف بني اسرائيل) وأراد بذلك ان يميّز بين الموقفين اللذين ساقهما كتّاب سفري (التكوين والخروج) ففي سفر التكوين جلس الرب مع ابراهيم وأكل وشرب وفي سفر الخروج مع موسى وشيوخ بني اسرائيل اكتفى بالمقابلة دون الجلوس والمصافحة ، ولا يقتصر الامر على هذه الخاصية من بين الانبياء وشيوخ اسرائيل في لغة العهد القديم ، بل ان كاتب (سفر الخروج) أضفى على الشعب الاسرائيلي كله في عصر موسى شرف رؤية إله اسرائيل وسماع صوته في مؤتمر كبير دعا اليه رب اسرائيل وكلّف موسى على ضوء نصوص (سفر الخروج) ان يخبر الشعب بذلك المؤتمر ليستعد ويغسل ثيابه ويرتب أمره لشرف اللقاء مع رب اسرائيل — هكذا — ولا يخجل كتّاب الاسفار المقدسة من تسجيل وسوق ونقل مثل هذه المأثورات بغير عقل وبغير تدبر كاتب الاصحاح التاسع عشر من (سفر

الخروج) يقول من الفقرات ٧ — ١٣ : (فجاء موسى ودعا شيوخ الشعب ووضع قدامهم كل هذه الكلمات التي أوصاه بها الرب ، فأجاب جميع الشعب معاً وقالوا : كل ما تكلم به الرب نفعل ، فرد موسى كلام الشعب الى الرب فقال الرب لموسى ها أنا آت اليك في ظلام السحاب لكي يسمع الشعب حينما اتكلم معك فيؤمن بك ايضاً الى الأبد ، وأخبر موسى الرب بكلام الشعب فقال الرب لموسى اذهب الى الشعب وقدّسهم اليوم وغداً وليغسلوا ثيابهم ويكونوا مستعدين لليوم الثالث ، لانه في اليوم الثالث ينزل الرب امام عيون جميع الشعب على جبل سيناء) (١) .

ولم يقل لنا كاتب السفر الذي أورد هذا النص لماذا أتى الرب لموسى في ظلام السحاب ، ففي مثل هذا الحجاب لا يكتمل شرف اللقاء والمقابلة بينما هو على حد ما يزعم بعد ثلاثة ايام سينزل على جبل سيناء ليكون أمام عيون جميع الشعب ؟ ويبدو ان كتّاب الأسفار لا يعرفون ولا يفرّقون ربما لأنهم لم يعرفوا الفرق بين رتبة النبوّة وشرفها ورتبة المدعوين الى الله من خلال هذه النبوّة وصاحبها ومن هنا فلا بأس عند كتّاب الأسفار فيما يقصّونه أن يجعلوا شرف النبوّة موازياً او أقل من قيمة وشرف المدعوين الى الله من خلالها ولكن العجب هو في الرواية التي بين أيدينا هذه والتي قصها كاتب الاصحاح التاسع من (سفر الخروج) إذ ان المؤتمر الذي دعا اليه رب اسرائيل — فيما قص السفر — ليحضره الشعب وليكون الإله أمام جميع عيون اسرائيل، ليري الشعب ربه من ناحية وليؤمنوا بموسى بعد هذه الرؤية الى الأبد من ناحية أخرى لم يتم ، ولماذا ؟ لأنه كما زعم كاتب السفر رب اسرائيل اكتشف أنه حين ينزل الى الجبل ستكون النار والدخان وسيرتجف الجبل ، وامام الرعود والبروق والسحاب الثقيل الذي سينزل بصحبة رب اسرائيل فان الشعب لو نظر الى ربه في ذلك المناخ ووسط هذه الحالة سيسقط

---

(١) (سفر الخروج) الاصحاح التاسع عشر فقرات ٧ — ١٣ .

منه الكثير، ولذا جاء قرار الإلغاء لهذا المؤتمر الذي خصته الفقرات الوسطى من الاصحاح التاسع عشر الفقرات من ٧ – ١١ وفي نفس الاصحاح ونفس السفر من الفقرات ١٤ – ٢١ وما ندري سر هذا الخلل وهذا التفاوت الذي قصه اصحاح واحد في سفر واحد من الأسفار الخمسة (عمد الشريعة) وعلى ضوء هذه النصوص يستطيع السائل ان يناقش كتّاب اسفار العهد القديم : هل رجع رب اسرائيل عن رأيه ؟ أم اكتشف كما تقول الفقرات ان الشعب لا يقدر على رؤيته ؟ أي علم بعد ان لم يكن يعلم؟ ونستطيع ان نسأل ايضاً ما سر هـذا الخلل تدوينياً ؟ هـل كتب شطراً من الاصحاح وهو صغير في حجم صفحة واحدة كاتب ؟ وكتب شطره الثـاني كاتب آخر ولكل منهما عقيدة تخالف الآخر ، ولم يطلع اللاحق على ما كتب السابق فجاء هذا الخلل في رواية الخبر الواحد للموقف الواحد ثم وحين كان التدوين والنقل والترجمة تمّ كل ذلك بغير أعمال للعقل او تحكيم لمقومات الايمان بالخالق جل وعلا .. ان كل هذه الاستفسارات وغيرها كثير لا جواب لها عند كتّاب النصوص غير الهراء الذي تضج به كتب وشروح رجـال اللاهوت حول مثل هذه النصوص[1] هذا. وتقول الفقرات رقم ١٤ – ٢١ من الاصحاح التاسع عشر في (سفر الخروج) ما يأتي : وما به تتناقض رواية النص الواحد في المصدر الواحد من كتب العهـد القديم : (فانحدر موسى من الجبل وقدّس الشعب وغسلوا ثيابهم ، وقال للشعب كونوا مستعدين لليوم الثالث، لا تقربوا امرأة، وحدث في اليوم الثالث لما كان الصباح أنـه صارت رعود وبروق وسحاب ثقيل على الجبل وصوت بوق شديد جداً ، فارتعد كل الشعب الذي في المحلة ، وأخرج موسى الشعب من المحلة لملاقـاة الله فوقفوا في أسفل الجبـل ، وكان جبـل سيناء كله يدخن من أجل ان الرب نزل عليه بالنار وصعد دخانه كدخان الأتون وارتجف كل الجبل جـداً فكان صوت البـوق يزداد اشتداداً

(١) من هذه الدراسة كتاب (العشاء الرباني) للكاتب المسيحي المكثر (عوض سمعان) صدر عن دار الثقافة المسيحية بدون تاريخ ص ١٣٤ – القاهرة .

جداً وموسى يتكلم والله يجيبه بصوت، ونزل الرب من جبل سيناء الى رأس الجبل ، ودعا الله موسى الى رأس الجبل فصعد موسى فقـــال الرب لموسى انحدر حذّر الشعب لئلا يقتحم الى الرب لينظروا فيسقط منهم كثيرون)[١].

وهكذا لم يشفق كاتب السفر على موسى عليه السلام من هذه المحنة التي ادعى أن رب اسرائيل وضعه فيهـــا حين كلّفه بدعوة الشعب بعد غسل الثياب والابتعاد عن النساء من أجل رؤية إلههم والحديث معه وليزدادوا إيماناً بـــه الى الابد ثم تملـــك الموقف المفاجيء والقرار الذي ألغي بعد ثلاثة أيام من صدوره من رب النبي ، أيرضى كتّـــاب الاسفار عن هــذا الاله الذي يصدر قرارات مهمة كتلك ثم يرجع فيها بعد ان يكتشف ما لم يكن في الحسبان .

على ضوء مثل هذه النصوص التي أتينا عليها واستشهدنا بها كنماذج صريحة ندلل بهـــا على افتقاد الباحث لعقيدة التوحيد في كتب العهد القديم ، هــل يمكن بعد ذلـــك أن يقال ان العهد القديم يحمل صفة الوحي الإلهي وان مــا دوّن فيه إنما هو بإرادة الله على يد أنبياء بني اسرائيل عقيدة وديناً وشريعة لبني اسرائيل . نعتقد انه في ضوء هذه المعالجة التي انتهينا اليهـــا يتعذر على الباحث القول بأن ما في أسفار العهد القديم من تراث او ميراث يحمــل بين سياقه وحياً إلهياً او حتى بقية من وحي إلهي .

هــذا ونرجع بعد هذه النظرة الموجزة مرة ثانيــة ونقول : أين العقيدة الدينية التي تقوم على الايمـــان برب خالق ينفرد بالخلق ويغاير مخلوقاته في مرويات العهد القديم ، وهل يستطيع باحث منصف ان يرى قضية (الألوهية في العهد القديم) من خلال هذه النصوص مطروحة بغير مؤثرات الوثن والصنم وأساطير الخرافة في الأمم البدائية[٢] .

---

(١) (سفر الخروج) الاصحاح التاسع عشر فقرات ١٤ – ٢١ .

(٢) (جيمس فريزر) الفلكلور في العهد القديم ترجمة نبيلة ابراهيم مراجعة حسن ظاظا الجزء الاول ص ٢٦٣ – القاهرة عام ١٩٧٢ .

ان الباحث في كتب العهد القديم مهما بلغت سماحته وقوى صبره على انعدام الوحدة الموضوعية والعقائدية فيما يتعلق بأمر عقيدة الايمان بالإله الواحد لا يستطيع أن يرى في العقيدة الإلهية التي دان بها بنو اسرائيل في العهد القديم أكثر من انها عقيدة دينية وضعية في إله مختار بين الآلهة التي شاعت في الأمم والشعوب الوثنية، وليس في هذه العقيدة إيمان بالله يقوم على التوحيد.

وفي النهاية ليست العقيدة الدينية في العهد القديم مما يتسع لديانة إنسانية او ممـا يصح ان يحسبه الباحث المنصف مقدمة للإيمان بالإله الخالق الذي يدعو اليه الاسلام (١) .

---

(١) (عباس محمود العقاد) (حقائق الاسلام وأباطيل خصومه) دار القلم الطبعة الثالثة عام ١٩٦٦ ص ٥٠ .

الفصل الرابع

أثر العقائد الوثنية في يهودية العهد القديم

قد سبق القول ان الدعوة الدينية القائمة على توجيه الوحي الإلهي وعمل الرسالة الإلهية على يد نبي او رسول بدأ - من أبي الانبياء ابراهيم عليه السلام حتى عصر ظهور النبي موسى عليه السلام - مفتقد تماماً أثره الاخلاقي والسياسي في سيرة وتراث بني اسرائيل في العهد القديم فضلاً عن افتقاد مقومات عقيدة الايمان بالإله الواحد ، لكن سؤالاً قد يطرح نفسه حول المصادر والمنابع التي استقى منها كتّاب العهد القديم معلوماتهم وعقائدهم التي دوّنوها في اسفار العهد القديم المختلفة ونسبوها بعد ذلك - زيفاً وعدواناً الى انبياء الله - ونحن هنا نحاول التعرف على أقرب المؤثرات الدينية الوضعية والتي لم ترتق بعقيدة الإيمان بالله في اتجاه التوحيد الخالص ولم ينقل عنها ولم يحفظ عن تراثها ان عمل الرسالة الإلهية فيها كان شائعاً او معروفاً مثلما هو مدعي في عقيدة المؤمنين بالعهد القديم . وسنقتصر في التعرّف على المصادر المؤثرة في المعتقد الديني في يهودية العهد القديم على نموذجين في العقيدة الدينية الوضعية في بابل وآشور متعمدين ان نغفل العقيدة الدينية الوضعية التي اجتهد فيها المصريون القدماء على يد (أمنحوتب الرابع) الذي صاغ الأدعية التي وضعناها للمقابلة

بينها وبين مزامير الاسفار التي دوّنت في العهد القديم واتضح من خلال المقابلة سبقها وشمولها عن الكثير مما جاء في المزامير .

وبادىء ذي بدء فإنا نودّ ان نشير الى ان أثر الحضارة المادية كانت عليها احوال واوضاع الشعب في بابل وآشور كانت هي السمة البارزة في تراث هاتين الحضارتين،هذا وان اول ما يميّز الحضارة البابلية الاشورية إذا قورنت بالنظم السامية الاصلية هو انتقالها من البداوة الى حياة الاستقرار ، فأحوال الساميين التاريخية والحضارية كانت تتأثر تأثراً عميقاً بثبوت حضارتهم على حال واحدة عند استقرارهم في مواطن ثابتة بعد ان كانت حضارة متقلبة وصور تكيّفهم ببيئتهم الجديدة كانت تحددها صلاتهم بالشعوب الاخرى وكان السوماريون هم الشعب غير السامي الذي اختلط به الساميون المنتقلون من البداوة أكبر الاختلاط وكان اولئك السوماريون قد بلغوا من الحضارة مبلغاً يسمو كثيراً على ما بلغه الوافدون الجدد ، وكان استيعاب الساميين لعناصر الحضارة السومارية متصلاً واسع النطاق الى حد صارت معه جوانب عدة من الحضارة البابلية الآشورية تعتمد اعتماداً مباشراً على تلك العناصر ، ومـا ان نشأت الحضارة البابلية الآشورية نتيجة لعمليات الاستيعاب المعقدة حتى أخذت هي أيضاً تؤثر تأثيراً بعيداً في جميع المناطق المحيطة بها فأصبحت ارض الرافدين مركزاً حضارياً انتشرت منه الافكار الكونية والاسطورية والعقائدية وان جانباً كبيراً من أدب الشعوب السامية الآخرين وعاداتها صدى مباشراً لصوت ارض الرافدين ، ولم تقتصر افكار ارض الرافدين على العالم الثاني وإنما تغلغلت في آسيا الصغرى وبلغت بلاد اليونان نفسها ؛ وتـدل الدراسات التي تزداد وضوحاً يوماً بعد يوم على ان الحضارة اليونانية تدين بكثير من أفكارها لشعوب ارض الرافدين .

هذا .. والجوانب التي نريـد ان نتناولها او ننتظر أثرها في العقيدة اليهودية التي تحدث عنها العهد القديم هي الجوانب العقائدية في الدين والادب

في الحضارة البابلية الآشورية وليست هـذه الجوانب وحدات متميزة منفصلة تماماً وإنما هي متداخلة تؤلف معاً وحدة مركبة ، وهي ظاهرة طبيعية في الشرق الادنى القديم حيث لم تكن هـذه الحضارة واضحة التمييز كما هي في عالمنا الحديث ، فلم يكن يفرق عندئذ مثلاً بين الأدب الديني والأدب الدنيوي او بين القانون المدني والقانون الديني .

وكان الدين هو العامل المسيطر في كل ركن من اركان الحيـاة الإنسانية وكانت نظرة الرافدين الى الادب والقانون والفن هي نظرة الشرق الادنى كله قديماً فلم يكن ينظر اليها إلا في نطاق الدوافع متغلغلة في مظهر من مظاهر الحياة فكانت قوام الجوهر العميق لتلك الحياة ، ولعل هـذا ابرز خصائص الحضارة في الشرق الادنى القديم ، فكان الدين خلاصة القيم الانسانية ، اما التأمل الفلسفي المستقل والابداع الفني فلم يتيسرا إلا بعد ذلك على يد اليونان.

وطابع التوفيق بين الاشياء المختلفة الذي يميز حضارة ارض الرافدين لا يتجلى في شيء كما يتجلى في نظمها الدينية ، فآلهتها السامية هي الى حد كبير آلهة سومرية تقبلها الغزاة المنتصرون مع بعض التعديل، وهي ظاهرة تتكرر كثيراً خلال التاريخ ، هذا الى ان الآلهة البابلية والآشورية نفسها امتزجت وتفاعلت بعد ذلك بعضها ببعض بتغيير الازمان والاحوال السياسية في ارض الرافدين ، والدين الأكدي وافر الآلهة ، وخصائص آلهتـه من نوع مماثل لخصائص الانسان ، لا تختلف عنها إلا انها اكثر كمالاً وتجديداً ولباس الآلهـة كلباس البشر ولكن لباس الآلهة أبهى من ثياب الامراء ، ويصدر عنها بريق يخطف الابصار .

وللآلهة أسر واسلحة، وصراعها كصراع الناس ولكنه بالطبع على نطاق أعظم وأهول ولعل هذه النظرة الى الآلهة اقرب الى نظرة هوميروس في اشعاره منهـا الى نظرة الاديان السامية كلهـا ، والدور الذي لعبته العناصر السامية في هذا كله هو كما قلنا موضع شك وهو قطعاً ليس بالدور الكبير .

وكانت الحياة اليومية التي يحياها البابليون والآشوريون تظللها دائماً مخافة الشياطين ، وكانت هذه الشياطين مخلوقات عجيبة ، يمكنها ان تتشكل في أية صورة ، وان تنفذ من اي جسم، وان تتحرك في كل مكان دون ان يراها احد ، وكانت تفضل عامة الاماكن المهجورة المظلمة ، والخرائب والمدافن وكل مكان آخر يبعث على الرهبة وكانت تدل على وجودها بأصوات حيوانية، تبعث الفزع الشديد في الاماكن الموحشة .

وفي ارض الرافدين ، وهو صورة صادقة لحياة الشعب غني بصور الشياطين ، وهي تجمع عادة بين اجسام الأنس ورؤوس الحيوان او تربط بين اعضاء حيوانات مختلفة على نحو رهيب .

وكانت الشياطين في الغالب ارواحاً شريرة صعدت من جوف الارض وكان بعضها ارواح الذين لم يدفنوا في قبور ، فكانوا يهيمون من مكان الى مكان لا يهدأ لهم قرار وينتقمون لأنفسهم على مصيرهم التعس بمهاجمة البشر ومضاعفة الكوارث .

وان ابرز ما يميز السيكولوجية الدينية لأرض الرافدين فيما يتعلق بالشياطين هو انه كان ينظر الى الانسان على انه لا عاصم له فعلاً .. فحتى المرء الذي يحيا حياة طاهرة ، ولا يسيء الى إله من الآلهة يمكن ان يقع فريسة لمكانة ساحر شرير ، او ان يتصل عن غير قصد بكائن او بشيء نجس فالانسان فيما اعتقد اهل الرافدين يمكن ان يكون ضحية بريئة لقوى شريرة وان مثل هذه النظرة المؤلمة في التشاؤم ، لتدل على ضعف كبير في الافكار الخلقية وعلى انعدام الايمان بجزاء عادل في حياة أخرى على ما تقدمه من اعمال في هذه الدنيا ، ولعل مثل هذه العقيدة كانت أمام كاتب بعض الاسفار اليهودية وهو يدوّن فيما دوّن منسوباً لرب اسرائيل مفتقداً ذنوب الآباء في الأبناء .

ولقد كانت الخطيئة في ارض الرافدين اقرب الطرق التي يستطيع بها

الشيطان دخول جسم الانسان، وكانت الخطيئة صنوفاً عدة كإهمال الطقوس الدينية والسرقة والقتل ، ولم يكن ثمة تمييز بين الذنوب الخلقية والذنوب المتعلقة بالطقوس الدينية فكان ينظر اليها كلها على انها من نوع واحد وذلك بسبب الدور الغالب الذي كانت تلعبه الافكار الدينية في نظام الحياة اليومية كلها ، ولعل هذا ايضاً كان فكراً متداولاً أمام كتّاب التراث الاسرائيلي في كل ما نسبوه الى سلسلة الانبياء الصغار الذين كانوا يتعاقبون على اسرائيل ويهوذا اثناء السبي وبعده ولا همّ لهم فيما نسب اليهم كتّاب الاسفار إلا متابعة الخطيئة ورصد الذنوب وما يترتب على الوقوع فيهما بالوعد والانذار والتهديد الذي ساد معظم اسفار انبياء بني اسرائيل في اسرائيل في العهد القديم ، وان شابها شيء من الأمل او البشارة كما يقولون في بعض المواقف والمراحل .

وكان من الطبيعي ان يختلط في ارض الرافدين أمر الدين بالكهانة .. بالطب ممزوجاً ببعض الافكار والطقوس، وفي سبيل هذا الغرض كانت تتبع اجراءات مفصلة معقدّة فكان على المريض اولاً تعيين الشيطان الذي سبّب له المرض ، وهنا يجد العون من الافكار السائدة عند القوم .. فأسماء الشياطين التي تقيم في اجزاء الجسم كانت معروفة منذ وقت طويل وأولها (أشكو) شيطان الرأس الذي كان يسبّب الصداع ، وكان سكان البلاد يخشون الصداع خشية بالغة،فاذا ظلت حقيقة الشيطان موضع شك عمد الى تدبير احتياطي، وهو ان يتلو المريض اعترافاً طويـلاً بالآثام التي قد يكون اقترفها فيتأكد ذكره للإثم الذي ارتكبه فعلاً .

وكان من الضروري بعد ذلك طرد الشيطان وكان يتولاه كاهن متخصص في هذا الامر وذلك بالرقي والاعمال السحرية التي تتطلبها الحالة .

وكانت طقوس ارض الرافدين بالغة التعقيد تشتمل على تفصيلات محددة في صرامة ودقة وهذا يدل على مدى تطور الناحية الشكلية من الدين عند

القوم كما يبين في الوقت نفسه سيادة الدين المطلقة من كل جانب آخر من جوانب الحياة الاجتماعية وهذا ما لم يكن واضحاً في تأثير العقيدة الدينية على الحياة اليومية عند شعب العهد القديم .

وكان تقديم القرابين أشيع الطقوس الدينية واغلبها في الاستعمال، وكانت القرابين تقدّم في اغراض مختلفة : للتكفير عن الذنوب او اكتساب رضا إله من الآلهة او تدشين معبد جديد او تمثال جديد ، هذا عدا القرابين العادية التي كانت تقدم كل يوم في المعابد في اوقات محددة .

وكانت القرابين في الغالب من الحيوانات والسوائل وكان الجمل والجدي اكثر الحيوانات استعمالاً في هذا الصدد وكان النبيذ والجعة واللبن والعسل والزيت اكثر السوائل استعمالاً، وكان القربان من الاضاحي او غيرها يوضع على مذبح امام تمثال الآلهة او الإله ، ويبدأ الحفل الديني بالصلوات تصحبها بعض الطقوس العملية والرش بالماء المقدس، وكانت اجزاء معينة من القرابين مخصصة للإله او الآلهة ، تسكب او تحرق تكريماً له او لها وكانت اجزاء أخرى تؤول الى الكهنة ، ويرد الباقي الى صاحب القربان .

وكان هناك فيما يبدو كهنة مخادعون ، يجنون الربح من غير جهد بالاستيلاء على القرابين التي يؤتى بها اليهم ، وإحلال قرابين أخرى اقل قيمة محلها ، وكانت المعابد تتلقى مقادير كبيرة من السلع المختلفة الانواع ، وكانت ادارة هذه السلع مسألة معقدة كما يتبين من سجلات الحسابات التي كشفت بين الآثار .

وكانت المبالغة في مراعاة الطقوس تنعكس ايضاً في التقويم المقدس وكان يضبط ايضاً بطائفة كبيرة من القواعد المفصلة ، فكانت ايام السنة تقسم الى ايام مواتية وأخرى غير مواتية، وكان اداء الاعمال العامة والخاصة المختلفة في ايام معينة يصرح به او يحرم وفق هذا التقسيم .

وكانت الاعياد الدينية هي اعياد الآلهة ، وكان الناس يشاركون فيها

بالمسرات والطقوس، وكانت أهم هذه الاعياد اعياد الآلهة حماة المدن المختلفة، وكان من ابرزها عيد العام الجديد في مدينة بابل وكان هـــذا العيد يشمل احتفـــالاً مهيباً يبدي فيه الملك خضوعه للإله ، وكانت وفود ضخمة من الحجاج تهرع الى المدينة من كل صوب ، وكان الإله ينعم بالقرابين ، والناس بالمآدب وكانت الدعوات ترسل دعاء بعد دعاء الى (مزدك) الإله الاسمى للمدينة وكل المنطقة التي سادت فيها الدولة البابلية الاولى ، وفي ذلـك اليوم كان الإله يقرر في احتفال مهيب مصائر الدولة طوال العام الذي يستهلكه ذلك اليوم .

وكانت تصحب الصلوات حركات مختلفة فكانت تؤدى عـادة وقوفـاً أمام الإله مع رفع اليد اليمنى ، ويبدو ان عـــادة الصلاة مع مد الكفين مفتوحتين نحو الإله من اصل سامي .

وكانت هناك صلوات عامـة وأخرى خاصة ، ومن الطبيعي ان تكون الصلوات الخاصة اكثر تفصيلاً وأشد اصطباغاً بالجوانب الشخصية ، وان يكون للصلوات العامة أسلوب أعم واكثر ايغالاً في النواحي الشكلية .

ورغم ان حقـائق التاريخ المتعلق بمنطقة غربي آسيا في العصور القديـمة والتي نشط شعوبهـا حضارياً في منطقة الرافدين بالذات ، وكانت تتمدد في نشاطها بحكم الموقع الجغرافي لتكون على مباشرة من المحيط الهندي ، وأيضاً لتكون على ارض جبال ايران وأرمينيا ، وفي اتجاه حوض البحر الابيض المتوسط. لم يقتصر النشاط الحضاري على الوجود البابلي والآشوري على حدة، فان هناك من بناة الحضارة والتاريخ في أرض ما بين النهرين شعبان ينتميان الى أصلين مختلفين ، ولكنهما ابدعا حضارياً وتركا من الآثار الفنية والادبية الشيء الكثير ، ونعني بهما الشعب السومري والشعب الأكدي اللذين عاشا مختلطين ببعضهما الى حد كبير فكانت حضارة الرافدين وتاريخها نتاج شعب مركب ليس من اليسر في كثير من الاحيان ان يوضح الباحث العلمي الفرق

بين العنصرين اللذين يتألف منهما ، ولقد كان هذا باعثاً للعلماء والباحثين ان يطلقوا اصطلاحاً اسم (أكد) والأكديون على مـــا يعرف (بالبابليين) (والآشوريين) واصبح اسم (الأكديون) اسم جامع للبابليين والآشوريين وهو نسبة الى (أكد) وايضاً أصبحت تطلق (أكد) :

(أ) الدولة السامية التي أسسها سرجون (الملك الشرعي) في الجزء الشمالي من ارض بابل حوالي ٢٣٥٠ ق . م بعد ان قضى على سلطان السومريين في جنوب أرض الرافدين وهي اول دولة سامية شهدتها تلك المدينة .

(ب) المدينة التي بناها سرجون بالقرب من (كيش) — (تل الأحيمر) لتكون مقراً لدولته ولا يعرف مكانها على وجه اليقين بالرغم من ذكرها في الفقرة رقم ١٠ من الاصحاح العاشر في (سفر التكوين) وقـد جاءت على الوجه التالي: (وكان ابتداء مملكته بابل وآرك وأكد وكلنة في ارض شنعار).

(جـ) المنطقة الممتدة حول مدينة (أكد) سميت المنطقة باسم عاصمتها، ومنطقة أكد هي الجزء الشمالي من ارض بابل ، وسومر هي الجزء الجنوبي وفي العصر البـابلي المتأخر (العصر الكلداني) اطلق اسم أكد على بـلاد أكد وسومر معاً واللغة الأكدية القديمة هي لغة دولة أكد الاولى خاصة[١] .

اقول هذه النماذج والصور الدينية التي كانت عليها حضارات ما بين النهرين كانت كشأن كل الحضارات القديمة قائمة على علاقات توجهها الكهانة الدينية وقوة الحاكم وعلاقات الظلم ، ولا شك ان المتـابع لحضارات الشرق الأدنى القديم وخاصة في منطقة مـا بين النهرين تجابهـه صور من العقيدة الدينية الوضعية تؤكد انها في تطورها أو في قصورها وجمودها كانت أسبق في الرؤية والتصوّر من فكر بني اسرائيل فيما دوّنوا في اسفارهم ومـا سجلوا

---

(١) (الحضارات السامية القديمة) تأليف سبتينو موسكاتي — ترجمة وتعليق الدكتور السيد يعقوب بكر .

على تاريخهم وعقيدتهم في كتب العهد القديم ، وتؤكد هذه النظرة العابرة انه ليست الجماعات اليهودية الاسرائيلية وحدها هي التي كانت في التاريخ الانساني تصوغ العقيدة الدينية او تتحدث عن الإله ، بل انها مدينة في فكرها الوضعي الذي دوّن في العهد القديم بعد ان فقدوا منحة الله اليهم في الوحي الإلهي الذي كان كتاباً سماوياً على يد نبي الله موسى ثم انبياء بني اسرائيل الذين كانوا رسلاً مبشرين ومنذرين لشعب ألف الفسق والعصيان .

ونستطيع مثلاً ان نلمس دور العقيدة الدينية الوضعية في حياة شعوب منطقة الرافدين وأثرها على فكر كتّاب الاسفار في صور ونماذج كثيرة ، ولتكون هذه الصور دليلاً على ان افكار النظرة الدينية رغم مرورها بالمراحل الوثنية عند غير بني اسرائيل كانت أرقى واكثر أثراً في حياة شعوب الرافدين مما هي عليه فكراً مدوّناً وأثراً متداولاً في اسفار العهد القديم .

ولقد وصل التطور بالفكرة الدينية الوضعية عند اصحاب الحضارات القديمة الى مستوى لم تبلغه بين معظم كتب واسفار التراث الاسرائيلي فمثلاً الشعر الغنائي في ارض الرافدين يفيض بجملة من المزامير او الادعية التي تعبر عن نظرة متعددة ومراحل مختلفة لتطور عقيدة هذه الشعوب في الإله ، كانت هذه النظرة في طريق التطور الذي كان يمكن ان يكون أساساً أخلاقياً لكثير من المذاهب والنظريات التي انعدم ما يقابله من أساس في فكر كتّاب العهد القديم فيما دوّنوا وسجلوا وخاصة عن عقيدتهم في (الإله).

اننا نلمح بين سياق الشعر الغنائي في ارض الرافدين ذلك المزمور او قل الترنيمة العذبة التي نسبت الى ابن الإله الذي كانوا يؤمنون به وكانت (الشمس) مظهره وبرهانه عندهم ، ان هذه الترنيمة تقول :

ايه يا شمس يا ملك السماء والأرض
يا من توجه كل شيء في عال وسافل

يا شمس : ان بيدك اعادة الميت الى الحياة
وتحرير الأسير من قيده
انك قاض لا سبيل لافساد ذمته
ومرشد لبني الانسان
وابن رائع للإله (نمرصت)[1]
ابن عظيم القوة والنبل
نور البلاد
وخالق كل ما في السموات وما في الأرض
هذا هو انت يا شمس .

هذه الصور من العقيدة الدينية التي أتينا عليها ولم نشأ ان نتعرض لدقائق التفاصيل تقدم ولا شك برهاناً على ان جهود الانسان حتى في مجال مراحل النظرة المادية القاصرة في عقيدة للشعوب للايمان بالإله لم تكن فيها جماعة اسرائيل تتميز بشيء او تتفوّق في احساس او ترقى بعقيدة ، وكان أمرهم بعد عصر يعقوب بن اسحق عليهما السلام انهم يرتبطون نفسياً ويتعلقون عاطفياً بكل ما يرمز في عقيدتهم بالإله المظاهر المادية وما يتعلق بها من صنم او توتم او رمز، ولم تكن عقيدتهم في الوحدانية ذات مضمون فلسفي او فكري ولكنها كما يقول القس فهيم عزيز (وحدانية العمل والوجود)[2] .

---

(١) (نمرصت) اسم للاله (سين) إله القمر ومعناه عندهم (الطلوع المنير) وعلى ضوء ما قرر الاستاذ (سبتينو موسكاتي) في كتابه (الحضارات السامية) الذي ترجمه السيد (يعقوب بكر) يقول وكان إله القمر عند شعوب ما بين النهرين يعد اقدم آلهة لهذا ويعتبر أباً لإله الشمس وكوكب الزهرة وعلى هذا كان إله الشمس عندهم أخاً للزهرة وكانت الزهرة أختاً له .

(٢) (القس فهيم عزيز) في كتابه (ملكوت الله) الثقافة المسيحية ص ٧٨ .

الفصل الخامس

المضمون الديني في عقيدة العهد القديم

لئن كان اليهود وجماعات اسرائيل جميعاً مثلهم – في امور العقيدة الدينية على ضوء ما رأينا – مثل غيرهم من الامم والشعوب التي دانت بعبادة الاوثان وتعلقت بظواهر الطبيعة ، فانها ظلت متعلقة بعبادة الاوثان ولم تأخذ طريقاً في اتجاه (التوحيد) بالرغم من كل لغط المفسرين الروحيين للاهوت في العهد القديم ، فانها ظلت تدور اعتقادها وتتعلق اهتماماتها بظواهر في الطبيعة او حاجات في الحس تعبر عن رغبة القوم في استغلال المعتقد الديني ليظل أداة في ايدي البعض ضد البعض الآخر من الكهنة او رجال الدين ليتيسر لهم دورهم في خدمة الحاكم ، وليتيسر لهم خلق مجالات للسخرة والسيطرة عن طريق الشعائر وامور العبادة التي يعدلون في طقوسها ورسومها جيلاً بعد جيل ومرحلة بعد الاخرى [1] .

---

(١) ناقشت (ابكار السقاف) في كتابها (اسرائيل وعقيدة الارض الموعودة) منهج كتاب أسفار التوراة ودور المتغيرات السياسية التي كان يمر بها المجتمع الاسرائيلي وخاصة في مراحل السبي البابلي في توجيه فكر كتاب الأسفار وتأثير الحوادث فيما كتبوا وفيما كانوا يودون الاتجاه اليه .

وبينما سارت شعوب وأمم كثيرة في طريق المعتقد الديني الوضعي تطور فيه من مرحلة الارتباط بعبادة الاوثان والكواكب وظواهر الطبيعة والتوتم الى الارتقاء بالفكرة الدينية والتطهر بهـا ومحاولة أن تكون رمزية او معنوية فان الجماعات اليهودية والاسرائيلية وعلى ضوء تراثهم في العهد القديم منذ حملوا ميراث الجماعات (العبرية) الـتي كانت تنتجع البادية وتنتقل من مكان لآخر طلباً للمرعى والكلأ وهم على مـا هم عليه من تعلـّق بالأفكار الوثنية وعبادة الحس المرتبطة بأمور الحياة اليومية .

ولقد بقيت في القوم منذ عصر (العبرانيين) الاول أي منذ عصر ابراهيم عليه السلام عبادة الاوثان والاهتمام بصنع التماثيل للتعبد بها ، والمغالاة في اساليب البيع والشراء لأدوات العبادة الطوطمية المتخذة من الحديد والحجر .

ومنذ دعوة النبي ابراهيم عليه السلام وظهور الانبياء من بعده حتى عصر النبي موسى عليه السلام لم ترتق العقيدة الدينية عنـد الجماعات الاسرائيلية — اليهودية الذين يفترض فيهـم أنهـم حملوا ميراث ابراهيم واسحق ويعقوب وموسى في هداية النبوة وعملها ، لكنهم وعلى ضوء سيرتهم في التراث حملوا خلقاً مرتبطاً بالسطو والاغارة بتأثير مــن حياة العبرانيين الاول ، ومعتقـد الاله الذي يحدثنا عنه العهد القديم عند القوم لا نعثر فيـه على صفات منزّهة او متطهرة او متعبّدة حتى ولو على مستوى وضعي كذلك المستوى الذي أشرنا اليه في مصر عصر اخناتون وآشور وبابل التي كانت كل واحدة منهـا رغم وثنيتهـا أرقى في السلوك الديني ممـا نراه ونلمسه في التراث اليهودي الاسرائيلي الذي يقصّه العهد القديم .

فالاله في العقيدة اليهودية التي آمن بهـا ونقلها ودوّنها كتّاب العهد القديم عن شعب اسرائيل إله يقوم بأعمال الانسان وحركاتـه كما سبق لنـا القول بذلك ، لكنه هنا ونحن نبحث عن المضمون الديني نراه في التراث الاسرائيلي يأكل ويشرب ويصارع التنين ، وهو عندهم تارة (يهوه) الذي يقصد بالتعلق

به ضمير الغائب ، وهو (ايل) القوى وعقيدة (يهوه) عند الجماعات اليهودية على حد ما نقلوا عنه فيما دونوا أنه إله يكيد لهم وينصب الفخاخ ويضللهم ويغرر بهم ، بل انه كما نقلوا عنه غير راض عن وجودهم في مصر ، ولذا فانه يتمنى اهلاكهم بعيداً عن ارض وادي النيل التي ما كانوا يودون الخروج منها.

ومن عجب أن العقيدة عند الجماعات اليهودية سواء المتعلقة بـ (يهوه) او المرتبطة بـ (ايل) هي من قبيل ربوبية السيادة والسيطرة والتسلط ، ولم تحمل مضموناً يقوم على أنها فكرة (الخالق) .

ولم يكن من الخطأ عند القوم أن تتعدد الارباب من موطن لآخر لأنهم لا ينكرون الارباب التي تدين بها القبائل او الامم الاخرى .

ويستطيع الدارس لتراث العهد القديم والباحث عن مضمون العقيدة الدينية عند الجماعات اليهودية أن يلحظ ذلك الارتباط الدائم في تاريخ القوم بالممارسة الوثنية للتعبير عن العقيدة كوظيفة اجتماعية يقوم بها من يوكل اليه أمر تقديم الذبائح وعمل القرابين او رعاية الهيكل والقيام على طقوسه ، ففي سفر (أشعيا) نبي العهد القديم الذي عاش فيما حقق سيرته بعض الباحثين في القرن الثالث قبل ميلاد المسيح وسواء أكان التاريخ صحيحاً أم غير ذلك فهو بالقطع من رجال عصر ما بعد السبي ، في الاصحاح الاول من سفره كلمات تكشف عن المضمون الديني الذي كان يتمثل في صور من الطقوس والشعائر والممارسات في عقيدة الشعب يسجلها كتّاب سفر أشعيا او أشعيا بنفسه بذلك النوع من النقد الساخن ولآسف لهذا السلوك من الممارسة الدينية عند بني اسرائيل يقول : (اسمعوا كلام الرب يا قضاة سدوم ، اصغوا الى شريعة إلهنا يا شعب عمورة . لماذا لي كثرة ذبائحكم ، يقول الرب أتخمت من محرقات كباش ، وشحم مسمنات وبدم عجول وخرفان وتيوس ما أسر)؟[1].

---

(١) سفر أشعيا — الاصحاح الاول فقرتا ١٠ — ١١ .

وتكاد ان تنعدم تماماً من اسفار العهد القديم أفكار تتعلق باليوم الآخر او تتداول صوراً عن الخير والنعيم في الجنة او العتاب والعذاب في النار واذا ما جاءت عبارات قليلة تتعلق بين السياق العام لبعض المواضيع بهذا الموضوع الحيوي الذي لا تخلو منه عقيدة دينية صحيحة تقوم على الايمان بالله رب العالمين فانما تأتي من خلال عرض غامض ونسق مادي وثني بحت .

وما ورد في هذا الشأن مما تركه لنا تراث العقيدة الدينية الاسرائيلية في المضمون الديني عندهم لا يقدم تصوراً كاملاً ولا يملأ عاطفة معتقدة في الإله ترجو ثوابه وتخشى عقابه كما أنه لا يرضى قلباً يتعلق بالغيب ويقوم ايمانه بالله على ضوء من الايمان بالغيب ، ففي كتاب (أشعيا) من الاصحاح الرابع والعشرين عن ذلك اليوم الذي تبعث فيه الخلائق أنه : (يكون في ذلك اليوم أن الرب يطالب جند العلاء في العلاء وملوك الارض على الارض ويجمعون جميعاً كأسارى في سجن ويغلق عليهم في حبس ثم بعد ايام كثيرة يتعهدون، ويخجل القمر وتخزى الشمس لأن رب الجنود قد ملك في جبل صهيون وفي اورشليم وقدام شيوخه)[١] .

ورغم هذا الجدب والعقم الديني الذي يلازم صور ومضمون المعتقد الديني في كل جوانب العقيدة الدينية اليهودية التي روتها اسفار العهد القديم ، فان هناك من وهم بأن الديانة التي حملتها الجماعات اليهودية كانت أسبق الاديان الى تقرير القصص الديني والتعليق على المسائل المتعلقة بأمور الغيب والاعتقاد القائم على التوحيد [٢] والواقع أن عقيدة الإله (يهوه) الذي كان يظهر للقوم تخيلوا وكما دونوا باعتباره إلهاً خاصاً بهم قد عقد معهم دون

---

(١) سفر أشعيا – الاصحاح الرابع والعشرون فقرات ٢١ – ٢٣ .

(٢) القس فايز فارس في كتابه (مجيء المسيح ثانية) صادر عن دار الثقافة المسيحية – القاهرة عام ١٩٦٩ وطبع بالتعاون مع مجمع الكنائس للشرق الادنى ص ٤١ وعند الحديث على (البراهين على صحة التفسير الروحي) وهي مغالطات عقلية وتاريخية .

غيرهم عهداً بان لا يكون إلهاً لسواهم من البشر ، وكانوا كما ارادوا منه وكما سجلوا عنه يحبون أن يروه وسط سحب البرق والعواصف مستعرضاً قوته وجبروته لشعبه ، وكانوا يتصورون انه لا يظهر إلا فوق أو حول (تابوت العهد) هو عبارة عن صندوق من الذهب يحيط به تمثالين من الذهب لملكين من ملائكة السماء كما زعموا - ومن طوائف ملائكة (الكاروبيم) أي المقربين ، وكان عليهم فيما اعتقدوا ودوّنوا لكي يطمئنوا الى أن علاقاتهم بالإله قائمة ونافذة لا بد وأن يكون هذا الصندوق الذهبي والذي كان يطلق عليه تابوت العهد معهم في حلهم وترحالهم وكانت الجماعة من جماعات اسرائيل إذا خرجت لسفر فإنما يخرج معهم (تابوت - العهد) لتنصب له خيمة خاصة به حين يحطون رحالهم ، وظلت هذه العلاقة « الوثنية » مظهر العبادة الاسرائيلية من عصر موسى عليه السلام حتى كان عصر سليمان الذي تقول الاسفار عنه انه استبدل الخيمة بمعبد ، وحين ضاعت المملكة بعد عصر سليمان وانقسمت الى مملكتين ثم جاء لكل منهما عدوّه المتربّص به ، لم يعد عند القوم من تابوت أو عهد أو معبد ولم يسجلوا على أنفسهم ذكريات او آلام كانت تعاود من يتذكر العهد والمعبد .

وعلى هذا فنصيب القوم من نقاء الفطرة وسمو المعتقد الديني القائم على التوحيد وتنزيه رب العالمين بعيداً عن مظاهر الوثن او الصنم او الحس المباشر هو الجدب والقحط (١) .

ومن اقدم مراحل تاريخ الجماعات الاسرائيلية اليهودية منذ المصادر الاولى للجماعات (العبرية) لم ترق معتقداتهم في الاله والايمان به عن امور الحياة العامة ومطالب الحس ، فلم يكن عندهم من فارق بين طبيعة الكائنات العلوية او الغيبية وبين طبيعة القوى او الكائنات الارضية من انسان وحيوان ،

---

(١) اليهود بين الدين والتاريخ (للباحث) وهو دراسة عن الجوانب الدينية والعقائدية عند بني اسرائيل صادر عام ١٩٧٣ - القاهرة .

فبالتالي لم تميز العقيدة الدينية عند القوم الفرق بين الخلق الخيّر والخلق الشرير، فعلى ضوء تراثهم فالشيطان يحضر بين يدي الله على الارض مع الملائكة بل ويدخل في حوار مع إله العهد القديم يتقلب فيه رأي الشيطان على رأي إله العهد القديم كما هو الأمر في الحديث عن سيرة ايوب في سفره ، والملائكة الكائنات العلوية بكل صفاتها وطبقاتها تهبط الى الارض لتعاشر النساء من جماعات اسرائيل وخاصة البنات [١] .

الإله حين يرضى ينزل الى الارض من أجل شعب اسرائيل وعقيدته المزعومة والنزول في رواية التراث الاسرائيلي ليس نزولاً معنوياً بخيره او فيضه او رحمته او عونه، وإنما ينزل ليمشي في الحدائق يأكل اللحم والخبز ويتشاجر فيحقد وينتقم ويفعل كما يفعل كل مخلوقاته [٢] .

ومن عجب ان دارس العقيدة الدينية في اسفار العهد القديم يجد انه حين تتطور العقيدة الدينية عند القوم في النظر الى معتقد من المعتقدات لا تتحرك نحو التنزيه أبداً ، فحين تطورت عقائدهم في النظر الى الكائنات العلوية وخاصة الملائكة ظهرت بوادر (التخصص) في وظائف الملائكة فمنهم ملائكة مهامها في الارض يقوم بعضهم على الآبار وبعضهم على الانهار وبعضهم للتلال والجبال والبعض الآخر يعمل في طاعة الشيطان وينتقل بين السماء والارض على هواه .

وليس في جملة العقيدة الدينية الاسرائيلية على مدى ضخامة أسفار العهد القديم محاولات تتحدث فيها هذه الاسفار عن صور أخلاقية إيمانية فيها المؤمنون يقومون بالتبتل او التعبد لله بروح جماعية او فردية الأمر الذي جعل معظم علماء الأديان من الغرب يرجعون في يسر وسهولة الصلوات والادعية

---

(١) المصدر السابق ص ٥٣٩ .

(٢) انظر (سفر التكوين) الاصحاح الثالث : الذي يقص أخباراً عن إله العهد القديم حين نزل في الجنة يتمشى ويتنزه وتقابل مع آدم وحواء .

الاسرائيلية التي جاءت في بعض فقرات العهد القديم الى مصادر تأثرت بها ونقلت عنها الصلوات الاسرائيلية من بابل وفارس حين كانوا في الأسر بعد ان فقدوا كل مصادر الوحي الإلهي .

فبالمقارنة البسيطة نجد قصة الخليقة في العقائد الاسرائيلية والتي أفاض فيها (سفر التكوين) تشابه الى حد كبير قصة الخليقة فيما تركه البابليون من ميراث عن معتقداتهم في الإله ، بل ان عقيدة (المخلص) التي تبدو واضحة في تفسيرات رجال اللاهوت لنصوص العهد القديم ترجع أصولها الى معتقدات فارسية .

والذي يواجه الباحث حول المضمون الديني للعقيدة الدينية عند اليهود على ضوء معطيات العهد القديم يجد انه لم تزدهر الفكرة الدينية الاسرائيلية ابداً بقيم التوحيد ولم يعرف المتعبّدون الاسرائيليون اسلوباً دينياً يعبّر عن التوحيد ، فحتى المرحلة التي اقترنت بدور الأنبياء والمرسلين الكبار كانت في عواطف القوم واهتماماتهم مرحلة كرب او ضنك أخفوا فيها بالاهمال تارة وبالقصد والتحريف تارة أخرى حقيقة الدعوة الإلهية التي وجّههم اليها انبياء ورسل الوحي الإلهي .

هذا.. ومظاهر الاستجابة الدينية في تراث وتاريخ بني اسرائيل للتوحيد توشك ان تكون معدومة .

يوضح سفر الملوك الثاني من الاصحاح الثامن عشر ، كيف يساغ في عقل القوم ومنطقهم الديني ان يأتي على اسرائيل ملك من الشباب الذين لم يبلغوا مبلغ الرجال الحكماء او الكهان او الأنبياء ، وينصّب بالكهانة نفسه ملكاً ويقيم شعائر للعبادة جديدة .. ثم يطوّر في اسلوب التعبد ويمسخ معتقدات وثنية عند القوم ليأتي بغيرها دون خروج او حرج او مشقة ، وأي معتقد وأي اسلوب ابتدع وأخذ المدعو (حزقيا بن آحاز) على عاتقه ان يقدمه اسلوباً وعقيدة جديدة .

ان العهد القديم على ديدنه في التسجيل دون اعمال لفكر او عقل ذهب كتابه لينسبوا (لحزقيا بن آحاز) انه اراد ان يطوّر اسلوب ومعتقد النبي موسى فيما رأوا وفيما دوّنوا على ابن آحاز وعلى نبي الله موسى عليه السلام من قبله .

تقول فقرات الاصحاح الثامن عشر رقم ١ – ٨ من(سفر الملوك الثاني): (وفي السنة الثالثة لهوشع بن أيله ملك اسرائيل ملك حزقيا بن آحاز ملك يهوذا كان ابن خمس وعشرين سنة حين ملك وملك تسعاً وعشرين سنة في اورشليم ، واسم أمة أبي ابنة زكريا ، وعمل المستقيم في عيني الرب حسب كل ما عمل داود ابوه ، هو أزال المرتفعات ، وكسّر التماثيل وقطّع السواري وسحق حيّة النحاس التي عملها موسى لأن بني اسرائيل كانوا الى تلك الايام يوقدون لها ودعوها نحشتان) .

وهذه الصورة المسجلة في العهد القديم وفي سفر من اسفار التاريخ التي تلقى كل عناية واهتمام من علماء اللاهوت عن معتقدات اليهود منسوبة في غير حياء ولا خلق الى نبي كموسى عليه السلام تدل في تأكيد على ان عقيدة التوحيد التي دعا اليها النبي موسى باعتباره نبياً رسولاً قد رفضت تماماً في بني اسرائيل ولم تجد مجالاً في نفوس القوم او قلوبهم :

وليت الأمر قد أمكن معه ان يكون هناك أدنى أثر أخلاقي خيّر وفاضل قد اقترن او تأثر بالمراحل المتعددة التي مرّت بها صور العقيدة الدينية عند اليهود ، فان الإله الاسرائيلي رب الجنود الذي كان يضرب الشعوب والأمم من اجل اسرائيل ، هذا الإله الذي أسكنوه في (صهيون) على حد ما تقص رواية (اشعيا) من سفره في الاصحاح العاشر ، فان القيم الأخلاقية التي كان عليها الشعب والتي كانت في نفس هذا الوطن الذي يتحدث عنه العهد القديم (صهيون) كم كانت سيئة ومنحرفة ومعوجّة ومنحلّة وبعيدة عن طريق الرب الى الحد الذي يخبر فيه سفر اشعيا من الاصحاح الثالث

فقرات ١٦ – ٢٦ أن الرب لا يرضى عن كل هذا الفسق الذي كانت عليه نساء القوم وبناتهم فماذا قال اشعيا :(وقال الرب من أجل ان بنات صهيون يتشامخن ويمشين ممدودات الاعناق وغامزات بعيونهن وخاطرات في مشيهن ويخشخشن بأرجلهن،يصلع السيد هامة بنات صهيون ويعرّي الرب عورتهن، ينزع السيد في ذلك اليوم زينة الخلاخيل والضفائر والأهلّة والحلق والاساور والبراقع والعصائب والسلاسل والمناطق وحناجر الشمامات والاحراز والخواتم وخزائم الأنف والثيــاب المزخرفــة والعطف والاردية والاكياس والمرائي والقمصان والعمائم والازر ، فيكون عوض الطيب عفونة ، وعوض المنطقة حبل ، وعوض الجدائل قرعة ، وعوض الديباج زنار مسح ، وعوض الجمال كي ، رجالك يسقطون بالسيف ، وأبطالك في الحرب ، فتئن وتنوح أبوابها وهي فارغة تجلس على الارض فتمسك سبع نساء برجل واحد في ذلك اليوم، قائلات نأكل خبزنا ونلبس ثيابنا ليدع فقط اسمك علنا ، انزع عارنا) .

وقد تأخذ المرء الحيرة إذا علم ان هذه النصوص التي كانت تعبّر عن الإله المرتبط في ضمير القوم وعقيدتهم يجيء هنا في نص اشعيا (ليعرّي) بنات صهيون ويكشف عوراتهن وإذا مــا غضب من الذين ادعوا انه لهم وحدهم وأنهم لهم كل شيء وليس عليهم من شيء فانه سرعان ما تفاجئنا النصوص بأنه ينزل الى الارض بطلاً أسطورياً على غرار نفس الصور أو أقل التي كان ينظر بها أهل بابل وآشور الى الإله ، انــه ينزل ليبيد الأمم والشعوب من أجل غضبه على اسرائيل لا بل انه ينزل ناراً تحرق الأخضر واليابس من اجل مفتريات عقيــدة اصحاب التراث الاسرائيلي في العهــد القــديم ، ولننظر الى (سفر اشعيا) وهو يقول في الاصحاح الرابع والثلاثين من الفقرات ٢٧ – ٣٣ : (هوذا اسم الرب يأتي من بعيد غضبه مشتعل والحريق عظيم،شفتاه ممتلئتان سخطاً ولسانه كنــار آكلة ، ونفخته كنهر غامر يبلغ الى الرقبــة ، لغربلة الأمم بغربال السوء، وعلى فكوك الشعوب رسن مضل تكون لكم أغنية كليلة تقديس عيد وفرح قلب كالسائر بالناي ليـــأتي الى جبــل الرب الى صخر

اسرائيل ،ويسمع الرب جلال صوته ويرى نزول ذراعه بهيجان غضب ولهيب نار آكلة نوء وحجارة برد لأنه من صوت الرب يرتاع آشور بالقضيب يضرب ، ويكون كل مرة عصا القضاء التي ينزلهـا الرب عليه بالدفوف والعيدان وبحروب ثائرة يحاربه لأن تفته مرتبة منذ الأمس مهيئة هي ايضاً للملك عميقة واسعة كومتها نار وحطب بكثرة نفخة الرب كنهر كبريت توقدها) .

ولا يبقى لنا بعد ان وقفنا على هذه النماذج وتعرفنا على تلك النصوص التي لا يمكن ان تكون برهاناً إلا على فكر وعقيدة أبعد مـا تكون عن عقيدة (التوحيد) .

ونستطيع أن نقرر أن المعتقد الديني الاسرائيلي على ضوء ما هو عليه في التراث الاسرائيلي معتقد وثني لا يمكن ان يكون في اتجاه التوحيد لله كما انه لا يمكن ان يكون بين ثناياه او في مضمونه بقيـة من آثار الوحي الإلهي ، ذلك ان القوم على ضوء ما عندهم من نصوص لم يعرفوا عقيدة الايمـان بالإله الواحد رباً وسيداً وهم منـذ دعوة النبي ابراهيم عليه السلام حتى مراحل الانبياء الكبار لم يحافظوا على منحة الله لهم وعونه أياهم فعكفوا على عبـادة الوثن والصنم ، ذلك ان جماعة اسرائيل بحكم تكوينهم النفسي كانوا ممن سار على طريق يحقق مطامعهم وغرائزهم ويخدم كل مـا تعرضوا له من محن سياسية ودينية ولم يكونوا ابداً على طريق الدعوة الدينية في الإيمـان بالإله الواحد باستثناء تلك المراحل القليلة والجماعات المحدودة التي حفظت وحي الله وعملت بالرسالة الإلهية على ضوء مـا أخـبر القرآن الكريم منصفاً ومطهراً للتاريخ الذي زيّفه ودنسه كتّاب اسفار العهد القديم. وهذا ما سنتعرّض له بالدراسة الموسّعة ان شاء الله عند رؤية وعطاء القرآن الكريم لبني اسرائيل .

الفصل السادس

تحدد مصادر التراث الاسرائيلي

الدارس لمصادر العقيدة الدينية الاسرائيلية اليهودية من خـــلال التراث الاسرائيلي عبر مراحل التاريخ يلحظ بوضوح ان فكراً اخلاقياً ومعتقداً دينياً بل وسلوكاً تطبيقياً في الحياة العامة وفي مضمون عقيدة الايمـان الديني عند اليهود يرتبط بمصدر ديني مكتوب ومسجل ومتداول يضاف الى أهمية المصدر الديني المعتقد والممثل في (العهد القديم) وهذا المصدر هو : التلمود الذي اكتسب في نفوس الجماعـات الاسرائيلية واليهودية على المدى الطويل قداسة وأهمية تفوقان كل مقدس وكل تصور .

والتلمود من بين جملة المصادر الدينية الاسرائيلية قد أصبح (التوراة) المهمة في عواطف القوم ومعتقداتهم عبر مراحل التاريخ وهو : جملة من القواعد والوصايا والشرائع والتعـاليم الدينية والادبية والشروح والتفاسير والروايات المتعلقة بدين وتاريخ وجنس اسرائيل على مدى التاريخ . وكانت هذه التعاليم والقواعد والشرائع تتناقل وتدرس مشافهة من حين لآخر .

ولما تعاظم شأن هذه التعاليم في نفوس الجماعات الاسرائيلية واليهودية عبر التاريخ وكثرت هذه التعاليم كثرة شملت كل تاريخ وحياة وعقيدة ومستقبل

الجماعات الاسرائيلية اليهودية قرر كبار الحاخامات من رجال العقيدة الاسرائيلية ان يسجلوا هذه التعاليم حتى تضاف الى ما لديهم من نصوص او مستندات[1].

وبدأت عملية التسجيل والتدوين على مراحل متعددة وفي مواقع مختلفة وتركزت عمليات التسجيل والتدوين في (بابل) وفي مناطق (فلسطين) وخاصة في أورشليم ، وكانت التعاليم التي سجلت في اورشليم تسمى (المشنا) وقام بها علماء من أحبار اليهود كانوا يسمون (التنائيم) وكان أولهم شمعون الصديق وقد قام هؤلاء العلماء بعد رجـــال المجمع الأكبر ابتداء من سنة ١٠٠ – ٢٢٠ م وكانوا في مجموعهم فرقتان الاولى بدأت بـ (شمعون) الصديق الى (هليل) و (شماي) وهم الأحبـار او الشيوخ الاول وكانوا يلقبون بأسماء كان منها (ربّان) .

والفرقة الثانية هم الجماعات التي كان يطلق عليها (الربى) – ربا أريحا – ولقبهم (ربى) . والمشنا تعني الدرس وهي عبارة عن خلاصة من التعاليم الشفهية ومجموعة من قوانين اليهود السياسية والمدنيــة والدينية التي أقرهــا العلمــاء اليهود الكبار والتي بدأها الحبر .. (شمعون بن جملئيل) يعاونه في الترتيب والتنسيق مجموعة من الأحبار رجال العقيدة وخدم التراث في الفترة من عام ١٦٦ – ٢١٦ حتى جـــاء القرن السادس الميلادي أصبحت تعاليم (المشنا) عدة أقسام تحتوي على بحوث تشمل دراسة خاصة بالزراعة ودراسة خاصة بأحـكام الصلوات والبركات ، ودراسة خاصة بالاعيـاد والسبوت ،

---

(١) في التعليق على كتاب (التلمود) والتعريف بـه يقول الكاتب المسيحي عوض سمعان في كتابه الصادر عن دار التأليف والنشر للكنيسة الاسقفية بمصر عام ١٩٧١ والمودع بدار الكتب المصرية تحت رقم ٤٧٨٢ والمسمى : (صلب المسيح وموقف الفنوسطيين ازاءه) ص ٢٤ ، كلمة (تلمود) معناها (تعليم) ، ولليهود تلمودان : الاول هو التلمود الاورشليمي وقد وضعه أحبار اليهود في أورشليم في أواخر القرن الرابع . والثاني هو التلمود البابلي وقد وضعه أحبار اليهود في بابـــل في القرن الخامس الميلادي . ويعتبر التلمود أهم الكتب الدينية لدى اليهود بعد التوراة .

ودراسة خاصة بأمــور النساء وأحكام الزواج والطــلاق ، ودراسة خاصة بالأحكام المالية والجنح والقرابين والذبائح [١] .

وكذلك ايضاً أمر القسم الثاني او الشق الآخر من مجموعة القواعد والآداب والتعاليم والتفاسير المسماة (الجمارا) وهذا القسم (الجمارا) من بين ما تعنيه (الاتمــام) او التكميل ، والجمارا تقوم في مضمونها على جملة من الروايات والاحاديث المسموعة المتداولة عن الحاخامات على مدى اجيال متعددة وهي اي الجمارا تقوم على ايضاح وشرح وتفسير (المشنا) وهي تحتوي ايضا على خلاصة ومحصلة البحوث والدراسات والمجادلات التي تم تداولهـا في معابد الكهانة الدينية وهي تشمل من انواع الدراسات والبحوث الامثال والحكم والاخبار والمعلومات المتعلقة بالامور العامة والصناعات القبطية او الفلكية او الحرفية ، وتكاد ان تكون (الجمارا) دائرة معــارف تشمل كل امور الحياة الاسرائلية اليهودية [٢] ومن مجموع مــا تحتويه المشنا وما تشتمل عليه الجمارا تتعدد المصادر الدينية عند اليهود في مجال تدوين التراث الاسرائيلي وتداوله ، وفي الوقت نفسه يتكون المصدر الديني الذي بلغت قداسته في قلوب الجماعات الاسرائيلية حـــدا فاق فيه اهمية المصدر القديم والذي من اجله كانت تعاليم المشنا والجمارا واعنى به اسفار العهد القديم . هذا وقد ظلت عملية التــدوين والاضافة للجزء الاورشليمي من التلمود حتى اوآخر القرن الرابع الميلادي وكذلك امر الجزء البابلي الذي كان ينفق على نسبة جزء كبير منه المدعو (رب آشي) والذي كان رئيساً (للاكاديميا) في (سورة) على مقربة من

---

(١) (الكنز المرصود في قواعد التلمود) دكتور روهلنج ترجمة من اللغة الفرنسية الدكتور يوسف حنا نصرالله – الطبعة الثانية بيروت سنة ١٩٦٨ .

(٢) (اسرائيل والتلمود) ابراهيم خليل احمد – مكتبة الوعي العربي سنة ١٩٦٧ .

– من المراجع التي تناولت التلمود بالدراسة والتفصيل كتاب جوزيف لويس (الختان ضلالة اسرائيلية مؤذية ترجمة عصام الدين حفني ناصف) دار مطابع الشعب – القاهرة .

وكذلك كتاب (الذبائح البشرية التلمودية) (حبيب تادرس) .

بغداد وكانت تسجل التعاليم قبل ذلك بمساعدة الأحبار اليهود في أرض بابل، وظلت عملية التدوين والتسجيل حتى أخذت في الاكتمال الذي اراده لها الأحبار في اواخر القرن الخامس الميلادي .

هذا .. ومن الجدير بالذكر ان التعاليم التي يحتويها الجزء الخاص في منطقة (بابل) أكثر شيوعاً وانتشاراً من الجزء الاورشليمي ، وظلت الافكار والتعاليم التي احتواها التلمود بشقيه (المشنا والجمارا) تتداول وتنقل باللسان في معظم مراحل التاريخ مخافة أن يطلّع عليها احد غير يهودي، فلما استقر رأي الاحبار اليهود نهائياً على تسجيلها في كتاب واحد ، وعقدوا العزم على ذلك ولم يعد غير مهم عندهم ان تقع هذه التعاليم في أيدي غير اليهود ابتدأت هذه التعاليم تقع فعلاً في أيدي غير اليهود وخاصة عندما ظهرت الطباعة ورجح الرأي اليهودي الذي كان يرى انه من الافضل طبع التلمود وتداوله ليمكن لتعاليمه ان تنتشر بين اليهود[1] وليمكن ايضاً تحديد النص التلمودي من غيره وخاصة بعد ما ظهرت تفاسير واضافات في العصور الوسطى قام بها رجال الدين اليهود وخاصة (حاخامات)فرنسا الذين اضافوا للتلمود ملحقات مثل مجموعة (مشتابوت) التي أضافها (ربى حيا) و (ربى اوشعيا)وهي شروح لأحبار فرنسا في القرون الوسطى على شرح راشي على التلمود [2] .

وبالفعل فان التلمود قد ظهر مطبوعاً لأول مرة في كتاب من اثني عشر مجلداً في (البندقية) .

---

(١) في كتاب (همجية التعاليم الصهيونية) الذي ألفه (بولس حنا سعيد) وقدمه الاستاذ (محمد خليفة التونسي) دراسة موسعة عن مراحل طبع التلمود بشقيه (المشنا والجمارا) وقد صدر الكتاب في طبعة اولى في بيروت عام ١٩٦٩ م .

(٢) انظر في واحد من امهات البحوث العلمية المعاصرة عن التلمود فيما كتبه الباحث المتخصص الدكتور (اسعد رزوق) في كتابه (التلمود والصهيونية) صادر عن مركز الابحاث التابع لمنظمة التحرير الفلسطينية .

وهناك بعد ذلك طبعات عدة أقدمها طبعة (البندقية) التي طبعت في عـام ١٥٢٠ م والتي كانت اثني عشر مجلداً ، وأعيد طبعهـا دون تعديل في البندقية ايضاً عام ١٥٥٠ م وكان من أثر هاتين الطبعتين ان تعرّض اليهود في كل بـلدان العـالم لحرج شديد لم يكن في تقديرهم ولا تصوّرهم ان يلقوه ولم يجدوا تفسيراً معقولاً يجابهون به العالم بعد حيرته الشديدة مما في التلمود من افكار وقضايا .. فان الفقرات والأخبار والأخلاق التي في التلمود والتي كشفت عن نواياهم تجاه العالم الانساني كله جعلت الكثير من شعوب العالم من التي أتيـح لهم ان يطـّلعوا على نيـات اليهود وعقائدهم المسجلة في التراث الاسرائيلي وخاصة التلمود تأخذ من اليهود موقف رفض ومقاومة لهذه الاطماع المسجلة في التلمود، ولذلك كانت الطبعة الثالثة للتلمود والتي كانت في (بازل) عام ١٥٨١ م خالية من بعض الفقرات والأخبار والأخلاق التي تفضح نيات اليهود ومقاصدهم تجاه غيرهم من الشعوب على ضوء هذا التراث العصري الذي طوّروا بـه التراث القديم ومع ذلك فـانه بعد طبعة (بازل) عام ١٨٥١ م والتي كانت خالية من بعض فقرات معينة تفضح اليهود وتكشف اطماعهم في العـالم على ضوء نعرة وعنصرية التراث المدوّن في التلمود ، فـان الجماعات اليهودية قامت بطبع هذه الفقرت منفصلة وقامت بتوزيعها على الاسرائيليين لحشرها فيما بينهم بين صفحات التلمود في الاماكن التي انتزعت منها ، ومع ذلك فانه قد سارت مضايقات من الذين اتيح لهم ان يطلعوا على تعاليم التلمود أثر ظهور طبعتي (امستردام) ١٦٠٠ م و (كراكوفيا) ١٦٠٥ م فاجتمع أحبـار اليهود في صورة مجمع مقدس ، وقرروا حذف الفقرات المريبة في كل طبعة تطبـع في المستقبل ، وقالوا في مقدمة قرارهم ما نصه : (... ولذلك تقرر اصدار الحرمان ضد كل شخص يجرأ على ان يثبت في الطبعات المستقبلة (للمشنا والجمارا) كل ما يعتبر طعناً مباشراً في عيسى أو في الاديان الأخرى. وتقرر ان يترك مكان هذه الفقرات خالياً ، حتى يستطيع اليهود بعد ذلك ان يثبتوها فيه بخط يدهم، او ان يوضع في مكان كل منها دائرة هكذا(...)

تشير الى الحذف مع التنبيه على الاحبار ومعلمي المدارس ان يكتفوا بتلقينها للشباب والتلاميذ شفهياً . وبهذه الوسيلة نستطيع ان نصل الى أهدافنا دون اثارة الاعداء حوالينا) [1] .

وفي التعليق على مراحل طباعة التلمود وتطوره يقول الدكتور (محمد القصّاص) في بحثه المعنون بـ (الاسرائيليون وروح العدوان) [2] : وقد طبّق هذا القرار بحذافيره في الطبعات التي ظهرت بعد ذلك مثل طبعة (امستردام) لسنة ١٦٤٤ م و (فرانكفورت) لسنة ١٦٩٧ ، ١٧١٥ ، ١٧٢١ م و (ساليسباخ) سنة ١٧٦٩ م و (براغ) سنة ١٨٣٩ م و (فرسوفيا) سنة ١٨٦٣ م .

ولكن بالرغم من الحذف والتبديل والتغيير المتوالي فان هذه الطبعات المختلفة التي يظهر فيها التلمود بلغات العالم العديدة لا يزال يذخر بالفضائح والشنائع المخجلة [3] والتي لا يمكن ان تقوم برهاناً على انه في تراث اسرائيل في العهد القديم او في شروحه يمكن ان يعثر الباحث على عقيدة تتصل بالايمان بالله والتوحيد له .

هذا .. وقداسة التلمود في التراث الاسرائيلي القديم والحديث تكاد تكون بدعاً بين الأمم والشعوب بل انها ظاهرة غير منطقية في تاريخ العقيدة الدينية الوضعية أو السماوية ان تتحوّل الاجتهادات والتفاسير والتعاليم المنبثقة من مصدر مقدس الى أهمية سياسية وقداسة دينية في وقت واحد ثم تفوق في أهميتها وقداستها والتعلق بها المصدر الديني الأم لها والتي هي

---

(١) (العدوان الثلاثي على مصر) : سلسلة (اخترنا لك) رقم ٣١ طبع دار المعارف/ القاهرة .

(٢) (المصدر السابق) بحث (الدكتور محمد القصاص) المعنون (في هذا الكتاب الاسرائيليون وروح العدوان) .

(٣) (الدكتور هلال فرحي) في كتاب (اساس الدين) يتناول التلمود بدراسة جادة وموضوعية يتناول فيه مراحل تطور التلمود ويتميز بعمق النظرة والاستيعاب الشامل .

أصلاً من اجل تفسيره والعمل بأحكامه ذلك هو أمر التلمود بالنسبة للعهد القديم ، فبينما هو في الأصل تعاليم (الحاخامات) ورجال الكهانة الدينية لأفكار وعقائد العهد القديم فان أفكار العهد القديم وهي التي تتداول في عقيدة القوم ووجدانهم على انها تعاليم الوحي على لسان الانبياء قد أصبح حظها في التعلق بها والارتباط بما فيها أقل كثيراً من التعلق بأفكار وعقيدة التلمود وذلك مما تفصح عنه القرائن وتؤكده الشواهد من تحمس وتعلق الجماعات اليهودية في إيمانها بتعاليم التلمود وتقديرها المفرط للقائمين على أمره ، ولقد عمل (الحاخامات) من اليهود على اذكاء روح الحماس والتعلق العاطفي والديني عند الجماعات اليهودية فراح واحد من الحاخامات يقول كما سجل عنه اليهودي الذي ألف الكتاب المسمى (كرافت) والذي طبع عام ١٥٩٠ م يقول : (اعلم ان اقوال الحاخامات أفضل عند الله من اقوال الأنبياء)ومن قبله في عام ١٥٠٠ م قال احد الحاخامات : (ان من يقرأ التوراة بدون المشنا والجمارا فليس له إله)[١] .

ولقد بلغ التعصب الديني العنصري عند القوم وهم يسجلون تفاسير لعقيدتهم في العهد القديم حداً يفوق كل صور الخرافة (والأسطورة) فمن الأخبار التي احتواها التلمود عن قداسة وعظمة الحاخامات اليهود قوله : (... إن تعاليم الحاخامات لا يمكن نقضها ولا تغييرها ولو بأمر الله . وقد وقع الاختلاف يوماً بين الله وعلماء اليهود في مسألة ، وبعد ان طال الجدل تقررت إحالة

---

(١) كنموذج على تأثير معطيات العقيدة الدينية التلمودية عند اليهود ذكر صاحب (الكنز المرصود في قواعد التلمود) حادثة الاب توما وخادمه ابراهيم عمار اللذان قام اليهود بذبحهما في دمشق من اجل عمل (فطير) عيد الفصح بدمهم طبقاً لشريعة التلمود في تفسيرها لتراث العهد القديم . الحادثة ذكرها الدكتور (روهلنج) في كتابه بالفرنسية وقد ترجمه الدكتور يوسف حنا نصرالله وقد ذكرت الحادثة في ص ١١١ من الطبعة الثانية عام ١٩٦٨ م .

المشكلة الى احد الحاخامات الربّيين ، واضطر الله أن يعترف بخطأه بعد حكم الحاخام المذكور) [١] .

وليس الاسفاف والوثنية الدينية هو كل ما في جعبة القوم بين دفتي كتب التراث الاسرائيلي المقدس وخاصة في التلمود ، وإنما يقول الحاخام (الرابي مناحم) وهو من كبار الحاخامات : (... إن الله – تعالى الله عما يقوله الحاخام – يستشير الحاخامات على الارض عندما توجد مسألة عويصة لا يمكن حلها في السماء، وانه يجب الالتفات الى أقوال الحاخامات أكثر من الالتفات إلى شريعة موسى) [٢] .

ثم وبقدر ما في تعاليم من حثّ على التعصب وابرازه دعوى العنصرية اليهودية والقول بأفضلية ونقاء شعب اسرائيل ، فان فكر التأثر بالخرافة والأسطورة التي كانت لدى الشعوب الوثنية تشيع كثيراً في مضمون تعاليم التلمود ففيه فوق الحديث عن مذلة اليهود وضياعهم وتفتتهم بين الأجناس والأمم ان الله – تعالى الله – يندم على تركه اليهود في حالة التعاسة التي هم فيها حتى انه يلطم ويبكي كل يوم فتسقط من عينيه دمعتان في البحر ، فيسمع دويهما من بدء العالم الى نهايته ، وتضطرب الأرض في اغلب الاوقات فتحصل الزلازل والبراكين .

وأما عن نظرة تعاليم التلمود لله أي الاساس الديني الذي تدور حوله أفكار الحاخامات فهو ان الله عندهم كما هو في بعض أسفار العهد القديم

---

(١) (الكنز المرصود في قواعد التلمود) دكتور (روهلينج) ترجمة يوسف حنا نصر الله – الطبعة الثانية ص ٤٧ عام ١٩٦٨ م .

(٢) من نصائح الحاخام (روسكي المشهور) : (التفت يا بني الى اقوال الحاخامات اكثر من التفاتك الى شريعة موسى) .. نقلا عن كتاب الكنز المرصود في قواعد التلمود ص ٤٥ .

يخطىء ويصيب لا بل انه عندهم هنا كثير الخطأ ، وكثيراً ما يطلب الى القائمين على أمر التلمود ان يغفروا له أخطاءه ، وليست أخطاء الله تقع بينه وبين الذين اصطفاهم التلمود وجعلهم أكثر عصمة من خالقهم، بل ان أخطاء الله في التلمود وقعت منه في الكون الكبير حين خلقه – سبحانه وتعالى عما يلوكه التراث الاسرائيلي من إثم وخطيئة في الذات العليّة – فهو قد أخطأ عندهم لكون القمر أصغر من الشمس وعن هذه الخطيئة كون القمر أصغر من الشمس تسجل فقرات التلمود ان حواراً حدث بين الله والقمر وان القمر قال لله : أخطأت حيث خلقتني أصغر من الشمس فأذعن الله لذلك واعترف بخطئه وقال : اذبحوا لي ذبيحة أكفّر بها عن ذنبي لأني خلقت القمر أصغر من الشمس ، ورغم ان هذا المعتقد الوثني الصرف الذي تفيض به تعاليم التلمود يدل على جهل بعلوم الفلك وبالنظريات العلمية عن الكون والتي كانت تحاول أن تتعرّف على حركة الكون منذ القرن الاول الميلادي ، فان هناك من بين تعاليم التلمود دعوات عنصرية يلوك بها اليهود تراثاً متداولاً لا يملّون أبداً من ذكره والتحدث به وهو يتعلق بما تصوّروه عن أفضليتهم ونقاء عنصرهم ومن بين هذه الدعوات التي يبرزها فكر التلمود في عنصرية وثنية لا تنتمي الى إيمان او نبوّة : ان الاسرائيلي أفضل عند الله من الملائكة فاذا ضرب أمي او اعتدى على اسرائيلي فكأنه ضرب العزة الإلهية ، ذلك لأن اليهودي حسبما تملي عليه عقيدة التلمود انه جزء مادي من الله كما ان الابن جزء أبيه ، وعلى هذا فانه إذا ضرب أمي اسرائيلياً (فالأمي) يستحق الموت لأن اليهود لو لم يخلقوا لانعدمت البركة من الارض ولما خلقت الامطار والشمس بل تقول عقيدة التلمود وتعاليمه : (ولما أمكن لباقي المخلوقات ان تعيش) ومن أجل هذا الامتياز المختار والاصطفاء الذي لا يعقله غير دعاة العنصرية الاسرائيلية التي يفيض بها التراث الاسرائيلي ويبرزها هنا قوية فكر التلمود

فان الفرق بين درجـة الانسان العادي غير اليهودي وبين الحيوان هو الفرق بين اليهود وباقي الشعوب غير اليهودية [1] .

ومن أجل هذه الدعاوى المتعصبة ، فان العـالم كله يصبح أمـام دعوى التراث الاسرائيلي اقل درجة ومستوى من اصحاب هذا التراث ولذا يعمل اليهود بوحي من هـــذا التراث معظم مراحل تاريخهم باعتبارهم فئة قليلة وجماعة محدودة بين الشعوب لا تقوم إلا على تداول هذه الذكريات القـائمة على العنصرية والعدوان .

(١) انظر (الكنز المرصود في قواعد التلمود) وعند الفصل الخامس الخاص بأرواح اليهود والنصارى ص ٦٠ .

الباب الرابع

النبوة والرسالة في العهد القديم

الفصل الأول

وظيفة النبي في العهد القديم

كان شيئاً منطقياً والكتاب الذي نحن بصدده (العهد القديم) مدّعى عليه من قبل علماء اللاهوت ورجال الكتاب المقدس بأنه في كل ما أخبر به ومـا ساقه نبوءة وبشارة وبأن كل الكتاب موحى به من عند الله [1] أن نذهب بين صفحاته ومـا تعلق بهـا من شروح وتفاسير نبحث عن مضمون النبوءة والرسالة الإلهيتين وأن نتعرف على وظيفة النبي والرسول على ضوء ما هي عليه في هذا الكتاب الذي يقول عنه المؤمنون به : ان الله استخدم بشراً ادوات للكتابة فيه [2] .

وكما التزمنا في منهجنا الذي نناقش على ضوئـه بعض القضايا الأساسية في التراث الاسرائيلي الذي يرى شرّاحه أن كل ما فيه يقوم على ما يسمى بعصمة الكتاب المقدس ولم نجد أمامنا سنداً او برهاناً يساعد على هـذا القول فرحنا نناقش النصوص على ضوء افتقادها للتكامل الموضوعي والعقائدي الذي يبرز من خلاله افتقاد العهد القديم لأهم وأخطر القضايا الدينية وأعني بهـا (عقيدة

---

(١) (حبيب سعيد) في المدخل الى الكتاب المقدس ص ١٥ .

(٢) (حبيب سعيد) المدخل الى الكتاب المقدس ص ١٧ .

التوحيد) ونحن هنا لم نشأ ان نذهب مع اسفار العهد القديم كلها في تناولنا لقضايا بحثنا كنموذج لما في التراث الاسرائيلي من خلل وتفاوت فضلاً عن افتقاده لعصمة الوحي الإلهي انما اقتصرنا على جوهر الكتاب وآساسه أعني الاسفار الخمسة التي تعرف باسم (اسفار الشريعة) تارة[1] وبالتوراة تارة اخرى وكان ذلك المتجه هو اهتمامنا بالدرجة الاولى فيما ذهبنا اليه ، على ان ذلك لا يمنع من تناولنا لبعض افكار ومقررات باقي كتب العهد القديم اذا ما اقتضت القضية التي نكون بصددها ذلك .

وسنحاول هنا ان نتعرف على مجموعة من الانبياء والرسل الكرام على الله من الذين فاض بذكرهم والحديث عنهم العهد القديم والاسفار الخمسة على وجه الخصوص وأول هؤلاء الكرام على الله ابي الانبياء وخليل الرحمن ابراهيم عليه السلام فماذا عن سيرته في كتب العهد القديم ؟ وما الذي حققته النبوة والرسالة الإلهية على يديه في منطق ومنهج (توراة) العهد القديم ؟

النبي ابراهيم في العهد القديم :

يطالعنا الاصحاح الثاني عشر من سفر التكوين ، بأنباء حدوث مجاعة في ارض كنعان ، حيث كان ابراهيم عليه السلام قد وصل اليها واستقر بها قادماً من العراق ، كذلك يخبر نفس الاصحاح أن نبي الله كان عليه السلام في سن متقدمة فقد اخبر الاصحاح انه بلغ الخامسة والسبعين ، وأنه كان بناء على قصص سفر التكوين عليه أن يواصل الرحلة التي قطعها من العراق ، من عند ملك ظالم على شاطىء نهر رفض فيه الناس دعوته فهاجر الى فلسطين ثم الى مصر ايضاً عند ملك المفروض فيه أنه لم يكن في ذلك الوقت اقل ظلماً من صنوه ملك العراق لكن المزعج والمهم ايضاً في اخبار رحلة النبي المهاجر ذلك الحوار الذي نقله كاتب السفر ناسبه الى نبي الله وزوجه السيدة سارة (ساراى) :

---

(١) (القس فايز فارس) : (حقائق أساسية في الايمان المسيحي) دار الثقافة المسيحية ص ٢٣ .

ومؤداه أن الرجل استشعر نوعاً من الخوف على حياته بسبب ما انتهى اليه من امكان أخذ زوجته منه لأحد أمراء مصر او للفرعون نفسه وقتله بسبب ذلك ، وأنه بناء على ذلك فقد اتفق معها على أن لا يبدر منه او منها ما يدل على أنها زوجته ، واذا ما سألوها عن هذا الامر ، فلتقل انها أخته لأنه عندئذ اذا ما رغب فيها أحد من المصريين سيضطر أن يتركها لمن يريدها !

ولا نريد أن ندخل في جدل مع شرّاح وعشّاق التأويلات ، فيما يمكن ان يترتب على حوار كهذا الذي يقصه علينا الاصحاح الثاني عشر من سفر التكوين وهل كانت سارة عند كتّاب الاصحاحات المدونة في سفر التكوين زوجة لابراهيم فقط وليس له بها قرابة ، وعندئذ يكون قد كذب على الله وعلى الناس وطالب منها كذلك أن تكذب حين قال لها قولي إنك أختي ، أم أنها اخته من ابيه وليست بنت امه كما يقول الاصحاح العشرون أم أنها اخته في الايمان الذي يتحدث عنه شرّاح سفر التكوين وبأنه كان في قلبه وقلبها أياً كان الامر فنفس السفر يرى في سارة عند الحديث عنها أنها كانت اخته وزوجته ، فان الاصحاح الذي قص الحوار الذي نسب الى ابراهيم وزوجته حين دخولهما ارض مصر أنهى الحوار بحديث يؤكد بأن التوقعات التي نسبها الى ابراهيم كانت سليمة وعلى صواب [1] وان المصريين حين رأوا المرأة اعجبوا بها وأخذوها الى بيت فرعون الذي اتخذها لنفسه زوجة ، ولما عرف الحقيقة إثر برهان من الله تحدث عنه كاتب الاصحاح — أجرى في بيت الفرعون — عندئذ أعاد المرأة الى رجلها ومع بعض الهداية التي حملها ابراهيم ، ولم يجد كاتب السفر خجلاً من أن يذكر ذلك وينسبه الى ابي الانبياء ، فماذا في سفر التكوين في الاصحاح الثاني عشر عن هذه البداية التي افتتح بها كاتب الاصحاح الثاني عشر سيرة وتاريخ ابي الانبياء عليه السلام في العهد القديم يقول : (وحدث جوع في الارض فانحدر ابرام الى مصر ليتغرّب هناك لأن

---

(١) (سفر التكوين) : الاصحاح الثاني عشر : فقرة رقم ١٢ .

الجوع في الارض كان شديد وحدث لما قرب ان يدخل مصر أنه قال لساراي امرأته : اني قد علمت أنك امرأة حسنة المنظر فيكون اذا رآك المصريون ، أنهم يقولون هذه امرأتك فيقتلونني ويستبقونك .. انك اخني ليكون لي خير بسببك وتحيا نفسي من اجلك . فحدث لما دخل ابراهيم الى مصر أن المصريون رأوا المرأة انها حسنة جداً ورآها رؤساء فرعون ومدحوها لدى فرعون ، واخذت المرأة الى بيت فرعون فصنع الى ابراهيم خيراً بسببها وصار له غنم وبقر وحمير وعبيد واماء وأتن وجمال ، فضرب الرب فرعون وبيته ضربات عديدة بسبب ساراى امرأة ابرام فدعى فرعون ابرام وقال ما هذا الذي صنعت بي لماذا لم تخبرني انها امرأتك ؟ لماذا قلت هي اختي حتى اخذتها لي لتكون زوجتي ، والآن هو ذا امرأتك خذها واذهب ، فأوصى عليه فرعون رجالاً فشيّعوه وامرأته وكل ما كان له) [1] .

هذا هو نص ما ورد في الاصحاح الثاني عشر من سفر التكوين ولا نريد ان ندخل في جدل مع كاتب السفر لنسأله ونقول له ، هل انت متأكد من مصادر معلوماتك التي انتهيت اليها فيما يتعلق برحلة ابراهيم عليه السلام اصلاً الى مصر ؟ وهل لديك التفسير المعقول لكي تقتنع به حول رحلة الرجل النبي المسن التي بدأت كما ذهبت من العراق من عند ملك ظالم رفض دعوته الى الله واحال دون ان يسمع الشعب في (اوركلدان) الى ملك لم يكون اقل ظلماً من ملك العراق لكنه قد يكون اشد سوءاً منه اذا ما وضع في الاعتبار ان الرجل المهاجر ليس بين اهله ولا بلده فضلاً عن انه لا يهم ملك المهجر الذي قصده ابراهيم في رواية سفر التكوين في قليل او اكثر وهل هناك مصدر آخر يمكن ان يقوم برهاناً على رحلة ابراهيم عليه السلام الى مصر غير اخبار سفر التكوين ؟ ولماذا قامت الشكوك على يد المستشرقين حول رحلة النبي ابراهيم الى شبه الجزيرة ومقامه بمكة وبنائه لبيت الله الحرام (الكعبة)

---

(١) سفر التكوين الاصحاح الثاني عشر فقرات ١٠ — ٢٠ .

بل لماذا اغفل كتّاب وشرّاح العهد القديم اخبار هذه الرحلة بينما هي الرحلة المتصورة والمنتظرة من نبي دعـا الى الله وسط مجتمع متحضر مستقر فلم يستجب ، فمن غير المعقول ان يجرّب مجتمعاً آخر من نفس النمط والطراز[1] ان رحلة مكة لنبي الله ابراهيم عليه السلام هـي الاقرب إلى ذهن المؤمن والأسلم بل هي الأرجح امام احتمالات بواعث هجرة النبي ابراهيم عليه السلام من العراق، ونعيد السؤال لمـاذا قامت الشكوك حول رحلة الحجاز ولم تقـم حول رحلة مصر التي راح مصنف سفر التكوين ، يضع أثناءها فيما سجّل وصاغ ونسب وافترى على نبي الله ابراهيم في ذلك الثوب المهين لرجولته فضلاً عن كرامة النبوة التي تحملهـا جوانحـه ولا تستقيم او تتفق اخبار ومرريات ومفتريات كاتب السفر وهذه النبوة الكريمة على الله التي كان يمثلها ابراهيم عليه السلام ؟ ولماذا لم يذكر او يشر إلى تلك الرحلة المقدسة كاتب السفر الذي دوّن سيرة ابي الانبياء وهي الرحلة التي بنى فيها ورفع قواعد بيت الله الحرام في البلد الحرام غير أننا لا نريد أن نناقش بالتفصيل هنا رواية كاتب سفر التكوين وان كنا بادىء ذي بدء لا نقرّه عليهـا لكننا هنا نسأله عمـا ذهب يدونه ويلصقه بأبي الانبياء . هـل عنده جواب عن السر الذي جعل من المرأة المرتحلة عبر الفيافي والقفار مـع زوجها المهاجر بدينـه الحامل لرسالة ربـه وقد بلغت الخامسة والستين ، وبصمات البادية وقسوة هجيرها وصقيعها لا بد وأن يكون قـد نالها ، ما الذي جعلها بالرغم من كل هذه العوامل فضلاً عن تأثير السن حسنة المنظر وتشتهى ، وجدلاً لو سلم له بهـذه الواقعة التي لا يسلم بها مؤمن أبداً ينزل ابراهيم في قلبه منزلة النبي المبلّغ عن ربه ، وأياً كانت التبريرات والتفسيرات التي يتشدّق بهـا كتّاب اللاهوت والتي يمكن أن تساق وراء سارة وفرعون ملك مصر في ظل ذلك الموقف الذي وضع فيه مصنف سفر التكوين نبي الله ، فهل يعقل أن يتكرر نفس المشهد وتجري ذات القصة

---

(١) اليهود بين الدين والتاريخ (للباحث) ص ٥٤ .

لابراهيم وسارة فيما نسب سفر التكوين بعد عشر سنين وهـذه المرة على يد ملك آخر غير الفرعون هو : (ابيمالك) ملك جرار الذي يغرم هو الآخر بمنطق مسجل التراث الاسرائيلي بالعجوز، ويرغب فيها ويطلبها من ابراهيم، الذي لم ير مانعاً كما ادعى عليه كاتب السفر في ان يقـدم للملك جرار زوجته لأنه في منطق كاتب سفر التكوين لا بأس ان يقول النبي في كل موقف تشتهي فيه زوجته انها أخته ، ليأخذها من يشاء ولا وزر على ابراهيم ما دام ينجو بجلده من هذه المواقف التي يقصها وينسبها ويتحدث عنها كاتب سفر التكوين ويتناول فيها [1] (حسناء التراث الاسرائيلي بنت الخامسة والسبعين) ولننظر ما سجله كاتب الاصحاح العشرين من سفر التكوين عن الواقعة التي تكررت مرتين في حيـاة رجل يعالج السفر سيرته على أنه واحد من كبار الانبياء ، عشر سنين يسوق كاتب السفر الواقعتين ، الاولى التي وقعت والمـــرأة في الخامسة والستين والثانية التي حكاها عن نفس المشهد بعد عشر سنين أي في الخامسة والسبعين ، يقـول كاتب الاصحاح العشرون مـن سفر التكوين : (وانتقل ابراهيم من هنـاك الى ارض الجنوب وسكن بين قادش وشور ، وتغرّب في جرار وقال ابراهيم عن سارة امرأته هي أختي فأرسل (ابيمالك) ملك جرار وأخذ سارة فجاء الله الى ابيمالك في حلم الليل وقال له : ها انت ميّت من اجـل المرأة التي اخذتها فانها متزوجة ببعل ولم يكن (ابيمالك) قد اقترب منها ، فقال : يا سيد أأمة بارة تقتل ؟ ألم يقل هو لي انها أختي وهي ايضاً نفسـها قالت هو أخي ، بسلامة يدي ونقـاوة قلبي فعلت هذا ،

---

(١) (صبري جرجس) في كتابه (التراث اليهودي الصهيوني والفكر الفرويدي) يقول : تروي الموسوعة البريطانية في الرواية التي نسبتها التوراة لابراهيم دليلاً على فطنته وسرعة بديهته ص ٦٢ من الكتاب الصادر عن عالم الكتب عام ١٩٧٠ الطبعة الأولى - القاهرة .

فقال له الله في الحلم ايضاً بسلامة قلبك فعلت هذا ، وانا ايضاً أمسكتك عن ان تخطىء إليّ ، لذلك لم أدعك تمسها ، الآن ردّ امرأة الرجل فانه نبي فيصلي لأجلك فتحيا ، وان كنت است تردها فاعلم انك موتاً تموت أنت وكل من لك) [1] .

ونسأل كاتب هذا المشهد ، لِمَ هذه الواقعة كلها أصلاً ، فان كانت عندك حكمة غامضة تفسيرها عند القائلين (بالشفرة) الروحية التي يلجأ اليها البعض من علماء اللاهوت عند تفسيرهم لما لا مضمون له ولا هدف من كتب العهد القديم فالواقعة نفسها قد وقعت ومن اكثر من عشر سنين في مصر ، وان كان الأمر كما انتهت اليه هذه الفقرات عن (ابيمالك) ملك جرار الذي اشتهى المرأة على هذا القدر من الايمان حتى يجيء الله له في حلم ويخبره بأن المرأة متزوجة ، بينما القرائن من الزوج والزوجة كما ادعى الاصحاح تقول بغير ذلك ، فلِمَ اشتهى المرأة أصلاً وهو بهذا الاستعداد الطيّب للايمان ، ولِمَ لم يفطن النبي ابراهيم الى استعداد الرجل للهداية ويعرض عليه الحقيقة حتى لا يقع في اللوم الذي وجهه اليه (ابيمالك) حين قال له على ضوء النص :(...ماذا فعلت بنا وبماذا اخطأت اليك حتى جلبت عليّ وعلى مملكتي خطية عظيمة) [2].

وهل من الجائز ان تكون سيرة رجل كريم على الله مثل أبي الانبياء يحمل شرف النبوّة وجلال الرسالة الإلهية بهذا القدر من المهانة التي يلبسها إياه كاتب السفر في غباء لا معنى له ولا معيار ، نبي الله أبرأ ما يكون عن هذا البهتان الذي سجّله كاتب سفر التكوين عن ابي الانبياء .

والأمر عندنا لا يعدو ان تكون هذه الاساطير واحاديث الخرافة اكثر من كونها اساطير وثنية كتبت بعد زمن طويل وخاصة بعد عصر السبي

---

(١) (سفر التكوين) الاصحاح العشرون فقرات ١ — ٧ .

(٢) (سفر التكوين) الاصحاح العشرون فقرة ٩ .

بينها وبين من تتحدث عنهم هوة سحيقة من الزمان والعقيدة وحين غرق بنو اسرائيل في الخطايا والذنوب جلس النساخ والمسجلون بتوجيه من كهانة مرتدّة تعيش تحت أسر اعدائها وبعيداً عن ربها ، لينسبوا الى انبياء الله هذه الخطايا التي وقع فيها قوّادهم وحكامهم وبعد ان فقدوا أمام الشعوب الراصدة لانحرافاتهم ومفاسدهم كل ما يمكن ان يقوموا عليه من جديد جاء المسجلون ونسبوا الى أنبياء الله هذه المآثم بأمل ان تكون باعثاً لشعب السبي على القيام واستجماع الهمة وتقوية العزم الذي كان قد ضاع في الموبقات والمفاسد .

هذا .. ولقد ذكر الدكتور (صبري جرجس) في كتابه (التراث اليهودي الصهيوني والفكر الفرويدي) ان كثيراً من علماء الدين المقارن وذكر منهم (فلويد ، ودروس) اللذان ذكرا في كتابهما (الأديان الكبرى التي يؤمن بها البشر) انهما قالا : (ان القصص الواردة بسفري التكوين والخروج لا يمكن ان تؤخذ كتاريخ او كتاب دين ، انها اساطير كتبت بعد عدة قرون ونقلاً عن ذاكرة افراد تناقلوها) [1] . وإلا فما معنى هذا الغباء العقلي التدويني الذي سجله كاتب العهد القديم على واحد من اكرم رسل الله على الله ، انه النبي الذي كان من نسله كل سلسلة أنبياء الله ورسله بدءاً من اسماعيل واسحق وانتهاء بعيسى ومحمد عليهم جميعاً صلوات الله وتسليمه . ان العقل الايماني الذي يرى في انبياء الله وظيفة اناطها الله سبحانه بهم ليكونوا نماذج هداية للبشر ، وليكونوا حلقة الاتصال الخيّر بين هدى السماء وشرور البشر على الأرض من أجل ضبط السلوك وتوجيه الناس والتوفيق بين عناصر الارض فيهم ومقومات الروح التي اودعها الله اياهم [2] ، لا يقبل ان يكون نبي الله

---

(١) (صبري جرجس) (التراث اليهودي الصهيوني والفكر الفرويدي) عالم الكتب الطبعة الأولى عام ١٩٧٠ – القاهرة ص ٥٣ .

(٢) (البهي الخولي) : (آدم عليه السلام – فلسفة تقويم الانسان وخلافته) – القاهرة مكتبة وهبه الطبعة الثالثة عام ١٩٧٤ ص ٢٥ .

حقل تجارب للخطيئة الانسانية ولموبقات وشرور النوع الانساني والتي يحاول خلعها عليه كاتب السفر ليقرّه عليها بعد ذلـــك بئات الاجيال واحد من عشاق التفسير الرمزي والتأويل الباطني الذي لا سند له من عقل او برهان مثلما حاول : (ق . بـ . ماير) في كتابه : (حياة ابراهيم) الذي ترجمه القس مرقص داود في القاهرة عام ١٩٦٠ والذي يزعم فيه ان وجود مثل تلك المفتريات اكبر دليـــل على صحة الكتاب المقدس الذي لم يتردد بهذا الزعم الفاسد عن ان يذكر خطايا اقدس القديسين. ونحن نسأل هذا المفسّر الكهنوتي (ماير) ما الذي بقي من قداسة عند أقدس القديسين، إذا كان حاله هكذا كما يصفه كتّاب سفر التكوين بهذه الصورة التي لا تليق برجولة رجل فضلاً عن عصمة نبي، انه هنا كما يريد ويدعي كاتب سفر التكوين يقبض ثمن امرأته من ملكين وفي الموقفين كذّاب يفتقد شجاعة مجابهة الموقف وتختفي من بين سيرته ملامح النبوة او أثر الرسالة الإلهية . إن نبي الله ابراهيم العظيم أكرم وأطهر وأقدس من كل ما يتصوره عقل اصحاب العهد القديم او يتبرر به اصحاب التأويلات والتفسيرات بالرمز، وإذا كان هذا هو حال النبوة والرسالة في منهج العهد القديم وعلى يد نبي عظيم مثل ابراهيم لا يطالعنا الكاتب الذي تناول سيرته بشيء من أثر الدعوة الدينية بين الناس على يديه ولا بشيء من قواعد الأخلاق وآداب الشريعة فضلاً عن فروض العبادة وواجبات التعبد لله لكن الذي يطالعنا به هو ذلـك الخلق المهين بين مواقف متغايرة ورحلات غامضة وأحداث متعاقبة دنس بها الكاتب سيرة أبي الأنبياء وقدمه للمؤمنين بالعهد القديم بهذه الصورة المقيتة على انه حقل تجارب لهذه المواقف التي تنعدم فيها رجولة الرجل فضلاً عن كرامة النبي ثم يجيء وسط هذا الخلل التدويني شرّاح العهد القديم ويقولون عنه انه بهذه الخطايا حين قدمه الكتاب المقدس اصبح دليلاً وبرهاناً على عصمة الكتاب المقدس وعلى انه عليه السلام أقدس القديسين .

نعتقد ان هذا الزعم الفاسد لا يمكن ان يكون دليل إيمان ومن منطلق الرؤية التي تنظر الى سيرة أنبياء الله بعين الاحترام والتقدير وعلى انهم نماذج هداية للبشر ، وإذا كان هذا هو حال النبوة والرسالة الدينية في منهج العهد القديم لا يعثر عليه الباحث على يد نبي مثل ابراهيم عليه السلام فكم تكون الملابسات والاحوال التي تقترن بوظيفة الزعيم او القائد او الكاهن في مجتمع اسرائيل وكيف رصد كتاب الأسفار سيرة نماذج من مثل هؤلاء ان كانوا حقاً يرصدون .

الفصل الثاني

النبي اسحق في العهد القديم

يطل علينا هذا النبي الكريم ابن النبي الأكرم ابراهيم عليهما السلام من خلال رواية الاصحاح السادس والعشرين من سفر التكوين: ومضمون السيرة المتعلقة بهذا النبي في تراث العهد القديم انه ليس أسوأ او احسن حظاً من ابيه على يد كتّاب الأسفار فيما دوّنوا وفيما اقترفوا به على أنبياء الله .

وخلاصة هذه السيرة ان ارض كنعان (فلسطين) تعرضت لجدب وقحط يبدو انــه غير الذي وقــع في ايام ابراهيم ودعاه الى دخول مصر فيما نسب السفر الى ابراهيم من بواعث هجرته الى مصر ، واراد اسحق هو الآخر ان يدخل مصر لعله ينال بعض الكرم والعون من هذا الشعب المضياف ، لكن كاتب الأسفار يطالعنا بأن الله أمره بأن لا يذهب الى مصر بــــل يكتفي بالرحــلة في سيناء حول منطقة (جرار) ، وعنــد الملك الذي سبق لأبيه ابراهيم ان التقى به في رحلة الصعود من مصر ووقع لأمه سارة معه ما حالت دون وقوعه الاقدار التي تحدثت عنها فقرات من الاصحاح العشرين من سفر التكوين .

والمذهل المزعج الذي لم يتنبه له بالأمس البعيد كتّــاب العهد القديم ولم

يقدّموا فيما دوّنوا ان كانوا قد تنبّهوا سبباً معقولاً له وهو : ان القصة التي وقعت لابراهيم وزوجته سارة مرتين مع الفرعون المصري ومع ابيمالك وفي كليهما تؤخذ زوجته تتكرر للمرة الثالثة اقول وبغير هدف او مضمون يورد كاتب السفر هذه الواقعة وللمرة الثالثة وهذه المرة مع اسحق ولد ابراهيم وزوجته (رفقة) فما الذي يرويه كاتب الاصحاح السادس والعشرين من سفر التكوين يقول :(وكان في الارض جوع غير الجوع الاول الذي كان في ايام ابراهيم ، فذهب اسحق الى ابيمالك ملك الفلسطينيين الى جرار ، وظهر له الرب وقال لا تنزل الى مصر ، اسكن في الارض التي أقول لك ، تغرّب في هذه الارض فأكون معك وأباركك لأني لك ولنسلك أعطي جميع هذه البلاد ، وأفي بالقسم الذي أقسمت لابراهيم ابيك ، وأكثر نسلك كنجوم السماء، وأعطي نسلك جميع هذه البلاد، وتتبارك في نسلك جميع أمم الارض ، من اجل ان ابراهيم سمع لقولي وحفظ ما يحفظ لي أوامري وفرائض شرائعي ، فأقام اسحق في جرار وسأله أهل المكان عن امرأته،فقال هي أختي لأنه خاف ان يقول امرأتي لعل اهل المكان يقتلونني من اجل (رفقة) ، لأنها كانت حسنة المنظر ، وحدث إذ طالت له الايام هناك ان ابيمالك ملك الفلسطينيين أشرف من الكوّة ونظر وإذا اسحق يلاعب (رفقة) امرأته ، فدعى ابيمالك اسحق وقال إنما هي امرأتك ، فكيف قلت أختي ؟ فقال له اسحق : لعلي اموت بسببها ، فقال ابيمالك : ما هذا الذي صنعت بنا لولا قليل لاضطجع احد الشعب مع امرأتك فجلبت علينا ذنباً ، فأوصى ابيمالك جميع الشعب قائلاً : الذي يمس هذا الرجل وامرأته موتاً يموت)[1] .

هذا الرجل ابيمالك الذي يعبّر عنه السفر بأنه يخاف الخطيئة في واقعة

---

(١) (سفر التكوين) الاصحاح السادس والعشرون فقرات ١ — ١١ .

سارة والذنب في واقعة رفقة، لماذا كان هكذا يشتهي كل امرأة تفد عليه ؟ لم يعلل لنا كتّاب السفر سبب ذلك مع وجود ذلك الورع والتقوى والخشية وخوف الخطيئة هذه المعاني التي لا نعثر عليها في سيرة الرجل على ضوء ما يقصه علينا كتّاب الاسفار من سيرته، انه قدّموه لنا رجلا يتصيّد كل امرأة تفد عليه ثم لماذا كان ينظر من الكوّة على اسحق والأصل عنده على ضوء الحديث الذي ذكره اسحق له فيما نسب كاتب السفر ان رفقة أخته وبالتالي لا داعي للتجسس عليهما ثم ولِمَ لم يحتاط اسحق للأمر وهو الذي أرانا اياه كاتب الأسفار يكذب بغير تأويل ويداعب امرأته ان كان ولا بد بمنأى عن أن تقع عليهما عيون احد الناس، هزيل وغبي هو كاتب الاسفار فيما يقصه من سير انبياء الله وهداته للناس فضلاً عن ضعف ملكاته الفنية في مجال الرواية والقصة ان كان يهدف بما يكتبه ان يقدّم للناس حديث خيال وأسطورة حلم لم يتقن التعبير عنه ولم يجيء على أدنى مستوى فني يضع نصوص سفر التكوين في الحديث عن النبيين الكريمين ابراهيم واسحق في مستوى أدب الرواية او احاديث الاسطورة التي شاعت في الزمن القديم .

وفي التعليق على واقعة ابيمالك ورفقة يقول الاستاذ الدكتور محمد بيومي مهران في كتابه (دراسات في تاريخ الشرق الأدنى القديم) الجزء الثاني صفحة ٧٥ [١] .. (... أفلا يقع هذا القصص الحزن والخجل إلا مع هذا الملك ؟ ولم يقع اسحق فيما وقع فيه أبوه ومع نفس الملك ؟) . وبعد أن يبرأ الدكتور مهران نبي الله اسحق من هذه التهم يقول ونحن نقرّه فيما ذهب اليه : يبدو أن كاتبي التوراة أرادوا بهذا القصص المحزن ان يمهدوا لحرب ضروس ستشتعل أوارها يوماً بين الفلسطينيين واليهود او انه تنفيث لحقد

---

(١) (محمد بيومي مهران) في كتابه (دراسات في الشرق الادنى القديم) ج ٢ ص ٧٥ .

دفين يكنه اليهود للفلسطينيين والمصريين معاً فجاء هذا القصص على هذا المنوال غير الأخلاقي ضد النبيين الكريمين ابراهيم وابنه اسحق .

وفي هذه الجوانب الغير الأخلاقية او هذه الجوانب التي تمثل الموقف السلبي في المجال الأخلاقي نرى معظم أخبار واحداث الاسفار المقدسة في تراث اسرائيل وذلك من خلال تمجيدها المباشر او غير المباشر لأنماط خلقية منحرفة كان ينبغي لها الادانة والاستنكار في صراحة تامة وفي غير مواربة او اخفاء لو كان عند كتّاب الأسفار بقية من خلق او حياء [1] .

---

(١) (صبري جرجس) في كتابه (التراث اليهودي الصهيوني والفكر الفرويدي) ص ٦٣ .

الفصل الثالث

النبي يعقوب واولاده في العهد القديم

لعله عليه السلام من اكثر الانبياء الذين تناولهم كتّاب العهد القديم بالاحاطة والشمول ، ولم يتركوا لحظة من حياتــه عليه السلام تمر دون أن يجهدوا انفسهــم بمنهجهم في دراستها والتعرف عليها والوقوف على خباياها واستخلاص نتائجها ، انعكس الاهتمام بــه باعتباره الأب المباشر لأبناء اسرائيل جميعاً إلى دراسته ومتابعــة وتسجيل كل مــا اتصل او أحاط بأولاده الاثني عشر وليت الامر انتهى بكتاب الاسفار وخاصــة أولئك الذين دوّنوا احداث ومرويات سفر التكوين بمقررات دينيــــة واخلاقية تنبعث من مناخ النبوة والانبياء الذين ولدوا وتكاثروا في بيت يعقوب وانعدمت سيرة اثرهم الاخلاقية الدينية الحقة في منهج كتّاب العهــد القديم ولكن كاتب السفر (التكوين) وهــو متأثر بمنهج التراث الشعبي لأمم وثنيــة أملت بالتأثير مقرراتها ومأثوراتها في الدين والاخلاق فانعكس عليه هذا التأثير وأثر في عقله وفكره وهو يدوّن لأنبياء الله فراحت كل مدوناته تحمل هــذا الطابع الذي لا يقوم برهاناً او دليلاً على عمل النبوة ومنجزاتها على الاطلاق فماذا عـــن سيرة يعقوب واولاده عليهم السلام في منطق كتّاب اسفار العهد القديم .

في البداية يسجل كاتب الاصحاح الخامس والعشرين من سفر التكوين لمفارقة عجيبة ويذكرها ويتوسع في الحديث عنها وخلاصتها : أن اسحق الذي هو والد يعقوب تزوج (رفقة) ولم ينجب منها الا في وقت متأخر بعد الاربعين يرينا اياه كاتب السفر وهو يصلي ويدعو الله الذرية ويستجاب له وتحبل السيدة رفقة لكنه حبل ثقيل لأن زحاماً في بطنها من أثر حركة ولدين يبدو قوياً ، وحين تسأل نفسها عن سر الألم يجيء لها الرب فيما زعم السفر رب اسرائيل ، ويبدو أنه على ضوء رواية العهد القديم هذا الرب يجيء وينزل ويتحدث مع جميع من يتحدث عنهم العهد القديم البار والفاجر، الرجل والمرأة ، ويخبرها بأن في بطنها ولدان ، لكنهما سيفترقان وسيكونان شعبان شعب يقوى على شعب وكبير يستعبد لصغير . وعند ولادة السيدة رفقة التي بلغ زوجها فيما زعم كاتب السفر الستين حين الولادة ، كان (عيسو) في المقدمة وتلاه (يعقوب) ويعلل كاتب الاصحاح عند هذا الحدث سر تسمية (يعقوب) بهذا الاسم ، وهو أنه خرج من بطن أمه ويده قابضة بعقب (عيسو) فدعى اسمه (يعقوب) ، لكن كاتب السفر لا ينسى أن يسوق مشكلة مبكرة في بيت النبوة ستجابه الجيل الذي يفترض فيه أنه سيتحمّل مسؤلية هداية وتوجيه الناس لله رب العالمين ، هذه المشكلة تمثلت فيما قصّه كاتب السفر ، من أن السيدة (رفقة) كانت تحب يعقوب اكثر من عيسو ولا يخجل كاتب السفر أن يرينا في الوجه المقابل اسحق وهو يحب (عيسو) اكثر من (يعقوب) . هكذا في بيت النبوة ولا حياء عند كتّاب الاسفار ، وتفجرت هذه المشاعر المتباينة إلى ما يشبه الصدام بين عيسو ويعقوب فيما نسب اليهما كاتب السفر على وجبة طعام تنازع على ثمنها الرباعي : اسحق ورفقة وعيسو ويعقوب وكان من نتيجة هذا التنازع احتقار عيسو لبكوريته التي كان يتميز بها على يعقوب في منطق التراث الاسرائيلي وكان بعد ذلك بين الرجلين ما كان من فرقة ونفرة سجّلها العهد القديم بالتفصيل .

ولننظر للنص الذي دوّنه كاتب الاصحاح الخامس والعشرين من سفر

التكوين حتى يمكننا النظر فيه والتعليق عليه ونقده فماذا يقول : (... وكان اسحق ابن اربعين سنة لما اتخذ لنفسه زوجة : رفقة بنت بتوئيل الآرامي اخت لابان الآرامي من (فدان آرام) : وصلى اسحق إلى الرب لأجل امرأته لأنها كانت عاقراً فاستجاب له الرب ، فحبلت رفقة امرأته ، وتزاحم الولدان في بطنها ، فقالت ان كان هكذا فلماذا أنا ، فمضت لتسأل الرب ، فقال لها الرب في بطنك أمتان ومن أحشائك يفترق شعبان ، شعب يقوي على شعب وكبير يستعبد لصغير فلما أكملت ايامها لتلد إذا في بطنها توأمان ، فخرج الاول احمر كله كفروة شعر فدعوا اسمه (عيسو) وبعد ذلك خرج اخوه ويده قابضة بعقب (عيسو) فدعي اسمه (يعقوب) وكان اسحق ابن ستين سنة لما ولدتهما ، فكبر الغلامان ، وكان عيسو انسان يعرف الصيد ، انسان البرية ، ويعقوب انسان كاملاً يسكن الخيام ، فأحب اسحق عيسو لأن في فمه صيداً وأما رفقة فكانت تحب يعقوب ، وطبخ يعقوب طبيخاً وأتى عيسو من الحقل وهو قد أعيا ، فقال عيسو ليعقوب أطعمني من هذا الاحمر لأني قد أعييت لذلك دعى اسمه أدوم ، فقال يعقوب بعنى اليوم بكوريتك وقال عيسو ها انا ماض إلى الموت فلماذا لي بكورية ؟ فقال يعقوب احلف لي اليوم ، فحلف له فباع بكوريته ليعقوب فأعطى يعقوب عيسو خبزاً وطبيخ عدس فأكل وشرب وقام ومضى فاحتقر عيسو البكورية)[1] .

ما الذي يمكن أن يهدف اليه كاتب هذه الفقرات ، هل يريد أن ينقل لنا صورة اخلاقية ايجابية فيها من التعاون والايثار والمحبة في بيت ينابيع النبوة الدينية في اسرائيل وما يمكن ان يكون درساً اخلاقياً وسيرة تهذيب وضبط للسلوك الغرائزي وما الذي في هذه القصة من درس يريد ان ينتهي الينا كاتب السفر : عاد عيسو من الصيد وهو جائع متعب ، فوجد اخاه يعقوب قد أعد طعاماً فسأله شيئاً مما أعد ، فماذا كان من امر يعقوب أخيه

(١) (سفر التكوين) الاصحاح الخامس والعشرون : فقرات ٢٠ — ٣٣ .

التوأم في هذا الموقف ؟ انــه كما يقول الدكتور (صبري جرجس) في كتابه (التراث اليهودي الصهيوني والفكر الفرويدي) [١] : (لقد انتهزها فرصة لكي يستغل حاجة اخيه إلى الطعام في الحصول على — بكوريته — أي (سبق الولادة) وقبل عيسو بيع بكوريته لقاء وجبة طعام كان بأمس الحاجة اليها وعلى الرغم من ان ترتيب الولادة أمر لا يجــوز ان يكون موضع المساومة بيعاً او شراء فان العبرة المستمدة من هذه القصة تشجيع الوصولية والانتهازية حتى بين اقرب الاقربين واستغلال حاجــة الغير الى القليل لاغتصاب حقهم في الكثير) .

وليت الأمر وقف بكاتب السفر عند هذا الحد من التدوين لهذه البداية العائلية المستغلة والمسيطر فيها عنصر الأنانية على كل ما عداه وهي التي يفترض فيها انها تأخذ من منهل النبوة من اسحق وأبيه ابراهيم عليهما السلام ، لكن كاتب الاسفار لا يعي شيئاً من ذلك على الاطلاق ، انه يطالعنا في الاصحاح السابع والعشرين بما هو أنكى وأمرّ فيحكي قصة شيخوخة اسحق وضعف بصره وعدم قدرته على رؤية الاشياء وقد ادرك ان نهايته قد اقتربت ،فطلب من ابنه عيسو ان يأخذ عــــدة الصيد ويصطد له صيداً فيأكل منه ويمنحه البركة التي يصورها كاتب السفر على انها سلعة تنقل من رجل لآخر ، وذلك قبــل ان يموت اسحق ، وما كان على عيسو إلا ان يفعل مــا أمره به والده اسحق ، وخاصة ان الصيد الذي سيقدمه طعاماً لأبيــه سيتقاضى ثمنه بركة اسحق لكن المزعج الذي يصوره لنا كاتب السفر ان رفيقــة زوجة اسحق كانت تتنصّت على كلام اسحق لابنه عيسو فاحضرت لابنها الذي تحبه يعقوب طعام صيد وأوصته ان يقدّم الطعام لأبيه ، على أنه عيسو لا يعقوب حتى يأخذ بركة اخيــه عيسو ، وتخوّف الإبن من هــذه المؤامرة فيما قصّ السفر وزعم ، وخشية ان يفضحه ابوه إذ يتحسّسه لأنه رجــل أملس بينما عيسو

(١) (صبري جرجس) : (التراث اليهودي الصهيوني والفكر الفرويدي) ص ٦٧ .

أشعر وإذ رأت أمه تردده احضرت جلوداً ليلبسها حتى لا يفطن الرجل الى خداع يعقوب وأمه له ، وعند كاتب السفر قام يعقوب بتوجيه أمه وقدّم الطعام لأبيه واستولى على البركة المدّخرة لعيسو ، ونجحت المؤامرة فحين تحسّس الرجل جسد يعقوب وجده مشعراً فقد كان لابساً جلود المعز ، ولم ينس كاتب السفر ان يذكر لنا كما هي عقيدته ان من بين ما قدّم الولد لأبيه كأس خمر شربها الرجل المسن وهو يستعد الموت ويريد ان يودع بركته عند من وقع اختياره عليه ، لكن البركة المخبوءة بين جوانح نبوة العهد القديم كانت سكرى فلم تفطن ولم تدرك انها امام مؤامرة ، فتقدم الولد من ابيه وقبّله الرجل واخذ الولد البركة ، وكانت منحة عظمى من الوالد لابنه على ضوء نص كاتب السفر فقد طلب اسحق بأن يعطي الله الوالد من ندى السماء ومن دسم الارض حتى تستعبد له الشعوب وتسجد له قبائل الارض . ولسنا نجد مبرراً متصوراً او معقولاً يمكن ان نراه قريباً حتى في فكر العقيدة الدينية عند الشعوب البدائية يعاون على ما يذهب اليه القائلون بعصمة الكتاب المقدس وبأنه وحي الله في كلماته وفي مروياته وهم يطالعون مثل هذه الواقعة[1] هذه الواقعة وحدها أما تكفي دليلا وبرهاناً مادياً لا يقبل الجدل في ان الصورة التي يقدّم الينا من خلالها في العهد القديم ومن سفر التكوين بالذات يعقوب عليه السلام لا يمكن ان تكون لرجل من بيت النبوة ومن ذرية هي ابراهيم واسحق ويعقوب ، حتى عيسى بن مريم عليهم جميعاً صلوات الله وتسليمه .

ونحن هنا نضع هذه الواقعة كبرهان امام اولئك الذين يحبون الغلو والايغال في النهج الروحي المدعي في تناول اسفار كتب العهد القديم على انها وحي الله في نصوص الكتاب ، ماذا يقول في هذه الواقعة (برسوم ميخائيل) الذي يسمي نفسه (خادم الانجيل) في كتابه (مجموعة حقائق كتابية) ومن

---

(١) (برسوم ميخائيل) : (مجموعة حقائق كتابية) الجزء الثاني طبعة عام ١٩٦٤ — القاهرة ص ٢١ .

الجزء الثاني المطبوع عام ١٩٦٤ في مطبعة الأمانة لمكتبة الاخوة في جزيرة بدران وهو الذي راح يسوق في هذا الكتاب بعنوانه الكبير في صفحة ٣١ أدلة على ما ادعاه (استحالة كذب من كتبوا الكتاب) ومن بين الأدلة التي ساقها وكلها مغالطات الدليل رقم ٣ والذي يقول فيه مدللاً على استحالة كذب من كتبوا الكتاب المقدس – توخيهم الصدق في تسجيل نقائصهم ونقائص افاضل رجالهم .

وفي الدليل رقم ٤ يقول في التدليل ايضاً على صدق من كتبوا الكتاب المقدس – تدوينهم حقائق إلهية عظمى تفوق ادراكهم كبشر ومستوى إيمانهم كيهود .

ونحن نضع امام عينيه وأعين كل الذين يجب عليهم ان ينظروا الى التراث الاسرائيلي في العهد القديم نظرة تدبّر جديدة هذا النموذج الذي نسوقه اليهم من بين ما سجله كتّاب العهد القديم فلن يجدوا فيه جانباً اخلاقياً او دينياً يمكن ان يكون منبعثاً من بيت يفترض فيه ان تقوم علاقاته على توجيه الوحي الإلهي ونحن نضع امام أعين كل القائلين بعصمة الكتاب المقدس صوراً من المفارقات والصراعات التي يفيض بها التراث الاسرائيلي في العهد القديم وهم لن يجدوا فيه بعد ذلك اكثر من كونه سجلاً دوّنت فيه ذكريات الآباء الأول متأثرة بما عند الكتّاب عن اساطير الشعوب التي قطعت شوطاً في العبادة الوثنية او التي ترقّت قليلاً بطقوسها وشعائرها ولجأت الى الرمز كما يجدون فيه جملة من التهم والمفتريات خلعت على سيرة الانبياء والاطهار من بني إسرائيل لا لتكون تسجيلاً للنقائص التي قام او وقع فيها افاضل الرجال كما يزعم برسوم ميخائيل في كتابه السابق الاشارة اليه [1] لأنه عند افاضل الرجال فضلاً عن عصمة النبوة وعملها في الانبياء فانه لا نقائص اصلاً وإنما

---

(١) (برسوم ميخائيل) : (مجموعة حقائق كتابية) الجزء الثاني .

خلعت هذه التهم والمفتريات لتكون مبرراً لكل المآثم والمخازي التي وقع فيها شعب اسرائيل واراد كتّاب العهد القديم ان ينسبوا بعضاً منها في سيرة كبار الرجال واطهارهم لتكون باعثاً لهم على ما كان شعب اسرائيل يتعرض له او يقع فيه .

ولننظر الى ما سجله كاتب الاصحاح السابع والعشرين عن بيت النبوة في اسرائيل وذلك من خلال الدور الانتهازي الذي ادّعاه كاتب السفر على عناصر البيت الاربعة اسحق ورفقة وعيسو ويعقوب فماذا قال كاتب الاصحاح وما الذي يمكن ان يستفاد منه ؟ قال [1]: (وحدث لما شاخ اسحق وكلّت عيناه عن النظر انه دعا ابنه الاكبر وقال له يا بني ، فقال له ها أنذا قد شخت ولست اعرف يوم وفاتي فالآن خذ عدّتك جعبتك وقوسك واخرج الى البرية وتصيّد لي صيداً واصنع لي أطعمة كما أحب وآتني بها لآكل حتى تباركك نفسي قبل ان اموت .

وكانت رفقة سامعة إذ تكلم اسحق مع عيسو وابنه ، فذهب عيسو الى البرية كي يصطاد صيداً ليأتي به ، واما رفقة فكلمت يعقوب ابنها قائلة اني قد سمعت أباك يكلم عيسو اخاك قائلاً : أئتني بصيد واصنع لي اطعمة لآكل واباركك امام الرب قبل وفاتي. فالآن يا بني اسمع لقولي في ما انا آمرك به، اذهب الى الغنم وخذ لي من هناك جديين من المعزي ، فاصنعهما اطعمة لأبيك كما يحب فتحضرها لأبيك ليأكل حتى يباركك قبل وفاته . فقال يعقوب لرفقة أمه هوذا عيسو اخي رجل أشعر وانا رجل أملس ، ربما يجسّني أبي فأكون في عينيه كمتهاون واجلب على نفسي لعنة لا بركة . فقالت له أمه لعنتك عليّ يا بني اسمع لقولي فقط واذهب خذ لي ، فذهب وأخذ واحضر لأمه ، فصنعت أمه اطعمة كما ابوه يحب ، واخذت رفقة ثياب عيسو ابنها الأكبر الفاخرة التي كانت عندها في البيت وألبست يعقوب ابنها الاصغر

---

(١) (سفر التكوين) الاصحاح السابع والعشرون فقرات ١ - ٤٥ .

وألبست يديه وملامسه وعنقه جلود جدي المعزي واعطت الأطعمة والخبز التي صنعت في يد يعقوب ابنها .

فدخل الى ابيه وقال يا ابي ، فقال ها أنذا ، مَن انت يا بني ؟ فقال يعقوب لأبيه انا عيسو بكرك ، قد فعلت كما كلمتني ، قم اجلس وكل من صيدي لكي تباركني نفسك. فقال اسحق لابنه ما هذا الذي اسرعت لتجد يا بني ، فقال ان الرب إلهك قد يسّر لي ، فقال اسحق ليعقوب تقدم لأجسّك يا ابني ، أأنت هو ابني عيسو أم لا فتقدم يعقوب الى اسحق ابيه فجسّه وقال الصوت صوت يعقوب ولكن اليدين يدا عيسو ولم يعرفه لأن يديه كانتا مشعرتين كيدي عيسو اخيه فباركه وقال هل انت هو ابني عيسو فقال انا هو فقال قدّم لي لآكل من صيد ابني حتى تباركك نفسي ، فقدّم له فأكل وأحضر له خمراً فشرب ،فقال له اسحق ابوه تقدّم وقبّلني يا ابني فتقدم وقبّله فشمّ رائحة ثيابه وباركه ، وقال انظر رائحة ابني كرائحة حقل قد باركه الرب فليعطك الله من ندى السماء ومن دسم الارض وكثرة حنطة وخمرة ليستعبد لك شعوب وتسجد لك قبائل كن سيداً لأخوتك وليسجد لك بنو أمك ليكن لاعنوك ملعونين ومباركوك مباركين .

وحدث عندما فرغ اسحق من بركة يعقوب ويعقوب قد خرج من لدن اسحق أبيه ان عيسو اخاه أتى من صيده فصنع هو ايضاً أطعمة ودخل بها الى أبيه وقال لأبيه ليقم أبي ويأكل من صيد ابنه حتى تباركني نفسك فقال له اسحق ابوه من انت ؟ وقال انا ابنك بكرك عيسو فارتعد اسحق ارتعاداً عظيماً جداً وقال فمن هو الذي اصطاد صيداً وأتى به إليّ فأكلت من الكل قبل ان تجيء وباركته ، نعم ويكون مباركاً فعندما سمع عيسو كلام ابيه صرخ صرخة عظيمة ومرّة جداً ، وقال لأبيه باركني انا ايضاً يا ابي ، فقال قد جاء اخوك بمكر وأخذ بركتك ، فقال ألا ان اسمه دعي يعقوب فقد تعقّبني الآن مرتين ، أخذ بكوريتي وهوذا الآن قد اخذ بركتي ثم قال أما ابقيت لي بركة فأجاب اسحق وقال لعيسو اني قد جعلته سيداً لك ودفعت

اليه جميع اخوته عبيداً وعضدته بحنطة وخمر فماذا اصنع اليك يا ابني فقال عيسو لأبيه ألك بركة واحدة فقط يا ابي ؟ باركني انا ايضاً يا ابي ورفع عيسو صوته وبكى فأجاب اسحق ابوه وقال له : هوذا بـلا دسم الارض يكون مسكنك وبلا ندى السماء من فوق وبسيفك تعيش ولأخيك تستعبد، ولكن يكون حينما تجمح انك تكسر نيره عن عنقك ، فحقد عيسو على يعقوب من اجل البركة التي باركه بها ابوه ، وقال عيسو في قلبه قربت مناحة ايام أبي، فأقتل يعقوب اخي ،فأخبرت رفقة بكلام عيسو ابنها الأكبر فأرسلت ودعت يعقوب ابنهـا الاصغر وقالت له هوذا عيسو اخوك متسلّم من جهتك بأنه يقتلك فالآن يا ابني اسمع لقولي وقم اهرب الى اخي (لابان) الى (حاران) وأقم عنده اياماً قليلة حتى يرتد سخط اخيك، حتى يرتد غضب اخيك عنك وينسى ما صنعت به ثم أرسل فآخذك من هناك ، لماذا أعدم اثنيكما في يوم واحد ، وقالت رفقة لاسحق مللت حياتي من اجل بنات حثّ ان كان يعقوب يأخذ زوجة من بنات حثّ مثل هؤلاء فلماذا لي حياة ؟) .

هذا هو الاصحاح السابع والعشرون من سفر التكوين والفقرات الاولى من الثامن والعشرين كما انتهى الينا في كتب العهد القديم وكما يصور لنا احوال واوضاع بيت النبوة في تراث بني اسرائيل ممثلاً عنـد كاتب السفر في الجـد اسحق والأب يعقوب فما الذي نرى على ضوء ما سجلوا وبغير تأثير للتبرير او التفسير او عمل الكهانة في تناولها لنصوص اسفار العهد القديم ، ان الذي نراه هنا من خلال رواية الاصحاح السابع والعشرين في سفر التكوين عن بيت النبوة في ولد اسحق – عليه السلام – انه لا أثر مطلقاً لعمل النبوة وهدايتها في هـذا البيت من خلال هـذا المنظار الذي سجل بـه كاتب سفر التكوين العلاقات الاسرية في بيت النبوة فضلاً عن تغييبه لكل أثر للرسالة الدينية التي يمكن ان تتمثل في مواقف قام بها هذا البيت في توجيه الناس ، والقصة بعد لا هدف لها ولا غاية فهي ساذجة ولا قيمة لها دينياً او روائياً فما هي هذه (البركة) التي تحدث عنها كاتب السفر والتي كانت عنـده (حرزاً) في يد

اسحق حتى كلّت عيناه وشاخ وقربت ايام مناحته ، واراد ان يبارك بها عيسو دون اخيه ولماذا عيسو دون يعقوب من وجهة نظر اسحق عند كاتب السفر لأنه صياد ، ولماذا حظوة يعقوب دون عيسو من وجهة نظر أم عيسو لم يقل لنا كاتب السفر عن سرّ هذا التميز الذي يصل به مصنّف سفر التكوين الى حد الفرقة والتآمر ، ولماذا لم تقسم (البركة) ان كانت هناك بركة في الملامح التي يرينا اياها كاتب سفر التكوين ليكون في ذلك معنى من معاني العدل عند الرجل النبي اسحق ؟ وأي شيء تكون هذه (البركة) ؟ هل هي شيء غير ما حدثنا عنه السفر حين دعا اسحق ليعقوب على انه عيسو بعد خديع يعقوب وأمه فيما قص السفر لاسحق بقوله : (فليعطك الله من ندى السماء ومن دسم الارض) ألا تصلح هذه الدعوة من قلب رجل نبي الى ولديه معاً ؟ بل والى كل الناس بدلاً من تحويل معناها القريب في قلب كل مؤمن الى حرز مادي او حصة عينية ما ان تقع في يد واحد حتى يحرم منها غيره ، ثم ولِمَ هذه العنصرية البغيضة التي ضجّت بها الفقرات التي اعقبت الدعاء : (... ليستعبد لك شعوب وتسجد لك قبائل كن سيداً لأخوتك) لماذا ومن اجل أي غاية والشوط في بدايته ثم اين هم الأخوة الذين سيستعبدون ليعقوب لم يحدثنا السفر عنهم ولا عن اسمائهم او عددهم ثم اين هم بنو أم يعقوب لِمَ لم يذكرهم كاتب السفر وهل كانوا من اسحق ؟ أي اشقاء ليعقوب من أبيه وأمه؟ إذا كان كذلك فلِمَ لم يظهر أثرهم في التدوين كشأن عيسو ويعقوب ثم متى كانوا تواجدوا والرجل كما دوّنوا عليه في تناولهم لسيرته طلب من الله الذرية وان ينجب في الاربعين ولم يستجب له إلا في الستين ، وكان على المصنّف ان يدلنا على هؤلاء الذين عناهم اسحق بقوله : (... وليسجد لك بنو أمك) ثم لماذا كان يعقوب في لغة كاتب السفر هكذا مطواعاً لأمه وهو مقدم على معصية كتلك التي خشي منها ان يجلب على نفسه لعنة لا بركة؟ ولماذا قبل القيام بكل هذا الدور اللصوصي الانتحالي الذي رآه كاتب السفر ألم يثق في عدل ابيه ونزاهته بل ونبوّته فالأصل في يعقوب حتى في

لغة كاتب العهد القديم انـــه نبي بن نبي بن نبي ؟ ألم يخجل كاتب هذه الفقرات من الاصحاح السابع والعشرين من سفر التكوين وهـو يقص هـذا المشهد المزيف المدعي بغير عقل وبغير دين على يعقوب وابيه حين كان يقول الرجل المكفوف : (أأنت هو ابني عيسو أم لا ؟) ويعقوب في رؤية كاتب السفر مواصل لخداعه لأبيه ثم كيف كتب كاتب الزيف هـذا العدوان على قلب وبصيرة نبي الله يعقوب ، إنه يقدمه لنا بلا أدنى أثر للنبوة ، وبلا أثر حتى لما يمكن ان تكون عليه كرامة الرجل الصالح وفراسته في ان يكشف ببصيرته الخداع الذي يوقعه فيه ابنه،وهنا سؤال نوجهه لكاتب هذا العدوان لماذا لم تعمل النبوة عملها هنا في عون الرجل ومساعدته في كشف الموقف الذي امامه وإذا لم تعمل النبوة عملها هنا ففي أي موقف تكون ؟ ولِمَ لم ينتظر اسحق وقد التبس عليه الموقف (الصوت صوت يعقوب ولكن اليدين يـدا عيسو) حتى يقـدم عيسو ويصبح الرجلان : الذي يشك فيـه اسحق وهو امامه والذي ارسله ولم يجيء بعد وجهـاً لوجه خاصة وان عيسو لن يغيب عن الموقف اياماً او سنيناً فالذي حدث انه إذ (عندما فرغ اسحق من بركة يعقوب ويعقوب قد خرج من لدن اسحق ابيه ان عيسو اخاه أتى من صيده).

ولقد كان الموقف الذي يقصه كاتب الاصحاح يقتضي كل هذا التحوّط وعمـل حسابات له لكن يبـدو ان كاتب الاصحاح كان مجرد نساخ يسجل ويدوّن ما انتهى اليه من مأثورات وقصص دون عقل او تدبر ، ولقد ترتب على مـا يدّعيه كاتب الاصحاح ان عيسو همّ بقتـل اخيه يعقوب وهنا يرينا السفر بيت النبوة وقد بلغ هـذا المستوى من النفور والعـداوة ، لكن أم يعقوب تدخلت وارسلت يعقوباً الى اهلها لحمايته ولم يفكر كاتب الاصحاح او لم يسأل نفسه لأن احـداً من شراح التراث الاسرائيلي في العهد القـديم لم يسأله : إذا كان هذا حال يعقوب اشترى بكورية اخيه مستغلاً حاجته الى وجبة طعام ومتآمراً مع أمـه ضد أبيه وسارقاً لبركة اخيه مسبباً بذلك كما ادعى كاتب السفر ألمـاً وغيظاً وعجزاً لأبيه فضلاً عن انه مسفوك الدم من

وجهة نظر اخيه، فلِمَ كل هذا الذي خصه كاتب الاصحاح الثامن والعشرين من ان قد بارك الرب هذا الرجل يعقوب بعد كل هذه التهم والجنايات التي ألبسه إياها كاتب الاصحاح السابع والعشرين ، ان كاتب الاصحاح الثامن والعشرين في الفقرة رقم ١٤ يغفل بل وينسى تماماً هذا التاريخ وهذه المرحلة ويفاجئنا بقول ينسبه الى رب يعقوب الذي يقول ليعقوب :(ويكون نسلك كتراب الارض وتمتد غرباً وشرقاً وشمالاً وجنوباً ويتبارك فيك وفي نسلك جميع قبائل الارض) [١] أيستحق يعقوب سفر التكوين في الاصحاح السابع والعشرين كل هذا؟ اعتقد ان كاتب الاصحاح الثامن والعشرين من نفس السفر غير الكاتب السابق في الاصحاح السابع والعشرين وبالقطع لم يطّلع احدهما على ما دوّن الآخر او على فرض ان كاتبهما كان كاتباً واحداً فقد برهن بهذه المفارقة على انعدام الوحدة الموضوعية في سفر التكوين وعلى كل أثر للنبوة في البيت الذي يتحدث عنه إذ كيف يستقيم هذا وهداية النبوة رحمة من الله للناس لكنها هنا معنا بعد كل هذه المقدمات التي نسبت فيها جملة من الموبقات والمفاسد يجيء بعدها الرجل الذي وقع في كل تلك المآثم وتكون نهايته ونهاية اولاده بكل هذه الصلاحيات وكل هذا العون من الله! اعتقد اننا بعد هذا التناول لهذه النصوص نجد انفسنا امام فكر اسطوري وثني الطابع عدواني التفكير لا يمكن ان يكون مسجلاً، او مدوّنات تتصل بصفوة خلق الله واكرمهم واطهرهم بين الناس باعتبارهم نماذج هداية وخير.

هل يستطيع بعد ذلك عشاق التفسير بالرمز الذين يقولون بعصمة الكتاب المقدس بعهديه القديم والجديد ان يجدوا تفسيراً لهذا الزيف الذي يوقع فيه اعداء الله من الكتّاب والمسجلين للتراث الاسرائيلي انبياء الله ورسله وصفوة خلقه.

ويبقى بعد ذلك ان نقول كما يقول الدكتور صبري جرجس في كتابه (التراث اليهودي الصهيوني والفكر الفرويدي): ان قصة البركة هذه التي

---

(١) (سفر التكوين) الاصحاح الثامن والعشرون فقرة ١٤ .

وردت عن اسحق ويعقوب لها مدلولها المباشر وهو محاولة المصنّف التوراتي تأكيد حق بني اسرائيل في السيادة والاستعلاء وهـو الحق الذي بـدأ به مؤلفوا التوراة يزيفونه المرة تلو المرة وفي صيغة تكاد تكون متطابقة منذ العهد الذي زعموا ان الله قد قطعه مع ابي الانبياء عليه السلام (١) .

ويبقى السؤال الذي لا جواب له عند كتّاب اسفار العهد القديم : أي قيم تلك التي يقصونها على الناس وأي وحي ذلك الذي ينسبونه الى انبياء العهد القديم اعتقد انه لا مضمون يتصل بالوحي الإلهي او بالخلق الايجابي في جملة ما يسوقه كتّاب العهد القديم ولا جواب عن القيم الاخلاقية وعن الوحي الإلهي على يد انبياء الله ورسله في العهد القديم إلا من خلال خبر القرآن الكريم وحده،وهو الذي لولاه ما رفعت الخطيئة والآثام التي نسبها كتّاب الأسفار الى انبياء الله ورسله اقول لولا خبر القرآن الكريم وحده وهو الكتاب الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه لولا عطائه الإلهي الذي تناول به سيرة وتاريخ بني اسرائيل لما بدا للناس وجه انبياء بني اسرائيل ورسلهم المشرق بالايمان ولولا خبر القرآن الكريم لظل تاريخ وسيرة انبياء بني اسرائيل على ضوء ما قدم العهد القديم من مفاسد وموبيقات وآثام يبرأ منها انبياء العهد القديم لأنه لو لم يكن خبر القرآن الكريم على هذا الوجه العظيم الذي تناول به سيرة انبياء بني اسرائيل ما كان انبياء العهد القديم على ما هم عليه في اسفار التراث الاسرائيلي يستحقون درساً او نقداً وهذا هو ما سنتعرّض له انشاء الله في باب مستقل من القسم الثاني من هذه الرسالة تبرئة لعرض انبياء الله وتطهيراً لسيرتهم النقية من فساد وشرور وآثام كتّاب العهد القديم فضلاً عن اننا سنتعرّف على منهجهم في الدعوة الى الله مع ذلك النمط من البشر الذي لم يحفظ كلمة الله ولم يعرف الله إلا من خلال رمز او وثن .

---

(١) (صبري جرجس) : (التراث اليهودي الصهيوني والفكر الفرويدي) ص ٦٧ .

الفصل الرابع

بنو اسرائيل في العهد القديم

يقص الاصحاح التاسع والعشرون من سفر التكوين اخبار رحلة يعقوب عند أخواله وبقائه اكثر من اربعة عشر سنة كانت بدايتها أن اتفق مع (لابان) خاله على أن يخدمه سبع سنين ثمناً لابنته الحسناء (راحيل) التي رآها مع اختها الكبرى (ليئه) التي كانت ضعيفة البصر واختها فيما قص الاصحاح اجمل منها وبسبب حب يعقوب الذي تحدث عنه كاتب السفر لراحيل. مرت السنوات السبع سريعة على قلب يعقوب ، لكن المفاجأة هنا في بيت المفاجآت الذي يتحدث عنه كاتب العهد القديم بمنظاره ورؤيته أن (لابان) ليلة العرس اخذ (ليئه) في المساء وأتى بها إلى يعقوب فدخل عليها ، واذا به في الصباح يكتشف أن العروسة ليست هي التي أرادها وإنما هي (ليئة) القبيحة فعاتب يعقوب خاله في هذا الأمر ، وأبدى له استياءه من هذه الخديعة فأخبره لابان أن التقاليد تمنع أن تعطى الصغيرة قبل الكبيرة مع أن الرجل يعقوب الذي يتحدث عنه كاتب الاصحاح يعمل بالمجّان عند (لابان) كثمن (لراحيل) وبناء على اتفاق عمل بمقتضاه طوال سبع سنين لكن (لابان) أمام هذا الموقف من يعقوب اعطى (راحيل) ايضاً زوجة ليعقوب ولكن بسبع سنين اخرى بغير ثمن إلا (راحيل) ، والفقرة رقم ٣١ من الاصحاح

التاسع والعشرين من سفر التكوين تطالعنا بعد مقدمات سبقتها من نفس الاصحاح بسر ولادة (ليئه) الزوجة المكروهة من زوجها يعقوب الأبكار : رأوبين وشمعون ولاوي ويهوذا والسبب عند كاتب السفر في هذه المنحة التي تمثلت في ذرية من البنين (بسبب أنها مكروهة فتح الرب رحمها). لكن التراث الاسطوري في العهد القديم يطالعنا في الاصحاح الثلاثين من سفر التكوين بأنباء (غيرة) اتقدت في قلب راحيل بسبب عدم ولادتها وبعد مشادة بين راحيل وزوجها بسبب غيرتها من ليئه اتفقت معه على أن تعطيه جاريتها (بلهة) التي هي ابنة ايضاً في رواية النص للابان كان قد اعطاها جارية لابنته (راحيل) زوجة له على ان تضع المولود الذي يولد من (بلهة) على ركبتي (راحيل) ويصبح ابناً لها وبالفعل حبلت وولدت كما زعم كاتب السفر (بلهة) ليعقوب ابناً وسعدت به (راحيل) ودعت اسمه (دانا) ومرة ثانية تحبل وتلد (بلهة) ابناً ليعقوب وتسعد وتقول (... مصارعات الله قد صارت اختي وغلبت فدعت اسمه نفتالي) .

وامام ما فعلته راحيل مع زوجها يعقوب ما كان على (ليئة) القبيحة التي توقفت عن الولادة عند الولد الرابع (يهوذا) الا أن تفعل مثل ما فعلت اختها راحيل ودفعت لزوجها يعقوب بجاريتها (زلفة) فولدت زلفة هي الأخرى ليعقوب ابناً فاستقبلته (ليئه) بسعادة ودعت اسمه (جادا) ولم يكن ليكفي ليئه من زلفة الجارية التي دفعتها لزوجها ولداً واحداً فولدت زلفة ابناً ثانياً ليعقوب وعلى حد ما زعم كاتب السفر : (فقالت ليئة بغبطتي لأنه تغبطني بنات فدعت اسمه (أشير) ..) .

ويمضي الاصحاح الثلاثون من سفر التكوين ليحدّث بأن الولد البكر (رأوبين) الذي ولدته ليئه القبيحة وجد في ايام حصاد الحنطة (لفّاحاً) في الحقل وجاء به إلى امه (ليئة) فقالت راحيل الحسناء للقبيحة (ليئه) اعطني من (اللفّاح) الذي لابنك ، فقالت لهـا أما يكفيك أنك اخذتي رجلي أتريدين لفّاح ابني ايضاً ؟ لكن كاتب السفر يخبر بأنه قد تم اتفاق بين

الزوجتين القبيحة والحسناء على أن تتنازل القبيحة عن (لفتّاح) ابنها للحسناء نظير أن يضطجع يعقوب معها — هكذا — وكان على المرأة التي حظيت عند كاتب السفر بالرجل ليلة وبالثمن (افتاح) ابنها أن تخرج لملاقاته وأن تستعد لذلك وأن تقول له قد استأجرتك بلفتّاح ابني ، وفي هذه الليلة زعم الكاتب أن (ليئه) حبلت وولدت ليعقوب ولداً خامساً ودعت اسمه (يساكر) وفي مرة اخرى حبلت ليئه بولد سادس ودعت اسمه (زبولون) وبهذا الرقم سعدت كثيراً (ليئه) وقالت الآن يساكنني رجلي لأني ولدت له ستة بنين ثم ولدت له ابنة ودعت اسمها (دينة) لكن المرأة الجميلة (راحيل) والتي كانت تقول ليعقوب : هب لي بنين وإلا فأنا اموت ، ويهدئها الرجل قائلاً فيما نسب كاتب العلي مكان الله الذي منع عنك ثمرة البطن ، يحين اوانها هي الأخرى ليفتح الله رحمها وتلد ولداً وتقول عنه حين ولدته كما سجّل عنها كاتب السفر : نزع الله عاري ودعت اسمه (يوسف) ثم طلبت من الرب ابناً آخر لكنه في رواية الاصحاح الثلاثين بل وفي السفر كله لا اخبار عنه وان كان قد جاءت اشارة في اصحاح آخر أنها ماتت وهي تلد ابناً ثانياً .

وبعد أن انتهى كاتب الاصحاح الثلاثين من سرد المراحل والكيفية والظروف والملابسات التي ولد فيها ابناء يعقوب الاثني عشر من النساء الاربع راح يقص اخبار الخلاف الذي تفجّر بين يعقوب وخاله (لابان) بسبب مساومات (لابان) وشحه واستغلاله أجر يعقوب ، وحين وافق لابان بعد حوار أجراه معه يعقوب كما نسب السفر على أن يكون ليعقوب حصة من العمل ونصيباً في الماشية ، حسده ابناء لابان وأثروا على موقف ابيهم ، فنقض ما اتفق عليه مع يعقوب وتغيرت معاملته مرة ثانية ليعقوب الأمر الذي جعل يعقوب يفاتح نساءه ويناقشهن في هذه المعاملة السيئة التي يلقاها من ابيهن ، واتفق الجميع يعقوب ونساءه وأولاده على الهرب من وجه لابان آخذين معهم كما ادعى عليهم كاتب السفر بعض مالهم من مواشي وجمال ومقتنيات ولم تنس راحيل فيما روى عنها كاتب السفر أن تسرق أصنام

ابيهـا في رحلة الهرب مع زوجها ، وهرب يعقوب باولاده ونساءه واولاد له وخدع قلب لابان كما عبّر مصنّف سفر التكوين ، وما كان على (لابان) إلا أن يقوم لمطاردة يعقوب واللحاق به وبعد مسيرة سبعة ايام أدركه في جبل (جلعاد) ولم يؤذ لابان يعقوب لأنه كما يقول كاتب السفر : أتى الله إلى لابان في حلم الليل وأخبره أن لا يكلم يعقوب بخير او بشر ، ولا ندري كيف أتى الله إلى لابان على اي وجه من الوجوه والرجل يعبد الاصنام التي سرقتها ابنته (راحيل) كما زعم كاتب الاصحاح الثلاثين من سفر التكوين ، لكنـه على ضوء الرواية التي بين ايدينا كان على (لابان) ان يكون سياسياً في مواجهته ليعقوب وغير عنيف وبالفعل فعل ذلك كما عبّر كاتب الاصحاح بقوله : ماذا فعلت وقـد خدعت قلبي وسقت بناتي كسبايا السيف ، لماذا هربت خفيـة وخدعتني ولم تخبرني حتى أشيعك بالفرح والاغاني بالدف والعود .

هـذا ويبرز كاتب هذه السيرة حرص (لابان) الشديد على الحصول على اصنامه التي سرقتها (راحيل) مع أن كاتب السفر نسب اليه أن الله أتاه في حـلم الليل وأخبره أن لا يكلم يعقوب بخير او بشر ويجب أن نلاحظ أن (لابان) هذا شقيق (رفقة بنت بتوئيل الآرامي) زوجة النبي اسحق ابن النبي ابراهيم وأنـه صاهر يعقوب النبي الذي خدمه طوال اربعة عشر عاماً ثمنـاً لابنتيه ومكث معـه فترة اخرى حددها كاتب الاصحاح بست سنين فيكون مجموع مـا قضاه يعقوب مـع لابان عدداً من السنين يصل إلى عشرين عاماً ومع ذلك فلا اثر ليعقوب النبي في الرجل الذي صاهره بل قل الرجل المصاهر لسلسلة من الانبياء ومع ذلك فكاتب سفر التكوين يأبى إلا أن يرينا الرجل لابان وأصنامه معه يتعبد لهـا ويحيا بها ، وحين سرقتها راحيل ابنته ولحق بالقافلة الهاربة دخل خباء (ليئه) وخباء الجاريتين وخباء راحيل التي أخذت الاصنام ووضعتها على حد ما وصف كاتب الاصحاح في حدّاجة الجمل وجلست عليها وادعت أن عليها عادة النساء ولا تقدر على القيام ، ففتش الرجل عن الاصنام في كل رحال القافلة ولم يجدها ، ومـع أن كاتب السفر لم

يقل لنا لماذا سرقت راحيل وهي أم يوسف الاصنام من ابيها ، هـل حقيقة لاغاظته لانه كما عبّر كاتب السفر على لسانها : (باعنا وقد أكل ايضاً ثمننا) ام لتكون معها في رحلتها وغربتها مع زوجها لأنها ايضاً تعبد الاصنام ، ام لأنهـا زوجة نبي وتريد أن تكسر الاصنام حتى لا تمكن والدهـا من عبادة الاصنام ويدرك انهـا تسرق ولا تملك لنفسها نفعاً ولا ضراً لم يقل لنا كاتب السفر شيئاً من ذلك ولم يجهد نفسه في تصور هذه الاحتمالات مع أن هذا أمر مهم جداً ، لكن يبدو ان مثل ذلك الاهتمام لم يكن يعنيه إنمـا الذي يعنيه تسجيل وتدوين عورات وآثام واخطاء ومفاسد نسبهـا زورا وزيفا وعدوانا على انبياء الله المطهرين .

هذا وتمضي فقرات نهاية الاصحاح الحادي والثلاثين في تصور الاتفاق الذي تم بين لابان ويعقوب ، وبمقتضاه هدأت الامور بينـه وبين لابان ثم قام لابان قبل رحلة العودة وقبّل بنيه وبناته ورجع إلى حيث كان ، وانطلق يعقوب يواصل رحلته إلى ارض (سعير) في بلاد (آدوم) متوجهاً إلى اخيه (عيسو) الذي كان قد فرّ من وجهه منذ عشرين عاماً ، وكاتب السفر عند تناوله لهذه المرحلة يغلب عليـه الطابـع الروائي البحث ويبدو أنـه كان أمامه بعض مـأثورات وتراث الأدب الشعبي المتداول عنـد بعض الامم الصحراوية التي شاع عندها هذا النوع من التراث المتداول ذلك أنـه على ضوء قصص كاتب الاصحاح الحادي والثلاثين مـن سفر التكوين كانت مفاجأة يعقوب شديدة وارتعد جداً في رحلته إلى (سعير) حين جاءته رسله الذين كانوا قد ذهبوا إلى (عيسو) لإخباره بقدم اخيـه بأخبار ومعلومات تقول : ليعقوب أن عيسو قادم للقائك في اربعمائة رجل واضطر يعقوب امام هذا الخطر المحتمل وخشية أن تضرب الام مع البنين كما يقول كاتب الاصحاح الثاني والثلاثين أن يدعو ربه لكي ينجّيه من يد عيسو ثم قضى ليلة يعد مما عنده ممـا اخذه من عند خاله (لابان) لكي يجهّز هدية ثمينة لاخيه عيسو وعند مثل هذه النماذج والمواقف يسهب كاتب اسفار العهد القديم فقد عدّد هنا حجم الهدية وعددها،

عدّد كاتب الاصحاح أعداد الكباش والتيوس والنوق والعنز والحمير والأتن التي جعلها يعقوب قطيعاً قطيعاً ودفعهـا إلى مجموعات مـن العبيد لتسبقه إلى عيسو كدليل على حسن نيتـه وطلبه العفو والسماح من خديـع سابق قصته كاتب سفر التكوين قام به يعقوب ضد اخيه عيسو فيبدو أن كاتب السفر لم ينس هنا في هذا الاصحاح ما نسبه في الاصحاحات السابقة من تهم وافتراءات ضد نبي الله يعقوب مدعياً قيامه بها ضد اخيه عيسو .

وفي هذه المحنة التي يصورها كاتب الاصحاح الثاني والثلاثين من سفر التكوين التي تحيط بيعقوب صوره لنا كاتب الاصحاح بعد أن قرر ان يقوم واولاده عبر مخاضة (يبوق) واجتاز الوادي وأجاز ما كان معه ، وبقي في مكان من الوادي وحده حتى ظهر ليعقوب رجل لا يعرفـه ، (وصارعـه انسان حتى طلوع الفجر) . ولما رأى أنـه لا يقدر عليه ضرب حق فخذه فانخلع حق فخذ يعقوب في مصارعته معـه وقال أطلقني لأنـه قد طلع الفجر ، فقال لا أطلقك إن لم تباركني ، فقال له مـا اسمك ؟ فقال يعقوب ، فقال لا يدعى اسمك فيما بعد يعقوب بل اسرائيل لأنك جاهدت مع الله والناس وقدرت ، وسأل يعقوب وقال اخبرني باسمك فقال لماذا تسأل عن اسمي وباركه هناك .

هـذا هو مضمون مـا تعرض له يعقوب في قصص كاتب الاصحاح الثاني والثلاثين في رحلة العودة من عند خاله (لابان) ويسترسل كاتب الاصحاح إلى ان يخبر انه في هذا المكان الذي صارع فيه يعقوب إنساناً لا يعرفه سمّاه كما زعم كاتب الاصحاح (فنيئيل) معللاً السبب بالقول الذي يزعمـه كاتب الاصحاح بقوله (لأني نظرت الله وجهاً لوجه ونجيت نفسي) .

هذا ولم يكلف كاتب السفر نفسه مشقة السؤال عن جهاد يعقوب مع الله الذي يتحدث عنه في اي مجال كان ومع من من الناس ومـا هو أثر هذا الجهاد وهل في التراث الاسرائيلي شيء منه والسيرة التي دونها كتّاب العهد القديم في سفر التكوين بدءاً من الاصحاح السابع والعشرين وحتى الفقرات

تحت رقم ٢٧ – ٢٩ من الاصحاح الثاني والثلاثين التي أورد فيها كتّاب سفر التكوين المراحل والظروف التي اقترنت برحلة يعقوب عند العودة من عند خاله حتى تغيّر اسمه من يعقوب لاسرائيل لأنه كما زعموا جاهد مع الله ليس فيها اشارة واحدة الى قيمة من قيم الجهاد مع الله والناس فضلا عن افتقاد طهارة وقداسة وعصمة النبوة لنبي الله يعقوب بعد ان جرّد كتّاب الاسفار بيت النبوة من هذه المعاني واسرائيل الذي هو يعقوب في مقدمة هذا البيت .

والعجيب الغريب حقاً في أمر قصّاص العهد القديم وخاصة اولئك الذين كتبوا سفر التكوين ، ان الذي يطالع الاصحاح الثالث والثلاثين يجده يقص أخباراً مضحكة كلها مفارقات ولا مقدمة لها فيما كتب السفر حول قدوم يعقوب على أخيه عيسو انه يصوّره لنا وكأنه أي يعقوب مقبل على بلاط ملك او امبراطور يلتمس عفوه ورحمته ، وحين يسأل عيسو أخاه يعقوب عن أحواله وأهله يرد عليه فيما زعم كاتب السفر : هؤلاء هم اولادي الذين انعم الله بهم علي (عبدك يعقوب) ثم يرينا كاتب الاصحاح الجاريات أمهات الاولاد وأولادهما معهما ليقوم الجميع بالسجود تحت أقدام عيسو ولا ينسى كاتب الاصحاح ان يرينا باقي المشهد فتقبل (ليئة) بنت لابان الزوجة القبيحة واولادها معها ويسجد الجميع ايضاً تحت أقدام عيسو ، وحتى يوسف (عليه السلام) وراحيل أمه لم يعفهما كاتب الاصحاح الثالث والثلاثين في سفر التكوين من السجود ايضاً لعيسو ثم يصوغ المصنّف حواراً عجيباً غريباً تخيّله من بنات افكاره او نقله من اسطورة شائعة بين يعقوب وعيسو أثر لقائهما بعد غيبة العشرين عاماً وخلاصة هذا الحوار ان يعقوب سأل أخاه عيسو عن الجيش الذي رآه في صحبة أخيه عيسو فيخبره عيسو بأن عنده جيش كثير أكثر من هذا وعند هذا المشهد يرينا الكاتب يعقوب وهو يرجو من أخيه عيسو ان يقبل هديته من الدواب وغيرها يرجوه ويلح ويقول له : لأجد نعمة في عيني سيدي . ولماذا كل هذا من يعقوب لعيسو عند كاتب الاصحاح الثالث والثلاثين ليس لأنه وجد جيشاً كبيراً لدى عيسو ولا لأن عيسو

استقبله بالترحاب والعفو ونسيان الماضي الذي نسيه كاتب السفر ولكن لأنه كما عبّر كاتب السفر رأي وجهه كما يرى وجه الله، وعندئذ فلا حاجة للبركة التي سرقهـا يعقوب من عيسو وطلب منه ان يأخذها قـائلا : لأن الله قد أنعم علي ولي كل شيء فأخذها عيسو بعد تردد ، وطلب يعقوب من عيسو أخيه الذي لقبه (بسيدي) قائلا : ليجتز سيدي قدام عبده ، وانا أستاق على مهلي واستقر عيسو في (سعير) وارتحل يعقوب بعد هذا المشهد وتلك المرحلة التي سردها كاتب الاصحاح الثالث والثلاثين الى (سكوت) ثم أتى يعقوب الى مدينة (شكيم) في ارض كنعان وابتاع قطعة ارض وبنى مذبحاً للرب ، لكنه في (شكيم) يطالعنا كاتب الاصحاح الرابع والثلاثين بأخبار غريبة كان يجب ألا تقع ولا تصح ، فالفتاة (دينة) ابنة يعقوب من المرأة القبيحة (ليئة) استدرجها (شكيم) ابن الرجل (حمور الحيوي) رئيس الارض التي اقام فيها يعقوب واولاده ، فاضطجع معها وأذلها ، ومع انه على ضوء السيرة التي قصها كاتب سفر التكوين عن مراحل ولادة ابنـاء يعقوب فان الفتاة (دينة) قد ولدتها أمها متأخرة جداً قبل رحلة العودة من عدّها (لابان) بمعنى ان سنها لا يكون قد تجاوز في اكثر الاحتمالات سبـع سنين إلا ان كاتب السفر روى لنا هذه الواقعة وليته وقف عند حادث الاضطجاع وسكت ولكنه أرانا بعد ذلك (شكيم) ونفسه متعلقة بالفـتاة وعلى غير العادة التي يقصها كتـّاب الاسفار حين يوقع رجلا امرأة ويذلهـا يبغضها ولا يصبح بحاجة اليهـا كما نسج بعد ذلك كاتب اسفار العهـد القديم وادّعى على (أمنون) و (ثامار) وقد كانت (ثامار) اخته ومع ذلك حين اضطجع معها وأذلها اصبحت قبيحة في نظره وابغضهـا وغير ذلـك من هذه الوقائع كثير لكن كاتب سفر التكوين يرينـا شكيم ودينة على غير هـذه العادة ، وحين علم يعقوب فيما قص السفر وزعم ان ابنته وقعت في هـذا البلاء وتلك الخطيئة وان رجلا نجّس ابنته كما عبّر كاتب الاصحاح تحمّـل على مصيبته حتى جاءه ابناءه من الحقل وأخبرهم بما وقع لأختهم ، وهنـا حاول كاتب

الاصحاح ان يرينــا على غير قصد منــه خلق المراوغة والتآمر في سيرة بيت النبوة وكان ذلك منه تأثراً بما وقع لبني اسرائيل من محن وآلام فلم يتعاملوا مع غيرهم إلا بذلك النمط السلوكي القائم على المكر والمراوغة والخداع، يرينا كاتب الاصحاح ابناء يعقوب حين اخبرهم والدهم بمصيبة ذل دينة وخطيئتها ان كل الذي عملوه انهم اغتاظوا جداً لأنه صنعت قباحة في اسرائيل في ابنة يعقوب (دينة) وبدأت مساومات ومناقشات بين ابناء يعقوب وشكيم وابيه انتهت بان قبل شكيم وابيه ما عرضه عليهما ابناء يعقوب لكي تتم المصاهرة ويتزوج شكيم من دينة وذلك بان يختتن الذكور كما يفعل ابناء يعقوب وأعلم الرجل رئيس الارض شعبه بما اتفق عليه مع ابناء اسرائيل لكي يختتن الشعب بعد ذلك ووفق على هذا القرار واختتن الرجال من شعب (حمور الحيوي) واصبحت دينة زوجة لشكيم برضا اخوانها وابيهــا ، لكن المنهج التدميري لكل ما هو خلق او عفة او عهد او ميثاق عند كتّاب الاسفار يطالعنا به كاتب الاصحاح الرابع والثلاثين في آخر الاصحاح بانه في اليوم الثالث من الاتفاق والمصاهرة ان كان اهل شكيم من غير ابناء يعقوب طبعاً متوجعين بسبب الختان الذي اتفقوا على ان يقوموا به مع ابناء يعقوب طبقاً لعقيدتهم في الختان فقام شمعون ولاوي اخوي (دينة) واخذ كل واحد منهما سيفاً وانقضّا على المدينة بأمن وقتــلا كل ذكر ، وقتلا حمور وشكيم ابنه بحــد السيف ، وأخذا (دينة) من بيت شكيم وخرجا ، ثم أتى ابنــاء يعقوب على القتلى ونهبوا المدينة لأنهم نجّسوا اختهم، ومع ان هذا الحدث الذي يرويه كاتب السفر لم يرق ليعقوب إلا أن ابناءه جميعاً انضموا الى اخويها واستغل الجميع الظرف الذي كان عليه اهل حمور وهو انهم في حال أشبه ما تكون بالجراحة وقاموا بما قاموا به وقد حددت الفقرة رقم ٢٩ من الاصحاح نتيجة عدوان وغــدر شمعون ولاوي بانه أسفر عمــا في نفوسهم نحو غيرهم انهم : (سبوا ونهبوا كل ثروتهم وكل اطفالهم ونسائهم وكل ما في البيوت) .

من مثل هذه المواقف والاحداث والاخلاق يطالعنا كتّاب الاسفار بملامح

بيت النبوة في مصادرها العليا وعلى ضوء رواية واخبار كتّاب العهد القديم في اصحاحات سفر التكوين ما الذي قصه كتّاب السفر في معظم ما كتبوا في مجال الهداية والتوجيه او الدرس والعبرة او الانموذج والقدوة ، كاتب هذه المرويات ومسجل ذلك التراث لم يكن يعنيه أمر هذه المعـاني والاخلاق في بيت النبوة او في عمـل الرسالة الإلهية بين الناس ذلـك لانه انقطعت الصلة تمامـاً ربمـا زماناً ومكانـاً بين كاتب السفر وبين حقيقة الذي وقع في بيت الآباء الأنبياء .

ونستطيـع ان نسأل هل قدّم كاتب السفر للباحث او الدارس او حق من يريد ان يتأمل فضلاً عن ذلك الذي يبغي التعبّد شيئاً من قيم الدين او من عمل الرسالة الإلهية غير ذلك التقرير والوصف، الذي يأبى بيت عائلي يعرف شيئاً من قيم الحياة الايجابية ونظام الاجتماع فضلا عن توجيهات الوحي وعمل الرسالة الدينية ان يوصف او يعرف او يقبـل على ابنـائه ما نسبه وسجـله كتّاب العهد القديم ؟ وما الذي انتهى اليه كاتب هذه الاصحاحات المتضمنة سيرة يعقوب واسحق والأبنـاء ، صوّر اسحق في صورة جشعة جعـل من الدعاء لولد دون الآخر حرزاً او قنينة تباع وتوهب وتنتقل من رجل الى آخر نظير وجبة شهية ووضعه كاتب السفر وهو آثم قطعاً بما فعل في وضع وصورة ظالمة فلم يكن عادلاً بين ولديه التوأم ، وأرانا صورة وملامح السيدة زوجة النبي (رفقة) متآمرة ملتوية تنفـّذ اغراضها وما تراه ضد رغبة زوجها ولو بالخداع ، ثم رأينــا القطيعة التي قامت بين الاخوين يعقوب وعيسو بسبب موقف أبويها أصلاً ، وملامح يعقوب التي أرانا إياهـا كاتب السفر ابعد مـا تكون عن خلق واستعداد نبي ملامحه عند كاتب السفر منـذ الصبا المبكر (امّه) يمارس من الاعمال ما لا يرضى عنه حق وإن كان تضليلاً وكذباً وسرقة ، هذا ولم يبرز او لم نرَ مظاهر للعمل الديني والاخلاقي بين اهتمامات هؤلاء الرجـال الذين يصوّرهم كاتب السفر في اصحاحاته المختلفة ، فرحـلة يعقوب الى (فدان آرام) عند الخال (لابان) وطوال عشرين عاماً لم يثمر

الرجل ثمرة اكثر من زواجه بأربع نساء من خـاله لابان رزق خلالها بمجموعة من الابناء لم يظهر أثرهم كأبناء نبي في المجال الديني ولو بشيء أي شيء نراه بين سياق الاصحاحات ، بـل ان المظاهر الوثنية التي كانت تقترن بسلوك الرجال هي التي نقلها كاتب الاسفار كشاهد عيان في ما ادّعاه على انـه لا شيء من دين او خلق ينعكس أثره في الناس ، فأصنام لابان أكبر برهـان على ان البيت الذي كان يعيش فيه او بجواره يعقوب وابنائه كان على علاقة بالاصنام هذه الاصنام التي جعلته يقوم بحمـل المطاردة ضد ابن اخته وزوج بناته الاربع يعقوب ليفتش في كل المقتنيات لعله يعثر على هـذه الاصنام التي خبأتها (راحيل) فلم يعثر عليها .

والعلاقة بين عيسو ويعقوب تدخل بعد عشرين عاماً مرحلة من الآخاء والصفاء بغير اسباب موضوعية لم تكن على هذا المستوى من قبل وفيها يخلع يعقوب البركة التي سرقها (خلسة) من ابيه اسحق والتي كانت أصلا لأخيه عيسو والذي نسيه كاتب السفر هو انه لم يقل لنا كيف خلع يعقوب البركة او كيف ردّها الى اخيه ،لقد كانت دعاء من اسحق لعيسو احتال في الحصول عليه يعقوب ومع ذلك كما ادعى كاتب السفر لم يملك اسحق نفسه ان يعدّل في الموقف فكيف جاء يعقوب بعد عشرين عاماً وردّ البركة لكنه في نهاية هذه المرحلة عند كاتب السفر لا بأس عنده ان يرينا يعقوب في موقف ذليل مستضعف في كل افعاله وتصرفاته في مواجهة أخيه عيسو الذي لم يعد يعقوب في منطق كاتب سفر التكوين يحدّثه إلا بقوله : سيدي سيدي . عبدك انا عبدك ، والادهى والأمر الذي يسوقه كاتب السفر ان يعقوب اصبح يرى وجه عيسو كما يرى وجه الله الى غير ذلك من النعوت والالقاب التي لا تقوم إلا برهاناً على الخداع والخداع فقط وهو الذي يستهدفه كاتب السفر بالدرجة الاولى ليكون منهجه حافزاً وموجّهاً للسلوك الاسرائيلي عبر كل الاجيال .

ومن هنا على ضوء هـذا المنهج كان طبيعياً عند كاتب الاسفار وهو يرينا بعض ملامح بيت النبوة ان نرى صنيعاً كالذي قـام بـه ولدا (ليئة) من

يعقوب : شمعون ولاوي وغدرهما بالسيف والقتل والنهب لأهل شكيم بعد الزواج من (دينة) وبعد عهد واتفاق تغطية فيما ادعوا وستراً على الفضيحة والقباحة التي صنعت في اسرائيل .

مرة ثانية ولعلها الأخيرة ، لا يستحي كاتب اسفار العهد القديم وخاصة ذلك الذي دوّن اصحاحات سفر التكوين حين يجيء ويقول : (... وظهر الله ليعقوب ايضاً حين جاء من (فدان آرام) وقال له الله اسمك يعقوب لا يدعى اسمك فيما بعد يكون اسمك اسرائيل) [١] .

وإذا ما سألنا أين البركة وما نوعها وما حقيقتها وما أثرها في كل مرويات وقصص السيرة التي يحدثنا عنها كاتب التراث الاسرائيلي في العهد القديم وفي سفر التكوين على وجه الخصوص فانه لا جواب غير تفاسير الكهانة ولغة الرموز والتأويلات التي لا تقوم على أساس ديني او فكر نظري والتي لا تعبّر عن رسالة إلهية في يد نبي بين الناس ، وهذا هو وجه الخطورة عند اولئك الذين تناولوا التراث الاسرائيلي في العهد القديم بغير رويّة وبغير منهج من دين او تفكير [٢] .

---

(١) (سفر التكوين) الاصحاح الخامس والثلاثون فقرتا ٩ — ١٠ .

(٢) من هذه الدراسات التي تناولت فكر العهد القديم بغير منهج علمي او ديني كتاب (الخلاص بين الوحي والمفاهيم البشرية) تأليف (عوض سمعان) مكتبة كنيسة الاخوة — القاهرة بدون تاريخ .

— كذلك كتاب (المسيح يصلي لأجل خاصته) تأليف (مرقس رينسفورد) تعريب الدكتور ماهر فهمي نشر لجنة خلاص النفوس للنشر عام ١٩٦٧ .

الفصل الخامس

نبوة أبناء يعقوب في العهد القديم

قبل ان نذهب نبحث عن دور أبناء يعقوب في عمل النبوة والرسالة الدينية التي احاطهم بها كتّاب الاسفار على ضوء رؤية العهد القديم لها فان سفر التكوين يحدّث عن بشارة جلس فيها يعقوب ذات يوم وقبيل موته فيما قص الاصحاح قبل الأخير من التكوين ليسوق يعقوب الى بنيه جميعاً هذه البشارة ويصف ملامحهم العامة ويعرّف بأخلاقهم من هذه البشارة ويكشف عن ميولهم واتجاهاتهم واستعدادهم وهذا الذي قصه كاتب الاصحاح الاخير من احاديث ساقها على لسان يعقوب متوجهاً بها الى ابنائه مهم جداً في التعرّف على الجوانب الخلقية والنفسية بل والدينية والوقوف على نوعية النبوة التي كان عليها ابناء يعقوب خاصة وان ذلك التقرير او الوصف الذي ينسبه كاتب الاصحاح الى يعقوب كان قبيل وفاته بل انه يخبر أنه مات بعد ذلك التقرير او الوصف مباشرة أي ان ما يمكن ان يكون قد تركه الرجل في ابنائه من مهام ومسؤوليات دينية وما قد عرّف به في أنفسهم تجاه الناس يكون قد اصبح المجال امامه ميسّراً والباب مفتوحاً للعمل ولجني الثمار او الاقتداء بأبيهم فيما قص عليهم وما وجّههم اليه .

يحدثنا الاصحاح التاسع والاربعون بأن يعقوب (عليه السلام) دعا اولاده

قائلا اجتمعوا لأخبركم بما يصيبكم في آخر الأيام ، وعلى ضوء مـا في الاصحاح ابتدأ الرجل في الاعلان عن حال (رأوبين) وبعد عدة مواصفات ذكرها يعقوب في ابنه أنهاها بتلك الصفة التي قال عنها مشخصاً بهـا بعض ملامح ولده : (فائراً كالماء لا تتفضل لأنك صعدت على مضجع ابيك حينئذ دنسته) ثم يعود كاتب السفر ويذكر هذا الوصف المتصل برأوبين وينسبه الى يعقوب حين يقول الكاتب على لسانه : (على فراشي صعد) . ولم يقـل لنـا كاتب السفر شيئاً مفصلاً عن هذه الواقعة التي دنس فيها رأوبين فراش ابيه .

ثم كان الثـاني والثالث في التقرير الوصفي الذي دوّنـه كاتب الاصحاح التاسع والاربعين من سفر التكوين على لسان يعقوب في وصف ابنـائه كان الثاني والثالث في القائمة (شمعون ولاوي) وضمهما يعقوب وأشركهما في صفة واحدة قائلا فيما نسب اليه السفر : (آلات ظلم سيوفهما ، في مجلسهما لا تدخل نفسي ، بمجمعهما لا تتحـد كرامتي ، لأنهما في غضبهما قتـلا انساناً) ونسي كاتب السفر في هذا الاصحاح ان يذكر انهما لم يقتـلا انساناً في غضبهما فقط ولكن كما تقول الفقرة رقم ٢٥ من الاصحاح الرابع والثلاثين من نفس السفر عنهما انهما : (... أخذ كل واحد سيفه وأتيا على المدينة بأمن وقتـلا كل ذكر) وكان من بين القتلى شكيم بن حمور زوج اختهما (دينة) وحمور نفسه والد شكيم بعد الاتفاق الذي أبرم بين اولاد يعقوب وحمور واهله وعلى أثره تزوج شكيم من دينة بعد ان اضطجع معها .

ثم كان الرابع يهوذا الذي نسب كاتب السفر ليعقوب قوله فيه مدعياً انه ستكون له حظوة وسيادة على اخوته والناس : (يدك على قفـا اعدائك ، يسجد لـك بنو ابيك) ويستطرد كاتب السفر فيما ادعـاه يعقوب في وصف يهوذا بانه من فريسة صعد ، جثا وصعد كأسد ولبوة ، ثم أطنب واستطرد كاتب السفر في وصف يهوذا على لسان يعقوب قائلا : (لا يزول قضيب من يهوذا ومشترع من بـين رجليـه ، حتى شيلون وله يكون خضوع شعوب ،

رابطاً بالكرمة جحشه ، وبالجفنة ابن آتانه ، غسل بالخمر لباسه، وبدم العنب ثوبه ، مسود العينين من الخمر ، ومبيض الأسنان من اللبن) .

وجاء في الترتيب الخامس على ضوء نص الاصحاح (زبولون) ولم يجيء في وصفه أكثر من انه عند ساحل البحر يسكن،ولعل ذلك الايجاز في الكشف عن ملامح (زبولون) والادعاء عليه لم يكن له أهمية في تاريخ بني اسرائيل او أنه لم يكن مؤهلا لعمل شيء فلم يجد كاتب السفر غير هذا النمت .

لكن يطالعنا وصف الولد السادس بما هو مدهش فهو : (... حمار جسيم رابض بين الحظائر ، فرأى المحل انه حسن ، والارض انها نزهة ، فأحنى كتفه للحمل ، وصار للجزية عبداً) .

أما الولد السابع (دان) فهو على حد ما ذهب كاتب الاصحاح : حيّة على الطريق وأفعواناً، ويبدو ان الكاتب يريد ان يقول ان صلاحيات (دان) كانت ليقوم بدور قاطع الطريق ؛ فقد جاءت عبارة وصفه بالنص هكذا : (... على السبيل يلسع عقبي الفرس فيسقط راكبه الى الوراء) .

والولد الثامن (جاد) ولم يجيء في وصفه اكثر من انه يزحمه جيش ولكنه يزحم مؤخرة .

والولد التاسع (أشير) خبزه ثمين وهو يعطي لذات ملوك .

والولد العاشر (نفتالي) جاء في وصفه انه يعطي اقوالاً حسنة ولم يذكر كاتب الاصحاح من هذه الاقوال في سيرته بعد ذلك شيئاً بالمرة .

والولد الحادي عشر (يوسف) وهو الذي سجل كاتب السفر عنه فيما نسب على لسان يعقوب في وصف يوسف :(...غصن شجرة مثمرة على عين ، وأغصان قد ارتفعت فوق حائط فمررته ورمته واضطهدته ارباب السهام) .

وأما الولد الثاني عشر فهو (بنيامين) فقد جاء في وصفه كما سجل عنه كاتب الأصحاح : (... انه ذئب يفترس في الصباح يأكل غنيمة ، وعند المساء يقسّم نهباً) .

هؤلاء هم ابناء يعقوب وهذه ملامح صفاتهم كما دوّنها كاتب سفر التكوين في الاصحاح التاسع والاربعين وهي تضعنا أمام سؤال نضعه امام كتّاب الاسفار فيما بعد غير اننا نود أن ننظر هؤلاء الابناء على ضوء صياغة النص كما جاء حرفياً في الفقرات الاولى حتى الثامنة والعشرين من الاصحاح التاسع والاربعين من سفر التكوين لنرى بعد ذلك موقعهم في دائرة النبوة وما تمثله من قيم وضوابط ولنحاول التعرّف على أي دور قام به هؤلاء الابناء في تاريخ النبوة الدينية والرسالة الإلهية ولنبحث عن أي قيمة أخلاقية تمثل سلوكاً إيجابياً بين الآباء الكبار لكل اجيال بني اسرائيل فيما بعد .

يقول كاتب الفقرات التي حددناها من الاصحاح التاسع والاربعين من سفر التكوين : (... ودعا يعقوب بنيه وقال اجتمعوا لأنبئكم بما يصيبكم في آخر الأيام ، اجتمعوا واسمعوا يا بني يعقوب واصغوا الى اسرائيل أبوكم : رأوبين انت بكري قوتي وأول قدرتي فضل الرفعة وفضل العزّ ، فائراً كالماء لا تتفضل لأنك صعدت على مضجع ابيك حينئذ دنسته ، على فراشي صعد . شمعون ولاوي اخوان آلات ظلم سيوفهما ، في مجلسهما لا تدخل نفسي ، بمجمعهما لا تتحد كرامتي ، لأنهما في غضبهما قتلا انساناً ، وفي رضاهما عرقبا ثوراً ، ملعون غضبهما فانه شديد وسخطهما فانه قاس ، أقسمهما في يعقوب وأفرقهما في اسرائيل . يهوذا اياك يحمد اخوتك ، يدك على قفا أعدائك يسجد لك بنوا ابيك ، يهوذا جرو اسد من فريسة صعدت يا ابني ، جثا وربض كأسد ولبوة من ينهضه ، لا يزول قضيب من يهوذا ومشترع من بين رجليه حتى يأتي شيلون وله يكون خضوع شعوب ، رابطاً بالكرمة جحشه ، وبالجفنة ابن أتانه غسل بالخمر لباسه وبدم العنب ثوبه مسود العينين من الخمر ومبيض الاسنان من اللبن ، زبولون عند ساحل البحر يسكن وهو عند ساحل السفن وجانبه عند صيدون يساكر حمار حسيم رابض بين الحظائر ، فرأى المحل أنه حسن والارض أنها نزهة فأحنى كتفه للحمل وصار للجزية عبداً ، دان يدين شعبه كأحد اسباط اسرائيل ، يكون دان حية على الطريق أفعواناً على

السبيل يلسع عقبي الفرس فيسقط راكبه الى الوراء ، لخلاصك انتظرت يا رب . جاد يزحمه جيش ولكن يزحم مؤخره ، أشير خبزه ثمين ، وهو يعطي اللذات ملوك . نفتالي أيلة مسيبة يعطي اقوالاً حسنة ، يوسف غصن شجرة مثمرة على عين أغصان قد ارتفعت فوق حائط فمررته ورمته واضطهدته ارباب السهام ، ولكن ثبتت بمكانة قوسه وتشددت سواعد يديه ، من يدي عزيز يعقوب من هناك من الراعي صخر اسرائيل من الله ابيك الذي يعينك ومن القادر على كل شيء الذي يباركك تأتي بركات السماء من فوق وبركات الغمر الرابض تحت بركات الثديين والرحم ، بركات ابيك فاقت على بركات أبوي ، إلى منية الآكام الدهرية فتكون على رأس يوسف وعلى قمة نذير اخوته. بنيامين ذئب يفترس في الصباح يأكل غنيمة وعند المساء يقسم نهباً . جميع هؤلاء هم أسباط اسرائيل الاثنا عشر وهذا ما كلمهم به ابوهم وباركهم كل واحد بحسب بركته) .

هذا هو نص ما جاء في وصف الابناء على لسان ابيهم كما نسب النص وادعى في الاصحاح التاسع والاربعين من سفر التكوين . فلننظر إلى سلوك بعضهم وايضاً من خلال رواية تراث العهد القديم للتدليل على صحة ما ذهب اليه كاتب سفر التكوين من عدمه وللوقوف على ما ادعاه على نبي الله يعقوب.

ونحن نبحث عن النبوة وأثرها في بيت ولد أبناء يعقوب لنبدأ بالتعرف على الولد الرابع أشهر الابناء وأكثرهم ذيوعاً فحول اسمه انتشرت الافكار والمبادىء ومن جنسه دعيت أجناس وفروع وعلى ضوء سيرته قامت مذاهب وتطورت مراحل من التاريخ الديني والسياسي عرفت باسمه وانتسبت اليه أعني به (يهوذا) في سفر التكوين .

والدّراس او الباحث في سيرة هذا الرجل للتعرف على ملامح النبوة في بيت يعقوب يجابهه من بين سياق النصوص يهوذا رجلاً منحرفاً عن كل ما يمت للدين او الاخلاق بصلة ، واذا كان شمعون ولاوي في السيرة التي بين يدينا في

تراث العهد القديم لم تهدأ نفسيهما ولم يسكننا إلا حين قتلا كما ادعى التراث مجتمعاً بكامله رغم العهود والمواثيق للتكفير عن جريمة القباحة التي فعلت في اسرائيل حين اعتدى بالزنا (شكيم) على (دينة) اختهما فالذي لا جدال فيه أنه بهذا المعيار لو صحت الدعوى المنسوبة ليهوذا والسيرة التي شاعت عن الرجل في تراث العهد القديم وأصبح يعرف بها لأصبح في شريعة أخويه فضلاً عن قواعد العهد القديم في هذه الجريمة التي حدد لها ضوابط وحدود دون غيرها من الجرائم مستحل الدم ويجب قتله على يد كل واحد في جماعة اسرائيل، بل يجب قتله على ضوء ما قرره هو وما ذهب اليه عقاباً للجريمة التي قام بها ومارسها لأنه على حد ما ذهبت اليه عبارة كاتب السفر قرر أن تحرق الزانية وبالتالي يحرق الزاني لأنه لا معنى في شريعة يعاقب فيها طرف دون الآخر على جريمة مشتركة، ويبدو أن يهوذا على ضوء سيرته قد قام بهذه الجريمة اكثر من مرة او كانت سلوكاً معتاداً يقوم به كلما اراد، وخلاصة هذه الجريمة فيما نسب اليه كاتب الاصحاح الثامن والثلاثين من سفر التكوين، انه بعد أن كبر يهوذا واصبح أباً لمجموعة من الابناء مات بعضهم ولا يزال يعيش في حياته بعضهم الآخر، ضاق ذات يوم فأراد أن يتسلى او يتعزى على حد لغة كاتب النص وذهب مع واحد من اصحابه، إلى امرأة من الزواني ووقع عليها ولم يستوقفه جملة الشروط التي طلبتها المرأة التي حسبها زانية لكي تمكنه من نفسها وكانت شروطاً تساعد في أن يتحرى الدقة فيما هو بصدده فضلاً عن أنها كانت شروطاً تجعله يتردد فيما سيقوم به معها، ولم يدر أنه بعد أن طال انتظار المرأة التي سمّاها كاتب الاصحاح (ثامار) في أن يقدم يهوذا على تزويجها من ابنه (شيله) بعد أن ترملت من زوجها الذي مات، وعلى ضوء ما في هذه الواقعة من تفاصيل يبدو أن المرأة (ثامار) أرادت أن تلقنه درساً تعرضه فيه للاهانة وللفضيحة بسبب موقفه منها ولما تعلمه عنه من الوقوع في مثل هذا السلوك . والعجب العجاب أنه لم يكن يتصور أن جريمته يمكن أن يطلع عليها أحد من الناس وأن يعرف أمره ويشاع مع أن كاتب الاصحاح

يريد أن يشعرنا أن يهوذا كان يقوم بهذه الجريمة كل يوم ، وحين عرضت على يهوذا الواقعة التي قام بها للتحقيق لان المرأة التي أوقعته في هذا المأزق قد افتضح امرها وحتى قبيل التحقيق الذي يتحدث عنه كاتب السفر كانت المرأة تخفي ليهوذا مفاجآت التعرف عليها حتى يصدر حكمه ، وعندما فعل جابهته بالاثم الذي وقع فيه وبالخطيئة التي مارسها معها العجيب الذي انتهى اليه كاتب الاصحاح ان المفاجأة التي وقف عليها يهوذا امام جمع اسرائيل لم تعرضه للمسألة فلم يوجه احد من اهل الشريعة الذين اختفى دورهم بين ابناء يعقوب اهانة ولم يحاول احد أن يوقع اليه حداً مع أن قراره فيما ذهب اليه الاصحاح كان : القتل لمن قام بهذه الجريمة ، وكل الذي قصّه علينا هذا الاصحاح الذي افترى كاتبه كثيراً على بيت النبوة انه نتيجة لهذا السفاح حبلت وولدت المرأة التي زنا بها يهوذا (ثامار) واذا في وقت ولادتها توأمان ولم يعلق كاتب الاصحاح على هذه النهاية وكل الذي سجله وادعاه على ذلك الرجل (يهوذا) الذي قيل في وصفه على لسان يعقوب فيما نسب كاتب الاصحاح التاسع والاربعين ليعقوب عليه السلام فقرة رقم ٨ أن : (يهوذا اياك يحمد اخوتك يدك على فقا اعدائك يسجد لك بنو ابيك) كل هذه الصلاحيات لم يثمر منها شيء في لغة الكاتب وكانت واقعة (ثامار) نموذجاً من سلوك يهوذا وكل الذي سجله كاتب الاصحاح في التعليق من يهوذا على هذه الواقعة التي لم يتحرك لها احد ليقيم شريعة الرب انه قال : (هي أبرّ مني لأني لم اعطها لشيله ابني) وامام هذا النمط من السلوك المنحرف في بيت الآباء الاول الذي رآه كاتب سفر التكوين مغتصب لكل معالم النبوة في ابناء يعقوب فلننظر ما سجله كاتب الاصحاح الثامن والثلاثين ومن الفقرات ١٣ — ٢٧ الذي قال عن هذه الواقعة الآتي : (ولما طال الزمان ماتت ابنة شوع امرأة يهوذا ثم تعزّى يهوذا ، فصعد إلى جزّاز غنمه إلى (تمنة) هو وحيرة صاحبه العدلامي وأخبرت ثمّار وقيل لها هو ذا حموك صاعد إلى تمنه ليجزّ غنمه فخلعت عنها ثياب ترملها وتغطت ببرقع وتلففت وجلست في مدخل عينايم التي على طريق

تمنه لأنها رأت ان (شيله) قد كبر وهي لم تمط له زوجه فنظر يهوذا وحسبها زانية لأنها كانت قد غطت وجهها ، فمال عليها على الطريق وقال هاتي ادخل عليك لأنه لم يعلم انها كنته فقالت ماذا تعطيني لكي تدخل علي ، فقال اني ارسل جدي معزي من الغنم ، فقالت هل تعطيني رهناً حتى ترسله فقال ما الرهن الذي اعطيك فقالت : خاتمك وعصابتك وعصاك التي في يدك فأعطاها ودخل عليها فحبلت منه ثم قامت ومضت وخلعت عنها برقعها ولبست ثياب ترملها فأرسل يهوذا جديي المعزي بيد صاحبه العدلامي ليأخذ الرهن من يد المرأة فلم يجدهـا فسأل اهل مكانها قائلاً اين الزانية التي كانت في عينايم على الطريق ، فقالوا لم تكن هنا زانية ، فرجع إلى يهوذا وقال لم اجدها واهل المكان ايضاً لم تكن هـا هنا زانية فقال يهوذا لتأخذ لنفسها لئلا نصير اهانة اني قد ارسلت هذا الجدي وانت لم تجده ، ولمـــا كان نحو ثلاثة اشهر أُخبر يهوذا وقيل له قد زنت (ثمّار) كنتك وها هي حبلى من الزنى فقال يهوذا اخرجوها فتحرق امـا هي فلما أخرجت أرسلت إلى حميها قائلة من الرجل الذي هذه له انا حبلى ، وقالت حقق لمن الخاتم والعصابة والعصا هذه فتحققها يهوذا وقال هي أبرّ مني لأني لم اعطها لشيله ابني فـلم يعد يعرفها ايضاً وفي وقت ولادتها اذا في بطنها توأمان) .

ما رأي القائلين بعصمة الكتاب المقدس على ضوء ادعائهم وما يقولونه من ان روح الله حلت فيمن قالوا الكتاب ومن نسبوه ومن دوّنوه ومن نقلوه ومن نسخوه إلى آخره ؟ ما رأيهم في هذا الاثم الذي اوقع فيه الكاتب يهوذا ابن يعقوب بن اسحق بن ابراهيم واذا كان لا بـد من الخطيئة كما يقول عشّاق الخطيئة ومبرروها فما الفرق بينهم أعني الانبياء وبين غيرهم من شرار الناس الذين هم ايضـاً يقعون في الخطيئة ويمارسون الاثم ولا حرج عليهم في منطق الايمان اذا مـا عادوا إلى ربهم وتابوا وأقلعوا بصدق ومسؤلية ، ألا يدرك شرّاح العهد القديم أنهم امام ضرورة اعادة النظر في موضوع القداسة المدعى وعصمة النص المتداول .

وإذا كان هـذا على ضوء تراث العهد القديم وسيرة بيت يعقوب في سفر التكوين هو سلوك الفرد القمـة بين الابنـاء مثل يهوذا واستسلامه فيما صوّر السفر لغرائزه الجنسية بغير ضوابط (فنظرها يهوذا وحسبها زانية) أي انه يعرف هذا النوع من السلوك وهذا النمط من النساء فما بالنا بباقي الرجـال وبانعدام جوانب المحبة والاخوة والزمالة والتعاون بين ابنـاء الرجل الواحد وفي بيت الأصل فيـه انه منبع للخير والرحمة والنور والهـداية للناس ، ان كاتب الاصحاح الثامن والثلاثين من سفر التكوين لم يرجع علينا بعد قصصه وأخبـاره عن جـوانب الخطيئة والإثم في بيت يعقوب ليطالعنا ولو بموقف واحد فيه بعض ملامح التوبة والندم والاستغفار والعودة لقد راح يدوّن كل ما أسعفه به خياله من واقع الإثم الذي كانت فيه أمته وما وقعت على يديه وأخذ ينقل لنا بين التراكات والمفارقات ذلك الجانب المظلم في علاقات سلوك ابناء يعقوب عليه السلام ، ان الدارس للتراث الاسرائيلي والباحث عن دور النبوة في ابنـاء يعقوب يجابهه مـا يقصه كاتب الاصحاح السابع والثلاثين من سفر التكوين عن علاقات ابناء يعقوب فيما بينهم وبالتالي فان هذه العلاقات الـتي يتحدث عنها كاتب الاصحاح ستكون نمطاً لما يمكن ان تكون عليه علاقاتهم مع غيرهم من الناس ،يقص صاحب الاصحاح السابع والثلاثين في مجال العلاقات الاجتماعية والأسرية في بيت أبناء يعقوب العجب العجاب ، لقد كان يوسف عليه السلام قريباً وحبيباً الى قلب أبيه يعقوب لأنه على حد ما ذهب كاتب الاصحاح ابن شيخوخته ومن هنا فقد صنع له قميصاً ملوناً، وكان من المنطقي والفطري والولد صغير وله حظوة عند أبيه ان يقع ذلك في قلب اخوته موقعاً طيباً وان يسعدهم ذلك ، لكنهم أمام عاطفة أبيهم نحو اخيهم الصغير الذي يلبس قميصاً ملوناً أبغضوه ، وعلى حد ما نقل كاتب الاصحاح ولم يستطيعوا ان يكلموه بسلام ، وهذا الموقف الاخلاقي الذي يطالعنا به كاتب الاصحاح مزعج للغاية فهو يحمل عقوقاً من الاولاد لأبيهم فضلاً عن عدائهم ومشاعرهم العدوانية لأقرب النـاس اليهم وزاد الأمر تعقيداً في لغـة كاتب الاصحاح

وكشف عن هوية الابناء الاخلاقية وانها سلبية تماماً تجـاه كل نزعات الخـير واتجاهات البر ما اتخذوه ضد اخوهم الصغير ازاء اخبار الحلم الذي قصه كاتب السفر والذي رمز اليه بالحزمة التي انتصبت في الحقل وأحاطت بحزم أخرى، وتطور الأمر تعقيداً في مجال العلاقة الأسرية بين الابناء وأخيهم وأبيهم حين توالت ارهاصات النبوة على يوسف عليه السلام حين رأى فيما يقصه كاتب الاصحاح حلماً آخر غير حلم الحزمة التي انتصبت في الحقل كان هذه المرة عن الشمس والقمر والكواكب الساجدة له فيما نقـــل كاتب السفر ، تطور الأمر عند الأخوة وتعقد، وتحولت مواقفهم السلبية من اخيهم الى بداية الحركة والمطاردة لكل مـا يمكن ان يرمز له يوسف او يمثـله أمامهم من حق وخير ، وينقلنا كاتب الاصحاح الى مشهد عجيب فيه كل بشاعة وعدوانية العقوق والجحود الذي انطوت عليه قلوب ونفوس ابنـاء يعقوب فقـد أرسل الوالد يعقوب يوسف في أثرهم ليأتيه بأخبارهم فوجدوها فرصة العمر أمامهم لقتـل يوسف والتخلص منـه ويطالعنا كاتب الاصحاح بنمط من المغالطات والمراوغات الاخلاقية التي جبل عليها شعب اسرائيل وانعكست عليه وهو يدوّن سيرة آبائه فالولد الذي رقّ قلبه لأخيه وضعف أمام هول الجريمة التي اقدم عليها الاخوة ضد اخيهم لم يجد أخف من القتل غير الإلقاء في البئر المظلمة ويراوغ كاتب الاصحاح في تبرير دوافع تعديل موقف القتل والشروع فيه الى الإلقاء في البئر بأن ذلك كان : (... لكي ينقذه من ايديهم ليردّه الى أبيه) وبهذا النوع من السلوك يطالعنا الكاتب بأخلاق ابناء يعقوب فيما بينهم وحتى عندما أكرم الله الولد الصغير وتكفلت به عناية الله الى ان وصل مصر واصبح من كبار السادة الذين يسمع لهم ويطاع وأرادت مشيئة الله ان يفد عليه أخوته لظروف جدب وقحط دفعتهم للسؤال عن شعب مصر ردّهم الرجل يوسف رداً كريماً وأحسن اليهم وطلب كما يقول صاحب الاصحاح ان تملأ أوعيتهم قمحاً وتردّ فضة كل واحد الى مكانه، وحين ذهبوا الى أبيهم بالخبر الذي حمّله إياهم يوسف ولم يكونوا بعد قـد عرفوه قالوا لأبيهم كذباً وزيفـاً كما ينسبه

اليهم الاصحاح الثاني والأربعين فقرة رقم ٣٠ : (تكلم معنا الرجل سيد الارض بجفاء وحسبنا جواسيس الارض) مع ان الرجل قال لهم كما جاء في الفقرتين رقم ١٨ ، ١٩ من نفس الاصحاح : (أنا خائف الله ان كنتم أمناء فليحبس أخ واحد منكم في بيت حبسكم وانطلقوا أنتم وخذوا قمحاً لمجاعة بيوتكم ، واحضروا أخاكم الصغير إليّ) لكنها روح الزيف والخداع التي تأبى ان تفارقنا بين ثنايا وسياق وفقرات أخبار العهد القديم المتعلقة بسيرة ابناء يعقوب عليه السلام والمفتقد فيها تماماً روح النبوة وعملها في الناس على ضوء ما سجل كاتب سفر التكوين ولننظر الى كاتب الاصحاح السابع والثلاثين في الفقرات رقم ٣ — ٢٣ وهو يقص بعض الجوانب المتعلقة بهذا المناخ الذي تتحرك فيه علاقات الأخوّة بين ابناء البيت الواحد أعني اولاد يعقوب بن اسحق بن ابراهيم عليهم السلام ، فما الذي قصه علينا كاتب الاصحاح السابع والثلاثين من سفر التكوين ؟

(وأما اسرائيل فأحب يوسف أكثر من سائر بنيه لأنه ابن شيخوخته ، فصنع له قميصاً ملوناً فلما رأى أخوته ان أباهم أحبه اكثر من جميع اخوته أبغضوه ولم يستطيعوا ان يكلموه بسلام وحلم يوسف حلماً وأخبر اخوته فازدادوا ايضاً بغضاً له فقال لهم اسمعوا هذا الحلم الذي حلمت ، فها نحن حازمون حزماً في الحقل ، وإذا حزمتي قامت وانتصبت فاحتاطت حزمكم وسجدت لحزمتي فقال له اخوته ألعلك تملك علينا ملكاً ان تتسلط علينا تسلطاً ، وازدادوا ايضاً بغضاً له من اجل احلامه ومن اجل كلامه ، ثم حلم ايضاً حلماً آخر وقصه على اخوته فقال اني قد حلمت حلماً ايضاً ، وإذا الشمس والقمر وأحد عشر كوكباً ساجدة لي وقصه على ابيه واخوته فانتهره ابوه وقال له ما هذا الحلم الذي حلمت ، أناتي أنا وأمك وأخوتك لنسجد لك الى الارض ، فحسده اخوته واما ابوه فحفظ الأمر ، ومضى اخوته ليرعوا غنم ابيهم عند شكيم ، فقال اسرائيل ليوسف أليس اخوتك يرعون عند شكيم تعال فأرسلك اليهم فقال لهم ها أنذا فقال له اذهب انظر

سلامة اخوتك وسلامة الغنم وردّ لي خبراً ، فأرسله من وطأ حبرون فأتى الى شكيم ، فوجده رجل وإذا هو ضال في الحقل فسأله الرجل قائلا ماذا تطلب ، فقال انا طالب اخوتي اخبرني اين يرعون ، فقال الرجل قد ارتحلوا من هنا لأني سمعتهم يقولون لنذهب الى (دوثان) فذهب يوسف وراء اخوته فوجدهم في دوثان ، فلما ابصروه من بعيد قبلما اقترب اليهم احتالوا له ليميتوه فقال بعضهم لبعض هوذا صاحب الاحلام قادم، فالآن هلمّ نقتله ونطرحه في إحدى الآبار ونقول وحش رديء أكله فنرى ماذا تكون احلامه، فسمع رأوبين وانقذه من ايديهم وقال لا نقتله، وقال لهم رأوبين لا تسفكوا دماً اطرحوه في هذه البئر التي في البرية ولا تمدوا اليه يداً ، لكي ينقذه من ايديهم ليرده الى ابيه) .

ونحن هنا نضع هذا النص بعد المقدمة التي قدمناه بها نحاول ان نتعرف على ملامح النبوة من خلاله ولا تعليق لنا عليه هنا بعد ذلك سوى بذلك السؤال الذي نبحث عن جوابه في معظم ما كتب كتّاب اسفار العهد القديم وهو : أين دور النبوة والرسالة الدينية في عمل هؤلاء الرجال اولاد الانبياء والمصادر العليا لكل من جاء بعد ذلك من ابناء وانبياء بني اسرائيل واين جوانب الاخلاق الايجابية في اتجاه الحق والخير في سيرة هؤلاء الرجال على ضوء منهج كتّاب ونساخ اسفار العهد القديم الذين سجلوا لتراث بني اسرائيل، ونترك الجواب الذي لا يعقله صاحب عقل فضلا عن اولئك الذين تحكمهم ضوابط الايمان وقواعد النبوة أخلاقياً ودينياً عند اولئك الذين يقولون بعصمة وقداسة وعدم تحريف العهد القديم .

الباب الخامس

الفصل الأول

مدلول الرسالة الالهية في العهد القديم

الدارس لأسفار العهد القديم يطالعه بين ثنايا الأسفار وسياقها ونصوصها أخبار كثرة كثيرة من أنبياء بني اسرائيل تناولت الاسفار بمنحها كل ما يتعلق بسيرتهم وذلك من خلال الرؤية الخاصة التي سجّل بها ورصد كتاب العهد القديم هذه السيرة . وأول ما يطالعنا في سيرة الأنبياء في العهد القديم ، أن مدلول النبوة الذي خلعه كاتب الأسفار على بعض الرجال قد يتسع لمعاني كثيرة وليشمل مجالات عديدة ، فوظيفة النبي مثلاً قد يراها كتاب العهد القديم وينقلونها في سجلاتهم على انها مجرد شاهد عيان يرصد صاحبها حال الاثم والمعصية والفساد الذي يقع فيه شعب اسرائيل ، وما عليه إلا أن يوبخهم ويؤنبهم ويذكرهم بأيام آبائهم مثلما فعل بعض انبياء مرحلة السبي وما بعدها مثل : عاموس، عوبيديا ، ميخا حبقوق وغيرهم ممن اشرنا اليهم بشيء من التفصل عند التعريف بأسفارهم ، وقد يرى كتاب العهد القديم وظيفة النبي على انه واعظ يقيم الشعائر والطقوس سواء أكان اليهود في مرحلة السبي او غيرها ولا بأس عندهم أن يكون هذا النمط من الانبياء متحالفاً مع اعداء الشعب الذي يعظه هذا النبي ويقيم له الشعائر والطقوس مثلما كان الحال في

مـا قصته الأسفـار عن (دانيال) الذي حضر الوليمة التي اقامهـا الملك (بيلشاصر)[١] .

هذا .. ولا بأس عند كتاب الأسفار أن يكون النبي زعيمـاً عسكرياً او رجل سياسة يدير الملك من وراء ستار ، ولا يسعى إلى تسلم مقاليد الحكم رسمياً مثلما قصت الاسفار عن (صموئيل) .

والدارس للعهد القديم يطالعه من بين أسفاره سفر (القضاة) وهو يحمل وظيفة النبي قيادة عسكرية تعد الشعب اعداداً قتـالياً للاستيلاء على أرض الغير بالقوة[٢] . ولا بأس عند كتاب العهد القديم أن يكون في عصر واحد وفي بيئة واحدة قد تكون قرية صغيرة او مجموعة من الناس محدودة اكثر من نبي مثلما نرى في قصص وسيرة الانبياء الصغار في الكتب التي تحمل اسمائهم وسيرتهم .

وقد تختلط وظيفة النبي بوظيفة الكاهن وبالعكس خاصة إذا كان الأمر متعلقاً بسبط اللاويين لا بسبط افرايم ، فقد حصر بنو اسرائيـل الكهانة في سبط اللاويين ومن هنا على ضوء سيرة (صموئيل) فانه لم يحقق كل طموحه مع كثرة صلاحية مقوماته وملكاته التي فاض بهـا التراث الاسرائيلي ، لانه كان من سبط (افرايم)[٣] .

---

(١) (سفر دانيال) الاصحاح الخامس .

(٢) (م. ص. سيجـال) : (حول تاريخ الأنبياء عند بني اسرائيل) ترجمة الدكتور حسن ظاظا منشورات جامعة بيروت العربية – لبنان عام ١٩٦٧ م .

– ومن الدراسات التي تناولت سيرة انبياء بني اسرائيل بالبحث عن وظيفـة الرسالة الالهية ومدلولها في كتبهم ما كتبه بتوسع الاستاذ (محمد عزه دروزه) في كتابه (تاريخ بني اسرائيـل من اسفارهم) السابق الاشارة اليه .

(٣) (حسن ظاظا) : (الفكر الديني الاسرائيلي اطواره ومذاهبه) معهـد البحوث والدراسات العربية – عام ١٩٧١ ص ٤١ .

هذا .. وقد يكون النبي في بعض المراحل ملكاً مثلما قصّت الأسفار في سفري الملوك وهي تعرّف بداود وابنه سليمان وتقص سيرتهما عليهما السلام . أي اننا نستطيع أن نقول ان النبوة او الرسالة الإلهية في اسفار العهد القديم يتغير مفهومها في التراث الاسرائيلي على ضوء المرحلة التاريخية او الظرف السياسي الذي يمر به شعب اسرائيل اي أن مدلول الرسالة الإلهية عندهم ينحصر في وضع اجتماعي وسياسي يتأثر بالواقع والمتغيرات ولا يؤثر هو في الواقع والمتغيرات على ضوء ما اوحى الله لنبي او رسول في العهد القديم ، وبهذا المشهد الذي نراه لمدلول النبوة في العهد القديم متعدد المناهج مختلف الأطوار لا يرتبط مضمون النبوة والرسالة الإلهية عندهم في الهداية وتوجيه السلوك ، ومن هنا نجد أنفسنا أمام ضرورة التعرف على مضامين ودلالات الرسالة الإلهية في العهد القديم وذلك من خلال محاولة التعرف عليها على يد عدد من الانبياء الذين تناولهم كتاب اسفار العهد القديم بشيء من التناول وعرض السيرة لنرى كيف يكون مفهوم النبوة عندهم في خدمة المهام التي انيطت بقادتهم وكهّانهم او تلك التي يكون الشعب يعانيها او يحتاج للتخلص منها او للبحث عنها والتعلق بها (١) .

---

(١) (عباس محمود العقاد) (ابراهيم ابو الانبياء) طبعة دار الهلال القاهرة بدون تاريخ ص ٦٣ .

الفصل الثاني

مدلول الرسالة الالهية على يد أبي الانبياء

برزت سيرته عليه السلام اول ما برزت في كتب العهد القديم من خلال الاصحاحين الثاني عشر والثالث عشر الذين ذكرهما سفر التكوين ، ليقص اخبار رحلة أبي الانبياء من ارضه وعشيرته إلى الارض التي سيريه الله اياها ليبارك نسله ويعظّم اسمه وفي سياق النص ظهرت قصة زوجه ساره التي يتحدّث عنها السفر على انها عجوز حسناء كما يتضمن اخباراً عن مصر واخلاق شعبها بما يتنافى واخلاق هذا الشعب العريق ويسهب في أخذ الفرعون امرأة ابراهيم سارّه ثم اعادتها اليه مرة ثانية وغير ذلك من اخبار السرد التي تضمنها السفر عن إقامة ابراهيم خيمة الرب حين العودة من مصر ثم ظهور لوط عليه السلام مرحلة من الزمن بجوار ابراهيم إلى غير ذلك مما اسهب فيه سفر التكوين من خلال الاصحاحين الثاني عشر والثالث عشر .

وفي الاصحاحين الخامس عشر والسادس عشر تبدأ مظاهر النبوة التي يراها كاتب العهد القديم على أبي الانبياء كما ادعاها ودوّنها كتاب الاصحاحين، وبدت النبوة تتحدد معالمها كما يراها كاتب الاصحاح الخامس عشر بالذات في شكل صورة من صور الوحي التي ادّعى الكاتب ان ابراهيم كان يتلقى

الوحي من خلالها وهي صورة مثيلها شائع يرى بكثرة بين اسفار العهد القديم تخص انبياء غير ابراهيم ، ولعلها تلقى أمامنا بعض ضوء على مضمون الوحي الإلهي في عقيدة اصحاب العهد القديم ، وهذه الصورة هي ظهور الوحي في صورة برهان مادي من الطبيعة المادية لازم معظم نبوءات العهد القديم ، وهذا البرهان شبيه بمرويات ومأثورات الأمم البدائية التي لم تظهر فيها نبوءة او نبي[1] ، وهذه الصورة التي تلازم الوحي الذي يتحدث عنه كاتب السفر على ابراهيم وغيره هي ظهور رغبة مظلمة عظيمة في السماء اثناء حديث الرب مع ابراهيم كما ادعى صاحب الاصحاح الخامس عشر من سفر التكوين في الفقرة رقم ١٢ (ولما صارت الشمس إلى المغيب وقع على ابرام سبات واذا رعبة مظلمة واقعة عليه) .

هذا .. ولم يرَ كاتب الاسفار بأساً من ان تكون النبوة بهذا النمط من الرؤية والمباشرة مشاعاً بين أي عدد من الناس ، إذا ما رأى كاتب السفر داعياً لذلك سواء أكان ذلك العدد رجالاً ام نساء ، ففي منطق كاتب العهد القديم انه لا اصطفاء ولا إعداد لاولئك الذين يصطفيهم الله لشرف النبوة والرسالة ، (فهاجر) المرأة التي حصل عليها ابراهيم من مصر ليس هناك ما يمنع في منطق كاتب الاصحاح السادس عشر في الفقرات ٧ — ٩ ان يحدثها الرب وبالقطع رب كاتب العهد القديم ويطلب اليها أموراً ويكلفها بمهام : (فوجدها ملاك الرب على عين الماء في البرية على العين التي في طريق شور وقال يا هاجر جارية ساراي من أين اتيت وإلى اين تذهبين فقالت انا هاربة من وجه مولاتي ساراي ، فقال لها ملاك الرب ارجعي إلى مولاتك واخضعي تحت يديها) .

ويجب علينا ملاحظة ان رب النبوة التي يتحدث عنها كاتب الفقرات

---

(١) (جيمس فريزر) : (الفولكلور في العهد القديم) ترجمة نبيلة ابراهيم مراجعة حسن ظاظا — الهيئة المصرية العامة للكتاب عام ١٩٧٢ الجزء الاول — صفحة ٥٥ .

السابقة يغيّر علاقاته هو الآخر عن يحدّث ومن يختـار ، فبعد ان كان في حديث كاتب الأسفار رب اسرائيل دون سواهم ها هو يتحدّث من خلال ملاكه كما زعم كاتب الاصحـاح مع امرأة غير اسرائيلية فهاجر من مصر كما يقول ، كما يجب علينا أن نلاحظ ان الرب الذي أرسل ملاكه في حديث كاتب الاصحـاح متواضع للغـاية ، فهو يوحي او يرسل ملاكه لامرأة غير اسرائيلية وجارية على حد ما نعتها وزعم الكاتب المتعصّب لجدته .

هذا .. وقد نسي كاتب الاصحـاح السادس عشر في سفر التكوين وفي زحمة الحشو التدويني الذي راح به يكتب ويسجل كل ما اسعفت به الذاكرة وعمل فيه الخيال ان أراانا المرأة الجارية وهي في مقـام المتلقي لكلام ملاك الرب ارقى رتبة وافضل مقاماً من سيدتها سارّه التي يأتها الملاك بذاتها ولم ينفرد بها كما فعل مع جاريتها هاجر وانما سمعته او سمعت مجموعة من الملائكة الذين زعم كاتب سفر التكوين انهم تحدّثوا مع زوجها بشأنها ، ولننظر ما سجلتـه فقرات رقم ٨ — ١٠ من الإصحاح الثـامن عشر في سفر التكوين لننظر المفارقة التي وقع فيها كاتب سفر التكوين عن غير قصد منه حتى أصبحت على ضوء روايته رتبة ومنزلة هاجر في مقـام المتلقي لوحي الرب افضل واعظم كثيراً من سارة (ثم اخـذ زبداً ولبناً والعجـل الذي عمله ووضعه قدّامهم ، وإذ كان هو واقفاً لديهم تحت الشجرة اكلوا ، وقالوا له اين سارة امرأتك ، فقـال ها هي في الخيمة ، فقال اني ارجع اليـك نحو زمان الحياة ويكون لساره امرأتك ابن . وكانت سارة سامعة في باب الخيمة وهو وراءه) . فسارة هنا على ضوء هذه الرواية تسمع كلام ملائكة الرب الذين قدموا على هيئـة بشر من وراء باب الخيمـة ، بينما هاجر على ضوء النص السابق تسمع كلام ملاك الرب مباشرة فأي المرأتين يمكن ان تكون اكثر حظوة واعظم رتبة في منطق الوحي الذي يتحدّث عنه كاتب سفر التكوين . نعتقد انه وقع في هذه المفارقة بغير دراية بما سبق ان دوّنه على هاجر في الاصحاح السادس عشر او ان كاتب الاصحـاح السادس عشر من

سفر التكوين غير كاتب الاصحاح الثامن عشر من نفس السفر ولم يطلع اللاحق على ما كتب السابق فجاءت هذه المفارقة التي وضعت ام العرب التي كثيراً ما نعتوها بأنها أمة وجارية في موضع أكرم وأعظم من جدة كاتبي الأسفار وشارحيها على السواء .

هذا .. ويطالع الباحث في العهد القديم حول سيرة وملامح نبي الله ابراهيم عليه السلام في دائرة النبوة ومناخ الرسالة التي يتحدث عنها كتاب الأسفار مفارقة اخرى تستحق الوقوف عندها والتعرف عليها ، وهي متعلقة في موضوع عصمة الأنبياء الذي نحن بصدده ببكورية اسماعيل او اسحق لانه في زعم كاتب سفر التكوين ان شرف الامتثال لله في محاولة ذبح ولدي ابراهيم امتثالاً لأمر الله كانت الواقعة تتعلق بالولد البكر الوحيد ومن هنا فقد حظيت هذه القضية او هذه الواقعة باهتمام كبير من كتاب الاسفار ومع ذلك اختلطت فيها مفاهيم كثيرة وكاد الحق فيها أن يضيع حول ضجيج الباطل وكثرة اللغط حوله ، ولقد قطع التاريخ الانساني شوطاً كبيراً وليس أمامه إلا تلك الفرية التي روّجها فكر العهد القديم وهو ان الولد البكر الوحيد الذي امتثل لأمر ربه من خلال توجيه أبيه له بأن يكون هو الذبيح هو الولد اسحق الذي هو بعد ذلك في التراث الاسرائيلي الأب الاعلى لكل آباء وابناء بني اسرائيل ، اي ان شرف الامتثال لله تعالى بهذا الزعم ينحصر في ولد ابراهيم اسحق دون اخيه اسماعيل ، ومن عند هذه البداية المبكرة كان لا بد أن يبرز من سياق الباطل المدوّن في التراث الاسرائيلي بعض الملامح التي تقوم برهاناً على احقاق الحق وابطال الباطل. فما الذي نراه بين نصوص اسفار العهد القديم متعلقاً بهذه القضية الشديدة التعقيد . وبادىء ذي بدء فاننا نود أن نقرر ان القضية قد جاءت متناثرة بين نصوص اصحاحات سفر التكوين لكن بدايتها قد جاءت على الوجه التالي :

الاصحاح الثاني والعشرون يطالعنا بعد استفاضة من الاصحاحات السابقة

مباشرة حول رحلة العودة لابراهيم وزوجته ساره وهاجر من مصر ، بأن الله قد طلب إلى ابراهيم بعد كل هذه الامور التي مرّت به أن يقوم ويصعد إلى الجبل ليذبح ابنه الوحيد اسحق . وامتثل الرجل النبي على ضوء رواية العهد القديم لكن الله سبحانه انقذ الغلام وفداه بكبش ، وذبح ابراهيم الكبش امتثالاً لله كما امره ، وعند هذه الواقعة التي دوّنت في الإصحاح الثاني والعشرين فاضت المراجع اليهودية المسيحية التي تناولت العهد القديم بالدرس والتأويل بذكر واقعة الذبح والتدليل بها على اختيار واصطفاء الله للأب الاعلى للاسرائيليين اسحق دون أخيه اسماعيل خاصة وان نص الخبر في سفر التكوين يتناول اسم الذبيح المفدى بالتعيين اسحق . لكننا وقبل أن ندخل في مناقشة النصوص حول هذه الدعوى نسأل سؤالاً وكنا نأمل ان يسأله الكثيرون من قبل من علماء اللاهوت الذين تعرّضوا لكتب العهد القديم بالشرح والتأويل وهو : على ضوء رواية العهد القديم في ان الذبيح هو ولد ابراهيم الوحيد .. متى كان اسحق الابن الوحيد لابراهيم ؟ ونصوغ السؤال على وجه آخر : هل حين امر الله نبيه ابراهيم بذبح ولده وتلك واقعة لا ننكرها لم يكن قد انجب من الأولاد غير اسحق ؟ وبالتالي فيصبح اسحق حقيقة هو الوحيد لابراهيم ، واذا كانت سيرة ابراهيم في العهد القديم تقول : انه تزوّج بسارة ثم هاجر وثالثة اسمها (قطورة) كما يخبر بذلك الاصحاح الخامس والعشرون من سفر التكوين الذي يقول في أوّل فقرة فيه (وعاد ابراهيم فأخذ زوجة اسمها قطورة) فهل ظل عليه السلام حتى وقت الأمر من الله بذبح الولد الذي امر بذبحه بغير انجاب من النساء الثلاثة حتى يصح اطلاق اسم الابن الوحيد على اسحق دون غيره لانه لم يكن عند ابراهيم سواه .

ونحن هنا قبل ان نحقق لهذه القضية ونقرر فيها ما نود أن ننتهي اليه لا يعنينا علمياً بل وغير ذي موضوع على الاطلاق ان يجيء خبراء التمييز العنصري في القديم والحديث ليطالعونا بغثاث المراجع والمواقف بأمل أن

يقرروا فيها ان الولد من المرأة الحرة يصح ان يسمّى ولداً وان ينسب إلى ابيه وان الولد من المرأة الجارية او الامة لا يصح له ذلك لان هذا هو عين الظلم والقهر والغبن الذي يتنافى وقواعد النبوة التي هي من الله اصلاً لاسعاد البشر وهدايتهم واقامة الحق والعدل بينهم، واذا لم تكن المرأة التي يعاشرها نبي وينجب ولداً حرّاً بل وانموذجاً للأحرار فامرأة من تكون اذن هي الحرة؟ ومن هو غير النبي الذي يعطي امرأة كانت مستعبدة حريتها وآدميتها وانسانيتها ولا ينعكس ماضيها على دريتها ، بهذا الاساس الذي هو مضمون كل رسالة دينية من الله في مجال الاجتماع وتوجيه الناس لا يعنينا ما يذهب اليه كتاب الاسفار من تحريف والتواء بمضمون عمل النبوة ووظيفة الرسالة الإلهية بين النــاس ، وعلى هذا الأساس اذا ما ذهبنا نقلّب صفحات سفر التكوين وهو يرى واقعة الذبح للولد الوحيد فإننا سنقف (موضوعياً) من خلال النصوص على ان كاتب سفر التكوين اخطأه التوفيق في حديثـه عن الذبيح وخبره الكاذب على ان الولد الذبيح هو اسحق هذا اذا لم يكن اصلاً قد تعمّد الكذب والتزييف ان كان قــد انتقلت اليه الحقيقة المتعلقة بخبر الذبيح كما كانت وكما شاعت في عصر أبي الانبياء ثم نقل كاتب النصوص مـا في ايدينا اليوم، ونحن نعتقد ان كاتب هذه النصوص لم تجيء منه هذه المفارقة عفواً وانما هو قد تعمّد ان يزيف الحق وان يحرّف الموقف الذي انتهى اليه والمتعلق بقصة الذبيح .

وبداية المفارقة او قل الخلل التدويني والكذب والمتعمّد الذي تنطوي عليه كتب العهد القديم ، انه في الاصحاح السادس عشر من سفر التكوين وبعد رحلة العودة من مصر ، كان مع ابراهيم وسارة على ضوء مــا يقول النص في التكوين جارية مصرية اسمها (هاجر) وكانت سارة طوال عشرتها لابراهيم ومرافقتها له في حله وترحاله وحتى تاريخ العودة من مصر إلى ارض كنعان امرأة عاقراً لم تنجب له اولاداً ومع ذلك يزعم كاتب السفر انــه لم يتزوّج غيرها حتى مجيئه إلى مصر ، ولا يعلل لنــا كتاب العهد القديم سر

احجام الرجل عن أن يتزوج بغيرها مع انها لا تلد والذرية وكثرتها مطلب مهم في ذلك العصر ، لكن كاتب الإصحاح يطالعنـا انه بعد الاستقرار في ارض كنعان وبعد العودة من مصر طلبت سارة من ابراهيم أن يدخل على هاجر اي ان يقترن بها وبهدف محدد وغاية معلومـة ذكرها كاتب الإصحاح وهي ان ترزق سارة من هاجر بنين ، وسمع ابراهيم لقول زوجته ساراي (سارة) واصبحت هاجر وعلى ضوء النص الذي ذكره كاتب السفر زوجة له ودخل ابراهيم على هاجر فحبلت وقبل أن نتناول النص فانه على ضوء هذه المقدمة يصبح الموقف الذي أمامنا حتى الآن انه معنا امرأة لابراهيم زوجة له غير سارة وقد حبلت ، وفي هذه الفترة فترة الحبـل عند هاجر يطالعنا كاتب السفر بأن الخلاف قد دب بين الزوجتين آثرت معه الزوجة الحبلى أن تفرّ من وجه الزوجة سارة ، لكن كاتب السفر يفاجئنا عن غير قصد منه بأخبار سارّة مؤداها ان الجارية هاجر التي اصبحت زوجـة نبي ادخلها كاتب السفر دائرة النبوة وملاك الرب يكلمها على عين الماء في البرية ويطلب منها عدم الهروب والعودة إلى زوجها وإلى قرينتها التي يخطىء في التعبير عنها كاتب السفر او المترجم – لست ادري – ويصفها بأنها (مولاة) هاجر مع ان هاجر كما ذكر اصبحت زوجـة لابراهيم فلا معنى لان تكون حتى بعد زواج ابراهيم منها امة او جارية لسارة وسارة مولاة لها ، وطلب منها ملاك الرب أن تتحمل لانها ستلد ولداً يده على كل واحد ويد كل واحد عليه ويدعى عليه ويدعى اسمه اسماعيل . وعلى ضوء ماسجله كاتب الاصحاح السادس عشر في سفر التكوين فقد ولد لابراهيم ولده اسماعيل ولن نجادل اولئك الذين يحبون اللغط والتأويل في النصوص أكانت هاجر جـارية أو حرة فقد اتخذها ابراهيم زوجة له وأيا كان وضعها فقد انتسب الولد إلى ابيه ولا يعقل عاقل أن يكون هناك ونحن في دائرة النبوة ذلك الظلم البيّن والجور الطائش الذي يكثر من الحديث عن قصّاص العهد القديم حول علاقة ابن الحرة وابن الجارية بأبيه ، وإلا لانتفت كل اهداف ووظيفة النبي في الناس

ان كان العرف الظالم والسلوك الجائر والقسمة الغاشمة التي تسود مجتمعات غير منضبطة ثم تجيء وتملي هـــذا الوضع على قواعد النبوة وعلى عمـل الرسول ، وعلى ضوء ما ذهبنـــا إليه فالولد اسماعيل الذي ولـد من امه هاجر قبل أخيـه اسحق ابن المرأة التي كانت عـاقراً لا تلد حتى ميلاد اسماعيل هو ابن ابراهيم وهو وحيده ولننظر في تأكيد ما ذهبنا اليه نص الإصحاح السادس عشر من سفر التكوين الذي يقول : (هوذا الرب قد امسكني عن الولادة ادخل على جاريتي لعلي ارزق منها بنينا) .

وإذا كان يجوز أن يقال في القديم ابن حرة وابن جارية اكرر القول اذا كان ذلك يجوز مع انه في الشرائع القديمة كان لا يجوز فالأمة حين تلد ولداً تصبح ام ولد وينسب الولد الى أبيه (١) .

فلماذا كانت اصلاً وظيفة النبي في الناس وهي تستبقى امرّ وأشد انواع هذا الظلم الاجتماعي ومع ذلك فلننظر مفارقات كاتب النص في الفقرات رقم ١ — ١٢ من الإصحاح السادس عشر من سفر التكوين في هذا الشأن :
(وأما ساراي امرأة ابرام فلم تلد له وكانت لها جارية مصرية اسمها هاجر فقـالت ساراي لابرام هوذا الرب قد أمسكني عن الولادة ، ادخـل على جاريتي لعلي ارزق منهـا بنين فسمع ابرام لقول ساراي فأخذت ساراي امرأة ابرام هاجر المصرية جاريتها من بعد عشر سنين لاقامة ابرام في ارض كنعان وأعطتها لابرام رجلها (زوجة له) فدخل على هاجر فحبلت ، ولما رأت انها حبلت صغرت مولاتها في عينيهـا ، فقالت ساراي لابرام ظلمي عليك ، أنا دفعت جاريتي إلى حضنك ، فلمـا رأت انها حبلت صغرت في عينيها يقضي الرب بيني وبينك ، فقـال ابرام لساراي هوذا جاريتك في يدك افعلي بهـــا ما يحسن في عينيك ، فأذلتها ساراى فهربت من وجهها فوجدها ملاك الرب على عين الماء في البرية على العين التي في طريق شور وقال يا هاجر جارية ساراى من اين اتيت والى اين أتيت والى اين تذهبين فقالت أنا هاربة من وجه مولاتي (ساراي) فقال لها ملاك الرب تكثيراً

اكثر نسلك فلا يعد من الكثرة ، وقال لها ملاك الرب ها انت حبلى فتلدين ابناً وتدعين اسمه اسماعيل لان الرب قد سمع لمذلتك وانـه يكون انساناً وحشياً يده على كل واحد ويد كل واحد عليه وامام جميع اخوته يسكن). انتهى .

ولا نريد ان نعلق على المفارقات التي جـاءت في سياق النص لان الذي يعنينا منه هو ما تضمنه من اعتراف صريح نسبه كاتب الاصحاح للسيدة (سارّة) زوج ابراهيم وام اسحق الذي ادعى عليه كتّاب الاسفـار انه الولد الوحيد الذبيح فالنص الذي بين ايدينا يؤكد ان ام اسحق لم تحبـل باسحق قبل أن تحبل وتلد ام اسماعيل باسماعيل ، وحـين ولد اسحق كان ذلك بعد فترة طويلة قصتها كتاب سفر التكوين بعد ذلك بغير قصد منهم في تقرير الحقيقة هذه الفترة امتدت اكثر من ثلاثـة عشر عاماً وذلك منذ ولدت ام اسماعيل اسماعيل فمن من الولدين لابراهيم عليه السلام يصح أن يطلق عليه صفة الولد الوحيد لأبيه : اسماعيل ام اسحق ؟ نعتقد انه بكل معايير الحق والعدل والانصاف وهي ادوات النبوة في عملهـا بين الناس ، هو ان اسماعيل دون اسحق (عليهما السلام) هو الولد الذي يصح ان يطلق عليه بأنه كان فترة من عمر ابيه ابراهيم بكره ووحيده وقد كان يطلق على اسماعيل بالفعل لفظة (ابن ابراهيم) فقد جاء في الفقرات رقم ٢٣ — ٢٦ من الاصحاح السابع عشر في سفر التكوين وبالنص (فأخذ ابراهيم اسماعيل ابنه وجميع المبتاعين بفضته كل ذكر من اهل بيت ابراهيم وختن لحم غرلتهم في ذلك اليوم عينه كما كلمه الله وكان ابراهيم ابن تسع وتسعين سنة حين ختن في لحم غرلته ، وكان اسماعيل ابنه ابن ثلاث عشرة سنة حين ختن في لحم غرلته ، في ذلك اليوم عينه ختن ابراهيم واسماعيل ابنه ، وكل رجال بيته) انتهى .

وامام هذا النص الصريح في نسبة الولد اسماعيل لابيه ابراهيم مذكوراً ومدوناً في نص السفر انه ابن ابيه ثلاث مرات لا يعنينا كثيراً هنا أن نعلق

او نناقش علماء اللاهوت فيما اذا كانت هاجر ام اسماعيل جارية زالت عنها العبودية بالزواج من ابراهيم عليه السلام او بانجابها لاسماعيل ، لكن الذي يعنينا وهو أمامنا لا يقبل التأويل هو ذلك الاعتراف الصريح بأبوة ابراهيم لاسماعيل ، وبنوة اسماعيل لأبيه ابراهيم ، يضاف إلى النص هذا الموقف الذي بين ايدينا من قبل في الاصحاح السادس عشر من سفر التكوين الذي يعترف بعقم السيدة سارة وبأنها لم تحبل قبل حبل ام اسماعيل باسماعيل وولادتها له ، هذا وآخر عبارة في الإصحاح السابع عشر تقول (وكان ابراهيم ابن ست وثمانين سنة لما ولدت هاجر اسماعيل لابرام) والبشارة بالولد الثاني اسحق لم تتم إلا حين بلغ ابرام كما تقول الفقرات الاولى من الاصحاح السابع عشر تسعاً وتسعين سنة كان في هذه الفترة من سن ابراهيم في الست والثمانين حتى سنة في التسع والتسعين طوال ثلاثة عشر عاماً اسم اسماعيل معروفاً ومتداولاً وكما تقول الفقرة رقم ١٨ من الاصحاح السابع عشر في سفر التكوين : (وقال ابراهيم لله ليت اسماعيل يعيش أمامك ، فقال الله بل سارّة امرأتك تلد لك وتدعو اسمه اسحق) .

وعلى ضوء هذه التقريرات التي انتهينا اليها وأمام كل هذه البراهين والدلائل وهي على هذا المستوى من الكثرة الكثيرة تؤكد بكورية اسماعيل وسبقه على اخيه في الولادة وبأنه الولد الوحيد الذي يصح أن تطلق عليه هذه الصفة بالنسبة لابيه طوال فترة ثلاثة عشر عاماً ، فما الذي جعل كاتب سفر التكوين في الإصحاح الثاني والعشرين يحمل صفة الولد الممتثل لربه في قصة الشروع في الذبح الوحيد لأبيه اسحق دون صاحب هذه الصفة الحقيقي بها والتي لا تنطبق على سواه .

هذا .. ونحن أن نقرر انه لو كان الأمر بالذبح بعد بلوغ اسماعيل سن الرابعة عشر وولادة اسحق ، لما كان احدهما وحيداً لابيه ولا يصح الوصف على الولد الممتثل للذبح بهذا الوصف وهذه الصفة التي لا معنى لها لانه لم يعد

أي واحد منهما وحيداً لابيه ، ولو كان الشروع في الذبح بعد امر الاله قبل بلوغ اسماعيل الثالثة عشر أعني قبل ميلاد اسحق ، فالذي لا جدال فيه هو ان الولد الوحيد اسماعيل لا اسحق ، ولا مكان ابداً للغط وغلو وعنصرية القائلين بأن هذا ابن حرة وذاك ابن جارية ففي منطق النبوة وهدايتها لا يستقيم هذا التقسيم العنصري بين الناس ، ونحن نرجح ان الأمر بالذبح وابتلاء الله تعالى لابراهيم بهذا الاختبار كان قبل ميلاد اسحق ، وعلى ذلك فالولد الوحيد الذي يحبه ابراهيم وامره ربه بأخذه إلى أرض المريا هو اسماعيل لا اسحق ويصبح النص الذي جاء في الفقرة الثانية من الاصحاح الثاني والعشرين من سفر التكوين هكذا (فقال خذ ابنك وحيدك الذي تحبه اسحق واذهب إلى أرض المريا واصعده هناك محرقة على أحد الجبال الذي اقول لك) .

كما ويصبح النص الذي ورد على ان الوحيد اسحق في الفقرة رقم ١٢ من نفس الاصحاح والتي تقول : (فقال لا تمد يدك إلى الغلام ولا تفعل به شيئاً لاني الآن علمت انك خائف الله فلم تمسك وحيدك عني) كلاهما ملعوب فيه ومحرّف ومدسوس عليه وقد تم وعلى ضوء هذه البراهين التي سقناها رفع اسم الولد الوحيد المحبوب اسماعيل صاحب هاتين الصفتين بالادلة التي أتينا عليها من الإصحاحات نفسها ووضع بدلاً من اسمه اسم أخيه اسحق الجد الأعلى لمن دونوا هذه الاسفار وكتبوها ونقلوها وترجموها محرّفة عبر الف عام على الاقل حتى انتهت الينا اليوم على ما هي عليه من زيف وتحريف .

ويبقى لنا حول أبي الانبياء عليه السلام في رؤية العهد القديم ذلك التساؤل البسيط الذي طالما نجابه به كاتب الاسفار وهو : اين النبوة وعملها ومجالها بل اين مضمونها على يد ابي الانبياء في العهد القديم ، فلا يطالعك بغير تلك المفتريات والأكاذيب التي نسبها إلى خليل الرحمن وابي كل الأطهار ، صلوات الله وسلامه عليهم .

الفصل الثالث

لوط والنبوة في العهد القديم

سفر التكوين في الاصحاح الحادي عشر يخبر عن سلسلة نسب لوط عليه السلام ، وانه ابن هاران بن تارح الذي ولد له ابراهيم وناحور وحاران ، أي ان أبا الانبياء ابراهيم عليه السلام عم لوط ، وعصر لوط يصبح هو عصر ابراهيم ، وحين ابتدأ ابراهيم عليه السلام في سن الخامسة والسبعين كما يقص الاصحاح الثاني عشر من سفر التكوين رحلة الهجرة من أرضه وعشيرته ومن بيت ابيـه الى الارض التي أمره الله بالتوجه اليها كان معه لوطاً عليه السلام . والفقرة الخامسة من الاصحاح الثاني عشر من سفر التكوين تقول :(فأخذ ابرام ساراي امرأته ولوطاً ابن اخيه وكل مقتنياتهما التي اقتنيا والنفوس التي امتلكا في حاران).

ويبدو من سياق الاصحاح الثالث عشر من نفس السفر ان لوطاً عليه السلام كان مع أبي الانبياء في الرحلة الى مصر ، ورافقه كذلك في رحلة العودة من مصر لكن كاتب الاصحاح يحدثنا عن مشادة وخلاف قـام بين رعاة ابراهيم ورعاة لوط طلب على أثره ابراهيم من لوط ان يتجه كل واحـد منهما عكس الآخر حتى لا تحدث مخاصمة بينهما ، واختار لوط دائرة الاردن شرقاً ونقل خيامه الى قرية (سدوم) التي كان اهلها اشراراً وخطأة لدى الرب على حد

تعبير كاتب الاصحاح ، اما ابراهيم عليه السلام فاختار ارض كنعان ، لكن الاصحاح الرابع عشر يحدثنا عن اخبار تقول ان ملكاً بالمشرق عمل حرباً مع اهـل سدوم وملكها وأخـذ جميع امـلاك سدوم وعمورة وجميع اطعمتهم ومضوا وايضاً اخذ لوطاً واملاكه وكل من كان معـه ، لكن الأنباء السيئة هذه على سدوم تصل الى ابراهيم ، فيجهز على الفور جيشاً من المتمرنين قوامه على حد ما يزعم كاتب الاصحاح الثاني عشر اكثر من ثلاثمائة ، ولست ادري لماذا لم يبالغ في هذا العدد ويوصله الى عشرات ومئات الألوف كما يفعل باقي كتّاب الاسفار حين يتناولون بالحديث اخبار جيش اسرائيل ويهوذا وخاصة حين يحرزون نصراً او يحققون أملاً،وانطلق ابراهيم على رأس الجيش وانقض على الجيش الذي خرّب سدوم واسترجع كل الاملاك واسترجع لوطاً ابن اخيه واملاكه . وهنا في هذه الواقعة يرينـا كاتب سيرة لوط عليه السلام النبي ابراهيم وهو أشبه ما يكون بزعيم قبيلة او قائد جيش يستطيع ان يردّ العدوان وان يحمي داره واهله .

وهذه هي الملامح العامة التي ابتدأت بها سيرة لوط في تراث العهد القديم فماذا عن النبوة والرسالة الدينية على يديه في منهج كتّـاب العهد القديم فيما سجلوا ودوّنوا على انبياء الله ؟

يخبر الاصحاح الثامن عشر من سفر التكوين ان الله اخبر ابراهيم بأنـه سيهلك اهل سدوم بسبب معاصيهم ومآثمهم وانه من اجل تحقيق عفو إلهي دخل ابراهيم كما قص الاصحاح الثامن عشر وادعى في حوار مع ربه طالبـاً منه ان لا يهلك البار مع الأثيم عسى ان يكون في المدينة عدداً من الرجال الأبرار حدده كاتب السفر بخمسين رجلاً لكن كاتب الاصحاح ينقل لنا بعض هذا المشهد الذي ادعاه حواراً بين ابراهيم وربّه بأن ربّـه أخبره لو وجد ذلك العدد فسيعفو عن المدينة كلها ويدخلنا كاتب الاصحاح في رواية متأثرة بتراث المساومة والمراوغة في أخلاق شعب اسرائيل ذلك انه يعرض موقفـاً بين ابراهيم وربه يدور حول مساومات تنتهي بأن يخبر رب ابراهيم انـه او

وجد عشرة ابرار في المدينة فلن يهلك الجميع من اجل العشرة ، لكن يبدو من نهاية الاصحاح الثامن عشر وسياق الاصحاح التاسع عشر انه لم يوجد في سدوم عشرة رجال ابرار ، ولذا يطالعنا كاتب الاصحاح التاسع عشر بنقل المشهد الحواري بين ابراهيم وربه الى سدوم الى لوط عليه السلام باعتبار انه الساكن المقيم في سدوم، ويحدث الاصحاح عن ملكين جاءا الى لوط فوجداه جالساً على باب المدينة فقام لاستقبالهما ، وسجد لهما ، وألح عليهما ان يبيتا عنده ويغسلا ارجلهما ويستريحا ، ثم يبكران ويذهبان في طريقهما وأمام إلحاحه عليهما كما نقل عنه وصوّر كتّاب التراث في الاصحاح التاسع عشر من سفر التكوين ودخلا بيته، لكن الشعب المشاغب في سدوم أحس بقدوم رجلين غريبين الى بيت لوط ، وعلى ضوء رواية الاصحاح التاسع عشر أحاط رجال المدينة جميعاً من الحدث الى الشيخ يريدون ان يعرفوا اخبار الرجلين اللذين دخلا بيت لوط والى هنا في تسلسل الحوادث وسياقها قد يكون الأمر متصوراً او معقولاً لكن كاتب الاصحاح في الفقرات رقم ٦ — ٨ يطالعنا بما لا يستقيم مع خلق او قيم او وظيفة رجل هو نبي وعمه الذي يهب لنجدته ويضرب الجيوش هو كذلك نبي ذلك ان كاتب الاصحاح التاسع عشر في الفقرات رقم ٦ — ٨ الذي يقص هذا المشهد يقول ناسباً ذلك الافتراء والفحش الذي يقصه الى نبي من انبياء الله وحاشى لنبي من انبياء الله ان يقع في فحش كذلك الذي يتهم به كتّاب الاسفار انبياء الله : (فخرج اليهم لوط الى الباب ، وأغلق الباب وراءه ، وقال لا تفعلوا شراً يا اخوتي هوذا لي ابنتان لم تعرفا رجلا اخرجهما اليكم فافعلوا بهما كما يحسن في عيونكم) .

ونحن نتألم كثيراً امام هذا المشهد الذي قد قد لا يقع ابداً في مجتمعات بدائية ولا تنحني امام هول اعنف المواقف واشدها خطورة عاطفة ورجولة أب فيدفع ببناته الى هذه المهانة ، ثم يجيء كاتب الاصحاح التاسع عشر في سفر التكوين وينسب موقف كهذا تنعدم فيه رجولة الرجل الى نبي الله لوط عليه السلام ، وأما رد الفعل العنيف والصاخب من قبل الشعب الذي لم يقبل

العرض الذي قدمه لوط للثائرين عليه أورد كاتب الاصحاح اخبار تدمير القرية (سدوم) وابادتها بيد الرجلين الذين لم يكونا غير ملكين ارسلهما الله لاهلاك القرية ، وقد انجى الله لوطاً وابنتاه وصعد الى الجبل وفي رواية كاتب الاصحاح اختار في الجبل مغارة ليقيم فيها ومعه ابنتيه، وعند الفقرة ٣١ من الاصحاح التاسع عشر في سفر التكوين فان المرء يقف كثيراً منبهراً مبهوتاً بل منقطع الانفاس امام مفتريات النصوص وزيفها منبهراً من الزعم الفاسد بأنه امام ما أوحى الله به الى كتّاب العهد القديم ومسجليه ذلك ان كاتب الاصحاح التاسع عشر في الفقرة رقم ٣١ يجرّد نبياً من انبياء الله من أبسط قواعد الفطرة الإنسانية ، ويجرده من وعيه كإنسان في محنة ساقها الله اليه وأنجاه منها ويجرده من رشده الذي يقترن دائماً بفراسة النبوة وإلهامها ، ان كاتب الاصحاح التاسع عشر من سفر التكوين في الفقرة رقم ٣١ يسقي النبي لوطاً خمراً ، ولم يقل من اين احضروها ومن الذي صنعها ولِمَ بقيت في ايديهم والمدينة قلبت رأساً على عقب ، وبعد ان اشرب كاتب الاصحاح نبي الله لوطا الخمر على يدي ابنتيه الصغرى والكبرى زعم المصنف الآثم ان الرجل دخل في غيبوبة السكر ولم يعد يدري شيئاً مما حوله ، ثم نفاجأ بما اورده كاتب الاصحاح عن خطة ابنتي لوط مع ابيهما تنفتذ في هذا الجو وذلك الحال الذي كان عليه لوطاً عليه السلام وأي شيء تكون هذه الخطة في منطق كاتب سيرة الرجل تراث اسرائيل ، الرجل الذي شاخ يقول الكاتب وطعن في السن كما يقول الكاتب ناسباً ذلك لإحدى الفتاتين حين أسكر أصبح الوقت مناسباً فيما يرى كاتب السفر ويدعي لكي تقوم الفتاة البكر الكبرى الى أبيها وتضطجع معه لتنجب منه ، ولا يخجل كاتب الاصحاح من ان يكرر المشهد القبيح في الغد مع الفتاة الصغرى التي اضطجعت هي الأخرى مع ابيها ثم يسوق الكاتب غباءه وغيبوبته في فهم النصوص ودلالتها فيقول : ولم يعلم لوط باضطجاعهما ولو بقيامهما ومع ذلك اضطجعت معه الفتاتان وحبلت

البنتان في ابيهما ودعت البكر ابنها (موآب) والثانية ايضاً حبلت وولدت ولداً ودعت اسمه (بن عمي) .

ولم يتقن الكاتب زيف مسرحيته الرخيصة التي دوّن بهـا ذلك الإثم على واحد من انبياء الله الاطهار ويسوق اخبار ولادة واحـدة من الفتاتين لولد والأخرى لبنت ليتزوج الولد من البنت وليصبحا مصدراً لسلسلة من الآباء والابناء تحمل خصائص هـذه المفتريات التي نسبها الكاتب الى نبي الله لوطاً عليه السلام ولكنه استهدف بهذا الإثم فرعاً آخر من الشعوب غير الاسرائيلية التي تعيش في المنطقة وأراد بذلك ان يطعن في سلسلة نسبها وعرضها ، ولننظر الى ما سجله كاتب الاصحاح التاسع عشر من سفر التكوين ومن فقرات رقم ٣٠ – ٣٨ وهو يقول : (وصعد لوط من صوغر وسكن في الجبل وابنتاه معه لأنه خاف ان يسكن في صوغر ، فسكن في المغارة هو وابنتاه وقالت البكر للصغيرة أبونا قد شاخ وليس في الارض رجلا يدخل علينا كعادة كل الارض : هلم نسقي أبانا خمراً ونضطجع فنحيي من أبينا نسلا فسقتا أباهما خمراً في تلك الليلة ودخلت البكر واضطجعت مع أبيها ولم يعلم باضطجاعها ولا بقيامها ، وحدث في الغد ان البكر قالت للصغيرة اني قد اضطجعت البارحة مع أبي ، نسقيه خمراً الليلة ايضاً فادخلي اضطجعي معه فنحيي من أبينا نسلا ، فسقتا أباهما خمراً في تلك الليـــلة ايضاً ، وقامت الصغيرة واضطجعت معه ولم يعلم باضطجاعها ولا بقيامها فحبلت ابنتا لوط من أبيهما، فولدت البكر ابناً ودعت اسمه (موآب) وهو ابن الموآبيين الى اليوم والصغيرة ايضاً ولدت ابناً ودعت اسمه (بن عمي) وهو ابو بني عمون الى اليوم) انتهى .

ونحن هنا بعد ذلـك وبعد ان أتينا على النص الـذي قدمنا له علينا ان نسأل كاتب الزيف هذا اين النبوة والرسالة الإلهية التي كانت على يد لوط نبي الله عليه السلام والتي دفعت الكتّاب والنساخ لكي يدوّنوا اسمه في سجلات ومأثورات وتراث العهد القديم في تاريخ بني اسرائيل ، بالقطع لم نرَ جواباً

شافياً يقدّم برهاناً او انموذجاً لعمل الرسالة الإلهية في الناس على يد واحد من انبياء الله تناولهم العهد القديم بشيء من الدراسة والتفصيل، لن نجد غير ذلك السرد التاريخي القصصي البعيد تماماً عن تأثيرات النبوة وعملها (سرد تعلق بأخبار رحلة الخروج مع أبي الأنبياء الى مصر والعودة منها ثم استقراره في سدوم الآثمة حتى اهلاكها، وذلك بعد الخلاف الذي وقع بين رعاته ورعاة عمه ولم يتم حسم الموقف بين رعاة النبيين فآثر كل منهما على حد ما زعم كاتب سيرتهما ان ينفصلا وان يفترقا بعد ان لم ينجحا في خلق جو من الوئام والمحبة بين الرعاة الذين يأتمرون بأمرهما ، وكأن الكاتب يريد ان يقول لنا ضمناً أن كلا من الرجلين النبيين الكريمين ولوط لم يحقق عملا يقوم على توجيه النبوة وتأثيرها في الناس بعد ذلك المشهد العاجز الذي قصه كاتب السفر عن موقف الرجلين أثر الخلاف الذي تفجر بين الرعاة ولم يستطع أي من الرجلين ان يحسمه وانتهى بهما الى ذلك القرار الذي نسبه كاتب سفر التكوين الى ابراهيم عليه السلام بأن يتجه كل منهما جهة غير التي يتجهها الآخر ثم جاء بعد ذلك كاتب سيرة عليه السلام ليختم لنا حياة ذلك النبي الكريم على الله بذلك الإثم الذي ادعى كاتب سفر التكوين ظلماً وعدواناً أن نبي الله عليه السلام قد وقع فيه ومع ابنتيه — خمراً وزناً — وباليقين نبي الله أبعد ما يكون عن هـذا الإثم وأطهر وأعظم من عقل وفكر كاتب اسفار العهد القديم الذي وقـع ووقع الشعب الذي ينتمي اليه قبـل السبي وبعده في الإثم والخطيئة والمعصية وحين كان التدوين والتسجيل راح الكتّاب ليخلعوا على أنبياء الله ورسله تلك المآثم والموبقات وهم بحكم النبوة وعصمتها اطهر وأبرأ وانظف من كل تلك المآثم التي خلعها كتّاب العهد القديم على أنبياء الله ورسله .

هذا.. وتعتبر رواية العهد القديم في سفر التكوين بهذا الإثم الذي ألصقته بواحـد من انبياء الله من ابشع وافحش الروايات والقصص التي تنسج تهماً ومفتريات وتخلعها على النماذج العظيمة من البشر .

وفي التعليق على هذه الواقعة المفتراة على نبي الله لوط عليه السلام يقول احد أحبار اليهود الذين أنار الله قلوبهم للاسلام : (فمن افحش المحال ان يكون شيخ كبير قد قارب المائة سنة قد سقي الخمر حتى سكر سكراً حال بينه وبين معرفة ابنتيه فضاجعته إحداهما واستنزلت منيّه وقامت عنه وهو لا يشعر كما نطق كتّابهم وهذا حديث من لا يعرف الحبل لأنه من المحال ان تعلق المرأة من شيخ طاعن في السن قد غاب عن حسّه لفرط سكره . ومما يؤكد استحالة ذلك انهم زعموا ان ابنته الصغرى فعلت به كذلك في الليلة الثانية فعلقت ايضاً ، وهذا ممتنع من المشايخ الكبار ان تعلق المرأة من احدهم في ليلة وتعلق منه ايضاً الأخرى في الليلة الثانية إلا ان العداوة التي كانت بين بني عمون وموآب وبين بني اسرائيل بعثت واضع هذا الفصل على تلفيق هذا المحال ليكون أعظم الاخبار فحشاً في حق بني عمون وموآب)[1].

وبعد ذلك لا نريد ان نعلق بقليل او كثير على ذلك العدوان والإثم الذي نسبه كتّاب العهد القديم لواحد من انبياء الله هو أبعد ما يكون عن الوقوع فيه فضلاً عن تغييبهم واخفائهم معالم وملامح كل ما يمكن ان يكون على يديه من عمل النبوة وهدايتها بين الناس .

(١) (السموءل بن يحيي بن عباس المغربي) في كتابه (بذل المجهود في افحام اليهود) تقديم محمد أحمد الشامي - مكتبة الجهاد الكبرى القاهرة - صفحتا ٤٩ - ٥٠ بدون تاريخ .

الفصل الرابع

النبوة على يد اسحق في العهد القديم

يرى نبي الله اسحق عليه السلام في العهد القديم من خلال ذلك المنظار التقليدي الذي نظر به كتّاب العهد القديم النبوة والرسالة الدينية على يد الأنبياء على انها وظيفة اجتماعية او زعامة سياسية يتغير مضمونها على ضوء كل ظرف وفي ظل كل مرحلة لا تحكمها ضوابط العلاقات التي تكون بين الله وبين عبده النبي الذي جعله بالنبوة بين عباده انموذجاً للخير والفضيلة ساعياً بينهم بالمحبة والأمن وعاملاً بالحسنى وداعياً إلى البر .

وتطالعنا اخبار اسحق في الاصحاح الخامس والعشرين من سفر التكوين وهي لا تتناول شيئاً عن حياته قبل سن الاربعين فلا اخبار تتعلق بالنبوة وارهاصاتها ولا براهين تدل على تلقيه وحي ربه واقتدائه بسيرة أبيه بل كما جاء في السفر الذي تحدث عنه تراث العهد القديم انه اتخذ لنفسه زوجة لم تنجب قبل الستين واثناء هذه العشرين عاماً التي قضاها اسحق حتى رزق الذرية اهتم كاتب سيرته في الاصحاح السادس والعشرين بحادث (ابيمالك) ملك جرار في فلسطين مع زوج اسحق (رفقة) التي همّ بالاضطجاع معها بعد ذلك القول الذي نسبه كاتب السفر لاسحق وهو انه قال لأبيمالك عن

انهـــا اخته ، كما أبرز الاصحاح السابع والعشرون اخبار شيخوخة اسحق وإنجابه ولديه عيسو ويعقوب من السيدة رفقة وتعلقه بولده عيسو دون يعقوب وتعلق رفقة بيعقوب دون عيسو الأمر الذي ترتب عليه حدوث مؤامرة في هذا البيت بطلاها يعقوب ورفقة أمه ضد اسحق حتى يتم لها نزع البركة التي كانت مدخرة لعيسو الذي ذهب ليصطاد لأبيه طعامـاً فيـأكله وجبة شهية فيباركه اسحق بعدها وينهي الاصحاح الثامن والعشرون اخبار اسحق قبيل موته برحلة يعقوب ابنه إلى أحد اخواله وبانطلاق عيسو في البرية حتى التقيا وتصافحا بعد عشرين عامـاً عند كاتب الاصحاح الثلاثين من سفر التكوين وطوال كل هذه الأخبار والمرويات وتتابع الاحداث التي فاضت بها اصحاحات سفر التكوين التي قصت علينا انبـاء اسحق لم نعثر للنبوة وهدايتها وعملها في حياة اسحق ومَن حوله من الناس على أدنى أثر، مع ان التراث الاسرائيلي تناول سيرته على انه الذبيح الذي ادعوه ، والبكر الذي وصفوه ومع ذلك لم تسعفهم الذاكرة في ان ينسبوا اليه بعض الوصايا والعظات أو أن ينقلوا من سيرته بعض المواقف والقيم التي تتفق وجـلال مقامـه كنبي كريم ابن نبي أكرم .

الفصل الخامس

عصمة النبي يعقوب في العهد القديم

في البداية كما سجل عليه اثماً وعدواناً كاتب سفر التكوين في الاصحاح السابع والعشرين فقرة ٣٦ فانه بهذا الزعم طارده اخاه عيسو حتى وهو في البطن ثم طارده كبيراً حتى سرق بركته من ابيه وهرب : (ألا أن اسمه دعى يعقوب فقد تعقبني الآن مرتين اخذ بكوريتي وهو ذا الآن قد اخذ بركتي) . بهذه البداية المزعجة والمؤسفة والتي يبرز فيها الجانب الاسطوري اكثر من الرؤية الدينية بل يلغيها تماماً يرينا كاتب سفر التكوين النبوة ومقدماتها كيف تكون عند كتّاب الاسفار المقدسة وفي منهجهم العجيب فيخبرنا كاتب سفر التكوين وهو كاذب فيما اخبر به أن نبي الله يعقوب بعد ان هرب بالبركة من وجه اخيه بناء على نصيحة امه عند خاله في فدان آرام ظل يعمل اربعة عشر عاماً اجيراً من اجل الزواج بابنتي خاله (راحيل وليئة) ، وبعد ان تزوج بعدد من النساء هن بنات خاله كان خاله لابان لا يزال على وثنيته يعبد الاصنام التي سرقت بعضها ابنته راحيل اثناء هروبها مع زوجها يعقوب من ابيها الذي ظلم زوجها الاجر ، وطوال كل قصص كاتب سيرة يعقوب في اصحاحات سفر التكوين لم نشاهد طوال فترة مديدة من عمر يعقوب اي اثر للنبوة خاصة وان يعقوب يحمل عند كتاب الاسفار (البركة

المسروقة من عيسو والتي اشبه مـا تكون بالحرز مع ابيه اسحق ، ولم يكن اثر النبوة التي يقصها علينا كاتب سفر التكوين على اي مستوى من المستويات اخلاقياً او روحيـاً بحيث تترك بصماتها على الناس ، فاولاد يعقوب في الرؤية القصصية التي اخبرنا عنهـا كتاب العهد القديم كانوا في زعـم كاتب الاسفار بالحال الذي تعرضنا له عند الحديث عنهم في الصفحات السابقة ، فيهوذا الولد الرابع يخرج إلى الطريق في احد المشاهد التي أرانا إياها كاتب الاسفار مـا ان يقابل امرأة قد غطت وجهها حتى يناديها للزنا والاضطجاع معها ، تقول الفقرتان ١٥ — ١٦ من الاصحاح الثامن والثلاثين (فنظر يهوذا وحسبها زانية لأنها كانت قـد غطت وجهها فمال اليها على الطريق وقال هاتي ادخل عليك لأنه لم يعلم أنها كنته) وابنة يعقوب (دينة) من المرأة القبيحة (ليئة) مع كثرة اخوتها وسمعة ابيها وكل هذه معاني كانت ذات اهمية في المجتمع البدوي الذي يحل ويرتحل كهذا المجتمع الذي يحدثنا عنـه كتاب الاسفار ومع ذلك فكاتب الاصحاح الرابع والثلاثين من سفر التكوين في الفقرات الاولى يخبرنا أنـه (خرجت دينة ابنـة ليئة التي ولدتها ليعقوب لتنظر الارض ، فرآها شكيم بن حمور الحيوي رئيس الارض فأخذها واضطجع معها وأذلها) .

والاولاد الاحد عشر من ابناء يعقوب ينتهي بهم الخلق الذي كان المتصور منه انه الانموذج الامثل والاكمل لكل معاني الخير والبر إلى ان يفاجئنا عنهم كاتب الأصحاح السابع والثلاثين ، بما قصه من اخبار تآمر الاولاد على صغير يلبس قميصاً ملوناً لأنهم رأوا منه بعض امور لم ترق لهم ولم يعجبوا بها ، ومن عجب ان هذه الأمور كانت تتصل بالنبوة كل ذلك في سيرة رجال العهد القديم يجعلنا نسأل ، اين النبوة من اصحابها واقرب الاقربين اليهـا في لغة واخبار ومرويات العهد القديم ، اين النبوة بمضمونها وأثرها وتأثيراتها على يد نبي مثل يعقوب عليه السلام هو نبي ابن نبي ابن نبي لم يعرفه نسّاخ تراث الخطيئة والمعصية في تراث اسرائيل الا بذلك النمط البعيد تماماً عن روح النبوة وكالها الاسمى في التوجيه وعمل الاخلاق فضلاً عن العلاقة بالله رب العالمين .

الفصل السادس

يشوع بن نون في العهد القديم

يشوع بن نون يكاد ينعقد الاجماع الاسرائيلي حوله على انه واحد من كبار انبياء بني اسرائيل ويضعونه في الأهمية والترتيب كما هو في الاسفار بعد موسى عليه السلام خليفة له ، وليشوع سفر في العهد القديم يحمل اسمه ، وان لم يكتبه بنفسه كما سبق لنا القول بذلك عند التعريف بسفره ، ولهذا السفر الذي يحمل اسم يشوع اهمية كبرى عند اليهود وشرّاح اللاهوت ، حتى اعد بعضهم التوراة ستــة اسفار لا خمسة ليلحق سفر يشوع بالتكوين والخروج واللاويين والعدد والتثنية اسفار التوراة الخمسة المنسوبة لموسى عليه السلام ، وهذا الرجل على ضوء ما تحدثت عنه الاسفار وخاصة سفره كان من الانبياء او من الرجال الذين طوروا مفهوم النبوة في اسرائيل من مستوى تلقي الحكمة والتفوه بهـا ، إلى ممارسة القيادة السياسية والعسكرية للجماعة التي سيكون بينها هذا النبي .

وفي هــذا يطالعنا السفر المنسوب إلى يشوع في الاصحاح الاول بأخبــار صريحة ومحددة تدور حول اهمية الدور الذي وكل إلى يشوع بعد موت موسى ولأهمية هذا الدور فان كل ما طلب اليه القيام به من عمل بالشريعة او دعوة لعبور الارض ودخول الاردن ، اقترن بذلك العون الإلهي ، الذي عبرّ عنه

كاتب السفر بقوله في الفقرة رقم ٩ في الاصحاح الاول (لا ترهب ولا ترتهب لان الرب الهك معك حيثما تذهب).

ونعتقد انه بهذه المقدمة الموجزة عن يشوع بن نون نصبح على ضوء رواية العهد القديم امام نبي من انبيائه بل امام خليفة النبي موسى عليه السلام فماذا عن النبوة وملامحها ومعالمها ومجالاتها على يديه وعلى ضوء ما اخبر كتاب العهد القديم خاصة وأننا في هذا الباب نبحث عنها على يدي انبياء اسرائيل فيما قص العهد القديم عنها وعن عصمة انبياء الله عليهم السلام بهديها وتوجيهها.

يطالعنا كاتب الاصحاح الثاني من سفر يشوع بأخبار اول مهمة اوكلت إلى يشوع وهي تعبئة الشعب ودعوته لعبور الاردن، فالفقرات الاولى من الاصحاح الاول من سفره حملته هذا المطلب ونسبته إلى امر إلهي إذ تقول: (وكان بعد موت موسى عبد الرب ان الرب كلّم يشوع بن نون خادم موسى قائلاً: موسى عبدي قد مات، فالآن قم اعبر هذا الاردن، انت وكل هذا الشعب إلى الارض التي انا معطيها لهم اي بني اسرائيل). وامام ضرورة الاسراع بالتنفيذ، اراد يشوع فيما نسب اليه كاتب الاصحاح الثاني ان يدخل الاردن من اوسع الابواب وبدون مقاومة فماذا فعل نبي العهد القديم خليفة النبي موسى عليه السلام، فعل كما يقول الاصحاح الثاني من سفر يشوع الآتي: (فأرسل يشوع بن نون من شطيم رجلين جاسوسين سراً قائلاً: اذهبا انظرا الارض — وأريحا، فذهبا ودخلا بيت امرأة زانية اسمها (راحاب) واضطجعا هناك). وعلى ضوء هذه الرواية حين جاءته عن طريق هذه المرأة الزانية اخبار المدينة المزمع اقتحامها ومقاومة شعبها لم ينكر على الرجلين ما فعلا بل انه كما قص الاصحاح السادس في الفقرتين ٢٢ — ٢٣ قد طلب من الرجلين الذين تجسسا الارض بعون من المرأة الزانية ان يتوجها اليها لانقاذها من الاذى او الاسر وكذلك لانقاذ كل ما يتصل بها من اهل او اقارب تقول الفقرتان ٢٢ — ٢٣ من الاصحاح السادس (وقال يشوع للرجلين الذين تجسسا الارض ادخلا بيت المرأة الزانية واخرجا من هناك المرأة وكل ما لها كما حلفتما

لها ، فدخل الغلامان الجاسوسان واخرجا (راحاب) وأباها وامها واخواتها وكل مالهـــا واخرجا كل عشائرها وتركاهم خارج محلة اسرائيل واحرقوا المدينة بالنار مع كل ما بها) .

وعلى ضوء ما في السفر فانه بعد احتلال اريحا بخيانة عاونت على نجاحها راحاب الزانية اذ اطلعت الجاسوسين على عورات الارض والناس ، وقبل ان يحرقها يشوع علا صوت المسجل التوراتي بفضل راحاب فيما نسبه من قول إلى يشوع يقول مصنف الاصحاح السادس من سفر يشوع فقرات ١٢ – ١٨ (فبكر يشوع في الغـــد وحمل الكهنة تابوت الرب والسبعة الكهنة الحاملون ابواق الهتاف ، السبعة امام تابوت الرب سائرون سيراً ، وضاربون بالابواق والمتجردون سائرين امامهم ، والساقة سائرة وراء تابوت الرب ، كانوا يسيرون ويضربون بالابواق وداروا بالمدينة في اليوم الثاني مرة واحدة ثم رجعوا إلى المحلة ، هكذا فعلوا ستة ايام ، وكان في اليوم السابع انهم بكروا عند طلوع الفجر ، وداروا دائرة المدينة على هذا المنوال سبع مرات ، في ذلك اليوم فقط داروا دائرة المدينة سبع مرات ، وكان في المرة السابعة عندما ضرب الكهنة بالأبواق ان يشوع قال للشعب ، اهتفوا لأن الرب قد أعطاكم المدينة ، فتكون المدينة وكل ما فيها محرماً للرب ، راحاب الزانية فقط تحيا وهي وكل من معها في البيت لأنها قد خبأت المرسلين الذين ارسلناهما) .

وهكذا حتى في قمـة الفرح والزهو باحتلال المدينة ووسط اقامة الشعائر التي يتحدث عنها كاتب السفر لم ينس ان يدون على لسان يشوع فضل الزانية على الشعب الذي دخل الارض) .

هذا ... وقد استغرقت اخبار الحروب واحتلال البلدان ومقاومة سكانها للعبرانيين معظم مرويات واخبـار وقصص سفر يشوع : فالحرب والتدمير والجاسوسية واستحياء الزناة مـا داموا يقومون بعمل يتعلق بالغزو ، وغير ذلك من دروب العدوان سمة بارزة في لغة سفر يشوع ، اما ملامح النبوة الدينية

وهداية الرسالة الإلهية فتكاد تختفي تماماً اللهم الا من بعض الشذرات الخفيفة: فقال الرب ليشوع ، وكلم يشوع الرب ، الرب الهك معك . وبعض الطقوس الدينية المتعلقة ببناء مذبح في جبل (عيبال) كما جاء في الفقرات ٣٠ — ٣٢ من الاصحاح التاسع من سفر يشوع والمتضمنة أخبار نسخ نسخة من توراة موسى التي كتبها امام بني اسرائيل ثم قام يشوع بنسخ نسخة منها لم يحدد لنا الكتاب بعد ذلك مصير النسختين وأي منهما التي كان يعتمد عليها إلى غير ذلك من الاخبار والمرويات التي لا تقوم سنداً او برهاناً على حدوث أثر اخلاقي او روحي او اجتماعي للنبوة وهدايتها على يد يشوع بن نون على ضوء ما قدم الينا سفره سيرته وعلى ضوء ما انتهى الينا في اخبار العهد القديم . ان الكلمات المنسوبة اليه في الاصحاح التاسع من سفره في الفقرة رقم ٨ وهو يوجه جيشه إلى ان يحرق المدينة التي يحاربها بالنار لأنه هكذا في زعم الكاتب امره الرب على لسانه لا تزال وحتى اليوم تمثل معنى عدوانياً في لغة كتب العهد القديم وهي وان خفت حدتها وهدأت نبرتها في بعض المواقف فانه سرعان ما يعود على ضوء النصوص عنيفاً ومدمراً مثلما هو بالشكل الذي بين ايدينا ، تقول الفقرتان ٨ — ٩ من الاصحاح الثامن من سفر يشوع : (ويكون عند أخذكم المدينة انكم تضرمون المدينة بالنار كقول الرب تفعلون انظروا قد اوصيتكم ، فارسلهم يشوع فساروا إلى المكمن ولبثوا بين بيت ائيل وعاي غربي عاي وبات يشوع تلك الليلة في وسط الشعب) .

هذا . وتطالعنا روح التمثيل بالاعداء والانتقام حتى بجثثهم بعد الموت في سفر يشوع بصورة واضحة وحادة تفتقد بغير جدال أي معنى من المعاني الانسانية النبيلة التي تستند إلى الرحمة في مقاومة الاعداء ، ولا جدال في انه كان يجب والرجل يحمل سمات نبي أن ينقل لنا عنه الكتاب بعض أخبار تتسم بالرحمة والخير ويشتم منها أثر النبوة الدينية وعمل الرسالة الإلهية على يد يشوع وخاصة عندما يصبح أعداؤه بين قبضته وتحت رحمته ، لكن كاتب الاصحاح الثامن من سفر يشوع وفي الفقرات رقم ٢٤ — ٢٩ ينقل لنا شيئاً غير ذلك

تماماً ، انه يقول : (وكان لما انتهى اسرائيل من قتل جميع سكان عاي في الحقل في البرية حيث لحقوهم وسقطوا جميعاً بحد السيف ، حتى فنوا أن جميع اسرائيل رجع إلى عاي وضربوها بحد السيف ، فكان جميع الذين سقطوا في ذلك اليوم من رجال ونساء اثني عشر الفاً ، جميع اهل عاي ، ويشوع لم يرد يده التي مدها بالمزراق حتى حرّم جميع سكان عاي ، لكن البهائم وغنيمة تلك المدينة نهبها اسرائيل لأنفسهم حسب قول الرب الذي امر بـه يشوع ، واحرق يشوع عاي وجعلها تلا ابدياً خراباً إلى هـذا اليوم وملك (عاي) علقـه على الخشبة إلى وقت المساء ، وعند غروب الشمس أمر يشوع فأنزلوا جثته عن الخشبة ، وطرحوها عند مدخل باب المدينة واقاموا عليها رجمـة حجارة عظيمة إلى هذا اليوم) .

وفي النهاية التي نريد ان ننتهي اليها حول سيرة يشوع وعمل النبوة الدينية والرسالة الإلهية على يديه على ضوء ما اخبرنا به العهد القديم ، فانه اذا كانت الفاحشة والخطيئة تختفي نسبياً من بين سياقـه وأخباره باستثناء واقعـة راحاب ، فان البديل الذي لازم نبوة العهد القديم على يد يشوع وهو يقص علينـا اخباره تقترن بنوع مـن العنف والتدمير ومقاومة الاعداء بدروب ووسائل غير انسانيـة لا تستقيم مـع خلق المحاربين الشرفاء فضلاً عن طهرة النبوة في مواجهتها لاعداء الله .

الفصل السابع

النبي داود في تراث العهد القديم

يطالعنا الاصحاح السابع عشر من سفر صموئيل الأول بالأخبار الأولى لظهور نجم : (داود بن يسى) في مجتمع اسرائيل ابّان ظرف عسكري قاسي تعرّض له الشعب الاسرائيلي بقيادة : (شاول) في وجه الفلسطينيين ويبدو من سياق حديث كاتب الاصحاح ان الجيش الفلسطيني كان بين جنوده شاباً عربياً قوي البنية اسمه (جليات) وعلى حد ما في سفر الملوك الاول في الاصحاح السابع عشر كان هـذا الشاب يتهدد الاسرائيليين لقوته وفروسيته وفراسته كل يوم ، ولقـد ترك هـذا الفلسطيني أثره في نفوس الاسرائيليين المحاربين وغيرهم ، حتى لم يجد مفراً كاتب سيرة شاول وداود حين كان يدون لحرب شاول مع الفلسطينيين من ان يذكر هذا الفلسطيني ، فالفقرات رقم ٩ – ١١ من هذا الاصحاح تقول ناسبة مـا تقوله من حديث في أمر هـذا الرجل اليه نفسه :(... أنا الفلسطيني وانتم عبيد لشاول ، اختاروا لأنفسكم رجـلاً ولينزل إليّ ، فان قـدر ان يحاربني ويقتلني نصير لكم عبيداً ، وإن قدرت انا عليه وقتلته تصيرون انتم عبيداً لنا وتخدموننا ، وقال الفلسطيني انا عيّرت صفوف اسرائيل هذا اليوم ، أعطوني رجلاً فنتحارب معاً ، ولما سمع شاول وجميع اسرائيل كلام الفلسطيني هذا ارتاعوا وخافوا جداً) .

في هذا المناخ الذي يتحدث عنه كاتب سفر صموئيل الأول ظهر نجم الفتى الصغير (داود) ، وبلغة أقرب مـا تكون في لغـة التراث الاسرائيلي إلى المأثورات الشعبية للأمم البدائية القديمة ،ومضمون ما أخبر به كاتب الاصحاح السابع عشر بلغة اسطورية، انه تناهى الى داود وهو في الحقل يرعى الغنيمات اخبار ذلك الفلسطيني الذي يتهدد الشعب جميعه ، ولا يقدر أحد على مجابهته وابتدأ داود، يحدث من يعرفهم ومن لا يعرفهم على حد ما نسب اليه كاتب السفر وادعى عن رغبته في لقـاء ذلك الفلسطيني وقتله ، حتى انتهى أمر داود إلى القائد (شاول) الذي أحضر داود وحين رآه دهش لأنـه غلام لا يقدر على مقاومة رجل حرب ، لكنه في زعم كاتب سيرة داود يحاور داود القائد (شاول) ويخبره بأنه سبق له ان قتل بيديه أسداً ودباً أخذ شاة من القطيـع ، وقال للقائد : الله الذي أنقذني من يد الأسد ومن يـد الدب هو ينقذني من يد هذا الفلسطيني ، وأخيراً اقتنع القائد (شاول) وخرج داود لمجابهة القائد الفلسطيني ولقائه بغير عدة حرب لأنه لم يكن قد جرّبها، وأخذ عصاه بيـده ومجموعة من الحجارة الملس ، وجعلها في كتف الرعـاة أي في الجراب ، ومقلاعه بيـده وتقـدم نحو الفلسطيني ، وبعـد محاورات كلامية ذكرهـا كاتب الاصحاح السابع عشر من سفر الملوك الأول كلهـا سباب من الطرفين، أخبر فيها كاتب السفر فيما نقل ان الفلسطيني كان يدافع في حديثه عن قومه ووطنه ومعتزاً بفروسيته ، وداود يدافع عن شعبه ويتحدث باسم رب اسرائيل إلى أن انتهى الأمر عنـد كاتب سيرة داود بعد المحاورة بقتل الفلسطيني على يد داود .

ولما رأى شاول داود خارجاً من صفوف القتال ورأس الفلسطيني بيده، فقال له شاول : ابن مَن انت يا غلام ؟ فقال داود : (يسى البيتلحمي) . هـذه هي بداية ظهور نجم الفتى داود في مجتمع اسرائيل على ضوء سيرته في العهد القديم لكن كاتب الاصحاح الثامن عشر ،يخبرنا على ديدنه دائماً بمفاجآت سياسية تعرّض لهـــا داود عقب العودة من الحرب ، وخاصة بعد أن خلع

(يوناثان) بن شاول الجبة الخاصة به وأعطاها لداود مع ثياب وسيف وقوس ؛ وعند العودة من الحرب كانت الأخبار السارة التي اقترنت بظهور داود قد سبقته ، فخرجت النساء من جميع بلاد ومدن اسرائيل على حد ما زعم الكاتب لاستقبال الجيش المنتصر ، وبالغناء والرقص والرفوف والمثلثات ، وأجابت النساء اللاعبات وغنّت لشاول وداود ، لكن لغتهن عن داود وثناءهن عليه كان أكثر من شاول ولذا عند كاتب السفر لم يعجب شاول هذا الموقف وابتدأ يتضايق من داود وفكـّر في قتله بضربة رمح ، لكن داود فلت منها بمهارة فارس فابتدأ شاول يخاف من داود لأنه لاحظ ان عناية الله تلازمه ولم تعد تلازم شاول،وفكـّر شاول في أن يعطي داود ابنته الكبرى (ميرب) وان يكون قائد الجيش ليحارب الفلسطينيين ، لكن داود ردّ على شاول هذا الموقف بلطف زعم كاتب السيرة أنه قال : مَن أنا وما هي حياتي حتى أكون صهراً للملك ، لكن الكاتب المغرم بمتابعة الأسرار والتفاصيل التي تجري في المحاريب او وراء الكواليس او بنت الخيال فيما قص الاصحاح الثامن عشر من سفر صموئيل الأول في الفقرة رقم ٢٠ بأن (ميكال) ابنة شاول تحب داود ، فحسن الأمر عنده، وقال شاول أعطيه إياها حتى تكون له شركاً وتكون خداعاً وتكون يد الفلسطينيين عليه ، وزعم الكاتب أن خطة الملك شاول كانت أن يطلب مهراً لابنته رأس مائة من الفلسطينيين لأنه يعلم ان داود لا يملك شيئاً ولا يقدر على دفع مهر ، وعندئذ قد يقع في أيدي الفلسطينيين ويموت ويستريح منه شاول وخاصة بعد أن كبر نجمه وعلا صيته وشاع في اسرائيل اسمه أكثر من شاول ، لكنه فيما قص عنه الاصحاح يجابه شاول ويحضر له رأس مائة من الفلسطينيين، وتزوج داود من (ميكال) وأدرك شاول مرة ثانية على حد ما زعم كاتب السفر ان الرب مع داود ، ومع ذلك حاول مرة ثانية قتل داود ، وكلف بذلك مجموعة من عبيده وعلى رأسهم ابنه (يوناثان) الذي فاتح داود بالأمر وأخبره بنية أبيه وخطته ، وطلب (يوناثان) من داود الصبر والتريث حتى يقنع والده بالعدول عن

عدائه لداود وحقق (يوناثان) بعض النجاح فيما هدف اليه حتى قامت الحرب مرة ثانية بين الاسرائيليين والفلسطينيين وبرزت قدرة داود ومهارته العسكرية وضرب الفلسطينيين ضربة عظيمة على حد ما زعم كاتب التراث، ومع ذلك فالروح الرديء ظل يلازم شاول وأراد ضرب داود بالرمح ضربة تمزّقه حتى الحائط لكن داود يفلت للمرة الثالثة من يد شاول وهنا ضاق ذرعاً داود بموقف الملك منه وأبدى تضرره وأسفه أمام (يوناثان) ثم هرب إلى (الرامة) وقابل صموئيل ، وأخبره بصنيع الملك ضده ومع كل صبر وتريث داود ثم تعاطف(يوناثان)ابنه وهروبه مع وجه شاول الى الرامة . لا جديد عند كاتب الاصحاح في موقف شاول من داود ، وأخيراً يخبرنا كاتب السفر ان يوناثان وداود اتفقا على خطة لاختبار نوايا الملك شاول ضد داود وخلاصتها : أن يتغيب داود في الحقل عن حضور الوليمة التي يقيمها الملك كل شهر ، وطلب داود من يوناثان إذا ما سأل عنه الملك ، فليخبره بأن داود ركض إلى بيت لحم لأن هناك ذبيحة سنوية لكل العشيرة ، فان قال : هكذا حسناً ، كان سلاماً لداود ، ولكن ان اغتاظ فنتأكد من أنه أعد للشر ، وبالفعل اختبأ داود كما قص صاحب السفر في الحقل ثم جلس الملك للطعام ولم يهتم شاول بغياب داود فقد اعتبره لأمر عارض ، وفي الشهر الثاني خلا موضع داود كما خلا في الشهر الاول ، فقال شاول لابنه يوناثان : أين ابن يسي، ولماذا لم يأت إلى الطعام ؟ فأجاب يوناثان شاول ان داود طلب ان يذهب إلى بيت لحم لأن عنده ذبيحة لعشيرته في المدينة لذلك لم يأت إلى مائدة الملك ، فحمي غضب شاول على يوناثان وعيّبه بأمه لانه يقف هذه المواقف من ابن يسّى الذي يعتبر خطراً ومنافساً لشاول وابنه ، وطلب شاول من ابنـه ان يرسل إلى داود لاحضاره ليقتل ، ودخل الولد في حوار مع أبيه وكان كما زعم كاتب السفر يسأله ولمـاذا يقتل ، ومـا الذي عمله من شرّ ليقتل فهمّ شاول بقتل ابنه بالرمح ، فخيّب يوناثان ضربة أبيه لكنه أدرك من هـذا الموقف عزم أبيه على قتل داود ، واتفق الرجلان يوناثان وداود على أن يهرب داود من

وجه شاول فجاء داود إلى (أخيمالك) الكاهن ، واضطرب الكاهن حين رآه وحده وليس معه من أحد ، وقضى داود معه بعض الوقت ثم هرب من أمام شاول وجاء إلى (أخيش) ملك (جت) ، وذكر عبيد الملك اخبار داود للملك وبأن النساء كن يغنين له في الرقص قائلات: ضرب شاول ألوفه وداود ربواته . وأخبر عبيد الملك ملك (جت) بهذه الواقعة التي ضايقت شاول من داود فوقع هذا الأثر في نفس داود موقعـاً سيئاً لأنه خشي منه أن يؤثر على موقف ملك (جت) منـه ، ففي مـا يرويه كاتب الاصحاح الحادي والعشرين من سفر صموئيل الأول في الفقرة رقم ١٣ ان داود امـام هذا الموقف اضطر ان يغيّر عقله وتظاهر بالجنون بين أيديهم، وأخذ يخربش على مصاريع الباب ، ويسيل ريقه على لحيته ، فقال (أخيش) لعبيده : هوذا ترون الرجل مجنوناً فلمـاذا تأتون بـه إليّ ألعلي محتاج إلى مجانين حتى أتيتم بهذا ليتجنن عليّ ؟ أهذا يدخل بيتي . وبهذه المسرحية الرخيصة التي يقصها سفر صموئيل الاول عن نبي الله داود عليه السلام ونحن نعتقـد ان واقعة التجنن هذه هي من صنع خيال ومفتريات كاتب السفر فلئن كانت هنـاك ضرورة امام داود لان يتخفى او ان يهرب من وجه الملك (أخيش) فليس من المعقول على ضوء سيرة الرجل التي قصها كاتب السفر وهو انـه فارس سبق له ان قتل أسداً ودباً وقتل جليات وأحضر رأس مائة من الفلسطينيين فضلاً عن ان يد الرب تعاونه كما ادعى كاتب السفر الذي نسي هنا ما ادعاه بهذه الصلاحيات التي تجعل من الرجل فارساً فضلاً عن علاقته الخاصة بربه ما كان يجب ابداً ان يتجنن او يسيل ريقه على لحيته ، لكنه الخيال الآثم والافتراء العدواني من كتّاب التراث على انبياء الله، ومهما يكن من رفضنا لخبر الجنون هذا فان الكاتب يرينا داود عليه السلام وقد فلت مما يمكن ان يوقعه فيه الملك (اخيش) ويذهب إلى اخوته وبيت ابيه وينضم اليه جمع من الناس ، ويتحالف مع ملك موآب ، حتى يشاع خبره ويعلم بـه شاول ثم يطلب شاول من رجاله بعد ان جن جنونه وثارت ثائرته من الاخبار التي

تلقاها عن احوال داود ويقول لهم مذكّراً بفضله عليهم كما تروي الفقرة رقم ٧ من الاصحاح الثاني والعشرين من سفر صموئيل الاول : (هل يعطيكم جميعكم ابن يسى حقولاً وكروماً وهل يجعلكم جميعكم رؤساء ألوف ورؤساء مئات ، حتى فتنتم كلكم عليه ، وليس من يخبرني بعهد ابني مع ابن يسّى) يطلب شاول على ضوء هذا الجمع الذي طلبه وفي أبّان ثورته (اخيمالك بن اخيطوب الكاهن) الذي عاون داود وأعطاه سيف جليات الفلسطيني الذي كان يحتفظ به وبعض الزاد، ويقص الكاتب حواراً مع الملك شاول والكاهن اخيمالك لم يقتنع فيه الملك بوجهة نظر اخيمالك فأمر بقتله ، وقال كما قال عنه كاتب الاصحاح السابق ذكره فقرة رقم ١٦ : (فقال الملك موتاً تموت يا اخيمالك انت وكل بيتك ، وقال الملك للسعاة الواقفين لديه ، دوروا واقتلوا كهنة الرب لأن يدهم ابداً مع داود ولأنهم علموا انه هارب ولم يخبروني) .

هذا.. ويقص الاصحاح الثالث والعشرون من سفر صموئيل الأول اخبار حرب قصيرة وصغيرة ، قام بها داود ضد الفلسطينيين في (قعيلة) واراد شاول ان يغتنمها فرصة ويذهب الى داود وهو يحارب ، لكن داود فيما قص الاصحاح عنه يعلم بقيام شاول له في قعيلة فيخرج منها ومعه رجاله فيقعد عن القيام شاول بعد ان علم ان داود ترك قعيلة ، ولم يتمكن شاول من داود كل الأيام كما عبّر كاتب سفر الملوك الاول .

هذا..ويقص علينا الاصحاح الرابع والعشرون اخباراً فيها بعض مظاهر ودلالات النبوة أخلاقياً وإنسانياً وهي المظاهر والدلالات التي نفتقدها كثيراً بين سياق ونصوص اسفار العهد القديم نسبها كاتب الاصحاح الرابع والعشرين إلى داود عليه السلام وقد تكون هذه الأخبار بعض البقية القليلة الباقية من دين احتفظ بها التراث الاسرائيلي عن العهد القديم ، وخلاصة الاصحاح ومضمونه الذي لمسنا فيه بعض ملامح النبوة على يد داود تقترب من معنى الايمان بالله

في العهد القديم : أن شاول كان قد استدعي من عملية مطاردة ضد داود لم تفلح بسبب عدم اكتمالها لقيام الفلسطينيين بأعمال ضده ولما رجع شاول من وراء الفلسطينيين جاءته الأخبار بأن داود في (برية عين جدي) فأخذ ثلاثة آلاف مغانم وذهب ليطلب داود ورجاله على صخور الوعول ، وفي الطريق كان هناك مغارة فدخلها شاول لبعض أموره، ولم يعلم شاول ان داود ورجاله في اعماق هذه المغارة او هذا الكهف، وحين رأى رجال داود شاول ، قالوا لداود هوذا اليوم الذي قال لك عنه الرب ها أنذا ادفع عدوك ليدك ، فتفعل به ما يحسن في عينيك ، فقام داود وقطع طرف جبة شاول سراً ، وطلب اليه رجال داود ان يقوم بقتله او يقتلونه هم . لكنه وبّخهم ورفض طلبهم وقال لهم كما يقول الاصحاح الرابع والعشرون من سفر صموئيل الأول في الفقرة رقم ٦ : (فقال لرجاله حاشى لي من قبل الرب ان أعمل هذا الأمر بسيدي بمسيح الرب فأمد يدي اليه لأنه مسيح الرب هو) .

هذا .. وتنقل لنا الفقرات رقم ٩ — ١٥ من هذا الاصحاح درساً من الدروس الأخلاقية او قل من دروس النبوة نفتقده كثيراً في معظم اسفار العهد القديم ويتمثل في الحوار الذي جرى بين داود وشاول في الكهف او قل المأزق الذي ساق الله فيه شاول ليد داود على حد ما يخبرنا تراث اسرائيل في العهد القديم : (... وقال داود لشاول لماذا تسمع كلام الناس القائلين هوذا داود يطلب أذيتك ، هوذا قد رأت عيناك اليوم هذا ، كيف دفعك الرب اليوم في الكهف ، وقيل لي أن أقتلك ولكنني أشفقت عليك ، وقلت لا أمد يدي إلى سيدي لأنه مسيح الرب هو، فانظر يا أبي انظر طرف جبتك بيدي ، فمن قطع طرف جبتك وعدم قتلي إياك اعلم ، وانظر انه ليس في يدي شرّ ولا جرم ولم أخطىء اليك ، وان تصيد نفسي لتأخذها ، يقضي الرب بيني وبينك ولكن يدي لا تكون عليك . وراء من خرج ملك اسرائيل ؟ وراء من انت مطارد ؟ وراء كلب ميت ، وراء برغوث واحد ،

فيكون الرب الديان ويقضي بيني وبينـك ، ويرى ويحـاكم محاكمتي وينقذني من يدك) .

وبهذا الدرس الجيّد والذي نفتقد مثله طوال معاناتنا في دراسة الاسفار ومتابعتها أعطى داود لشاول المثـل والقدوة ، ولقد أثمر الدرس تمامـاً فقد قال شاول لداود : أنت أبرّ مني لأنك جازيتني خيراً وأنا جازيتك شراً .

وفي هذا المشهد الفريد والذي لا ندري لما لم يشوهه كاتب الاسفار وينقله الينـا مخلوطاً بالباطل والمفتريات كما فعل في معظم المواقف التي تناولهـا عن انبياء الله ورسله ، تنازل الملك شاول عن طواعية عن الملك وأعطاه لداود وكل أمله كما يقول النص ألا يقطع داود نسله من بعده، لكن يبدو من سياق باقي اصحاحات سفر صموئيل الأول من الرابـع والعشرين الذي ساق المشهد الاخلاقي الذي قدمه شاول لداود حتى الحادي والثلاثين نهاية اصحاحات سفر صموئيل الأول، ان داود لم يتعجل في تنفيذ رغبة شاول في تعيين داود ملكاً على اسرائيل ، فقد قامت الحروب بعد ذلك بين الاسرائيليين والفلسطينيين فيما ذكرته الاصحاحات السبعة مات في واحدة منهـا شاول وابنه يوناثان ، وبموت شاول وابنه أصبحت كل الظروف مهيأة أمام داود لجمع شمل الشعب وتنصيب نفسه ملكاً على اسرائيل ، وهذا هو ما كان يقصه علينا الاصحاح الثاني من سفر صموئيل الثاني ، ولننظر إلى ما سجله كاتب الاسفار المقدسة من بيانات ومعلومات واحداث تعرض لها بعد ذلك سياسياً وعسكرياً النبي الملك داود عليه السلام بعد المشهد الأخلاقي الكريم الذي قصه علينا كاتب الاسفار في موقف واحد متعلق بسيرة داود حين ساق الله ليده عدوّه شاول فلم يفعل به ما فعل شاول بكل الذين عاونوه وقدموا له بعض العون. لننظر كاتب الاصحاح الثاني من سفر صموئيل الثاني وهو يتناول بعض الجوانب التاريخية والسياسية والعسكرية التي اقترنت بحيـاة الملك النبي لكنه بادىء ذي بدء يجدر بنا ان نقف امام سياق الاصحاح الحادي عشر من سفر صموئيل

الثاني وذلك لورود اخبار بين سياقه لا تتفق والروح العام الذي يرينا إياه كاتب الاصحاحات متعلقاً بنبي الله داود وذلك أن هذه الأخبار التي ذكرها كاتب الاصحاح الحادي عشر من سفر صموئيل الثاني تضعنا أمـام سؤال لا جواب عليه عند مسجلي العهد القديم ، وهـذا الاستفهام الذي نضعه دائمـاً أمام معظم ما ساق التراث الاسرائيلي من قضايا وأخبار هو : لمـاذا معظم الأنبياء الكبار في العهد القديم تقترن سيرتهم او سيرة نسائهم او بناتهم بهذه المصيبة التي يكثر الحديث عنها في العهد القديم وأعني بها جريمة الوقوع في الزناء وممارسته دون حرج ودون ان يهتز أحد في الرأي العام الاسرائيلي بل ودون ان يعلن أحـــد من القائمين على أمر الدين والمنصّبين أنفسهم سدنة وحراساً لبيت الرب وشريعة الرب ، مع ان سفر (التثنية) والمعتبر عنـد اليهود سفر الشريعة قد حذّر من هذه الجريمة ووضع لها على ضوء النصوص التي بين أيدينا حدوداً رادعة . ومع ذلـك فكتّـاب العهـد القديم يحلو لهم دائماً ابداً ان ينسبوا إلى جميع أنبياء العهد القديم او معظمهم الوقوع في هذه الخطيئة باديء ذي بـدء نحب ان نقرّر ان سفر التثنية في الاصحاح الثـاني والعشرين وضع ضوابط وقواعد رادعة لهذه الجريمة ومع ذلك لم يحدثنا كتّـاب التراث على طول اسفار العهد القديم ان هذه الضوابط والقواعد والحدود قد طبقت يوماً على من اقترف هذه الجريمة في بيت اسرائيل وخاصة في أعقاب ما ينسبونه من وقوع كبار رجال العهد القديم فيها .

يقول الاصحاح الثاني والعشرون من سفر التثنيـة ومن الفقرات رقم ١٣ — ٢٣ وهو يورد أحكاماً في غاية الحسم لهذه الخطيئة :(إذا اتخذ رجل امرأة وحين دخل عليها أبغضها ، ونسب اليها أسباب كلام ، وأشاع عنهـا اسماً ردياً ، وقال هذه المرأة اتخذتها ، ولمـا دنوت منها لم أجد لهـا عذرة ، يأخذ الفتاة أبوها وأمها ويخرجان علامة عذرتها إلى شيوخ المدينة إلى الباب ، ويقول أبو الفتاة للشيوخ أعطيت هذا الرجل ابنتي زوجة فأبغضها ، وها هو قد جعل أسباب كلام قائلاً: لم أجد لابنتك عذرة ، وهذه علامة عذرة ابنتي

يبسطان الثوب امـــام شيوخ المدينة ، فيأخذ وشيوخ تلك المدينة الرجل ويؤدبونه ، ويغرّمونه بمائة من الفضة ويعطونها لأبي الفتاة ، لأنه أشاع اسماً ردياً عن عذراء من اسرائيل فتكون زوجة له لا يقدر ان يطلقها كل ايامه ، ولكن إن كان هذا الأمر صحيحاً لم توجد عـذرة للفتاة يخرجون الفتاة إلى بيت أبيها ويرجمها رجال مدينتها بالحجارة حتى تموت لأنها عملت قباحة في اسرائيل بزناها في بيت أبيها فتنزع الشر من وسطك ، وإذا وجد رجلاً مضطجعاً مع امرأة زوجة بعل ، يقتل الاثنان الرجل المضطجع مع المرأة والمرأة فتنزع الشر من اسرائيل . إذا كانت فتـــاة عذراء مخطوبة لرجل فوجدها رجل في المدينة واضطجع معها ، فأخرجوهما كليهما إلى باب تلك المدينة وارجموهما بالحجارة حتى يموتا ، الفتـــاة من اجل انها لم تصرخ في المدينة ، والرجل من اجل انه أذلّ امرأة صاحبه فتنزع الشر من وسطك . ولكن ان وجد الرجل الفتـــاة المخطوبة في الحقل وأمسكها الرجل واضطجع معها يموت الرجل الذي اضطجع معها وحده، واما الفتاة فلا تفعل بها شيئاً ليس على الفتاة خطيئة للموت ، بل كما يقوم رجل على صاحبه ويقتله قتلاً هكذا هذا الأمر ، انه في الحقل وجدها فصرخت الفتاة المخطوبة فلم يكن من يخلصها ؟) .

هذا .. ومن الجدير بالذكر في هذا المقـــام ايضاً ان الفقرة الثانية من الاصحاح الثالث والعشرين من سفر التثنية تقول : (لا يدخل ابن زناء في جماعة الرب حتى الجيل العاشر لا يدخل احد منه في جماعة الرب) .

هذا هو مـــا قررته الشريعة في سفر التثنية عن حكم جريمة الزناء في اسرائيل فما بال كاتب الاصحاح الحادي عشر في سفر صموئيل الثاني ينسب إلى نبي الله داود القيام بهذه الجريمة وفي أبشع صورها لا في حقل ولا في طرقات المدينة ، ولكن في بيت الزوجية تنزع المرأة من بيتها في غيبة رجلها المقاتل الشجاع في خدمة سيده الملك النبي وتتم جريمة الزناء على ملأ

ومسمع ممن أشار اليهم كاتب الاصحاح بأنهم عاونوا على القيام بهذه الجريمة ، بما باله بعد ان كان الكاتب السابق يرينا النبي الكريم داود عليه السلام في صور مشرقة ومضيئة كان آخرها تلك التي قصها علينا في واقعة الكهف بين داود وشاول وفيها ترك داود امر عقاب شاول لربه ما باله هنا يجيء في يد الكاتب الآثم الذي يوقعه في هذه الجريمة ، وحين تتم وتبدأ ثمارها تملأ مجتمع اسرائيل لا احد يطالب بتطبيق شريعة الله التي تحدث عنها كاتب سفر التثنية ، بل ينسب كاتب الاصحاح الحادي عشر في سفر صموئيل الأول إلى نبي الله القيام بتغطية جريمة الزنا بإحضار زوج المرأة الغائب عن زوجته ، لكي يبيت عندها وينام في حضنها حتى إذا ما شاع حملها بين الناس جميعاً نسب السفاح إلى الزوج المسكين ، ولماذا لم ينجح المخطط الذي يدعيه كاتب الاصحاح وينسبه إلى نبي الله ونبي الله أبرأ ما يكون وأطهر ما يكون عن الوقوع في هذه المهلكات يجابهنا كاتب الاصحاح بمفتريات تقول انه لم ينجح المخطط الذي رسمه داود تم القيام بمخطط آخر انتهى بقتل الزوج الذي أجبرت زوجته على الزنا ولا يخجل مسجل المفتريات وهو ينسب مثل تلك المشاهد إلى بعض انبياء الله وحين تنجح مؤامرة قتل الزوج عند كاتب الاصحاح تضم المرأة الأرملة إلى نساء داود لكي يغطي الرجل صنيعه معها ومن عجب انه بعد ايام قليلة في مدونات كاتب الاسفار يطلع علينا بثمار هذا الزنا في ميلاد لبعض الأبناء من هذه المرأة نفسها ملأ سمع الدنيا بعد ذلك وهي نبي الله سليمان عليه السلام ، ولا ندري هل كان في رأس مدون هذه المفتريات ذرة من عقل لا اقول من إيمان حتى يمكن له ان يتصور نسبة هذه الآثام والجرائم إلى نبي في مقام رجل كداود عليه السلام وهل يجوز في منطق البشر الذين استقامت فطرتهم ان يكون نبي الله سليمان الذي تعلقت به مشيئة الله كواحد من الذين يصطفيهم الله تعالى لخلقه قد جاء للدنيا هكذا بهذه الصورة المقيتة التي ينسبها اليه كاتب اصحاحات سفر الملوك الثاني ، ولننظر إلى نص ما قاله كاتب الاصحاح الحادي عشر في سفر صموئيل الثاني من إثم في حق نبيين كريمين على

الله يقول :(وكان عند تمام السنة في وقت خروج الملوك ان داود ارسل يوآب وعبيده معه ، وجميع اسرائيل ، فأخرجوا بني عمون وحاصروا ربه ، واما داود فأقام في اورشليم وكان في وقت المساء ان داود قام عن سريره وتمشى على سطح البيت ، فرأى من على السطح امرأة تستحم ، وكانت المرأة جميلة المنظر جداً فأرسل داود وسأل عن المرأة فقال واحد أليست هذه (بتشبع) بنت اليعام امرأة (أوريا الحثي) فأرسل داود رسلاً واخذها فدخلت عليه فاضطجع معها وهي مطهرة من طمثها ثم رجعت الى بيتها ، وحبلت المرأة فأرسلت واخبرت داود وقالت اني حبلى ، فأرسل داود إلى يوآب يقول : ارسل لي اوريا الحثي فأرسل يوآب اوريا الى داود فأتى أوريا اليه فسأل داود عن سلامة يوآب وسلامة الشعب ونجاح الحرب ، وقال داود لأوريا انزل إلى بيتك واغسل رجليك، فخرج اوريا من بيت الملك وخرجت وراءه حصة من عند الملك ، ونام اوريا على باب بيت الملك مع جميع عبيد سيده ولم ينزل إلى بيته ، فأخبروا داود قائلين لم ينزل اوريا إلى بيته فقال داود لأوريا اما جئت من السفر فلماذا لم تنزل إلى بيتك ؟ فقال أوريا لداود ان التابوت واسرائيل ويهوذا ساكنون في الخيام وسيدي يوآب وعبيد سيدي نازلون على وجه الصحراء وانا آتي إلى بيتي لآكل واشرب واضطجع مع امرأتي ؟ وحياتك وحياة نفسك لا افعل هذا الأمر فقال داود لأوريا أقم هنا اليوم ايضاً وغداً اطلقك فأقام اوريا في اورشليم ذلك اليوم وغده ودعاه داود فأكل امامه وشرب واسكره وخرج عند المساء ليضطجع في مضطجعه مع عبيد سيده وإلى بيته لم ينزل، وفي الصباح كتب داود مكتوباً إلى يوآب وأرسله بيد اوريا وكتب في المكتوب يقول : اجعلوا اوريا في وجه الحرب الشديدة وارجعوا من ورائه فيضرب ويموت، وكان في محاصرة يوآب المدينة انه جعل اوريا في الموضع الذي علم ان رجال البأس فيه فخرج رجال المدينة وحاربوا يوآب ، فسقط بعض الشعب من عبيد داود ومات اوريا الحثي ايضاً فأرسل يوآب واخبر داود بجميع امور الحرب واوصى الرسول قائلاً عندما

تفرغ من الكلام مع الملك عن جميع امور الحرب ، فان اشتمل غضب الملك وقال لك: لماذا دنوتم من المدينة للقتال أما علمتم انهم يرمون من على السور ؟ من قتل ابيمالك بن يربوشت ألم ترمه امرأة بقطعة رحى من على السور فمات في تاباص ، لماذا دنوتم من السور فقل مات عبدك اوريا الحثي ايضاً ، فذهب الرسول ودخل واخبر داود بكل ما ارسله فيه يوآب ، وقال الرسول لداود قد تجبّر علينا القوم وخرجوا علينا في الحقل وكنا عليهم إلى مدخل الباب ، فرمى الرماة عبيدك من على السور فمات البعض من عبيد الملك ومات اوريا الحثي ايضاً ، فقال داود للرسول هكذا تقول ليوآب ، لا يسوء في عينيك هذا الأمر لأن السيف يأكل هذا وذاك ، شدّد قتـــال على المدينة واخربها وشدده ، فلما سمعت امرأة اوريا انه قد مات اوريا رجلها ندبت بعلها ، ولما مضت المناحة ارسل داود وضمها إلى بيته وصارت له امرأة، وولدت له ابناً ، وأما الأمر الذي فعله داود فقبح في عيني الرب) انتهى .

ونريد هنا أن نقف قليلاً لنناقش كاتب هذا — البلاء — الذي ينسبه إلى نبي الله داود ونقول له اذا كان كما تدعي قد وقع داود في هذه الخطيئة التي شاع امرها حتى عرف الرسل الذين ارسلهم لاحضار المرأة من بيتها امر هذه الخطيئة ، وحتى عرف يوآب قائد الجيش الذي أبلغ رسوله إلى داود اخبار الهزيمة في احد المواقع قائلاً له : ان سخط ورأيت الغضب في عينيه فأبلغـه اخبار موت أوريا الحثي ايضاً لادراكه ان ذلك يرضيه ، فلماذا لم يقيموا عليه الحد المقرر في شريعة اسرائيل ويهوذا وهو معروف وشائع كما اوردناه في سفر التثنية فالقتل عقوبة من قهر امرأة وأجبرها على الزنا ، ورواية كاتب الاصحاح الذي بين ايدينا تفيد بأن داود قهر امرأة أوريا الحثي ام هل جبن كهّان اسرائيل وانبياؤهم وقت ان نسبت هذه الخطيئة إلى داود ولم يطالبوه بالامثال لكي يوقعوا عليـه عقوبتها حتى يزيلوا الدنس والنجس من اسرائيل كما يقول كتاب الاسفار في التعليق على هذه الواقعة حينما تم ان الذي قصه علينا كاتب هذه السيرة ان كل الذي وجده داود من مقاومة له او اعتراض عليه في هذه

الواقعة هو موقف النبي المدعو (ناثان) الذي ناقشه على حد ما زعم الكاتب في امر هذه الخطيئة بالرمز كما نقل ذلك وادعاه كاتب الاصحاح الثاني عشر من سفر صموئيل ، ثم لما أقر الرجل داود بخطيئته المزعومة امام حديث الرمز وجه اليه ناثان حديثاً جاء على الوجه الآتي : (فقال ناثان لداود أأنت هو الرجل . هكذا قال الرب إله اسرائيل انا مسحتك ملكاً على اسرائيل وانقذتك من يد شاول واعطيتك بيت سيدك ونساء سيدك في حضنك واعطيتك بيت اسرائيل ويهوذا ، وان كان ذلك قليلاً كنت ازيد لك كذا وكذا ، لماذا احتقرت كلام الرب لتعمل الشر في عينيه ، قد قتلت أوريا الحثي بالسيف واخذت امرأته لك امرأة واياه قتلت بسيف بني عمون) [1] .

ونحن هنا نتابع مناقشتنا لكاتب الاصحاحين الحادي عشر والثاني عشر : الاول فيما نسبه لداود والثاني فيما نسبه لناثان النبي بشأن داود ، ونسأل الكاتب ونقول له باي معيار ترى عمل النبوة الإلهية في الناس ، واي نمط ان ترى اولئك الذين يختارهم ربهم ليكونوا رسله وانبياءه إلى الناس . ان النماذج التي تأتي بها الينا وتطلعنا على سيرتها لا يمكن عقلاً وفطرة وايماناً ان يتفق دورهم واهداف النبوة وسلوك اصحابها بين الناس ، فاذا كان من الجائز عند كاتب الاسفار ان يرى الانبياء هكذا بهذه الرؤية المنحرفة نمطاً منحرفاً يتصيد الناس في الطريق تارة كما فعل يهوذا رابع اولاد يعقوب بارملة ابنه ، او في مغارة كما غيّب بنات لوط ابيهن وفعلن به ما ادعاه كاتب سيرة لوط في الاصحاح التاسع عشر من سفر التكوين او بانتزاع النساء من بيوت الزوجية في غيبة الرجال الاوفياء والافذاذ في معارك الشعب كما وضعهم كاتب الاسفار في مقابلة مع الملك النبي حين اختار أوريا الحثي انموذجاً منهم او بترك الرجال الاجانب فيما يشبه المعاشرة مع نساء الانبياء كما ادعى كاتب الاسفار على ابراهيم

---

(١) (سفر صموئيل الثاني) الاصحاح الثاني عشر فقرات ٧ — ٩ .

وابنه اسحق ، الاول ترك زوجته لملك مصر وابيمالك ملك فلسطين والثاني ترك زوجته لابيمالك ايضاً .

وفيما نحن بصدده الآن من نظرة ونقد لرواية كاتب هذه المفتريات على نبي الله داود لا نود لنناقش المفتريات والتهم التي نسبها كتّاب التراث الاسرائيلي لانبياء سابقين لكننا هنا عما يتعلق بداود عليه السلام نسأل مدعي الخطيئة ومدون الاثم والافتراء الذي خلعه على نبي الله داود ونقول له نريد ان نرى الصور والمواقف التي سقتها ونقيتها تفصيلاً عن نبي الله داود وجيشه يحارب بني عمون ، ما الذي تود اصلاً ان ترينا اياه وما هو المثل او الانموذج او القدوة التي يمكن ان يخرج بها او يطلع عليها من يتعرف على تراث بني اسرائيل في العهد القديم : فمؤدى مادونته وما سقته من اخبار واحداث ومفتريات في النصوص تؤدي بنا إلى موقف عجيب : ملك نبي جاءه الملك ولم تكن مقدمات حياته على ضوء ما ذكرت تساعده على ذلك ، جاءه الملك بمعجزات وكرامات ومعونات ربه لانه من عامة الشعب ، طارده الملك السابق وكان في لغة كاتب التراث الاسرائيلي نبياً هو الآخر ساقه الله اليه فاقر الرجل بفضل داود واعترف بنعمة الله على عبده المطارد فتنازل له عن الملك امام درس من دروس النبوة لقنه اياه داود ، وحين تولى الملك فالبقية الباقية من بيت شاول لم تسلّم له مقاليد الملك والزعامة إلا بعد فترة مقاومة طالت عند كاتب هذه المرحلة ، واقتضت الأحوال الخارجية لمشاكل مملكته الصغيرة ان يرسل جيشاً يكسب المعارك مرة ويخسرها مرات ، في هذا المناخ ما الذي يتصور من نبي ملك ، ساق الله اليه عظيم فضله وجليل نعمته ، لا أقل من ان نرى ذلك النبي في صلوات وادعيات وتبتلات لكي يتمم الله نعمته ويجنب جيشه الهزائم ، لا ان يقوم بأفعال تجعله كما قال (ناثان) في الفقرة رقم ١١ من الاصحاح الثاني عشر من صموئيل — هكذا قال الرب ها أنذا أقيم عليك الشر من بيتك وآخذ نسائك امام عينيك) . ومع ان نبي الله داود باليقين لم يقع فيما نسبه اليه كاتب سفر صموئيل كما سنبين عنه عندما نحتكم الى الكتاب الذي لا

يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه وهو القرآن الكريم إلا ان كاتب الاصحاح الحادي عشر من سفر صموئيل لا يرى من صور نبي الله داود الذي يحارب جيشه في بني عمون إلا انه على سطح قصر الملك ، يتمشى ويتلصص وينظر عورات البيوت حتى تقع عينه على امرأة عارية تماماً وجميلة المنظر جداً رآها وهي تستحم فوقعت في قلبه وسيطرت على حواسه ، ونسي تماماً كاتب التراث انه يتناول سيرة نبي وكأن الرجل الذي يتحدث عنه شاعر ماجن فارغ الوقت والاحساس لم يذق طعم النساء في حياته ما ان رأى حلم خياله حتى وقع اسيراً له . ولا يخجل كاتب السيرة وهو يرينا نبي الله بهذا المشهد يخبره بأن المرأة التي سلبت لبه وسيطرت على عقله متزوجة وزوجها مقاتل يدافع عن اسرائيل والرب مع الجيش ومع ذلك يأبى كاتب الاصحاح الحادي عشر إلا ان يرينا نبي الله في هذه المهانة بينما يضع في الوجه المقابل اوريا الحثي في صورة اكرم واطهر فلم يقبل على حد ما زعم الكاتب ان يذهب إلى بيته ويدّهن بالطيب والجيش يحارب وتابوت الرب المدعي في ميدان القتال ، ولماذا لم يتصور كاتب هذه السيرة ان داود إذا لم يكن نبياً من وجهة نظره وعلى ضوء معالجاته واحداً من اسرائيل يعرف عقوبة الزناء في مثل هذه الحالة التي اوقعه فيها كاتب التراث وانه مع وجود عدد من النساء بجواره زوجات له يعاشرهن ويحيا معهن منذ تزوج بابنة شاول يغامر بالفضيحة التي تسلمه لاقامة الحد عليه نظير ان يقع على امرأة رآها تستحم ، ثم ألم يسأل الكاتب نفسه حين نسب ما نسبه إلى داود من انه ارسل رسلاً لاحضار المرأة لبيت الملك في غيبة زوجها، ان هذه الدلائل والبراهين كانت كفيلة بأن تجعل أي رجل يفكر في القيام بما ينسبه الكاتب لداود لا يلجأ إلى هذه الوسيلة التي تساعد على فضح امره ونشره بين الناس .

وهذه المقابلة المزعجة التي صورها كاتب الاصحاح بين خلق ودين ومروءة داود وهو نبي وبين وفاء ومروءة اوريا الحثي وهو عبد عند هذا النبي ، الأول بعد ان ظهرت قرائن جريمة الزناء التي قام بها في شكل حبل اخبرت

به (بتشبيع) داود يرسل الى اوريا ليحضر من القتال ويأمره بالتوجه إلى بيته ليغتسل وينام في حضن امرأته ولو تم له ذلك لنجح في نسبه السفاح إلى غير ابيه ، لكن اوريا يرفض التوجه إلى بيته ليأكل ويشرب وينام في حضن امرأته والحرب قائمة وعبيد الملك داود في الحرب على وجوههم في الصحراء، ويضطر الملك النبي في الليلة الثانية لأن يطعمه بنفسه ويشربه خمراً حتى يسكره على امل ان يذهب إلى امرأته ، لكن الرجل لا يفعل فيحمله داود رسالة إلى قائده وفيها الأمر بموته ، لكن وفاءه وامانته لا تسمحان له بأن يفض الرسالة التي يلقى على أثرهـا حتفه بعد ان يخونه الملك النبي وقائد الملك النبي حين يكشف يوآب ظهر اوريا امام الرجال الأشداء من بني عمون بناء على اوامر سيده الملك النبي،وحين تجيء الأخبار بموت اوريا يضم داود زوجة اوريا إلى نسائه لتصبح واحدة من نساء الملك النبي الذي لم ير ما يمنع من ان تكون هذه المرأة اما لكثير من الأبناء ولئن أتقن الكاتب مسرحيته هذه بأن نقل لنا اخبار هذا الحبل السفاح بأن الجنين قد مات في بطن أمه وانها لم تلده حياً لكن المزعج ان كاتب الاصحاح الثاني عشر من سفر صموئيل الثاني في الفقرة ٢٤ يخبرنا بأن الحبل الثاني من هذه المرأة التي قهرها بالزنا داود العهد القديم كان بالولد الثاني من هذه المرأة بنبي الله سليمان عليه وعلى ابيه السلام ، وهكذا بغير خجل ولا حياء وبغير عقـل ايضاً يرينا كاتب التراث الاسرائيلي داود نبي الله متلبساً بكل هـذه المـآثم والموبقات بينما يرينا الرجل القائد اوريا بكل هذا الوفاء والولاء فعند أي الرجلين يبحث الباحث عن النبوة والرسالة الإلهية بين زيف ومفتريات واهواء كتّاب العهد القديم ، نعتقد انه على ضوء الصور والملامح التي سجلهـا ونسبها كاتب سفر صموئيل الثاني على داود عليه السلام فان بعض الاشراقات التي لمسناها في سيرة داود في بعض اخبار الاصحاحات في المراحل الأولى من حيـاته تختفي مرة ثانية تماماً ولم يعد لها أثر بين مرويات ومعطيات العهد القديم .

هذا .. ومن الجدير بالذكر ان هذا المنهج التدويني الوضعي الذي صاغ

سيرة وحياة كبار رجال العهد القديم على ضوء ما رأينا يفتقد إلى الوحدة الموضوعية والعقائدية كما ان الخلل التدويني بين سياقه سمة بارزة وذلك بعمل تعاقب الكتّاب والمسجلين وعدم توفر مصدر واحـد لكي يأخذوا منه مـا كانوا بصدده ، وفضلاً عن ذلـــك فانهم في تناولهم كانوا يفتقدون العاطفة الدينية نحو الرجال الذين يتحدثون عنهم بل كانت معاييرهم تقوم على غير قواعد من دين او خلق في تناولهم لسيرة الأنبياء وذلك بأثر مباشر من واقع المحن والآلام والمعاناة والفساد الذي فيه شعب اسرائيل ويهوذا وأملي هـذا الواقع نفسه على فكر الكتّاب وهم يتناولون سيرة الآباء حتى لا تكون الهوّة سحيقة بين الآباء والأبناء فيفتقد امكانية العمل او الانجـــاز ما كانوا بصدده ، ومن هنا وقع كتّاب التراث الاسرائيلي في تلك الخطيئة الكبرى حين نسبوا إلى انبياء الله ورسله مـــا وقعت فيه أجيال وشعوب اسرائيل ويهوذا عبر مراحل التاريخ المختلفة .

الفصل الثامن

ميراث الخطيئة في بيت داود

لم يكفه كاتب التراث الاسرائيلي في سفر صموئيل الثاني ما خلعه من اثم على نبي الله داود وما انتهى اليه مما كان يبغي به ان يجرّد الرجل عن كل ما يربطه بالنبوة الإلهية والتزاماتها وإنما راح ينقل الخطيئة كميراث يتداول في البيت الذي يفترض فيه هداية واقتداء الابناء بالآباء ، وقد اخـذ كاتب سفر صموئيل الثاني ينسب تهماً لبيت النبوة كتلك التي نسبها لداود عليه السلام وكأنه بفكره القاصر وعقله الغبي وعقيدته البعيدة عن الله وقـد راح ينسب مثل هذه التهم للانبياء فلم لا يورثها في البيت النبوة ولتدور مع الابناء ، وهذا هو ما انتهى إليه لكن بصورة أشد بشاعة واكثر قبحاً مما نسبه وادعاه على نبي الله داود .

والخطيئة التي أمامنا الآن يطالعنا بهـا كاتب الاصحاح الثالث عشر من سفر صموئيل الأول الذي ينسب إلى (أمنون) ابن داود انـه احب اختاً لاخيه (ابشالوم) ابن داود اسمها (ثامار) وكانت فتاة عذراء على جانب كبير من الجمال ، احبها (أمنون) ، حتى بلغ به المرض مدى جعل واحداً من الحكماء اسمه (يونداب) يتدخل فيما روى الاصحاح عن حكمة الحكماء

في اسرائيل ويطلب إلى أمنون بعد ان سأله عن سر تدهور حاله وسوء صحته وأخبره بحبه (لثامار) أن ينام على السرير ويتمارض وعندما يشاع خبر مرضه سيزوره الوالد النبي داود ، وعندما يخبره بأنه في حاجة لان يدعو اخته (ثامار) لتأتي اليه فتصنع له طعاماً أمامه ليأكل من يديها ، وكان طبيعياً ان يستجيب الملك النبي وأن يرسل الوالد ابنته (ثمار) إلى أخيها (أمنون) لتصنع له الطعام الذي يريد ، وحين حضرت الفتاة الى اخيها أمنون لتصنع له الكعك الذي يريد : عجناً وخبزاً أمامه ، يفاجئنا كاتب الاصحاح الثالث عشر من سفر صموئيل الأول بأن (امنون) طلب من كل الحاضرين أن يخرجوا عنه وطلب إلى (ثامار) اخته ان تقدم له الطعام على المخدع ليأكل من يديها مباشرة ، وحين كانت تقدم له الطعام على المخدع بحسب ما قص عن هذا المشهد كاتبه في الإصحاح الثالث من سفر صموئيل الأول امسكها واضطجع معها — هكذا — عند كتاب التراث الذين دوّنوا البيت النبوة ولم تنفع مع امنون صرخات ثامار وتوسلاتها لاخيها أن لا يذلها ولا يفعل القباحة في اسرائيل ويرينا إياها كاتب المفتريات باكية امامه الا يحملها عاراً لم تعرف اين تذهب به في اسرائيل كذلك ترجوه ألا يكون كواحد من السفهاء في اسرائيل ، وطلبت منه فيما نسب اليها كاتب الاصحاح ان يطلبها من ابيه لانه لم يمنعها منه ، ولم يقل لنا كاتب التراث المحترم منذ متى وحتى متى كان زواج الاخوات من الاخوة مشروعاً في اسرائيل ، ومن الذي شرع ومن اين للفتاة أن تقول له كما زعم كاتب النص: (كلم الملك لانه لا يمنعني عنك) وهي تعلم ان ذلك لا يجوز ، واذا كان ذلك يجوز فلم لم يلجأ إليه امنون ولا يقع في الخطيئة التي نسبها اليه كاتب الخطايا ، ومع ذلك فلم يسمع لها امنون واضطجع معها وأذلها ويرينا إياه كاتب الاصحاحات بعد ان قضى حاجته المسعورة ابغضها، وقال لها : قومي ، وكلف غلامه باخراجها . وعلم (ابشالوم) بما جرى لاخته (ثامار) من اخيه امنون فحفظ الأمر في نفسه نحو عامين ، حتى دبّر لاخيه في مناسبة

خمر مؤامرة قتله فيها وانتقم لمذلة اخته (ثامار) . لكن اشق وامر ما في هذه الواقعة على قبحها وبشاعتها ان كاتب الاصحاح الثـالث عشر من سفر صموئيل الثاني يطالعنا بأحزان وآلام الملك النبي داود وابنـائه معه حزناً على القتيل الزاني الذي قتله (ابشالوم) وهرب بعـد نجاح خطته في قتله وسط اخوته وجميع عبيد الملك ، والدارس لهذا التراث ولمثل هذه الواقعة بالذات تملأه الحيرة كثيراً امام مفارقات كتلك ، إذا كان (أمنون) على حد ما زعم الكاتب قد زنا باخته ثامار قهراً وبالخداع وهو ابن نبي ملك فأين شريعة اسرائيل اذن في جريمة كتلك وضع لها رب اسرائيل حدوداً اشرنا اليها في سفر التثنية ، واذا كانت جريمة كتلك تقع في بيت الملك النبي ومن ابن الملك النبي مع بنت الملك النبي ولا نلمح اثراً او لا يتطوع احد او يغضب الشعب لاهدار شريعة الرب وعدم إقامة الحد فأين ومتى وعلى يد من نلمح اثراً للاهتمام بشريعة الرب في البيت الذي يتحدّث عنه كاتب التراث ، وحين يتطوّع احد من البيت هذا للأخذ بالثأر او لتربية الخطيء او وضـع حد لعنف الخطيئة وتصاعد مستواها لا تدفعه في ذلك بواعث دينيـة او التزام بأمور تعبدية ، فإن من يعنيهم امر الشريعة يرينـا إياهم كاتب التراث وهم يبكون ويحزنون لوقوع العقاب على مقترف الخطيئة وهذا هو الخلل التدويني الذي افتقدت بين سياقه كل معالم النبوة او الهداية او الالتزام بأحكام الرب الذي طالما تحدث عنه كتاب العهد القديم ، ولننظر إلى فقرات الاصحـاح الثالث عشر التي ساقهـا مصنفها وهو يتهم (امنون) بعد ان اتهم من قبل أباه داود فماذا قال مصنف المفتريات : (وجرى بعد ذلك انه كان لابشالوم ابن داود اخت جميلة اسمها ثامار ، فأحبها امنون بن داود ، واحسر للسقم من اجل ثامار اخته لانها كانت عذراء ، وعثر في عيني امنون أن يفعل لها شيئاً ، وكان لامنون صاحب اسمه (يونداب) ابن شمعي أخي داود وكان يونداب رجلاً حكيماً جداً فقال له لماذا يا ابن الملك انت ضعيف هكذا من صباح لصباح أما تخبرني . فقـال له امنون إني احب ثامار اخت ابشالوم

اخي ، فقال يوناداب اضطجع على سريرك وتمارض وإذا جاء ابوك ليراك فقل له دع ثامارا اختي فتأتي وتطعمني خبزاً وتعمل أمامي الطعام لأرى فآكل من يدها فاضطجع امنون وتمارض ، فجاء الملك ليراه فقال امنون الملك دع ثاماراً اختي فتأتي وتصنع امامي كعكتين فآكل من يدها فارسل داود إلى ثامار إلى البيت قائلا اذهبي إلى بيت امنون اخيك ، واعملي له طعاماً فذهبت ثامار إلى بيت امنون اخيها وهو مضطجع واخذت العجين وعجنت وعملت كعكاً امامه وخبزت الكعك، وأخذت المقلاة وسكبت امامه فأبى أن يأكل وقال أمنون اخرجوا كل انسان عني ، فخرج كل انسان عنه ، ثم قال امنون لثامار : آتي بالطعام إلى المخدع فآكل من يدك فأخذت الكعك الذي عملته وأتت به إلى امنون أخاها إلى المخدع ، وقدمت له ليأكل فأمسكها فقال لها تعالى اضطجعي معي يا اختي فقالت له يا أخي لا تذلني لانه لا يفعل هكذا في اسرائيل لا تعمل هذه القباحة ، أما أنا فأين أذهب بعاري وأما أنت فتكون كواحد من السفهاء في اسرائيل ، والآن كلم الملك لإنه لا يمنعني منك ، فلم يشأ أن يسمع لصوتها بل وتمكن منها وقهرها واضطجع معها ثم أبغضها امنون بغضة شديدة جداً حتى ان البغضة التي أبغضها إياها كانت أشد من المحبة التي احبها إياها وقال لها امنون قومي انطلقي فقالت له : لا سبب بل الشر بطردك إياي أعظم من الآخر الذي عملته بي ، فلم يشأ أن يسمع لها بل دعا غلامه الذي يخدمه وقال اطرد هذه عني خارجاً واقفل الباب وراءها ، وكان عليها ثوب ملوّن لان بنات الملك العذارى كن يلبسن جبّات مثل هذه فأخرجها خادمه إلى الخارج وأقفل الباب وراءها ، فجعلت ثامار رماداً على رأسها وكانت تذهب صارخة ، فقال لها ابشالوم أخوها هل كان امنون اخوك معك ، فالآن يا اختي اسكتي أخوك هو لا تضعفي قلبك على هذا الأمر فأقامت (ثامار) مستوحشة في بيت (ابشالوم) أخيها ، ولما علم الملك داود بهذه الأمور اغتاظ جداً ، ولم يكلم ابشالوم امنون بخير أو شر لان ابشالوم ابغض امنون

من أجل انه أذل ثامار اخته وكان بين سنتين من الزمان انـه كان لابشالوم جزّازون في بعل حاصور التي عند (افرايم) فدعا ابشالوم جميع بني الملك وجاء ابشالوم إلى الملك وقال هوذا لعبدك جزازون ، فليذهب الملك وعبيده مع عبدك ، فقال الملك لابشالوم : لا يا ابني لا نذهب كلنا لئلا نثقل عليك فألح عليه ، فلم يشأ أن يذهب بل باركه فقال ابشالوم اذاً دع أخي أمنون يذهب معنا ، فقال الملك لماذا يذهب معك فألح عليه ابشالوم فأرسل معه أمنون وجميع بني الملك ، فأوصى ابشالوم غلمانه قائلاً متى طلب قلب امنون بالخمر وقلت لكم اضربوا امنون فاقتلوه ، لا تخافوا أليس أنا أمرتكم ؟ فتشددوا وكونوا ذوي بأس ، ففعل غلمان ابشالوم بأمنون كما امر ابشالوم ، فقام جميع بني الملك وركبوا كل واحد على بغله وهربوا ، وفيما هم في الطريق وصل الخبر إلى داود وقيل له قتل ابشالوم جميع بني الملك ولم يتبق منهم أحد ، فقام الملك ومزّق ثيابه واضطجع على الأرض وجميع عبيده واقفون وثيابهم ممزقة ، فأجاب (يوناداب) بن شمعي أخي داود وقال لا يظن سيدي انهم قتلوا جميع الفتيان بني الملك ، انما امنون وحده مات ، لأن ذلك قد وضع عند ابشالوم منذ يوم أذل ثامار اخته ، والآن لا يضمن سيدي الملك في قلبه شيئاً قائلاً ان جميع بني الملك قد ماتوا ، انما أمنون وحده مات وهرب ابشالوم ورفع الغلام الرقيب طرفه ونظر واذا بشعب كثير يسيرون على الطريق وراءه بجانب الجبل ، فقال يوناداب للملك هوذا بنو الملك قد جاؤوا ورفعوا اصواتهم وبكوا وكذلك بكى الملك وعبيده بكاءً عظيماً جداً ، فهرب ابشالوم وذهب الى (تلماي) بن عميهود ملك جشور ، وناح داود على ابنه الأيام كلها ، وهرب ابشالوم وذهب إلى جشور وكان هناك ثلاث سنين ، وكان داود يتوق إلى الخروج الى ابشالوم ، لانه تعزّى عن امنون حيث انه مات) انتهى .

ما رأي القائلين بعصمة الكتاب المقدس في هذه المسرحية اللاأخلاقية التي يرويها كاتب التراث الاسرائيلي في العهد القديم والتي تشبه في القرن العشرين

المذاهب اللامعقولة التي تناولت جوانب سياسية واجتماعية واخلاقيــة بلغة فنية غير معقولة ، فانتهت هي الأخرى بسرعة زمنية غير معقولة ولم يعد احد في العالم المعاصر يهتم بها او يفكر فيها .

ما رأي القائلين من علماء اللاهوت وشرّاح العهد القديم في ميراث النبوة المتداول والمنقـول كما زعموا في بيت اسرائيل من سبط لسبط ومن جيـل لجيل . ان المنابع الرئيسية التي اوقفنا أمامها وأرانا اياها كاتب اسفار العهد القديم لم نرَ في معظم مـــا دوّن وما سجل اثراً للنبوة الالهية وهدايتها او الأخلاق وضوابطها ، ان كاتب النصوص السابقة بعد ان ساق هذه الواقعـة الأثيمة ونسبها إلى واحد من انبياء الله ومـع اخته ، لم يستح في التعقيب عليها أن يقول لنا (ان داود ناح على ابنه الايام كلها) ولماذا والكاتب نفسه هو الذي ساق جريمة هتك عرض ثامار ابنة داود واذلالها وصنع القباحة في اسرائيل على يد هذا الابن امنون ، ولم يقل لنـا الكاتب ان داود (ناح على ثامار الايام كلها) خاصة وان الجاني ابنه والمجنى عليهـا ابنته ، أي ان الكاتب يريد النبوة الدينية التي اكرم الله بها داود عليه السلام والتي كان يجب ان تهيمن أول ما تهيمن على امنون واخوته حتى لا يقع في معصية كتلك ، شأنه شأن غيره من ابناء الزعمـاء البدائيين الذين تميزوا على امنون بأن لم يفعلوا القباحة في اخواتهم مفتقدة تماماً . وهنا يجيء سؤال رداً على مـا قد يلوكه ادعياء وعشّاق التأويلات اللاهوتية ، وهو إذا كان (ناثان) قد اخبر داود بعد واقعة امرأة (اوريا الحثي) التي زعم كتّاب التراث ان داود اغتصبها وقهرها وقتل زوجها وبأن نساء داود يقعن في نفس الشر ، ويأخذهن الغريب في عيني الشمس عقاباً له على ما فعله من شر في عين الرب ، فلماذا ناح على ابنه امنون الأيام كلها وعلى حد ما يزعم الكاتب تصبح هذه الجريمة التي قام بها امنون قصاصاً تنبأ به واحد من انبياء اسرائيل لا بد ان يقـع كما زعم كاتب الاسفار ، واذا صح كل هذا ــ وهو غير صحيـح ــ فما الذي ابقـاه

كتّاب التراث في العهد القديم من تراث ديني أو من قداسة حول بيت الملك النبي داود ؟.

هذا .. وفي الفصل التالي نحاول من خلال دراسة مختصرة أن نرى علماً من أعلام هذا البيت من خلال ذلك المنظار القبيح الذي رأى به كتّاب العهد القديم انبياء الله ورسله واعني به الملك النبي سليمان عليه السلام .

وبادىء ذي بدء فاننا نود أن نقرر ان الكاتب المنحرف الفكر والعقيدة يأبى إلا ان يطل على نهاية حياة هذا العلم العظيم في تاريخ النبوة والهداية بذلك المنظار الجنسي الاثيم فبعد ان افترى عليه في بدء عهده بالمملكة بخطيئة الجنس ثم بعد ان نسب لابنه وابنته ما نسب يرينا داود النبي المجاهد والد النبي سليمان المجاهد وهو يدخل من خلال رؤية كاتب الأسفار في مرحلة الشيخوخة ومقدمات الموت ، وبنهج الكاتب الآثم ينقل صورة وصفية خيالية أو منقولة عن امم بدائية لا ترتبط بدين او ايمان إذ مرض داود ويريد القوم جميعاً تدفئة جسده المحموم بالبرد فلم يجدوا دواءاً ، واشترك في البحث عن دواء للملك الخدم والعبيد والقوّاد والكهّان وكل قيادة الشعب الاسرائيلي ، فالملك النبي مريض والشيخوخة التي داهمته تعمل عملها في اوصاله الضعيفة ، وأي دواء وأي طب اهتدى إليه شعب اسرائيل عند كاتب الاسفار المقدسة؟ لا شيء إلا ان احضروا فتاة جميلة ، وجميلة جداً هكذا يصفها من احضرها في خياله وهواه المريض ، ويا ليت الفتاة لتمرضه وتشرف على طعامه وشرابه ، ولكن عند كاتب الاسفار وزعمه لتضطجع في حضن الملك عله بها يدفأ وتدب الحياة في اوصاله ، ويحاول كاتب الإثم أن يضيّق حجم الخطيئة التي يقترفها ويقذف بها ظلماً وعدواناً نبي الله فيقول : ان الحاضنة التي أتوا بها كانت تقوم بمهمتها الجليلة في حضن الملك النبي ولكن داود لمرضه لم يكن يعرفها ، وهكذا يطالعنا كاتب الخطايا وصانعها ومقترفها في اعقد المواقف وأدق الاحوال وعن أشرف الرجال بتلك المفتريات وكل ذلك من أجل تبرير

الخطيئة والآثام والمفاسد التي قام بها شعب اسرائيل على المدى الطويل ،
ولننظر إلى ما كتبه صاحب سفر الملوك الاول في الإصحاح الاول فقرات
١ — ٤ فماذا قال : (وشاخ الملك داود تقدّم في الايام وكانوا يدثرونه
بالثياب فلم يدفأ فقال له عبيده ليفتشوا لسيدنا الملك على فتاة عذراء فلتقف
أمام الملك ولتكن له حاضنة ، ولتضطجع في حضنه فيدفأ سيدنا الملك ،
ففتشوا على فتاة جميلة في جميع تخوم اسرائيل فوجدوا (بيشنج) الشوليه
فجاؤوا بها الى الملك وكانت الفتاة جميلة جداً ، فكانت حاضنة الملك وكانت
تخدمه ولكن الملك لم يكن يعرفها) .

هل لنا من تعليق على تلك النهاية التي أنهى بها الكاتب حياة نبي الله
داود ؟ في الصفحات الماضية وفي نقدنا لمنهج الكاتب ما يكفي ولننظر ما صنع
كاتب الاسفار المقدسة بابن الملك النبي واعني به النبي سليمان عليه السلام .

الفصل التاسع

النبي سليمان في رؤية العهد القديم

سفر الملوك الأول في الإصحاح الاول منه من بين أسفار العهد القديم هو الذي يطالعنا بالحديث عن النبي سليمان عليه السلام وبدء عهده بالحياة السياسية والدينية في إسرائيل بعد أبيه داود ، لكنه يطالعنا بسيرة سليمان عليه السلام من خلال صراعات سياسية ضخمة كانت تطمع في ملك اسرائيل في نهاية حياة داود ، وكان على رأس هذه الأطماع (أدونيا ابن حجّيث) الذي أراد أن يملن نفسه ملكاً على اسرائيل بعد ان تأكد ان داود في أيامه الأخيرة وكان يناوئه ويحول دون تحقيق اطماعه كل اولئك الذين كانوا كما سجل عنهم كاتب التراث في خدمة النبي داود مثل : صادوق الكاهن وبنايا هو ابن يهوياداع ، وناثان النبي ، وشمعي ، وريعي ، والجبابرة الذين رفضوا الاذعان لاطماع (أدونيا) ، وقد اتفق فيما يروي كاتب الاصحاح الأول من سفر الملوك الاول عنه هؤلاء على أن يكلم (ناثان) النبي بتشبع امرأة داود وام سليمان ، لكي تدخل على الملك داود وتخبره بأطماع (أدونيا ابن حجّيث) وتذكره بوعده وقسمه الذي كان قد أخذه على نفسه بأن يجلس ابنه سليمان من بعده وكان على ناثانه النبي والمجموعة التي يترأسها حول داود فيما نقل عنهم كاتب

سفر الملوك الأول أن يدفع بتشجيع لكي تتحدث بجرأة مع الملك لكي تخبر لماذا يترك أدونيا ابن حجّيث يفعل ما يقوم به ضد الملك وضد ابنه سليمان وينزع الملك عنهما ، واتفق الجميع على أن يلحق بها ناثان اثنـاء الكلام مع الملك ليكمل معه الحديث حتى يدرك الملك خطورة ما كانوا بصدده ويعلن تتويج ابنه سليمان ملكاً على اسرائيل . وبالفعل فان (بتشبع) على حد رواية الإصحـــاح الأول من سفر الملوك الاول دخلت على المـلك فخرّت وسجدت له ، فقال لها الملك مالك ، فقالت له انت يا سيدي حلفت بالرب إلهك لامتك قائلا : ان سليمان ابنك يملك وهو يجلس على كرسي[1] والآن هوذا (أدونيا) قد ملك وانت الآن يا سيدي الملك لا تعلم ذلك ، وقد ذبح ثيراناً ، ومعلوفات وغنماً كثيرة ودعا جميع بني الملك ، (ابياثار الكاهن) ويوآب رئيس الجيش ، ولم يدع سليمان عبدك ، وانت يا سيدي الملك أعين جميع اسرائيل نحوك لكي تخبرهم من يجلس على كرسي سيّدي الملك بعده ، فيكون اذا اضطجع سيدي الملك مع آبائه إني أنا وسليمان نحسب مذنبين . وبينما هي متكلمة مع الملك اذا (ناثان) النبي داخل ، فأخبروا الملك قائلين هوذا ناثان النبي ، فدخل إلى أمام الملك وسجد للملك علىوجهه إلى الارض ، وقال (ناثان) يا سيدي الملك أأنت قلت ان أدونيا يملك بعدي وهو يجلس على كرسي ؟ لانه نزل اليوم وذبح ثيراناً ومعلوفات وغنماً بكثرة ، ودعا جميع بني الملك ورؤساء الجيش (وابياثار) الكاهن وهــا هم يأكلون ويشربون امامه ويقولون : ليحيا الملك (ادونيا) وأما أنا عبدك وصادوق الكاهن (وبناياهو ابن (يهوداداع) وسليمان عبدك ، فلم يدعنا ، هل من قبل سيدي الملك كان هذا الامر ؟ ولم تعـلم عبدك من يجلس على كرسي سيدي الملك بعده ، فأجاب الملك داود وقـال ادع لي (بتشبع) فدخلت إلى أمام الملك ووقفت بين يدي الملك ، فحلف الملك وقال : حي هو الرب

---

(١) (سفر الملوك الاول) الاصحاح الاول فقرات ١٣ - ٣٤ .

الذي فدى نفسي من كل ضيقة انه كما حلف لك الرب إله اسرائيل قائلا ان سليمان ابنك يملك بعدي وهو على كرسي عوضاً عني كذلك افعل هذا اليوم» فخرت (بتشبع) على وجهها إلى الارض ، وسجدت للملك وقالت ليحيا سيدي الملك داود إلى الابد ، وقال الملك داود ادع لي (صادوق الكاهن) و (ناثان النبي) و (بناياهو بن يهوداع) فدخلوا إلى امام الملك ، فقال لهم الملك : خذوا معكم عبيد سيدكم ، واركبوا سليمان ابني على البغلة التي لي وانزلوا إلى (جيحون) وليمسحه هناك (صادوق الكاهن) و (ناثان النبي) ملكاً على اسرائيل واضربوا بالبوق وقولوا ليحيا الملك سليمان) .

وعلى حد رواية العهد القديم هذه التي في سفر الملوك الأول وفي الاصحاح الاول فإنه هكذا تكون البداية السياسية التي دخل بها سليمان بن داود غمار مرحلة من تاريخ بني اسرائيل أدى فيها دوره الديني والسياسي الفذ والذي تشوّه عبر التاريخ اليهودي حين ابتدأ كتاب الاسفار يدونون الحوادث ويسجلون الاخبار ويرون الاشياء بمنهجهم في صنع الزيف والهوى دون ما تقدير ديني او أعمال لفكر اخلاقي فيما كانوا بصدده من تناول لسيرة نبي او زعيم .

فما الذي ابتدأ يعمله سليمان في هذه المرحلة التي تولى فيها أمر اسرائيل على حد رواية العهد القديم والوالد النبي لم يزل بعد حياً وعلى فراش المرض؟.. أدرك سليمان لاول وهلة انه تولى الامر أمام قوى متصارعة وعديدة وكل منها لا تربطه بالقوى الاخرى أدنى علاقة من هؤلاء او عقيدة ، فاستطاع عقب عملية استجماع الارادة التي دبّت في بيت أبيه حين استثير داود على يد (ناثان النبي) بعد ان علم ان عرشه تتطاول عليه جماعات من عبيده أن يقف على قدميه ، فاستصدر ما يشبه الامر الملكي بأنه قد تنازل عن عرشه لابنه سليمان وابتدأ سليمان يوجه ضرباته بما يشبه — بناء على ما تقصه الاصحاحات الاولى من سفر الملوك الاول — اسلوب المؤامرات السياسية

واحاكة الوقيعة ليتخلص من القوى التي تقاومه اولاً بأول . وعقب تنفيذ قرار أبيه بتوليه الملك يبدو انه ابتدأ على الفور يعمل عمله فأرسل مجموعة من الذين أدوا دوراً في تهيئة الجو العام الذي جعل داود يتعجّل تنفيذ ما وعد به وذهبوا بالفعل يصنعون جواً من إشاعة الابتهاج والفرحة لدى جميع بيوت جماعات اسرائيل كي يخرجوا مواكب وجماعات تعلن تأييدها وسعادتها بتنصيب الملك الجديد ، ثم انفذ مجموعة اخرى وسط المؤيدين والمتعصبين في خدمة (أدونيا) كي يعملوا على سحب الأرض التي يقف عليها أدونيا حتى يصبح بغير أنصار حين يفرقون انصاره من حواليه ، حتى يلقوا في روع الجميع ان داود حين نصّب ابنه سليمان ملكاً قد تشدد وتقوّى وإنه مبتهج لانه عاش حتى يرى ابنه سليمان يجلس على كرسي عرشه ، وبالفعل فإن القوى التي أحاطت بسليمان استطاعت على ضوء خبر العهد القديم ان تفسح له الطريق مبكراً كي يتخلّص من كثير من أعدائه ويصبح السيد القوي ذلك ان (ادونيا) ما إن وجد التيار العام الذي كان حوله والقوة التي تسانده قد تخلّت عنه إلا وقد استسلم سريعاً دون أن يشكل خطراً او عوائق امام سليمان [1] .

وتقص أخبار الملوك الأول في الاصحاح الأول اخباراً مؤداها : ان سليمان حين ركب بغلة أبيه داود وذهب إلى جيحون في صحبة الكاهن (صادوق) كي يمسح بالزيت فان الشعب جميعه قد خرج يضرب بالناي يفرح ويغني ، ويصل الغلو عند كتّاب الأسفار في تأثرهم الروائي بصور من الخيال والخرافة إلى اقصى مداه حين يعبّر الكاتب عن فرحة الشعب بمسح سليمان وتنصيبه ملكاً. ان الأرض كانت تنشق من أصوات الجمهور الفارح المهلل . ويقول سفر الملوك في الاصحاح الأول : (فنزل صادوق الكاهن وناثان النبي وبناياهو ابن يهوياداع) والجلادون والسعاة ، وأركبوا سليمان على بغلة الملك

(١) (سفر الملوك الاول) الاصحاح الأول فقرات ٤٩ – ٥١ .

داود وذهبوا بـه إلى (جيحون) فأخذ صادوق الكاهن قرن الدهـن من الخيمة ومسح سليمان وضربوا بالبوق ، وقال جميع الشعب ليحيا الملك سليمان وصعد جميع الشعب وراءه وكان الشعب يضربون بالنـاي ويفرحون فرحاً عظيماً حتى انشقت الأرض من اصواتهم فسمع (ادونيا) وجميع المدعُوّيْن الذين عنده بعدما انتهـوا من الأكل وسمع يوآب صوت البوق ، فقال لمـاذا صوت القرية مضطرب ، وفيما هو يتكلم اذا (بيوناثان) الكاهن قد جاء فقال أدونيا تعال لانك ذو بأس وتبشر بالخير ، فأجاب يوناثان وقال لأدونيا بل سيدنا الملك داود قد ملك سليمان ، وأرسل الملك معه صادوق الكاهن وناثان النبي ، وبناياهوبن يهوداع ، والجلادين والسعاة ، وقد أركبوه على بغلة الملك، ومسحه صادوق الكاهن وناثان النبي ملكاً في جيحون ، وصعدوا من هناك فرحين حتى اضطربت القرية ، وهذا هو الصوت الذي سمعتموه ، وايضاً قد جلس سليمان على كرسي المملكة ، وايضاً جاء عبيد الملك ليبـاركوا سيدنا الملك داود قائلين : يجعل إلهك اسم سليمان احسن من اسمك وكرسيه اعظم من كرسيك ، فسجد الملك على سريره ، وايضاً هكذا قال الملك ، مبارك الرب إله اسرائيل الذي اعطاني اليوم من يجلس على كرسي وعيناي تبصران فارتعد وقام جميع مدعوي ادونيا ، وذهبوا كل واحد في طريقه ، وخاف أدونيا من قبل سليمان وقام وانطلق وتمسك بقرون المذبح فأخبر سليمان وقيل له هوذا ادونيا خائف من الملك سليمان وهوذا قد تمسك بقرون المذبح قائلاً ، ليحلف الملك سليمان انه لا يقتل عبده بالسيف ، فقال سليمان ان كان ذا فضيلة لا يسقط من شعره إلى الأرض ، ولكن ان وجد به شر فإنه يموت فأرسل الملك سليمان فأنزلوه عن المذبح فأتى وسجد للملك سليمان فقـال له اذهب الى بيتك) [١].

وعلى هذه الصورة التي يرسمها في غلو شديد كتّاب الأسفار ورجال التراث

---

(١) (سفر الملوك الاول) الاصحاح الأول فقرات ٣٨ — ٥٣ .

في العهد القديم دون جهد او مشقة قد استسلم امـام سليمان واحد ممن كان يتصوّر في نفسه صلاحية وأحقية لتولي امر القوم وسيادتهم وتنصيب نفسه ملكاً عليهم ، ولم تعد القوى التي تناوىء سليمان من جماعات اسرائيل تشكل خطراً عليه ، ولم يكن لها عنده كبير اهمية ولذا .. فان الحديث عن سليمان فيما ورد عنه ابتداء من الإصحاحات الثاني إلى الحادي عشر من سفر الملوك الأول في النسخة البروتستانتية والإصحاح الثالث إلى الحادي عشر في النسخة الكاثوليكية وكذلك الاصحاحات ابتداء من الأول الى التاسع من سفر أخبار الأيام الثاني لم يستغرقهـا الحديث ولم تتوسع فيما توسعت فيه الاصحاحـات المتعلقة بداود في سفر صموئيل الثاني حين لم يظهر فيها بوضوح معاني الدعوة الدينية ومبادئها وقيمها على يديه حسبما سجل كتّاب هذه الإصحاحات على داود عليه السلام باستثناء موقف الكهف الذي كان بين داود وشاول .

ورغم ان الموضوعات العديدة المتعلقة بسليمان لم تخل في حالات كثيرة من التعرّض للتفـاصيل الغير الموضوعية مثل الاخبار المتعلقـة بقتل سليمان لاخيه (أدونيا) بحجة طلبه الزواج من جرية أبيه وايضاً مثل عزله لبعض الكهان الذين نازعوه في بدء سلطانه وقتله للبعض الآخر ، ومن ذلك ايضاً عزله على حد رواية الملوك الاول (ابياثار) الكاهن وقتله ليوآب قائد الجيش الخائن لداود حين مرضه عندما تآمر الاثنان معاً أبياثار ويوآب وساندا أدونيا الاخ قتله سليمان ، إلا انه على ما يبدو لم يستطع مؤلف احـداث سليمان في الملوك الاول الذي ابتدأ يدوّن لعصره أن يتغافل ما انتهى اليه عن تيـار عام وميراث بني اسرائيل وهو ان الرجل كان في كل ما قام به ومثّله ودعا إليه ، يمثل دور الرسالة الدينية عند بني اسرائيل ، ومن هنا جاءت بعض فقرات سفر الملوك الأول بغير أن تمسخ تمامـاً صورة العمـل الديني على يد سليمان ولذا يمكن أن نلمح من فقرات سفر الملوك بمنهجه وهو يصوّر سليمان ومبـادئه واخلاقه الدينيـة وهو تصور مهما يكن من الرفض الديني لكل تفاصيله عند المؤمنين بسليمان من غير اليهود وعلى أساس من معطيات دينية

مقدسة غير معطيات أسفار العهد القديم ترى في دين الرجـل النبي الرسول سليمان معاني مطهّرة وتبصر دعوته وخلقه بمعيار أكرم وأطهر ممـا تصوره فقرات سفر الملوك في العهد القديم وأخبارهـــا ، إلا انه يبقى بين ايدينا نصوص التراث اليهودي في العهد القديم للذين يؤمنون بها في دعواهم ونظرتهم للأنبياء ولتاريخ بني اسرائيل تمثل أساساً دينيـاً عندهم ينظرون اليه من خلال معتقدهم في النبوة والرسالة الإلهيـة وهو كما قدّمنا لا يقوم على عصمة النبوة ولا على تنزّه الانبياء .

والاصحاح الثـاني من سفر الملوك الأول يتحدّث عن الأسس العـــامة والمبادىء التي نمت في أعماق سليمان ووجدانه منذ غرسها في قلبه الأب النبي الرسول داود عليه السلام ، ولما جـاء المسجل اسفر الملوك الأول لم يستطع اغفال هذه المعاني او اهمال التعبير عنها فجاء بين ثنايا ما كتب عبارات أو دلالات تتعلق بأخلاق النبوة والانبياء عندهم ولا بأس بها ، فماذا قال سفر الملوك الاول .

(...: ولما قربت ايام داود اوصى سليمان ابنه قائلاً [1] : أنا ذاهب في طريق الأرض كلها فتشدد وكن رجلاً . احفظ شعائر الرب إلهك إذ تسير في طرقك وتحفظ فرائضه ووصاياه وأحكامه وشهاداته كما هو مكتوب في شريعة موسى لـكي تفلح في كل مـا تفعل وحيثما توجهت ، لكي يقيم الرب كلامه الذي تكلم به عني قائلاً : إذا حفظ بنوك طريقهم وسلكوا أمامي بالامانة من كل قلوبهم وكل انفسهم ، قـال لا يعدم لك رجل عن كرسي اسرائيـل) .

ثم أصبحت هذه المعاني الدينية التي روتها أسفـار العهد القديم ميراثاً متداولاً لكن لا يعمل به ولا يهتم به وأراد كاتب الأسفار في هذه المرحلة أن

---

(١) سفر الملوك الأول الاصحاح الثاني : فقرات ١ - ٥ .

ينهي إلينا ان سليمان دخل دائرة النبوة والهداية بلغة العهد القديم في اصحاحات سفر الملوك الاول ليمارس دوره من تاريخ بني اسرائيل بهذا المدخل الى ان أصبح سليمان يسلك كثيراً من أمور الحياة العامة على هدى من حكمة الله كما يقص التراث الاسرائيلي عنه من خلال الموقف الذي جاء فيه الى سليمان امرأتان وكل واحدة منهما تتصارع في احقيتها بطفـل رضيع بدعوى انهما معاً ولدت كل منهما ولدا ، وبالليـل اضطجعت احداهما على ولدها فمـات فجاءت واحدة منهما الى الثانية النـــائمة وأخذت الولد من جانبها دون ان تحس بها ووضعت الطفل الميّت بجوارها ، وعليها فابتدأت كل واحدة منهما تدعي أمومتها للولد الحي ، وأخيراً حسبما يروي كاتب الاصحاح الثالث من سفر الملوك الاول ويقص فان سليمان قد وضع اختباراً لمعرفة الحقيقة فقال : ايتوني بسيف ، وطلب أن يشطروا الولد الحي إلى نصفين ليعطـوا لكل واحدة نصفه ، وأمام هــذا القرار صرخت المرأة التي هي أم للولد الحي ، وقالت لا تفعل يا سيدي اعطوها الولد الحي ولا تميتوه وأما المدعية، فقالت في عناد لا يكون لي ولا لك اشطروه فأجاب الملك وقال اعطوها الولد الحي ولا تميتوه فانهـــا أمه وطرد المدعية ، وعلى حد نص كاتب الاسفـار : (... ولما سمع جميـع اسرائيل بالحكم الذي حكم به خافوا الله ، لانهم رأوا حكمة الله فيه لاجراء الحكم)[1] .

وكما قلنا فإنه يشتم من بـين فقرات سفر الملوك الاول عن اخبار سليمان رائحة من دين ، والدين هنــا هو الذي لا يقوم برهاناً على حقيقــة ما كان يمثله سليمان عليه السلام أو على إنه صلب الوحي الإلهي لسليمان ومقوماته وحقيقته ولكن هذه النماذج هي البقية الباقية من آثار النبـوة فيما حفظوه من تراث النبوة الذي ظهر بين ثنايا لغة كاتب الاسفار ، لكنه في العهـد القديم تتوه أو تختفي هذه المظاهر أمام الكثرة الكثيرة من مجموعة الحوادث التي ساقها

---

(١) (سفر الملوك الأول) الاصحاح السادس : فقرات ٢ – ٧ .

كتّاب سيرته متصلة بنبي الله سليمان لتجله متميزاً عن غيره من انبيـاء بني اسرائيل في صراع الحوادث السياسية وتطور المجتمع فما هي أهم هذه الحوادث على ضوء رواية العهد القديم لها بعد ان اشتغـل كتاب التراث بالاهتمام بسيرة سليمان سياسياً اكثر من اهتمامهم بابراز الجانب الديني مع انـه فيما يبدو من سياق كتاب هذه المرحلة كان لديهم بقية من معلومات لا تتناقض كثيراً وما يمكن أن يكون صورة معقولة عن عصر النبي سليمان ومظـاهر النبوة ودلالتها على يديه .

يخبرنا العهد القديم انه ما ان استقرت الأمور واطمأن سليمان إلى انـه يمكن أن يدخل مرحلة من العمل الديني والسياسي إلا وقد بدأها بالفعل ، وكان ذلك ابتداء من السنة الرابعة من حكمه الطويل الذي قارب الاربعين عاماً ، وكان أول ما فكـّر فيه ونزل به إلى الواقع وعبأ له مشاعر الشعب الاسرائيلي واستجمع همتهم وكلفهم ضرائب وأتاوات من أجلـه هو كما زعم كتّاب التراث الاسرائيلي اقامـة قصر كبير تمتد من حواليه مرافق عامـة وبنايات كثيرة ، وحين تم البناء اطلق على هذا القصر الكبير اسم : (بيت الرب) وعند الحديث عن هذا البيت يفيض العهد القديم بآيات الغلو والخيال إلى الحد الذي لم يعمل فيه المؤلف عقله على الاطلاق ليتصور هل امكانيات القدرة الانسانية في التحضر واستعمال الأدوات المادية وغيرها يساعد على تقبل هذه الصور الخيـــالية الرهيبة ام لا : فالبيت في العهد القديم طوله ستون ذراعاً وعرضه عشرون ذراعاً وسمكه ثلاثون ذراعاً ، والرواق قدّام هيكل البيت طوله عشرون ذراعاً حسب عرض البيت وعرضـه عشر أذرع قدّام البيت ، وللبيت كوى مسقوفة مشبكة ، ومع حائط البيت طباقاً حواليه مع حيطان البيت حول الهيكل والمحراب وبنيت حيطان البيت من داخل بأضلاع أرز من ارض البيت إلى حيطان السقف ، وغشاه من داخل بخشب وفرش أرض البيت بأخشاب سرو وكذلك بني ايضـاً عشرون ذراعـاً من مؤخر البيت بأضلاع ارز من الارض إلى الحيطـــان ، وبني داخله لاجل

المحراب ، أي قدس الاقداس وأربعون ذراعاً كانت البيت أي الهيكل الذي أمامه ، وأرز البيت من داخل كان منقوراً على شكل قثاء ، وبراعم زهور الجميع أرز ، ولم ير حجر ، وجميع هذه المباني غشيت من الداخل بذهب خالص ، وسد بسلاسل ذهب قدّام المحراب وغشاه بذهب ، وجميع البيت غشاه بذهب إلى تمام كل البيت ، وكل المذبح الذي للمحراب غشاه بذهب وعمل في المحراب كروبين من خشب الزيتون علو الواحد عشر أذرع ، وخمس أذرع جناح الكروب الواحد ، وخمس أذرع جناح الكروب الآخر ، عشر اذرع من طرف جناحه إلى طرف جناحه ، وعشر أذرع الكروب الآخر .. وجناحه ، وعشر أذرع الكروب الآخر .. وجميع حيطان البيت في مستديرها ، رسمها نقشاً بنقر كروبيم ، ونخيل براعم زهور من داخل ومن خارج ، وغشي ارض البيت بذهب من داخل ومن خارج[1] .

وأخيراً مهما كانت صور التراث الاسرائيلي وتخيلات الراوي حول بناء البيت مما لا يقبل عقلاً ، فضلاً عن الرفض الطبيعي لامكانيات عصر سليمان فالمحقق والمعقول أن سليمان ابتنى بيتاً ومحراباً وكانت فنون العمارة الشائعة تتضاءل بجانبه، فقد سخر له النبي سليمان كل ما يمكن أن تجود به امكانات جماعات اسرائيل وغيرهم ، هذا البيت في لغة التراث الاسرائيلي ومعطياته البداية العملية لظهور مرحلة العمل الديني والسياسي على يد سليمان، وتشير سيرته في سفر الملوك الأول إلى هذا المعنى ، فتعود تبرز الجانب الذي قلنا عنه سابقاً انه غير موجود وغير متوفر في كل ما قصه العهد القديم عن داود أبيه ، وهو ابراز بعض قيم الدعوة الدينية او ملامحها العامة ، ونلمح في الحديث عن سليمان في رواية سفر الملوك الأول أهمية العمل الديني لكنه يبرز بدون الاستغناء عن المظاهر الفارغة لسائر الهيكل وترانيم العبادة الاسرائيلية التي كان يقوم بها مجموعات الكهان في كهنوتية ابعد ما تكون

---

(١) (سفر الملوك الأول) الاصحاح السادس : فقرات ١٤ — ٣٠ .

عن روح الدين ، وتتساوى رواية سفر الملوك في حديثها عن سليمان ورواية سفر صموئيل في حديثها عن داود من حيث ربط اشكال العبادة بالمظاهر المادية والرموز الوثنية .

يقول كاتب الإصحاح السادس من سفر الملوك الأول. (وكان كلام الرب إلى سليمان قائلاً : هذا البيت الذي انت بانيه ان سلكت في فرائضي وعملت احكامي ، وحفظت كل وصاياي للسلوك بها ، فاني اقيم معك كلامي الذي تكلمت به إلى داود أبيك واسكن في وسط بني اسرائيل)[١] .

بالفعل فإن اخبار النبي سليمان لم يتيسر لمؤلفها أن يغفل تماماً ان سليمان كان قد التزم بأن يحاول هدم صراعات المجتمع الاسرائيلي وتناقضاته ، وان ينادي هذا المجتمع إلى الرب الإله بمنهج غير مشوب بالسلوك الوثني الذي لم يسلم منه كل الذين تحدث عنهم التراث الاسرائيلي وتناولهم ، فمثلا نلمح من بين الإصحاح الثامن سفر الملوك الأول ان سليمان اوقف جماعة اسرائيل امامه وبسط يده إلى السماء وقال :

(... أيها الرب إله اسرائيل ليس إله مثلك في السماء من فوق ، ولا على الأرض من أسفل حافظ العهد الرحمة لعبيدك السائرين امامك بكل قلوبهم)[٢] .

وهذه الاشعاعات الخفيفة عن ملامح العقيدة الدينية المتطهرة التي تحمل سلوكاً منزهاً ، على ضوء ما هو مقرر في نقاء العقيدة الدينية عند مصادر اخرى غير مصادر التراث الاسرائيلي على ضوء الأصول والقواعد التي يمكن أن تنسب إلى نبي او رسول واعني بهذه المصادر لغة القرآن الكريم وعطائه في الحديث عن النبوة والرسالة الالهية . هذه الاشعاعات الخفيفة في تاريخ

---

(١) (سفر الملوك الأول) الاصحاح السادس : فقرات ١١ — ١٣ .

(٢) (سفر الملوك الاول) الاصحاح الثامن : فقرات ٢٣ — ٢٤ .

بني اسرائيل لم تظهر كثيراً في تراث العهد القديم كما قلنا غير ان سليمان عليه السلام كان قد اخذ على عاتقه أن يقود عمليات التطهير الديني التي رفضت تماماً من كل قلوب بني اسرائيل ومشاعرهم منذ دعوة موسى اليهم ليعبدوا الاله الواحد ويقيموا العدل فيما بينهم غير انهم لم يستجيبوا لدعوة الايمان ولم يحققوا العدل فيما بينهم ، ولذا فإن المؤلف الذي سجل ودون لمرحلة سليمان وسواء كان هذا المؤلف من أنصار سليمان أو خصومه كتب ما كتبه بعد عصر سليمان بزمن كبير أو صغير لم يستطع أن يغفل تماماً مسحة الملامح الدينية المقترنة بالسلوك الديني الذي لازم سليمان فيما عبّر عنه التراث بعد ذلك من مواقف وسلوك .

غير اننا وسط السياق العام والقصص الكثير المتعلق بسليمان نعثر على بضع فقرات تستوقف الباحث وتلفت نظره كثيراً ، وحقيقة ان هذه الفقرات في دلالتها العامة لا تمثل تناقضاً صارخاً او خلطاً او لغواً كبيراً يمسخ شخصية سليمان ويشوّهها على حد ما ذهبت أسفار صموئيل مع أشخاص آخرين وخاصة النبي داود لانها كما ألمحنا لم تخل من سمة تكشف عن الملامح العامة لبعض الدين الذي دعا اليه سليمان ، إلا انها تكشف عن معنى لم يفطن اليه مؤلف التراث الذي دوّن لهذه الحقبة ونسب ما قرره لسليمان ، وهذا الذي نلمحه بين سطور الجمل والفقرات الواردة في الإصحاح الثامن من سفر الملوك الأول فيه نغمة الرواية الدينية التقليدية في كتب العهد القديم وخاصة كتب الانبياء الصغار الذين تناولناهم بالتعريف والدراسة والنقد ، وفي هذه الفقرات عبء الميراث التاريخي المشحون بالمذلة والضياع منذ عصر السبي بعد تمزيق كيان الجماعات الاسرائيلية يبدو واضحاً .

وإذا علمنا ان بداية السبي والتشريد وخاصة سبي بابل الذي ذهب فيه إلى الضياع والمذلة كل جماعات بني اسرائيل في هوان وضياع لم يعرفوه من قبل كان حوالي عام ٥٨٥ ق - م حين أغار نبوخذ نصر ملك البابليين بعد ان كانت دولة (آشور) قد قضت على ما يدعى بـ (مملكة يهوذا)

في اورشليم و (اسرائيل) في السامرة[1] وقضت بالتالي على الدعوى، الاسرائيلية المتعلقة بالمملكتين اللتين انقسمتا من الدولة الواحدة التي تحدث عنها التراث الاسرائيلي في عصر سليمان لأدركنا ان مراحل تدوين سيرة سليمان في العهد القديم كانت على مراحل وفترات طويلة وكانت بعد السبي .

ومسحة الشعور بالسبي ومذلته التي تكسو بيان بعض الفقرات المتعلقة بأدعية سليمان وحديثه للرب فيها ما يؤكد انه نسبت اليه بعد وفاته بزمن طويل ، فان الفرق الزمني بين نهاية دولته وبين بداية عصور السبي والتشرد اليهودي كانت لا تقل عن ٣٢٥ سنة على أقل تقدير ، هذا اذا علمنا انه يكاد أن يكون هناك مؤخراً ما يشبه الرأي العلمي الواحد المتفق عليه على ان نهاية دولة سليمان كانت حوالي عام ٩١٠ او ٩٠٠ ق – م وبداية سقوط مملكة يهوذا في ايدي البابليين ونهب مدينة القدس وتدميرها تماماً بأيدي البابليين وقيادة (نبوخذ نصر) كان حوالي عام ٥٨٥ ق – م .

وعلى هذا التقرير الذي نحقق له بمنهجنا الذي أشرنا اليه في دراسة تراث بني اسرائيل في العهد القديم فان الفقرات التي سنأتي عليها الآن هي من الفقرات التي تعرضت لذكر السبي ومذلته ، وحينئذ لا يصبح لها أدنى علاقة بحياة سليمان ولا بحديثه ومناجاته لربه بل تبطل نسبتها اليه ، وكل ما فيها من رائحة الدين يدل على ما كان قد بقي فترة من الوقت عند بعض اليهود من ذكريات عن سيادة لهم في عصر سليمان انتهت تماماً ولم تعد أكثر من ذكريات عندما جاء المصنف يدوّن ما انتهى اليه .

يقول سفر الملوك الأول من الاصحاح الثامن فقرات ٤٤ – ٥٠ : (اذا خرج شعبك لمحاربة عدوه في الطريق الذي ترسلهم فيه وصلوا إلى الرب نحو المدينة ، التي اخترتها والبيت الذي بنيته باسمك ، فاسمع من السماء صلاتهم

---

(١) (محمد علي علويه) : « فلسطين والضمير الانساني » دار الهلال القاهرة عام ١٩٦٤ م صفحة ٥٤ .

وتضرعهم ، واقض قضاءهم اذا اخطأوا اليك ، لأنه ليس انسان لا يخطىء ، وغضبت عليهم، ودفعتهم أمام العدو وسباهم سابوهم الى أرض العدو، بعيدة او قريبة ، فإذا ردّوا إلى قلوبهم في الأرض التي يسبون اليها ورجعوا وتضرعوا اليك في أرض سبيهم قائلين : قد اخطأنا وعوّجنا وأذنبنا ورجعنا اليك من كل قلوبهم ، ومن كل أنفسهم في ارض اعدائهم الذين سبوهم وصلوا اليك نحو ارضهم التي اعطيت لآبائهم نحو المدينة التي اخترت والبيت الذي بنيت لاسمك، فاسمع في السماء ما كان سكناك صلاتهم وتضرعهم ، واقض قضاءهم ، واغفر لشعبك ما اخطأ به اليك وجميع ذنوبهم التي اذنبوا بها اليك ، واعطهم رحمة أمام الذين سبوهم فيرحموهم) .

وهذه السمة المتشائمة في هذه الفقرات المستجدية في تحفظ اثناء مراحل السبي تؤكد ما ذهبنا اليه من انه لم يكن هناك من داع او مبرر على الاطلاق أن تأتي عبارات السبي والمذلة والتشرد وطلب العفو والمغفرة من الذين سبوا اسرائيل دون أن تكون قد وقعت بالفعل اعمال سبي ومطاردة وتشريد ، خاصة وان سياق هذه الفقرات لم يجيء كما يدّعي شراح التراث على انها نبوءة بما سيكون ، وحتى لو نسبها او ادعى شراح التراث على انها نبوءة فان العصر الذي تدعى اليه والنبي الذي تنسب اليه لم يكن اي منهما لا العصر ولا النبي بحاجة إلى ان يبشّر أصحاب ملك ومجد وهيكل وزهو وعبادة مدّعاه بهذه النهاية المفجعة ، واذا علمنا ان دعوى التراث عن مجتمع اسرائيل ومملكة اسرائيل ترتبط دائماً بالفترة التي كان فيها سليمان على بني اسرائيل والتي يحاول شراح التراث تصويرها والتعبير عنها بأنها فترة زمنية من الامن والاستقرار في مجتمع كان يفتقد الأمن والاستقرار ، وبأنها كانت دولة الدين ودولة سيادة الجنس الاسرائيلي على من عداه لأدركنا انه لم يكن من المعقول وسط كل مظاهر الأمن – المدعاة – ووسط طلب الشعب التوسع والانتشار وامتداد السلطان وقوة انتشاره في بقاع كثيرة وسجود أمم له على حد ما تذهب الاصحاحات التي تتناول سيرته في سفر الملوك الأول أقول

انه وسط كل هذه المعاني من غير المعقول ابداً أن يجيء سليمان ويتحدّث عن السبي وأن يقول لربه فيما زعم الكاتب (... وأعطهم رحمة أمام الذين سبوهم) بينما لم يكن هناك سبياً في عصر سليمان ولم تكن هناك مذلة أو تشريد ، ولا محل هنا أبداً لما يقوله شراح العهد القديم من ان هذه الفقرات وأمثالها كانت نبوءة من سليمان على اعتبار عندهم ، وهو ان سليمان يتكلم باسم الرب عما سيقع لشعب اسرائيل ، فالمناخ الذي كان الشعب الاسرائيلي عليه وسليمان يقوده لم يكن ليساعد على تقديم هذه الصور القاتمة التي نراها في هذه النصوص، وعليها فيصبح من المعقول انه حتى هذه الفقرات المنسوبة إلى سليمان نبي الله عليه السلام في كل ما ورد من عبارات في العهد القديم ليست بالطهر والصدق والنقاء الذي يجب أن تكون عليه ، والجزء الأعظم منه في مضمونه لو افترضنا صدق الكاتب وهذا أمر غير وارد لأن القرائن تدل على عدم صدقه يمكن تفهمه على أساس من انه قال كنبي ورسول خاطب ربه بأدعيات ومناجاة لم يستطع مسجل التراث يومها أن يدونها بالشكل العف والأمين في نقل النص والذي يتصوّر انها كانت عليه بحكم ان الرجل نبي ثم لما ابتدأ القوم يدونون لكل ما نسبوه لسليمان كان هذا الشكل المتهافت في الرواية ، وسواء أكان سليمان قد قام به وضاعت الحقيقة ان نسب اليه أم انه كان له بعض دور فيه ، فان الظروف التي كانت تبرز من بين ثنايا ما يكتب نساخ التراث كما هو واضح فيما حققنا له حول ادعاء المنسوب لسليمان في سفر الملوك الأول من الاصحاح الثامن من ظهور نغمة تفصح عن حوادث ومفاجآت تعرضت لها الجماعة الاسرائيلية ولم تكن لها مقدمات في عصر سليمان تؤكد صحة نسبتها اليه أو صدقها ، غير انه يبقى لنا أن نقول انه فوق التدليل على ان فقرات الاصحاح الثامن من الملوك الاول فيما يتعلق بسليمان وغيره بعيدة تماماً عن سلامة القداسة الدينية وتفتقد إلى عصمة النص وأمانة التدوين ، فإنه بالإضافة للرجوع إلى مصادر أخرى دينية غير التوراة حول دور سليمان في تاريخ الدعوة الدينية، والتقبل العقلي لكل

ما جاء فيها من تأكيد لعظمة الرجل وطهارة دينه وأهميـة رسالته تتحقق صورة مثالية ونقية عن كل مواقف الرجل فيما يتعلق بدينه او علاقته بربه ، أما الأمر هنا في أسفار العهد القديم فإنه يختلف تماماً ذلك انه لم يستطع كل الرجال الذين تداولوا سيرة هذا النبي أن يبرزوا الحقيقة الدينية عند نبي الله كما كانت كذلك هؤلاء الرجال أن يسجلوا كل ما يمكن ان يستفاد من رسالة سليمان الدينية عليه السلام ، إلا ان تقرير الدعوة الدينية والوقوف على ملامحها أدباً ودعاءاً وفكراً وسلوكاً ، يصبح من الاشياء المرتبطة بموضوع الدين في حد ذاته ودور سليمان النبي فيه عليه السلام ، وتأثير الدعوة التي دعا اليها في مناخها وبيئتها والبشر الموجه اليهم الدعوة ، وهذا هو ما أفصح عنه القرآن الكريم بعد ذلك حين تناول سيرة نبي الله صلى الله عليه وسلم بالدرس والكشف عن دوره العظيم في تاريخ النبوة والانبياء .

هذا .. ومن خلال النظرة العامة لكل السياق العام لتاريخ بني اسرائيل في المرحلة التي أدى فيها سليمان دوره الديني والتاريخي فإننا نجد بعد ذلك عند كتّاب التراث الاسرائيلي على ديدنهم بعيداً عن المبادىء والقواعد الدينية التي تستفـــاد من غير مصادر التراث الاسرائيلي في العهد القديم ، صوراً ونماذج أخرى أكرم وأطهر كثيراً من تلك التي يطالعنا بها العهد القديم .

ومن الجدير بالذكر انه على ضوء الصورة التي نقلها كتاب العهد القديم فإن الدور السياسي الذي قـام به الرجل افترى فيه عليه كثيراً وذلك بعد تشويه ملامح وأبعاد الدور الديني العظيم الذي قام به هذا النبي الكريم ، وأيضاً على المنهج الذي ارتضيناه في دراستنا النقدية لتراث العهد القديم الذي تفيض به الأسفار من خلال كتب العهد القديم ، نتابـع من ملامح الرجل سياسياً لنعرف ولنقف على منهج تراث اسرائيل في العهد القديم كيف يتناول أنبياء الله ورسله ، فما هو البعد السياسي والتاريخي الذي قام به سليمان على ضوء لغة العهد القديم ومروياته المتنافرة وعطـائه المتعدد الصياغة المختلف المنهج المفتقد لعنصر الايمان ووحدة الموضوع .

الفصل العاشر

الدور السياسي للنبي سليمان في العهد القديم

كان للغة العهد القديم في تناولها لدور سليمان السياسي اكبر الأثر في ذلك اللغو واللغط الذي نراه في معظم كتابات شراح اللاهوت وعلماء التاريخ والحضارة من الغربيين عند تناولهم لمسار التاريخ المتعلق ببني اسرائيل ووقوفهم امام المرحلة التي كان فيها سليمان ملكاً على بني اسرائيل يقيم مجد الدين وسلطان الدنيا بحسب لغة العهد القديم ، وكانت هذه اللغة التي ساق بها كتاب العهد القديم اخبار سليمان السياسية الدافع وراء كثير من علماء التاريخ ليقرر في غباء انه فوق اعتبارات الدين والدعوة اليه فان الرجل قد أسس تاريخياً لبني اسرائيل مجداً سياسياً في كل ارض فلسطين وبادية الشام والمنطقة المتعلقة بهما وحولها من آسيا وافريقيا ، وهذا المجد الاسرائيلي المزعوم ان سليمان قد أسسه هو في لغة هؤلاء الكتاب الميراث التاريخي الذي يحمله اليهود في عنصرية شديدة جيلاً بعد جيل ليربطوا وجودهم الحضاري في هذه المنطقة من العالم بأساس من هذا التاريخ ويصل الادعاء في دعوى القوم وهم بصدده تصوير ملامح هذا المجد السياسي انهم يصلون بغلوهم في توسيع رقعة الارض التي بسط سليمان سلطانه عليها إلى تلك المنطقة الممتدة على طول المحيط

الهندي جنوباً والتي يحدها الحجاز من ناحية الشمال ، والبحر الاحمر من جهة الغرب ، وهي البلاد اليمنية التي كانت تتمتع في عصر سليمان او على وجه التحديد منذ بدأت دولة (سبأ) التي استمرت حوالي تسعة قرون من ١٠٠٠ — ١١٥ ق.م بالوحدة الاقليمية في ظل الدولة العربية السبأية ، ولم تكن كما فعل الاستعمار بالارض العربية في العصر الحديث حدوداً فاصلة بين شمال وجنوب يلعب ما بين حدود صنعها بفكره وتياراته ومذاهبه المادية الملحدة والمستغلة ما يشاء .

والدعوى التي يعثر عليها الباحث في تاريخ سليمان السياسي على ضوء ما في العهد القديم عنه هي تلك التي تقول ، ان سليمان قد امتد حكمه ، في الفترة التي ادى فيها دوره في بني اسرائيل إلى هذه الارض العربية ، حين كانت عليها ملكة سبأ التي كانت واحدة من الذين تناوبوا الحكم في ارض اليمن بعد ان سقطت دولة (المعنيين) التي كانت تحكم اليمن ثم تطرق اليها الضعف وانتهت بالسقوط على ايدي حكام سبأ [١] .

وهذه الدعوى التي لعب بها خيال الذين كتبوا في خدمة اليهود ، والذين جرفهم الخيال في تحقيق بعض النصوص تعتمد على بضع فقرات او نصوص وردت في سفر الملوك الاول ابتداء من الاصحاح العاشر تتحدث عن الغزو والتوسع في عصر سليمان وعلى يديه .

ورغم ان جانب المعجزة الإلهية المقترن دائماً بالادوار العظيمة التي يقوم بها المرسلون ، حين تفاجئهم عقبات او تحديات او توضع في طريق الرسالة عراقيل ، فيكون دورها هو المؤثر في الحركة التي امامهم ، وفي مجريات كل الحوادث التي تجري على يديهم ، وقد اخبر القرآن الكريم ، عن جوانب من

---

(١) (دكتور عبد الفتاح شحاته) : تاريخ الامة العربية قبل الاسلام : الطبعة الاولى عام ١٩٥٧ — القاهرة .

المعجزة الإلهية التي كانت تحيط بحركة سليمان وسلوكه باعتباره نبياً رسولاً لكل المحيطين به ، وذلك حين قص اخبار الملك سليمان بن داود ولم يغفل قوته واستعداده المقترن دائماً بارادة الله وقدرته ، وبأنه قد أوشك ان يجرّد حملة ويقوم بها لغزو اليمن بعد الموقف الذي عبّرت فيه الملكة اليمنية (بلقيس) عن رفضها الأبي الشجاع لما شاع عندها على يد بعض الذين أغرموا بتشويه الحقائق من أن الملك الذي بجوارها قد يكون ممن يقيمون وجوده وسلطانه على القوة والقهر والغلبة ، فقالت قولتها التي عبّر عنها القرآن الكريم بعد ذلك في نص دقيق وعبارة محكمة : (... قالت ان الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها ..) الآية [1] . فكان ردّ سليمان وانفعاله وتأثره من أسلوب الملكة ومن قومها الذين تجرأوا عليه فقد كانوا بجوارها وحولها قوة ومنعة حتى جعلها تقول فيه هذا القول عندما تناهى اليها بعض أخباره فذهبت بنفسها لكي تعرف ما يتهدد مجتمعها ، فما كان من القوم الذين كانوا حولها إلا ان تركوا لها مفوّضة منهم حرية التصرف على ضوء ما ترى وقالوا لها كما عبّر عنهم القرآن الكريم : (... نحن أولوا قوة وأولوا بأس شديد والأمر اليك) الآية [2] .

وأمام هذه المواجهة كان قول سليمان فيما أخبر عنه القرآن الكريم لا فيما قص التراث الاسرائيلي يفصح عن حال سليمان وبأنه غاية في القوة التي تقوم على العون الإلهي : (فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها ولنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون) الآية [3] .

أقول رغم إيماننا الذي لا حد له بأن جانب المعجزة الإلهية يقترن دائماً بالأدوار العظيمة التي تقوم بها الرسالات السماوية على يد اصحابها الداعين اليها، فان رواية العهد القديم قد شوهت الحقيقة السياسية التي كانت في عصر سليمان عليه السلام تماماً ، ومع ان ما تحدث عنه القرآن الكريم مخبراً عما كان يستطيع

---

(١) ، (٢) ، (٣) سورة النمل : الآيات ٣٤ ، ٣٣ ، ٣٧ .

سليمان عليه السلام القيام به هو حقيقة الحقائق المطلقة فيما يتعلق بأخبار سليمان التي ترد في قصص القرآن ولا شك فيهـا بالقطع وخاصة انهـا تعطي طابعـاً عنصريـاً او ادعائيـاً ، إلا أن نصوص العهد القديم وهي دين الذين يتعلقون بدعوة لا برهان عليها وهي انهم ابناء سليمان واحفاده وانهم اهله واصحاب ميراثه ، تقول اشياء من بين تناقض رواياتها لا تساعد على التصور التعصبي الذي يقيم شراح التراث الاسرائيلي دعواهم على اساسه ، وهذا الذي يمكن ان يؤخذ من سياق النصوص التي وردت في سفر الملوك وغيره لا يساعد شراح التراث الاسرائيلي على دعواهم ، بل يقدم الدليل على انه لم يكن هناك حتى ما يشبه التمكن الاسرائيلي من الأرض العربية او جزء منها ، فانه من بين لغة العهد القديم ومن مجمل الرواية فيـه نستطيع ان نرى منهـا انه لم تكن هناك مملكة بمعناها العنصري المتوارث في لغة العهد القديم، بل ولم يكن هناك توسعات سياسية كما هو متصور في ميراث القـوم وعقيدتهم ، وحتى بالفرض فانه ان صدقت رواية العهد القديم وهي التي تقوم على الكذب والافتراء بغير ما سند او منطق فان هذه المملكة المدعاة وهذه الحدود التي لم تكن، ليست ملكاً للقوم وحدهم دون غيرهم ، ولا تعبّر عن الحدود السياسية المصنوعة في اوهام دعاة التراث الاسرائيلي وأتباعه .

يقول سفر الملوك الأول من الاصحاح العاشر وهو يلقي بعض ضوء عمـا يقوم برهاناً فلت من بين سياق عبارة كاتب التراث على ان المملكة لم تكن تمثل وحـدة الكيان العنصري المدعي في معظم كتب التراث الاسرائيلي .. (... وسمعت ملكة سبأ بخبر سليمان لمجد الرب ، فأتت لتمتحنه بمسائل ، فأتت إلى اورشليم بموكب عظيم جداً ، بجمال حاملة أطياباً ، وذهبـاً كثيراً جـداً ، وحجارة كريمة ، وأتت إلى سليمان وكلمته بكل مـا كان بقلبها ، فأخبرها سليمان بكل كلامها ، لم يكن أمر مخفي عن الملك لم يخبرها به، فلما رأت ملكة سبأ كل حكمة سليمان والبيت الذي بناه وطعـام مائدته ومجلس عبيده وموقف خدامه وملابسهم وسقاته ومحرقاته التي كان يصعدها في بيت

الرب لم يبق فيها روح بعد ، فقالت للملك صحيحاً كان الخبر الذي سمعته في أرضي عن أمورك وعن حكمتك ، ولم أصدق الأخبار وأبصرت عيناي ، فهوذا النصف لم أخبر به ، زدت حكمة وصلاحاً على الخبر الذي سمعته طوبى لرجالك، وطوبى لعبيدك، هؤلاء الواقفين امامك دائماً ، السامعين حكمتك).

هذا .. ونحب أن نقرر ان لغة العهد القديم وما يقصه تمثل عند المؤمنين به من اليهود حقيقة الحقائق وخاصة عند الغلاة منهم عندما يزيفون وفيما يدعون ، وليس لمصادر التاريخ الأخرى من قيمة او تقدير فيما تقصه عن اليهود ، إذا كان لا يوافق المصلحة والهوى ، وإذا كانت لا تتحدث عن اباحة وتقرير التوسع السياسي والسيطرة المدعاة لبني اسرائيل على ارض واسعة تمتد وتتسع، حتى تصل الى تلك المنطقة الممتدة على طول المحيط الهندي جنوباً، يحدها الحجاز من ناحية الشمال، والبحر الأحمر من جهة الغرب، هذه الأرض التي كانت تتمتع في عصر سليمان بالسيادة والاستقلال والوحدة بين كل أجزائها على يد الملكة العربية (بلقيس) يدعي المتعصبون من شراح التراث علاقتهم التاريخية بكل هذه الأرض ، وبكل ما يسوقه شراح العهد القديم في هذه القضية نستطيع أن نضعه أمام النص الذي سقناه ، فانه يقوم برهاناً على سيادة قطاع كبير من الأرض العربية تحت حكم ملكة عربية لم تستوعبه الدولة المدعاة .

هذا .. ونحب أن نقرر أن الكثير مما يستفاد من العهد القديم في كشف ادعاءات الغلاة من أصحاب التراث ليس مقصداً هدف اليه مؤلفو الاسفار بقدر ما هو معنى لم يفطن اليه حين ابتدأ التدوين ، فمثلاً لا نعثر في فقرات كتلك التي أتينا عليها والتي تكشف عن بداية العلاقة بين النبي سليمان والملكة العربية (بلقيس) على روح التوسع او الغزو او التهديد المنسوبة إلى سليمان بالرغم مما يفيض به التراث اليهودي بالزيف والادعاءات في هذه المرحلة، وإنما كما تقول الفقرات التي أتينا عليها : ان ملكة سبأ قد سمعت بأخبار

سليمان وبحكمته وبالدين الذي يدعو اليه ، وقد سمعت به وهي في موقعها من اسيادة قومهـا ولم يأتهـا التهديد ولم تقم على حدودها الجيوش أتت اليه لكي تتعرف عليه وما يمكن ان يكون بينه وبين شعبها ، والعهد القديم هنا يبرز في قصصه معنى لم يفطن اليه معظم من كتبوا في شرح العهد القديم، وهو أن مجيء بلقيس إلى اورشليم حيث يقيم سليمان لم يكن على سبيل الود، بل كانت سيادة الشخصية العربية قائمة وسائدة ولم يكن محاولة لاقامة علاقة طيبة من جانب الدولة العربية والجيران الأقوياء، ولم يقصد بهذه الزيارة خلق حالة من الأمان يأمن فيها الجانب الضعيف سلطان الجانب القوي، ولكن النص الذي افلت من بين سياق مـا كتب كاتب الاصحاح العاشر في سفر الملوك الأول يقول : (... فأتت لتمتحنه بمسائل) : والمؤدي الواضح والبدهي أن دعوة سليمان كانت قد امتد الحديث عنها وعن بعض آيات المعجزة الإلهية المقترنة بها إلى أرض اليمن ، وان الرجل مع كل ذلك يواجـه جحوداً ونكراناً من قومه ، تغلب عليه بالمؤامرة السياسية التي نسبها اليه وادعاها كاتب التراث بينما الشعب في مملكة بلقيس ، يستشرف للمعرفة ، ويتطلع إلى الوقوف على أحوال جيرانـه ، وللتعرف على الدعوات والنظم السائدة ، فكانت رحـلة بلقيس بمبادرة منها كي تقف بنفسها، ويقف معها الشعب العربي في اليمن الذي كان قد نصّب بلقيس ملكة عليه ، على حقيقة الدعوى التي كانت قد سرت أنباؤها إلى أرض اليمن القديمـة ، لذا حملت معهـا على حد رواية الاصحاح العاشر من سفر الملوك الأول خيراً كثيراً ووصلت إلى سليمان كما يقول السفر: (فأتت إلى اورشليم بموكب عظيم جداً بجمال حاملة أطياباً وذهباً كثيراً جداً وحجارة كريمة وأتت إلى سليمان وكلمته بكل ما كان بقلبها) .

والعهد القديم هو الذي يفصح عن أن الحوار الذي تم بين بلقيس وسليمان لا يساعد على تقبل المفتريات التي يلوكها القصص الديني اليهودي عن السيطرة الاسرائيلية في عصر سليمان على الأرض العربيـة . تقول الفقرة رقم ٦ من الاصحاح العاشر في سفر الملوك الأول وهي التي جاءت بين السياق تعبّر عن

مضمون ديني رأته بلقيس في سليمان وهو مضمون مفتقد تماماً بين ثنايا الاسفار : (فقالت الملك صحيحاً كان الخبر الذي سمعته في أرضي عن أمورك وحكمتك) .

وعلى هذا ، فانه لم تكن هناك بداية تهديد من جانب سليمان الى الأرض المجاورة له ، ولم يكن منهج الرجل ولا دينه يسمحان له ان يشنّ الحروب حول جيرانه وكل ما يدور حول هذا الادعاء فإنما هو لغط وخيال مريض يجترّه المتطرفون من دعاة العنصرية وأنصار التعصب ومحبي السيطرة على الشعوب ومقدراتها .

هذا..ويطالعنا الاصحاح الحادي عشر من سفر الملوك الأول بما لا يعاون على تلك الدعوات المبالغ فيها عن ان سليمان أقام ملكاً ومجداً وتفرغ للغزو والتوسع ، ذلك أن كاتب الفقرات الأولى من هذا الاصحاح يرينا نبي الله عليه السلام في صورة لا تليق ولا تعاون على التفرغ لانجاز ما يدعي من سيادة وسيطرة وتوسع ، ذلك أنه أرانا نبي الله عليه السلام وهو أبرأ ما يكون عن ان يقع فيما تخيّله كاتب الأسفار وما ادعاه على نبي الله أرانا نبي الله يقع في حب نساء غريبة وكثيرة من الأمم الذين قيل عنهم في العهد القديم : لا تدخلوا اليهم ولا يدخلون اليكم ، ولا نعدم المفارقات والأخطاء والمآثم عند كاتب سيرة سليمان ، فقد زوّج الكاتب في الاصحاح الحادي عشر من سفر الملوك الأول في الفقرة رقم ٣ نبي الله سليمان عليه السلام بسبعمائة امرأة زوجة سيدة أي حرّة ، وثلاثمائة امرأة زوجة أمة وانتهى الأمر به معهن إلى أن يقول الكاتب في الفقرة رقم ٤ : (.. وكان في زمان شيخوخة سليمان أن نساءه أملن قلبه وراء آلهة أخرى،ولم يكن قلبه كاملاً مع الرب كقلب أبيه داود). ويريد الكاتب الآثم بهذا أن يقدم لنا نبي الله بعد كل ما ادعاه عليه من مجد وسلطان وسيادة وتوسع مرتداً يعبد (عشتروت) على حد ما ادعى كاتب تراث اسرائيل،ولا نريد مناقشة هذا الجانب لأن نفس الاصحاح الحادي عشر

يطالعنا في سيرة سليمان بجوانب سياسية أهم من هذه المفتريات التي كثيراً ما رأينا كتّاب التراث ينسبونها إلى انبياء الله ورسله .

هذا .. وعلى حد ما جاء في سيرة سليمان عليه السلام في كتب العهد القديم فان الكاتب يطالعنا بأخبار غريبة في سفر الملوك الأول من الاصحاح الحادي عشر لا تتفق وزيف الدعوى التي تتحدث عن المجد والمملكة والتوسع ابّان عصر الملك سليمان ، فالنص في الاصحاح الحادي عشر يقول صراحة : (ان الرب تخلى عن سليمان وعن مملكته وأقام لسليمان خصماً ويتوسع كاتب الاصحاح عند هذه النقطة كثيراً إلى ان يفيد أن الخصم استقطب قوى كثيرة ارتدت عن سليمان وأصبحت تشكل عليه خطراً وترفض وجوده عليهم ، وأمام قوة هذا الخصم الذي انشق على وحدة الشعب الاسرائيلي المدعاة وعلى السيادة التي كان يدين لها بالولاء نفس هذا الخصم لسليمان ويقر له بالسيادة ، فان سليمان على ضوء هذه الرواية يكون قد عاش بداية التمزق السياسي ولم يستطع أن يفعل شيئاً على حد ما يروي كاتب الاصحاح الحادي عشر في الملوك الأول .

ومن أعجب العجب أن الثائر الخصم الذي تسميه كتب التراث الاسرائيلي في العهد القديم (هدد الأدومي) كان في آخر ايام داود قبل أن يتولى سليمان أمور جماعات اسرائيل يشكل خطر التمرد بل والموت لجماعات اسرائيل ويؤرق داود ويزعجه ، وحين استجمع له داود — على حد رواية العهد القديم — إمكانات مقاومته اضطر هذا الثائر أن يذهب إلى مصر ومجموعات من الذين كان يقود ثورتهم ويمثل بهم الموقف المضاد لداود وحكمه ، ولم يلن موقفه المتحرر ويهدأ او يهادن سليمان حين أصبح سليمان سلطان القوم المنشق هو عليهم وعلى نظام حياتهم ، فبعد أن تقوّى وأصبح قوة وأمن على نفسه بحماية المصريين له عقب أن تزوج من شقيقة زوجة الفرعون المصري تكريماً له وتعضيداً لثورته كان قد قرر العودة إلى سليمان ، ليدخل معه في معارك

ويبدأ الصدام بين قوى متصارعة في مجتمع اسرائيل، وبالفعل أنه حين أعلن مواصلة الثورة والتمرد ضـد سليمان أصبح يشكل على سليمان خطراً ينفرد الاصحاح الحادي عشر في سفر الملوك الأول بإبرازه إلى الحد الذي يقول فيه الكاتب عن (هدد الأدومي) : (... وأقـام الرب خصماً لسليمان (هدد الأدومي) كان من نسل الملك في آدوم)[1] .

ومع أن من بين نصوص الاصحاح الحادي عشر في سفر الملوك عبارات لم تقـدم تفصيلاً عن الصراع الذي حل بجماعات اسرائيل أيام داود حين تمرّد عليهم الثائر (هدد) إلا أنه من بين نصوص الاصحاح الحادي عشر ايضاً في نفس سفر الملوك وكذلك الاصحاحات من سفر أخبـار الأيام الثاني مـا يستفاد منها أن (هدد) لم يكن أول ولا آخر القوى المضادة التي حملت على عاتقهـا أن تثير الفتن والقلاقـل في مجتمع اسرائيل مؤمـلة في تحقيق مصالح شخصية او متمردة على ما ألف القوم واستمرأوا من اسلوب حياة وممارسة أوضاع للسخرة والسيطرة والاستغلال . فقد هبّ ثائر آخر في وجه سليمان ، وأثار له الكثير من الفتن والقلاقل وهو (روزون بن اليداع) وهذا الثائر كان تمرده على سليمان امتداداً لموقفه من والد سليمان نفسه من داود حين كان ملكاً، بل كان روزون بن اليداع من أتباع (هدد) ، ثم أصبح يمثل موقفاً آخر في الثورة على جماعات اسرائيل ، وامتد نشاط روزون ، ونظم جماعات ثائرة إلى الحد الذي أصبحوا فيه قوة بجانب سلطان سليمان المعبر عنه في الأسفار بأنه كان يهدد الأمم والشعوب وتسجد له الملوك ، كانت هـذه القوة الثائرة ترفض مهادنة جماعات سليمان او الاستجابة لهم او المعايشة معهم ، وأقاموا لهم مملكة جعلوا عاصمتها (دمشق) ، ولم يسلم مجتمع اسرائيل في ايام سليمان على ضوء رواية الاصحاح الحادي عشر من سفر الملوك الأول من احتمال انقضاض مفاجيء عليهم من القوى المتربصة بهم في دمشق ، حيث لم تتح لسليمان أن

---

(١) (سفر الملوك الاول) الاصحاح الحادي عشر : فقرة رقم ١٤ ،

يتمكن منهم أبداً فضلاً عن أن يأتوا اليه ساجدين او أن ينضووا تحت لوائه وتصبح دولة اسرائيل سليمان هي وحدها التي تمثل القوة السياسية على امتداد الأرض العربية كما حاول شراح التراث أن يزعموا ذلك .

وفي التدليل على خطأ ما ذهب اليه معظم كتّاب التراث الاسرائيلي في العهد القديم عن سليمان ومملكته وعن أساليب الغزو والتهديد التي ينسبونها اليه ولم يقم بها عليه السلام ، يقول الاصحاح الحادي عشر من سفر الملوك الاول وهو يكشف من بين الفلتات والتفاوت التدويني الذي جاء بين فقرات الكتاب وسياق عبارات التدوين المتباعدة : (... وأقام الله له خصماً آخر (روزون ابن اليدع) الذي هرب من عند سيده (هدد عزر) ملكها (صوبه) فجمع اليه رجالاً ، فصار رئيس غزاة عند قتل داود إياهم ، فانطلقوا إلى دمشق وكان خصماً لاسرائيل كل ايام سليمان مع شر (هدهد) فكره اسرائيل وملك على آرام) [1] .

هذه بعض الصور والملامح والنماذج التي تقوم بين ثنايا وفقرات ما دوّن كتّاب العهد القديم برهاناً غير مقصود منهم ودليلاً غير متعمد على أن يستهدفوا به الحقيقة لكنه جاء من خلال تفاوت لغة ومعلومات وعصور المدونين والمسجلين يقوم بين أيدينا اليوم من خلال الدراسة النقدية الشاملة لكل اسفار العهد القديم يقوم برهاناً على ان كل مفتريات وادعاءات الذين تناولوا التراث بالنقد والتعليق عليه حول دولة سليمان وملكه ومجده وتوسعه والغاء الشخصية القومية للوجود العربي حوله ، إنما هو باطل لا أساس له من فكر او مستند ولا تقوم براهين العهد القديم دليلاً عليه بل ان الفقرات والنماذج العديدة التي أتينا على بعضها من بين السياق العام لبعض الاصحاحات تقول بغير ذلك تماماً .

---

(١) (سفر الملوك الأول) الاصحاح الحادى عشر : فقرات ٢٣ - ٢٥ .

والعجيب الملفت للنظر حقاً على ضوء رواية أسفار العهد القديم ان موقع مصر على باب شمال شرقي افريقيا وفي ظهور فلسطين والأرض العربية مع وجود الممر البري الآمن عبر سيناء العظيمة جعل دور مصر أصيلاً بل وجوهرياً في كل ما يجري في هذه المنطقة من سياسات وصراعات ، والدليل على ذلك ما طالعتنا به أسفار العهد القديم من قيام حكام مصر بمساندة وتأييد اولئك الذين اعتبرهم كتّاب العهد القديم ثواراً ضد سليمان ومملكته ولم يهيئوا له نوعاً من الاستقرار أو الأمن الحال الذي يتعذر معه بعد ذلك النظر إلى دعوات القائلين بالتوسع والسيادة على كلها بنوع من الاهتمام أو التقدير أو التصديق .

وفوق هذه المعطيات التي تؤكد انشقاق قوى كثيرة اسرائيلية وغيرها من التي عاهدت سليمان وانفضاضها من حوله فان نصاً كالذي بين ايدينا عن تمرد (روزون) وثورته . وكان خصماً لاسرائيل كل ايام سليمان مع شر (هدد) فكره اسرائيل وملك على آرام ، ويؤكد لنا ان (الآراميين) وهم من الطوائف العربية التي كانت بفلسطين ايام سليمان بل كانوا من الجماعات العربية الاولى التي هبت تصد الغزو الاسرائيلي منذ بدء ايام (يشوع) لم يكونوا قد استسلموا لسليمان ولم يكونوا قد اندمجوا في جماعات اسرائيل بل كما تشعر عبارة الاصحاح كانوا قد استطاعوا ان يتحرروا من سلطان سليمان بعد ان كانوا بمنجاة تماماً عن تمكن داود منهم وعدم سيطرته عليهم ، ثم على حد هذه الرواية لم تكن الفتن الداخلية وقلاقل المتمردين والثائرين باعتبارها تناقضات المجتمع الاسرائيلي في عصر سليمان عليه السلام هي كل ما يمكن العثور عليه في رواية اسفار العهد القديم فان المملكة المدعاة والمجتمع قد تفتت كيانهما حين تمكن واحد من الثوار ان يشطر مجتمع سليمان إلى شطرين ويؤلف فريقين يضرب كل منهما الآخر حتى عمل فيهما التناقض عمله بالذبول والضعف والتفتت والضياع ثم الزوال تماماً ، وكانت بداية هذه المرحلة من الضياع في نفس المرحلة

التي كان يعيش فيها سليمان الجزء المتبقي له من عمره وسط تناقضات المجتمع الاسرائيلي وصراعات تمزقه .

ذلك انه قد تعرض المجتمع الاسرائيلي لصدع قام بـه ثائر غير الخصمين الذين سجل اخبارهما كاتب الاصحاح الحادي عشر وكان الثائر هذه المرة من كبار بني اسرائيل ، ومـن الذين يرتبطون في سلسلة عائليـة يدعيها التراث الاسرائيلي ارتباطاً بالآباء الاول إلى أن يصل بهـم من ايام سليمان إلى المصادر المباشرة من يعقوب بن اسحق بن ابراهيم (عليهم السلام) وهو الثائر (يربعام) ابن نباط من بني افرائيم بن يوسف ، وكان قـد نشأ في منطقة يطلق عليهـا (صريدة) ولعلها هي قرية (صريدة) في منطقة (نابلس) اليوم وكان هذا الرجل قوياً فاضطر سليمان إلى أن يعبىء ضده كل امكانياته . وبعد أن ضيق سليمان عليه الخناق وأدرك أنه لن يستطيع أن يحقق كل مآربه في الثورة على سليمان قرر أن يعـد نفسه من جديد وأن ينظم صفوفه ويحمي ظهره بقوى تساعده على الانشقاق وتحقيق مقصده فلجأ إلى مصر ، وقد كان له في مصر كل ما أراد .

من عجب أن موقع مصر على باب شمال شرقي افريقية الرهيبة وفي ظهر آسيا الواسعة مع وجود الممر البري الآمن الواقع شمال شرقي مصر على طول واتساع سيناء العظيمة جعلها دائماً حيث الاستقرار والامن وارتباط بالارض حول نهر النيل مقصد كـــل الذين ضاقت بهـم ظروف نضالهم ، او قامت المطاردة في بلادهم ضدهم كما جعلها أيضاً هـــذا الموقع مقصد الذين يصنعون مستقبلهم وآمـالهم في ثورة على اوضـاع الاستغلال والسيطرة ، او أساليب الظلم والقهر ، ومن هنا فمنذ قديم الزمان ويمتلىء التاريخ بقصص الذين لجأوا إلى مصر واحتموا بها وأعدوا أنفسهم بين شعبها طالما لم يشكلوا خطراً عليها، ويلجأ الكثيرون في القديم والحديث اليها وخاصة حين تكون السيادة عليها من أبنائها وعلى مثل هذا المعنى فقد قرر الثائر (يربعام) هو الآخر ان يجيء

إلى مصر ليمكن له الاعداد لمواصلة الثورة ضد جماعات اسرائيل وسلطانهم ، وبالفعل فان (يربعام) قد وجد في مصر كل العون حين أمد له الفرعون المصري (شيشنق) يد المساعدة وزوده بجيش قوي تمكن به (يربعام) من زعزعة اركان المجتمع الاسرائيلي وأعد يربعام بثورته وتمزيقه لكيان الجماعات الاسرائيلية وبعثرة شملها الذي تتحدث عنه التوراة امكانيات القضاء نهائياً على جماعات اسرائيل حتى اذا ما أراد هذا الفرعون المصري ان يتخلص من هذه الجماعات العنصرية المتصارعة على الحدود بجواره تيسر له ذلك في يسر وسهولة ، ومن يطلع على النقوش الموجودة على السور القبلي من هيكل الكرنك بالاقصر يجد فيها تسجيلاً لاسماء المدن التي فتحها الفرعون المصري (شيشنق) وهذه النقوش مكتوبة في ٩٦ سطراً وعلى كل منها صور الاعداء الذين تخلص منهم الفرعون المصري . ومن بين صور الاسرى صورة لملك فلسطين ، موثق اليدين . وبالنقوش ايضاً صورة لرجال من اهل فلسطين كل منهم يشير إلى مدينة من المدن التي استولى عليها الفرعون المصري وهذه المدن من مختلف انحاء فلسطين الجنوبية منها والشمالية الشرقية .

والذي نود أن نقرر له أنه حتى على فرض التسليم بأن ما يقصه العهد القديم حول ما يتعلق باخبار النبي سليمان يمثل الحقيقة او بعضها فان المجتمع او المملكة التي يتحدث عنها كتّاب التراث الاسرائيلي نستطيع ان نقول ان هذا المجتمع او هذه المملكة لم يسلم من القلاقل والاضطرابات وكل مظاهر الفوضى والتخريب كانت تنتاب هذه المملكة وفي ابّان ازدهارها ويكفي في عدم التأصيل تاريخياً لميراث هذه المملكة انه فوق الرفض الكامل لطوائف كثيرة جداً من الشعب العربي ظلت على عنادها وابائها ورفضها لسيادة سليمان فان من بين حالات السخط والرفض والتنكر والاهتزاز السياسي المراحل الثلاثة التي تحدث عنها كاتب اسفار الملوك الاول في استفاضة ، وكل منها يمثل ثورة كاملة تستقطب جمهوراً كبيراً بل وقوى من هذه المملكة المدعاة ، لامر الذي جعل المملكة تتصدع حتى في حياة صاحبها على حد رواية كتاب

العهد القديم ايضاً وما ان ينتهي امره ليتولى امر المجتمع الرجل المفترض فيه انه من ابناء المجتمع ومن سادته الذين يمكن ان يستجيب لهم الشعب ويرضخوا لهم وهو (رحبعام) بن سليمان لم يستطع ان يقف على قدميه ولم يتيسر له جمع شمل القوى الثائرة ضد سليمان بيت داود ومـا ان عاد الثائر (يربعام) من مصر ليواجه (رحبعام)بن سليمان إلا تشققت المملكة وتصدعت وانقسمت إلى قسمين كل منهـما يعمل ضد الآخر حتى اصبحـا لقمـة سائغة في يد قوى اخرى لعبت دورها على مسرح التاريخ السياسي في هذه المنطقة من الارض التي حاول التراث الاسرائيلي ان يزيف كل المراحل التي مرت بها ، وحتى بات الامر في حقيقته ، يختلط فيه الحق بالباطل ، ويجهد الباحث نفسه في امكانية الوقوف على ملامح الحق والصدق في جوانب هذا التاريخ الذي طمست فيه اخبار العهد القديم كل معالم الحق والصدق والنور ولا يعثر لهـم الباحث على أثر كبير في اسلوب ومنهج كتّاب العهد القديم الذين تناولوا هذه الحقبة بالتدوين.

الصراع الديني والسياسي بعد سليمان :

العهد القديم وحده في سفر الملوك الأول الاصحاح الثاني عشر هو الذي يطالعنا عن الظروف الغير الطبيعية والمشحونة بالقلق والاضطرابات فيأواخر حياة سليمان ويبرهن على انها كانت مناخاً ساعد على تعميق حدة تنـاقض المجتمع الاسرائيلي وظهور علاقات الصراع التي كانت أقرب مـا تكون إلى الاقتتال الفئوي أو الحزبي اذا جاز هذا التعبير فما ان تولى (رحبعام) ابن سليمان امر الجماعـات الاسرائيلية عقب موت أبيـه إلا وجـد نفسه بين تيارين متضادين كل منهما يمثل المصلحة المذهبية التي ينتمي اليها، ومن عجب أن سفر الملوك الأول في الاصحاح الثاني عشر هو الذي يحدد لنا الفئات التي تغلبت على أمر السيد الجديد ، وجعلته طوع إرادتها ، وكانت فيما تمثله وفي مكوناتها لا تمثل خلقاً او سلوكاً نقياً وكانت هذه المرحلة بالذات هي بداية النهاية التي لم يستطع فيها مؤلفو الأسفار بعد ذلك أن يتحدثوا عن مجد او

سيادة أو توسع بعدهـا ولم يعد يقرر مسجـل العهد القديم أحاديث الشعب البطل المقاتل والشجاع الشعب الذي كان ينزل الرب يقاتل بين صفوفـه ، كأنه من ابنائه وعلى حد رواية الاصحاح الثـاني عشر في الملوك الأول فان الانقسام الذي طرأ على جماعات اسرائيـل وجعلهم يقتتلون فيمـا بينهم ، ثم يشنون فيما بينهم وبين انفسهم مختلف أنواع الحروب والإغـارة ، حتى لم يبق فيهم من جهد او مظاهر من ترابط بينهم تجعلهم أو تمكنهم من الوقوف في مواجهة القوى التي أرادت ان تتخلص من دعوي العنصرية وزيف الأوهام التي كان القوم يتداولونها على انها الميراث الديني الخاص بهم والخصائص التي ترتبط بهم كان نتيجة مباشرة على حد ما يقص الاصحاح الثاني عشر من ان: (رحبعام [1] ذهب إلى (شكيم) لأنه جاء شكيم جميع اسرائيل ليملكوه ولما سمع يربعام بن نباط وهو بعد في مصر لأنه هرب من وجه سليمان وأقام يربعام في مصر ، وأرسلوا فدعوه ، أتى يربعام وكل جماعة اسرائيل وكلموا رحبعام قائلين : ان أباك قسى نيرنا ، وأمـا أنت فخفف الآن من عبودية أبيك القاسية ومن نيره الثقيل الذي جعله علينا فنخدمك فقال لهم اذهبوا إلى ثلاثة أيام ايضاً ثم ارجعوا إليّ ، فذهب الشعب ، فاستشار الملك رحبعام الشيوخ الذين كانوا يقفون أمام سليمان أبيه وهو حي قائلاً : كيف تشيرون أن أرد جواباً إلى هذا الشعب ، فكلموه قائلين ان صرت اليوم عبـداً لهذا الشعب وخدمتهم وأجبتهم وكلمتهم كلامـاً حسناً يكونون لك عبيـداً كل الأيام ، فترك مشورة الشيوخ التي أشاروا بها عليه واستشار الأحداث الذين نشأوا معه أمامه وقال لهم بماذا تشيرون انتم فنرد جوابـاً على هذا الشعب الذي كلموني قائلين: خفف من النير الذي جعله علينا أبوك ، فكلمة الاحداث الذين نشأوا معه قائلين : هكذا تقول لهذا الشعب الذين كلموك قائلين : ان أباك ثقل نيرنا وأما انت فخفف من نيرنا ، هكذا تقول لهم : ان خنصري

---

(١) الملوك الأول : الاصحاح الثاني عشر فقرات ١ — ١١ .

أغلظ من متني أبي ، والآن أبي حملكم نيراً ثقيلاً ، وأنـا أزيد على نيركم . أبي أدبكم بالسياط وانا أؤدبكم بالعقارب فجاء يربعام وجمع الشعب إلى رحبعام في اليوم الثالث كما تكلم الملك قائلاً ارجعوا إليّ في هذا اليوم الثالث، فأجاب الملك الشعب بقساوة وترك مشورة الشيوخ التي أشاروا بها عليـه وكلمهم حسب مشورة الأحداث قائلاً : أبي ثقل نيركم وأنا أزيـد على نيركم ، أبي أدبكم بالسياط وأنا أؤدبكم بالعقارب .

ومن هذا النص الذي ورد في الاصحاح الثاني عشر من سفر الملوك الأول يمكن أن يستفاد منه انه حين جاء يربعام الثائر على سليمـان من مصر كان قوياً جداً وكانت القوى المحيطة به تمكنه من أن يظهر للسيد الجديد ويجابهه وتنضم اليه بعض جماعات اسرائيـل على حد رواية النص الذي بـين ايدينا ويذهب لمقابلة رحبعام ويصبح على رأسهم ، وكما يستفاد من النص ايضـاً يتضح ان فئة من حديثي العهد بالصراع او المتسلقين من القوى الجديدة التي ظهرت على المسرح قد تمكنت من سليمان الى الحـد الذي انقطعت فيه صلة الرجل بالشعب وأصبح يحدثه بقسوة ودون ارتباط او ولاء او رعـاية من أحد الطرفين للآخر ، وكان رد الفعل الذي تصوره الاصحـاحات في سفر الملوك الأول ان القوى التي رفضها رحبعام قد تعـاونت وتلاقت واستغلت وجود الثائر يربعام وانضمت تحت لوائه ورضيته سيداً عليها ، وأعلنوا خلع ولائهم وكل ارتباطهم ببيت داود وابنائه من بعده ، ومن عجب أن تكون هذه الاستنتاجات من بين ما فلت من أقلام كتاب العهد القديم وخاصة الذين كتبوا اصحاحات الملوك الأول والاصحاحات الأولى من أخبار الأيام التالي :

وأصبح الحال كنتيجة طبيعية للبداية السيئة التي تعرضت لهـا جماعات اسرائيل من عصر سليمان وخاصة اخريات أيامه انه عقب موته مباشرة لم يتمكن ولده من الاحتفاظ حتى بالتركة التي كان قد استشرى فيهـــا داء الصراع والوشاية والاستغلال فجعلها مجموعة من البشر وليس بين بعضها أدنى

ولاء او ارتباط بقيمة حياة او عقيدة دين وإنما قطيع من البشر يساق حسب المصلحة والهوى ودون اعمال عقل او تدبر فمن يسلط نفسه عليهم كي ينصبوه اليوم يخلعونه غداً ، وعدو الأمس ، سيد اليوم ، وهكذا تكون العلاقة بين القوم وسيدهم دائماً وأبداً ، وبالفعل ، فان كل جماعات اسرائيل وهي التي لم تنته بعد من مبايعتها لرحبعام بن سليمان قد وصل بها الحال إلى طريق مسدود فلم يكن بينهم من يستطيع مقاومة اعوجاجه حين ضل وحين تكالبت عليه مجموعات المتسلقين والمتصيدين تبايعت وانضوت تحت قيادة الرجل الجديد (يربعام) ليصبح يربعام بالموقف الجديد معول الهدم الذي تحطمت به الدولة ولتصبح جماعات اسرائيل بالانقسام بين فئتين متقاتلتين متصارعتين تعمل كل منهما ضد الاخرى بأمل القضاء عليها والتخلص منها .

ويقول سفر الملوك الاول وهو يعبر عن ظهور الرجل الجديد (يربعام) الذي انضوى تحت لوائه الجزء الأكبر من الشعب الذي تمرّد على رحبعام مثلما تمرّد عليهم هو الآخر (.. فلما رأى كل اسرائيل[1] ان الملك لم يسمع ، رد الشعب جواباً على الملك قائلين أي قسم لنا في داود (أي في بيت داود) ولا نصيب لنا في ابن يسى ، الى خيامك يا اسرائيل ، الآن انظر الى بيتك يا داود ، وذهب اسرائيل إلى خيامهم ، وأما بنو اسرائيل الساكنون في مدن يهوذا فملك عليهم رحبعام ، ثم أرسل الملك رحبعام (أدورام) الذي على التسخير فرجمه جميع اسرائيل بالحجارة فمات ، فبادر الملك رحبعام وصعد إلى المركبة ليهرب إلى اورشليم فمضى اسرائيل على بيت داود إلى هـذا اليوم ، ولما سمع جميع اسرائيل بأن يربعام قد رجع فدعوه إلى الجماعة وملكوه على جميع اسرائيل لم يتبع بيت داود إلا سبط يهوذا وحده) .

وهكذا فان الجزء الذي ظل على ولائـه او غلب على امره وارتبط

---

(١) (سفر الملوك الأول) الاصحاح الثاني عشر ١٦ - ٢٠ .

برحبعام بن سليمان كان منحصراً في سيطرة يهوذا وحده وقابعاً في منطقة اورشليم (القدس) بينما كانت الجماعات التي تسمّت باسم اسرائيل قد جمعت نفسها واستقرت بعض الشيء في منطقة (نابلس) وكانت تسميها (السامرة) كعاصمة لجماعات اسرائيل، وابتدأت السامرة تدخل حروباً ضد (اورشليم) واقتتلت (يهوذا) واسرائيل كما يقول سفر الملوك الأول في الاصحاح الرابع عشر : وكانت الحرب بين رحبعام ويربعام كل الأيام وفي السنة الخامسة من حكم رحبعام امتد سلطان مصر إلى اورشليم واحتلتها وأنهت النزاع بين الفريقين ، كان ذلك على حد رواية سفر الملوك الأول في الاصحاح الرابع عشر من الفقرات التي تقول : وفي السنة الخامسة للملك رحبعام صعد شيشنق ملك مصر إلى أورشليم وأخذ خزائن بيت الرب وخزائن بيت الملك وأخذ كل شيء [1] وأخذ جميع اتراس الذهب التي عملها سليمان .

وظلت أحوال اسرائيل ويهوذا ضائعة جيلاً بعد آخر حتى اندمجت (اسرائيل) في امبراطورية (آشور) حوالي عام ٧٢١ او ٨١٥ قبل الميلاد .

ومن عجب أن نصوص سفر الملوك الأول قد تحدثت عن هذه المملكة المنشقة التي تكوّنت بتمرد جماعات بني اسرائيل حين أصبحت ذات اتجاهات في تاريخ بني اسرائيل قد شاع فيها الفساد والانحلال وسرى إلى حياة كل الافراد والجماعات روح التحلل والتمرد من كل القيم التي يمكن أن تكون بين ايدي قلة قليلة من القوم واصبح حال هذه الفئة المسماة بـ (اسرائيل) في السامرة في مواجهة (اليهود) في اورشليم ، ان سيد هذه الجماعة (اسرائيل) وهو (يربعام) لم يكن يستطيع ان يعلن عن نفسه صراحة او ان يتراءى الذين يدعون الهداية والاستقامة إلى الحد الذي تقول فيه بعض نصوص سفر الملوك الأول ما يستفاد منه ان يربعام لما مرض احد أبنائه المدعو (أبيا) وكان المرض خبيثاً والعلة ثقيلة على الطفل، وتدخلت الكهانة

---

(١) (سفر الملوك الاول) الاصحاح الرابع عشر ٢٥ - ٢٦ .

لتقول ان العلاج أن يباركه النبي المدعو (أخيا) لم يكن يربعام من فرط خطيئته وانحرافه وعظم سيئاته بقادر على أن يقابل (أخيا) ليقدم له ولده المريض فكلف زوجته بأن تتخفى وتغير ملامحها حتى لا يعرفها (اخيا) فتقدم له ولدها فيعالجه [(١)] .

هذه الصورة القصصية المصنوعة والتي يلعب فيها الخيال حسبما كانت توحي الظروف التي أملتها على المصنف بغض النظر عن الاطمئنان اليها أو تقرير صحتها أو رفضها فانها حسب ما ينص السفر تؤكد لنا اليوم انه حتى الجماعات المنشقة وسيدها قد أصبحت على حال من السوء والتناقض الداخلي إلى درجة انعدام معها كل تقدير يمكن أن يتصوّر لجماعات منشقة استجابت لثائر متمرد على بيت توارث السيادة وادعى المتسلقون حول هذا البيت لهذا البيت كل قيم الميراث العنصري وكل اصالة الدين الذي زيف حوله القوم اوهام الأماني الطامعة ونزعات التعصب العنصري .

وتقول فقرات الإصحاح الرابع عشر من سفر الملوك الأول انه (... في ذلك الزمان مرض (أبيا) بن يربعام فقال يربعام لامرأته قومي غيري شكلك حتى لا يعلموا انك امرأة يربعام واذهبي الى شيلوه ، هوذا هناك (اخيا) النبي الذي قال عني إني املك هذا الشعب ، وخذي بيدك عشرة أرغفة وكعكاً وجرة عسل ، وسيرى اليه وهو يخبرك ماذا يكون الغلام ففعلت امرأة يربعام هكذا وقامت وذهبت إلى شيلوه ودخلت بيت (أخيا) . وكان أخيا لا يقدر أن يبصر لانه قد كلت عيناه بسبب شيخوخته ، وقال الرب لأخيا هوذا امرأة يربعام آتية لتسأل منك شيئاً من جهة ابنها لأنه مريض . فقل لها كذا وكذا فإنها عند دخولها تتنكر ، فلما سمع أخيا

---

(١) انظر : فقرات الاصحاح الرابع عشر من سفر الملوك الاول والتي تقص هذا الجانب في اسهاب ١ – ١٦ .

حس رجليها وهي داخلة بالباب قال ادخلي يا امرأة يربعام لماذا تتنكرين ، وأنا مرسل اليك بقول قاس ، اذهبي قولي ليربعـــام هكذا قال الرب إله اسرائيل من أجل اني قد رفعتك من وسط الشعب ، وجعلتـك رئيساً على شعبي اسرائيل ، وشققت المملكة من بيت داود واعطيتك إياها ، ولم تكن كعبدي داود الذي حفظ وصاياي والذي سار ورائي بكل قلبه ليفعل مـا هو مستقيم فقط في عيني ، وقد ساء عملك اكثر من جميـع الذين كانوا قبلك فسرت وعملت لنفسك آلهة اخرى ومسبوكات لتغيظني وقد طرحتني وراء ظهرك ، لذلك أنا جالب شراً على بيت يربعام وأقطع ليربعام كل بائل بحائط محجوزاً ومطلقاً في اسرائيل ، وانزع آخر بيت يربعام حتى يفنى ، من مات ليربعام في المدينة تأكله الكلاب ، ومن مات في الحقل تأكله طيـور السماء لأن الرب تكلم) .

ولا ندري كيف أمكن لمثل هذه الاخبار التي يمتليء بها التراث الاسرائيلي أن يلوك اصحابه الدعوى التي لا سند لها ولا برهان فيما يجتره علماء اللاهوت وشرّاح التراث عن حفظ الآباء في العهـــد القديم لميراث الدين وصونهم له وارتباطهم بما أثمره تاريخ سلسلة الملوك في الدولة الاسرائيلية الممتدة والمعمرة والتي يثبت كذب وبطلان ما يذهب اليه علمـاء اللاهوت سيرة هذه الدولة نفسها في تراث العهد القديم .

ان تناقضات الصنعة التدوينية وتباعد المؤلفين الذين سجلوا أو دوّنوا تاريخ بني اسرائيل ونقلوا منه هذا التراث المدوّن في هذا السجل الذي بين أيدينا اليوم والمسمى بالعهد القديم لم تمكنهم هذه العوامـل وعوامل اخرى كثيرة منها ظروف القهر والاستعباد وسلطـان الاجنبي عليهم وهم بصدد التدوين أو التسجيل كل ذلك لم يمكنهم من عمل فكر موضوعي واحد ليمكن من خلاله أن يجيء السياق وهو يحمل وحدة فكرة او موضوعية ، ومن هنا جاء ذلك التفاوت في عبارات التدوين والتسجيل والأخبار والاحداث التي يقدمها العهد القديم .

هذا .. ومما يجدر بنـــا أن نشير اليه على ضوء نهجنا في متابعة التراث الاسرائيلي فيما يقصه فاننا نحب أن نسجل انه قبل أن يطالعنـــا الإصحاح الخامس عشر من سفر الملوك الاول ان الجماعة المنشقة على اسرائيل بقيـادة يربعام حاقت بهم كنتيجة لعمل المفارقات الاجتماعية وسوء التعامل الاخلاقي وإشاعة الخطيئة واتيان الفاحشة والتنكر لكل ما يمكن أن يمثـل ديناً أو وحياً أدى بهذه الجماعة إلى نهايتها المبكرة ، والفئة الثانية التي تسمّت باسم (يهوذا) واتخذت لنفسها من (اورشليم) مقراً لها كان قد جاء دورها هي الاخرى ذلك انه في العام الخامس من بداية هذا الانقسام الذي طرأ على الحال الـذي تركه سليمان انه قـد جاء الفرعون المصري (شيشنق) ملك الاسرة الثانية والعشرين المصرية بعد ان سبقه في تمزيق للكيان المدعي القـائم على التقاتل والصراع والقهر والغلبة الثائر الذي احتمى بأرض مصر وأخذ منها العتاد والعدة وعبأ جيشه وعاد إلى أرض الصراع الاسرائيـلي ليمزق نعرة الجماعات المسيطرة على جمهور الشعب المجهد ولكي يتيسر القضـاء بعد ذلك على هذه الجمـــاعات وعلى الكيان المدعي الذي يجتر القـوم دعوى سيادته وسلطانـه .

وبالفعل فإنه ما ان ابتدأت عمليات الغزو المصري لأرض فلسطين كلهـا شرقاً وشمالاً وجنوباً حتى فر من أمام المصريين كل ما تبقى من الجمـاعات المبعثرة والمضيعـة من الانقسام والتفتت وقامت جيـوش الفرعون المصري بالاستيلاء على الارض الفلسطينية كلهـا ، وقضت على الشخصية الاسرائيلية وبعثرت الكيان الاجتماعي الهزيل ، المحتضر أصلاً وحطمت الشعائر ورموز العبـــادة الوثنية التي كان القوم الاسرائيليون في ـ السامرة ـ (نابلس) واليهود في ـ أورشليم ـ (القدس) قد جعلوها الدين الرسمي لهم ، وتقول فقرات من العهد القديم في تقرير هذه المرحلة التي تجرد فيها الاسرائيليون عن شعائر دين اسرائيل ممثلين في سيدهم يربعـام الذي خاطب الرب الإله الذي يسجل لهم على لسان النبي (اخيا) قائـلاً : (... وعملت لنفسك

آلهة اخرى ومسبوكات لتغيظني وقد طرحتني وراء ظهرك)[1] .

ثم استولى المصريون على الشعب من اسرائيل واليهود بعد أن انفضوا جميعاً عنه في سلبية وضياع ، وفي هذا لم تستطع فقرات الاصحاح الرابع عشر من سفر الملوك الأول أن تغفل او تمسخ الحقيقة المرتبطة بهذه المرحلة من الضياع التي أدرك المصنف حين جاء ليدونها انها قد سجلت بين حقائق وآثار التاريخ المصري الذي لا تكذب دلالاته ، فاضطر هو الآخر إلى أن يتحدث عن عمليات الغزو المصري التي تعرضت لها جماعات (اليهود) في (أورشليم) فقال : (... وفي السنة الخامسة للملك (رحبعام) صعد (شيشنق) ملك مصر ، إلى أورشليم ، وأخذ خزائن بيت الرب وخزائن بيت الملك ، وأخذ كل شيء وأخذ جميع أتراس الذهب التي عملها سليمان)[2] .

وعلى الطريق الطويل في تاريخ بني اسرائيل فإنه الانقسام السياسي والديني عقب الكيان المدعى الذي تتحدث عنه التوراة في عصر سليمان فان القسم الأول من الجماعات الاسرائيلية الذي سمي (إسرائيل) في — السامرة — (نابلس) قد انتهى بالتناقضات التي تحدث عنها سفر الملوك الأول وأشرنا اليها ، والقسم الثاني (اليهود) في أورشليم لم يطل به عمل التناقضات فانتهى حين امتد سلطان مصر القديمة إلى اورشليم وظلت بها تسيطر وتمثل السيادة المصرية على طول هذا الامتداد الذي يبدأ بسيناء من شمال شرق مصر حتى تغيرت الاوضاع العالمية حينئذ بعمليات الغزو الكبرى والتمدد الرهيب الذي بدأته امبراطورية (الأشوريين) في المدة ٧٢١ أو ٧١٥ قبل الميلاد حين مدت بصرها الى منطقة فلسطين والبادية لتقضي على البقية الباقية من زيف ودعوى

---

(١) (سفر الملوك الاول) الاصحاح الرابع عشر : ٩ .

(٢) (سفر الملوك الاول) الاصحاح الرابع عشر : ٢٥ — ٢٦ .

واوهام بني اسرائيل خشية أن تجتر هذه الجماعات الاسرائيليـة التي كانت تحاول أن تلوك دعواها العنصرية على المدى الطويل ثم تفكر أن تقوم بعمل ضد الأشوريين .

ورغم ان الفترة من ٩٠٠ ق . م التي انتهى فيها كل مـا تركه سليمان او كل مـا نسب اليه حتى عام ٧٢١ ق . م التي تم فيهـا السيطرة الاشورية على المنطقة كلها من السامرة الى اورشليم كانت ضياعاً وتمزقـاً وصراعاً وتفتتاً سياسياً واجتماعياً وأخلاقياً ولا يمكن للباحث المنصف ان يعتبرها في عـداد تواريخ الأمم وتواريخ حضارتها او تواريخ حيـاة المجتمعات المتحضرة ذات الآداب والأعراف والتقاليد القائمة على قيم مرتبطة بالارض وبالشعب ، إلا أنه فوق كل هذه الحقائق فانـه منذ عـام ٧٢١ او ٧١٥ ق . م حين بدأ الغزو الاشوري على أقل تقدير فان التاريخ الاسرائيلي يجب أن ينظر اليه — في مجال النقد العلمي — بمنظار يختلف عن الصورة التقليدية التي يزيفها الفكر الإسرائيلي عن تاريخه القديم ، بدعوى أن التاريخ الاسرائيلي ظل ممتداً بالارض العربية (فلسطين) ومرتبطاً بها حتى منذ الانقسام والتفتت السياسي والضياع المقترن بمراحل ما بعد (النبي سليمان) عليه السلام فان هـذا الادعاء يخالف الحقيقة والواقع بل وحتى مستندات القوم في تزييف الدعوى لا تساعد على هذا الخطأ وهذا الادعاء .

ومن يطلع في تسليم جـدلي تتابـع اولئـك الذين تناولوا أمر الجماعات الاسرائيلية اليهودية وأسمتهم اسفار العهـد القديم (الملوك) يقف على مدى خلخلة الحـال الاجتماعي وظهور جماعـات (المزايدين) بالسياسة واللاعبين بالجماعات الاسرائيلية المستغلين لأوهامها وأطماعها، والذين كانوا مثالاً للخطيئة والانحراف ذلك أنـه كان الذي يستطيع أن يريق دمـاً أكثر من سابقه هو الذي يتمكن من القوم وتطول مدته عليهم سيداً ومسيطراً ، وظلت هـذه السلسلة من الملوك الذين ورد ذكرهم في سفر الملوك بالتناوب على الأرض التي

بدأت بالمنطقة الشمالية في (نابلس) بجماعات (اسرائيل) وسيدهم (يربعام) وبالمنطقة الجنوبية في اورشليم بسبطي (يهوذا وبنيامين) : أي (جماعـات يهوذا) سيدهم (رحبعام) ، الذي تولى السيطرة عـلى جماعات اسرائيل في الشمال رحبعام حكم حوالي – ١٧ – عاماً ثم توالى بعده (أبعيام) بن رحبعام – ٣ – سنوات ثم (أسا) بن رحبعام – ٤١ – سنة ثم يهو شافاط بن أسا – ٢٥ – سنة ثم (أخزيا) بن يهورام بن يهو شافاط – ٨ – سنوات ثم يهو أخزيا بن يهورام – سنة – واحـدة ثم (عتليا أم أخزيا) التي ماتت قبله بعد – ٦ – سنوات ثم (يواش) بن أخزيا الذي مات قتيلاً بعد – ٤٠ – سنة ثم (أمصيا) بن يواش الذي مـات قتيلا بعد – ٢٩ – سنة ليـأتي في السلسلة التي تتحدث عنها آيات العهد القديم (عزيا) بن أمصيا الذي استمر متسلطاً على القوم حوالي – ٥٢ – عاماً في خلالهم كما يقول الاصحاح الخامس عشر من سفر الملوك الثاني في السنة التاسعة والثلاثين لعزريا ملك منحيم بن جاد على اسرائيل في السامرة عشر سنين وعمل الشر في عيني الرب لم يحد عن خطايا يربعام بن نباط الذي جعل اسرائيل يخطىء كل ايامه فجاء (فول) ملك أشور على الارض فأعطى منحيم لفول ألف وزنة من الفضة لتكون يداه معه ليثبت المملكة في يده ووضع منحيم الفضة على اسرائيل على جميع جبابرة البأس ليدفع لملك أشور خمسين شاقل فضة على كل رجل .

وعلى حد هـذه الرواية فـان سليمان عليه السلام صاحب المملكة التي تدعيهـا التوراة ، المملكة الواسعة التي تتصورها جماعات اسرائيل مات حوالي عـام ٩٣٥ ليبـدأ الصراع بين القسمين المنشقين اسرائيـل ويهوذا ، ولا يطول بهما الانشقاق والانقسام إلا وتبـدأ مرحلة السيطرة الاجنبية التي تقصها التوراة عن بدء سيطرة الاشوريين ، على الارض العربية في فلسطين وإذا ما أردنا ان نساير قصص آيات العهد القديم لنعرف متى بدأت المراحل الأولى للسيطرة الأجنبية على الجماعات الاسرائيلية المنشقة ، فان آيات العهد القديم هي التي

في الاصحاح الخامس عشر من سفر الملوك الثـاني ذكر الأشوريين وبسطهم سلطانهم على اسرائيل في عهد (عزيا) .

وإذا ما اعتمدنا الرواية التي أوردتها اصحاحات الملوك الثـاني فان سليمان يكون قد توفي تقريباً حوالي عـام ٩٣٥ وتولى رحبعام – ١٥ – سنة ثم أبعيـام – ٣ – سنوات وأسا بن رحبعـام – ٤١ – سنة ويهوشافاط بن اسا – ٢٥ – سنة وكيلورام بن يهوشافاط – ٨ – سنوات واخزيا بن يهورام – سنة – واحدة وعتليا أم أخزيا – ٦ – سنوات ويواش بن أخزيا – ٤ – سنوات وأمصيا بن يواش – ٢٩ – سنة وعزيا بن أمصيا – ٥٢ – سنة فتكون جملة السنين التي يسلم بها الباحث في التراث الاسرائيلي – افتراضاً – على انها امتداد لمرحلة سليمان رغم أنهـا كانت صراعاً وضياعاً ووشاية بين أبنـاء كل قسم ، الجماعة المنشقة على حدة بين القسمين المنشقين على بعضهما – ٢٢٢ – سنة ، أي أنه إذا ما سلمنا بوفاة النبي سليمان عليه السلام بالتاريخ الذي يستفاد من جملة التواريخ التي ذكرت في اصحاحات الملوك الثاني والذي اطمأن اليه كثير من الباحثين وهو عـام ٩٣٥ ق . م تكون بداية السيطرة الأجنبية الأشورية على جماعات اسرائيل حوالي عـام ٧١٣ او ٧١٢ ق . م على طول امتداد الارض من العراق حتى فلسطين كلها شمالها وشرقها وجنوبها حتى ضاعت هذه الامبراطورية الاشورية حوالي عام ٥٨٦ ق . م حين سقطت تماماً على يـد نبوخذنصر (بختنصر) الملك الكلداني البـابلي الشجاع الذي قـاد عمليات القضاء على امبراطورية (أشور) في الفترة التي كانت فيها أشور منذ سيطرتها ٧١٢ ق . م حتى عام ٥٨٦ ق . م قد اقامت مجموعات من الرجال الاسرائيليين على الجماعات الاسرائيلية التي كانت قـد ذابت شخصيتها عقب السيطرة الاشورية وكان آخر هذه المجموعة من الرجال المدعو (صدقيا يواقيم) الذي لم يكن قد مضى على القيام بما كلف به في ظل السيادة الاشورية سوى ثلاثة أشهر فقط ، إلا ووقع هو والدولة صاحبة السيادة عليه والتي كانت قد نصبته في أيدي البابليين وقد قتله (نبوخذنصر) ونهب مدينة (اورشليم)

ـ القدس ـ ودمرها وسبى أهلها جميعاً وأخذهم إلى (بابل) وأقـــام على أورشليم والياً من قبل (البابليين) .

وكان هذا هو الحال الذي آلت اليه دولة الجنوب (القدس) أورشليم وكذلك آل حـــال دولة الشمال (السامرة) نابلس التي تولى أمرها حسب روايات (أسفار الملوك) وأخبار الأيام تسعة عشر ملكاً وكان الجو العـام المحيط بهم خليقاً بأن يساعد على مظاهر الاقتتال والصراع التي تبدو واضحة في روايات الاسفار الخاصة بالملوك إلى الحد الذي تقول فيه انه قد تقلب على عرش هذه المملكة ثماني أسر متصارعة متناقضة أفنيت منها ثلاث أسر افناء تاماً ولم يطل بها الوقت مثلما كانت (يهوذا) في اورشليم التي ظل بها بعض أفراد يتحركون في صور للحكم هزيلة وضعيفة في ظل السيطرة الاشورية التي لم تشأ أن تقضي قضاءاً تاماً ونهائياً وتمحو من مظاهر الحياة كل مـا يتعلق بالقوم (اليهود) فان (اسرائيل) في السامرة لم تفسح لها السيطرة الاشورية فرصة من وقت او من عمل او تتيح لهـــا إمكانية الاندماج في ظل الدولة الجديدة المنتصرة وإنما منذ تمكن (سرجون الثاني) ملك آشور من السيطرة الكاملة لم يترك للقوم ـ جماعات اسرائيل ـ بقيـة من ادعـاء او عقيدة او سلوك يمكن الارتباط به او التعلق بميراثه ، وعلى حد هذا التقرير الذي نحاول استخراجه من بين اصحاحات سفري الملوك واصحاحات أخبار الأيام فإنه يكون لنا أن نقرر أنـه على فرض الدعوى المرفوضة ـ أصلاً ـ بكل مناهج البحث العلمي أن جماعات اسرائيل واليهود ، قـد استطاع ملوكهم وأنبياؤهم أن يقيموا لهم دولة في فلسطين فان سجل تراثهم هو الـذي يؤكد لكل ذي نظر وبصيرة أن الدولة المدعاة والتي أصبحت بالانقسام دولتين حتى قبيل ان تكون قد انتهت تمامـــاً ، الأولى (اسرائيل) في السامرة (نابلس) ابتداء من عام ٧١٣ ق . م وقضى على الثانية (يهوذا) في اورشليم عام ٥٨٦ ق . م حين تسقط على يد (نبوخذنصر) الذي قتل (صدقيا بن يواقيم) آخر ملك في القائمة كل ما تبقى لهم من أثر او تراث .

ويبقى لنا بعد هذه الدراسة الموجزة عن سليمان وعصره والتعرف على التيارات السياسية التي خلفها وكانت مقدماتها في عصره على ضوء ما نقل لنا كاتب التراث تنبىء بالنهاية التي انتهت اليها لكنه يبقى لنا ان ننظر إلى نماذج من اخطاء كاتب سيرة سليمان في مجال النبوة وعملها سواء في سفري الملوك او سفر أخبار الأيام الأول والثاني لنعرف رأي شراح الأسفار المقدسة وعلماء التأويل والقول بالرمز في كاتب الاصحاح الحادي عشر من سفر الملوك الأول في الفقرات رقم ٣ – ٧ والتي فيها زوّج المصنف نبي الله سليمان عليه السلام بألف امرأة ومن ست جنسيات : عمونيات ، وأدوميات ، وصيدونيات ، وحثيات ، ومؤابيات وهن من الأمم التي يقول عنها كاتب الاصحاح في المقدمة : (من الأمم الذين قال عنهم الرب لبني اسرائيل لا تدخلون اليهم وهم لا يدخلون اليكم لأنهم يميلون قلوبكم وراء آلهتهم) . أليس في الزواج منهن بناء على هذا القول معصية لرب اسرائيل ؟ وما الذي يريده كاتب الاصحاح هل يريد ان يوقع سليمان في هذه المعصية ، هذه واحدة أما الثانية فهل لسليمان بين كل الصراع الذي قصته علينا اصحاحات الملوك وأخبار الأيام متسع من الوقت ليعاشر هذا العدد من النساء ، أم أنهن انتسبن اليه وتركهن معلقات بلا حقوق او واجبات وهذا قد يترتب عليه جوانب أخلاقية وسلوكية منحرفة الأمر الذي يتعين ألا يقع نبي او يرتبط بمثل هذه الأحوال والمواقف التي تحمل بين ما تحمله مثل تلك الاحتمالات ، وهل كان المصنف الذي زوّج سليمان بألف امرأة على علم بأن سليمان يعلم أسماء الألف امرأة ، ويحفظ اسماء آبائهن وأخواتهن ويعرف قبائلهن وفي أمر الزواج والمعاشرة والمصاهرة وخاصة في دائرة النبوة والأنبياء لا بد من مثل هذه الأمور فكيف كانت هذه الذاكرة الدنيوية التي لا دخل للنبوة بها خاصة وأن كاتب الاصحاح لم يخبر بأن ذلك العدد من النساء كان لحكمة دينية وهدف نبوي ، بل على العكس تماماً حدث وما يناقض مثل هذا القول ان ذهب اليه ذاهب فالفقرة الرابعة من هذا الاصحاح تقول : (... ان نساءه

أملن قلبه وسار وراء آلهة أخرى ، ولم يكن قلبه كاملاً مع الرب إلهه كقلب أبيه داود) .

هذا ويصر كتّاب العهد القديم على تجريد الرجلين النبيين العظيمين بنسبة هذه المآثم اليهما من علاقاتهما بربهما فما الذي يبقى بعد ذلك في التراث الاسرائيلي من مضمون للنبوة او سيرة للأنبياء ، وهل يدرك كتّاب الاسفار اولئك الذين يتصدون لشرحه والتعليق عليه بالتأويل والرمز من خلال هيئات ومؤسسات تتعاقب على تأصيل هذا الافتراء وهذا الزيف في القديم والحديث أن ذلك التراث لا يمثل قيمة تتصل بالوحي الإلهي او عقيدة دينية تقوم على الإيمان الحق بالله رب العالمين فضلاً عما تسيء به في أساليبها ضد أنبياء الله ورسله حين تضعهم أمام التاريخ حقل تجارب للخطيئة والمعصية فضلاً عن تجريدهم من شرف النبوة وعصمة الأنبياء . وهذا ما لم يقبله عقل او قلب مؤمن بالوحي الإلهي .

وإذا كان داود عليه السلام بنى عند كاتب الأسفار بيتاً للرب – رب اسرائيل – وجاء في وصفه بلغة كاتب الاسفار ما لا يعقله عاقل ، ولا تسعف بالوفاء ببنائه واقامته امكانات عصر سليمان وكل عصور الدنيا مجتمعة مالم يكن هناك العون الإلهي الذي ذكره القرآن الكريم وخلت من الاشارة اليه او من مثله لغة أسفار العهد القديم ، وكل ذلك الذي ذكره الكاتب كان من أجل رب اسرائيلي ، فلِمَ هنا في الاصحاح الحادي عشر من سفر الملوك الأول من الفقرات ٦ – ٨ ينسى الكاتب الرجل ربه بل ويعدل في علاقته ببيت ربه ويجعله يقيم بيوتاً للأصنام والآلهة من أجل عيون نسائه الغريبات الوثنيات اللائي أبقاهن الكاتب على وثنيتهن حتى وهن تحت اشراف وعصمة ومعاشرة سليمان النبي ؟ أليس هذا الافتراء يجرد الكاتب من كل الدعوى التي أقامها ويجرد سليمان عليه السلام في زعم الكاتب من علاقة له بربه فضلاً عن عصمة الانبياء وما يترتب عليها من اعطاء الانموذج والقدوة في علاقة النبي بربه

وللنظر إلى نص كاتب الفقرات التي أشرنا اليها وهو يطالعنا بهذا العدوان على نبي الله سليمان ، بعد أن أرانا تاريخه السياسي بالمقدمات والنتائج التي انتهينا اليها فماذا يقول كاتب سفر الملوك الأول : (... وعمل سليمان الشر في عيني الرب ولم يتبع الرب تماماً كأبيه داود حينئذ بنى سليمان مرتفعة (لكموش) رجس المؤابيين على الجبل الذي تجاه اورشليم (ولمولك) رجس بني عمون، وهكذا فعل لجميع نسائه الغريبات اللواتي كن يوقدن ويذبحن لآلهتهن . فغضب الرب على سليمان لأن قلبه مال عن الرب إله اسرائيل الذي تراءى له مرتين وأوصاه في هذا الأمر ألا يتبع آلهة أخرى فلم يحفظ ما أوصى به الرب).

وإذا كان الأمر ينتهي هكذا كما يدعي صاحب هذه الفقرات وبمن ينبي من كبار أنبياء العهد القديم فأين النبوة والرسالة الإلهية بعد ذلك في تراث اسرائيل ، خاصة وان الفقرة التالية لهذه النصوص تقول : (فقال الرب لسليمان من أجل ان ذلك عندك ولم تحفظ عهدي وفرائضي التي أوصيتك بها ، فاني أمزق المملكة عنك تمزيقاً وأعطيها لعبدك) [(١)] .

ونستطيع في النهاية أن نقول ان كاتب سيرة سليمان في العهد القديم قد خلت من الظاهرة العامة التي يوقع الكتّاب فيها عادة أنبياء الله ويلبسونهم إياها وبغير ردود أفعال لها وأعني بها جريمة الزناء فان المبالغة والغلو في تصوير كل ما يتعلق بأمر سليمان وسيرته كانت البديل عند كتّاب سفر الملوك الاول وأخبار الايام وهم يتناولون سيرة سليمان عليه السلام ، فأخبار بناء الهيكل وبناء البيت واتخاذ النساء الغريبات الوثنيات بالألف وبناء الاصنام للآلهة الوثنية وابتعاد النبي عن كلام الرب وغير ذلك مما فاضت به سيرة سليمان في العهد القديم يؤكد لنا ان موضوع عصمة النبوة وما يترتب عليها في سلوك النبي وتقديم القدوة والانموذج في الهداية والرشد للناس كل ذلك أمر غير وارد عند كتّاب التراث الاسرائيلي ومدوّني العهد القديم وشارحيه

---

(١) (سفر الملوك الاول) الاصحاح رقم ١١ فقرة رقم ١١ .

على السواء ، ولذا فقـــد انعدمت في سيرة معظم الانبياء الذين تناولناهم بالدراسة والنقد على ضوء منهج العهد القديم ومنظارة كل معالم وملامح النبوة فضلاً عن قواعد الإيمان التي تطرح بهدى من عملها وتأثيرها وتوجيهها في السلوك الإنساني ضوابط وقيم تضبط الخطى وتوجه السلوك على ضوء هذا الإيمان .

لكننا بعد كل تلك الدراسة التي وقفنا من خلالها على أهم ومعظم مـا طرحه كاتب التراث الاسرائيلي عن النبوة والأنبياء وعن الإيمـان والوحي الإلهي وعن التاريخ واحداثه ما الذي رأيناه وما الذي جابهنـا خلال ذلك الحشد الطويل من الأفكار والمعلومات المتناثرة ، لم يسلم نبي عند كتاب التراث من خطيئة وما قام ملك إلا على انقاض ملك وما أرانا الوحي إلا من خلال اشكال ورموز أقل كثيراً من فكر الشعوب البدائية مفتقـداً كل دروب التنزيه التي خلعها الإيمان الحق على حالات وأوضاع الوحي الإلهي حين يكرم الله به عبداً من عباده وما الذي أرانا إياه كاتب التراث عن عقيـدة الإيمان في الإله ، انه رب قبلي عنصري لا يفرّق بين شعبه وغيره من الشعوب حين يكون الغضب والانتقام ويفتقد ذنوب الآباء في الأبناء ومـا الذي أرانا إياه كاتب الاسفار عن فروض وواجبات العقيدة الدينية الإله الذي يتحدث عنه ما عثرنا على عبادة ترقى بالسلوك الإنساني أو شعيرة من الشعائر تهذّب النفس وتكبح جماح الغرائز ولكن مظاهر العبادة التي أرانا إياهـا ذبائح ومحرقات وأكباشاً وتيوساً وحيّات من نحاس وأصناماً لبعل وعشتروت وكل ذلك في صور مـــادية وثنية من حديد او نحاس او حجارة على أن القرابين اليها والنذور باسمها هي العبادة والقربى والفروض ومـــا الذي أرانا اياه كاتب الاسفار عن الشريعة والعقيدة والمصدر الذي دوّنت فيه العقيدة والشريعة والذي ادّعى التراث الاسرائيلي أن الاسفار الخمسة قـد استوعبت نصوصها الذي أرانا إياه كاتب هذا التراث. لقد طالعنا أكثر من مرة بأخبار الناموس وسفر الشريعة وأفاض في الحديث عن لوحي الرب مكتوب فيهما عهد الرب وكل ذلك يضيع منه بين سياق النصوص فنراه يذهب بهذه المستندات إلى

محلة الفلسطينيين لتضيع هناك او لا يحدثنا عن أخبارها بشيء ثم يجابهنا بها مرة ثانية بعد مئات السنين ليدّعي ان النصوص التي ساقها بعد غيبة تاريخية هي نصوص وقواعد وشريعة الوحي الإلهي بعد افتقاد وغيبة هذا ولا يخجل كاتب التراث أن يكرر المشهد هـذا المرة تلو المرة تضيع منـه النصوص ويؤخذ الشعب أسيراً ومضيّعاً بغير نصوص ثم يرجع كاتب التراث مع هـذا الشعب ومدعياً عليه بحمل وحفظ هذه النصوص وهكذا دار كاتب التراث الاسرائيلي بنا في سلسلة من الافكار والمعلومات والمأثورات القصصية والروائية والدينية والتاريخية لا تستقيم في خط فكري واحد ولا تحكمها غـاية واحدة وإنما على ضوء واقع الشعب الاسرائيلي والمتغيرات التي مرّ بها كان المسجلون يدوّنون ما عنّ لهم وما أسعفهم به خيالهم وما تناهى اليهم ممـا أسعفت به الذاكرة عـبر الاجيال والايام فجاء ذلـك الحشد التدويني في أسفار التراث الاسرائيلي في العهـد القديم يفتقـد مضموناً حقيقياً ومحـدداً في عقيدة الإله الواحد رب العـالمين ويفتقد مضموناً حقيقياً ومحـدداً في التعرف على سيرة الانبياء والمرسلين وتنعدم في معظم معطياته حقيقة الوحي الإلهي وما تبقى من شعب اسرائيل من بقية حفظوها عن الآباء وسيرة الأنبياء . ومن هنا فلم يعد هذا التراث المدوّن في أسفار العهد القديم يمكن أن يقوم شاهد حق على ما يمكن أن يكون مصدراً من مصادر الرؤية او التعرف على ما أوحى الله بـه إلى رسله وأنبيائه من بني اسرائيل وتصبح الحاجة ماسة وحقيقية بـل وضرورة علمية أمـام هذا الذي ينطوي عليه التراث الاسرائيلي إلى مصدر آخر وعطاء مغاير ولم يكن ذلك إلا حين منّ الله على الإنسانية بالكتاب الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه بالقرآن الكريم .

القسم الثاني

تمهيد :

موقف القرآن الكريم من التراث الاسرائيلي

رأينا اثناء دراستنا للتراث الاسرائيلي من خلال أسفار العهد القديم ان بعض الدارسين له والمهتمين بالتعليق عليه والمعنيين بحل غموضه ورموزه وتبرير مفارقاته وهم يؤرخون لمراحل كتابته وتدوينه على أساس عندهم وهو ان كتب العهد القديم قد مرت بأطوارها التاريخية المختلفة وهي تحفظ قداستها من خلال ما اودع بين نصوصها وسياقها من اخبار الوحي الإلهي ، وعندما انتهى بهم البحث إلى ذلك المأزق العلمي التاريخي الذي لم يستطيعوا على ضوئه أن يجدوا تفسيراً أو تأويلاً وهو الرأي العلمي الذي يلقى اجماع معظم الدارسين للعهد القديم والقائل بأن أسفار العهد القديم لم تستقر على وضع تدويني وعلى ضوء لغة محددة القواعد والضوابط إلا في القرن التاسع للميلاد . ولما كنا قد خصصنا في القسم الاول باباً مستقلاً للبحث عن مراحل تدوين وكتابة اسفار العهد القديم ، وانتهى بنا البحث الى مرحلة القرن التاسع للميلاد ، فرحنا نسأل عن مصير النسخ التي حفظ فيها العهد القديم بلغات عديدة فوقفنا على رأي علماء اللاهوت وهو يحاول ان يجيب على اختفاء نسخ ما قبل القرن التاسع بأنه قد تم احراقها على يد العلماء الماسوراتيين بعد

ان انتهوا إلى وضع قواعد اللغة العبرية والتي على ضوئها تم كتابة العهد القديم ثم احرقوا ما عدا النسخ التي كانت قبل هذا التاريخ وانه قد حدث ما حدث عند هذا الكاتب الذي ناقشنا رأيه ونقدناه في حينه على غرار ما حدث للقرآن الكريم حين تم الاتفاق في زعمه على نسخة واحدة وحرق ما عداها، ولما جاءت عبارة الكاتب وهو غير مسلم ولا يؤمن بالقرآن الكريم ملتوية وغير بعيدة عن الإثم والافتراء الذي كان يعالج به النصوص والمراحل التي أمامه من كتب العهد القديم ، وكان يستهدف بالدرجة الاولى ان يلقي في روح القارىء ان القرآن الكريم تعرّض للحذف والاضافة من خلال ما اتفق عليه المسلمون في عصر عثمان رضي الله عنه بعدما استبعدوا منه ما لم يعجبهم وما لم يرق لهم ، وكنا اثناء التعليق على مقارنة المؤلف المغالطة قد أشرنا إلى اننا سنفرد دراسة موسعة للرد على هذا الافتراء الذي يقوم اولا على الجهل بتاريخ كتابة كتاب الله وكيفية تداوله ونسخه ولذا فقد آثرنا قبل أن نسمع حكم القرآن الكريم على تراث بني اسرائيل في العهد القديم أن نقدم لهذا الحكم بدراسة عن القرآن الكريم ذاته وعصمة الوحي الإلهي فيه ، وكيفية وصوله إلى الناس ، منذ تركه على الهيئة التي كان عليها رسول الله ﷺ وبهذه الدراسة نكون قد علقنا بطريق غير مباشر مفتريات الكاتب الجاهل بكتاب الله وذلك حتى لا يجيء فيما بعد عدواني أو محرّف ويتصوّر انه في حل من ان يقول إن كتاب الله قد تعرّض هو الآخر للحذف والاضافة ما دامت اسفار العهد القديم قد جاءت هكذا محرّفة يختلط فيها الحق بالباطل .

البابُ الأول

الفصل الأول

الوحي الالهي في القرآن الكريم

(أ) هذا القرآن :

هو كلام الله رب العالمين ، نزل به الوحي الإلهي (جبريل الأمين) على قلب سيد ولد آدم : محمد رسول الله ﷺ ، ليختم به النبوة ويتمم ويكمل به الرسالة الإلهية للبشر ، ويخرج به الناس من الظلمات إلى النور ، ومن الشرك إلى التوحيد ، وليطهّر الناس بـه من جهل الوثنية والتخلف إلى عرفان الإيمان ونوره .

ومعالم القرآن الكريم في التعريف به من خلال محكم آياته كثيرة وعظيمة ، وتنطق الآيات الكريمة عن بعض مقاصده العظمى في تعريف آياته الكريمة به فيقول رب العزة في سورة المائدة في الآيتين ١٥ ، ١٦ وهو يقدم لخلقه بعض معالم هذا الذكر الحكيم للتعريف به والإيمان بما فيه : [**قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين ، يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور باذنه ويهديهم الى صراط مستقيم**] .

ويقول رب العزة في سورة الاسراء ، وهو سبحانه يبين للبشر عن بعض

المقاصد العظمى التي يستهدفها الذكر الحكيم في اسعاد البشر ونجـاح حياتهم **[ان هذا القرآن يهدى للتي هي اقوم ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات ان لهم اجراً كبيراً] .**

ويحدد رب العزة طبيعة العصمة في هذا الذكر الحكيم فيقول تعـالى في سورة البقرة : **[الم ، ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين] .**

ويقول تعالى فيه من سورة فصلت وهو يخبر عن مسؤوليـة الذين نزل الذكر الحكيم بلسانهم نحوه في العمل بـه ، والحفـاظ عليه : **[حم ، تنزيل الرحمن الرحيم كتاب فصلت آياته قرآناً عربياً لقوم يعلمون ، بشيراً ونذيراً ، فأعرض اكثرهم فهم لا يسمعون] .**

ويخاطب الله سبحانه نبيه المصطفى الخاتم عن طبيعة هذا الحق الإلهي فيقول له في سورة الإسراء : **[وبالحق انزلناه وبالحق نزل، وما ارسلناك إلا مبشراً ونذيراً] .**

ويصف سيّد ولد آدم محمد ﷺ مضمـون الذكر الحكيم فيقول (انـه ستكون فتن كقطع الليل ، قيل فما النجاة منها يا رسول الله قال كتاب الله تبارك وتعالى ، فيه نبأ من قبلكم وخبر ما بعدكم ، وحكم مـا بينكم ، وهو فصل ليس بالهزل ، من تركه تجـبراً قصمه الله ، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله ، وهو حبل الله المتين ونوره المبين والذكر الحكيم، والصراط المستقيم ، الذي لا تزيغ به الاهواء ، ولا تتشعب معه الآراء ولا يشبع منه العلماء ، ولا يمله الاتقياء : من علم علمه سبق ، ومن عمل بـه أجر ، ومن حكم به عدل ، ومن اعتصم به فقد هوى إلى صراط مستقيم) .

(ب) القرآن الكريم في لغة العرب :

بعد ان نزل قول الله تعالى لنبيه الخاتم ﷺ : **[اقرأ باسم ربّك الذي خلق ، خلق الانسان من علق ، اقرأ وربك الاكرم الذي علـّم بالقلم ، علـّم الانسان ما لم يعلم] .**

وبعد ان تدثّر رسول الله ﷺ بالثياب فترة من الوقت ينتظر مـا الله صانع به جاءه الوحي الإلهي ليقول له من خلاله رب العزة : [**يا ايها المدثر، قم فأنذر وربك فكبّر ، وثيـــابك فطهّر ، والرجز فاهجر ، ولا تمنن تستكفر ، ولربك فاصبر**] .

وبعد ان قال له ربـه : [**قل يا ايها الناس إني رسول الله اليكم جميعاً الذي له ملك السماوات والارض**] . لآية اعلن ﷺ دعوتـــه عن الله رب العالمين للملأ من حوله .

وفي خضم المواجهة التي قامت بها قريش في بادىء أمر الدعوة الاسلامية أرسلت عتبة بن ربيعة إلى رسول الله ﷺ ليعرض عليه رغبة قيادات قريش في ان يتخلى عن دعوته ، مقابل أمور دنيوية عرضوها عليه ، ولما كان الرسول ﷺ يدرك بوحي الله له باعتبـــاره رسول رب العالمين أن للعرب قابليات واستعداداً خاصاً لتقبل دعوة الله ، إذا ما مست حقيقتها شغـاف قلوبهم ، وخاطبت ضمائرهم وتحدثت الى عقولهم ، ومن هنا رأيناه ﷺ يرد على عتبة بن ربيعة ببضع آيات من القرآن الكريم ، ما ان اصغى لها قلب وعقل هذا العربي الفصيح إلا وانطلق الى قومه ليقـول في القرآن الكريم .. أعني في الآيات الكريمة التي سمعها ، كلاماً وشهادة لا تزال حتى اليوم بعض دليل على مقدار ما يملكه القرآن الكريم بالصدق والكمال والقداسة التي يتضمنها النص من هيمنـة على نفوس أرباب البيـان وأفصح خلق الله تعبيراً عن دلالات الاشياء وحريتها وحركتها .

يقول عتبة بن ربيعة : (اني سمعت قولاً ما سمعت مثله قط ، والله مـا هو بالشعر ولا بالسحر ولا بالكهانة ، يا معشر قريش أطيعوني واجعلوها بي ، وخلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه ، فوالله ليكونن لقوله الذي سمعت نبأ عظيم فان تصبـه العرب فقد كفيتموه بخيركم ، وأن يظهر على العرب فملكه ملككم ، وعزّه عزكم وكنتم أسعد النـــاس به ، فقالوا :

سحرك يا أبا الوليد بلسانه ، فقال : هذا رأي فيه فاصنعوا ما بدا لكم)[1]

ونستطيع أن نلحظ تأثير القرآن على قلب من يسمعه ويتدبر معانيه لقد أثر القرآن الكريم في عقل عتبة وهو على دين آبائه (مشركاً) ، ولقد قالت قريش له : لقد سحرك يا أبا الوليد .. ولو علمت قريش انها حين تزيل الاغلال من حول اعناقها وتبصر نور الحق بقلوبها ، كما فعلت بعد فترة من الزمان لتدبرت القرآن الكريم مبكراً، ولما قالت فى عتبة ما قالته، وصدق رب العالمين حين يقول : [أفلا يتدبرون القرآن ام على قلوب اقفالها .]

(ج) الجو القرآني :

المتدبر لآيات الذكر الحكيم ، والمستشعر لروح النص ورونقه ، يرى في القرآن الكريم (نفساً) روحياً ، وحركة في الوجدان فيها من السمو النفسي والطهر الوجداني والنقاء الروحي ما يرقق القلوب ويليّن الأفئدة ، ففي القرآن الكريم يجد المتدبرون لآياته فوق معطيات الأمن والخير ، حياة لروحهم وسموا بواقعهم ، وينهلون من عذب حديثه ، وصدق خبره النور والصفاء وهيمنة الروح على عالم المادة ، فتصبح حياة المؤمنين به فردوساً من المعاني القدسية ، ونوراً من الاقداس الروحية ، وهدياً من الذات العلية ، ذلك لأن خاصية اللفظ القرآني ، وان كانت مفردة كلماته لغة العرب في بيانها ونقائها الا انها تحمل في جوهر البناء القرآني قدسية وخاصية الوحي الإلهي للناس ، ومن هنا يبدو واضحاً ان الجو القرآني ، وخاصة في المناخ النفسي ، للمتعبدين بتلاوته ، تتجلى فيه دائماً أبداً تلك الفيوضات التي تملأ قلب المؤمن ، وهو أمام آية قرآنية او بعض آية .

انظر إلى قول الله تعالى في سورة الاسراء : الآيات من ٤٢ — ٤٥

---

(١) (السيرة النبوية لابن هشام) تحقيق وضبط : مصطفى السقا ، ابراهيم الابياري ، عبد الحفيظ شلبي ، القسم الاول الطبعة الثانية عام ١٩٥٥ م ص ٢٩٣ .

[قل لو كان معه آلهة كما يقولون إذاً لابتغوا إلى ذي العرش سبيلا ، سبحانه وتعالى عما يقولون علواً كبيراً ، تسبح السماوات السبع والأرض ومن فيهن ، وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم ، انه كان حليماً غفوراً ، وإذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجاباً مستوراً] .

إنك أمام قول الله تعالى [وان من شيء إلا يسبح بحمده] تشعر بضآلة كل وجودك امـــام هذا الكون المسبح وفي الوقت نفسه تشعر باحساس – الإيمان – من داخل اعماقك ، وكأن قوة لا تعرف كنهها في داخلك أمام هذه الصورة الكونية المسبحة التي اخبر الله عنهـا داخلك تسبّح وتسبّح : ولا جدال ان هذا الجو النفسي هو مما أنفرد به الذكر الحكيم وتميز ، وهذه خاصية هذا الكتاب المبين من بين سائر الكتب المقـدسة بحكم عصمة الله تعالى له ، واستبقاء روح ونص الوحي الإلهي فيه على ما هو عليه منذ نزل على قلب محمد رسول الله ﷺ .

ان آية واحدة من كتاب الله تعـالى في سورة النور رقم ٤٥ التي يقول الله تعالى فيها : [والله خلق كل دابة من ماء فمنهم من يمشي على بطنه ، ومنهم من يمشي على رجلين ، ومنهم من يمشي على أربع يخلق الله ما يشاء ان الله على كل شيء قدير] . لتضع المسلم أمام صورة كونية في خلق الله تعالى لا حد لها ولا حصر ، لا يخرج المرء المؤمن من اعماق هذا العـالم المتصوّر والمستنطق الذي تورده مقدمة هذه الآية الكريمة إلا على حكمة الحكيم الخالق وقدرته وليقف المسلم في يقين تام عند ختام الآية مقراً ومعترفاً ومؤمناً حين تجيء خاتمة الآية على هـذا النسق [.. ان الله على كل شيء قدير] فيسبّح قلبه وتخشع جوارحه وتسكن نفسه ويمتلىء يقيناً بأن رب الخلق وراء كل شيء وهو على كل شيء قدير .

الفصل الثاني

كيف نزل القرآن الكريم وحياً الهياً ؟

من المرجح عند العلماء والمشتغلين بعلوم القرآن الكريم ، أنه ليس بين الكتب السماوية الصحيحة حين كانت وقت نزولها قبل أن تتعرض للتحريف والاضافة كتاب في حجم وشمول القرآن الكريم باعتباره الكتاب الخاتم والمتمم والمهيمن ، ومن هنا فان الوحي الإلهي الذي كان ينزله الله تعالى على قلب رسوله الخاتم محمد ﷺ ، كان يعرض له صلوات الله عليه في صور وحالات عديدة ، وذلك حتى يتاح له تحمل هذا الحجم العظيم من كلام الله الذي ألقي على قلبه ﷺ . ولكي لا يتسرب إلى ذهن احد من الناس ان الوحي الإلهي الذي كان ينزل على محمد ﷺ من قبيل الحالات النفسية او الايحاءات الروحية الخاصة التي قد تعرض لبعض الناس ، فانا نريد ان نعرض لبعض صور الوحي الإلهي التي كانت تعرض لرسول الله ﷺ .

وقبل ان نتعرض للقول بأن الله سبحانه قد منّ على بعض رسله من الخلق بالوحي الإلهي ، وان ذلك كان بحكمته سبحانه اصطفاءاً واختياراً من اجل اسعاد البشر وهدايتهم فانا نعرض صور الوحي التي كانت تأتي رسول الله ﷺ .

* في بدء الدعوة وفي حالات قليلة بعد البدء كان الوحي يأتي في صورة (الرؤيا الصالحة في المنام) . ففي حديث متفق عليه عن عائشة ام المؤمنين رضي الله تعالى عنها أنها قالت : (اول مـا بدأ به ﷺ الرؤيا الصالحة في النوم ، فكان لا يرى رؤيا الا جاءت مثل فلق الصبح) . وهـذا النوع من الوحي الإلهي الذي لا واسطة فيـه لعله كان من قبيل التهيئة لامكانات النبي ﷺ لأن - يتحمل الوحي يقظة ، ولم يكن هـذا النوع من الوحي - المنام - [1] مما ينزل به القرآن الكريم ابداً لأنـه في تقديرنا كان بمثابة تجهيز بشرية رسول الله ﷺ لأن تتقبل الوحي الإلهي من خلال جبريل الامين الذي كان ينزل إلى رسول الله ﷺ بالقرآن الكريم .

هذا .. ومما يجدر بنا ان ننوه اليه انه في أمر القرآن الكريم بالذات من بين جملة ما أوحى به الله تعالى إلى رسوله ﷺ كان جبريل - بأمر ربه - هو المنفرد بالتبليغ ، وذلك لخاصية القرآن الكريم وكونه (كلام الله تعالى). وما في صحيح مسلم عن أنس رضي الله تعالى عنه أنـه (بينما رسول الله ﷺ ذات يوم بين أظهرنا في المسجد ، إذ أغفى أغفاءة ، ثم رفـع رأسه مبتسماً فقلت : مـا اضحكك يا رسول الله ؟ فقال : نزلت عليّ آنفـا صورة فقرأ (بسم الله الرحمن الرحيم انا أعطيناك الكوثر فصل لربك وانحر ان شانئك هو الابتر) لم تكن هذه الاغفاءة التي وقعت في المسجد من قبيل النوم ابداً وانمـــا هي حالة من الحالات التي كانت تلازمه ﷺ عنـد نزول الوحي ، نظراً لاختلاطه بجبريل الامين .

هذا .. ونود أن نقرر أن الوحي الإلهي الذي كان يقع للانبياء من خلال بعض الصور والحالات التي توهم بالمنام أنهـــا ليست من قبيـل نشاط العقل

---

(١) للعالم المجاهد (مناع القطان) عميد المعهد العالي للقضاء بالرياض بالمملكة العربية السعودية. دراسة قرآنية متكاملة في هـــذا الموضوع بعنوان (مباحث في علوم القرآن) الطبعة الرابعة - بيروت عام ١٣٩٦ هـ انظر ص ٣٧ من هذا الكتاب .

الباطن ، انما هو من قبيل التنويع في مخاطبة رسل الله وهم بشر من الخلق ، والله سبحانه كان يخاطبهم ويوحي اليهم بوسائل منها الخفيف والاخف ، ومنها ما يثقل به جسد النبي ويتفصد جبينه عرقاً في ليلة باردة ، هذا ومما يدل على أن الرؤيا في المنام للانبياء من قبيل الوحي الإلهي قوله تعالى عن ابي الانبياء ابراهيم ﷺ: [**فبشرناه بغلام حليم، فلما بلغ معه السعي قال يا بني اني أرى في المنام اني أذبحك فانظر ماذا ترى ، قال يا ابتي افعل ما تؤمر ستجدني انشاء الله من الصابرين ، فلما أسلما وتلّه للجبين ، وناديناه أن يا ابراهيم قد صدّقت الرؤيا انا كذلك نجزي المحسنين ، ان هذا لهو البلاء المبين، وفديناه بذبح عظيم ، وتركنا عليه في الآخرين ، سلام على ابراهيم ، كذلك نجزي المحسنين انه من عبادنا المؤمنين ، وبشرناه باسحاق نبياً من الصالحين**] (1) .

ومن البداهة انه لو لم تكن هذه الرؤيا الصالحة وحياً من الله لما أقدم ابراهيم عليه السلام على ذبح ولده ، ولما قصها الله تعالى في القرآن الكريم .

* هذا..ومن انواع الوحي ايضاً يرسله الله لبعض رسله الكلام الإلهي من وراء حجاب بدون واسطة ، ومن قبيل كلام الله تعالى لبعض رسله بدون حجاب كلامه تعالى لموسى ﷺ وهو ثابت له كما أخبرنا بذلك القرآن الكريم ، ففي سورة الاعراف جاء قوله تعالى : [**ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه قال أرني انظر اليك**] .

وفي سورة الاعراف جاء قوله تعالى . [**وكلم الله موسى تكليماً**] وهذا النوع من الوحي يكون من الله تعالى لبعض صفوة رسله كما ثبت هذا النوع من الوحي او هذا التكلم على الاصح لرسولنا محمد ﷺ ليلة الاسراء والمعراج (2)

---

(1) (سورة الصافات) الآيات : ١٠١ – ١١٢ .

(2) (دكتور عبد الحليم محمود) شيخ الازهر في كتابه : الاسراء والمعراج طبعة مجمع البحوث الاسلامية عام ١٩٧٠ ص ١٢٧ .

وهذا النوع من الوحي لم ينزل من القرآن الكريم منه شيء على قلب رسول الله ﷺ [1].

(أ) وحي القران الكريم :

من بين الصور التي كانت تعرض لرسل الله حين يوحي اليهم، انفرد الذكر الحكيم بخاصية لم يتصف بها كتاب آخر ، ذلك بأنه كان لا ينزل منه شيء على رسول الله محمد ﷺ إلا بواسطة (ملك الوحي) يحمل — كلام رب العالمين — والأمر في هذا كان كما يقول العالم المقتدر (منّاع القطان) :(لا تخلو كيفية وحي الملك إلى الرسول ﷺ من إحدى حالتين) :

الحالة الاولى : وهي أشد على الرسول ، أن يأتيه مثل صلصلة الجرس والصوت القوي يثير عوامل الانتباه فتهيأ النفس بكل قواها لقبول أثره ، فاذا نزل الوحي بهذه الصورة على الرسول ﷺ نزل عليه وهو مستجمع القوى الادراكية لتلقيه وحفظه وفهمه، وقد يكون الصوت حفيف أجنحة الملائكة المشار اليه في الحديث الذي رواه البخاري : (إذا قضى الله لأمر في السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خضعاناً لقوله كالسلسلة على صفوان) وقد يكون صوت الملك نفسه في اول سماع الرسول له .

والحالة الثانية : أن يتمثل له الملك رجلاً ويأتيه في صورة بشر ، وهذه الحالة أخف من سابقتها، حيث يكون التناسب بين المتكلم والسامع، ويأنس رسول النبوة عند سماعه من رسول الوحي ، ويطمئن اليه اطمئنان الإنسان لأخيه الإنسان .

يقول الاستاذ (منّاع القطان) والهيئة التي يظهر فيها جبريل بصورة رجل لا يتحتم فيها ان يتجرّد من روحانيته [2] ولا يعني ذلك أن ذاته

---

(١) (مناع القطان) : مباحث في علوم القرآن ص ٣٩ من الطبعة السابق الاشارة اليها .
(٢) (مناع القطان) : مباحث في علوم القرآن ص ٣٩ .

انقلبت رجـــلا ، بل المراد أنه يظهر بتلك الصورة البشرية أنساً للرسول البشري ، ولا شك أن الحالة الأولى – حالة الصلصلة – لا يوجد فيهـا هذا الايناس ، وهي تحتاج إلى سمو روحي من رسول الله يتناسب مع روحانية الملك ، فكانت أشد الحالتين عليه ، لأنها كما قال ابن خلدون : (انسلاخ من البشرية الجسمانية واتصال بالملكية الروحية ، والحالة الأخرى عكسها لأنهـا انتقال الملك من الروحانية المحضة إلى البشرية الجسمانية) .

وكلا الحالتين مذكور فيما روي عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها ، أن الحارث بن هشام رضي الله عنه سأل رسول ﷺ فقال : (أحيانـاً يأتيني مثل صلصلة الجرس ، وهو أشده عليّ فيفصم عني وقد وعيت عنه ما قال ، وأحياناً يتمثل لي الملك رجلاً فيكلمني فأعي ما أقول) .

ولقد روت عائشة رضي الله تعالى عنها ما كان يصيب رسول الله ﷺ من شدة حين كان الوحي ينزل عليه فقالت : (ولقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وان جبينه فيتفصّد عرقاً) .

هذا .. وأنواع الوحي الثلاثة : الوحي عن طريق المنام، والكلام الإلهي للنبي من وراء حجاب ، والوحي الإلهي بإرسال الرسول وهو جبريل قد تضمنته الآية الكريمة من سورة الشورى في قوله تعالى : [**وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب ، أو يرسل رسولا فيوحي باذنه ما يشاء انه عليّ حكيم**] .

(بـ) ظاهرة الوحي :

غـالى الماديون والملحدون في إنكار الوحي الإلهي وخاصة بعد أفـانين ومبتكرات علوم النفس الحديثة ، وحاول بعضهم بغباء من منطق الحادي أن يفسّر ظاهرة الوحي الإلهي على انها من قبيل حديث النفس ونشاط العقل الباطن ، وهم في هذا واهمون عاجزون أبعد مـا يكونون عن البحث العلمي

والنظرة الفاحصة التي يدعونها لأن الظواهر التي كانت تلازم الصفوة المختارة من خلق الله ، لا يمكن تفسيرها على أنها من قبيل الظواهر النفسية ، ولئن جاز لهم ان ينكروا الحالات والصور التي كان يتعرض لها الرسول الذي يلقي اليه الله سبحانه وحياً من عنده بحكم إلحادهم وماديتهم ، فهل يمكنهم أن ينكروا آثار الوحي الإلهي على قلب بشر نبي يعيش في وسط اجتماعي وسياسي معيّن ثم يجيء الواحد منهم ، فيسوق أخبار الماضي وحوادثه ،وتواريخ الأمم والأفراد مـــا لا علم ببيئته ولا عصره به ، ثم يتنبأ بأخبار وحوادث الغد القريب والبعيد على السواء ، فلا تجيء واحدة من هذه الأشياء بخبر تكذيبه أو على غير ما ساقه .

ان التاريخ العربي القريب يحدثنا عن تلك العداوة الشديدة والبغضاء الذي لا حد له ،والكره الذي انطوت عليه نفس أبي لهب ضد رسول الله محمد ﷺ ، ونزل القرآن الكريم ليقص بعضاً من تلك البغضاء لكنه في نفس الوقت نزل يتهدد ويعلن عن مصير أبي جهل ويحدثه بأنه في النار نظراً لعدم إيمانه بمحمد وحربه له واستمراره على ذلك ، يقول رب العزة: (تبت يدا أبي لهب وتب ، سيصلى ناراً ذات لهب ، وامرأته حمّالة الحطب ، في جيدها حبل مسد) . لقد كان يملك أبو لهب وحده وكان له مطلق الحرية ولم يمنعه مانع في أن يناور وأن ينافق ويعلن اسلامه ، او تبعيته لمحمد ﷺ ، وعندئـذ يستطيع أن يضع الدعوة وصاحبها بعد هذا المأزق الذي لا مخرج منه والذي يقوم برهاناً على كذب ما ادعاه محمد ، لكن رب الوحي قد سبق علمه في أن (هشام بن عمرو) أبا جهل لن يقولها ولو نفاقاً ومراوغة ولن تستجب مشاعره ولن يسمع قلبه بدعوة الحق ، ولن ير النور الإلهي ، فلم يحاول او يراوغ، وطبع عليه أمر الله وهو يحيـا والوحي يتنزل (سيصلي ناراً ذات لهب) أليس في واقعة كتلك فقط وهناك مئات غير مما فاض بهـا الذكر الحكيم أكبر دليل على أن الوحي الإلهي ، ليس ظاهرة نفسية او فيوضات خاصة ، كما يقول

بذلك منكرو الوحي من عبدة المادة ومن أصحاب الفكر المادي ومفسري التاريخ على غير حقيقته .

أي فيوضات وأي بواعث نفسية تلك التي صاحبت رسالة الانبياء والمرسلين وعصورهم وبيئاتهم، لم تكن لتساعدهم على ما قدّموه للناس من برهان وآية .

ان المتأمل في كتاب الله يجد كثيراً من قضاياه فيها مراجعة وعتاب للنبي الخاتم ﷺ من ربه ، فكيف يكون حديث النفس وفيوضات تلك التي عبّر عنها القرآن الكريم وهو يقص أخبار الروم ولم تكن الحوادث قد وقعت بل وكل الشواهد الماثلة قبل وقوعها تنبيء بعكس هذه الاخبار ، ثم وهو يقص أخبار الخلق والطوفان وحوادث الأمم ولم تكن تلك الحوادث بعد قد عرفت.

ان البراهين العلمية التي ساقها الذكر الحكيم ، ولم يكن العصر كله — عصر الوحي — يعرف عنها شيئاً ثم جاءت البحوث العلمية والدراسات الكونية لتؤكد صحة وصدق هذه البراهين لأكبر دليل على أن معطيات الذكر الحكيم ليست من عند بشر ولا هي من صنع مخلوق.وعلى هذا فليس الوحي الإلهي على يد كل الانبياء والمرسلين ظاهرة طبيعية او نفسية ، ولكنه حقيقة إلهية لا يستقر الإيمان بها إلا في قلب المؤمن ولا تتحدد معالمها إلا في عقل وضمير الفطرة السوية التي لم تتلون بلوثات الفكر المادي ومذاهبه المعطلة لعقل الإنسان وقلبه ولم تقع أسيرة أمام تلك الانماط والاشكال التي تقع على الحس ويقع الحس عليها وإنما وظّفت في أمانة ومسؤولية ما ستودع الله إياها من قدرات وملكات وهيمنة روح فأبصرت الحق وميّزته من الباطل وصدق رب العالمين فيما قاله في سورة محمد في الآية ٢٤ : [**أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب اقفالها**] .

(ج) مراحل نزول القران الكريم :

من المعروف أن القرآن الكريم ، نزل على رسول الله ﷺ (منجما)

أي متفرقاً وعلى مراحل ، مرحلة بعد الاخرى ، وآية او آيات مع بعضها بينها فترة من الوقت ، وقد استغرق نزول القرآن الكريم كله المكي والمدني، أي الفترة التي كان ينزل فيها الوحي بالقرآن على رسول الله ﷺ وهو بمكة، والفترة التي كان ينزل فيها الوحي ورسول الله قد هاجر الى المدينة أكثر من عشرين عاماً دون توقف طويل او انقطاع مستمر عن النزول .

فقد كانت الآيات الكريمة ، تنزل حسب الملابسات والظروف والأحوال التي كان يمر بها العمل الاسلامي ، او حسب امكانات المسلمين المرحلية التي كانوا يمرون بها، كما هو الشأن مثلاً في آيات الجهاد وقتال الاعداء التي جاءت في الترتيب متأخرة عن غيرها، فإن المراحل الأولى من عمر الدعوة الإسلامية لم تكن تسمح للمسلمين بأن يتعرضوا لمقاومة أعدائهم .

وفضلاً عن هذه الاعتبارات فان نزول القرآن الكريم منجماً في بضع وعشرين سنة حقق أغراضاً عظمى وكبرى وكان منها مثلاً :

* تثبيت فؤاد النبي ﷺ وذلك بدوام تكرار نزول الوحي الإلهي عليه ﷺ وربط الارض بالسماء فترة تكوين الدعوة واعداد المؤمنين بها .

* متابعة الوحي لكل مـــا يجد على المسلمين من اوضاع وملابسات وحوادث ومشكلات في مرحلة البناء الجديد للدعوة وللناس .

* تسهيل حفظه ووعيه لأن المسلمين كانوا مكلفين بحفظ ما ينزل ، ولم تكن قدرة جميع من أسلموا في الحفظ واحدة، فكان في نزول القرآن الكريم مرحلة بعد الأخرى فرصة من الوقت لحفظ الذي نزل وتداوله والعمل به بشكل عام، فقد روي عن أنس رضي الله تعالى عنه أنه قال : (كان الرجل منا إذا قرأ البقرة وآل عمران جدَّ فينا) أي عظم .

وقد روى أبو عبد الرحمن السلمي انه قال : (حدثنا الذين كانوا يقرئوننا القرآن كعثمان وعبدالله بن مسعود وغيرهما أنهم كانوا إذا تعلموا من النبي ﷺ

عشر آيات لم يجاوزوها حتى يتعلموا مـا فيها والعمل بهـا ، قالوا : فتعلمنا القرآن والعـلم والعمل جميعاً) . وحتى يتفرغوا تمامـاً لمتابعة ما ينزل على رسول الله ﷺ من كتاب ربهم فقد نهاهم الرسول فترة طويلة من عمر الدعوة، أن لا يكتبوا شيئاً غير القرآن ، خشية ان يلتبس بغيره ، وقـد قال ﷺ فيما رواه مسلم عن أبي سعيد الخدري : (لا تكتبوا عني شيئاً غير القرآن ، ومن كتب عني غير القرآن فليمحه ، وحدثوا عني ولا حرج ، ومن كذب عليّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار) .

* معاونة الوحي الإلهي من خلال — جبريل — بأمر الله تعالى لرسول الله والمسلمين فيما تعرضوا له من أسئلة المشركين وجدالهم في فترة مكة ، ثم نفاق اليهود ومراوغتهم في المدينة، ولم يكن من المنطق في مسار الدعوة أن ينزل القرآن الكريم بكل ما فيه من أحكام وقضايا الحياة والتزامات المسلمين فضلاً عن تصحيح عقيدة التوحيد وتقريرها بعد ان تعرضت لما تعرضت له من أفكار مادية ووثنية على يد شعوب وأمم الانبياء السابقين الذين حرّفوا رسالة الله وذلك لكي ينقل المجتمع المسلم دفعة واحدة فكان لا بد من هذا التدرج .

ولو نزل القرآن الكريم دفعة واحدة كما كان يكابر بعض المشركين بالأمس وكما يجادل بالباطل اليوم الملحدون والمتعالمون لما تحققت هذه الأغراض ، ولما أمكن المسلمين ان ينتزعوا للعقائد الباطلة شيئاً فشيئاً ، فضلاً عما كان يمكن ان يوجه للدعوة الإسلامية من اتهام في مصدرها الأول وهو (القرآن الكريم) بأنه تحت دعوى الاقتباس او النقل او السرقة قـد ساق دعوته للنـاس مرة واحدة في وسط مناخ كانت فيه الكهانة الدينية اليهودية لا تتورع عن صنع زيف دعوى كهذه ، فكانت حكمـة العليم الخبير ان يكون هكذا ، وان ينزل الذكر الحكيم منجماً على طول امتداد المراحل التي قاربت ثلاثة عشر عاماً في مكة وعشرة بالمدينة .

الفصل الثالث

اللغة التي نزل بها القرآن الكريم

في أوائل القرن السابع الميلادي وفي ابّان الدعوة الاسلامية ، وحين كان القرآن الكريم ينزل على رسول الله محمد ﷺ كانت القبائل العربية غير موحدة اللغة ، فقد كانت تتحدّث بعدة لهجـــات ، بل كان لكل قبيلة ألفاظها وتعبيراتها ، لكن هذه الألفاظ والتعبيرات ، كانت ضمن الإطار العام (للغة الأم) اللغة العربية التي كان يسجّل بها الديوان العربي نثره ونظمه وحكمته . . ولقد كان من الممكن لشعراء القبائل العربية وحكمائهم أن يعقدوا مقارنات بين مدلولات الألفاظ عندهم ودلالتها على لسان قبيلة واخرى .

ويشاء الله الحكيم أن تكون (لغة قريش) وسطا بين هذه اللغـات واللهجـات وان تكون على مرّ الزمن — قبل الاسلام — بحـكم اشتمالها على دلالات اللهجات عند القبائل العربية أقوم ألسنة العرب وأعذبها بياناً ، ومن هنا رأينا ارادة الله سبحانه توجّه نبيه ﷺ إلى أن تكون لغـة قريش هي أغلى وأثمن ما كان يملكه من تعبير عربي وقدرة ابانه فهو ﷺ القائل : [أنا أعربكم أنا من قريش واسترضعت في بني سعد بن بكر] .

من هنا رأينا لغة القرآن الكريم مستقطبة وموجهة لكل لغات العرب

ولهجاتهم وحين كان القرآن الكريم ينزل بلغة قريش مصوراً مجتمع ما قبل الإسلام ، راسماً ومحدداً خطوط الدعوة الإسلامية واسلوب العمل لها ، نزل بلغة لم يبلغ شأوها البلغاء وأفصح الفصحاء ، وليس عجباً أن يدخل القرآن الكريم مقتحماً وجدان العرب الذي يدرك على بصيرة من بيان لسانه اعجاز النص القرآني حين يقول له رب العزة من خلال الوحي الإلهي على قلب نبيه محمد ﷺ في سورة الاسراء : **[قل لئن اجتمعت الانس والجن على ان يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً]** .

وتبلغ الآية القرآنية برهانها في الاعجاز والتدليل حين يقول رب العزة : **[ام يقولون افتراه ، قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله ان كنتم صادقين]** .. ولا عجب اذا حدثنا التاريخ الديني بعد ذلك لعلوم القرآن ان البلغاء والفصحاء ، قد أذعنوا للقرآن الكريم طوعاً او كرهاً ، فلقد اثبتت لغته انها أصح وادق الاصول اللغوية والبيانية ، وحتى عند الذين لم يؤمنوا في عصر الدعوة الاسلامية الأول عناداً ومكابرة كان القرآن الكريم هو المقياس والميزان اللغوي لكل ما يراد الاستشهاد على صحته عربياً .

ومع طول الزمن وتطاول بعض الادعياء على القرآن الكريم ، فلم ينل منه كل المعاندين والمكابرين ، بل وكل جهود العصابات العلمية الحاقدة على الإسلام وأهله لم تنل منه شيئاً ، وحفظ القرآن الكريم اللغة العربية ، من كل مؤامرة العمل المدسوس والمنحول والمختلق ، وحفظ الله تعالى القرآن الكريم منذ قال سبحانه في سورة الحجرة **[إنا نحن نزّلنا الذكر وانا له لحافظون]** [١] .

---

(١) (سورة الحجر) الآية رقم ٩ .

هذا .. وقد عني المسلمون منذ فجر الاسلام إلى يومنا هذا بل وإلى قيام الساعة انشاء الله بالقرآن الكريم تجويداً وتلاوة وحفظاً ودرساً وشرحاً ، يستمدون منه ما يحتاجون اليه في دينهم ودنياهم وما يفيد عقولهم وقلوبهم[١]، ولن تجد كتاباً على وجه الأرض لقي من الاهتمام والتقدير والعناية به مثل ما لقيه القرآن الكريم من المسلمين .

وحتى في المراحل التي أحيل بينهم وبين العمل به والتعبير عنه — مثلما هو الآن في كثير من بلاد المسلمين — فان جهاد الجمهور المسلم والعلماء من اجله ومن أجل تداوله والعمل به يبلغ في قلوبهم درجة من صدق العاطفة وقوة اليقين لم ينلها كتاب على وجه الأرض من التبجيل والقداسة والفداء .

والقرآن الكريم يتميز على الكتب السماوية التي سبقته بأنه يتضمنها ويهيمن عليها ومتمم لها ومكمّل لما فيها ، ومن هنا فلا كتاب بعده ويجب على كل مؤمن به ان يؤمن بهذا وان يعمل له .

ومما يجب الايمان به ويجب أن يستقر في القلوب والعقول يقيناً ان القرآن الكريم بهذا الشكل الذي بين أيدينا وعلى الهيئة التي انتهى بها الينا وبهذا الترتيب الذي علمنا إياه رسول الله ﷺ من عند الله تعالى وليس لبشر حتى رسول الله عليه السلام أدنى جهد في ترتيبه او وضعه بهذا الشكل الذي انتهى به إلينا انما هو عمل رب العالمين لأنه كلامه سبحانه وتعالى الذي تعهّد بحفظه وصونه عن ان تمسه يد بشر أو فكر مخلوق .

والقرآن الكريم بعد ذلك طاقة روحية خلاّقة تربي الفرد وتبني الجماعة

---

(١) بعد اختفاء (نظام الكتاب) الذي كان يوجد في بعض البلاد العربية والاسلامية لتخريج أجيال تحفظ كتاب الله ، قيض الله القائمين على أمر المملكة العربية السعودية فأنشأت نظام المجموعات لحفظ القرآن الكريم بالمسجد الحرام من بين طلاب المرحلة الاعدادية والثانوية ترصد لهم مكافآت وتشجعهم .. وبينهم صبية في سن الثالثة عشرة قد حفظوا القرآن الكريم كله في عامين او ثلاثة على الاكثر .. وصدق الله العظيم (انا نحن نزّلنا الذكر وانا له لحافظون).

على أساس من علائق خاصة تقوم بين المجتمع وربه فتضبط السلوك وتوجه الخطى في اتجاه الله .

والقرآن الكريم قوة روحية لا حدود لهـا في عمل الإنسان حين تدفعه إلى العمل والجهاد في سبيل الله من أجل احقاق الحق ومقاومة الباطل والظلم، والقرآن الكريم تراث المسلمين النظيف مقوّم اخلاقهم في كل المحن والملمات وصانع وجودهم في الشدائد والأهوال ، وفوق هذا فالقرآن بمـا تضمنه من الحث على النظر والتدبر والتأمل في الكون هو حليف العلم والعلمـاء وعدو الجهل والجهلاء يدعو المؤمنين بـــه إلى العمل والانتاج والى الحق والخـير والامانة ، وسوف يبقى الى مـا شاء الله المعجزة الإلهية الخالدة ، وسوف يبقى ما دامت السموات والارض، غنياً بنفسه عزيزاً بطهارته وقدسيته مشعاً بأنوار آياته ، وكلما مضى الزمن كلما ازداد القرآن الكريم اشراقـاً ونوراً وحياة لأنه كلام الله الحي الذي لا يموت .

(أ) خصائص البيان القرآني :

كان لا بد – بأمر الله ومشيئته – ان يكون القرآن في بيانه اعظم قمة بيانية تحفظ لعظمة معانيه ودلالته قدسية روحية خاصة ينفرد بها، وايحاءات روحية كبرى تهيمن على كل بيان وتشد كل انتباه وتسيطر على كل وجدان ، وهذا هو ما تم في علم الله بالفعل .

فالبيئة العربية التي نزل القرآن الكريم فيها ، وبإرادة الله سبحانه صاغه بلغتها كانت أهم مقومات وجودها الحضاري – وهي كثيرة – تقوم على ثروة من البيان والإبانة [١] .

---

(١) انظر : في واحد من أهم أمهات كتب الصحوة الاسلامية المعاصرة التي يفتح آفاقهـا قلة من مفكري الإسلام كتاب : (لمـــاذا ظهر الإسلام في جزيرة العرب) للكاتب والمفكر الاسلامي (احمد موسى سالم) صادر عن دار الجيـــل – بيروت – الطبعة الأولى عـــام ١٣٩٧ هـ – ١٩٧٧ م .

وكان العربي يفتخر بما يملكه من شتى دروب الملكات الشعرية والنثرية فيما يصوغه من حكمة وما يقعده من أخلاق او ما يقرره من عرف ، ولقد اجادوا قبيل عصر نزول القرآن وأحسنوا ، وكان لهم من الشعراء والخطباء والحكماء خير شاهد على البراعة اللغوية والاباء النفسي ، والجودة التامة في صناعة الكلام للتعبير عن هذه الخصائص والمقومات ، وبعد ذلك فللعرب هوى بالسجع والساجعين ويعجبون لقول المتفننين فيه فكان قول كقول (سطيح) : (أقسم ما بين الحرّتين من حنش ، لتهبطن ارضكم الحبش ، فليكن ما بين أبين إلى جرش) .

وكقول (شق) : (اقسم ما بين الحرتين من انسان ، لينزلن ارضكم السودان ، فليلقين على كل طفلة البنان ، او ليمكن ما بين أبين إلى نجران) يعجبهما كثيراً .

ولما جاء القرآن الكريم تحمل تركيبات آياته بعد معنى الإيمان بالله وتوحيده جرساً موسيقياً وبناءاً هندسياً في وحدات اللفظ الواحد ، وتتوارد على نصوص آياته خواطر تنشط من خلالها الروح ، ورؤى وجدانية تحرّك المشاعر ويهتز لها قلب الانسان ، انصت لها العرب وارهفوا السمع ، وهم صفوة خلق الله في هذه الخواص . وامام قول الله تعالى في هذه التركيبة البيانية المعجزة في سورة (النبأ) وقف العرب كثيراً امام هذا السياق المبهر والمعجز والذي يؤكد من بين روحه التي تسري بين فقراته على انه كلام العالمين . يقول رب العزة : [**... ان جهنم كانت مرصاداً ، للطاغين مآبا ، لابثين فيها احقاباً ، لا يذوقون فيها برداً ولا شراباً إلا حميماً وغساقاً ، جزاء وفاقاً ، انهم كانوا لا يرجون حساباً ، وكذّبوا بآياتنا كذّاباً ، وكل شيء احصيناه كتاباً فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذاباً**] . أمام هذا النص الإلهي أدرك أصحاب الضمائر الحية انهم صياغة غير بشرية ونسق غير ارضي ، بل وجدوا انهم امام هذا التحذير يجدون عون الله واضحاً ، هذا العون هم أجدر الناس بالحاجة اليه وأهل الاستعداد لتقبله .

لكن جزءاً منهم في – المراحل الأولى – فقط – حتى اطمأنوا إلى سلامة الداعي حار في أمر هذا العطاء القرآني وضحك بعضهم على نفسه وذكر انه من قبيل الشعر او الكهانة او من قبيل السحر ان لم يكن سحراً .. إلا ان الله سبحانه قد أكذبهم جميعاً وما حديث ابن هشام في سيرته عن ابن الوليد عنا ببعيد كبرهان على أن من كابر سرعان ما كان نور الحق يوقفه منبهراً لا يملك حياله أن يتطاول على مقام النص بالكذب او بالعدوان .

يقول ابن هشام في سيرته[1] . (... ثم ان الوليد بن المغيرة اجتمع اليه نفر من قريش ، وكان ذا شأن فيهم وقد حضر الموسم ، فقال يا معشر قريش قد حضر هذا الموسم ، وان وفود العرب ستقدم عليكم ، وقد سمعوا بأمر صاحبكم ، فاجمعوا فيه رأياً واحداً ، ولا تختلفوا فيكذب بعضكم بعضاً ، ويرد قولكم بعضه بعضاً قالوا : فأنت يا أبا عبد شمس فقل وأقم لنا رأياً نقل به قال بل أنتم فقولوا قالوا نقول انه كاهن ، قال والله ما هو بكاهن ، لقد رأينا الكهان فما هو بزمزمة الكاهن ولا سجعه قالوا فنقول مجنون قال ما هو بمجنون لقد رأينا الجنون وعرفناه ، فما هو بخنقه ولا تخالجه ووسوسته قالوا فنقول شاعر ، قال ما هو بشاعر ، لقد عرفنا الشعر كله رجزه وهزجه وقريضه ومقبوضه ومبسوطه فما هو بالشعر ، قالوا فنقول ساحر ، قال ما هو بساحر لقد رأينا السحار وسحرهم ، فما هو بنفثهم ولا عقدهم قالوا فما تقول يا عبد شمس ؟ قال والله ان لقوله لحلاوة ، وان أصله لعـــذق ، وان فرعه لجناة ، وما انتم بقائلين من هذا شيئاً إلا عرف انه باطل ، وان اقرب القول فيه لأن تقولوا : هو ساحر جاء بقول هو السحر يفرق المرء واخاه وزوجه ، هو سحر يؤثر ، ومحمد ساحر وهذا هو السحر المبين) .

هذه الواقعة تكشف لنا كم كانت حيرة العناصر التي لا تريد ان تستسلم

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام – الطبعة الثـــانية عام ١٩٥٥ ص ٢٧٠ من القسم الأول تحقيق – مصطفى السقا - ابراهيم الابياري – عبد الحفيظ شلبي .

النور الحق الذي امامها ، ومع ذلك فلا تملك مكابرة فيما بينها وبين نفسها امام هذا النور ، وهذا هو الموقف الذي تتناولته آيات الذكر الحكيم من سورة المدثر ، ولعلها تعني الوليد بن المغيرة بالذات ، يقول رب العزة : [.. انه فكّر وقدّر فقتل كيف قدّر ثم قتل كيف قدّر ثم نظر ، ثم عبس وبسر ثم أدبر واستكبر ، فقال ان هذا إلا سحر يؤثر] (١) .

(ب) علاقة القرآن بالوجدان العربي :

تتجلى هذه العلاقة باعتبار ان العرب في بادىء الدعوة هم حملتها وأدواتها للناس جميعاً ، فضلاً عن اصطفاء الله لهم بأن يكون شرف النبوة فيهم فيما تطالعنا به قصة اسلام امير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه ، فتكشف لنا عن بعض مظاهر تأثير القرآن الكريم على نفوس العرب وقلوبهم ، فبعد ان سمع شيئاً يسيراً من القرآن الكريم في بيت اخته التي سبقته إلى نور القرآن الكريم ، تدبّره وانصت له فانفتح قلبه عليه فلم يسعه إلا ان يؤمن وان يقول بعد ذلك في التعليق على هذه الواقعة : (فلما سمعت القرآن رقّ له قلبي فأدخلني الاسلام) (٢) .

وصدق رب العالمين اذ يقول في تأثير القرآن الكريم في القلوب الخيّرة النقية وهيمنته على النفوس الطاهرة : [.. تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله] الزمر ٢٣ .

ويقول تعالى عن تأثيره فيهم : [إذا يتلى عليهم يخرون للاذقان سجداً ويقولون سبحان ربنا ان كان وعد ربنا لمفعولا ، ويخرون للاذقان يبكون ويزيدهم خشوعاً] (٣) .

---

(١) (سورة المدثر) الآيات ١٨ - ٢٦ .

(٢) (ابن هشام) الجزء الأول ص ٣٤٤ .

(٣) سورة الاسراء - آيتا ١٠٧ - ١٠٨ .

ولقد كان من عادة العرب أن يتحدى بعضهم بعضاً ، وخاصـة في أمور كالمساجلة والمقارضة بالقصيد والخطب ، وكانوا ينطلقون إلى ذلك ثقـة منهم بقوة الطبع وتدفق الشاعرية ، وحين نزل القرآن الكريم قوم لهم برهانه في آيات كثيرة .. ومن عجب أن القرآن الكريم سلك في طريق تقديم برهان للعرب كل مقومات الفطرة وحقائق الايمان التي هم على علم بها ومجهزين لتقبلها، فلما رفض بعضهم في بادىء الدعوة نور القرآن الكريم ، استهدف العليم الحكيم أن يشهد التاريخ ولتشهد كل اجيال الانسانية إلى يوم يقوم الناس لرب العالمين، أنـه لا قبل لمخلوق أن يقف متحدياً او عائقاً امام عظمـة النص القرآني ، بعد ان عجز العرب عن مجابهته او تكذيبه ، او الاتيان بمثله او بسورة منه او بآية على نمطـه ، وهم الخطباء والشعراء وأصحاب البيـان والذين يملكون وحدهم القدرة على مواجهة النص لو كانوا حقاً يقدرون ، ومن اعظم البراهين القرآنية في الدلالة على أنه من عند الله أنـــه سلك إلى عقل الانسان طريقاً يحبها ويتوق اليها وهي انه دعاهم إلى المساجلة والتحدي في الاتيان بمثل القرآن او بعضه ، ومن اعظم براهين هذا الذكر الحكيم انه قبل المساجلة والتي هي في عـلم الله لن تتم لأنهم لن يقدروا عليها أعلن سبحانه سلفاً عن عجزهم عن أن يأتوا بمثله ، وحين يعجز العرب عن مجابهـة القرآن والاتيان بمثله فباليقين كل الدنيا عاجزة عن أن تأتي بمثله بل عاجزة عن أن تأتي بمثل آية منه ، يقول رب العالمين العزة في سورة الاسراء : [**قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا**] [1].

ومع كل هـذا البرهان القاطع ، فان الذكر الحكيم تدرّج بعد ذلـك في معالجة المواقف المعاندة فطلب من ارباب البيان وملوك الفصاحة أن يأتوا بعشر سور ولو مفتريات ، ليس فيها حكمة القرآن ولا حقيقته الإلهية ، ولكن المطلوب فقط أن تكون على غرار نظمه وتراكيب اسلوبه ، ومع ذلك عجزوا،

---

(١) (سورة الاسراء) آية رقم ٨٧ .

ويناقشهم القرآن ويوبخهم على مواقفهم المعاندة ويقول تعالى في سورة هود : [أم يقولون افتراه ، فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله ان كنتم صادقين ، فان لم يستجيبوا لكم فاعلموا أنما أنزل بعلم الله وأن لا اله الا هو ، فهل أنتم مسلمون] (١) .

وانتقل القرآن الكريم الى موقف أشد إثارة وأعظم استفذاذاً حين وضع أرباب اللغة وعباقرة الشعر وملوك القصيد في هذا المأزق الحرج ، وطالبهم أن يأتوا بسورة واحدة في قوله تعالى من سورة يونس: [أم يقولون افتراه قل فأتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم من دون الله ان كنتم صادقين] (٢).

وبعد كل هذه المواجهة القرآنية للتدليل على إعجازه ، امام من كانوا وحدهم في عصر الدعوة عندهم القدرة العقلية واللسانية على ان يواجهوا القرآن ولم يقدروا ، وخاصة بعد كل مراحل التدرج القرآني في إعجاز العرب لاقرارهم بعجزهم عن ان يثبتوا ان القرآن من صنع البشر ، وان للجهود العقلية والإنسانية علاقات به ، وبعد ان عجزوا تماماً وهم اصحاب قدرة فائقة ، قرن القرآن الكريم هذا التحدي بالتأنيب والتقريع والتوبيخ بل والتهديد والإنذار بالعقوبة .

يقول رب العزة في سورة البقرة : [وان كنتم في ريب مما نزّلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله ان كنتم صادقين، فان لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين] (٣) .

وعند هذا الحد الفاصل حسم القرآن الكريم بآياته قضية اعجازه أو برهانه

---

(١) (سورة هود) آيتا ١٣ – ١٤ .
(٢) (سورة يونس) الآية رقم ٣٨ .
(٣) (سورة البقرة) آيتا ٢٣ ، ٢٤ .

للناس ، فقطع بأن البشر لن يقدروا على الاتيان بمثل آية منـه لأنهم لا يستطيعون ذلك .

هذا..ومما تجدر الاشارة اليه انه كان هناك محاولات بشرية كاذبة وعلى نطاق ضيّق حاولت معارضة القرآن الكريم ، لكن العرب انفسهم لفظوها ورفضوها لتفاهة موضوعها ، وركاكة تركيبها ، منها مثلاً محاولة (الكذاب) مسيلمة بن حبيب النجدي [1] الذي كان قد ادعى النبوة ورسول الله ﷺ لا يزال يتلي عليه الوحي وينزل القرآن الكريم .. وظل كذلك على كذبه حتى بعد وفـاة الرسول ﷺ إلى ان قضى المسلمون على فتنته وتخلصوا من كذبه. ففي السنة العاشرة للهجرة كتب مسيلمة الكذاب الى رسول الله ﷺ يقول له : (أمـا بعد فاني قد شوركت في الأرض معـك ، وإنا لنا نصف الأرض ولقريش نصفها لكن قريشاً قوم يعتدون) .

ثم زعم مسيلمة أن له قرآناً قد نزل عليه ،وبأتيه به ملك يسميه (رحمن). وإذا ما القينا نظرة على ما سجله التاريخ من هذه الجمل والفقرات التي ادعى مسيلمة انهـا (قرآناً) لأدركنا مـدى هزال وهراء وركاكة كل المحاولات والنماذج التي حاولت معارضة القرآن وذلك على ضوء الكلام المنسوب كنماذج لمسيلمة الكذاب .

يقول مسيلمة في سجعه الذي لا يخرج عن كونه سجعاً من سجعات الكهان: (والمبذّرات ذرعاً ، والحاصدات حصداً ، والذاريات قمحـاً ، والطاحنات طحناً ، والعاجنات عجناً ، والخابزات خبزاً ، والثاردات ثرداً ، واللاقمات

---

(١) ومن حكمة الله القدير أن أرض نجد التي أفرزت (مسيلمة الكذاب) هي اليوم وبعد أربعة عشر قرناً من نزول القرآن الكريم مقر لقيادة يتصدى أبناؤها المسلمون لقيادة الأمة المسلمة ضد المخاطر التي تحاك ضد القرآن الكريم من قبل أعدائه..وهي اليوم التي يرصد ابناؤها الملايين من الاموال لتحفيظ القرآن الكريم — مجوداً — باللغة والطريقة التي ترك رسول الله صلى الله عليه وسلم المسلمين عليها كتاب الله بين ظهرانيهم .

لقحاً ، هالة وسمناً .. لقد فضّلتم على أهل الوبر ، وما سبقكم أهل المدر ، ريفكم فامنعوه ، والمعتر فأووه والباغي فناوؤه) .

ولننظر إلى أنموذج آخر من سجع مسيلمة الذي ادعاه قرآناً وحاول به معارضة (قرآن رب العالمين) المنزّل على قلب خاتم النبيين محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم .

يقول مسيلمة : (الفيل ما الفيل، وما أدراك ما الفيل ، له ذنب وبيل، وخرطوم طويل) .

هذا .. ويهزأ الجاحظ في كتابه (الحيوان) من مسيلمة عن قوله الذي ذكره في الضفدع ، ويقول الجاحظ الساخر ، لا أدري الذي هيّج مسيلمة على الضفدع، ولِمَ ساء رأيه فيها حتى جعل بزعمه فيما نزل عليه من قرآنه يقول فيها : (يا ضفدع بنت ضفدعين ، نقّي مـا تنقين ، نصفك في المـاء ونصفك في الطين ، لا الماء تكدّرين ، ولا الشارب تمنعين) .

وبعد : هل لنا أن نضع هذا الهراء السخيف امام مقابلة قرآنية في آية او بعض آية،ان العقل والقلب والفطرة معاً ليرفضون علينا مثل هذه المقابلة.

ان العنـاد الذي وقفته قريش مرحلياً من الدعوة وصاحبها عليه السلام كان الوحي الإلهي يتدخل قاطعاً بهذا الشكل المعجز ، الذي تفصح آية من كتاب الله الكريم .

ولننظر مثلاً إلى قول الله تعالى لنبيه محمد ﷺ في سورة فصّلت : [قل أئنكم لتكفرون بالذي خلق الارض في يومين ، وتجعلون له أنداداً ذلك رب العالمين ، وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها وقدّر فيها أقواتها في أربعة أيام سواء للسائلين،ثم استوى الى السماء وهي دخان فقال لها وللارض ائتيا طوعاً أو كرهاً قالتا أتينا طائعين ، فقضاهن سبع سموات في يومين وأوحى في كل سماء أمرها ، وزيّنا السماء الدنيـــا بمصابيح وحفظا ذلك

تقدير العزيز العليم ، فان اعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود] [1] .

ولننظر أيضاً إلى تلك الصورة الكوفية الهائلة التي يعجز العقل البشري عن تصورها لكن القلب القرآني في إنسان الإسلام يستشعر ملامحها خوفاً ووجلاً من الله القادر .

يحدثنا رب العالمين في كتابه الكريم عن هذا المشهد المدلّل على قدرته تعالى يقول : (يوم نطوي السماء كطي السجل للكتب كما بدأنا أول خلق نعيده وعداً علينا إنا كنا فاعلين) [2] .

وان آية كتلك التي يحدثنا الله تعالى عنها في سورة الحج يبين بها تعالى عن كيفية الخلق ومراحله ، ويكشف الله بها عن بعض مكنون سرّه في الكون على ضوء سنن الله تعالى وقوانينه في الحياة والأحياء لتدل باليقين على قدرة الإله الحق صاحب القرآن الحق على قلب النبي الحق محمد ﷺ .

يقول رب العزة مخاطباً الإنسانية كلها علّها تنتبه وتسترشد إلى معطيات الذكر الحكيم : [يا ايها الناس ان كنتم في ريب من البعث ، فانا خلقناكم من تراب ، ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلّقة وغير مخلّقة لنبين لكم ونقر في الارحام ما نشاء الى اجل مسمى ، ثم نخرجكم طفلا ثم لتبلغوا أشدكم ومنكم من يتوفى ، ومنكم من يردّ الى ارذل العمر لكي لا يعلم من بعد علم شيئاً ، وترى الارض هامدة ، فاذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت ، وأنبتت من كل زوج بهيج ، ذلك بأن الله هو الحق وأنه يحيي الموتى وأنه على كل شيء قدير ، وان الساعة آتية لا ريب فيها ، وأن الله يبعث من في القبور] [3] .

---

(١) (سورة فصلت) الآيات ٩ – ١٣ .

(٢) (سورة الانبياء) الآية ١٠٤ .

(٣) (سورة الحج) الآيات ٥ – ٧ .

الفصل الرابع

الاهتمام الاسلامي بالقرآن الكريم

منذ نزل القرآن الكريم على النبي العربي محمد ﷺ ، أثار في العرب بادىء ذي بدء حركة فكرية عظمى ، ذلك انه دعاهم إلى تدبر معانيـه ودعاهم إلى الالتفات اليه ، وحين أحسوا انه لا قبل لبشريته – بحكم استحالة ذلك – ان تجابه ما في القرآن من أساليب التعبير والبيان ، تعلقت به افئدتهم وهوت له قلوبهم ، وأرهفت اسماعهم لما جمع فيه من خير وما ساقه من معان ، ولما لم يسعهم إلا التسليم بعظمته والإيمان به ، انشغلوا به يتتبعون آياته الكريمة ، ويحاول الفقهاء منهم أن يستخلص منه احكام الشريعة على ضوء ما يخبر بـه من أمور الدين والدنيا . واقتفى الاثر القرآني علمـــاء اللغة فنهلوا منه ، واستقصـوا وجوه الألفاظ ودلالتهـا ، بل رجال الفكر الاسلامي راحوا يجمعون ما في القرآن الكريم من قواعد اخلاقية ومبـادىء روحية ومناهج حياة ، وراحوا يقعدون لنظريات جديدة تساير تطور العصور وحركة التقدم الاجتماعي التي كانوا يمرون بها .

ومن الجدير بالذكر ان الاهتمام الاسلامي بالقرآن قـد أوجد علوماً كاملة ونظريات جديدة كلها تتجه لخدمة القرآن الكريم ، وحين استقلت واتخذت

لنفسها مساراً خاصاً بالبحث والنظر كانت تأتلف مع القرآن ولا تختلف ، وكان منهجها يتحد ولا يختلف ، وحين كان بعض هـذه العلوم يترامى إلى آفاق جديدة في التشعبات والجزئيات كانت دائماً تنظر إلى الاصل وترتبط به حتى لا تضل او تحيد .

وحين تختلف المسائل وتتباين وجهات النظر ثم يذكر النص القرآني تحسم كل المشاكل وتنتهي كل الخلافات ، ذلك لأن القرآن الكريم في تقدير المسلمين والمشتغلين بعلومه هو الحجة الدامغة التي لا تعلو عليها حجة مهما كانت ، ومهما قويت وكان شأن صاحبها في الدليل .

وانطلاقاً من هذا الأساس ، رأينا علوم التفسير التي أنشئت لخدمة القرآن يبذل اصحابها جهدهم في أن يتخلصوا من هواهم واهوائهم ، ليرتبطوا قدر الإمكان بروح القرآن الكريم والعمل على ابراز بعض معالمه ، ويجدر بنا — ولو في ايجاز شديد — أن نعرض لبعضهم من باب التعريف فقط حتى يمكن التعرف على بعض الحشد العظيم الذي قيّضه الله لخدمة كتابه العظيم .

فممن اهتموا بالبحث ومحاولة تفهم الروح العام للقرآن الكريم والتعرّف عليه ، وكان فكره يدور حول ما يستشعره من معاني النص الكريم ، علماء أجلاء ومن أشهرهم : الكسائي ، والأخفش ، والفرّاء ، والزجاج ، وابو علي الفارسي ، وأبو جعفر النحاس فقد كانت الكتب التي كتبها هؤلاء الافذاذ تدور حول معاني القرآن .

هذا .. ونرى علماء آخرين اهتموا بجوانب اخرى من القرآن مثل علماء اللغة الذين وجهوا عظيم عنايتهم إلى الكشف عن الاعجاز اللغوي للقرآن ، فذهبوا يبذلون جهودهم الشريفة من أجل تحقيق مثل هذا الهدف ، وكان منهم امثال : الفرّاء وأبي زيد الانصاري والأصمعي ، فقد كتب الاصمعي كتابه (لغات القرآن) وكتب الفراء كذلك (لغات القرآن) ثم كتب ابو زيد الانصاري كتابه (المصادر والقرآن) .

ووجدنا علماء آخرين وجهوا عظيم اهتمامهم حول اسلوب القرآن ومعانيه ونظمه واسترعى اهتمامهم تميُّز التعبير في القرآن وانفراده ، بايحاءات ودلالات خاصة ، ومن هؤلاء العلماء الاجلاء : ابو عبيدة معمّر بن المثنى في كتابه (مجاز القرآن) ، والجاحظ في كتابه (نظم القرآن) وابن قتيبة في كتابه (تأويل مشكل القرآن) .

وبالنظر في هذا التراث الإسلامي العظيم الذي يدل على مدى ارتباط المسلمين بكتاب ربهم ، نرى (أبو عبيدة) يمثل في كتابه (مجاز القرآن) التيار القوي اللغوي الذي لا يغفل آثار البحث البياني ، ويقدم ابو عبيدة لكتابه بمقدمة في بحوث لغوية في القرآن لبحث كلمة (قرآن) .

هذا .. ويعتبر كتاب (معاني القرآن) للفراء دراسة مكملة من الناحية اللغوية لكتاب (مجاز القرآن) .

وحين تطورت الدراسات المختلفة بتطور الزمن واشتبكت بالحضارة الجديدة وما حملته من فكر ، رأينا (النظام) المعتزلي وقد تأثر بكتب الفلاسفة ودرس الاعتزال ، واتصل بالثقافة الهندية والفارسية واليونانية وتعلم المسيحية ولاهوتها ، وكان بطبيعته ميّالاً إلى التجربة والقياس شأنه شأن المعتزلة – غفر الله لهم – لا يقبل التسليم بالمنقول والمأثور دفعة واحدة ، وحين حفظ القرآن نظر فيه على ضوء مذهبه القياسي لا يقبل التسليم بالمنقول ، ورأى (النظام) ان اعجاز القرآن في اخباره عن الغيب وعن مستوى اعجازه ، كان يجوز للعباد أن يقدروا على مثله لولا ان الله منعهم بمنع وعجز احدثهما فيهم ، وحين ذاعت آراء (النّظام) تعرّضت لنقد شديد وخرج عليه تلميذه الجاحظ وكتب في الرد عليه كتابه (نظم القرآن) ثم توالت مؤلفات كثيرة من اهل السنّة تناقش النظام وترد عليه .

وقد اعتمد الجاحظ في كتابه (نظم القرآن) على القرآن في نصّه الكريم ، فلم ينهج نهج اللغويين والنحويين ، ولكنه أخذ لنفسه منهجاً وأرتضى رأياً لأمَ بين طبيعة الإسلوب القرآني والبيان العربي .

هذا وقد مر الاهتمام الاسلامي بالقرآن بأطوار كثيرة حتى انتهى إلى ما يمكن ان يجده الباحثون اليوم من تراث حول كتاب ربهم .

قد بدأ الاهتمام بالقرآن الكريم في توضيح مجمله ، وتبسيط موجزه ، وشرحه مبكراً فكان أول شارح ومفسّر له هو المصطفى محمد ﷺ الذي نزل على قلبه . وفي تقرير هذا المعنى الذي نذهب اليه يقول رب العزة في سورة الفرقان : [**ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق واحسن تفسيراً**] . وتناقل أصحاب رسول الله ﷺ ما شرحه لهم الرسول ، وكان لكل صحابي من الأربعة تفسيراً لما يعرض له ولم يدوّن من ذلك شيء بالطبع ، ثم انتقل الأمر مع شيوع حفظ كتاب الله ، ان نشط في تفسير كتاب الله (عبدالله ابن عباس) ، (عبدالله بن مسعود) ، (عبدالله ابن عمر) و (عبدالله بن عمرو) . وكذلك كان يمكن الرجوع إلى من بقي حيّاً لفترة طويلة بعد وفاة الرسول من كتّاب الوحي كزيد بن ثابت .. الذي شاء الله أن يطول عمره طوال مدة الخلفاء الأربعة .

وهكذا ظل الاهتمام الاسلامي بالقرآن لا يتوقف لحظة من زمان ، كان من التابعين وتابعيهم علماء افذاذ تفرغوا لخدمة كتاب ربهم ، فمنهم مثلاً اصحاب عبدالله بن عباس بمكة مثل : عكرمة مولاه ، ومجاهد ، وسعيد ابن جبير ، وكذلك كان من اصحاب الكوفة : علقمة بن قيس ، والاسود ابن يزيد ، وابراهيم النخعي ، والشعبي ، وفي المدينة كان من أصحاب ابن عباس : زيد بن أسلم ، والامام المحدث العظيم مالك بن انس ، ومحمد بن كعب القرظي ، والحسن البصري ، وقتادة السدوسي ، والربيع بن انس بالبصرة ، وغيرهم كثير (١) .

---

(١) (دراسات في علوم القرآن : ومنهج المفسرين) للشيخ (كامل عبد المجيد خطاب) . والكتاب محاضرات ألقاها على طلاب كلية الدراسات الاجتماعية جامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية بالرياض عام ١٣٩٧ هـ ص ٤٧ .

هذا .. ويعتبر من أقدم الذين دونوا ما فسروه من كتاب ربهم (عبد الرازق بن نافع الصنعاني) المتوفى سنة ٢١١ هـ ، وهو من المراجع الاساسية لمعظم كتب التفسير التي دوّنت وجمعت بعد ذلك ، والشيخ عبد الرازق بن نافع مشهور بالصدق والقبول في الرواية ، كذلك يعتبر من أقدم كتب التفسير التي يتأكد بها الاهتمام المبكر بكتاب الله الكريم كتاب (جامع البيان عن تأويل آي القرآن) للامام محمد بن جرير الطبري المتوفى سنة ٢١٠ هـ والكتاب مشهور متداول .

يقول الشيخ كامل عبد المجيد خطاب : ومن اقدم ما وصل الينا من كتب التفسير كتاب (معاني القرآن) للفرّاء المتوفى عام ٢٠٧ هـ (وغريب القرآن) لابن قتيبة المتوفى ببغداد عام ٢٧٦ هـ وكتابه من أهم ما كتب في هذا الموضوع ، وكذلك كتاب (المفردات في غريب القرآن) للراغب الاصفهاني المتوفى عام ٥٠٢ هـ . وفي هذا الكتاب خصائص نفيسة لا توجد في غيره .

وأيضاً من التفاسير التي اشتهرت بالاهتمام بالنحو والصرف والتصريف والبيان والبديع تفسير (بحر المحيط) لأبي حيّان المتوفى عام ٧٤٥ هـ . ومن اشهر كتب التفسير اهتماماً بالمأثور هو ما يسمونه تفسير : القرآن بالقرآن (تفسير القرآن العظيم للحافظ بن كثير الدمشقي المتوفى عام ٧٧٤ هـ) فقد كان فقيهاً محققاً ومحدثاً بارعاً ومؤرخاً ماهراً ومفسراً ضابطاً ، وتفسيره من أهم كتب التفسير سرداً للآيات المتناسبة والأحاديث المرفوعة المتعلقة بالآيات ، واهتماماً بآثار الصحابة وأقوال التابعين وعلماء السلف ، وقد نقّى تفسيره من الاسرائيليات وحذّر منها .

أ) خصائص الاسلوب القرآني :

لا غرابة أبداً أن يكون للقرآن الكريم اسلوبه الذي يميز ويتفوّق به على كل الأساليب لأنه كلام (الله) ومن البداهة ان الاسلوب عادة هو الطريقة

التي ينتهجها المؤلف في المفردات والتراكيب لكلامه، الاسلوب الذي يشكل روح ومعالم المعنى المراد يكون دائماً غير مفردات الكلام وجمل تراكيبه التي يتألف منها ، ومن هنا نرى الفروق الواضحة بين اسلوب وآخر . أما اسلوب القرآن الكريم فشيء آخر ، يختلف تماماً عن الأساليب التي يصوغها البشر لان الأساليب البشرية تحمل بين ثناياها طاقة البشر وقدرتهم ومرادهم ، أما الاسلوب القرآني فتسري بين مفردات جمله وتراكيبه مشيئة الله وارادته في هداية خلقه وعونه لهم ، وتتخلله روح تسري في قلب المؤمن ووجدانه فيشعر بذاته مهيمنة على ما حوله ومتصلة به .

واسلوب القرآن الكريم من بين جميع الأساليب التي تقرأ شيء فريد خاص به لأنه كما قلنا كلام الله تعالى ، ولا وجه للمقابلة بينه وبين أي نص على الأرض مقدساً كان او غير مقدس بعد ان اثبتنا ان النصوص المقدسة عند اصحابها قد فقدت روح الوحي الإلهي بعد ان اختلط بما فيها الحق بالباطل، حقيقة ان القرآن الكريم لم يخرج عن معهود العرب في لغتهم ، فمفرداته مفرداتهم ، وجمله جملهم في الكلام وقواعد الصياغة فمن حروف العرب تألفت كلماتها، تألفت — بمشيئة الله وارادته — تراكيبه وعلى قواعدهم كانت صياغته ، ومع التسليم بكل هذه المعاني والمقومات ، فإن اسلوب القرآن الفذ ومنهجه المعجز الذي يملك القلوب ويهز المشاعر والذي يسيطر بهيمنته الروحية على الجوارح ، رب العزة يقول فيه تشريفاً وتكريماً للعرب الذين نزل كلام الله بلغتهم في سورة يوسف : [إنا انزلناه قرآناً عربياً] . ومن هنا يرى الباحثون في علوم اللغة ان اسلوب القرآن الكريم وهو ان صيغ بعبارة عربية من الاسرار الإلهية التي يختص بها النص القرآني دون سواه ويتميز بها على جميع النصوص .

وإذا ما أردنا أن ننظر إلى بعض مميزات المفردة القرآنية فإنا نراها تتسم بمميزات ثلاث :

أولهـا : جمال وقعها في السمع بطريقة تتسق وجمال الفطرة وسلامتها .
ثانيهـا : علاقة المفردة القرآنيـة بالمعنى المراد يجيء دائماً ابداً في اتساق كامل يحقق المعنى المراد .
ثالثهـا : دلالة المفردة القرآنية عمقاً وشمولاً وسعة بشكل تتميز به دائماً عن دلالات الكلمات الأخرى في نفس اللغة .

اننا إذا نظرنا إلى أنموذج واحد كتدليل على ما نقول لرأينا عظمة وشموخ البناء القرآني في تركيباته اللغوية ، فضلاً عن معطياته وجوهر روحه ، يقول رب العزة مثـلاً في سورة التكوير : [**والليل اذا عسعس ، والصبح اذا تنفس**] ان الفطرة النقية تشم وتستشعر رائحة المعنى قوية واضحة في لفظتي (عسعس وتنفس) بشكل يحث الخيال في تصور المعنى ممسوساً محساً مجسماً دون حاجة إلى عون خارجي. وان الخيال لا يستطيع أن يصوّر حالة اقبال الظلام في الليل وانتشاره في الآفاق الواسعة والمتراميـة مثلما توجه وتشعر كلمة (عسعس) في لغة العرب . ومهما اسعفت مفردات اللغة ودلالاتها في التعبير لتصوّر انفلات الضحى من مخبأ الليل وسجنه فلن تكون هناك كلمة تضاهي العبارة التي أرادتها مشيئة الله لهذا المعنى في قوله تعالى : (تنفس).

هذا .. ويسوق الدكتور بكري شيخ امين في كتابه (التعبير الفني في القرآن) نماذج ودراسات لمواقف الآيات ، دلل بها على اعجاز النص القرآني وانفراد اسلوبه بالمفردة اللغوية بشكل يجعلـه فوق كل الأساليب ويقول : هل لنا أن نقرأ قول الله تعـالى : [**يا ايها الذين آمنوا ما لكم اذا قيل لكم انفروا في سبيل الله اثاقلتم الى الأرض**] ادرس الاداء الفني الذي قامت به لفظة (اثا قلتم) بكل ما تكوّنت به من حروف ومن صورة ترتيب هذه الحروف ، ومن حركة التشديـد على الحروف (اللثوي) ــ الثـاء ــ والمد بعده ، ثم مجيء القاف الذي هو احد حروف القلقلة ، ثم التاء المهموسة التي تنطبق عليها الشفتان ، ويخرج صوتها من الأنف ، ألا تجد نظـام الحروف وصورة اداء الكلمة ذاتها اوحت اليك بالمعنى ، قبل أن يرد اليك من جهة

المعاجم ؟ ألا تلحظ في خيالك ذلك الجسم المثاقل يرفعه الرافعون من جهد فيسقط في أيديهم في ثقل ، ألا تحس أن البطء في لفظ الكلمة نفسها يوحي بالحركة البطيئة التي تكون من المثاقل جرّب ان تبدّل المفردة القرآنية وتحل محلها لفظة (تثاقلتم) أن تلمس شيئاً من الخفة والسرعة بل والنشاط الذي اوحت به (تثاقلتم) بسبب وصف حروفها وزوال الشدة وسبق التأمل قبل الثاء ، اذن فالبلاغة تتم في استعمال (اثاقلتم) للمعنى المراد ولا تكون في تثاقلتم .

ب) المكي والمدني في القرآن الكريم :

بعد ان حاولنا معرفة الحكمة من نزول القرآن منجماً أي فرقاً ، مرحلة بعد الأخرى وذلك لكي يثبت الله بـه قلب النبي (ص) ، ولكي يسهل على المسلمين حفظه ولكي يتابع القرآن الكريم بأحكامه وتشريعاته وتوجيهاته مسار الدعوة ومـا تتعرّض له من تحديات ، كان طبيعياً أن ينزل القرآن ورسول الله (ص) في مكة وحيث بدأت الدعوة واستمرت بضعة عشر سنة ، ثم حين هاجر إلى المدينة حيث انتشرت وازدهرت ودخل النـاس في دين الله افواجاً .

ونبادر فنكرر باديء ذي بدء ، إلى انه ليس هناك من فرق أي فرق بين القرآن في مكة والقرآن في المدينة من حيث التنزيل ، فالقرآن جميعه نزل به الروح الأمين (جبريل) على قلب رسول الله (ص) سواء في مكة أو في المدينة ، وهذا التقييم — المكي والمدني — في اصطلاح علماء علوم القرآن هو فقط للتعرف على القرآن وأسباب النزول بالدرجة الأولى . ذلك انه من المتفق عليه — اصطلاحاً — عند علماء القرآن ان مـا نزل من القرآن بمكة قبل الهجرة فهو مكي ، وما نزل بعد الهجرة فهو مدني حتى ولو نزل بمكة، فالتقييم هنا (زماني) أي العبرة ليست بمكان النزول انما بزمانه .

وكان من المنطقي أن تتناول الآيات الكريمة التي نزلت بمكة والدعوة

الإسلامية بصدد أهم ما جاءت به وهو تقرير عقيدة (التوحيد) وتنزيهها عن النظير والشبيه وتطهير المعتقد الديني في التوحيد الخالص لله مما شابه منذ طلب النبي ابراهيم عليه السلام ان يجنبه الله وأولاده الأصنام .

ولما كانت الدعوة في مكة قائمة على مقاومة الشرك ، فإن الأحكام الاقتصادية والاجتماعية وأساليب المعاملات التي جابه بها الإسلام اوضاع مكة لم يكن يتوفر لها المناخ الذي يمكن أن يستجاب لها فيه ، لذلك لم يكن في الآيات المكية أحكام معاملات وان كان فيها مثلاً اشارات إلى المحرّمات .

هذا .. ونرى القرآن الكريم في فترة مكة يعالج موضوع بناء العقيدة الدينية والدعوة إلى التوحيد ونفي الشرك ، ووضع الاسس العامة التي يقوم عليها المجتمع ، وفضح جرائم المشركين في سفك الدماء ، وذكر قصص الأنبياء والأمم السابقة ليكون في هذا زجراً لهم حتى يعتبروا بمصير هؤلاء المكذبين ، والمكي يغلب عليه قصر الآيات مع قوة الألفاظ وايجاز العبارة ، وتكثر فيه كلمة (كلا) التي هي للردع والزجر ويكثر فيه افتتاح السور بالحروف من أمثال : ص — ق — حم — طس .

ونرى الدين غالباً يعالج بناء المجتمع المسلم والاسرة المسلمة بتفصيل الاحكام الشرعية في نواحي الحياة المختلفة من معاملات وزواج وطلاق وغير ذلك من الاحكام المعتمدة على العقيدة الراسخة والأحكام الواضحة والحكم الهادفة كالمعاملات والحدود وتوضيح الحلال والحرام (١) .

هذا .. ويكشف القرآن في المدينة عن سلوك المنافقين ويفضح نواياهم ومؤامراتهم ويحلل نفسيتهم الخبيثة ويبين خطرهم على الدين والمجتمع ، ونرى فيه كذلك مجادلة أهل الكتاب ومناقشة آرائهم التي تتعارض احيانا كثيرة

---

(١) (الشيخ كامل عبد المجيد خطاب) في كتابه (دراسات في علوم القرآن) مطبوعات كلية الدراسات الاجتماعية — جامعة الإمام محمد بن سعود الاسلامية بالرياض .

مع حقائق التاريخ والايمان كموقف اليهود من ابراهيم عليه السلام وادعائهم بأنه منهم ، وكانت النصارى تدعى انه نصراني قد حض القرآن في المدينة حيث توجد هذه الدعوى حججهم وفنّدها قال تعالى : [**يا اهل الكتاب لم تحاجون في ابراهيم وما انزلت التوراة والانجيل إلا من بعده أفلا تعقلون**] (١) .

هذا.. ونرى القرآن في المدينة يذكر أحكام الجهاد والحرب والسلم والهدنة وكل ما يتصل بشؤون الدولة المسلمة وعلاقاتها مع غيرها من الدول بعقد المعاهدات والوفاء بالعقود ما دامت تحقق هدف الاسلام .

وفي المدينة ايضاً رأينا القرآن الكريم الذي ينزل في هذه الفترة المحددة فيما بعد الهجرة يحدد حركة المجتمع العامة من حيث الآداب والأخلاق والحدود والقصاص ويفتح باب الجهاد الحق للحياة المسلمة ، ويسمح ثم يأمر بقتال الاعداء والاستعداد لهم ، وهو في كل ذلك يضع قواعد الحرب والسلم ونظمها في العلاقات الدولية بين الامم والشعوب .

يقول الامام القرطبي في تفسيره : (الجامع لاحكام القرآن : عن قتاده نزل بالمدينة من القرآن : البقرة – آل عمران – النساء – المائدة – الانفال – براءة الرعد – النحل – الحج – النور – الاحزاب – محمد – الفتح – الحجرات – الرحمن الحديد – المجادلة – الحشر – الممتحنة – الصف – الجمعة – المنافقون – التغابن – الطلاق – ويا ايها النبي لم تحرم إلى رأس العشر – واذا زلزلت – إذا جاء نصرالله وهذه السور نزلت بالمدينة وسائر القرآن الكريم قد نزل بمكة ، وقد لاحظ الاستاذ الشيخ (محمد ابو زهره – رحمه الله في كتابه (القرآن) ان الإمام القرطبي فيما رواه عن قتاده قد جعل سورة النحل من السور المدنية بينما هي في المصاحف على انها مكية فقال رحمه الله لعل فيها روايتين ، والارجح ما في المصاحف على أنها مكية .

---

(١) سورة آل عمران – الآية ٦٥ .

الفصل الخامس

معنى جمع القرآن

في لغة العرب تطلق لفظة (الجمع) ويراد من بين دلالتها الحفظ والاستظهار في الصدور . وقد تطلق ويراد منها الكتابة والتسجيل في الكتب ، والمعنيان معاً قـد تحققا لنا فيما نحن بصدده من معنى جمع القرآن ، فمن حقائق العلم في الاسلام والذي هو في رتبـة اليقين أن رسول الله ﷺ كان رجلاً (أميا) لا يقرأ ولا يكتب ، وليس عدم الالمام بالكتابة هو الجهل الذي هو نقيض العلم ذلك انـه من المعروف ومن حقائق الايمان كذلك ، ان رسول الله (ص) كان حريصاً على حفظ ما ينزل عليه من القرآن ، إلى درجة كان فيها (ص) يسابق ملك الوحي ويتعجل ما انزل عليه قبل أن يفرغ منه الملك ، ويحرك لسانه بالحفظ شوقاً ولهفاً لنعمـة الله عليه بالوحي ، ويسجل ربنا سبحانه في سورة القيامة هذه الحقيقة فيقول تعالى لنبيه : [**لا تحرك به لسانك لتعجل به انا علينا جمعه وقرآنه فاذا قرأناه فاتبع قرآنه**] .

ولقد بلغ من حرص الرسول (ص) على حفظ واستظهار ما ينزل عليه من ربه درجة كان فيها يكاد لا ينقطع عن ترديد وتلاوة ما ينزل عليه حتى

تعهد له الله سبحانه بعدم نسيان شيء من القرآن وذلك في قوله تعالى : (سنقرئك فلا تنسى) .

وكان المتبع في أمر القرآن الكريم منذ نزل على قلب نبينا محمد (ص)، أن يتلو الايات التي نزلت عليه على ملأ من اصحابه وأن يأمر كتبة الوحي بكتابتها بين يديه فيكتبونها وفي وسط الحضور من اصحابه ، وعلى الرقاع والعسب واللخاف والعظام كانوا يكتبون ما ينزل من الذكر الحكيم ويمليه الرسول (ص) عليهم بنفسه ويحتفظ بما كتب في بيت رسول الله (ص) شخصياً.

هذا .. وكتاب الوحي عديدون ، أحصاهم الحافظ العراقي ، فذكر اثنين وأربعين كاتباً لرسول (ص) ، ومن المقطوع به أن الخلفاء الاربعة رضي الله تعالى عنهم من أشهرهم ، وزيد بن ثابت الذي طال عمره حتى شهد كتابة المصحف في عهد عثمان بن عفان بل تم النسخ تحت اشرافه شخصياً ومعاوية بن ابي سفيان وأبي بن كعب كان هؤلاء ايضاً من كتاب الوحي .

ومن البداهة أن كتاب الوحي في فترة مكة لم يكونوا بالعدد الذي ذهب اليه الحافظ العراقي ، فلم تكن الدواعي إلى الكتابة تلح على المسلمين بالشكل الذي كانت عليه في المدينة ، فخشية أن يتخذ أهل الكتاب من بعض آيات الذكر الحكيم على لسان من قد ينسى من أصحاب رسول الله (ص) مدخلاً لتحريف او تزييف ، كان الرسول (ص) يكتب الوحي منذ نزل المدينة ، فضلاً عن أن المسلمين في مكة لم يكن لهم من شاغل سوى حفظ ما ينزل من كتاب ربهم ، وفي المدينة اتسعت حركة الجماعة وانشغل بعضهم في بناء الدولة الجديدة ومشاكلها ، فكانت الدواعي للكتابة في المدينة أكثر منها في مكة ، هذا مع يقين وصحة وسلامة الذين حفظوا القرآن الذي نزل في مكة ، وصحة التواتر لما حفظوه ووقوع التسجيل والكتابة والتدوين لما حفظ ورسول الله يراجع عليهم مما دونوه .

هذا .. ونحب أن نقرر حقيقة يعرفها المشتغلون بعلوم القرآن دون غيرهم

وهي أن الذين كانوا يحفظون القرآن عن ظهر قلب ، او الذين كانوا يتابعون الوحي الإلهي الذي ينزل على رسول الله ، ويتلقونه منـــه بالتبليغ حفظاً واستظهاراً كانوا كثرة كثيرة تتجاوز المئات بل الالوف، كل ما يشغلهم أنهم يرددون آيات ربهم آناء الليل واطراف النهار في المسجد، اذا ذهبوا إلى الصلاة بوقت كبير يقرأون القرآن وبصوت مسموع ، وفي الليل يتهجدون بـه في صلواتهم ، ويقومون بتعليم اولادهم وأزواجهم لما يحفظونه من كتاب الله ، اي أن آيات الذكر الحكيم لم تكن بين جماعة محدودة او فئة بعينها تستطيع أن تفعل في النص الذي بين ايديها مـا تشاء ، وفي الحديث الذي يرويه البخاري عن الصحابي الجليل ابي موسى الاشعري من ان الرسول (ص) كان يمر بالليل بنفسه على دور اصحابه في الاوقات التي كانوا يقرأون فيها القرآن الكريم ويتسمـع لاسلوبهم في قراءة النـص الحكيم ، وللوقوف على مستوى حفظهم واستظهارهم لكتاب ربهم ما يكشف لنا عن مدى الدقـة التي كان عليها المسلمون في حفظ واستظهار كتاب ربهم في صدورهم ، ومتابعة الرسول (ص) بنفسه لهم ليقف على مستوى حفظهم لآيات الله تعالى .

فلقد اخرج البخاري عن ابي موسى الاشعري ان رسول الله (ص) قال لهـم لو رأيتني البارحة ، وانا استمع لقراءتك ؟ لقـد اعطيت مزمـاراً من مزامير داود .

والامام مسلم في صحيحه يؤكد هذه الرواية بالاضافة المنسوبة إلى ابي موسى في رده على رسول الله (ص) بقوله : لو علمت والله يا رسول الله انك تستمع لقراءتي لحبّرته تحبيراً .

ومـــع كل خصائص ومقومات المجتمع المسلم في عهـد النبوة وخصائصه المتفوقـة في الحفظ والاستظهار ، حتى ان سبعين حافظاً للقرآن كله قـــد استشهد في معركة (اليمامة) وحدها وهـذا يبين بحجم الكثرة الكثيرة التي تحفظ كتاب الله فانا نحب ان نؤكد انه من اليقين علمياً بكل معايير الضبط

العلمي أن القرآن الكريم كله قد كتب ودوّن في عهد الرسول (ص) في حياته وتحت اشرافه ، وكل ما في الامر أنه لم يكن جميع القرآن المكتوب مجموعاً في مكان واحد من أدوات الكتابة التي كانت يومها ، فان الصحابي الجليل زيد بن ثابت يحدث في هذا ويقول عن القرآن : (وقبض رسول الله (ص) ولم يكن جمع في شيء .

هذا ونحب ان نقرر في غير تعصب،أنه لا يوجد كتاب على ظهر الارض حتى الكتب التي بين ايدينا والمنسوبة عند اصحابها على أنها من الكتب السماوية لقي من العناية والرعاية والحفظ والاهتمام من أتباعه مثل ما لقيه (القرآن الكريم) .

لقد توفى رسول الله ﷺ والقرآن محفوظ في صدور مئات الرجال وكل منهم يعرف ما يحفظه الآخر ، ومسجل في بطون الوثائق الحافظة ، وحين انقطع الوحي بموت رسول الله ﷺ ، كان في عنف هذا الحدث الضخم الذي تعرض له المسلمون بموت النبي (ص) دافعاً قوياً لأن يقبلوا على ما في أيديهم ، وهو كتاب ربهم ليجدوا فيه كل ما يحتاجون اليه وما قد يستعيضون به عن موت نبيهم ، ولم يمض وقت طويل او قصير على موت الرسول (ص) وإذا بالخليفة الصديق رضي الله تعالى عنه يقوم على أمر جمع جميع الوثائق التي دوّن فيها الذكر الحكيم لتحديدها في يد (السلطة الجديدة) المسؤولة عن الإسلام والمسلمين بعد رسول الله (ص) ، أي ان الرجال الذين كانوا يحفظون كتاب ربهم والادوات التي كان قد دوّن فيها الذكر الحكيم لم يتعرض أي منها لموقف مناهض او لسلطة اجنبية او لحاكم يقاوم الفكرة التي عندهم والنص الذي بين أيديهم مثلما حدث للكتاب المقدس بعهديه القديم والجديد – كما أثبتنا ذلك في حينه – من القسم الأول من الرسالة ، ولم يكن أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه منفرداً بهذا العمل ، بل اندفع اليه يعاونه فيه الخليفة العادل عمر بن الخطاب وعلى مسمع ومشهد من قيادات المجتمع الإسلامي المستنير أصحاب رسول الله (ص) رضي الله عنهم .

والإمام البخاري يحدثنا في هذا الأمر بالعدل فيقول :(عن زيد بن ثابت قال بعث إليّ ابو بكر – لمقتل أهل اليمامة وعنده عمر – فقال ابو بكر ان عمر جاءني فقال : انه استحر يوم اليمامة لقراء القرآن واني أخشى ان يستحر القتل بالقراء في كل المواطن ، فيذهب من القرآن كثير ، واني أرى ان تأمر بجمع القرآن، قال قلت لعمر كيف أفعل شيئاً لم يفعله رسول الله؟ فقال عمر: هو والله خير ، فلم يزل يراجعني في ذلك حتى شرح الله صدري للذي شرح الله صدر عمر ، ورأيت في ذلك الذي رأى عمر قال زيد ، فقال لي ابو بكر انك رجل عاقل لأتهمك ، قد كنت تكتب الوحي لرسول الله (ص) ، فتتبع القرآن فاجمعه قال زيد : فوالله لو كلفني نقل جبل من الجبال ما كان أثقل عليّ ما أمرني به جمع القرآن، فقلت كيف تفعلان شيئاً لم يفعله رسول الله (ص) ،فقال ابو بكر هو والله خير فلم يزل ابو بكر يراجعني حتى شرح الله صدري للذي شرح له صدر ابي بكر ، قال فتتبعت القرآن أجمعه من الرقاع والعسق والخاف وصدور الرجال ، حتى وجدت آخر سورة (التوبة) مع (ابي خزيمة الانصاري) فلم اجدها مع أحد غيره : [**لقد جاءكم رسول من انفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم ، فان تولوا فقل حسبي الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم**] . فألحقتها في سورتها .

وهنا قد يبرز سؤال او يثيره الحاقدون على كتاب ربنـا وصحة وسلامة تاريخه منـذ نزل على قلب نبينا محمد (ص) الى يوم يقوم الناس لرب العالمين وهو : لماذا لم يجمعه الرسول بنفسه في مصحف واحد، إن كان قد تم كتابته في حيـاته (ص) ؟ والجواب عليه بسيط ويسير وهو ان القرآن الكريم نزل مفرّقاً كما هو معروف ولا يمكن جمعه قبل ان يتكامل ، وبعض الآيات قـد يطرأ عليها أثناء فترة الوحي النسخ كما حدث فعلاً، فكيف يجمع في مصحف واحد قبل ان يتكامل النزول ويعرف المنسوخ ، ثم ان ترتيب الآيات والسور لم يكن حسب النزول بل ان كثيراً من الآيات التي نزلت في أواخر الوحي

كان ترتيبها في أوائل السور ، وهـذا يقتضي التبديل والتغيير ، فكان لا بد من الانتظار حتى يتكامل نزول القرآن كله، وبعد ذلك فان الفترة التي كانت بين آخر آية وبين وفاته (ص) كانت قصيرة جداً ، فلم يكن هناك من الوقت ما يسمح ليجمعه (ص) في مصحف واحد .

هذا .. ولقد استغرق نزول القرآن الكريم معظم فترة الدعوة الإسلامية كلها خلال حيـــاة الرسول (ص) سواء في مكة او المدينة وهي مسافة في حساب الزمن ليست يسيرة تقترب من ثلاثة وعشرين عاماً .

وفي محاولة لتأكيد هذه الفترة نرى الإمام البخاري وهو يحدثنا فيما روى عن عائشة وابن عباس رضي الله عنهما انهما قالا : لبث النبي (ص) بمكة عشر سنين ينزل عليه القرآن وبالمدينة عشراً .

وفي خلال الفترة كلها منذ القرآن الكريم كان يتم ترتيب التنسيق للآيات القرآنية في مواضعها التي هي عليها الآن دون تدخل من احد من المسلمين اصحاب رسول الله بل ولا من الرسول نفسه (ص) ، اقول لم يجتهد الرسول في هذا الترتيب ولم يعمل عقله او فكره ، وإنمـا هذا الترتيب الذي بـين أيدينا في كتاب الله تعالى والذي تركه الرسول (ص) بالهيئة التي انتهت الينا على هذا الشكل الذي بين أيدينا توقيفي ، أي هو هكذا من الله سبحانه وتعالى إلى نبيه محمد (ص) بواسطة جبريل الامين .

وعندنا نحن المسلمين من الدلائل والقرائن والمستندات الدينية والتاريخية ما يؤكد هذا المعنى وما يقرره ، وهذا هو ما عليه المسلمون وإلى يوم يقوم الناس لرب العالمين .

روى احمد بإسناد عن عثمان بن ابي العاص قال : كنت جالساً عند رسول الله (ص) إذ بشخص ببصره أتى صوبه ثم قال: أتاني جبريل فأمرني ان هذه الآية في هذا الموضع من هذه السورة :[**ان الله يأمر بالعدل والاحسان وايتاء ذي القربى**] الآية . ويروي القرطبي بسنده عن ابن عباس قال : آخر مـا

نزل من القرآن [**واتقوا يوماً ترجعون فيه الى الله ثم توفى كل نفس اكسبت وهم لا يظلمون**] . فقـال جبريل : يا محمد ضعها في ثمانين ومائتين من البقرة .

وبنـاء على هذه القرائن وأمثالها كثير جـداً في التدليل على ان ترتيب القرآن إنما هو توقيف يتأكد لنا ان ترتيب آيات القرآن الكريم إنما هو عمل من الله عز وجل ولا دخل لأحد من البشر فيه .

هذا..ولقد أثير سؤال قديم حول الكيفية التي رتبت بها الآيات ومراحل نزولها مختلفة ومتعددة ، وهناك في الترتيب تقديم وتأخير لبعض الآيات لم تكن حسب مراحل نزولها وحتى مثل هذا السؤال غير ذي موضوع ولا قيمة له في قدسية وطهارة التدوين القرآني لأن الذي يؤمن بأن القرآن الكريم قرآن من عند الله ، يؤمن بأن هـذا الترتيب بهذا الشكل الذي انتهى الينا قـد تم من قبل من لا يستطيـع بشر مخلوق مؤمن ان يسأله لمـا كان هكذا وهو الله سبحانه منزل القرآن وواضعه بهذا الترتيب ، وفي هذا يروي الإمام القرطبي عن ابن وهب فيقول : (سمعت سليمان بن بلال يقول : سمعت ربيعه يسأل ، لِمَ قدمت البقرة وآل عمران ، وقد نزل قبلهما بضع وثمانون سورة ، وإنما نزلتا بالمدينة ، فقال ربيعة : قدّمتا وألّف على علم ممن ألف .

ومن هنا لا بد من الإيمان بأن ترتيب الآيات والسور في المصحف الذي بين أيدينا كما سبق القول عمل توقيفي من الله عز وجل ولا دخل لبشر فيه ، ذلك لأن علم محمد (ص) لم يكن يتجاوز غير ما يمليه عليه الوحي وما يبلغه به رب العالمين .

هذا .. وقد جمع القرآن للتدوين بهذا الشكل الذي بين أيدينا في عهدين متقاربين : العهد الأول (عهد النبوة) أي رسول الله (ص) يشرف عليه في حياته والوحي الإلهي يتابعه ، وتم جمع القرآن بالاسلوبين اللذين أشرنا اليهما: الاسلوب الأول بالحفظ والاستظهار في قلوب الرجال وكانت ملكات الحفظ

عندهم فريدة يتميزون بها عن غيرهم من الأمم والشعوب وتم التواتر والمقابلة فيما بينهم لابراز ما يحفظونه ورسول الله بين ظهرانيهم .

والاسلوب الثاني الذي تم به جمع القرآن هو كتابته في الاوراق والصحائف وإيداعها في مكان أمين جداً ولم يكن غير بيته عليه السلام فقد كان لرسول الله (ص) متخصصين في كتابة الوحي كلما نزل عليه شيء من القرآن أمرهم بكتابته زيادة في التوثق والضبط والاحتياط في حفظ كتاب الله .

وطريقة الكتابة التي كانوا يكتبون بها هي انهم كانوا يحضرون جريد النخل المسمى (العسق) ويكشطون الخوص ويكتبون في الطرف العريض ، او يكتبون على صفائح الحجارة وهي المسماة (باللخاف) او يكتبون على الرقاع وتكون من جلد او ورق ، او يكتبون على قطع الأديم وعظام الأكتاف وغيرها لأن صناعة الورق لم تكن كما هو معروف من الزيوع بحيث تكون قد وصلت أرض العرب ، فضلاً عن أنهم لم يكونوا قبل الإسلام في حاجة جوهرية اليه .

هذا..وقد روي عن زيد بن ثابت انه قال :(كنا عند رسول الله عليه السلام نؤلف القرآن من الرقاع أي نجمعه من الرقاع) .

والزرقاني في (مناهل العرفان في علوم القرآن) يقول : (وكان هذا التأليف عبارة عن تركيب الآيات حسب ارشاد النبي (ص) ، وكان هذا الترتيب بتوقيف من جبريل عليه السلام ، فقد ورد ان جبريل كان يقول: ضعوا كذا في موضع كذا .

وفي تقديرنا ان أهم عمليات جمع القرآن في العهد النبوي كان ذلك الاسلوب العظيم الذي كان النبي (ص) يشرف عليه بنفسه، وهو حفظ القرآن وجمعه في الصدور ، فقد كانت همة النبي منصرفة إلى حفظه واستظهاره ليحفظه كما نزل عليه وليقوم بالاشراف على تحفيظ المسلمين له ، وكان (ص) بناء على توجيهات ربه يحيي الليل بتلاوة القرآن تدبراً وعبادة واستذكاراً عملاً

بقوله تعالى له (ص) : [**يا ايها المزمل قم الليـل إلا قليلا نصفه او انقص منه قليلا او زد عليه ورتل القرآن ترتيلا**] ولا عجب إذن ان يكون (ص) سيد الحفّاظ ، وحتى تطمئن الإنسانية كلها – علمياً – الى سلامة وتمام وكمال رب العالمين وصحة سلامة تدوينه في القرآن الكريم ، كان الوحي الإلهي من خلال جبريل الأمين يراجع رسول الله (ص) جميع ما نزل عليه من القرآن كل عام مرة ، وهكذا كل سنة ، وفي السنة التي توفى فيها رسول الله (ص) وبعد ان أتم القرآن كله حفظاً وكتابة ثم بعد ان شاع حفظه في صدور مئات من الرجال على غرار ما يحفظ رسول الله (ص) ، راجع الوحي (جبريل) رسول الله (ص) في جملة القرآن الكريم كله حفظاً واستظهاراً مرتين ، ولقد توفى رسول الله (ص) وهو مطمئن تمامـاً الى صحة وسلامة المقـابلة في الحفظ والاستظهار التي كانت بينه وبين اصحابه ممن يحفظون كتاب ربهم .

يقول عبادة بن الصامت الصحابي الجليل الذي كان بين القيادات الإسلامية التي فتحت مع عمرو بن العاص مصر : كان الرجل إذا هاجر دفعه النبي الى رجل منا يعلمه القرآن ، وكان يسمع لمسجد رسول الله (ص) ضجة عالية من كثرة الذين يتلون القرآن حتى أمرهم رسول الله (ص) أن يخفظوا أصواتهم لئلا يتغالطوا . ولم نذهب بعيداً ونستدل برواية واحـدة ؟ ألم يكن في جيش المسلمين في معركة اليمامة كما قلنا عدد من (القرّاء) الحفظة الذين استشهد منهم وحدهم حوالي سبعين شهيداً ، ومن قبل اليمامة ألم يستشهد عدد كبير من جمهور الحفظة في حادث (بئر معونة) في أرض بني سليم وأرض بني كلاب[1] ، ويتضح لنا الآن من كل هذا وأمثاله أنه لم تكن هناك من الدواعي في عهد الرسول (ص) ما يقتضي كتابة القرآن الكريم في (مصحف واحد) فالمسلمون كان بينهم الحفظة وهم كثرة وبخير والقرّاء كثيرون ، ولا توجد فتن ، وليس هناك لبس او غموض بين حافظ وآخر وكان الاهتمام الإسلامي بتداول القرآن

(١) (سيرة ابن هشام) القسم الثاني من الطبعة المشار اليها ص ١٨٥ .

والتعرف عليه يعتمد على الحفظ خاصة وان العناصر التي تحفظ كتاب ربها ، كان بينهم كثرة كثيرة لا تعرف القراءة والكتابة ، والقرآن بعد ان ملك قلوبهم وسيطر على عواطفهم كانوا يتسابقون إلى حفظه ، فلم يكن هناك من داع لجمعه في مصحف واحد وعرضه على المسلمين وحصر تداوله ، ومع ذلك فان الرسول (ص) توثقاً واحتياطاً وضبطاً ، أمر بكتابة القرآن بالاسلوب الذي أشرنا اليه ، ومنذ العهد النبوي ، والقرآن الكريم ينسخ في صحائف بشكل علمي وديني في منتهى الدقة والكمال ، وما علينا إلا ان ننظر المرحلة الثانية من جمع الذكر الحكيم وكيفية كتابته وهي مرحلة الجمع والنسخ في عهد الراشدين رضي الله عنهم .

ما الذي حدث بالقران في عهد الراشدين ؟

بعد وفاة الرسول (ص) وتولية ابي بكر رضي الله عنه أمور المسلمين ، تعرضت الدولة المسلمة لزلزال سياسي ، ولعمليات انقضاض من اعدائها وعمليات ردّة عن الإسلام من بعض أتباعها ، وكان أخطر تلك الشدائد والمصائب الحروب التي خاضها المسلمون ضد اتباع مسيلمة الكذاب ، ولقد استبسل المسلمون في هذه المعارك ضد المرتدين ، حتى كان بين الجيوش الإسلامية التي تقاتل مئات من حفّاظ كتاب الله تعالى ، وأمام ضراوة المعارك التي تعرض لها المسلمون خاض الحفّاظ بدافع من ايمانهم كل المعارك وتقدموا الصفوف حتى سقط منهم الكثيرون ، وقد أدرك الخليفة الجليل أبي بكر خطورة استشهاد عدد كبير من الحفّاظ ، وخاصة من اولئك الذين حفظوا كتاب الله عن الرسول (ص) فأرسل الى زيد بن ثابت كما أشرنا وهو احد كبار كتّاب الوحي الذين رضيهم رسول الله (ص) للكتابة والتسجيل ما كان ينزل عليه به جبريل عليه السلام من القرآن .

ولقد كان لزيد بن ثابت – رضي الله عنه – مؤهلات ومواصفات – لا تتوفر إلا فيمن أعدّه الله سبحانه لمثل هذا العمل الجليل فقد كان مشهوراً

بين اصحاب رسول الله (ص) بالتقوى والورع فضلاً عن العلم والفقه وكان من كتبة الوحي الملازمين لرسول الله ، فلم يكتب الوحي مرة او مرتين وإنما كان ملازماً لرسول الله (ص) ومن هنا أتيح له ان يحفظ في صدره من رسول الله مباشرة حتى انـه استطاع في ضبط تام ومقابلة كاملة ان يعرض القرآن كله محفوظاً في صدره على النبي (ص) في السنة التي انتقل فيها النبي إلى ربه، ولقد مات رسول الله (ص) وزيد بن ثابت في ريعـان شبابه وقوته ، ومن هنا كان عنده الجلد والقوة والصبر الذي تمكن به من تحمل هذا العمل العظيم.

ومـع ان زيد بن ثابت رضي الله عنـه قد استعان بمجموعة طاهرة من اصحاب رسول الله عليه السلام وممن اشتهروا بحفظ القرآن عن رسول الله ولم يؤخذ على واحـد منهم ، انـه كان ينسى شيئاً من كتاب الله او يلتبس عليه نص بنص ، إلا ان زيداً من شدة حرصه على كتاب ربه ، وبنـاء على توجيهات ابي بكر رضي الله عنه كان لا يدوّن ما يحفظه وما يحفظه معه اصحابه إلا إذا رأوه مكتوباً في عصر النبي (ص) ، وبشرط ان يشهد شاهدان بأنهما رأيا ذلك المكتوب الذي أملاه رسول الله بنفسه، وبأنهما شاهداه بأنفسهما في حياة النبي (ص) ، وهنا يجب ان نلحظ شيئاً مهماً جداً يهتم به علماء التاريخ وهو ما تميّز به تاريخ تدوين نسخ من كتاب الله وجمعها في مصحف وهو ان دولة الدعـوة هي التي تشرف وعلى مرأى من الرأي العـام وتحت اشراف ذوي الاختصاص على تسجيل كتاب الدعوة والدولة ، أي انه بالمعيار التاريخي فان كتاب الله تعالى يتميز بخاصية لم تتح لكتاب مثـله على الأرض حين دوّن ، وخاصة إذا قورن بما سبقه من كتب تعرضت للحذف والتحريف والاضافة في ظل تدوين اعدائها لها وفي غيبة المؤمنين بها او وقوعهم تحت قهر اعدائهم.

ولقد انتهى زيد في عصر ابي بكر رضي الله عنهما وهو عصر قريب جداً من عهد رسول الله (ص) من تجميع آيات القرآن كلها ، بهذا الاسلوب الذي لا يوجد له نظير في العالم حتى اليوم، ولقد كان منهجاً فريداً حقاً ان يكون زيد نفسه حافظاً لما يكتبه ، ثم ان يكون غيره يحفظ ما يحفظه زيد ثم

ان يكون مـا يحفظه هو وغيره مكتوباً أصلاً في عصر النبي وفي حيـاته وباملائه (ص) ، ثم يشهد شاهدان على انهما رأيا النبي (ص) وهو يملي هـذا النص الذي يحفظه هذا الجمع المحتشد والمشرف على صحة وسلامة تدوين كتاب الله . ومن هنا يبدو واضحاً تمامـاً فضل الله على خلقه حين هيأ لهم كل هذه الإمكانات في حفظ كتابه الخاتم .

وقبل أن ندع هذه النقطة بالذات نحب ان نقرر ان زيداً رضي الله عنه لم يكن عمله في كتابة (القرآن الكريم) يتعدى البحث والتحري عن العظام والرقاع التي كان قد كتبت عليها الآيات القرآنية باملاء النبي (ص) وان الدقة التي شاعت في الجو الإسلامي حول مهمة زيد بن ثابت واصحابه جعلت الرأي العام المسلم حولهم من اصحاب رسول الله (ص) يكاد يشترك معهم في الدقـة والضبط والتحري وتقديم المزيد من الدلائل التي بين أيديهم ، خاصة وان المجتمع الاسلامي في حياة رسول الله (ص) قد عاش افراده حوالي ربع قرن من الزمان وآيات الذكر الحكيم تتلى في صلواتهم وفي عباداتهم ، وكانت قيمة الرجل في مجتمعه تقوم على مقدار ما يحفظه من كتاب الله ، نستطيع ان نقول حتى ضوء مـا يذهب اليه الذين يهتمون بقواعد البحث التاريخي ، ان القرآن الكريم في مرحلة تدوينه وتجميعه في عهـــد ابي بكر لم تكن آياته الكريمة حكراً على مجموعة من الناس او ان أمره كان في طي الكتمان ، او ان بعضه كان لدى البعض والبعض الآخر في خفـاء الكهانة ووراء المحاريب وفي غيبة السنين بحيث يمكن تصور الزيادة والنقص في مادة الكتاب الكريم ، بل لقد كان اعداء المسلمين ممن سرت اليهم أخبار الذكر الحكيم يودون ان يقع المسلمون في خطـــأ او يفوت عليهم شيء من كتاب ربهم ليوجهوا كل حقدهم نحو الكتاب الحكيم ، ولم يحدث أبداً في عصر تدوين القرآن الكريم ان وجد في المجتمع من يطرأ على تفكيره احتمال ان يقصر القائمون على أمر كتاب ربهم تدويناً وتسجيلاً ونسخاً في أمر من الأمور .

هذا.. ونحب ان نضيف هنا ان الرسم والشكل الذي كانت عليه اللفظة

العربية في عهد الرسول (ص) في مرحلة تدوين القرآن هو الذي كان يحرص عليه زيد بن ثابت تماماً، ذلك انه كانت عناية زيد بن ثابت تتجه في حرص شديد على ان تكون كتابته للفظ على ضوء الرسم والشكل الذي يكتب به النص القرآني باملاء الرسول ﷺ في عصره ، وهو الأمر الذي كان يدفع زيداً على ان يطلب شاهدان يشهدان انهما رأيا النبي (ص) وهو يمليه .

هذا .. وقد كان إيمان المؤمنين الذين يحفظون شيئاً من كتاب الله يدفعهم إلى اصحاب رسول الله الذين يعاونون زيداً في مهمته العظيمة ، ويطلعون على ما انتهوا اليه أولاً بأول ، ولو كان ما انتهى اليه زيد بن ثابت واصحابه قد أضيفت اليه زيادات او تعرض لنقض - لنقل الينا - ولتداولته الأجيال لأن العملية كانت تتم في جو عام فضلاً عن ان اصحاب رسول الله رضي الله عنهم لم يكونوا ليقروا زيداً وأصحابه لو كان في الأمر ما يريب او وقع منهم تقصير .

هذا .. ولا بد ان نقرر هنا ان عناصر من غير المؤمنين كان من الممكن ان تكون قد حفظت شيئاً مما انتهى اليهم من هذا القرآن ، وكانت تتمنى ان يقع اصحاب رسول الله من الذين يعاونون زيداً في خطأ عدم التثبت او عـدم سلامة وصحة التواتر الذي تتميز بـه عملية تدوين الذكر الحكيم ، ولم يحدثنا التاريخ فضلاً عن رواة علوم القرآن ، ولا علماء سيرة اصحاب رسول الله ان شيئاً من هذا قد وقع ، ولم يحدثنا التاريخ ايضاً ، على كثرة من فيه من أعداء كتاب الله ، ان احداً من اصحاب رسول الله (ص) أو ممن انتهى اليهم شيء من كتاب الله لم يجدوه فيما سجله ودوّنه زيد بن ثابت ومن معه، ولم يحدث في تاريخ العالم على ضوء ما رأينا في عملية التجهيز لبدء تجميع القرآن الكريم ان لقي كتاب من العناية والاهتمام والقداسة عند المؤمنين به ما لقيه القرآن الكريم باعتبار أنه كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد وصدق الله العظيم إذ يقول : [**إنا نحن نزّلنا الذكر وإنا له لحافظون**] .

الفصل السادس

قصة المصاحف والقراءات السبع

قلنا ان الخليفة الجليل ابي بكر رضي الله عنه قام بعد الاتفاق الحاظر بينه وبين الفاروق عمر بتكليف زيد بن ثابت بالقيام بمهمته العظيمة ، حتى انتهى من جمع آيات الله من صدور المؤمنين مطابقة مع ما دوّن في عهد الرسول وباملائه وأصبحت كلمات الله بين الجمع فيه (مصحف) يمكن الرجوع اليه دفعة واحدة .

ومع ان الفترة الزمنية التي عاشها الخليفة الصديق بعد وفاة رسول الله قليلة لا يمكن أن تتعرّض النسخ التي جمعت آيات الذكر الحكيم في مصحف واحد للتلف او التمزق إلا ان الخليفة العادل امر هو الآخر في فترة خلافته النظيفة والنزيهة ان تنسخ المصاحف مرة اخرى وبمنهج أضاف به الفاروق إلى مآثر ودقة اصحاب رسول الله ممن عاونوا زيد بن ثابت مأثرة اخرى ، وهو انه كان يراجع ما في صدور الرجال — الحفظة — على ما في السعف واللخف والعظم من آيات الله التي كان الرسول (ص) قد املاها بنفسه على النسخ التي كتبت في عهد ابي بكر الصديق حتى تمّ جمع القرآن وتدوينه مرة أخرى ثم كلف الفاروق عمر ام المؤمنين (حفصه) رضي الله تعالى عنها

أن تحفظ في بيتها مصحفاً كامل التدوين والجمع مدوّن بالشكل والرسم الذي انتهت اليه النسخ التي جمعها زيد في عهد ابي بكر وتأكدت سلامتها وصحتها وجمعها لآيات الذكر الحكيم في عهد الفاروق وكانت هذة النسخة او هذا المصحف المحفوظ عند ام المؤمنين (حفصه) هو المرجع الأهم بل المصدر الامام الذي رجع اليه الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه بعد ذلك حين كان يدوّن نسخه الشهير الذي تداولته الأمصار وبعث به إلى كل الديار .

وقد يمتلىء المرء بالدهشة لحكمة الحكيم العليم الذي تعهد بحفظ كتابه الكريم وصيانته بقوله تعالى : [**إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون**] اذا علم ان الرسول (ص) قبل وفاته قد أمر امرأة اسمها (الشفاء) بنت عبدالله العدوية ان تعلم زوجته حفصه ام المؤمنين الكتابة والقراءة ، وبالفعل كانت حفصة رضي الله عنها تكتب وتقرأ ، وكأن الله سبحانه بما فعل نبيه المصطفى (ص) من تعليم حفصة القراءة والكتابة كان يعدها ويدربها لتكون حارساً وحافظاً اميناً لما اودعه الله عندها بفعل امير المؤمنين عمر بن الخطاب، حتى لا يجيء مأفون او عدو مختل او صاحب حسّ متبلد وقلب ميّت ويطعن في امكان حفصة الحفاظ على كتاب الله من عدو حاقد او محرّف لئيم ، وفوق هذا ، فان بيت ام المؤمنين ، لم يكن يدخله إلا كل برّ وتقي مؤمن ، فضلاً عن أصحاب رسول الله ، ومن هنا فان الخليفة الورع (عثمان بن عفان) رضي الله عنه كان محقاً وكان بصيراً يوم وفقه الله تعالى، ان يجعل من تدوينه الشهير نسخاً مثبتة بالجمع والنشر معتمدة بالصدق والاقرار من اصحاب رسول الله مرجع هذه النسخ واملاؤها يراجع نهائياً على (المصحف الامام) الذي كان في بيت ام المؤمنين حفصة رضي الله عنها ، حتى ان الخليفة الورع رضي الله عنه قد أمر بحريق هذا المصحف الإمام بعد وفاة السيدة (حفصة) ام المؤمنين رضي الله عنها وذلك بعد ان استأذنته أن يبقى هذا المصحف في بيتها حتى وفاتها ، وخشية أن تمتد يد الى هذا المصحف الذي كان في بيت

حفصة بعد وفاتهـا أمر الخليفة عثمان بن عفان أن يحرق بعد وفاتهـا وأن يرجع إلى النسخ التي تم نسخها من (المصحف الإمام) ، واعتمدهـا الخليفة عثمان رضي الله عنه بخاتم الخلافة حين أرسلها إلى الأنصار ، وقـد تم بالفعل حرق المصحف الذي كان عند حفصة رضي الله تعـالى عنها بعد ان شاعت النسخ التي نقلت عنه واعتمدها الخليفة رضي الله عنه بخاتمه [1] .

ب) لماذا كان مصحف عثمان ؟

من الحقائق اليقينية المستقرة في قلوب وعقول المشتغلين بالقرآن وعلومه ، ان التدوين الذي تم في عهد الشيخين ابي بكر وعمر رضي الله عنهما للقرآن الكريم كان الهدف منه أن تكون آيات القرآن الكريم مصانة ويمكن الرجوع للنص اذا اراده أحد من المسلمين ، لكن التـلاوة للذكر الحكيم كانت هي الشغل الشاغل لجموع المسلمين وصفوفهم وظلت التلاوة كما كانت في عهد الرسول (ص) وكانت تتلقى من افواه الرجـال مرتلة بنفس الاداء الذي سمعوه من الرسول (ص) ، وبذلك كان القرآن الكريم محفوظاً في صدور الرجـــال بطريقة ادائه التي تعلموهـا من النبي ، ولا بد فيها من المحاكاة والتدرب ، وبالتدوين الذي شاع في مرحلة الجمع في عهد أبي بكر وعمر رضي الله عنهما ، لكن الذي حدث بعد ذلك ان النص المكتوب الذي تم تداوله في عهد أبي بكر وعمر رضي الله عنهما اطلع عليه المسلمون في الأمصار البعيـدة ممن لم يسمعوه مباشرة من رسول الله (ص) أو من اصحابه ، لم يكن مشكلاً ولا منقوطاً فطرأ على ألسنة البعض لحن في نطق الذكر الحكيم وادائه ، وخاصة انه قد أجيز في أول نزول القرآن الكريم أن يقرأ على لغات سبع من لهجات العرب كلها يمنيها ونزارها فكان ذلك مدعاة لقلق وخوف الاجلاء من اصحاب

---

(١) (عبدالله خورشيد البري) القرآن وعلومه في مصر ٢٠٠ - ٣٥٨ هـ دار المعارف بمصر عام ١٩٦٩ ص ٦٣ .

رسول الله (ص) أن يكون اللحن في نطق الذكر الحكيم مدخلاً للطعن في سلامة كتاب الله تعالى ، ومن هنا رأينا الصحابي الجليل (حذيفة بن اليمان) عندما رجع من غزوة (أرمينيـا) وكان قـد وقع خلاف بين أهل العراق وأهل الشام حول ما لديهم من كتاب الله حين كانوا ينطقونه ، يدخل على الخليفة عثمان بن عفان رضي الله تعالى عنه قبل أن يدخل إلى اهـل بيته في المدينة ويقول له : يا أمير المؤمنين : ادرك هذه الأمة قبل أن تهلك ، قال عثمان فبماذا ؟ قال : في كتاب الله : اني حضرت هـذه الغزوة وجمعت ناساً من العراق والشام والحجـاز ، ثم وصف له حذيفة رضي الله عنه مخاطر الاختلاف الذي وقعوا فيه حول ما لديهم من كتاب الله ، وقال حذيفة بن اليمان لأمير المؤمنين عثمان بن عفان : اني أخشى عليهم ان يختلفوا في كتاب ربهم كما اختلف اليهود والنصارى .

لقد روّع أمير المؤمنين لهذا الخبر وحين شاع الخبر في المدينة فزع له مع أمير المؤمنين صفوة اصحاب رسول الله وعامـة المسلمين ، ولكن فزعهم دفعهم بل وعبأ مشاعرهم وشحذ هممهم للعمل : لقد أمر على الفور الخليفة عثمان رضي الله عنه باحضـار النسخة المحفوظة عند ام المؤمنين (حفصـه) لتكون كما قلنا الامام والمرجع الذي يرجعـون اليه فيما هم مقدمون عليه ، هذا إذا لم يتسع لهم أن يجمعوا كتاب الله من صدور المؤمنين ومن مصادره المدونة ، وحتى يتأكد امير المؤمنين عثمان بن عفان هو الآخر من أن كتاب الله يوجد سليماً في الصدور ، وما تركه رسول الله هو على ما هو عليه أمر بأن تحفظ نسخة (حفصة) لا يطلع عليها أحد ، ليمكن الرجوع اليها بعد انجاز العمل الذي قرر أن يقوم المسلمون بـه ويشاء الله الرحمن الرحيم أن يوصد الباب تماماً أمام مفتريات اعداء كتابه الكريم، وحتى لا يطعن طاعن، أو يتقوّل دعي في ذمة رجل غير معروف او غير ثقة لجمهور المسلمين فيكون (زيد بن ثابت) — مرة رابعة — الرجل الثقة الثبت الورع التقي صاحب

رسول الله وأمينه على تدوين الذكر الحكيم لا يزال حياً بعد مرحلة طويلة قام فيها بتدوين الوحي في عصر الرسول (ص) وباملائه ثم تدوين أبي بكر وعمر وجمعهما ثم في عصر عثمان رضي الله عنه ، ولقد كان من فضل الله على هذا الرجل ان كان في حالة صحية تمكنه من أن يساهم في العمل العظيم المقدم عليه امير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله تعالى عنه .

ج) ما الذي حدث بالقرآن الكريم ؟

حين نزل القرآن الكريم على قلب محمد (ص) أجيز للرسول ﷺ أن يقرأ الناس على لغات سبع من لهجات العرب كلها ، لان المصطفى (ص) كما هو معروف لم يكن يجهل شيئاً منها ، ويؤكد هذا القول رواية البخاري التي تقول ان القرآن نزل سبعة احرف نسخت ست وبقيت واحدة وفي تقرير هذا المعنى يروي مسلم عن أبي كعب ، ان النبي (ص) كان عند اضاءة بني غفار وهو (غدير صغير عندهم) فأتاه جبريل عليه السلام فقال : ان الله يأمرك أن تقرىء أمتك القرآن على حرف ، فقال اسأل معافاته ومغفرته ، وان امتي لا تطيق ذلك . ثم أتاه الثانية فقال ان الله يأمرك ان تقرىء امتك القرآن على حرفين ، فقال أسأل الله معافاته ومغفرته ، وان أمتي لا تطيق ذلك ، ثم جاءه الثالثة فقال : ان الله يأمرك أن تقرىء امتك على ثلاثة احرف فقال اسأل الله تعالى معافاته ومغفرته ، وان أمتي لا تطيق ذلك ، ثم جاء الرابعة فقال : [**ان الله تعالى يأمرك أن تقرىء امتك على سبعة احرف فأيما حرف قد قرأوا عليه فقد اصابوا**] .

والذي نود أن نلفت اليه : هو أن السبع لغات او السبع لهجات المشار اليها لم تكن إلا في قراءة القرآن الكريم . أما في كتابته فبالشكل والرسم الذي أملاه الرسول ودوّن به في عهده ، حتى انتهائه الينا اليوم والمشتغلون بعلوم القرآن الكريم يذكرون تماماً قصة عمر بن الخطاب رضي الله عنه من هشام بن حكيم ، حيث كان يقرأ بعض آيات الذكر الحكيم ينطق

لم يسمعه عمر ، فأخذه عمر بن الخطاب رضي الله عنـه إلى رسول الله (ص) فأقر الرسول ما قرأ هشام وأقر مـا قرأ عمر ثم قال : ان هذا القرآن نزل على سبعة أحرف .

وهذه الواقعة ذات دلالات عديدة ابسطها انها تكشف لنا مدى حرص ودقة وتثبت اصحاب رسول الله (ص) من كتاب الله حتى لا يتعرّض لطعن او تحريف وهنـا قد يثار سؤال . ولماذا لم يكن القرآن الكريم بادىء ذي بدء بلغة واحدة ولهجة واحدة ينضوي تحت لوائهـا الجميع ؟ وهذا السؤال يضعنا أمـام ضرورة التعرّف على لغة العرب قبل الاسلام فقـد كانت فيهم اللهجات المضرية والنزارية والربعية والقرشية وغيرهـا فضلاً عن المعنى الذي استهدفه الرسول (ص) في حديثـه لجبريل ، ففيما روى الترمزي عن أبي بن كعب قال : لقي رسول الله (ص) جبريل فقال : يا جبريل اني بعثت لأمة أمية ، منها العجوز والشيخ الكبير ، والغلام والجارية والرجل الذي لم يقرأ كتاباً قط ، فقال لي يا محمد : ان القرآن أنزل على سبعة أحرف والذي نبغي أن نقرره هنا ان سؤال رسول الله(ص) ربّه المعافاة .. والمغفرة في أن قراءة القرآن الكريم في بدء أمر الوحي في أكثر من لهجة وعلى أن لا يكون على لهجة واحدة ، ثم حديثه مع جبريل بشرح حال أمته في أنها لا تقدر وهي متعددة اللهجات أن تستوعب جماعـة منها روح كتاب الله بلهجة غير التي تحيا عليها وتعيش بها كان يقصد به في بدء امر الوحي ومراحـل التدوين ، تدريب الأمة تدريجياً على اللهجـة الأم حتى تستقيم ألسنتهم ويتعرّفون على اللهجة التي ينطق بها نبيهم ، ولقد كان الصفوة من أبناء جميع القبائل العربية تتدرّب على لغة قريش ، وهناك شبه اجماع على انها اللغة الأم لأنها بالفعـل كانت لغة الأدب ، التي سجل بها العرب مفاخرهم وأمجادهم وحافظوا بها على اخلاقهم ومقدساتهم ، وكان الاختلاف الذي طرأ بعد ذلك في قراءة بعض الآيات بين أهل الأنصار وخاصة في تلك المراحل التي لم يسمح فيها أمير المؤمنين

عمر بن الخطاب لكبار الصحابة من مغادرة المدينة ورغبة في ان يبقوا بجواره للمعاونة والمشورة ولأسباب اخرى رآها ابن الخطاب رضي الله عنه لا يتسع المقام هنا لذكرها وكان هذا الاختلاف اليسير الذي طرأ في وجوه القراءات بين أهل الأمصار مرجعه إلى ان النسخ التي في أيديهم لم تكن مشكلة او منقوطة ، فضلاً عن ان بعض الذين يقرأون القرآن الكريم لم يكن تيسر لهم الاطلاع على نسخ بعض القراءات في العرضات الاخيرة التي عرضها جبريل على النبي (ص) وعرضهـا النبي على جبريل عليهمـا السلام فما كان الاختلاف في القراءة المشهورة والمتداولة الآن في علوم القرآن ، انما كان الاختلاف في اللغات التي كان مرخصاً بها من عدمه .

ويجدر بنا حتى لا يقع بعض غير المشتغلين بعلوم القرآن في لبس او حيرة حول معنى اختلاف اهل الاسلام في قراءة القرآن ، أن نبين بعض وجوه هذا الاختلاف ومثل هذا التبيين يكشف لنا عن مدى حرص ودقة أصحاب رسول الله (ص) على كتاب ربهم .

قلنا أن الاختلاف الذي طرأ في بعض الامصار والذي ساعد عليه امساك امير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنـه اصحاب رسول الله (ص) ان يغادروا الحرمين وكان بعضهم قريباً جداً لرسول الله ويعلم اخبار مـا نسخ ، فساعد ذلك على شيوع ظاهرة الاختلاف في قراءة النص المكتوب والمتداول، فهـو منقول بعد عهد ابي بكر بالشكل والرسم الذي هو عليـه غير مشكل ولا منقوط فـكانت بعض الآيات الكريمـة تحتمل اكثر من نطق وأكثر من وجه يتضح ذلك مثلاً في بعض الامثلة التي يسوقونها كدليل علمـاء القرآن الكريم مثل : (أنفسكم) بضم الفاء و (أنفسكم) بفتحها ومثل (فتبينوا) بالباء بعد التاء والثاء بعد التاء وبعدها ياء ثم تاء ، ومثل قوله تعالى في سورة السجدة : [**الذي احسن كل شيء خلقه**] يقرأ باسكان اللازم وفتحها في (خلقه) فالحجة لمن اسكن : انـه أراد الذي جعل عبارة يحسنون كل شيء

ويحتمل أن يكون أراد المصدر الفعل الماضي والهاء المتصلة به في موضع نصب لانه كناية عن مفعول بـــه ومعناه : انه احسن كل شيء خلقــه فكونه على ارادته ومشيئته فله في كل شيء صنعــه تدل بآثارها على وحدانيته وحكمتــه ودليل ذلـــك قوله تعالى : [**انا جعلنا ما على الارض زينة لها**] وعليهـــا الحسن والقبيح[1] ومثل قوله تعالى في سورة الاحزاب : [**بما يعملون خبيرا**] يقرأ بالياء والتاء فالحجة لمن قرأه بالياء انـــه اتبع آخر الكلام اوله ودليله قوله تعالى : [**ولا تطع الكافرين والمنافقين ان الله كان بما يعملون خبيرا**] والحجة لمن قرأه بالتاء انه جعله خطاباً من الرسول ﷺ لهم في حال الحضور.

وللمشتغلين بعلوم القرآن الكريم عناية عظيمة بالتعرف على دلالات وأوجه قراءات القرآن الكريم فيقول الامام ابن خالويه في كتابه (الحجة في القراءات السبع) في قولــه تعالى : [**والصافات صفا فالزاجرات زجرا فالتاليات ذكرا**] يقرأن بادغام التاء في الصاد والذال واظهارها فالحجة لمن أدغم قرب مخرج التاء منهن والحجة لمن اظهر أن التاء متحركة والالف ساكنة قبلهـــا ، فالاظهار أحسن من الجمع بين ساكنين ، فان قيل ما وجه قوله : (فالتاليات ذكرا) ولم يقل تلوا كما قـــال (صفا) و (ذكرا) فقل : ان تلوت لـــه في الكلام معنيان ، تلوت الرجل معناه أتبعته وجئت بعده ودليله قولـــه : (والقمر اذا تلاها) وتلوت القرآن اذا قرأته ، فلما التبس لفظها أبان الله عز وجل بقوله (ذكرا) ليبين المراد ها هنا : التلاوة لا الاتباع ، فان قيل ما وجه التأنيث في هذه الالفاظ فقل ليدل بذلك على معنى الجمع وقيل التاليات ها هنا : جبريل وحده كما في قوله : فنادته الملائكة .

وايضاً نستطيع ان نرى في قوله تعالى في سورة (الصارفات) : [**سلام على الياسين**] اكثر من وجـــه من وجـــوه القراءات التي طرأت على النص

---

(١) انظر (الحجة في القراءات السبع) للامام ابن الخالويه تحقيق الدكتور عبد العال سالم مكرم صادر عن دار الشروق – بيروت عام ١٩٧١ من صفحات ٢٦١ ٢٦٣ .

الكريم ، فتقرأ بكسر الهمزة وقصرهـا واسكان الـلام بعدها وفتح الهمزة ومدها وكسر اللام بعدها ، فالحجة لمن كسر الهمزة انـه أراد : (الياس) ، فزاد في آخره الياء والنون ليساوي به ما قبله من رؤوس الآي ، ودليله ما قرأه (ابن مسعود) : (سلام على الياسين) يريد (ادريس) والحجـة لمن فتح الهمزة أنـه جعل اسمين احدهما مضاف إلى الآخر ، معناه سلام على آل محمد عليه السلام .

وكما نرى فان هذه النماذج التي سقناها من وجوه القراءات التي استقر عليها علمـاء علوم القرآن الكريم كما هو واضح لا تمثل معاني متفاوتة او متناقضة مع بعضها في نص الذكر الحكيم ، ولقد كان أمر اللهجات العربية التي ألفتها البطون العربية في بدء عصر الوحي انها كانت تنطق الذكر الحكيم بما يسعف المراد عندها في فهم النص ، ومـا يستقيم في فؤادها حتى خشي الامام عثمان ابن عفان رضي الله عنه من الفتنة في تأويل النص الكريم وتباينه بعد ذلك فجمع اللهجات والناس جميعاً بما صنعه على لغة قريش .

ومـع كل هذا بقي الاساس الاول في حفظ القرآن الكريم وتواتره هو : الحفظ في الصدور وذلك حتى لا يعتريه المحو والاثبات كما تعرضت لـه كتب اخرى عند اهل الكتاب من اليهود والنصارى ولقد ساعد على ان تظل اهمية الحفظ للقرآن الكريم في الصدور واستظهاره لها المكانة الاولى هو مـا أوثر عن النبي (ص) ، وما امر به المولى سبحانه من الترتيل للقرآن بقوله تعالى : [**ورتل القرآن ترتيلا**] . (ورتلناه ترتيلا) وذلك لا يتم الا اذا كان القرآن العظيم يقرأ على مقرىء يجيزه حفظاً وقراءة وترتيلاً خاصة وان القرآن الكريم حين كتب في عصر الرسول (ص) كان الرسول واصحابه يقرأونه بلغة قريش ، ومـا اجاز الرسول اهل الامصار البعيدة في قراءة القرآن بغير لغة قريش الا لاعطائهم فترة يتدربون فيهـا على النطق بلغة قريش .. ومن هنا كان وجود مقرىء يقرأ عليه النص الكريم ويحفظ الناس النص الكريم ضرورة يحرص

عليها المسلمون ويرون فيها أمثل وأكرم الاعمال في الاقتداء برسول الله (ص) فضلاً عن الامتثال لأمر الله .

(د) لماذا سمي القرآن قرآنا ؟

تميّز الذكر الحكيم الذي أنزله الله تعالى على قلب نبيه الخاتم محمد (ص) بهذه (التسمية) وهي الاسم الغالب على التعريف بكتاب الله عز وجل، وفي هذه التسمية ما يكشف عن أهم المميزات التي بها حفظ كتاب الله تعالى عن ان يمسه فكر بشر او يتعرض للنقص والزيادة او الحذف والاضافة . اما لماذا سمي القرآن قرآناً فانه قد قرأت قراءة وقرآناً يكون مصدراً واسماً قال تعالى في سورة القيامة : [**انا علينا جمعه وقرآنه**] فهو ها هنا مصدر .

ويقول تعالى : [**واذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجاباً مستوراً**] فهو ها هنا اسم [١] .

والمراد به : قرأت قرآناً اي قرأت قراءة فيقام الاسم مكان المصدر كما جاء في قوله تعالى : [**والله أنبتكم من الارض نباتاً**].

وقد جاء في معنى تسمية القرآن قرآناً : انه جمع وضم الصور والآيات، وان حفظته يجمعونه ويحفظونه من قولهم : قرأت الناقة : اذا حملت الجنين. هذا .. وقد جاء في لسان العرب : القرآن : التنزيل العزيز يقال قرأه قرءاً وقراءة وقرآناً والثلاثة مصادر .

ويقول ابو اسحق النحوي : يسمى كلام الله تعالى الذي انزله على نبيه (ص) : (كتاباً) و (قرآناً) و (فرقاناً) .

وكما جاء كتاب الله تعالى المنزل على قلب محمد (ص) بلفظ (قرآن) جاء

---

(١) انظر : (نكت الانتصار لنقل القرآن) للامام ابي بكر الباقلاني تحقيق الدكتور محمد زغلول سلام . صادر عن منشأة المعارف ص ٥٦ .

بأسماء وصفات أخرى وكلهـا لا تخرج عن دلالة اللفظ والمعنى الذي تشبعـه وتدل عليه لفظة (قرآن) : ومن هذه الاسماء (الفرقان) : والفرق يقارب الفلق في المعنى ، لكن الفلق يقال اعتباراً بالانشقاق بينما الفرق يقال اعتباراً بالانفصال ، يقول الله تعالى : [**واذ فرقنا منكم البحر**] : والفرق بكسر الفاء القطعة [1] ومنـه الفرقة للجماعة من الناس ، والفرقان ابلغ من الفرق بينما الفرق يستعمل في هذا المعنى وفي غيره ، يقول الله تعالى : [**يا ايها الذين آمنوا ان تتقوا الله يجعل لكم فرقانا**] ي نوراً وتوفيقاً على قلوبكم يفرق به بين الحق والباطل .

وقريب من هـذا المعنى قوله تعالى في سورة الأنفال : [**وما انزلنا على عبدنا يوم الفرقان**] وهذا اليوم في رأي اغلب المفسرين يوم (بدر) وهو اول يوم يفرّق فيـه بين الحق والباطل ، وبهذا المعنى معنى (الفرقان) بين الحق والباطل جاء (الفرقان) اسماً على كلام الله تعالى لفرقه بين الحق والباطل في الاعتقاد ، وبين الصالح وغير الصالح في الاعمال ، يقول رب العزة :[**تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا**] [2] .

هـذا .. ويسمى القرآن الكريم : (البرهان) : والبرهان هو البيـان للحجة المؤيد لها بالدليل ، يقال : برّه الرجل يبرّه ، اذا كان ابيض خالص البياض ومن هنا جاء التشبيه ببياض الحجة واشراقها ، كبياض الحق واشراقه ، يقول رب العزة في سورة البقرة : [**قل هاتوا برهانكم ان كنتم صادقين**] ويقول سبحانه : [**يا أيهـا الناس قـد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا اليكم نوراً مبيناً**] .

---

(١) انظر : (مع القرآن الكريم) . الكتاب الذي اصـدره (المقاولون العرب) وعند الاجابة النموذجية التي وضعها العالم الجليل فضيلة الشيخ (عبد الجليل عيسى) بعنوان (مع القرآن الكريم . حول اسمائه وصفاته) . ص ٢٤ .

(٢) المصدر السابق صفحة ٣٦ .

هذا .. ويسمى كلام الله تعالى (كتاباً) : يقول الراغب الاصفهاني : (الكتب) بكسر التاء الضم ، وفي هـذا يقول العربي : كتبت الأديم الى الأديم ، اي ضممت الجلد إلى الجلد بالخياطة والمقصود جلد القربة او السقاة ، ومن ذلك جاء معنى الكتابة وهو ضم الحروف بعضهـا إلى بعض بالخفظ . فالأصل في الكتابة : النظم بالخط ، ويستعار كل واحد منهما للآخر ، ولهذا سمّى كلام الله وان لم يكتب (كتاباً) : كقوله تعالى : [الم ذلك الكتاب لا ريب فيه][1] فالكتابة في الأصل مصدر ثم سمّى الشيء المكتوب فيه كتاباً ، من ورق او غيره فهم يعنون بذلك صحيفة فيها كتابه .

يقول الله تعالى في الكتاب بمعنى المكتوب : [ولو نزّلنا عليك كتاباً في قرطاس فلمسوه بأيديهم] .

ويقول الله تعالى في اليهود : [وان منهم لفريقاً يلوون ألسنتهم بالكتاب لتحسبوه من الكتاب وما هو من الكتاب] : ومعنى الكتاب الاول ما كتبوه بأيديهم ومعنى الثاني (التوراة) ومعنى الثالث جنس كتب الله المنزّلة .

هذا .. ويجيء قوله تعالى في سورة يونس : [ومـا كان هذا القرآن أن يفتري من دون الله ، ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل الكتاب لاريب فيه من رب العالمين] ليبين ان المراد بالكتاب هذا ، هو ما تقدم من جنس الكتب السماوية التي جاء القرآن الكريم مصدقاً لما سبق منها .

هذا .. ويجيء من اسماء القرآن الكريم اسم : (الحق) والحق المطابقة والموافقة لحكمة الخالق ، يقول رب العزة في سورة يونس : [ويستنبئونك أحق هو قل اي وربي انه لحق] .

ويقول سبحانه : [وآمنوا بما انزل على محمد وهو الحق من ربهم] .

ويقول سبحانه : [والذي انزل اليك من ربك الحق] .

---

(١) المصدر السابق صفحة ٣٦ .

هذا .. ويسمى القرآن ايضاً (النور) ويسمى : (الوحي) .. فمن النور الذي يعين على البصر : نور الشمس يقول تعالى : [**هو الذي جعل الشمس ضياءاً والقمر نوراً**] ومن النور الإلهي الذي تعقل بـه البصيرة : أسباب الهدى والحق في قوله تعالى عن الإيمان والحياة : [**او من كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشي به في الظلمات**] . ويقول تعالى : [**أفمن شرح الله صدره للاسلام فهو على نور من ربه**] . وأما الوحي حين يراد به القرآن الكريم ، فانطلاقاً من قوله تعالى في سورة الانبيـاء : [**قل انما انذركم بالوحي ولا يسمع الصم الدعاء اذا ما ينذرون**] .

ومن اسماء القرآن الكريم ايضاً : (التنزيل) يقول رب العزة : [**وانه لتنزيل رب العالمين**] . ويقول سبحانه : [**كتاب انزلناه اليك مبارك ليدبروا آياته**] . ومن بين سياق الذكر الحكيم تجيء دلالات اسماء وصفات (القرآن الكريم) وكلها تدور حول معنى الهداية إلى الله والتعرف عليه من خلال آيات كتابه الكريم .

هذا .. ويسمي الله كل مـــا يلقيه إلى المختارين من عباده اعني الانبياء والمرسلين : (وحيا) لانـــه لا يفهمه ولا يعرف دلالته إلى الموحى اليه من ربـه .

وتجيء الآية رقم ٥١ من سورة الشورى لتوضح وتقرر هذا المعنى تماماً ، يقول رب العزة : [**وما كان لبشر أن يكلمه الله الا وحيا من وراء حجاب او يرسل رسولاً فيوحي باذنه ما يشاء**] .

وقد يرد الوحي من الله تعالى لغير الانبيـاء ، لكنه ليس بالضرورة أن يكون في دلالة المعنى المشتمل عليه الوحي إلى انبياء الله ورسله ، فمثلا جاء بمعنى الإلهام في قوله تعالى في سورة النحل الآية رقم ٦٨ : [**واوحي ربك الى النحل ان اتخذي من الجبال بيوتاً ومن الشجر ومما يعرشون**] ولا يراد بالوحي الذي تشير اليه هذه الآية الكريمة الوحي في دلالتـــه التي تتعلق بالانبياء والمرسلين .

وعلى ضوء ما قدمنا ومن معنى جمع الآيات التي قرأت وحفظت في صدور المؤمنين في سورها التي ضمّت بعضهـا الى بعض تأكد اسم (القرآن) الذي جاءت العنـاية بتدوينه في حياة النبي (ص) ، بعد حفظـه في الصدور والتعبد به في الصلوات وعندما يذكر المؤمنون ربهم ، واصبح هـذا الاسم علماً بالغلبة على كتاب الله الكريم .

هذا .. ومن الجدير بالذكر ان القراءة والتلاوة والترتيل والحفظ للنص عن ظهر قلب هي الخصـائص التي ميـّزت القرآن الكريم على كل الكتب المنزّلة ، والتي كانت صفتها الأساسية كتابتها بأيدي الخاصة من الاحبار في سرية ، بل وفي اكثر الظروف تحت مؤثرات من القهر والخوف ، واستمرار كتابتها والإضافة اليها والتعديل فيها بعد عصر الوحي قروناً طويلة مما اوقع الخلاف بين اتباعها حول مضمونها ونصوصها .

هذا .. ومما يجدر ذكره انه على ضوء الكشوف والدراسات المستفيضـة التي حظيت بها الكتب السابقـة على القرآن الكريم بعـد عصر النهضة في اوروبا اكتشف وقوع كثير من المخالفات الموضوعية والتدوينية بل والتاريخية في كتب واسفار الكتاب المقدس بعهديـه القديم والجديد وذلك بأثر ممـا تعرّضت له هذه الأسفار من عدم الحفظ في القلوب والصـدور فضلاً عن افتقادها لأمانة التدوين، ولقد شاءت عناية الله ألا يتعرّض القرآن لما تعرّضت له الأسفار السابقة على الذكر الحكيم، لقد كانت القراءة الدائمة للقرآن الكريم منذ نزوله وحفظه في صدر النبي وصدور المؤمنين في امة مبينة ، تحفظ مأثور كلامها هي الطريق المعبّد الذي حفظ الله به القرآن المسموع الصـوت فوق كل صوت من أي تحريف أو تحوير تحاول صنعه الاقلام في صريرهـا الخفي ، على اوراق تحت اعين الكهنة وميولهم ، فلا تكاد تقع عليها عين ، كما حدث ذلك في تدوين واسفار موسى عليه السلام بعد موته وكما حدث في تعدد الاناجيل بعد المسيح عليه السلام .

لقد نزل القرآن الكريم ميسراً مبيناً مباشراً في معانيه ، لا يحتاج لواسطة كاهن في تنظيمه للعقل ولا في مناجاته للقلب ، وهو قوي الصلة بدلالة اللسان العربي الذي نزل به وبالنظم الإلهي الذي تتابع به على قلب محمد (ص) ، وهو الكاتب الوحيد الذي تعتد بـه العقول وتلهج به الالسنة ، وتنشط على ندائه الفضائل الفطرية ، وتنمو في ضوئه الروادع الاخلاقية ، فما من كتاب سابق اولاحق على هذه الارض له ما لهذا القرآن العربي من يسر الحفظ وبعد المنال وخلود الاثر بكونه كلام الله الذي نسميه : قرآناً ونرتله تعبّداً ونحفظه ثروة وذخراً ، فندين لله في ذكره وهديه ونوره بهذا الدين القيّم ، مسلمين اليه غير مشركين بـه ، وسبحان القائل في كتابـه في تأثير هـذا الكتاب على قلوب المؤمنين : (لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون [١] .

(هـ) حملات عدوانية ضد القرآن الكريم :

هذا القرآن الكريم الذي انزله الله تعالى وأمر نبيّه (ص) باثباته وتبليغه، نقلته الاجيال المسلمة وهو على ما هو عليه ، لم ينقص منه شيء ولا زيد فيه شيء ، وهو على ما كان عليه يوم اثبت في اللوحين بالشكل الذي انتهى الينا اليوم ومـع عجيب نظمه وبديع وصفـه ، وعدم قدرة احـد من الخلق على تأليف مثله ، او سورة او آية تقترب من مستوى طهره فإن عناصر ملحدة، قالت : ان القرآن مدخول فيه وأنه غير ثابت ولا مضبوط ، وان فيـه لحناً وتناقضاً ، وفي خضم موجات الالحاد والنفاق التي تعرض لها القرآن الكريم، زعم قوم من الرافضة ان القرآن بدّل وغيّر ، ثم قالت مجموعة منهم : نقص منه ولم يزد فيه ، وبلغ التداول الفاسد والحاقد على القرآن الكريم واعجازه ان قوماً قالوا : ان القرآن موجود وصحيح لكن تأليفه وترتيبه فاسد ، ولو

---

(١) سورة الحشر - الآية رقم ٢١ .

وضع كل شيء منــه موضعه لزال الخلاف فيــه وتبينت معانيه [1] . وهناك ايضاً من قالوا : ان عثمان رضي الله عنه جمع الناس على بعض الاحرف ومنع باقيها ، لما حدث من الخلاف ، ثم قالوا في موقف آخر : انه لم يحظر مــــا خالف مصحفه ، ولكنه استنزل الناس عنــه عن طيب خاطر القلوب ، ثم جاء قوم من الفقهاء والمتكلمين وقالوا : يسوغ اعمال الرأي في اثبات القرآن وأوجهه اذا كانت صواباً في اللغة ، وان لم تقم حجــة بأن النبي (ص) قرأ بتلك المواضع ، وهذا الكلام ايضاً مما ينكره الاسلام تماماً ويرفضه في تناول موضوع الذكر الحكيم .

والدارس للقرآن وعلومه يعلم ان الصدر الاول من المسلمين على سعة امــة الاسلام في بواديهــا وحواضرها كانوا يعظمون شأن القرآن ويتقربون إلى الله بتعليمه ، ولم يكن عندهم شيء أحق بالحفظ من القرآن الكريم ، ولقد مكثوا نيفاً وعشرين سنة والقرآن بين ايديهم والقرآن يسجل ويحفظ في بيت رسول الله (ص) وعلى السنتهم ، يعلمهم النبي (ص) بنفسه عن ربه ، كيف يرتلونه ثم يحثهم على حفظه واستظهاره .

ولقدبلغ مــن حرص النبي (ص) على ان يشيع في المسلمين روح التسابق في حفظ القرآن وتلاوته ان دفــع فيهم هذا الدفع العظيم الذي يرويه الامام علي بن ابي طالب عن النبي (ص) انــه قال : من قرأ القرآن طاهراً أدخله الله الجنة مع عشرة من اهل بيته كلهم قد استوجبوا النار .

وفي المعنى المقابل فمــــا جزاء مقصر في حق كتاب الله الكريم : يروي أنس بن مالك عن النبي (ص) انه قال : عرضت عليّ اجور أمتي حتى الغداة يخرجها الرجل من المسجد وعرضت عليّ ذنوبهم ، فلم أرفيها اعظم من رجل يعلم آية او سورة من كتاب الله عز وجل ثم نسيها .

---

(١) « نكت الانتصار لنقل القرآن » للامام ابي بكر الباقلاني المتوفي سنة ٤٠٣ هـ دراسة وتحقيق الدكتور محمد زغلول سلام طبعة منشأة المعارف بالاسكندرية ص ٥٩ .

وفي وسط هذه الضوابط الدينية التي تقوم على مقومات عقيدة الايمان عند المسلمين ، كيف يتصور من امة من أهم مقومات وجودها ان تعي ما حولها وان تحفظ في قلبها ما يعرض عليها ، واذا لم يكن القرآن الكريم هو الثابت والمضبوط في قلوب وعقول المسلمين وبين ايديهم ، فأي شيء آخر في الوجود يمكن ان يكون هو الثابت والمضبوط ؟

ان كل القرائن والشواهد والأدلة لتؤكد باليقين انه مـا على وجه الارض كتاب يحمـل خصائص ومقومات القرآن الكريم لقي مـن العناية والرعاية والاهتمام الدائم من المسلمين مـا لقيه القرآن الكريم ، ومع ذلك فقد ظلت جهود القوى المعادية في القديم والحديث للقرآن واهلـه تبذل جهداً مستميتاً على امل ان تنال من القرآن الكريم او ان تشكك فيه إلا ان كل هذه الجهود باءت بالخسران والفشل وذلك بفضل طبيعة المناعة والعصمة الإلهية في هـذا الكتاب العظيم .

هذا .. ومن يقرأ كتاب (القراءات الشاذة) لابن الخالوية ، طبع المطبعة الرحمانيّة بالقاهرة عام ١٩٣٤ م وكذلك كتاب (ابي عبيد القائم بن سلام) المسمى : (فضائل القرآن) يجد روايات غير علميـة وغير ثابتة القول وغير محددة الهدف ، وابسط مـا يمكن ان يقال فيها في منطق الفكر الاسلامي انها ضعيفة بل ومدسوسة وتقول بعض الروايات التي تتضمنها مثل هذه المصادر في بعض ما تسجله عن افرازات قوى العدوان المتربصة بالقرآن الكريم بالنقد والتجريح عبر التاريخ ، ومع ذلك لم تنل منه شيئاً تقول بعض هذه الروايات فيما تنسبه إلى امير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، انه كان يقرأ في فاتحة الكتاب : (غير المغضوب عليهم وغير الضالين) . وان الزبير كان هو الآخر يقرأ : (صراط من أنعمت عليهم) . وان ابن عباس كان يقرأ ؟ (ان الصفا والمروة من شعائر الله فمن حج البيت او اعتمر ، فلا جناح عليه ان يطوفا بهما ، وعلى الذين يطيقونه) . وانه كان يقرأ : (ليس عليكم جناح

ان تبتغوا فضلاً من ربكم في مواسم الحج) وانـه كان يقرأ : (للذين يؤلون من نسائهم تربص اربعـة اشهر ، فما استمتعتم بـه منهن إلى اجل فأتوهن اجورهن) . وروى ايضاً ابو عبيدة القاسم بن سلام في كتابه (فضائل القرآن): ان ام المؤمنين (حفصة) رضي الله عنها : قرأت وكتبت في مصحفها — المصحف الذي كان عندها — : او الصلاة الوسطى وصلاة العصر . وان ابن مسعود قرأ : (الذي يتخبطه المس يوم القيامة) وان عمر بن الخطاب رضي الله عنه افتتح سورة آل عمران : [**الرب الاله لا اله إلا هو الحي القيوم**] وان سعد بن ابي وقاص قرأ : (وان كان رجل يورث كلالة وامرأة وله أخ او أخت من أمه) وان ابن مسعود قرأ : (فصيام ثلاثة ايام متتابعات) . وهناك نماذج اخرى عديدة يسوقها الملاحدة والمنافقون واعداء كتاب الله الكريم في التدليل عندهم على ان كتاب الله تعالى لم ينقل الينـا بالشكل والحجم الذي تركه الوحي على صدر وقلب رسول الله (ص) ، وانمـا طرأت عليه عندهم عمليات تدوينية بالنقص والزيادة .

ونبادر فنقول لو لم تكن هـذه النماذج دليل حقد ضد روح الكمال الإلهي في نص الذكر الحكيم لكانت دليلاً على عدم دراية بعلوم القرآن و كيفية تدوينه .

وبادىء ذي بـدء مثل هـذه النماذج التي تساق في التدليل على ان القرآن الكريم تعرّض للحذف والاضافة ، لو سلمنا — جدلاً — على انـه كان يحدو رواتها محاولة التعرف على كتاب الله تعالى ، وهذا الافتراض مستحيل تماماً على ضوء اسلوب معالجتهم لما كانوا بصدده فهذه النماذج اخبار آحاد وغير موثوق بصحتها ولا تقوم حجة او برهان على ما يذهبون اليه من ان القرآن قد تعرض للحذف والاضافة ، والقرآن الكريم منـذ صدر على الوحي الإلهي على قلب رسول الله (ص) ، والمسلمون يتداولونه — وذلك قبل مراحل تدوينه وتسجيله في عهد الرسول وحياته — لا عـن طريق الآحاد ، بـل بالتواتر ، ولم يكن المسلمون يقرأون من كتاب الله ، حتى ورسول الله بين ظهرانيهم الا ما تواتر

نقله وثبت تداوله على هذا الوجه الصحيح اذا لم يكونوا يأخذون مباشرة من النبي (ص) ، وحين كانوا يرون آية ينفرد بها احد المسلمين ، كأن يكون قد سمعهـا من رسول الله ، قبل ان يشيع أمرهـا بين المسلمين جميعاً ، او كأن يكون قد سمعها ثم نسخت ولم ينته اليه أمر النسخ ، وعند مثل هذه الحالة، كان المسلمون يرجعون إلى رسول الله (ص) للتثبت من صحـة الآيات التي تكون امامهم ، لتبدأ هـذه الآيات تنتشر بين قلوب المسلمين وعلى ألسنتهم عن طريق التواتر لا عن طريق الآحاد ، يضاف إلى هذا التواتر عملية التدوين التي كانت تتم وتمت بالفعل تحت اشراف النبي (ص) ومراجعته لكتاب الوحي وللاطلاع على ما كتبوه من آيات الذكر الحكيم ولم يقبض رسول الله (ص) إلا بعد مراجعة كاملة لكل آيات الذكر الحكيم بالشكل الذي انتهى بـــه الينا واستمرت هذه المراجعة لمدة عامين كاملين .

وأما مـا تعلق به بعض الذين تعرضوا للقرآن الكريم من القدمـاء أو المحدثين بالدراسة ، ناقدين او حاقدين او قراء له بغير دراية ، من ان هنـاك بعض الآيات أضيفت الى كتاب الله مثل تعلقهم بما يقال : [**إنا أنزلنا المال لاقامة الصلاة وايتاء الزكاة**] فانه فضلاً عن عدم اتساق مثل هذه النماذج ، مع روح البناء اللفظي والمعنوي ، لآيات الذكر الحكيم ، فانها دائمـاً أخبار آحاد ، ولا سبيل لأحد ان يؤكد ثبوتها ، ولو ثبتت لكانت مما نسخ وأزيل ورسول الله (ص) يراجعه الوحي الإلهي جبريل الأمين خلال عامين .

هذا.. والقرآن جميعه قد تم تداوله بطريق التواتر مع تداول نص النسخ التي انتهت إلى عثمان بن عفان رضي الله تعالى عنه ، وعلى هذا المعيار فان ما ينسب البعض عن وجود مصحف عند أم المؤمنين « عائشة » رضي الله عنها كان فيه :[**يا ايها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليماً وعلى الذين يصلون الصفوف الأول**] .

وما ينسب ايضاً الى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، من أنـه كان يقول

كنا نقرأ : [**ترغبوا عن آبائكم فانه كفر بكم**] . وأنه قال : لعبد الرحمن ابن عوف : ألم تجد فيما أنزل الينا :[**ان جاهدوا كما جاهدتم اول مرة**] فان هذه النماذج لو كانت قرآناً لثبتت مع آيات الوحي ، وعلى افتراض انها من آيات الوحي – حتى لا يتهم المسلم بالتعصب العلمي في رفضه للفروض العقلية – فانها بالمعيار الإسلامي تصبح من الآيات التي نسخت وأزيلت وحظر على المسلمين بتوجيه نبيهم (ص) أن يثبتوها في نص الذكر الحكيم او يدونوها ، فضلاً عن ان تتواتر على ألسنة المسلمين ، وإذا ما افترضنا سلامة مقصد من ادعى بعد ذلك نسبة هذه النماذج الى القرآن الكريم فلعلهم من أولئك الذين سمعوا هذه النماذج من الآيات المدعاة وحين نسخت هذه الآيات لم ينته اليهم أمر النسخ فبقيت عندهم هذه الشبه ، هذا إذا ما افترضنا حسن نية وسلامة قلب من ساق هذه الأمثلة والنماذج حول موضوع تدوين الذكر الحكيم .

الفصل السابع

خصائص النص القرآني

لا يوجد كتاب على وجه الأرض أودع الله فيه من الخصائص والمقومات والقواعد ما انفرد به (الذكر الحكيم) . وليست خصائص النص القرآني تركيبة فنية من جملة اعتبارات ومقومات لتضفي عليه صفة كهنوتية او رمزية ، او ليكون أداة لطلاسم وشعائر مثلما هو في بعض الكتب المقدسة التي ادعاها اصحابها والتي لعب بها التحريف وعمل فيها الهوى وسيطرت عليها الأهواء ، ولكن القرآن الكريم هو الكتاب الوحيد الذي وضع له رب العالمين مقومات حفظه وخصائص ونهج قراءته وأسلوب تناوله .

وفي محكم التنزيل الحكيم ما يفيد ان الله سبحانه يجهّز عباده الذين يقبلون على قراءة القرآن الكريم وتدبر معانيه بمقومات خاصة وتجريدات محددة حتى يصبحوا محلاً وأهلاً للدخول في حضرة (كتاب الله) يقول رب العزة في محكم التنزيل : [**فاذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم**] وهذه التجهيزة النفسية والروحية .. فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم، يجعل المسلم بالله في قدرة خاصة تمكنه من ان ينفي عن ذهنه صور الشيطان وما يخيله من وساوس وما يستثمره في الإنسان من نزعات ، وما يحركه في النفس من

هوى ، وما يؤججه في الحس من طغيان المادة وعدوان سلطانها على القلب والروح ، ولأنك ايها المسلم مقبل على الله من خلال كتابه فاستعذ به من أعدائه وأعدائك : [**فاذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم**] فهذا إذاً مدخل من مداخل اعداد المسلم وتربيته عند دخوله الى حضرة النص الكريم في كتاب الله تعالى ، فاذا ما ابتدأ المسلم يقرأ في آيات الله فليست القراءة على نمط سجع السجاع ، ولا ترانيم الكهان ، ولا تمتمة الأحبار ، وانما بذلك الأداء الذي يمكن القلب والعقل معاً في استحضار دلالات ومعاني النص الكريم ، وهو ذلك الاسلوب الذي سمّاه الله تعالى في كتابه وهو يوجه نبيه المصطفى محمد (ص) (ترتيلاً) حين قال له : [**يا ايها المزمّل قم الليل إلا قليلاً نصفه او انقص منه قليلا او زد عليه ورتل القرآن ترتيلا**] . والترتيل في القرآن هو : التأني والتمهل وتبين الحروف والحركات تسبيهاً بالثغر المرتل وهو المشبه بنور الاقحوان [1] .

وإذا ما قرأ المسلم القرآن بعد أن يكون قد أقبل عليه بهذه الدفقة الروحية العظيمة ، فانه باليقين الذي يلقيه في نفسه الذكر الحكيم ويصبح في حال يتميز بها ويتغاير عن كل غير المؤمنين بالقرآن بل ويتغاير بها عن المؤمنين وهم في غير حال القراءة ، يقول رب العزة : [**فاذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجاباً مستوراً**] .

وفي تطبيق والتزام النهج القرآني في القراءة كان الرسول (ص) المثل الأعلى والأكمل في الأداء القرآني في النهج الذي يكشف لنا عن خصائص ومقومات النص القرآني وانفراده من بين جميع الكتب السماوية بهذه الميزة التي تعتبر من آيات برهانه للناس .

---

(١) انظر (مناهج التفسير) للدكتور مصطفى الصاوي الجويني : استاذ الدراسات الاسلامية والبلاغة في كلية البنات جامعة عين شمس. ص ١١ صادر عن منشأة المعارف بالاسكندرية .

تقول أم المؤمنين (حفصة) رضي الله عنها : (كان الرسول (ص) يقرأ السورة فيرتلها حتى تكون أطول منها) .

وفي تقرير هذا المعنى وتأكيده يصف أنس بن مالك رضي الله عنه قراءة الرسول (ص) فيقول : (كان يمد مداً) .

وعلى هـذا النهج القرآني في القراءة والذي يتمثـل في التمهـل والتأني واخراج الحروف ومدها ، يتيح للقارىء المسلم ان يتعرف على روح الحيـاة في النص القرآني ، ويعاونه على تدبر معاونه ، وذلك ان هذا المكث والتريث والتمهل في نطق الآية القرآنية يعطي الروح الإلهي في الإنسان القدرة التي تمارس عملهـا في استنباط وتنمية الفؤاد وتحريـك النفس وتجهيز الوجود الإنساني المودع في قيمة وروح الانسان على الرؤية والتدبر والتبصّر .

ويضع رب العزة أمام المؤمنين الأهداف المرجوة من كل ضوابط والتزامات النهج القرآني فيقول : [**كتاب أنزلناه اليك مبارك ليدبروا اياته وليذكر أولو الألباب**] .

ويدعو الرحمن الرحيم الى قراءة القرآن ، لكنه في الوقت نفسه ينعي على قوم يقرأونه ولا يتدبرون آياته فيقول عز من قائل : [**أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب اقفالها**]. يا سبحان الله : ان الله سبحانه يشبّه تعطيل القلب الإلهي المودع في الانسان ، هذا القلب الذي هو بمثابة البصيرة الإيمانية التي يستطيع بها المرء ان يعرف الفرق بين الأشياء وجوهر الأشياء أو قل بين الحلال والحرام او بين الخير والشر ببيت أغلقت ابوابه وسدّت منافذه ، ذلك ان الغـــاية المبتغاة من قراءة كتاب الله سبحانه ، هي تدبّر معانيه والتعرف على دلالاته ، وبالتالي العمل بأحكامه ، ومن هنا تجيء الآية الكريمة التي معنا بهذا الحفز العظيم وبهذه الدفعة الوجدانية الفذّة لكي تحقق الهدف المرجو ويقف المسلم على بعض براهين ربـه من خلال آيات الذكر الحكيم :

[**آفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب اقفالها**] .

ومن هنـا رأينا رسول الله (ص) يبذل الجهد كله ويقدم مـا منحه الله جميعه في تحقيق هدف التدبر لآيات الذكر الحكيم .

يحكي حذيفة بن اليمان رضي الله تعالى عنه فيقول :(صليت مع النبي(ص) ذات ليلة فافتتح البقرة فقرأها ، ثم النساء فقرأها ، ثم آل عمران فقرأهـا يقرأ مسترسلاً ، إذا مرّ بآية فيها تسبيح سبّح ، وإذا مرّ بسؤال سأل ، وإذا مرّ بتعوّذ تعوّذ) .

ونفس هـذا المعنى او قريباً منه يحدثنا عوف بن مالك فيقول : (قمت على النبي (ص) فقام فقرأ سورة البقرة لا يمر بآية رحمة إلا وقف وسأل ولا يمر بآية إلا وقف وتعوّذ) .

ونستطيع ان نرى بعـداً روحياً ونفسياً كبيراً وعميقـاً يتوجه الى قلب المسلم من خلال قوله تعـالى : [... **أفلا يتدبرون القرآن** ...] الآية في ذلك الموقف الفذ المستمطر لرحمات العزيز العليم حين وقف المصطفى (ص)، فيما روى عن ابي ذر رضي الله عنه ليلة قائماً يردد قوله تعالى : [**ان تعذبهم فانهم عبادك**] ويستشعر المسلم بوجدانه حين يتصور هذا المشهد المهيب ان الرسول (ص) بعد ان قرأ الآية استغرق في تقليب وجوههـا وتدبر معانيها فبكى . هـذا ومن المقرر يقيناً ان الرسول (ص) كان في تلاوته للقرآن الكريم يتجاوب مع النص الذي يتـلوه ، فهو إذا قرأ : والتين والزيتون ، وبلغ قوله تعالى : [**أليس الله بأحكم الحاكمين**] كان يقول : بلى أي نعم ، وإذا قرأ : [**فبأي حديث بعده يؤمنون**] قال : آمنت بالله وما أنزل . وقرأ في الصلاة قوله تعالى : [**فألهمها فجورها وتقواها**] قال : اللهم آت نفسي تقواها وزكّها وأنت خير من زكّاها انت وليّها ومولاها .

والدارس لعلوم القرآن الكريم يستطيع ان يتعرّف على البواعث الروحية في قلب المؤمن لاستحباب الترتيل في قراءة الذكر الحكيم ، ذلك ان الترتيل بأحكامه والتي لا تخرج عن كونهـا تعقيداً للاداء الذي كان يقوم بـه رسول

الله (ص) وطريقة ترتيله من حيث المد والادغام والاقلاب والاشمام وغير ذلك، من قواعد الترتيل إنما هي مدخل الى ساحة التدبر ليكون المعنى في النفس، أقرب الى الاجلال والتوفير في امكان نقاء القلب وهيمنة النص على النفس[١].

فلقد كان اصحاب رسول الله (ص) حين يخلون الى كتاب ربهم يقرأونه ويتدبرونه وذلك بالخشوع والخضوع والتهيّب والاجلال لقداسة النص القرآني الذي كانوا بصدده .

روي عن عبدالله بن عباس قال: قال لي رسول (ص) اقرأ ، قال فقرأت عليه سورة النساء حتى إذا بلغت : [**فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً**] فنظرت اليه (ص) فاذا عيناه تدمعان . ولعمق الشعور القوي بجلال القرآن الكريم كان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقرأ القرآن مرّات كثيرة وهو يصلي بالناس، ويحدث له أحياناً إذا ما انفتح قلبه على عميق الصلة التي تكون بين معطيات النص وبين روح وقلب المؤمن أن تسمعه يبكي ويبكي في الصلاة حتى تنقطع قراءته ، ويسمع نحيبه من وراء ثلاث صفوف .

هذا .. ويعقد المولى سبحانه علاقة قوية بين روح النص القرآني وأسلوب تلاوته والإيمان به فيقول جل شأنه : [**الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته اولئك يؤمنون به**] .

ولقد دعا الحرص على تدبر معاني القرآن والعمل به ، ان الرجل من اصحاب رسول الله (ص) كان فيما يرويه ابن مسعود إذا عشر آيات من كتاب الله لم يجاوزهن حتى يعلم معانيهن والعمل بهن ، وهذا هو السر في أن عبدالله ابن عمر رضي الله عنهما فيما نقل عنه مكث على سورة البقرة ثماني سنين يتعلمها.

---

(١) (سراج القارىء المبتدىء وتذكار القارىء المنتهي) لأبي القاسم علي بن عثمان بن محمد بن أحمد بن الحسن الفاصح العذري — الطبعة الأولى عام ١٩٣٤ ص ٤٠٠ .

وكان اصحاب رسول الله (ص) يستقرئون من النبي القرآن فكانوا إذا تعلم واحد منهم عشر آيات ، لم يخلفوها حتى يعملوا بما فيها من العمل ، فكانوا يتعلمون القرآن والعمل معاً، وكان دافعهم الى هذا النوع من الارتباط والالتزام هو خطاب الله تعالى للانسانية كلها في كتابه الكريم من خلال اولئك الأبرار الأطهار اصحاب النبي (ص) وأتباعه .

يقول رب العزة :[**كما ارسلنا فيكم رسولا منكم يتلو عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون**] .

ورسول الله (ص) بهذه الصلاحية الكبرى التي تخولها له الآية الكريمة وغيرها كثير بين آيات الذكر الحكيم هو المعلم الأول والأكبر للذكر الحكيم، ولذا كان ﷺ يتقبل من أصحابه ما عسر عليهم فهمه من كتاب الله ، وها هو ابو بكر الصديق رضي الله عنه يقول : يا رسول الله: كيف الصلاح بعد هذه الآية :[**ليس بأمانيكم ولا أمانيّ اهل الكتاب من يعمل سوءاً يجز به**]. فكل سوء عملنا جزينا به ؟ فقال رسول الله (ص) : (غفر الله لك يا أبا بكر ، ألست تمرض ؟ ألست تنصب ؟ ألست تحزن؟ ألست تصيبك اللأْلاَء؟ قال بلى ، قال فهو ما تجزون به) .

هذا .. ونحب أن نقرر أن النص القرآني ليس لغزاً نملك مفتاحه ، وإنما قصدنا من معالجة هذا الجانب وابرازه تقديم البرهان القرآني على أن النص القرآني ليس سوقاً عامة يباع فيها كل شيء ، ويذهب اليها كل من (هب ودب) لشراء ما يبغي او عرض أية بضاعة يريد ، ولكن القرآن الكريم (كلام الله) صاغه سبحانه بلغة جنس من البشر هم العرب ، واللغة العربية في علم الله ومشيئته هي اللغة التي صاغ بها سبحانه من علمه وارادته (قرآناً للبشر) ، وعليها فتصبح العلاقة بين كلام الله تعالى في القرآن بالمفردة العربية وبين لغة العرب من حيث الدلالة اللغوية فقط أقرب ما تكون إلى العلاقة التي بين قطرات ماء من مطر سحابة أرسلتها مياه المحيط وبين مياه المحيط

نفسها : الأولى قطرات خفيفة محدودة مقيّدة أما الثانية فبحر عباب وعمق وبعد ولا منتهى لها وبينهما علاقة ولكن شتان، ومن هنا يصعب على الدارس للقرآن الكريم وعلومه ان يدخل أمام النص القرآني ليأخذ من روحه بعض ما فيه دون ان يتعرّف على دلالة اللفظة العربية والتي على ضوئها فهم العربي القديم ، كلام رب العالمين ثم بالفهم الذي أصبح عنده علماً أدرك (برهان الله للناس) في كتابه العظيم .

وأمام هذا الذي نراه من ضرورة الاعداد والاستعداد للدخول في ساحة النص الكريم للافادة بما فيه ، فاننا بادىء ذي بدء نحب ان نشير الى جمهور علماء المسلمين الذين كرّسوا معظم حياتهم لخدمة كتاب ربهم ومحاولة الوقوف على بعض اسراره الكريمة من حيث دلالة النص الحكيم ليتبين لنا كيف يتميز كتاب الله بمقومات وضوابط استقرت عند العلماء الذين تناولوه بالدراسة والشرح والتفسير عبر تاريخه الطويل حتى أصبح مغايراً تماماً من حيث العناية به والاهتمام بنصه لكل ما تعرضت له أسفار وكتب أصحاب الاديان السابقة ، ومن هؤلاء العلماء المبرزين الفقيه المفسّر الجامع (الحسين بن محمد الدامغاني) الذي ألف كتابه (الوجوه والنظائر في القرآن الكريم) وقد كاد الكتاب في غيبة النهضة الإسلامية أن تتشوّه معالمه وان تضيع اجزاؤه حتى قيّض له العالم المحقق (عبد العزيز سيد الأهل) الذي حققه ورتبه وأكمله وأصلحه ، ونشر في (دار العلم للملايين في بيروت عام ١٩٧٠) تحت عنوان (اصلاح الوجوه والنظائر في القرآن الكريم) والكتاب يعطي الباحث نماذج وأنماط يمكن بها ان يتعرف على مستوى ودلالات ودرجات اللفظة الواحدة في تناول النص القرآني ، ومن خلالها يتبين أن ليس كتاب الله — القرآن — بالكتاب الذي يمكن أن يفتحه للدرس والبحث كل انسان ، وليقول ما فهمه عن ارادة الله في كتابه .. ولا بد والأمر عظيم كهذا من التزوّد العلمي والروحي بكل ما يعاون على القيام بمثل هذا العمل الجليل ، وعلى سبيل المثال فان بعض الألفاظ التي تندرج في القرآن الكريم كمردة لفظية في سياق

الذكر الحكيم ترد على وجوه كثيرة كهذا الذي نعرض له على ضوء ما دوّنه (الحسين بن محمد الدامغاني) .

أتى : هذه المفردة تأتي في الذكر الحكيم على الأوجه التالية : في سورة النحل يقول سبحانه : [**أتى أمر الله فلا تستعجلون**] أي قرب ودنا بقرينة (فلا تستعجلوه) وتأتي بمعنى (الاصابة) كما يقول تعالى في سورة الانعام [**ان أتاكم عذاب الله**] وتأتي بمعنى (القلع) كما يقول تعالى في سورة النحل [**فأتى الله بنيانهم من القواعد**] أي قلع بنيان ديارهم ، وتأتي بمعنى وقوع (العذاب) كما في قوله تعالى في سورة الحشر [**فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا**] أي عذّبهم الله تعالى ومثل قوله تعالى في سورة الانعام [**هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة او يأتي ربك او يأتي بعض آيات ربك ..**] فهي هي هنا بمعنى يهلك ربك .

وتأتي أيضاً (أتى) بمعنى (السوق) كما في سورة النحل [**يأتيها رزقها رغداً**] أي يسوق اليها رزقها من كل مكان .

ونفس المفردة (أتى) يجيء منها (الاتيان) بمعنى الجماع كما في قوله تعالى في سورة الشعراء [**أتأتون الذكران من العالمين**] وكما في سورة العنكبوت [**أئنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء**] . ونفس المعنى والاستعمال في سورة الاعراف [**فأتوا حرثكم أنى شئتم**] .

وتتسع اللفظة (أتى) للعمل كما في قوله تعالى في سورة العنكبوت [**انكم لتأتون الفاحشة**] وكقوله تعالى في نفس السورة [**وتأتون في ناديكم المنكر**] بمعنى تعملون .

ثم تأتي (أتى) بمعنى (الاقرار والطاعة) كما في قوله تعالى في سورة مريم [**ان كل من في السموات والارض الا آتي الرحمن عبداً**] أي مقراً له بالعبودية .

وتأتي أيضاً (أتى) بمعنى (الخلق) كما في قوله تعالى في سورة الملائكة [**ان يشأ يذهبكم ويأتي بخلق جديد**] يعني والله أعلم ، ان يشأ يهلككم ويمتكم ويخلق خلقاً جديداً .

هذا .. وتأتي من لفظة (أتى) الاتيان بمعنى (المضي) مثل قوله تعالى في سورة الفرقان [**ولقد أتوا على القرية التي امطرت**] يعني ولقد مضوا على القرية كما في قوله تعالى في سورة الاعراف [**فأتوا على قوم يعكفون على اصنام لهم**] وكما في سورة النحـــل [**حتى إذا أتوا على وادي النمل**] أي مضوا .

ويأتي من (أتى) الاتيان بمعنى (الارسال) كقوله تعالى في سورة «المؤمنون» [**بل آتيناهم الحق**] يعنى أرسلنا جبريل بالحق ، وكقوله تعالى [**بل آتيناهم بذكرهم**] أي أرسلنا جبريل بشرفهم .. ويأتي من (أتى) الاتيان الذي هو بمعنى « المفاجأة » كما في قوله تعالى في سورة الاعراف [**أفأمن اهل القرى ان يأتيهم**] أي يفاجئهم بأسنا .

هذا نموذج في مفردة من آي الذكر الحكيم يتغير من خلالها البنيان الذي حولها الى معاني خمسة عشر مرة .

ونستطيع ان نأتي على مفردة ثانية في لفظـة ثلاثيـة تتكون من ثلاثة أحرف فقط مثل (أحد) .. ان وجهاً منها يجيء وتتحدد معانيه ودلالته من السياق العام للآية وقدرة المفرد وطبيعة دلالته حتى لا يتحمل القرآن الكريم أهواء وشطحات اصحاب الهوى يجيء الوجه الاول منها ويراد بـه رب العالمين لا سواه كما في قوله تعالى في سورة البلد [**أيحسب ان لم يره احد**] يعني الله تعالى .

ويميـل الراغب الاصفهاني في كتابه المفردات إلى أن لفظـة (أحد) لا تستعمل مطلقاً في وصفه تعالى.. لكن طبيعة المفردة العربية فضلاً عن سياق آيات الذكر الحكيم تجعلها تحتمل مضامين أخرى ، كما في قوله تعالى في سورة

الحشر : [ألم ترَ ان الذين نافقوا يقولون لاخوانهم الذين كفروا من اهل الكتاب لئن اخرجتم لنخرجن معكم ولا نطيع فيكم احدا ..] فالمراد بهذا الأحد في هذه الآية النبي (ص) فان المنافقين كانوا يقولون : لا نطيع محمداً .

ونفس المعنى في ايراد (أحـد) في سياق الآية ، ويراد بـه النبي محمداً (ص) قوله تعالى سورة آل عمران : [إذ تصعدون ولا تلوون على احد] يعني النبي (ص) .

هذا .. وتجيء (أحد) في الذكر الحكيم ويراد شخصاً بعينه كما هو في قوله تعالى في سورة الليل : [وما لأحد عنده من نعمة تجزى] . فحين ابتاع ابو بكر بلالاً رضي الله تعالى عنهما برطل من الذهب قال المشركون ، فافعل ابو بكر ما فعله إلا ليد او نعمة كانت لبلال على ابي بكر حين أعتقه جاءت الآية ، كما ذكر الواقدي في أسباب النزول بسورة الليل وتحدد المراد (بأحد) وأنه بلال ، وأنه ليس له يد على ابي بكر .

وفي قضية (التبني) المعروفة ، فان الذكر الحكيم حدد أسلوبه منهـا وكان السبب فيها (زيد بن حارثة) ، وحين نزل الذكر الحكيم في هـذه الواقعة في قوله تعالى : [ما كان محمد أبا أحد من رجالكم] كان من الواضح لمن عرف أسباب النزول ان المراد بـ (أحد) زيد بن حارثة .

هـذا .. وتجيء أحـد بمعنى (أي) من الخلق كله : الملائكة والأنس والجن كما في قوله تعالى في سورة الكهف : [ولا يشرك بعبادة ربه أحداً] وكقوله تعالى في نفس السورة : [ولا أشرك بربي أحدا] .

وتجيء (أحد) ويحدد بها شخص بغيره كما سبق في سورة يوسف ويراد بها ساقي الملك يقول تعالى : [قال أحدهما اني اراني أعصر خمرا] .

ونـأتي على أنموذج ثالث من استعمال المفردة العربية في الذكر الحكيم وكيف تتأتى على وجوه عديدة لا يسعف في فهم المراد منهـا والوقوف على

دلالتها، إلا كل من ألمّ بقواعد العربية وأسرار دلالتها، وعلم القرآن وأسباب نزوله حتى يمكن بعد ذلك تصور الروح العام لنص الذكر الحكيم .

نورد المثال الثالث على استعمال (المفردة) الواحـدة في القرآن الكريم ونترك بعد ذلك لفطنة القارىء ، كما يحتاج العقل البشري الى طاقات وجهود علمية ضخمة لتجهيز نفسه وتصبح عنده القابلية لأن يستوعب المعنى العـام لدلالات اللغة العربية ، لا كما أرادهـا الله تعالى في كتابه من خـلال النص القرآني كاملة وإنما كما هي عليه في لغة العرب ليمكن بعد ذلك الاقتراب من فهم النص القرآني والذي بدون التعرف على قواعد وأصول ومقومات اللغة العربية يصبح العقل البشري أمـام مغاليق رهيبة تحول بينه وبين الاقتراب من عظمة النص القرآني في لغة العرب .

المثال الثالث الذي نورده : (اتخذ) القريبة من أخذ ، تجيء اتخذ على الوجوه التالية في آيات الذكر الحكيم .

وجه منها بمعنى (اختار) [1] وذلك في قوله تعالى في سورة النساء : [**واتخذ الله ابراهيم خليلا**] . ومثله بالنفي كما في قوله تعـالى في سورة « المؤمنون » : [**وما اتخذ الله من ولد**] .

وجه منهـا بمعنى (أكرم) كما في سورة آل عمران [**ويتخذ منكم شهداء**] ويكرم منكم شهداء بالشهادة ، وتجيء أيضاً بمعنى (صاغ) كما في قوله تعالى في سورة الاعراف عن قوم موسى حين عملوا لهم عجلاً من ذهب لعبـدوه : [**واتخذ قوم موسى من بعده من حليّهم عجلا جسدا**] أي صاغوا عجلاً .

---

(١) (اصلاح الوجوه والنظائر في القرآن الكريم) . للفقيه (الحسين بن محمد الدامغاني) تحقيق وترتيب وتكميل : عبد العزيز سيد الأهل – الطبعة الأولى عـام ١٩٧٠ – دار العلم للملايين بيروت صفحتي ٢١ – ٢٢ .

وتأتي (اتخذ) بمعنى (سلك) كما يقول تعالى في سورة الكهف : [**فاتخذ سبيله في البحر سرباً**] أي سلك طريقه . وقريب من نفس هذا المعنى قوله تعالى : [**واتخذ سبيله في البحر عجباً**] .

هـذا .. وتجيء (اتخذ) بمعنى (سمّى) كما في قوله تعـالى في سورة براءة : [**واتخذوا احبارهم ورهبانهم أرباباً**] يعني سموهم أرباباً من دون الله .. وتجيء (اتخذ) بمعنى (نسجت) كما في قوله تعـالى في سورة العنكبوت : [**كمثل العنكبوت اتخذت بيتاً**] أي نسجت بيتاً .

هذا .. ومن بين الوجوه التي تتقلب على المفردة العربية الواحدة وتسعها ولا تضيق بها ، لأن روح النسق العام للموقف الذي تعالجه المفردة كواحدة من بنية الآية الكريمة يساعد ويدفع الى تخليق المعنى وتصوره باعتباره حقيقة كامنة في وحدات المفردة العربيـة . تجيء مفردة (اتخذ) ليكون منهـا (اتخذوا) بمعنى عبدوا ، ولا يعاون على تصور البعد الشاسع بين الدلالتين او الثلاث او العشر عندما تقارن بين دلالة (اتخذت) ، بمعنى (نسجت) وبين دلالة (اتخذوا) بمعنى (عبدوا) ، إلا عندما تسمع قول رب العزة في سورة العنكبوت : [**الذين اتخذوا من دون الله أولياء**] أو تسمع قوله تعالى سورة الاعراف : [**ان الذين اتخذوا العجل سينالهم غضب من ربهم**] فتدرك الفرق في استعمال اللفظة الواحـدة ومشتقاتها في هـذا الموقع حين تختلف دلالتها عن الموقع الذي سبقها او الذي سبقها او الذي قد يلحقها .

هذا .. وتجيء أيضاً (اتخذ) بمعنى (جعل) مثلما هي في قوله تعالى : [**تتخذون إيمانكم دخلا بينكم**]أي تجعلونه مثلما هو قوله في سورة المجادلة: [**اتخذوا إيمانهم جنة**] أي جعلوها هزءاً .

وتأتي (اتخذ) بمعنى (بنى) كما في قوله تعالى في سورة براءة : [**والذين اتخذوا مسجدا ضرارا**] أي بنوا ونفس المعنى في سورة الكهف [**لنتخذن عليهم مسجدا**] وفي سورة الاعراف [**وتتخذون من سهولها قصورا**] أي

تبنون .. وتجيء أيضاً (اتخذ) بمعنى (رضى) كما في قوله تعالى في سورة المزمل [**لا إله إلا هو فاتخذه وكيلا**] أي ارض به رباً رازقاً .

وانظر إلى ذلك البعد الذي تحتمله دلالات وقدرات اللغة العربية التي يستخدمها البناء القرآني في برهان عظيم : ان لفظة (اتخذ) التي ترد من بنين لبنات آية على انها بمعنى بنى تجيء في آية ثانية بوظيفة أخرى ومعنى مغاير تماماً .. ان اتخذ تجيء في سورة مريم بمعنى يغاير في وظيفتها المعاني السابقة يقول تعالى : [**فاتخذت من دونهم حجاباً**] بمعنى أرخت ستراً أحال بينها وبين ما تريد أن تحجب عنه ، ومن عجب أننا نرى نفس اللفظة في نفس السورة في وظيفة أخرى كبرهان معجز لإعجاز النص القرآني حين وظّف اللغة العربية بهذا المستوى المبهر في الأداء. ان لفظة (اتخذ) لا تزال بين أيدينا بمعنى (أرخى الستر) تجيء الآن بمعنى (اعتقد) يقول رب العالمين في سورة مريم:[**لا يملكون الشفاعة إلا من اتخذ عند الرحمن عهدا**] يعني اعتقد عند الرحمن عهداً ، بأن لا إله إلا الله ، وهكذا تمضي وحدة بناء اللفظة العربية وتقرر قدراتها كل ذلك العطاء ، وهي مع قدرتها هذه داخل النص القرآني شيء آخر من خلال معنى يسري في داخلها أشبه ما يكون (بالروح) وهذا الروح هو السر الأعظم وراء تلك الميزة الفريدة التي تشيع في القرآن الكريم وتنعدم في أي كتاب آخر سواه .

إن صاحب (الوجوه والنظائر في القرآن الكريم) يورد أربعة عشر وجهاً تناولت اللفظة العربية (قرب) في استعمال القرآن الكريم لها:وهذه الخصوبة والثراء في معطيات واشعاعات (مفردة) لغوية لا تجدها في اي نهج أدبي في أرقى اللغات وأكثرها تطوراً ، وذلك بسبب المستوى الرفيع الذي بلغته اللغة العربية على لسان وعقل وضمير الانسان العربي قبل الإسلام .

الوجه الأول في استعمالات (قرب) في بيان الذكر الحكيم : (القرب) الجماع مثلما جاء في قوله تعالى في سورة البقرة:[**ولا تقربوهن حتى يطهرن**] أي تجامعوهن .

الوجه الثاني : (القرب) .. الاجابة .. كما في قوله تعـالى في سورة البقرة: [**وإذا سألك عبادي عني فاني قريب اجيب دعوة الداعي إذا دعاني**] أي إذا سألك عبادي فاني مجيب لهم .

الوجه الثالث : (القرب) بمعنى مداناة المدة كما في قوله تعالى في سورة هود : [**فيأخذكم عذاب قريب**] ومثـل قوله تعـالى في سورة الانبياء : [**اقترب للناس حسابهم**] ومثل قوله تعالى ايضاً [**واقترب الوعد الحق**] أي دنا .

الوجه الرابع : من قرب الأقرب الذي هو بمعنى (الأصوب) كما في قوله تعالى في سورة الكهف : [**لاقرب من هذا رشدا**] أي لأصوب من هذا .

الوجه الخامس : من (قرب) الأقرب بمعنى (اللين) كما في قوله تعالى في سورة المائدة : [**لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا ، ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى**] يعني ألينهم مودة وقولاً .

الوجه السادس : من الوجوه التي تتخلق من بنية اللفظ الثلاثي (قرب): القربى والقربة بمعنى (القرابة) كما في قوله تعـالى في سورة حم عسق : [**قل لا أسألكم عليه أجرا الا المودة في القربى**] وفي سورة النساء [**وبذي القربى**] وفي سورة البلد [**يتيماً ذا مقربة**] أي ذا قرابة .

الوجه السابع : من الوجوه التي تعرض وتنبعث من قدرات اللفظة (قرب) المكان القريب وهو : صخرة بيت المقدس كما يذهب بعض المفسرين في قوله تعـالى في سورة (ق) : [**واستمع يوم ينادي المنادي من مكان قريب**] يعني من الصخرة .

الوجه الثامن : من قرب (القريب) بمعنى (اللحظة قبـل الموت) كما في قوله تعـالى في سورة النساء : [**ثم يتوبون من قريب**] يعني قبـل الموت والمعاينة ، ولا تقبل التوبة مع المعاينة .

الوجه التاسع : (قرّب) بمعنى (أكرم) كما في قوله تعالى في سورة مريم : [وقرّبناه نجيا] أي كلمناه من قريب اكراماً له .

الوجه العاشر : (القريب) بمعنى (المجاور) كما في قوله تعالى في سورة الرعد : [أو تحل قريباً من ديارهم] .

الوجه الحادي عشر : (القربان) بمعنى القرب إلى الله تعالى ، كما في قوله تعالى في سورة المائدة : [إذ قرّبا قرباناً] .

الوجه الثاني عشر : (القرب) بمعنى (الأكل) كما في قوله تعالى في سورة البقرة : [ولا تقربا هذه الشجرة] يعني لا تأكلا .

الوجه الثالث عشر : (القرب) الدخول في العمل كما في قوله تعالى في سورة النساء : [ولا تقربوا الصلاة وانتم سكارى] يعني لا تدخلوا .

الوجه الرابع عشر : (القريب) بمعنى (الكائن) كما في قوله تعالى في سورة النبأ : [إنا أنذرناكم عذاباً قريباً] يعني كائناً[1] .

وهكذا يتضح لنا ان كتاب الله تعالى مع يسره وسهولة تناوله ، إلا أن اقتحام ساحته بالشرح والتفسير والفتيا عمل يجب أن لا يقدم عليه إلا من جهّز نفسه بمواصفات ومقومات قرآنية ، حتى يستقيم له فهم النص ، وبالتالي يقدر على تقديم معطياته ، ولا أخال أحداً من السلف الصالح ، ومن أولئك العلماء الأفذاذ الذين خدموا كتاب ربهم كان يسيراً عليه ان يتناول الذكر الحكيم بالدرس والشرح إلا بعد اجازة خاصة أقلها الإلمام الكامل بعلوم النسخ والقراءات وأسباب النزول فضلاً عن الورع والتقوى والزهد حتى استقام لهم المراد .

---

(١) (اصلاح الوجوه والنظائر في القرآن الكريم) ، للدامغاني . الطبعة السالفة الذكر صفحتا ٣٧٥ ، ٣٧٦ .

هذا.. وقد تعرض موضوع الذكر الحكيم إلى دراسات شتى في القديم والحديث وكان من بين القضايا التي أثيرت ولم تحسم تماماً موضوع تعرض له القرآن الكريم (دراسياً) بالبحث واختلاف وجهـات النظر وأعني به موضوع (النسخ) . ولذا يجدر بنا أن نفرد له مبحثاً مستقلاً باعتباره (النسخ) أحد المراحل أو قل العمليات التي مرّت بالذكر الحكيم أثناء نزول فترة الوحي الإلهي على قلب رسول الله محمد (ص) وقبل التدوين .

هذا .. وللمشتغلين بالقرآن الكريم وعلومه عناية خاصة بالذكر الحكيم ، انتهت بهم على ضوء البرهان القرآني الذي جاء بـه القران ، آية واعجازاً في لغة العرب إلى تقرير قواعد واصول ، قـد لا يستقيم فهم الكثير من المعاني للفظة القرآنية دون الرجوع والاستعانة بهذه القواعد وتلك الاصول .

ومن ذلك مثلاً تلك القواعد اللغوية التي يستعان بهـا في فهم الوجوه التي ترد على معنى الآية الواحدة . ويخصص : (مكي بن ابي طالب القيس) ٣٥٥ ٤٣٧ هجرية كتابه (مشكل اعراب القرآن)[١] . لايراد وعلاج بعض الوجوه التي ترد على اللفظة القرآنية على ضوء ما استقرت عليه قواعد لغة العرب بعد نزول القرآن الكريم .

فمثلاً عند قوله تعالى في سورة ال عمران : [**ولا تؤمنوا إلا لمـن تبع دينكم ، قـل ان الهدى هدى الله ان يؤتى احد مثل مـا أوتيتم او يحاجوكم عند ربكم قل ان الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم**] . يقول : (أن) مفعول بـ (تؤمنوا) وتقدير الكلام : (ولا تؤمنوا ان يؤتى احد مثل ما أوتيتم الامن تبع دينكم ، فاللام على هذه زائدة ومن في موضع نصب استثناء ليس من الاول .

---

(١) (كتاب مشكل اعراب القرآن) تأليف (مكي بن ابي طالب القيسي) ٣٥٥ ٤٣٧ هـ تحقيق (ياسين محمد السواس – الجزء الاول – مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق ١٣٩٤ هـ الى ١٩٧٤ م) .

وقيل التقدير : ولا تصدقوا الا من تبع دينكم بأن يؤتى احد .

وقال الفراء : انقطع الكلام عند قوله (.. دينكم) ثم قال لمحمد ﷺ قل : ان الهدى هدى الله ان يؤتى احد مثل ما أوتيتم ، ف (لا) مقدّرة .

ويجوز ان تكون اللام غير زائدة ، وتتعلق بما دل عليه الكلام ، لأن معنى الكلام لا تقر بأن يؤتى احد مثل مـــا أوتيتم ، الا من تبع دينكم ، فيتعلق الحرفان : اي الباء واللام بـ (تقروا) كما تقول أقررت لزيد بألف ، وجاز ذلك لان الاول كالظرف فصار بمنزلة قوله : مررت في السوق بزيد .

وانمــا دخلت (احد) لتقدم لفظ النفي في قوله : (ولا تؤمنوا) فهو نهي ولفظه لفظ النفي ، فأما من مدّه واستفهم وهي قراءة ابن كثير فانــه أتى به على معنى الانكار من اليهود ان يؤتى احد مثل ما أوتوا حكاية عنهم ، فيجوز ان تكون (أن) في موضع رفع بالابتداء اذ لا يعمل في (أن) مــا قبلها لأجل الاستفهام وخبر الابتداء محذوف تقديره أن يؤتى احد مثل مــا أوتيتم ، تصدقون او تقرؤن ونحوه ، وحسن الابتداء بـ (أن) لأنها اعتمدت على حرف الاستفهام فهو في التمثيل بمنزلة : أزيد ضربته ؟

ويجوز ان تكون (أن) في موضع نصب ، وهــو الاختيار ، كما كان في قوله أزيداً ضربته النصب ، لأن الاستفهام عن الفعل فتضمر فعلا بين الالف وبين (أن) تقديره : أتريدون ان يؤتى احد مثل مــا أوتيتم ، وأتشيعون واتذكرون ، ونحو هذا مما يدل عليه الانكار الذي قصدوا اليه بلفظ الاستفهام ودل على قصدهم لهذا المعنى قوله تعالى فيما قالوا لاصحابهم : أتحدثونهم بما فتح الله عليكم يعنون : أتحدثون المسلمين بمــا وجدتم في صفــة نبيهم في كتابكم ليحاجوكم بــه عند ربكم . و (أحد) في قراءة من مد بمعنى (واحد) ، وانما جمع في قوله او يحاجوكم لأنه ردّه على معنى احد لانه بمعنى الكثرة لكن احداً اذا كان في النفي اقوى في الدلالة على الكثرة منه اذا كان في الايجاب ، وحسن دخول (احــد) بعد لفظ الاستفهام لأنـــه بمعنى الانكار والجحد ،

فدخلت (احد) بعده كما تدخل بعد الجحد الملفوظ ، فيصبح على هـذا انه تكون على أصلها في العموم ، وليست بمعنى واحد .

هذا نموذج من اوجـه اعراب آية كما أوردهـا صاحب (مشكل اعراب القرآن) وانه حين يورد نماذج من آيات الذكر الحكيم ، ويقلب وجوه اعرابها باعتباره احـد الذين أرادوا التعرف على كتاب الله من خلال دلالات معاني الآيات ، يتضح امام اولئك الذين لا يتورعون من ان يقحموا أنفسهم على كتاب الله تعالى للفتيا فيـه او تفسير معانيه بغير عدّة ولا دراية ، فضلاً عن سوء القصد في غيبة علم نظيف يقوم على ضوء قواعد الايمان بالله تعالى . انظر إلى بعض الوجوه التي ترد على آية من الذكـر الحكيم في سورة آل عمران يوردها (مكي بن ابي طالب القيسي) في (مشكل اعراب القرآن) ، لنرى كم يتطلب القرآن الكريم من الذين يدخلون إلى رحابه ويريدون ان ينهلوا من عذب روحه ليعيشوا في جلال عطـائه وعظيم نعمه أن يكونوا مجهّزين بادىء ذي بدء لفهم النص الحكيم ، وحتى يتاح لمن يتصدى اشرف التعرف على فهم معاني ودلالات آيات الله تعالى ان يكشف الله له بعض أسرار كتابه من خلال النص المعجز .

يقول رب العالمين في سورة المائدة : [**وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ، ثم جاءكم رسول مصدّق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه ، قـال أقررتم وأخذتم على ذلكم اصري قالوا أقررنا ، قال فاشهدوا وانا معكم من الشاهدين**] .

يقول صاحب (مشكل اعراب القرآن) : ان من كسر اللام : (.. لما آتيتكم) وهو حمزه، علـّقها بالأخذ ، أي أخذ الله الميثاق عليهم ، لما أعطوا من الكتاب والحكمة ، لأن من أوتي ذلك فهو الأفضل، وعليه يؤخذ الميثاق و (ما) بمعنى الذي . فأما من فتح اللام فهي لام الابتداء ، وهي جواب لما دل عليه الكلام من معنى القسم ، لأن اخذ الميثاق إنمـا يكون بالايمـان

والعهود ، فاللام جواب القسم و (ما) بمعنى الذي في موضع رفع بالابتداء والهاء محذوفة من (آتيتكم) تقديره للذي آتيتكموه من كتاب ، والخبر : (من كتاب وحكمة) و (من) زائدة وقيل : الخبر (لتؤمنن به) وهو جواب قسم محذوف تقديره : والله لتؤمنن به ، والعائد من الجملة المعطوفة على الصلة — على ما — محمول على المعنى عند الاخفش لأن (لما معكم) معناه لما أوتيتموه — من الكتاب — كما قال : [**انه من يتق ويصبر فان الله لا يضيع أجر المحسنين**] فحمله على المعنى في الضمير إذ هو بمعنى فان الله لا يضيع أجرهم ولا بد من تقدير هذا العائد في الجملة المعطوفة على الصلة وهي : [**ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم**] فهما جملتان لموصولين وحذف الثاني للاختصار ، وقام حرف العطف مقامه ، فلا بد من عائدين في الصلتين على الموصولين .

ويحتمل ان يكون العائد من الصلة الثانية محذوفاً تقديره: ثم جاءكم رسول به ، أي بتصديقه ، أي بتصديق ما آتيتكموه ، وهذا الحذف على قياس ما أجاز الخليل من قوله : ما أنا بالذي قائل لك شيئاً ، أي بالذي هو قائل لك شيئاً ، وكما قرأ في سورة الانعام : [**ثم آتينا موسى الكتاب تماما على الذي احسن كل شيء**] بالرفع أي على الذي هو أحسن ، ثم حذف الضمير من الصلة، وإنما يبعد هذا الحذف من الضمير لانصال الضمير بحرف الجر فالمحذوف من الكلام هو ضمير وحرف فبعد لذلك .

ويجوز ان تكون (ما) في قراءة من فتح اللام للشرط فتكون في موضع نصب بـ (آتيتكم) و (آتيتكم) في موضع جزم بـ (ما) و (جاءكم) معطوف عليه في موضع جزم أيضاً ، وتكون اللام في (لما) لام التأكيد ، وليست بجواب القسم كما كانت في الوجه الأول ، ولكنها دخلت لتلقي القسم بمنزلة اللام في : (لئن لم ينته المنافقون) فهي تنذر بإتيان القسم بعدها وهو قوله (لتؤمنن بـه) كما كانت (لئن) انـذاراً للقسم في قوله (لنغرينك) فهي

توطئة للقسم وليست بجواب للقسم، كما كانت في الوجه الاول لأن الشرط غير متعلق لما قبله ، ولا يعمل فيه ما قبله ، فصارت منقطعة مما قبلها بخلاف إذا جعلت (ما) بمعنى الذي لأنه كلام متصل ، ومـا قبله جواب له وحذفهـا جائز . قال الله تعالى في سورة المائدة : [**وإن لم ينتهوا عما يقولون ليمس الذين كفروا عذابا أليما**] . فاذا كانت (ما) للشرط لم تحتج الجملة المعطوفة إلى عائد كما لم تحتج اليه الأولى ، ولذلك اختاره سيبويه ، لما لم يرَ في الجملة الثانية عائداً جعل (ما) للشرط .

وقـد تأول قوم أن مذهب سيبويه أن (ما) بمعنى الذي والهـاء فيه (به) تعود على (ما) للشرط جـاز ان تعود على (رسول) والهاء في (لتنصرنه) تعود على (رسول) في الوجهين جميعاً .

هذا انموذج من الجهد اللغوي ومجالاته وقدراته في تقليب وجوه المعاني اللفظية التي ترد على سياق آية على ضوء اعمال النص طبقاً لقواعد هذه اللغة الغنية هذا الجهد اللغوي في تقليب وجوه المعاني ووظائف اللفظ لآيات الذكر الحكيم يعطينا الدليل المدخل الأساسي في فهم معطيات القرآن الكريم عند علماء المسلمين حين جعلوا من علوم القرآن الكريم تخصصات عديدة تحتاج الى طاقـة مؤمنة وروح إسلامية مخلصة تتوفر لها فوق ثقافـة اللغـة ومعرفة أسرارها عوامل كثيرة أبسطها نقاء السريرة ، ونظافة القلب وسلامته من أمراض المـادية والمذهبية ، ليتيسر للباحث الدخول في أمن وطمأنينة على كتاب الله .

المحكم والمتشابه في القرآن الكريم :

هذا الموضوع الشائك والخطير هو الذي كان وراء ظهور كثير من الفرق الإسلامية ، بل وكان الباعث الاول لنشأة (علم الكلام) عنـد المسلمين .. وما جرّه هـذا العلم أحيانـاً من ثقافـة دخيلة على الإسلام وجوهر عقيدة التوحيد فيه، ولقد انبرى كثير من علماء المسلمين أمام ظواهر بعض النصوص

القرآنية التي تفترق دلالات مفردات تركيبها من استعمال لآخر فتصدوا لهذا الأمر وخصصوا له دراسات مطولة ومذاهب عديـدة ، ولا يزال الأمر حتى اليوم يحتاج منا الى وقفة نستعرض فيه اسلوب المعالجة الذي تناول به المسلمون هذا الأمر الخطير .. وذلك لأن بعض الشبه التي قد يثيرها أعـداء الذكر الحكيم من المستشرقين والمبشرين ومن العناصر المحسوبة على الاسلام من اولئك الذين تربوا على ثقافات أعجمية صليبية او مـادية شيوعية ، لا تزال تجد لها آذاناً صاغية وفارغة وخاصة اولئك الذين لم تستقم ألسنتهم على ذكر كتاب الله ولم تخشع قلوبهم له بفعل عوامل كثيرة أبسطها هذا .. (الاستغراب) الذي يكاد يقتحم الوجدان العربي حتى في هذه المرحلة التي تبدو فيها بشائر العودة للايمان قوية وواضحة في مواقع كثيرة في ارض المسلمين .

هذا .. ويطالعنا من بين الجهود الاسلامية العملاقة ذلك التراث النقي الذي تركه لنا القاضي : عبد الجبـار بن احمد الهمذاني المتوفى سنة ٤١٥ هـ في كتابه (متشابه القرآن) و (تنزيه القرآن عن المطاعن) .. وقد عالج الرجل في كتابه الاول قضية المتشابه والحكم في كتاب الله ببصير المؤمن وبصيرة العالم ، ومهما يكن من أمر الرجل وانتمائه الى مذهب (الاعتزال) إلا أنه في هذا الكتاب عمد إلى الآيات المتشابهة فأولها وبيّن حقيقة المراد منها ، كما وقف عند كثير من الآيات المحكمة ففسرها وأصل الاستدلال بها ، كل في موضعه الخاص .

وقد قام الرجل بتأويل الآيات التي قد يخالف ظاهرها أدلة التوحيد فعلى منهجه أولهـا على أصول اللغة العربية بما يطابق هـذه الأدلة . وهذا المنهج العقـلي الذي ينطلق منه القاضي في تفسير القرآن وفي الحـكم على المحكم والمتشابه ، يؤكد في مناسبات كثيرة ، ويدل عليه بعبارات مختلفة ، فكما يقول الدكتور : عدنان زرزور في تحقيقه لكتاب القاضي عبد الجبـار في متشابه القرآن ، نجـده يرد عـلى من يدعي ان القرآن متناقض في دلالتـه

فيقول : انهم قد أتوا في ذلك من جهة الجهل بالله تعالى وما يجوز عليه وما لا يجوز .. ويسترسل القاضي في تقريره الى أن ينتهي منه ويقول : (فاذا ثبت مـا قدمناه ، لم يمكنهم ادعـاء الاختلاف والمناقضة فيه ، لأن محكمه ومتشابهه سواء) .

هذا .. وفي كيفية الاستدلال بالقرآن الكريم على مـا يدل عليه يقول القاضي عبد الجبار بن احمد : اعلم ان كل فعل لا تعلم صحته ولا وجه دلالته إلا بعد ان يعرف حال فاعله ، ولا يمكن ان يستدل به على اثبات فاعله ولا على صفاته ، وإنما يمكن ان يستدل به على ما سوى ذلك من الاحكام ، لانه إن دل على حال فاعله ، ولا يعلم صحته إلا وقد علم فاعله ، أدى ذلك الى انه لا يدل عليه إلا بعد المعرفة به ومتى علم الشيء استغني عن الدلالة عليه.

ثم يقول : ويبطل ذلك من وجه آخر : وهو أنه يؤدي إلى أن لا تعـلم صحة القرآن إلا بعد معرفة الله تعـالى ، ولا يعرف الله تعالى إلا بعد معرفة القرآن، وذلك يوجب ان يدل كل واحد منهما على ما يدل عليه، وان يكون دليلاً على نفسه ، فان قال قائل: ومن أين أن صحة القرآن لا تعرف إلا بعد معرفة الله ؟ قيل له : لأن الخبر لا يعلم بصيغته ان صدق او كذب ، حتى إذا علم حال المخبر ، صح ان نعلم ذلك وقد علمنا ان ما أخبر عز وجل عنه في القرآن الكريم لم يتقدم لنا العلم بحال مخبره فيجب ان لا يعلم انه صدق إلا بعد العلم بحال المخبر ، وانه حكيم . فان قال : ومن أين ان وجه دلالته لا تعلم إلا بعد معرفة الله تعالى ، قيـل له لأنه إنمـا يدل بأن يصدر من حكيم لا يجوز ان يختار الكذب والأمر بالقبيح ومتى لم يكن فاعله بهذه الصفة لم يعلم وجه دلالته فيجب ان يعلم أولاً انه عز وجل حكيم لا يختـار القبيح حتى يصح ان يستدل بالقرآن الكريم على ما يدل عليه ، وذلك يمنع ان يستدل به على اثباته تعالى واثبات حكمته .

وبعد ، فليس يخلو من خالف في ذلك من ان يقول : أخبار القرآن تدل

مع التوقف في كونها من قبيل الصدق أو يقول : انها لا تدل إلا وقد علم انها صدق .. ولا شبهة في فساد الأول لأن كل خبر كونه كذباً غير دال على حال مخبره ، وإذا صح ذلك فلا بد من أن يعلم كونه صدقاً، ولا يخلق العلم بذلك بدون ان يرجع إلى نفس الخبر، او إلى خبر سواه، او إلى دليل العقل.

ولا يصح ان يعلم ان الخبر صدق بنفسه لأنه إنما يدل على حال غيره لا على حال نفسه وان علم انه صدق بخبر آخر لم يخل من ان يكون وارداً عن الله عز وجل ولا يجوز ان يرجع إلى خبر غيره ، وخبره عز وجل إذاً رجع اليه ولما علم حاله في الحكمة فكأنه استدل على انه صادق في سائر اخباره ، ومتى جوز في سائر اخباره الكذب يجوز في هذا الخبر مثله فلا يصح التعلق به ، ولذلك قلنا : ان المجسمة إذ جوزت عليه عز وجل ان يفعل القبيح لا يمكنها المعرفة بصدقه عز وجل لا من جهة العقل ولا من جهة السمع .. وكل ذلك يوجب ان يرجع في دلالة القرآن الكريم إلى ان يعرفه تعالى بدليل العقل وانه حكيم لا يختار فعل القبيح ليصح الاستدلال بالقرآن الكريم على ما يدل عليه ، وإن قال قائل : ان صح ان يستدل عليه تعالى بسائر أفعاله قبل ان يعرف ، فهل جاز ان يستدل بالقرآن عليه قبل ان يعرف ؟ قيل له : ان الكلام لا يدل على ما يدل عليه لأمر يرجع وإنما يدل لكون فاعله حكيماً ، ولذلك لم يدل كلام النبي (ص) على الاحكام إلا بعد العلم بأنه رسول حكيم لم يظهر المعجز عليه إلا لكونه صادقاً في سائر ما يؤديه ، وليس كذلك دلالة الفعل على ان فاعله قادر ولأنه إنما يدل لأمر يرجع اليه لا يتعلق باختيار مختار وهو ان الفعل إذا صح من واحد وتعذر على من هو بمثل حاله فلا بد من ان يختص بأمر له صح الفعل منه ، وهذه الجملة لا تتعلق بالاختيار ، فلذلك يصح ان يستدل بالحوادث التي لا يجوز ان تحدث من الأجسام على الله تعالى وعلى انه قادر عالم ، وليس كذلك حال القرآن .

يقول القاضي عبد الجبار بن احمد الهمذاني في متشابه القرآن : ان ما

ذكرناه يبين انه لا شبهة في ان فعل النبي (ص) قبل ظهور المعجز ، يدل على انه قادر عالم ، ولم يجب ان يدل كلامه على الأحكام على هذا الحد ، بل احتيج إلى ظهور المعجز ومعرفة حال المرسل وحكمته .

فان قال قائل : ان كان الأمر كما ذكرتم ، فيجب ان تكون الأخبار الواردة في القرآن الدالة على الله عز وجل وعلى حكمته عبثاً لا فائدة فيها، لأن الاستدلال بها لا يمكن ، ويجب ان يعرف عز وجل بتوحيده وعدله اولاً، ثم يعلم صحتها قيل له: انه عز وجل إنما خاطب بذلك ليبعث السائل على النظر والاستدلال بما ركب في العقول من الأدلة ، او لأنه علم ان المكلف عند سماعه والفكر فيه يكون أقرب إلى الاستدلال عليه منه او لم يسمع ذلك ، فهذه الفائدة تخرج الخطاب من حد العبث .

يبين ذلك ان الداعي منا إلى الله عز وجل متى قصد إلى جاهل به فدعاه ، وعرفه طريقة معرفته ومعرفة توحيده وعدله ، لا يجوز ان يعد عابثاً في دعائه ، ولما لم يصح من المدعو ان يعرفه عز وجل بنفس دعائه دون ان ينظر ويتدبر ، فكذلك القول في كلامه عز وجل، سيما ومن اعتقد في القرآن الكريم قبل ان يعرف الله ، انه كلامه على جهة التقليد ، وانه تعالى لا يجوز ان يكذب، كان ذلك ادعى له إلى النظر من خطاب الداعي الذي لا يعتقد تعظيم حاله ، ولهذه الجملة عدّل الأنبياء عليهم السلام عند مسألة قومهم لهم عن الله عز وجل على ذكر افعاله تعالى من خلق السموات والارضين وغير ذلك ، فان قال قائل ، فيجب ان لا يعلم بالقرآن الحلال والحرام إلا على هذا الوجه قيل له : كذلك نقول ، لانه ما لم يعلم ان المخاطب بالقرآن الكريم لا يجوز أن يكذب في اخبار او يعمل او يأمر بالقبيح او ينهي عن الحسن، لم يصح ان يعرف به الحلال والحرام ، لكن الاحكام يمكن ان تعلم بالقرآن من غير مقدمة إذا كانت المعرفة بالله عز وجل قد تقدمت ، ولا يصح أن يعلم بقوله : (ليس كمثله شيء) من غير تقدم العلم بأنه تعالى

ليس بجسم انه تعالى لا يشبه الأشياء لمــا قدمنا من انه لا يصح ان يعرف الفاعل وحكمته بالفعل الذي يصدر عنه . إذا كان العلم بصحته ووجه دلالته لا بـد من ان يرجع فيـه الى حال الفاعل ، وعلى هـذا الوجه قلنا : ان المعجزات لمـا كانت بمنزلة الاخبار في انها لا يمكن ان يعلم انها صحيحة إلا بعد العلم بحـال الفاعل وحكمته ، لم يمكن ان يستدل بهـا على النبوات من أجاز على الله عز وجل فعل القبيح، وقلنا يجب أن لا نأمن انه تعالى أظهرها على من يدعو الى الضلال والفساد ، ويصد عن الهوى والرشاد [١] .

لماذا المحكم والمتشابه في القرآن الكريم ؟

يقتضي هذا السؤال منا قبل أن ندخل في محاولة الاجابة عليه ان نعرف اولاً معنى (محكم) ومعنى (متشابه) حتى نستطيع ان نتعرف عليهما في سياق الذكر الحكيم .

فالمحكم لغة : مأخوذ من حكمت الدابة وأحكمت ، بمعنى منعت ، والحكم الفصل بين الشيئين فالحاكم يمنع الظـالم ويفصل بـين الخصمين ويميز بين الحق والباطل والصدق والكذب ويقال : حكمت السفيه واحكمته إذا أخذت على يديه وحكمت الدابـة وأحكمتها ، إذا جعلت لها حكمة ، وهي مـا أحاط بالحنك من اللجام لأنها تمنع الفرس عن الاضطراب ومنه : الحكمة لانهـا تمنع صاحبها عما لا يليق واحكام الشيء اتقانه والمحكم المتقن .

وعلى هذه التعاريف فاحكام الكلام هو اتقانه بتمييز الصدق من الكذب في اخبـاره ، ورب العزة سبحانه يصف القرآن الكريم جميعه بهـذا المعنى فيقول سبحانه في أول سورة هود : [**الر ، كتاب احكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير**] .

---

(١) (متشابه القرآن) للقاضي عبد الجبار بن احمد الهمذاني المتوفى سنة ٤١٥ هـ – تحقيق الدكتور عدنان محمد زرزور – القسم الاول دار التراث بالقاهرة صفحات ٤ – ٦ .

أمـا المتشابه لغة فهو مأخوذ من التشابه : وهو ان يشبه أحـد الشيئين الآخر ، ومن هذا المعنى (الشبهة) وهي ألا يتميز احد الشيئين من الآخر لما بينهما من التشابه عيناً كان او معنى .

ويقول الاستاذ الشيخ (منـاع القطان) في كتابه (مباحث في عـلوم القرآن) وتشابه الكلام : هو تماثله وتناسبه بحيث يصدق بعضه بعضاً وقد وصف الله القرآن الكريم كله بأنه متشابه على هذا المعنى فقال : (الله نزل احسن الحديث كتاباً متشابهاً مثاني) فالقرآن كله متشابه اي انه يشبه بعضه بعضاً في الكمال والجودة ويصدق بعضه بعضاً في المعنى ويماثله ، وهذا هو الذي يسميه الشيخ (مناع القطان) التشابه العام وعنده ايضاً ان كلا من المحكم والمتشابه بمعناه لا ينافي الآخر،فالقرآن كله محكم بمعنى(الاتقان) وهو متماثل يصدق بعضه بعضاً، فان الكلام المتقن تتفق معانيه وان اختلفت الفاظه ، فاذا أمر القرآن بأمر لم يأمر بنقيضه في موضع آخر وإنما يأمر به او بنظيره .

هذا .. وينتهي الشيخ القطان إلى تقرير يوجز مـا انتهى اليه علماء علوم القرآن الكريم في المحكم والمتشابه فيقول : المحكم : ما عرف المراد منه ، والمتشابه ما استأثر الله بعلمه ، والمحكم مـــا لا يحتمل إلا وجهاً واحداً ، والمتشابه ما احتمل أوجهاً، والمحكم : ما استقل بنفسه ولم يحتج إلى بيان ، والمتشابه ما لا يستقل بنفسه واحتاج الى بيان يرده .

ومن قبل مثل هذا التقرير الذي انتهى اليه الشيخ (مناع القطان) في كتابه (مباحث في علوم القرآن) كان اللغط الفكري والعقائدي قديماً حول قضية المحكم والمتشابه في آيات الذكر الحكيم قـد قطع شوطاً بعيداً وأخذ جهداً مضنياً ، فبعض العلماء كان يرى ان الذكر الحكيم طالمـا ينطوي على محكم ومتشابه فيصبح بعضه في درجة وبعضه الآخر في درجة أخرى حتى ان الامام القاضي عبد الجبار بن الهمذاني في متشابه القرآن قـد وضع لهـذه

القضية مسألة وقال فيها يجيب بما رآه : ان سأل سائل فقال : أتقولون ان المحكم من القرآن له مزية على المتشابه فيما يدل عليه او لا مزية له؟واسترسل القاضي في تصور السؤال او تصوير حال خصوم القرآن الكريم وتقرير حال الجاهلين به فقال في تتمة السؤال فان قلتم : انهما اي المحكم والمتشابه سواء ، فذلك خلاف الاجماع لأن الأمة تقول : ان المحكم أصل المتشابه ، وان له من الحظ ما ليس للمتشابه ، وكتاب الله عز وجل قد نطق بذلك في قوله تعالى : [**هو الذي أنزل عليه الكتاب منه آيات محكمات وأخر متشابهات**] وان قلتم: انه يدل على وجه لا يدل عليه المتشابه نقضتم الأصل الذي قدمتم الآن لأنكم ذكرتم ان جميع كلامه تعالى سواء في أنه إنما يدل بعد ان يعرف عز وجل انه حكيم ، وإذا كان الأمر كذلك فما الفائدة في الفصل بين المحكم والمتشابه ؟ وهلا دلكم ذلك على فساد هذا الأصل ، قيل له ان هـذا الذي نقوله لا ينقض مـا ذكرناه من الأصل ولا يخرج من الاجماع والكتاب وذلك ان المحكم كالمتشابه من وجه وهو يخالفه من وجـه آخر ، فأما الوجه الذي يتفقان فيه فما هو متفق عليه من ان الاستدلال بهما أجمع لا يمكن إلا بعد معرفة حكمة الفاعل ، وانه لا يجوز ان يختار القبيح ، لأن الوجه الذي له قلنا ذلك لا يميز المحكم من المتشابه ، كما ان خطابه (ص) ، لما لم يمكن ان تعلم صحته إلا بالمعجز ، ولم يميز ذلك بين كلامه وبين المحكم منه حلا محلاً واحداً في هذا الباب .

واما الوجه الذي يختلفان فيه فهو أن المحكم إذا كان في موضوع اللغة او القرينة لا يحتمل إلا الوجه الواحد ، فمتى سمعه من عرف طريقة الخطاب وعلم القرائن أمكنه ان يستدل في الحال على ما يدل عليه وليس كذلك المتشابه، لأنه وان كان من العلماء باللغة ويحمل القرائن فانه يحتاج عند سماعه إلى فكر مبتدأ ونظر ليحمله على الوجه الذي يطابق المحكم او دليل العقل.

ويبين صحة ذلك أنه عز وجل بيّن في المحكم انه أصل للمتشابه فلا بد

ان يكون العلم بالمحكم أسبق ليصح جعله اصلاً له ، ولا يتم ذلك إلا على ما قلناه . فاذا كان المحكم والمتشابه واردين في التوحيد والعدل ، فلا بد من بنائهما على أدلة العقول ، لانه لا يصح ممن لا يعلم انه عز وجل واحد حكيم لا يختار فعل القبيح ، أن يستدل على انه عز وجل بهذه الصفة ، فالمحكم في هذا الوجه كالمتشابه ، وإنما يختلفان في طريقة أخرى وهي ان المخالفين في التوحيد والعدل ، يمكن ان نحاجهم بذكر المحكم ، ونبين مخالفتهم لما أقروا بصحته في الجملة ، ويبعد ذلك في المتشابه .. فاما ان نبين للجاهل بالله تعالى وبحكمته ان الله عز وجل لا يختار فعل القبيح ، وانه لا يشبه الاعراض والاجسام ، والقرآن محكمه ومتشابهه سواء فذلك مما لا يصح ، ولهذه الجملة يجب ان يرتب المحكم والمتشابه جميعاً على أدلة العقول ويحكم بأن ما لا يحتمل إلا ما تقتضيه هذه الجملة ، يجب ان يثبت محكماً ، وما احتمل هذا الوجه وخلافه فهو المتشابه ، فأقوى ما يعلم به الفرق بين المحكم والمتشابه أدلة العقول ، وان كان ربما يقوى ذلك بما يتقدم المتشابه او يتأخر عنه ، لأنه هو الذي يبين أن المراد به ما يقتضيه المحكم ،ومما يبين ان ذلك موضوع اللغة ، يقتضي انه لا كلمة في مواضعتها إلا وهي تحتمل غير ما وضعت له ، فلو لم يرجع إلى أمر لا يحتمل ، لم يصح التفرقة بين المحكم والمتشابه .

وهذه القضية المتناهية في الدقة حول ما يتعلق بكتاب الله عز وجل من حيث وجوب العمل بآياته ، جعلت العلماء في الإسلام يخصصون لها دراسات وبحوث عديدة بعد ان استقر عندهم ان المحكم في آيات الذكر الحكيم ، هو الذي لا يتطرق اليه النقص والاختلاف وان المتشابه ، فهو ما يشبه بعضه بعضاً في الحق والصدق والإعجاز [١] .

---

(١) (معترك الاقران في اعجاز القرآن) للحافظ جلال الدين عبد الرحمن بن ابي بكر السيوطي . تحقيق (علي محمد البجاوي) — القسم الاول ص ١٣٦ — دار الفكر العربي — القاهرة عام ١٩٦٩ .

هـذا .. وقد ذهبوا إلى تعريف المحكم والمتشابه تعريفات عديدة وان كانت بمفاهيم متقاربة،فقد ذهب بعض العلماء كما يقول السيوطي في الاتقان[1] إلى ان عرّف المحكم بأنه : ما عرف المراد منه ، إما بالظهور وإما بالتأويل ، والمتشابه مـــا استأثر الله بعلمه كقيام الساعة ، وخروج الدجال ويأجوج ومأجوج ، والحروف المقطعة في أوائل السور .

وقال الماوردي : المحكم ما لا يحتمل إلا وجهـاً واحداً والمتشابه بخلافه وقيل المحكم ما كان معقول المعنى والمتشابه بخلافه كأعداد الصلوات واختصاص الصيام برمضان دون شعبان ، وقيل المحكم ما استقل بنفسه والمتشابه ما لا يستقل بنفسه إلا برده الى غيره . وقد روي عن عكرمة وقتادة وغيرهما ان المحكم الذي يعمل به ، والمتشابه الذي يؤمن به ولا يعمل به [2] .

واختلف ايضاً ، هل المتشابه ممـا يمكن الاطلاع على علمه او لا يعلمه إلا الله ؟ على قولين في ذلك،منشؤهما الاختلاف في فهم قوله تعالى:[**والراسخون في العلم يقولون**] هل هو معطوف ويقولون حال ، او مبتدأ خبره يقولون، والواو للاستئناف .

وعلى الأول طائفة يسيرة، منهم مجاهد وهو راويه عن ابن عباس، فأخرج ابن المنذر عن طريق مجاهد عن ابن عباس في قوله تعالى : [**وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم**] .. قال أنا مما أعلم تأويله ، وأخرج عبيد بن حميد عن مجاهد في قوله : [**والراسخون في العلم**] قـال يعلمون تأويله ، ويقولون آمنا به [3] .

---

(١) المصدر السابق ص ١٣٦ .

(٢) « « ص ١٣٧ .

(٣) « « ص ١٣٨ .

وأخرج ابن ابي حاتم عن الضحاك قال : الراسخون في العلم يعلمون تأويله ولو لم يعلموا تأويله لم يعلموا ناسخه من منسوخه ، ولا حلاله من حرامه ولا محكمه من متشابهه. واختار هذا القول النووي فقال في شرح مسلم انه الاصح لأنه يبعد ان يخاطب الله عباده بما لا سبيل لاحد من الخلق إلى معرفته .

واخرج ابن مردويه من حديث عمرو بن شعيب عن ابيه عن جدّه عن رسول الله (ص) قال : ان القرآن لم ينزل ليكذب بعضه بعضاً ، فما عرفتم منه فاعلموا به وما تشابه منه فآمنوا به [1] .

هذا .. وللعلماء المشتغلين بعلوم القرآن الكريم من الجهود في محاولاتهم فهم النص القرآني ، ما يعطي الدلالة الواضحة على مدى تأثير كتاب الله تعالى على قلوب المؤمنين ، وما يكشف عن تعلقهم لمحاولة فهمه ، فقد أورد الامام السيوطي في كتابه (معترك الاقران في اعجاز القرآن) للمشابهة اضربا ثلاثة وجعلها كالآتي :

متشابه من جهة اللفظ فقط ، ومن جهة المعنى فقط ومن جهتهما معاً أي اللفظ والمعنى . فالاول ضربان ، احدهما يرجع إلى الالفاظ المفردة اما من جهة الغرابة نحو : اللازب ، وينزفون ، او الاشتراك كاليد والعين .

وثانيهما يرجع إلى جملة الكلام المركب ، وذلك ثلاثة اضرب : ضرب لاختصار الكلام نحو : (وان خفتم ألا تقسطوا في اليتامى ، فانكحوا ما طاب لكم من النساء) . وضرب لبسطه نحو : (ليس كمثله شيء) لأنه لو قيل ليس مثله شيء كان اظهر للسامع وضرب لنظم الكلام نحو : (انزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجاً ، قيما) تقديره (انزل على عبده الكتاب قيما ولم يجعل له عوجاً) .

(١) (معترك الاقران في اعجاز القران) — السيوطي — القسم الاول ص ١٣٩ .

والمتشابه من جهة المعنى أوصاف الله تعالى ، وأوصاف القيامة ، فان تلك الصفات لا تتصور لنا ، إذ كان لا يحصل في نفوسنا صورة مـــا لم نحسه او ليس من جنسه .

والمتشابه من جهتها خمسة اضرب : الاول من جهـة الكمية كالعموم نحو (فاقتلوا) . والثاني من جهة الكيفية ، كالوجوب والندب نحو : (فانكحوا ما طاب لكم من النساء) .

والثالث من جهة الزمان ، فالناسخ والمنسوخ نحو (اتقوا الله حق تقاته).

والرابع من جهة المكان والامور التي نزلت فيها نحو (وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها) . (انمـا النسيء زيادة في الكفر) . فان من لا يعرف عادتهم في الجاهلية يتعذر عليه تفسير هذه الآية .

والخامس من جهة الشروط التي يصح بها الفعل ويفسد ، كشروط الصلاة والنكاح ، وهذه الجملة اذا تصورت علم ان كل مـا ذكره المفسرون في تفسير المتشابه لا يخرج عن هذه التقاسيم .

ثم جميـع المتشابه على ثلاثة اضرب : ضرب لا سبيل إلى الوقوف عليـه كوقت الساعة وخروج الدابة ونحو ذلك .

وضرب للانسان سبيل معرفته كالألفاظ العربية والاحكام المغلقة ، وضرب متردد بين الامرين يختص بمعرفته بعض الراسخين في العلم ويخفي على من دونهم ، وهو المشار اليه بقوله (ص) (لابن عباس) : (اللهم فقهـه في الدين وعلّمه التأويل) .

هذا .. وقد انتهى الامام فخر الدين إلى ان صرف اللفظ عن الراجح الى المرجوح لا بد فيه من دليل منفصل ، وهو اما لفظي واما عقلي ، واللفظي

لا يمكن اعتباره في المسائل الاصولية ، لانه لا يكون قاطعاً لانه موقوف على انتفـاء الاحتمالات العشر المعروفة وانتفاؤها مظنون والوقوف على المظنون مظنون ، والظن لا يكتفي به في الاصول .

واما العقلي فانه يفيد صرف اللفظ عن ظاهرة لكون الظاهر محالاً .

واما اثبات المعنى المراد فـلا يكون بالعقل لان طريق ذلك ترجيح مجاز على مجاز ، وتأويل على تأويل ، وذلك الترجيح لا يمكن الا بالدليل اللفظي ، والدليل اللفظي في الترجيح ضعيف لا يفيد الا الظن ، والظن لا يعوّل عليه في المسائل الاصولية — القطعية — فلهذا اختار الأئمة من السلف ومن الخلف بعد اقامة الدليل القاطع على ان حمل اللفظ على ظاهرة محال ترك الخوض في تفسير التأويل .

هذا هو القرآن الكريم كما انتهى الى المسلمين بآثاره العلمية منذ تركه على الهيئة التي كان عليهـا رسول الله (ص) ، فهل هناك ابسط مجال للمقارنة بين مفارقات وتهافت معظم افكار وقضايا «الكتاب المقدس» بعهديه القديم والجديد التي صيغت على ايدي الاحبار خلال ألفي عام على الاقل ، وبين كل هـذه الضوابط التي لا نظير لها على وجـه الارض والمتصلة بكتاب الله تعالى الذي يحمل بين مقوماته خصائص قدسيته وصيانته وحفظه ، نعتقد انه لا وألف لا ، ومن هنـا فالقرآن الكريم يصبح الكتاب السماوي الوحيد الذي لا يأتيـه الباطل من بين يديه ولا من خلفه لأنـه تنزيل من حكيم حميد ، وهو الحكم الفصل في كل ما يتعلق بتاريخ بني اسرائيل لأنه بنور آياته أضاء للعالم امكان الوقوف والتعرف على سيرة الاطهار مـن خلق الله الذين اصطفاهم واجتباهم وجعلهم قدوة وهداية رحمة منه لخلقه .

وقبل ان ننظر إلى بعض آيات الذكر الحكيم وهي تتناول سيرة وتاريخ

انبياء بني اسرائيل بحكم نظرة الاسلام اليهم على انهم عناصر كريمة اصطفاهم الله تعالى بالنبوة والرسالة الإلهية وجعلهم بعض رسله وأنبيائه للناس ، نحب ان نشير الى قضية طالما رأينا حولها الكثير من الافكار والآراء وتتعلق بموضوع كتاب الله وتاريخ تدوينه واعني بها قضية النسخ في القرآن الكريم وذلك حتى تكتمل الصورة تماماً امام الباحث في كتاب الله الذي قد يتصور أن ما وقع في مصادر تراث بني اسرائيل في العهد القديم وقع في كتاب الله الحكيم ايضاً .

الفصل الثامن

معنى النسخ في القرآن الكريم

يقع النسخ في كلام العرب على عدة وجوه منها قولهم : نسخت الكتاب إذاً نقلت ما فيه إلى كتاب آخر ، فهذا لم يتغير المنسوخ منه ، إنما صار له نظيراً في لفظه ومعناه وهما باقيان .

ومنها قولهم : نسخت الريح الآثار ، إذاً أزالتها فلم يبق منها عوض ، ولا حلت الريح محل الآثار ، بل زالا جميعاً .

ومنها قولهم : نسخت الشمس الظل إذاً أزالته وحلت محله ، وعلى هذه الوجوه في معنى النسخ على لسان العرب ترى في أي وجه وعلى أي معنى يكون (النسخ) الذي ورد ذكره في كتاب الله تعالى ، أو ما الذي يمكن ان نفهمه من النسخ الذي ورد في الذكر الحكيم وعلى ضوء لغة العرب .

وقبل أن نحاول تقرير ما نذهب اليه في هذا الموضوع الجليل ، فإنا نود ان نؤكد : ان الوحي الإلهي من الله تعالى لرسله جميعاً في مجال الإيمان بالله، أي في موضوع توحيد الألوهية له وحده ، والاقرار بالربوبية له سبحانه ، لم يطرأ عليه في رسالة أي رسول أرسله الله وأنزل عليه وحياً أي تغيير او تبديل ، ففي مجال العقيدة الواحدة التي أوحى بها الله إلى أنبيائه ، لا نسخ

ولا تبديل ولا تعديل ولا تغيير فرب العزة يقول في سورة الأنبياء للخاتم محمد ﷺ : [وما أرسلنا من قبلك من رسول الا نوحي اليه انه لا إله إلا أنا فاعبدون] . أما ما تبقى بعد ذلك مما يترتب على هذه العقيدة الموحّدة لرب العالمين، فمطالب كل أمة قد تختلف عن مطالب أختها وما يلائم قوماً في عصر قد لا يلائمهم في عصر آخر (١) .

ويبقى معنا بعد ذلك أن نسأل عن أي ضرب من الوجوه التي أوردناها من العربي في معنى النسخ هو الذي يمكن ان يقرّبنا ويحدد لنا المراد مما ورد ذكره في كتاب الله تعالى ، في منسوخ القرآن الكريم وناسخه .

يقول العلامة المحقق : (أبي محمد مكي بن أبي طالب القيسي) في كتابه (الايضاح لناسخ القرآن ومنسوخه ومعرفة أصوله واختلاف الناس فيه) . من معاني النسخ قول العرب : نسخت الشمس الظل، إذاً أزالته وحلت محله، وهذا المعنى هو الذي عول عليه الجمهور في منسوخ القرآن وناسخه وذلك على ضربين : أحدهما ان يزول حكم الآية المنسوخة بحكم آية أخرى متلوة او بخبر متواتر ، ويبقى لفظ المنسوخة متلواً نحو قوله تعالى في الزواني : [فأمسكوهن في البيوت حتى يتوفاهن الموت ..] الآية .

وقوله تعالى : [واللذان يأتيانها منكم فآذوهما] فأمر فيهما بالسجن والضرب ، ثم نسخ ذلك بالرجم في المحصنين الذي تواتر به الخبر ، والعمل المنسوخ لفظ تلاوته ، وبالجلد مائة في الذكرين المذكورين في سورة النور فهذا مثال ما نسخ حكمه بحكم آخر وبقي لفظه متلواً .

والضرب الثاني أن تزول تلاوة الآية المنسوخة مع زوال حكمها وتحل الثانية محلها في الحكم والتلاوة ، وهذا إنما يؤخذ عن طريق الأخبار الثابتة وذلك نحو ما تواتر النقل عن عائشة رضي الله تعالى عنها انها قالت : « كان

---

(١) (مناع القطان) : مباحث في علوم القرآن ص ٢٣١ .

نحو نزل من القرآن عشر معلومات » تريد يحرمن ، قالت عائشة فنسخت خمس رضعات معلومات يحرمن فتوفى رسول الله ﷺ وهن مما يقرأ من القرآن [1] . فهذا يدل على قول عائشة غريب في الناسخ والمنسوخ ، الناسخ غير متلو والمنسوخ غير متلو ، وحكم الناسخ قائم ولهذا المعنى اختلف في ذلك .. فالعشر رضعات عند مالك وأهل المدينة نسخ لفظهن وحكمهن بقوله : (وأخواتكم من الرضاعة) فرضعة واحدة عندهم تحرّم فهذا قول حسن الناسخ فيه متلو والمنسوخ غير متلو ، وله نظائر كثيرة في الناسخ والمنسوخ ، وليس له على قول عائشة رضي الله عنها نظير فيما علمته [2] ، وأخذ الشافعي بأنه لا يحرّم إلا خمس رضعات على مظاهر الحديث ، وقد روى هذا الحديث عن عائشة ، القاسم بن محمد بن أبي بكر ، وعبدالله بن أبي بكر ، ومحمد بن عمرو بن حزم يرفعانه إلى عائشة ، ورواه يحيى بن سعيد الانصاري ، ولم يذكر فيه يحيى ، فتوفى رسول الله وهن مما يقرأ . وهذا هو الصحيح عند أهل العلم بالأصول ، إذاً لا يجوز النسخ إلا قبل وفاة النبي ﷺ وغير جائز ان يتوفى رسول الله ﷺ وقرآن يتلى ثم يجمع المسلمون على إسقاطه من التلاوة بعده .

هذا هو ما انتهى اليه علماء المسلمين مما وقع في أيديهم من أحاديث وأخبار تعلقت بهذا الموضوع الجليل وما استقروا عليه واتفقوا جميعاً حوله على ضوء ترجيح الروايات الصحيحة على غيرها هو أنه لم يصح أبداً أن وجد قرآن كان يتلى توفى رسول الله ﷺ وفسخ منه شيئاً فما حدث في أمر النسخ هو قبيل وفاة رسول الله ﷺ أو حتى قبل وفاته بفترة غير قصيرة

---

(١) (الايضاح لناسخ القرآن ومنسوخه ومعرفة أصوله واختلاف الناس فيه) : تأليف أبي محمد مكي بن أبي طالب القيسي المتوفى سنة ٤٣٧ هـ تحقيق الدكتور أحمد حسن فرحات — الطبعة الأولى عام ١٣٩٦ هـ — ١٩٧٦ م كلية الشريعة بالرياض جامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية .

(٢) المصدر السابق .

والوحي لما يزل يراجعه ﷺ في أمر القرآن الكريم ما نسخ وما لم ينسخ(١).

(ا) هل يجوز النسخ في القرآن ؟

يقول رب العزة في سورة الرعد : [**يمحو الله ما يشاء ويثبت عنده أم الكتاب**] وابن عباس رضي الله تعالى عنه يقول في معنى هذه الآية : يمحو ما يشاء من أحكام كتابه فينسخه ببدل او غير بدل، ويثبت ما يشاء فلا يمحوه ولا ينسخه (وعنده أم الكتاب) يقول فيهما ابن عباس : عنده ما ينسخ ويبدّل من الآي والأحكام ، وعنده ما لا ينسخ ولا يبدل كل في أم الكتاب وهو اللوح المحفوظ .

هذا .. ويستدل جماعة من العلماء على جواز النسخ في القرآن يقول الله تعالى في سورة الحج : [**وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى ألقي الشيطان في أمنيته،فينسخ الله ما يلقي الشيطان ثم يحكم الله آياته**].

ويدل أيضاً على جواز النسخ في القرآن قوله تعالى في سورة النحل : [**وإذا بدلنا آية مكان آية ، والله أعلم بما ينزل ، قالوا إنما انت مفتر**] فهذا نص ظاهر في جواز زوال حكم آية ووضع أخرى موضعها، وذلك قطعاً قبل وفاة الرسول ﷺ وحين كان الوحي يراجعه .

وهذا في تقرير جماعة العلماء الذين خدموا علوم القرآن ما يؤكد جواز القول بالنسخ في القرآن الكريم حين كان الوحي ينزل على رسول الله ﷺ ، فقول الله تعالى في سورة البقرة : [**ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها**] ما يدل في ظاهر الآية ومباشرتها على جواز النسخ للقرآن بالقرآن ، وكأن الآية تقول كما يذهب مكي بن أبي طالب القيسي: ما نرفع من

---

(١) للاستاذ الدكتور محمد سعيد طنطاوي دراسة مستفيضة ، حول هذا الموضوع الجليل في كتابه (بنو اسرائيل في القرآن والسنة) الجزء الاول ص ٢٠٨ وما بعدها وعند تفسيره لقول الله تعالى : (ما ننسخ من آية او ننسها نأت بخير منها او مثلها) .

حكم آية ونبقي تلاوتها ، او ننسها يا محمد فلا تحفظ تلاوتها فأت بخير منها لكم ، أي نأت بآية أخرى هي أصلح لكم وأسهل في التعبد او نأت بمثلها في العمل وأعظم في الأجر .

هذا..ونود أن نقرر هنا أن علماء علوم القرآن قد انتهوا الى تقسيم النسخ إلى أربعة أقسام :

القسم الأول : نسخ القرآن بالقرآن وفي الآيات التي أوردناها ما يكفي في التدليل على صحة وقوعه ، وهذا القسم من النسخ متفق على وقوعه .

القسم الثاني : نسخ القرآن بالسنة وتحت هذا نوعان [١] :

١ – نسخ القرآن بالسنة الآحادية والجمهور على عدم جوازه ، لأن القرآن متواتر يفيد اليقين والآحاد مظنون ، ولا يصح رفع المعلوم بالمظنون .

٢ – نسخ القرآن بالسنة المتواترة ، وقد أجازه مالك وأبو حنيفة وأحمد في رواية لأن الكل وحي . قال تعالى : [**وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى**] .

وقال تعالى : [**وأنزلنا اليك الذكر لتبين للناس ما أنزل اليهم**] . والنسخ نوع من البيان ، ومنعه الشافعي وأهل الظاهر ، وأحمد في رواية أخرى لقوله تعالى : [**ما ننسخ من آية او ننسها نأت بخير منها او مثلها**] والسنّة ليست خيراً من القرآن .

القسم الثالث : نسخ السنة بالقرآن ، ويجيزه الجمهور ، فالتوجه إلى بيت المقدس كان ثابتاً بالسنّة وليس في القرآن ما يدل عليه ، وقد نسخ بالقرآن في قوله تعالى : [**فولّ وجهك شطر المسجد الحرام**] . ووجوب صوم يوم عاشوراء ، كان ثابتاً بالسنّة ونسخ بقوله تعالى : [**فمن شهد منكم الشهر فليصمه**]

---

(١) (مناع القطان) في كتابه (مباحث في علوم القرآن) ص ٢٣٧ .

ومع هـذا القسم من النسخ الشافعي في إحدى روايتيه وقال : وحيث وقع بالسنّة فمعها قرآن، او بالقرآن فمعه سنّة عاضدة تبين توافق الكتاب والسنّة.

القسم الرابع : نسخ السنّة بالسنّة ، وتحت هذا القسم أربعة أنواع :

١ – نسخ سنّة متواترة بمتواترة .

٢ – نسخ سنّة آحاد بآحاد .

٣ – نسخ سنّة آحاد بمتواترة .

٤ – نسخ سنّة متواترة بآحاد .

والثلاثة الأولى جائزة .

أما النوع الرابع ففيه الخلاف الوارد بالقرآن في النسخ بالسنّة الآحادية ، والجمهور على عدم الجواز .

(ب) ما لا يجوز ان ينسخ من القرآن :

جائز ويجب الايمان به باديء ذي بدء أن الله سبحانه وتعالى ينسخ جميع القرآن بأن يرفعه من صدور عباده ، ويرفعه بغير عوض ، وقد جـاءت في تأييد ذلك أخبار كثيرة عن النبي ﷺ دليلها قول الله تعالى لنبيه عليه السلام في سورة الاسراء : [**ولئن شئنا لنذهبن بالذي أوحينا اليك**] .

وقد كان من ذلك بعضه على ما روي من سورة الاحزاب ، وإنما يؤخذ ما كان من ذلك من طريق الاخبار ، والله سبحانه أعلم بصحتها ، ومما رفع لفظه أن يتـلى وبقي حفظه غير متلو على أنـه قرآن وثبت حكمه بالاجماع (كآية الرجم) ، فالرواية المشهورة أنه كان فيما يتلى : [**الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة**] فرفع رسم ذلـك من المصحف المجمع عليه ، ولم تثبت تلاوته ، وبقي حكمه ولم ينس لفظه .

والذي هو عمدة هذا الباب هو ما يزيل الله – جل ذكره – حكم ويبدله

بغيره من حكم متلو [1] ويبقى المنسوخ متلواً غير معمول بـه ، او يزيـل حكمه ولفظه بحكم آخر متلو وهـذا كله إنمـا يجوز في الاحكام والفرائض والأوامر والنواهي والحدود والعقوبات من أحكام الدنيا .

وأما الذي لا يجوز في حق الله تعالى فهو كل ما أخبرنا الله سبحانه وتعالى ان سيكون ، او كان ، او وعد الله به عباده المؤمنين ، او قص على عباده بعضاً من أخبار الأمم الماضية ، وما نص الله سبحانه عليه من أخبار الجنة والنـــار والحساب والعقاب والبعث والحشر وخلق السماوات والاراضين ، وتخليده الكفار في النار والمؤمنين في الجنة وهذا كله ومثله لا تجوز نسخه لأن الله سبحانه وتعالى يتعالى عن أن يخبر عن الشيء على غير مـا هو به ، وكذلك ما أعلمنا به من صفاته تعالى ، لا يجوز في ذلك كله ان ينسخ ببدل منه . فأما جواز ان ينسخ سبحانه ذلك كله بإزالة حفظه من الصدور ، ونعوذ بالله تعالى من ذالك ، فذلك جائز في قدرته تعالى يفعل ما يشاء ، وصدق رب العالمين حيث يقول لنبيه الخـاتم محمد ﷺ في سورة الاسراء : **[ولئن شئنا لنذهبن بالذي أوحينا اليك ، ثم لا تجد لك به علينا وكيلا ، إلا رحمة من ربك ان فضله كان عليك كبيراً]** .

ويقسم علماء القرآن الناسخ والمنسوخ إلى أقسام ، وبيان أقسام المنسوخ عندهم ستة أقسام :

القسم الأول : مـا رفع الله سبحانه رسمه من كتابه الكريم بغير بـدل منه ، وبقي حفظه في الصدور والاجماع على تلاوته ، على انه قرآن نحو آية الرجم : **[الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة]** .

القسم الثاني : فيما أورده (مكي بن أبي طالب القيسي) : مـا رفع الله

(١) (الايضاح لناسخ القرآن ومنسوخه ومعرفة أصوله واختلاف الناس فيه) لأبي محمد مكي بن أبي طالب القيسي المتوفى سنة ٤٣٧ هـ ص ٥٧ .

حكمه من الآي بحكم آية أخرى ، وكلاهمـا ثابت في المصحف المجمع عليه متلواً، وهذا هو الأكثر في المنسوخ، ولا يكون في الأخبار على ما قدمنا، وتمثيله في آية الزواني المنسوخة بالجلد المجمع عليه في سورة النور كلاهما باق متلو كله .

القسم الثالث : ما فرض العمل به لعله ، ثم زال العمـل به لزوال تلك العلة وبقي ثابتاً متلواً في المصحف نحو قوله تعالى : [**وإن فاتكم شيء من أزواجكم الى الكفار**] ، وقوله تعالى في سورة الممتحنة : [**وآتوهم ما أنفقوا واسألوا ما أنفقتم وليسألوا ما أنفقوا**] ، وقوله تعـالى في سورة الممتحنة ايضاً : [**فعاقبتم فآتوا الذين ذهبت ازواجهم مثل ما أنفقوا**] ، أمروا بذلك كله وفرض عليهم لسبب المهـادنة ، التي كانت بين النبي ﷺ وبين قريش في السنة السادسة من الهجرة في غزوة الحديبية ، فلما زالت المهادنة وزال وقتهـا سقط العمـل بذلك كله ، وبقي اللفظ ثابتـاً متلواً في المصحف .

القسم الرابع : ما رفع الله رسمه وحكمه وزال حفظه من القلوب، وهذا النوع إنما يؤخذ بأخبار الآحاد وذلك نحو ما روى (عاصم بن بهدلة المقري) وكان ثقـة مأموناً عن زر : أنه قـال : قـال لي أبي يا زر إن كانت سورة الاحزاب لتعدل سورة البقرة .

القسم الخامس : ما رفع الله سبحانه رسمه من كتابه فلا يتلى ، وأزال حكمه ولم يرفع حفظه من القلوب ، ومنع الاجماع من تلاوته على أنه قرآن، وهذا ايضاً إنمـا يؤخذ من طريق الاخبار ، على نحو مـا ورد من حديث أم المؤمنين عائشة رضي الله عنهـا في العشر رضعات والخمس ، فالأمة مجمعة على أن حكم العشر غير لازم ولا معمول به عند أحد،وإنما وقع الاختلاف في التحريم برضعة على نص القرآن في قوله في سورة النساء :[**واخوانكم من الرضاعة**] أو بخمس رضعات على قول عائشة أنها نسخت العشر وكانت مما يتلى .

القسم السادس : مـا حصل من مفهوم الخطاب فنسخ بقرآن متلو وبقي المفهوم منه متلواً نحو قوله تعالى [**ولا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى**] فهم من هـذا الخطاب أن السكر في غير قرب الصلاة جائز فنسخ ذلـك المفهوم قوله : [**فاجتنبوه**] إلى قوله (فهل أنتم منتهون فحرّم الخمر والسكر مثل الخمر وبقي المفهوم ذلك منه متلواً قد نسخ ايضاً بما نسخ ما فهم منه فيكون فيه نسخان ، نسخ حكم ظاهر متلو ، ونسخ حكم مـا فهم من متلوه) .

وبقي من المنسوخ قسم سابع وهو نسخ السنّة بالقرآن المتلو .

القسم السابع : نحو مـا نسخ الله من فعل النبي وأصحابه مما كانوا عليه من الكلام في الصلاة فنسخه الله بقوله : [**وقوموا لله قانتين**]ونحو (استغفاره) (ص) لعمه ابي طالب فنسخه الله بقوله : [**مـا كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين**] وهو كثير .

وقد يدخل في هذا نسخ القبلة نحو بيت المقدس على قول من قال أن النبي (ص) صلى اليها باجتهاده لا بنص من الله ، فأما من قال انه (ص) صلى اليها بأمر من الله لـه بدليل قوله تعالى : [**وما جعلنا القبلة التي كنت عليها**] فليس من هـذا النص وهو من الفصل الثاني لأن (الناسخ والمنسوخ متلوان باقيان) .

هذا..وأقسام الناسخ من القرآن يأتي عند علماء القرآن على ثلاثة أقسام :

الاول : أن يكون الناسخ فرضاً نسخ ما كان فرضاً ، ولا يجوز فعل المنسوخ نحو قولـه تعالى : [**والآتي يأتين الفاحشة من نسائكم**] فرض الله فيهـا حبس الزانية حتى تموت او يجعل الله لهـا سبيلاً ثم جعل لها السبيل بالحدود في سورة النور بقوله [**فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة**] فكان الاول فرضاً فنسخه فرض آخر ولا يجوز فعل الاول المنسوخ وكلاهما متلوا .

الثاني : أن يكون الناسخ فرضاً نسخ فرضاً ونحن مخبرون في فعل الاول

وتركه وكلاهما متلو وذلك نحو قوله تعالى [**ان يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين وان يكن منكم مائة يغلبوا الفاً**] ففرض الله على الواحد المؤمن ألا ينهزم لعشرة من المشركين ثم نسخ ذلك بقوله [**فان يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين وان يكن منكم الفاً يغلبوا الفين**] ففرض على الواحد المؤمن ألا ينهزم لأثنين من المشركين فنسخ فرض فرضاً وكلاهما متلو ولو وقف الواحد لعشرة من المشركين فأكثر لجاز فنحن مخيرون في فعل المنسوخ وتركه .

الثالث : أن يكون الناسخ أمراً بترك العمل بالمنسوخ الذي كان فرضاً من غير بدل ونحن مخيرون في فعل المنسوخ وتركه وفعله افضل ذلك كنسخ الله جل ذكره قيام الليل وقد كان فرضاً فنسخه بالامر بالترك تخفيفاً ورفقاً بعباده ونحن مخيرون في قيام الليل وتركه وفعله افضل وأشرف وأعظم أجراً، وقد قيل انه بقي فرضاً على النبي (ص) وحده وقوله (نافلة لك) يرد على هذا ، مع الاجماع على ان لا فرض إلا في خمس صلوات .

وعن ابن عباس : نافلة لك : فرضاً عليك قال : فرض الله ذلك على النبي خاصة ، وقد قيل : ان هذا فرض نسخة ندب — وهو قوله : (فاقرأوا ما تيسر من القرآن) فهذا ندب نسخ فرضاً .

ومنه قوله تعالى : [**احل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم**] .. إلى قوله تعالى : [**وكلوا واشربوا**] فهذا نسخ ما كان فرضاً على من كان قبلنا من ترك الجماع والاكل والشرب ليالي الصوم بعد النوم ، وقد كان فرضه الله علينا بقوله : (كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم) فخفف الله ذلك على المسلمين ونسخه وأباح الوطء والاكل والشرب بعد النوم إلى طلوع الفجر ، ونحن مخيرون في فعل ذلك بعد النوم او تركه .

هذا .. بعض ما جاء عن علماء القرآن في موضوع النسخ وأوجهه وأقسامه وهو كما رأينا لا يقع في ما يتعلق بالاخبار التي ساقها الله لعباده ولا يتعلق

بالعقائد التي تترتب على الايمان بالله تعالى ، وانما هو قد يتعلق ببعض الاحكام والاحوال التي كانت في عصر الوحي ورسول الله (ص) بين ظهراني المسلمين يراجعه الوحي ، ولم تستقر بعد أحوال المسلمين فضلاً عما كانوا يتعرضون له من مواقف وأوضاع قد تقتضي بعض الاحكام التي قد تزول بواعثها ودوافعها وتصبح الحاجة إلى مثل هـذه القواعد غير ملحة او غير ماسة فـكان النسخ يتناولها احياناً ، ولم يقع نسخ في كتاب الله تعالى بعد مراجعة الوحي الإلهي (جبريل الامين) لرسول الله (ص) عام وفاته مرتين متعاقبتين ، والهيئة التي تركهـا رسول الله (ص) الكتاب الله هي كما انتهت الى المسلمين حين كانوا يدونون كتـاب ربهم ، وانعقد الاجماع الاسلامي عصر اصحاب رسول الله وبعد ذلك على انه لم يقع نسخ في كتاب الله بعد وفاة رسول الله (ص) .

(ج) دور رسول الله في المادة القرآنية :

من حكمة الله سبحانه وتعالى ان جعل هـذا الوجود سجلاً عاماً ، اثبت فيه رب العالمين سبحانه كل ما كان وما سيكون الى يوم القيامة .

والقرآن الكريم هو هذا السجل العظيم ، وهو الدستور الاسلامي الوحيد لسعادة الانسانية والأخذ بيدها ، الى كل اسباب الكمال والتقدم ، فضلاً عن السعادة العظيمة بالمعرفة الحقّة لله تعالى من خلال هديه في كتابه الكريم .

ورب العزة يقول في شأن هذا الذكر الحكيم : [**بل هو قران مجيد في لوح محفوظ**] . والمعنى البدهي لهذه الآية الكريمة — والله اعلم — هو ان القرآن الكريم مسجل بكل دلالته وهيئتـه التي بين ايدينا اليوم في علم الله جملة واحدة ، وهذه الآية الكريمة التي وردت في سورة البروج ، تؤكد ببرهان يقيني قاطع ، ان القرآن الكريم مسجل في لوح محفوظ في وقت تعلق بعـلم الله تعالى ، ومع ان اللوح المحفوظ من الغيب الذي نؤمن به ، ولسنا مطالبين وغير مقبول ان يسأل المؤمن عن طبيعة هـذا اللوح ، ولا اين هـو ولا متى كتب فيه ، ولا كيف سجل الذكر الحكيم فيـه لكن الآيات الكريمة التي

تتعلق بهـذا الموضوع الدقيق تؤكد لنا بعد التأكيد على ان القرآن الكريم (قرآن مجيد في لوح محفوظ) أنه تنزل الى السماء الدنيا في ليـلة مباركة من شهر رمضان حيث يقول رب العزة في سورة الدخان : [**إنا أنزلناه في ليلة مباركة إنا كنا منذرين**] .

ويقول سبحانه في سورة القدر : [**إنا أنزلناه في ليلة القدر وما أدراك ما ليلة القدر**] .

ويقول سبحانه في سورة البقرة :[**شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن**].

هذا .. وفي قوله تعالى : [**إنا أنزلناه في ليلة القدر**] ما يشعر بأن مكان اللوح المحفوظ – والله تعالى أعلم – ليس هو في السماء الدنيا التي أنزل اليهـا القرآن في ليلة القدر من شهر رمضان .

والفرق بـين الانزال والتنزيل بالنسبة للقرآن الكريم كما يقـول استاذنا العلامة رحمه الله الشيخ محمد محمود حجازي في رسالة الدكتوراه التي تقدم بها إلى كلية أصول الدين جامعة الأزهر عام ١٩٦٧ : ان التنزيل يختص بالموضع الذي يشير اليه انزاله مفرقـاً مرة بعد الأخرى ، والانزال عـام وعليه قوله تعالى : [**إنا نحن نزّلنا الذكر ... ونزّلناه تنزيلا ... ولو نزّلناه على بعض الاعجم**] (١) .

وحكى الله تعالى عن المنافقين فقال : [**لولا نزلت سورة فاذا أنزلت سورة محكمة وذكر فيها القتال**] ذكر في الأولى (نزّل) وفي الثانية (أنزل)، تنبيهاً إلى أن المنافقين يقترحون أن يـنزل شيئاً فشيئاً من الحث على القتـال ليقولوه ، وإذا أمروا بذلك مرة واحدة تحاشوا منه وعليه جاء قوله : [**إنا أنزلناه في ليلة مباركة**] وقوله تعالى :[**إنا أنزلناه في ليلة القدر**] لأنه نزل

---

(١) (دكتور محمد محمود حجازي): (الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم) دار الكتب الحديثة – القاهرة عام ١٩٧٠ – الطبعة الأولى ص ٧٠ .

جملة واحدة الى السماء الدنيا ، والنزول بمعنى الهبوط من علو الى أسفل ، والانتقال من مكان إلى مكان ، لا يتأتيان في جانب القرآن لأنهما يستلزمان الحركة والجسمية والقرآن الكريم ليس كذلك ، إذ هو بالمعنى الشرعي العام يطلق على الكلام المعجز المنزّل على النبي محمد ﷺ ، وهو في عرف المتكلمين يطلق على الصفة القديمة باعتبار تعلقها بالكلمات النفسية القديمة من أول سورة الحمد إلى آخر سورة الناس ، ويطلق على تلك الكلمات أيضاً ، وليس شيئاً من هذه المعاني بجسم حتى يهبط من أعلى إلى أسفل ، او ينتقل من مكان ويحل في آخر ، لذلك كان وصف القرآن بالنزول وصفاً مجازياً باعتبار المعاني .

وهنا سؤال هو جزء من حملة اللغط الذي أثاره الحاقدون على إعجاز القرآن عن القدماء والمحدثين ، ولعله هو السؤال الذي كان وراء أن نخصص هذا الباب الطويل في علوم القرآن لنؤكد به ونقرر على ضوء ما انتهى اليه علماء الإسلام وهو أن القرآن الكريم ليس كغيره من الكتب التي سبقته بل ظل كما تركه رسول الله ﷺ وذلك حتى يكون حكمه على التراث الاسرائيلي وعلى غيره هو الحكم الذي لا راد له وقوله هو القول الفصل الذي لا معقّب له ، وأعني بذلك السؤال الذي كان وراء ما قصدنا اليه من تخصيص هذا الباب الدراسي لعلوم القرآن والذي كان وراء كثير من المغالطات واللغط الذي أثاره الحاقدون على كتاب ربنا وأعني بهذا السؤال ، ذلك الاستفهام المغالط والآثم وهو : ما دور الرسول محمد ﷺ في صنع المادة القرآنية وإذا جاز ان نصوغ السؤال بلغة أكرم وبتعبير أفضل فمن الممكن ان يكون السؤال على الوجه التالي : هل نزل القرآن الكريم على محمد ﷺ بلفظه ومعناه ؟ أم بمعناه فقط ؟ وهنا يجب ان نبادر ونقرر بادىء ذي بدء ان القرآن الكريم هو الكتاب الوحيد الذي ثبتت عصمته بكل الدلائل والبراهين التاريخية والعلمية التي قدمها للمعاندين والكافرين آية وبرهاناً على صدق وعصمة وقداسة الوحي الإلهي في كتاب الله تعالى ، ولسنا في معرض الذي يتناول براهين عصمة القرآن الكريم بالتفصيل ، ففيما كتبه علماء علوم القرآن

في هذا الموضوع ما يكفي ، وما أشرنا اليه في الصفحات الماضية ما قد يغني هنا ، لكننا أردنا بهذه الاشارة ان نزول القرآن الكريم على النبي محمد ﷺ بلفظه ومعناه بواسطة الروح الأمين جبريل قـد ثبت بالتواتر الذي لا يقبـل جدلاً ولا يشك فيه للحظة إلا عقل قد تعطل وضل ورب العزة يقرر ببرهان قـاطع ان القرآن الكريم كلامـه الذي يتلى ويسمع حيث يقول سبحانه في سورة الجاثية : [**ويل لكل أفـــاك أثيم يسمع آيات الله تتلى عليه ثم يصر مستكبراً كأن لم يسمعها**] فآيات الله التي تتلى لا يمكن لعاقل ان يتصور انها معاني ألفاظها ودلالتها من صنع بشر .

ورب العالمين يقول في سورة براءة ، وهو يخاطب رسوله المصطفى ﷺ بشأن وضع قاعدة من قواعد الحرب الاسلامية : [**وان أحداً من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله**] ولا يمكن لعاقل ايضـاً ان يتصور ان (كلام الله) الـذي يسمع وفي الوقت نفسه يسمعه كافر يمكن ان يكون المعنى من عند الله واللفظ من عند رسول الله (ص) ، او يكون المعنى من عند الله تعالى واللفظ من عند جبريل الأمين وهو ملك ولغته — والله أعلم — ليست بالقطع هي اللغة العربية فيكون حينئذ لو صاغ المعنى الذي القاه الله سبحانه اليه لينقله إلى رسول الله (ص) بلغته العربية في حاجة الى معجزة ، يخلقها الله تعالى في جبريل ليوحي الى الرسول المعاني التي تلقاها من ربه بلغة عربية ،او ان يكون الله تعالى قد أعطاه أي جبريل قدرة تعلم اللغة العربية ، وفي هـذا مـا فيه من حجب النبي (ص) وتشريفه باصطفاء الله له في تلقي القرآن الكريم بلفظه ومعناه من ربه تعالى مـا يجعل منزلة ومكانة جبريل من الله تعالى أفضل كثيراً من رسول الله (ص) ، وهذا ما لا يساعد القرآن الكريم على تصوّره او فهمه وبالتالي قبوله ، ورب العزة يقول لرسوله (ص) في سورة النمل : [**وانك لتلقى القرآن من لدن حكيم عليم**] فـاذا كانت هذه الآية الكريمة تؤكد لنا ان القرآن الكريم يتلقاه الرسول من لدن حكيم عليم ، فكيف يتصور انه بالمعنى دون اللفظ ، ثم وإذا كان الأمر كذلك أي

انه كان (ص) يتلقى القرآن بصياغة جبريل ، او بالمعنى الذي يلقيه اليه من الله ثم يتولى هو (ص) أمر صياغته ، فلِمَ كل هذا الذي كان الرسول يتعرض له في حالة تلقي الوحي ، ولِمَ كانت عجلة الرسول وحرصه الشديد على ان يحفظ ما يلقى اليه ، ثم يقوم بتحفيظه لأصحابه وتدوينه في سجلات ، رب العزة يحسم هذه القضية فيما يقوله المصطفى (ص) في سورة القيامة : [**لا تحرّك به لسانك لتعجل به إن علينا جمعه وقرآنه ، فاذا قرأناه فاتبع قرآنه ، ثم ان علينا بيانه**] أليس في هذه الآية وحدها أكبر برهان من الله تعالى على ان جمع القرآن في قلب النبي وقراءته على لسانه ، إنما كانت تتم بارادة الله القائل لنبيه : [**لا تحرّك به لسانك لتعجل به ، إن علينا جمعه وقرآنه**].

هذا .. ويسجل القرآن الكريم واقعة جرت بين رسول الله (ص) وبين مجموعة من الكافرين ، دخلوا في مراوغة ملتوية مع رسول الله (ص) كشف الله بهـا في برهـان قاطع على ان رسول الله (ص) لم يكن له أي دور في صياغة اللفظ القرآني ولم يكن (ص) يملك ان يتصرف في النص الذي أوحاه الله اليه ، يقول تعالى في سورة يونس : [**واذا تتلى عليهم آياتنا بيّنات قال الذين لا يرجون لقاءنا ائت بقرآن غير هذا او بدّله ، قل ما يكون لي ان أبدله من تلقاء نفسي ، ان اتبع إلا ما يوحى إليّ**] . وفي هـذه الآية الكريمة ما يقطع وباليقين بأن محمداً (ص) لم يكن يملك من أمر اللفظ القرآني تبديلاً او تعديلا او تغييراً وإذا كان كذلك فهو باليقين لم يكن له (ص) أي دور في صياغة اللفظ القرآني بل هو كما قـال عنه ربـه في سورة النمل : [**وانك لتلقى القرآن من لدن حكيم عليم**] .

هذا .. ومما يجدر ذكره هنا في التدليل على ان رسول الله (ص) ليس له أمام النص القرآني الـذي أوحى اليـه أي دور من حيث صياغة اللفظ ونصه تلك الواقعة الشهيرة في غزوة (تبوك) حين استأذن جمـاعة من المسلمين في التخلف عن الغزوة وأبدوا أعذاراً ، وكان منهم من انتحل هذه الاعذار من المنافقين ، وأذن لهم الرسول (ص) فنزل القرآن الكريم معاتباً

له على ما ذهب اليه : [**عفا الله عنك لم أذنت لهم حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين**] ولو كان هـذا العتاب صادراً عن وجدانه تعبيراً عن ندمه حين تبين له خطأ رأيه لما أعلنه عن نفسه بهذا التعنيف الشديد والعتاب القاسي [١] .

ومن الدلائل التي ارتبطت بتاريخ القرآن الكريم ، وتؤكد أن القرآن كتاب تميز بهذه الخاصية الفريدة وهي انه بلفظه ومعناه كلام رب العالمين وانه بالهيئة التي هو عليها لا دخل لبشر فيها ، وهذا هو سر تلك المناعة العظيمة التي وقف بها القرآن الكريم طوال كل هذا التاريخ منذ أنزله الله على قلب النبي محمد ﷺ وهو بعصمته وقدسيته في وجه كل جهود العدوان التي ابتلى بها المسلمون ، ولم تنل منه أطماع وأحقاد أعداء الاسلام ، وحين رصد اعداء الاسلام في القديم والحديث الاموال وانشأوا المؤسسات والمدارس وزجوا برجال منهم في قلب المجتمع الاسلامي بهدف العبث بكتاب الله او النيل منه او التشكيك في وحدة موضوعه وعصمة نصه وطهارة مضمونه لم تنل منه كل هذه الجهود شيئاً ، ولم يتعرض لما تعرضت له اسفار وكتب الاديان السابقة بل ظل كما تركه لنا رسول الله ﷺ وعلى هيئته دون تبديل او تعديل او حذف او اضافة ، وكيف يتعرض لمثل هذا ورب العزة قد حدد مستقبل هذا الكتاب الكريم في الحياة ما دامت الحياة والى ان يقوم الناس لرب العالمين حيث قال عنه سبحانه في محكم الذكر : [**انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون**] .

ومن هنا فيصبح حكمه هو الحكم وقوله هو القول على كل ما سبقه من كتب وما يمكن ان يكون متصلاً بالعقيدة او بالايمان .

---

(١) (مناع القطان) في كتابه (مباحث في علوم القرآن) مؤسسة الرسالة بيروت — الطبعة الرابعة سنة ١٣٩٦ هـ ١٩٧٦ م ص ٤٢ .

الباب الثاني

المنهج القرآني في الحديث عن بني اسرائيل

مقدمة :

حظي بنو اسرائيل في القرآن الكريم بنصيب وافر من الاحاطة والشمول لكافة ما يتعلق بالعقيدة الإلهية ، او بوظيفة الرسالة الدينية بين الناس ، كما استهدف منهجه الكشف عن بيئة الرسالة ونوعية المؤمنين بها من بني اسرائيل وموقف المعاندين او المكابرين لها .

وكان من المنطقي والمعقول ان القرآن الكريم ، وهو كتاب الله الأتم والذي ستنتقل به النبوة والرسالة الدينية على يد نبي الاسلام محمد (ص) من بيت اسحق ويعقوب ، أي من بيت اسرائيل بعد مطاف طويل بدأ بأبناء يعقوب وانتهى بالسيد المسيح (عيسى بن مريم) إلى بيت اسماعيل في عمومية وشمولية لهذا الدين الجديد ، على يد العرب الذين تعلقت بهم مشيئة الله ان يكونوا بالإسلام أداة الرسالة الخاتمة ، أقول كان من المنطقي ان يقص القرآن الكريم على رسول الله (ص) كل مـا يمكن ان يعـاون في تفهم رسالة الله الخاتمة إلى الناس جميعاً ، ومن هنا كان الخبر القرآني في كل مـــا يتعلق بالتاريخ الديني والسياسي لبني اسرائيل فضـلاً عن خـبره فيما انتهوا اليه من أمر العقيـدة الدينية ونظرتهم إلى الأوامر الإلهيـة خـبراً مستفيضاً يمتلىء بالدرس والعظة فضلاً عن تمييزه الحق من الباطل والخبيث من الطيب .

ولما كان بنو اسرائيل قطاعاً من البشر مستهدفاً من الرسالة المحمدية بحكم عموميتها ودعوتها للناس جميعـاً بأن ينضووا تحت لواء عقيدة التوحيد التي

قامت عليها وبأن يؤمنوا بالنهج الذي جاء به الإسلام وطهّر به كل العقائد التي شابهـا فكر الصنم والوثن ومـا يتعلق بفكر الصنم والوثن من رموز وطقوس كما هو الشأن في منهج ومعطيات أسفار العهد القديم ، ولما كانت مشيئة الله تستهدف بالرسالة الدينية العون الإلهي للبشر من خـلال النماذج المختارة من الأنبياء والمرسلين، فان النهج القرآني قد راح وفي تفصيل موسّع وقصد بارز ، أن يكشف للمستقبل الإنساني عن نوعية وأنماط الذين استجابوا والذين رفضوا للعون الإلهي في امكان ترشيد الإنسانية وترقيهـا نحو الأمثـل والأكمل متخلصة من أسر الغرائز وسيطرتها، ومن هنا أفاض القرآن الكريم بالحديث عن بني اسرائيل في أطوار العقيدة الإلهية التي آمنوا بها وفي أطوار النبوة والرسالة الإلهية باعتبار ان الرسالة الإلهية في بيت اسرائيل لم يستجب لها فترة طويلة من الزمن ولم تتمكن من قلوبهم ولم تستثمر أهدافها المرجوة في الحق والخير والعدل في عواطفهم او مجتمعهم ، ولم يمض على مسارها بضع عشرات من السنين ، وإذا بكل مقررات العقيدة الإلهية على يد صفوة من أنبياء الله ورسله في اسرائيل قد تلاشت ولم تعد ملامح قضية التوحيد يمكن لمتطهر او ناسك على طريق الحق في اتجاه رب العالمين ان يجد لهـا في الواقع اليومي أثراً او ان يستشرف لها في الأفق مستقبلاً .

ومن المعجز حقاً ان القرآن الكريم بعد ان وجه الدعوة الإلهية في الإيمان الحق إلى بني اسرائيل أبان عصر الدعوة الإسلامية مفترضاً ان فيهم بقية من دين ، وان ما بين ايديهم فيه بعض الحق والذي يتممه الإسلام ويكمله، انتظر فترة معقولة للحوار والدرس والمراجعة ، ويتمثل ذلك في الفترة التي أسلم فيها بعض رجال اليهود وقياداتهم لكن الكهانة اليهودية استطاعت ان تجعل الرأي العام والأغلب مضللاً ولذا كان الرد بالرفض والمقاومة لدعوة الإسلام ، وانتقـل الرفض من جانب اليهـود إلى المطاردة والتكذيب لمـا جـاء به الوحي الإلهي على قلب محمد (ص) ، ثم الدخول في مراوغات ومساومات حول العقيدة الدينية في الاسلام القائمة على (التوحيد) لله رب العالمين، ومن

هنـا استحضر القرآن الكريم للإنسانية والمؤمنين على وجـه الخصوص كل تجارب بني اسرائيل في النبوة والرسالة الإلهية ، وأبان عن موقفهم التقليدي الذي ألفوه والمقاوم لكل التزامات الإنسانية الكاملة لعقيدة الإيمان بالله رب العالمين ، وكشف القرآن في نهـاية المطاف عن فشل بيت اسرائيل في حمـل الميراث الإلهي وتداوله في الدعوة له او حفظه في القلوب والصدور، وأخذ القرآن الكريم يقص البداية التاريخية القديمة التي منّ الله فيها عليهم بالنبوة والرسالة ، ثم أخـــذ يفصل في قضايا الحوار والنزاع الذي أثاره اليهود أثر الرفض الذي اتخذوه من الإسلام ونبيه عليه الصلاة والسلام ، وتمثل ذلك في حديث القرآن عن العديد من أنباء وأحداث بني اسرائيل، فضلاً عن تناوله بالتطهير والتكريم لسيرة مجموعـة ضخمة من أنبيـاء بني اسرائيل بغير مـا تداولت سيرتهم كتب وأسفار صنعها كهّان وأحبار بني اسرائيل فيما روت عنهم وسجلت أسفار التراث الاسرائيلي في العهد القديم .

الفصل الأول

النبي ابراهيم عليه السلام في القرآن الكريم

قبل ان يذكر القرآن الكريم نداء الله تعالى لبني اسرائيل ان يذكروا أنعم الله عليهم ، وان يتقوا ويخشوا يوماً لا تجزى نفس عن نفس شيئاً في قوله تعالى : [**يا بني اسرائيل اذكروا نعمتي التي انعمت عليكم واني فضلتكم على العالمين، واتقوا يوماً لا تجزى نفس عن نفس شيئاً ولا يقبل منها عدل ولا تنفعها شفاعة ولا هم ينصرون**] كان الذكر الحكيم قد قص من سيرة أبي الأنبياء عليه السلام ان الله سبحانه ابتلاه أي كلفه بأمور كان فيها ابراهيم عليه السلام نعم الذي أوفى لربه ما ابتلاه به او كلمه به اياه يقول عنه رب العزة : [**وابراهيم الذي وفى**] بعد ان ذكر سبحانه انه ابتلاه بكلمات فقال تعالى في شأنها : [**وإذ ابتلى ابراهيم ربه بكلمات فأتمهن قال اني جاعلك للناس إماماً قال ومن ذريتي قال لا ينال عهدي الظالمين**] [1] . وفي هذه الآية كما يقول الإمام البيضاوي في كتابه (أنوار التنزيل وأسرار التأويل) اجابة إلى ملتمس ابراهيم وتنبيه على انه قد يكون من ذريته ظلمه وانهم لا ينالون

---

(١) سورة البقرة ، الآية ١٢٤ .

الإمامة لأنها أمانة من الله تعالى وعهد ، والظالم لا يصلح لهـا ، وانما ينالهـا البررة الاتقياء منهم . وفيه دليل على عصمة الانبياء من الكبائر قبل البعثة وان الفاسق لا يصلح للإمامة [1] انتهى .

وعند هذه البداية القرآنية المتعلقة بأبي الأنبياء عليه السلام يلمح القرآن الكريم بعد ذلـك إلى رحلة الحجاز التي قام بها ورفع القواعد من بيت الله الحرام ، هـذه الرحلة المهمة جداً في حياة أبي الأنبياء لأنهـا متعلقة ببناء بيت تقوم العقيدة فيـه على التوحيد لله رب العالمين ، قد أهملهـا كما رأينا كتّاب العهد القديم ولم يذكروها مع انهم كما تناولنا منهجهم قد تناولوا أموراً كثيرة مفتراة على أبي الأنبياء بشيء من التفصيل ، ورب العزة يقول هنا في محكم التنزيل :

[وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمناً واتخذوا من مقام ابراهيم مصلى وعهدنا الى ابراهيم واسماعيل ان طهرا بيتي للطائفين والعاكفين والركع السجود] [2] وعند قوله تعالى : **[واتخذوا من مقام ابراهيم مصلى]** فيه دلالة مباشرة وصريحة على الأثر الديني الذي تركه ابراهيم حول بيت الله الحرام ، والخطاب في قوله تعـالى (واتخذوا) لأمـة محمـد (ص) وهو أمر استحباب ومقام ابراهيم هو الحجر الذي فيه أثر قدمه او الموضع الذي كان فيه الحجر حين قام عليه ودعا الناس الى الحج او رفع بناء الحج بالحجر وهو موضعه اليوم . وفي هذا روي انه عليه الصلاة والسلام أخذ بيد عمر رضي الله عنه وقال : هذا مقام ابراهيم ولما فرغ من طوافه عمد الى مقـام ابراهيم فصلى ركعتين خلفه وقرأ قوله تعالى : **[واتخذوا من مقام ابراهيم مصلى]** .

هذا .. ويؤكد القرآن الكريم صلة أبي الأنبياء عليه السلام بأرض الحجاز في جزيرة العرب ومن قلب مكة حين ابتنى بيتاً لله ودعا ربه فيما قال عنه ربه

---

(١) (أنوار التنزيل وأسرار التأويل): ناصر الدين أبي سعيد عبد بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي ، دار الجيل بيروت المجلد الأول ص ١٨٧ .

(٢) سورة البقرة ، الآية ١٢٤ .

في سورة البقرة : [**وإذ قال ابراهيم ربي اجعل هذا البلد آمناً وارزق اهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر ، وقال من كفر فأمتعه قليلاً ثم اضطره الى عذاب النار وبئس المصير**] [1] . ثم يؤكد القرآن الكريم رحلة ابراهيم إلى مكة وقيامه ببناء بيت الله الحرام ورفعه القواعد من البيت، يعاونه في ذلك ابنه اسماعيل الذي أغفل العهد القديم سيرته وسيرة ابنائه ، ولم يشر إلى رحلته مع أبيه إلى مكه وذلك في قول الله تعالى : [**وإذ يرفع ابراهيم القواعد من البيت واساعيل ربنا تقبل منا انك انت السميع العليم**] [2] ويحسم القرآن الكريم قضية حقيقة انتماء ابراهيم ، وانه في مجال النبوة ووظيفة الرسالة الدينية من قبل الله بين مناس ، كان مسلماً ولم يكن من المشركين ، وفي مجال ردّه على مفتريات التوراة والانجيل بعد تحريفهما والباس الحق بالباطل فيهما ، كما هو الحال في سيرته ﷺ بين أسفار التراث الاسرائيلي في العهد القديم التي تناولناها بالدراسة والنقد يدحض القرآن الكريم هذه المفتريات وفي أدب بليغ يتفق وعصمة الوحي الإلهي في كتاب الله حتى مع خصوم الحق والخير يقول رب العزة في سورة آل عمران : [**يا أهل الكتاب لِمَ تحاجون في ابراهيم وما أنزلت التوراة والانجيل إلا من بعده أفلا تعقلون،ها أنتم هؤلاء حاججتم فيما لكم به علم فلِمَ تحاجون فيما ليس لكم به علم والله يعلم وانتم لا تعلمون، ما كان ابراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنفياً مسلماً وما كان من المشركين**] [3] .

ثم يتابع القرآن الكريم هذا القول الفصل في حقيقة انتماء ابراهيم إلى دين الله الحق وانه بهذا الدين الحق لا تصبح دعوته ميراثاً عنصرياً يتداوله الأبناء

---

(١) سورة البقرة ، الآية ١٢٦ .
(٢) » » » ١٢٧ .
(٣) سورة آل عمران ، الآيات ٦٥ — ٦٧ .

عن الآباء [١] حتى ولو تجاوزوا في ذلك كل ضوابط الإيمان التي تحدد صلة العبد بربه ، في منهج يقوم على الحق والخير والأمن ، بـل يقرر القرآن ان الجدير بالميراث وبدعوى علاقته بابراهيم هم الذين آمنوا بما كان عليه ابراهيم من دين حق وذلك من خلال الإيمان بمحمد عليه الصلاة والسلام . يقول رب العزة في سورة (آل عمران) بعد ان رفض محاجة اليهود في ابراهيم : [**ان أولي الناس بابراهيم للذين اتبعوه وهذا النبي والذين آمنوا والله ولي المؤمنين**].

هذا .. ويقرر القرآن الكريم أن دين ابراهيم عليه السلام يقوم على الاسلام والاحسان لله ، وهو دين بلغ فيه ابراهيم في علاقته بالله أن جعله الله سبحانه وتعالى في مقام التكريم له والنعمة عليـه خليلاً له ، وساق ذلـك في عبارة للناس دونهـا كل اساليب التكريم والنعم التي اسبغهـا الله على عباده . يقول تعالى في سورة النساء [**ومن أحسن ديناً ممن أسلم وجهه لله وهـــو محسن واتبع ملة ابراهيم حنيفاً ، واتخذ الله ابراهيم خليلاً**] فهو هنا مسلم وجهه لله ومحسن وخليل لله ، وليس كما صورته سيرة العهد القديم بالصورة التي انهاها الينا كتاب التراث الاسرائيلي والتي تتمثل في رجل يخاف الموت في رحلاته ، ويخشى مغبّة الصدق ، ويترك زوجته لرجل هنا ورجل هناك ولكنه هنـا نبي أنبأه الله وشرّفه بمسؤولية النبوة يملك القدرة التي بها يستطيع ان يحاج خصومه من خلال عصمـة النبوة التي منحها الله له ، وفي مقام تناول الذكر الحكيم لسيرة ابي الانبياء يرينا اياه في أمسه ويومه وغده ، فبالأمس القريب الذي كان في حياة ابي الانبياء حين ابتدأت الدعوة الى الله بين قومـه وحين رفضوا الهداية حاجهم ببراهين الله وآياتـه ودلالاته في الكون ، وسجلها الله تعالى لابراهيم معياراً في التعرف عليه وبأنه عليه السلام كان يملك الحجـة ويحابه

---

(١) (الدكتور محمد سيد طنطاوي) في كتابه (بنو اسرائيل في القرآن والسنة الجزء الأول ، الطبعة الأولى عام ١٩٦٨ ص ٢٠٣) .

المواقف ولا يهرب في وجه الصعاب يقول تعالى في سورة الانعام : [**وتلك حجتنا آتيناها ابراهيم على قومه نرفع درجات من نشاء ان ربك حكيم عليم**].

ولما لم يكن كما أخبر القرآن الكريم والد ابي الانبياء ابراهيم عليه السلام وفياً مع ابنـه ، كان ابراهيم في دين الله شجاعاً تبرأ من ابيه ، ولم يعرف في ذلك ضعفـاً او حوراً ، يقول رب العزة في سورة التوبة : [**ومـا كان استغفار ابراهيم لابيـه الا عن موعدة وعدها اياه ، فلمـا تبين له انـه عدو الله تبرأ منه ان ابراهيم لأواه حليم**] . وقد فعل ابراهيم عليه السلام ما فعله مع ابيه لانه كان صديقاً نبياً ، لايعرف الكذب ولا المراوغة اياً كانت المواقف التي تقتضي ذلك كما حاول كاتب العهد القديم ان يزيفها على ابي الانبياء ولذا يسجل رب العزة في كتابـه الكريم عن ابراهيم عليه السلام هـذه الصفة الكريمـة التي تتفق وجلال النبوة ، وكأنه سبحانه يرد بهـا على من نسبوا اليه (ص) غير ذلك من المفتريات حيث يقول رب العزة في سورة النجم : [**وابراهيم الذي وفى**]. وحيث يقول سبحانه في سورة مريم : [**واذكر في الكتاب ابراهيم انه كان صديقاً نبيا**] اذ قال لابيه يا أبت لم تعبد مـا لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئاً .

ولقد كان نبي الله عليه السلام مع قومه ومع ابيه في غاية الحسم يبلغ رسالة ربه رافضاً كل دروب العبادة الوثنية التي كانت سائدة في عصره ، وتحدى امـة وحكامها في عقيدتهم التي كانوا عليهـا بعيدين عن رب العالمين ، ولم يخش في الله لومة لائم بل كان نبيـاً شجاعاً جابـه كل المحن والصعوبات التي اعترضت طريقه وهو رابض الجأش قوي العزيمة ولم يكن كما حاول كاتب سفر التكوين الذي لم ير نبي الله الا في مواقف متخاذلة غير صادقـة يستحيل على نبي يبلغ عن ربه ان يقفها مع خصومه او ان يقع فيها . يكشف رب العزة في سورة الانعام وهو يبرز شجاعة وصدق ذلك النبي العظيم ليرد بهذه السورة على كل جوانب الخطيئة والاثم والمعصية التي لم ير كاتب الاسفار الا ان يلصقهـا بأبي

الانبياء : [**واذ قال ابراهيم لابيه آزر أتتخذ أصناماً آلهة اني اراك وقومك في ضلال مبين**] (١) .

وحين حاجه قومه قال لهم كما عبر رب العزة عنه مؤكداً شجاعته وجرأته في سبيل دعوة الله المعاني المفتقدة تماماً بين سياق اخبار العهد القديم وهو يتناول سيرة ابي الانبياء يقول عنه رب العالمين في سورة الانعام : [**وحاجه قومه قال أتحاجوني في الله وقد هدان ولا أخاف ما تشركون به الا ان يشاء ربي وسع ربي كل شيء علما أفلا تتذكرون**] (٢) . وهذا الموقف الشجاع الابي كان يقتضي ان يكون ابراهيم عليه السلام قد منح من ربه كل الصلاحيات وزود بالاستعدادات التي يجابه بها عقلاً وروحاً وديناً كل ما يمكن ان يكون من ردود الافعال ضده، ولذا فرب العالمين يقول عنه في سورة الانبياء [**ولقد آتينا ابراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين ، اذ قال لابيه وقومه ما هذه التماثيل التي انتم لها عاكفون ، قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين قال لقد كنتم انتم وآباؤكم في ضلال مبين**] (٣) . هذا ويذكر القرآن الكريم ان نبي الله بعد ان دخل في تلك المحاجة مع قومه تهددهم وتوعدهم وقال لهم كما قال رب العزة في سورة الانبياء : [**وتالله لاكيدن اصنامكم بعد ان تولوا مدبرين فجعلهم جذاذاً الا كبيراً لهم لعلهم اليه يرجعون**] (٤) . هذا هو نبي الله ابراهيم في بعض ملامحه المشرقة والمضيئة التي أثارها الاسلام بعد ان كانت سيرة نبي الله علاها تراكم الاثم الذي حمله كتاب العهد القديم على اكتافهم وخلعوه على نبي الله عليه السلام .

هذا .. وامر انبياء الله في القرآن الكريم هو بذلك المعيار الكريم الذي تناول به سيرة ابي الانبياء عليه السلام .

---

(١) سورة الانعام ، الآية ٧٣ .

(٢) سورة الانعام ، الآية ٨٠ .

(٣) سورة الانبياء ، الايات ٥١ – ٥٤ .

(٤) سورة الانبياء ، الاية ٥٧ .

كذلك امر ابناء ابراهيم في القرآن الكريم هو مثل امره عليه السلام ، فبعد ان دنّس سيرتهم كاتب العهد القديم حين تناول سيرتهم بكل صور الاثم والمفاسد التي وقع فيها الشعب الاسرائيلي في مراحل سبيه وأسره ، ثم راح الكتاب والقصاص الذين دونوا اسفار العهد القديم يخلعون هذه المآثم والمفاسد على انبياء الله على امل منهم ان يجد الشعب الذي قطع بالخطيئة كل صلة له بربه في نماذج الخطيئة التي امامه والمنسوبة الى انبياء الله في العهد القديم ، املا له ومنفذاً بعد ان ملأه اليأس بسبب الموبقات والمخازي التي قطعوا بسببها كل صلة لهم بربهم .

رب العزة في القرآن الكريم ينكر عليهم بعد ان وقعوا فيما وقعوا فيه ، وبعد ان فقدوا كل صلة لهم بربهم ان يدعوا انهم على علاقة بدين ابراهيم وابنائه ، او انهم أهلهم وأبناؤهم وأصحاب ميراثهم فيما يقولونه وفيما يدعونه عن هذا الميراث من ظلم وإثم وعدوان وخطيئة سجلوها على أنفسهم في تراث دينهم وتاريخهم في كتب العهد القديم .

يقول رب العزة في سورة البقرة[1]. [**أم تقولون ان ابراهيم واسماعيل واسحق ويعقوب والاسباط ، كانوا يهوداً او نصارى قل أأنتم أعلم أم الله ومن أظلم ممن كتم شهادة عنده من الله وما الله بغافل عما تعملون**] .

هذا ويطالبهم القرآن الكريم بأن يؤمنوا بما أنزل على ابراهيم واسماعيل واسحق ويعقوب والأسباط فيقول تعالى في سورة البقرة : [**قولوا آمنا بالله وما أنزل الينا وما أنزل الى ابراهيم واسماعيل واسحق ويعقوب والاسباط وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون**] [2] فهؤلا الكرام على الله وعلى الناس اصطفى

---

(١) سورة البقرة ، الآية ١٤٠ .

(٢) » » » ١٣٦ .

الله سبحانه لهم دينه ، فكانوا على هدى ونور وخير وبر ورحمة كما قـال في شأنهم رب العزة في سورة البقرة : [**ووصى بها ابراهيم بنيه ويعقوب يا بني ان الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون**] [1] ، وحين كانوا يغالطون ويراوغون في حقيقة ما يجب ان يكونوا عليه اتباعاً وانتماءاً لهؤلاء الانبياء الكرام ويريدون ان يكونوا يهوداً او نصارى على ضوء مـا انتهوا اليه في يهودية اليهود ونصرانية النصارى المتمثلة في ما يسمى بالكتاب المقدس بعهديه القديم والجديد رب العزة يخبر الناس جميعاً في محكم آياتـه أن منحاهم هـذا ومنهجهم المدعي لم يكن فيما زعموه خالصاً لله رب العالمين ولم يستهدف به إيماناً او حقاً او عدلاً . يقول رب العزة في سورة آل عمران : [**وقالوا كونوا يهوداً او نصارى تهتدوا بل ملة ابراهيم حنيفاً وما كان من المشركين**] . ويبرهن القرآن الكريم ان من أسباب انحرافهم عن مـلة ابراهيم هو انهم لم يكونوا على دين ابراهيم بل أرادوا ظلمـاً وبغياً ان يجعلوا من ابراهيم يهودياً او نصرانياً بالمفاهيم والمعايير التي انتهوا اليها وما كان عليه السلام يهودياً ولا نصرانياً بالرؤية التي رأوها بالعقيدة التي انتهوا اليها ، يقول تعالى في سورة آل عمران عن ملة ابراهيم بأنه : [**مـا كان ابراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين**] .

هـذا .. وقد رأينا في القسم الأول في سيرة أبي الأنبياء في العهد القديم مـا يتنافى وحقيقة النبوة الإلهية التي يخلعها الله على عبـد من خلقه ليكون على بينة من أمره على وفق ما يوجهه ربه اليه من أجـل تنظيم علاقة الناس وتحقيق معاني الخير والأمن في ظل عقيدة الإيمان بالله رب العالمين ، رأينا في سيرة أبي الأنبياء على ضوء نهج كتاب العهد القديم ذلك الإثم المفتري والذي تمثـل في الفكر الوثني الذي ساقوه عن الملكين اللذين حضرا اليـه ، وأكلا طعامه واغتسلا واستراحا وكان ثالثهم رب اسرائيل فيما قص سفر التكوين

---

(١) سورة البقرة ، الآية ١٣٢ .

مما تعرضنا له بالدراسة والنقد ، ونستغفر الله مما قصه سفر التكوين ، لكننا نحب ان نشير هنا إلى ما أخبر به رب العزة عن رسل الله من الملائكة الذين جاؤوا إلى عبده ابراهيم ببشارة من الله وتكليف منه لعبده النبي ورب العزة سبحانه يذكر في سورة هود ومن الآيات رقم ٦٨ - ٧٦ هذه الواقعة التي تغاير تماماً وتتناقض مع الخبر المفتري في سفر العهد القديم عن الملكين ورب اسرائيل وليست كما حاول كتّاب وشراح العهد القديم ان يصوروها استطراداً لما جاء سابقاً في أسفار العهد القديم . ومن هنا فيجدر بنا أن نشير إلى هذه الواقعة بعد ان نتناول نص القرآن الكريم لها يقول رب العزة في سورة هود : [**ولقد جاءت رسلنا ابراهيم بالبشرى قالوا سلاماً قال سلام فما لبث ان جاء بعجل حنيذ ، فلما رأى أيديهم لا تصل اليه نكرهم ، وأوجس منهم خيفة قالوا لا تخف إنا ارسلنا الى قوم لوط ، وامرأته قائمة فضحكت فبشرناها باسحق ومن وراء اسحق يعقوب ، قالت يا ويلتي أألد وأنا عجوز وهذا بعلي شيخاً ان هذا لشيء عجيب ، قالوا أتعجبين من أمر الله رحمة الله وبركاته عليكم اهل البيت انه حميد مجيد ، فلما ذهب عن ابراهيم الروع وجاءته البشرى يجادلنا في قوم لوط ، ان ابراهيم لحليم أواه منيب ، يا ابراهيم أعرض عن هذا انه قد جاء أمر ربك وانهم آتيهم عذاب غير مردود**] (١) .

يقول بعض علماء الإسلام عند تفسير هذه الآية وعلى غير ما يفعل علماء اللاهوت حين يلوون النصوص ويفسدون المعاني ويأتون بمفاهيم ودلالات لا علاقة أو قرينة بينها وبين النصوص التي هم بصددها عند قوله تعالى : [ولقد

---

(١) سورة هود ، الآيات ٦٩ - ٧٦ .

جاءت رسلنا ابراهيم بالبشرى ...] الآيات [1] .. رسلنا هم الملائكة الذين يرسلهم الله في هيئات وصور مختلفة لأنبيائه ، وقد جاؤوا ليبشروا ابراهيم باسحق ، او باهلاك قوم لوط وان كان احتمال البشارة باسحق أقوى . ويستشهدون بذلك بقوله تعالى : [**ولما ذهب عن ابراهيم الروع وجاءته البشرى يجادلنا في قوم لوط**]. فتعجل النبي ابراهيم عليه السلام وأسرع بإحضار عجل حنيذ ، وهو فتى البقر شوي على الحجارة المحمّاة وهذا ما روي عن ابن عباس وقتادة (فقربه اليهم فقال ألا تأكلون) ولما لم يأكلوا (أوجس منهم خيفة) وذلك لأن الملائكة رسل الله إلى أنبيائه في لغة القرآن وعطائه ليس عندهم أزمة طعام ، يحتاجون الى أكل وشرب وغسل أيد وأرجل كما تخيل كاتب سفر التكوين ، حين أطعم ضيوف ابراهيم غافلاً عن زعمه الوثني ان بينهما الرب رب اسرائيل في العهد القديم الذي يتحدث عنه كاتب السفر.. أما هنا فمحكم الذكر فان ملائكة الله لم يأكلوا ولذا فقد أوجس ابراهيم منهم خيفة لكنه هناك يرينا كاتب سفر التكوين سارة زوجة ابراهيم وقد ضحكت في نفسها من أمر هؤلاء الذين قامت هي وزوجها على خدمتهم ومع ذلك فان لغة القرآن الكريم تختلف تماماً عما ساقه كاتب سفر التكوين وقصه ، لقد أوجس ابراهيم عليه السلام منهم خيفة بينما ضحكت سارة مستغربة بسبب عدم اقبالهم على الأكل او لأنهم لم يأكلوا او لان بشّرها على يد زوجها النبي ابراهيم عليه السلام بأنها ستلد ابناً ويدعى اسحق [2] وتفترق لغة القرآن الكريم تماماً وتختلف عن منهج كاتب سفر التكوين في هذه الواقعة فقد صوّر كاتب العهد القديم امرأة ابراهيم وهي تقف وراء الخيمة تنصت

---

(١) (الامام الجليل الحافظ) : عماد الدين أبي الفداء اسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي المتوفى سنة ٧٧٤ هـ في كتابه (تفسير القرآن العظيم) الجزء الثالث ص ٥٦٣ طبعة دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع بيروت الطبعة الثانية عام ١٩٧٠ .

(٢) المصدر السابق جزء ٣ ص ٥٦٣ .

وتتسمع الملائكة الذين معهم رب اسرائيل في حديثهم مع ابراهيم كما زعم كاتب السفر الوثني .

أما هنا فان القرآن الكريم يستحضر الواقعة في معانيها الرفيعة المتأبية على الأشكال والرموز والبعيدة عن كل ما هو متصل بالفكر الوثني او يرمز اليه ، يرفع القرآن الكريم هنا معاني النبوة والرسالة والرسل الى المستوى اللائق بمعطيات الوحي الإلهي في تنزهه عن العبادات الوثنية وطقوس الشعائر والقرابين القائمة على التجسيد والوثن والصنم .

إن سورة الذاريات حين تعرض بعض آياتها الكريمة لواقعة الرسل من الملائكة الذين قدموا الى ابراهيم عليه السلام على هيئة ضيوف تحس وأنت أمام الآيات الكريمة بوقع المشهد محدد المعالم محسوم البداية والنهاية وذلك حين يخاطب الله تعالى نبيه الحبيب الخاتم ويقول له : [**هل أتاك حديث ضيف ابراهيم المكرمين ، إذ دخلوا عليه فقالوا سلاما قال سلام قوم منكرون فراغ الى اهله فجاء بعجل سمين ، فقربه اليهم قال ألا تأكلون ، فأوجس منهم خيفة قالوا لا تخف وبشروه بغلام عليم**] (١) . وأمام هذا الحسم القرآني في الحفاظ على كل فعل يصدر عن نبي الله ابراهيم ، فانه كان من بين دلائل النبوة على يديه ومن بين مظاهر وبصيرة الإيمان في قلبه انه أدرك انه امام رسل من الله ولذا فقد جاءت تتمة الآيات الكريمة بالنهج الذي عرضه القرآن وبلغته وعطائه في هذه الواقعة ان قال النبي ابراهيم كما عبر عنه ربه في نفس السورة وبين وحدة السياق الذي يقصه رب العزة : [**قال فما خطبكم أيها المرسلون قالوا إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين**] (٢) . ونحب هنا ان نشير إلى موقف تناوله القرآن الكريم في معرض هاتين الآيتين الكريمتين اللتين أفصحتا عن أحد دلائل ومظاهر النبوة على يد أبي الانبياء وهذا

---

(١) سورة الذاريات ، الآيات ٢٥ – ٢٧ .
(٢) « « « ٣١ – ٣٢ .

لموقف هو مواجهة النبي لوط عليه السلام لقومه ، فقد سبق لكتاب التراث الاسرائيلي وهم يشرحون الظروف التي كانت قبيل هدم قرية (سدوم) التي كفر أهلها وعصوا الله ولم يتبعوا نبيهم ولذا فقد حق على أهلها عقاب الله انهم دونوا على نبي الله لوطاً عليه السلام إثماً وظلماً ، انه عرض عليهم ابنتيه ليفعلوا بهما ما يشاؤون ، ونحن حين كنا نتناول سيرة النبي لوط عليه السلام في التراث الاسرائيلي على ضوء معطيات أسفار العهد القديم كما قد رفضنا على ضوء معايير وضوابط النبوة الإلهية هذا الموقف الذي قصته أسفار العهد القديم ، كما رفضنا موقف الكفر الذي نسبه كاتب الاسفار في التكوين إلى نبي الله لوط مع ابنتيه ، ونحب هنا في معرض الرد على مفتريات كتاب العهد القديم أن نشير الى ما تناوله أحد علماء الاسلام عند فهمهم وشرحهم الآيات الكريمة التي جاءت في سورة هود من رقم ٧٧ – ٧٩ والتي يقول فيها رب العالمين : [**ولما جاءت رسلنا لوطاً سيء بهم وضاق بهم ذرعاً ، وقال هذا يوم عصيب . وجاءه قومه يهرعون اليه ومن قبل كانوا يعملون السيئات ، قال يا قوم هؤلاء بناتي هن أطهر لكم فاتقوا الله ولا تخزون في ضيفي أليس منكم رجل رشيد ، قالوا لقد علمت ما لنا في بناتك من حق وانك لتعلم ما نريد**] [١] .

يقول الإمام ابن كثير في تفسيره يخبر الله تعالى عن قدوم رسله من الملائكة بعد ما أعلموا ابراهيم باهلاكهم [٢] وفارقوه وأخبروه باهلاك الله قوم لوط هذه الليلة فانطلقوا من عنده فأتوا لوطاً عليه السلام وهو على ما قيل في أرض له ، وقيل في منزله ، وردوا عليه في اجمل صورة تكون على هيئة شبان حسان الوجوه ابتلاء من الله ، وله الحكمة والحجة البالغة ، فساءه شأنهم وضاقت نفسه بسببهم وخشي ان لم يضفهم ان يضيفهم أحد من قومه

---

(١) سورة هود ، الآيات ٧٧ – ٧٩ .

(٢) تفسير ابن كثير في الجزء الثالث – الطبعة السابق الاشارة اليها ص ٥٦٥ .

فيناالهم سوء وقـال (هذا يوم عصيب) قـال ابن عباس وغير واحد شديد بلاؤه وذلك انه علم انه سيدافع عنهم ، ويشق عليه ذلك ، وذكر قتـادة انهم أتوه وهو في أرض له فتضيفوه فاستحيا منهم ، فانطلق أمامهم وقـال لهم في أثناء الطريق كالمعرض لهم بأن ينصرفوا عنه : انـه والله يا هؤلاء ما أعلم على الأرض أهل بلد أخبث من هؤلاء ، ثم مشى قليلاً ، ثم أعـاد ذلك عليهم حتى كرره أربع مرات قال قتادة وقد كانوا أمروا ان لا يهلكوهم حتى يشهد عليهم نبيهم بذلك .

وقال السدي خرجت الملائكة من عند ابراهيم نحو قرية لوط فبلغوا نهر سدوم نصف النهار ، ولقوا بنات لوط تستقي فقالوا يا جارية هل من منزل، فقالت مكانكم حتى اتيكم ، وفرقت عليهم قومها ، فأتت أباها فقالت يا ابتاه ادرك فتيان على باب المدينة مـا رأيت وجوه قوم احسن منهم ، لا يأخذهم قومك ، وكان قومك نهوه ان يضيف رجلاً ، فقالوا خل عنا فلنضف الرجال ، فجاء بهم فلم يعلم بهم احد الا اهل بيتـه ، فخرجت امرأته فأخبرت قومها فجاؤوا يهرعون اليه وقوله (يهرعون اليه) اي يسرعون ويهرولون من فرحهم بذلك وقوله (ومن قبل كانوا يعملون السيئات) اي لم يتزل هذا من سجيتهم حتى أخذوا وهم على ذلك الحال ، وقوله (قال يا قوم هؤلاء بناتي هن أطهر لكم) يرشدهم إلى نسائهم ، فان النبي للأمة بمنزلة الوالد ، فأرشدهم إلى مـا هو أنفع لهم في الدنيا والاخرة كما قال لهم في الآية الاخرى [**أتأتون الذكران من العالمين وتذرون ما خلق لكم ربكم بل انتم قوم عادون**] وقوله في الآية الاخرى [**قالوا لو لم ننهك عن العالمين**] اي ألم ننهك عن ضيافة الرجال ، قال هؤلاء بناتي ان كنتم فاعلين ، لعمرك انهم لفي سكرتهم يعمهون وقـال في هذه الآية الكريمة [**هؤلاء بناتي هن اطهر لكم**] قال مجاهد لم يكن بناته ولكن كن من امته ، وكل نبي ابو امتـه وكذا روى عن قتاده وغير واحد وقال ابن جريج امرهم ان يتزوجوا النساء لم يعرض سفاحاً ، وقال سعيد بن جبير : يعني نساؤهم هن بناته وهو اب لهم، ويقال في بعض القراءات النبي

أولى بالمؤمنين من أنفسهم وازواجه أمهاتهم وهو أبٌ لهم ، وكذا روى عن الربيع بن أنس وقتادة والسدي ومحمد بن اسحق وغيرهم وقوله : (فاتقوا الله ولا تخزون في ضيفي) اي اقبلوا ما آمركم به من الاقتصار على نسائكم (أليس منكم رجل رشيد) اي فيه خير يقبل ما آمره ويترك ما أنهاه عنه: (قالوا لقد علمت ما لنا في بناتك من حق) اي انك لتعلم ان نساءنا لا ارب لنا فيهن ولا نشتهيهن (وانك لتعلم ما نريد) اي ليس لنا غرض الا في الذكور وانت تعلم ذلك ، فاي حاجة في تكرار القول علينا في ذلك قال السدي (وانك لتعلم ما نريد) اي نريد الرجال . انتهى .

وامام هذه المحنة الشديدة التي اختبر فيها نبي كريم على الله كلوط عليه السلام قال تصرف كما عبر عنه رب العزة في القرآن الكريم ، لا كما نسخ الاثمون من كتاب وقصاص ونساخ اسفار العهد القديم حين قبحوا افعال الرجل وجعلوه يعرض بناته سفاحاً . لما لم يستجب الشعب المنحرف من اهل سدوم لدعوة الله على لسان لوط كان عون الله له بأن دمر له القرية ثم وقف لوط عليه السلام شاكراً لله ولأنعمه وليس كما حاول الكاتب الاثم ان يستبدل موقف الشكر والعرفان من النبي لربه بعد برهانه في اهلاك القرية الكافرة بذلك الموقف الاثم الذي يدعي فيه الكاتب بأن الرجل تم اسكاره بواسطة ابنتيه ثم اضطجعت الواحدة بعد الاخرى من ابيها وحملت منه سفاحاً. ان لغة القرآن الطاهرة النقية النظيفة لا تعرف شيئاً من هذا القبح ولا تقر هذه الخطيئة وامثالها بحكم ان انبياء الله بعصمة النبوة لهم لا يقعون في الكبائر لا قبل النبوة او بعدها ، ولذا فان الزيف الذي نسبه كاتب الاسفار في هذه الواقعة بالذات نظراً لامتهانه الشديد ، لم يعرض له القرآن اصلاً ولم يتناوله بحكم استحالة ان يقع نبي لله في مثل هذه المآثم والموبقات ، وما تعرضنا له بالدراسة والنقد ونحن نتناول منهج كتاب اسفار العهد القديم عند ردنا على المفتريات التي ألصقوها بأنبياء الله ما يكفي ، وانما يعرض القرآن الكريم في جملة ما يعرضه يعرض في دروس التاريخ او سير الانبياء لما يربي النفوس

ويهذب السلوك ويعطي القدوة ، والنبي اوط عليه السلام في هذه المحنة التي ابتلاه الله بهـا يصمد باباء النبوة وطهرها في مواجهة الشدة التي وضعه قومه فيها حتى يجيء عون الله ومدده ، فيقول كما عبر عنـه رب العزة في سورة هود وهو يقص على خلقه – عبرة وعظة – باقي صور المشهد الذي كان فيـه نبي الله لوط نعم النبي (قال لو ان لي بكم قوة ، او آوي إلى ركن شديد قالوا يا لوط انا رسل ربك ان يصلوا اليك فأسر بأهلك بقطع من الليل ولا يلتفت منكم احد الا امرأتك انه مصيبها ما اصابهم ان موعده الصبح أليس الصبح بقريب) .

يقول الامام ابن كثير عند شرحه لهـذه الآيات : يقول تعالى مخبراً عـن نبيه لوط عليه السلام ان لوطاً توعدهم بقوله [لو أن لي بكم قوة] الآية اي لكنت نكلت بكم وفعلت بكم الافاعيل بنفسي وعشيرتي ، ولهذا ورد في الحديث عن طريق محمد بن عمرو بن علقمـة عن ابي هريرة ان رسول الله (ص) قـال رحمة الله على لوط لقد كان يأوي إلى ركن شديد يعني الله عز وجل ، فما بعث الله بعده من نبي الا في ثروة من قومـه ، فعند ذلك اخبرته الملائكة انهم رسل الله اليه وانه لا وصول لهم اليـه (قالوا يا لوط انا رسل ربك لن يصلوا اليك) وامروه ان يسري بأهله من آخر الليـل وان يتبع ادبارهم ، اي يكون ساقة لاهله (ولا يلتفت منكم احد) اي اذا سمعت ما نزل بهم لا تهولنكم تلك الاصوات المزعجة ، ولكن استمروا ذاهبين (الا امرأتك) فانه مصيبها ما اصابهم .. وامام هـــذا العطاء الكريم في سياق النصوص القرآنية ونصها من الآيات التي روت وقائع النبي اوط وقومه واهله عليه السلام ، هـل يستطيع عقل مهما بلغت قدرته على التأويل او مهما اشتد بانسان الهوى الجامح ان يجد ثغرة هنـا اي ثغرة تجرح قواعد النبوة او تخرج بهـا عن ضوابطها وقواعدها او تسيء اليها حتى في منهج العلماء المسلمين الذين تناولوا النص بالشرح والتأويل ، يبرز من بين حديثهم منـاخ الطهر والقداسة التي تحيط وتشع من النص الكريم ، نعتقد وباليقين انـه امام القرآن الكريم لا

يستطيع عقل ان يتأول حتى يخرج من هـذه الوقائع بأدنى اثر من خطيئة او معصية تنسب إلى واحـد من انبياء الله كما حاول كتاب العهد القديم ان يفعلوه وان يشوهوا صورة نبي الله لوط كما فعلوا مع عمـه ابراهيم صلوات الله وسلامه عليهما جميعاً .

هذا .. ونحب ان نعود مرة ثانية بعد ان دفعنا الحديث الذي جـاء عن لوط عليه السلام ونحن بصدد الحديث عن عمه صلوات الله وسلامه عليه إلى ما كنا فيـه نتعرف على منهج الطهر القرآني في عطائه ولفتـه عن انبياء الله وعـن ابيهم ابراهيم صلوات الله وسلامه عليهم جميعاً .

الفصل الثاني

الضبط القرآني حول شخصية النبي ابراهيم

جاء القرآن الكريم ووجد احاديث بني اسرائيل عن ابي الانبياء ابراهيم عليه السلام تدور حول اباطيل واضاليل نسبوها زوراً وبهتاناً إلى نبي الله عليه السلام، ووجدهم قد خلعوا عليه من صور الانحراف والاثم ما يبرر خطيئتهم وما يدفعهم إلى الاستمرار فيما يقومون به من اخطاء وآثام .

ولما كان اليهود قد خضعوا لاهوائهم وشهواتهم وعبدوا المال وجعلوه مدخلاً لكل ضروب العبادة والتقرب إلى ما يبغون وما يستهدفون ، قص القرآن عليهم خبر التزام ابراهيم عليه السلام بعبادة ربه وأوامره ، وتوجهه اليه صباح مساء ، والتزام بنيه من بعده بما التزم به ، وأفادهم القرآن ان حقيقة الانتماء إلى ابراهيم عليه السلام وادعاء الاهلية به هي اتباع منهجه في الطريق إلى الله وممارسة ما كان يقوم به وما يلتزمه من طهر وتقرب ونقاء .

يقول الله تعالى في سورة البقرة في الآيات ١٣٠ — ١٣٤ :

[ومن يرغب عن ملة ابراهيم الا من سفه نفسه، ولقد اصطفاه في الدنيا وانه في الآخرة لمن الصالحين ، اذ قال له ربه اسلم ، قال اسلمت لرب

العالمين ، ووصى بها ابراهيم بنيه ويعقوب ، يا بني ان الله اصطفى اليكم الدين فلا تموتن الا وأنتم مسلمون ، ام كنتم شهداء اذ حضر يعقوب الموت اذ قال لبنيه مـا تعبدون من بعدي قالوا نعبد الهك وإله آبائك ابراهيم واسماعيل واسحق إلها واحدا ونحن له مسلمون ، تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عما كانوا يعملون] .

ويبين القرآن الكريم هنا في هذه الآيات حقيقة الاقتداء والانتماء إلى ابراهيم وذلك من خلال منهج ابراهيم في علاقته بربه .. [**اذ قال له ربه اسلم ـ قال أسلمت لرب العالمين**] فرب ابراهيك هو رب العالمين وليس رب فئة او جماعة ، والقضية عند ابراهيم التزام مطلق بالتوحيد والتطهير من الادناس وكل الوان الخطيئة، وذلك من خلال الانقياد التام لله الانقياد الذي هو اسلام تام لا تشوبه علائق التناقض ولا تشوهه اوضاع الاستغلال ، انما هو انقياد يلتزم به الابناء بعد الآباء : [**ووصى بها ابراهيم بنيه ويعقوب ، يا بني ان الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن الا وانتم مسلمون**] وهناك عند ابراهيم وابنائه الحقيقيين الالتزامات الحقيقية بالمسؤولية الدينية والمسؤولية الدنيوية [**تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عما كانوا يعملون**] .

ومن عجب ان التزييف اليهودي لقضية الاباء الاول الدينية وتحديد نوع علاقتهم بها على ضوء ما يرسمون وما يتفق وأمانيهم ، لم يقف بهم عند الاب الاعلى ابراهيم عليه السلام ، وانما تناول ابناءه من بعده ، فالخلق اليهودي المعوج والقائم على العدوان والعقيدة الدينية المحرفة القائمة على التزييف وصور التجسيد والتشبيه التي يخلعونها على الآلهة والتي كانوا عليها في بدء عصر الدعوة الاسلامية ، كانوا يلبسونها ايضاً لانبياء الله ورسله ، فلقد كانوا يخلعون على انفسهم اوصاف الارتباط والانتماء إلى يعقوب وانهم بما هم عليه إنما هم على دينه فيرفض القرآن الكريم هذا اللغط العدواني الآثم ويقول: [**أم كنتم شهداء**

إذ حضر يعقوب الموت إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدي] ويقرر القرآن الكريم ان الموقف الأولي والمبدئي لأبناء يعقوب قبل ان يعمل فيهم الطبع الملتوي والخلق النهاز عمله ، [نعبد إلهك وإله آبائك ابراهيم واسماعيل واسحق إلهاً واحداً ونحن له مسلمون] .

ورغم ان القرآن الكريم قد توجه بالدعوة الصريحة لبني اسرائيل وكشف لهم خلالها عن بعض مزاياهم التي يمكن بها ان يصححوا وجودهم وان يبدأوا عمليـة تصحيح لوجودهم إلا انهم رفضوهـا ، يقول الذكر الحكيم في سورة المائدة من الآيتين ١٥ ، ١٦ في الكشف عن السماحة الاسلامية التي التزم بها نبي الاسلام تجاه اليهود :

[يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيراً مما كنتم تخفون من الكتاب ويعفو عن كثير ، قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين ، يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات الى النور باذنه ويهديهم الى صراط مستقيم] .

ومن هذا المنطلق الاسلامي في الرغبة في التعاون نحو الفهم الواحد لقضية الرسول الذي يبيّن مـا يخفي اليهود من كثير من الكتاب الحق الذي هو الوحي الإلهي الصحيح الذي تحرّف وتزيف على أيديهم. تجيء الدعوة الإلهية في النهج القرآني عظيمة للغـاية تحمل في ثناياهـا الوضوح الاسلامي والطهر الإلهي في التعامل وفي الاتجاه نحو الإله الواحد ، يقول الله في الذكر الحكيم من سورة آل عمران في الآية ٦٤ ملزماً نبي الاسلام وموجهاً الى نهج لم تألفه الدنيا من قبل ، ولكي يسد كل ثغرات الالتواء ومنافذ المراوغة اليهودية حتى إذا ما استنفذ الوحي الإلهي في القرآن الكريم كل امكانيات التوجيه الاسلامي يحسم القضية الدينية ويحدد موقف اليهود منها :

[قل يا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله

ولا نشرك به شيئاً ، ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فان تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون] .

هكذا يحسمها القرآن الكريم ويطلب من نبي الاسلام ان ينادي الدنيا بأعلى صوته : يا أهل الكتاب، ان هناك كلمة سواء بيننا وبينكم وهي حقيقة مطلقة في التوراة الحقة والانجيل جاء بها القرآن الكريم طاهرة نقية ، وبهذه الكلمة تلتقي الأهداف ويتحدد المسار الطويل للرسالة الإلهية ويصبح بها المضمون العقائدي المستهدف حقيقة واقعة بيننا وبينكم وهي [**ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً**] وينتهي القرآن إلى قضية اجتماعية وسياسية واقتصادية بهذه الكلمة [**ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً**] .. منطلقها ان المعتقد إذا كان هكذا ، لا عبادة إلا الله فان المنطقي ان نبرأ الانسانية من معبود غير هذا الإله الفرد الصمد ، وتصبح القضية الجديدة المطروحة في النهج القرآني وهو يطرح الدعوة الاسلامية اليهود [**ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله**] قضية العدل والحب .. والخير والمساواة .

ومن عجب أنه رغم كل هذه الدعوات القرآنية التي تحاول ان تستنطق اليهود للسير معاً نحو الهدف المبتغى والمستهدف فان القرآن يفترض الرفض اليهودي ، وعند ذلك : [**فان تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون ..**].

الكشف القرآني عن طبيعة الرفض اليهودي :

المتتبع لجملة الآيات الكريمة التي يحتويها القرآن الكريم والمتعلقة بالحديث عن بني اسرائيل يجد ان القرآن الكريم المصدر الوحيد من بين كل المعطيات العقدية سواء منها ما كان سماوياً او دنيوياً من فكر البشر هو الذي يقرر أن اليهود حتى عصر الدعوة الإسلامية كان لديهم مما يتداولونه من كتب التوراة بعض الحق الذي يمكن ان يتوبوا اليه وان يكون البداية لتصحيح ما هم عليه ، ورغم ان القرآن الكريم وهو يخاطبهم من أجل اتباع محمد ﷺ لأنهم قد أصبحوا مشركين لا يعرفون الإله الحق وان الشرك كفر عظيم

وبالتالي فلا حق لهم في الادعاء لنبي او لميراث وحي، ومع ذلك يقرر القرآن انـه كان لديهم بعض الحق ، وانهم على هديه لا بـد من الإيمان بمحمد ﷺ ولكن الخلق الملتوي الرافض لكل معونات السماء .. يناديهم الرحمن الرحيم في كتابه المحكم التنزيل من سورة النساء في الآيتين : ٤٧ — ٤٨ :

[يا ايها الذين أوتوا الكتاب آمنوا بما نزلنا مصدقاً لما معكم من قبـل ان نطمس وجوها فنردها على ادبارها او نلعنهم كما لعنّا اصحاب السبت ، وكان أمر الله مفعولا، ان الله لا يغفر ان يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ومن يشرك بالله فقد افترى إثما عظيما] .

والمؤدى الواضح والبدهي على ضوء هاتين الآيتين الكريمتين ، فان الذين كان بين ايديهم الكتاب أي التوراة من بني اسرائيل كان لديهم ومعهم مـا يلزمهم بالاستجابة لدعوة محمـد ﷺ ، ومن عجب انهم لم يتنبهوا للتهديد الإلهي **[آمنوا بما نزلنا مصدقا لمـا معكم من قبل أن نطمس وجوها فنردها على أدبارها أو نلعنهم كما لعنّا اصحاب السبت]** وعلى ما جاء في تفسير ابن جرير في الجزء الخاص صفحة ١٢٤ من طبعة مصطفى الحلبي : ان ابن جرير أخرج عن ابن عباس رضي الله عنهما ، ان رسول الله ﷺ ، خاطب رؤساء من أحبار اليهود منهم : عبدالله بن صوريا، وكعب بن أسد فقال لهم : يا معشر اليهود ، اتقوا الله واسلموا، فوالله انكم لتعلمون ان الذي جئتكم به الحق ، فقالوا ما نعرف ذلك يا محمد ، وجحدوا ما عرفوا وأصروا على الكفر فأنزل الله فيهم **[يا ايها الذين أوتوا الكتاب آمنوا بما أنزلنا مصدقا لما معكم من قبل ان نطمس وجوها فنردها على ادبارها او نلعنهم كما لعنّا اصحاب السبت وكان أمر الله مفعولا] .**

ومن هنا كان الواجب على اليهود ان يؤمنوا بمحمد ﷺ وان لا يقاوموا ولا يخلفوا ، ولما أعرض الكثيرون وقاوموا كان الخطاب الإلهي لرسول الله ﷺ في سورة آل عمران : **[فـان حاجوك فقـل أسلمت وجهي لله ومن**

اتبعن وقل للذين أوتوا الكتاب والاميين أأسلمتم، فان أسلموا فقد اهتدوا وان تولوا فانما عليك البلاغ والله بصير بالعباد] .

وبلغت القرآن إلى حقيقة تتعلق بالطبع اليهودي وهي البغي والعدوان.. والغل والحقد.. والحسد.. هذه النوازع الشريرة لم يهذبها خلق او دين وهذه الحقيقة.. المرضية هي التي كانت وراء رفضهم ومقاومتهم يقول تعالى :

[وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم بغياً منهم].

وهذا البغي الذي كان سبباً في الاختلاف حول الايمان بنبوة محمد ﷺ ورسالته هو الذي سبب الفرقة اليهودية بل هو الذي كان سبب الشك والريبة وهو الخلق الذي يميّز السلوك اليهودي عبر كل العصور.. تقول الآية الكريمة رقم ١٤ من سورة الشورى :

[وما تفرقوا الا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم، ولولا كلمة سبقت من ربك الى أجل مسمى لقضى بينهم وان الذين أورثوا الكتاب لفي شك منه مريب] .

ويركز القرآن الكريم لعل الانسانية تتنبه الى هذه الخاصية اليهودية خاصية البغي ، فآيات الجاثية وهي تقص أخبار نعمة الله على بني اسرائيل لم تغفل التنبيه الى هذا المرض الخطير :

[ولقد آتينا بني اسرائيل الكتاب والحكم والنبوة ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على العالمين ، وآتيناهم بينات من الأمر ، فما اختلفوا إلا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم ان ربك يقضي بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون] .

ويتابع القرآن الكريم احاطته وشموله لكل الجوانب المتعلقة ببني اسرائيل فبرغم التشخيص الدقيق الذي يبين عن تأصل غريزة البغي عندهم يفرز القرآن من بينهم العناصر التي التزمت وتطهرت حتى وان كانت مجموعة قليلة لم يتيسر

لها أن توصل قضية الرسالة الإلهية الى أهدافها المرجوة بين الناس بالحق والخير، تجيء الآية رقم ٨٣ من سورة البقرة لتحدثنـا عن حكم قرآني على بني اسرائيل في منتهى الدقة والحسم :

[واذا أخذنا ميثاق بني اسرائيل لا تعبدون إلا الله وبالوالدين احساناً وذي القربى واليتامى والمساكين وقولوا للناس حسناً وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ثم توليتم إلا قليلاً منكم وأنتم معرضون] .

وعند قوله تعالى : [**ثم توليتم إلا قليلا منكم**] تبرز العدالة القرآنية في الحكم على نوعيات بني اسرائيل في الاستجابة للحق والطهر عند قليل منهم وفي الرفض والبغي والتولي عن الحق والخير عند الاكثرية الغالبة فيهم .

وعندمـا ندقق في النظرة القرآنية لجوانب الوجود الاسرائيلي كله نرى القرآن يرفع مجموعة من بني اسرائيل على طول تتابع الرسالة الدينية منذ عصر أبي الأنبياء الى درجة من الإيمان بالله والتعبد له ، بل والالتزام بقضايا الحق والعدل حتى وان كانت هذه المجموعة من الضآلة في تعدادها وندرتها إلا ان القرآن باعتباره الكتاب الحق لا يغفل رب القرآن عن ان يسجل فيه لكل ذي حق حقه ، حتى ولو كان صاحب الحق من بين بني اسرائيل، يقول رب العزة في سورة آل عمران عن العناصر الخيّرة من بني اسرائيل :

[ليسوا سواء من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله أثناء الليل وهم يسجدون ، يؤمنون بالله واليوم الآخر ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويسارعون في الخيرات واولئك من الصالحين ، وما يفعلوا من خير فلن يكفروه والله عليم بالمتقين] .

وهكذا تتجلى كل قيم الحق والعدل في القرآن الكريم حتى وهو يتحدث عن خصوم الوحي والرسالة الإلهية : [**وما يفعلوا من خير فلن يكفروه والله عليم بالمتقين**] لكن القرآن الكريم وهو يستقصي كل الجوانب المتعلقة بتاريخ بني اسرائيل لا يغفل أن ينبـه إلى طبيعة العناد او التحريف عنـد الكثرة

وبلغة تفيض تسامحاً ومحبـة ، يكشف القرآن عن موقف مراوغ لليهود .. وتجيء الآيات المتتابعة في سورة المائدة لتبين عن مواقف متناقضة لليهود مع أنفسهم ومع ما في أيديهم من تراث بعضه الحق وأكثره باطل .. يقول رب العزة لنبيه الخاتم محمد ﷺ :

[قل يا أهل الكتاب هل تنقمون منـا الا أن آمنا بالله وما أنزل الينـا وما أنزل من قبل وان أكثركم فاسقون] .

وحتى لا يضيق المؤمنون صبراً وهم يبذلون أقصى الجهد الإنساني في مخاطبتهم ومحـــاولة التعامل الديني معهم بمنهج الحق والعدل فان آيات الذكر الحكيم تكشف في تشخيص دقيق عن واقعهم وسوء العاقبة :

[وترى كثيراً منهم يسارعون في الاثم والعدوان وأكلهم السحت لبئس ما كانوا يعملون .. ترى كثيراً منهم يتولون الذين كفروا لبئس مـا قدمت لهم أنفسهم ان سخط الله عليهم وفي العذاب هم خالدون] .

ومع كل مـا كشفه القرآن الكريم عن الطبيعة العدوانية لبني اسرائيل وبكل رصيد التجارب الذي كان عند المسلمين عن الخلق اليهودي الشحيح ، فان القرآن في محاولة جبارة للاشعار بروح التكامل الانساني والاخلاقي في الاسلام قد أباح للمسلمين إذا ما رغبوا في التعامل مع العناصر المؤمنة من بني اسرائيل ان يتعاملوا، وأن يأكلوا طعامهم بل وأن يتزوجوا من نسائهم وعلى نفس المستوى الاخلاقي الذي يتعامل به المسلم مع أخيه المسلم ، وغير غريب على المسلم زواج الصحابي الجليل عثمان بن عفان رضي الله تعـالى عنه من (نائلة بنت القراصنة الكلبية) وهي نصرانية .. وقد تزوج حذيفة من يهودية .. وكذلك فعل طلحة حين تزوج من يهودية من أهل الشام ، وكان المنطلق الذي تحركوا على هديه ، قول رب العزة في سورة المائدة :

[اليوم أحـــل لكم الطيبات وطعام الذين أوتوا الكتاب حـل لكم ، وطعامكم حـــل لهم والمحصنات من المؤمنات والمحصنات من الذين أوتوا

الكتاب من قبلكم إذا أتيتموهن أجورهن محصنين غير مصافحين ولا متخذي أخدان] .

ومع كل هذه السماحة وهذا الخلق القرآني ، فان طبيعة الرفض اليهودي لكل ما هو حق وخير .. وعدل – عملت عملها في نفوسهم – فأعدوا العدة لحرب ومقاومة عنيدة ضد الاسلام ونبيه ﷺ ، وكانت البداية أنه حين ظهر المصطفى (ص) ، انكروا دعوته وقاوموه وحاربوه ، كان ذلك حين هاجر (ص) من مكة إلى يثرب .

ولما آمن به جماعة من اليهود مثل : عبدالله بن سلام ، ومخيريق الذي كان حبراً يهودياً وقاتل مع الرسول في غزوة احد ضد مكة ، ومثل ثعلبة بن سعيه ، واسد بن عبيد ، كان على القوي الجاحدة والمنكرة ان تقاوم هذا التيار الذي ابتدأ يتعاطف مع المسلمين بل وينضم اليهم ، ومن هنا فان عناصر المقاومة اليهودية ضد الرسول (ص) ابتدأت تعلن ان مواقف القوى التي تنتمي اليها وتعبر عنها ، فبرز من التنظيم اليهودي الخفي في بني النضير مجموعات تقود المطاردة للنبي والمسلمين ثم تتابع جهدها بالتشهير والتجريح واشاعة الفتن ، ويتمثل ذلك في أساليب حيي بن اخطب ، وأمثاله ابو ياسر ابن أخطب ، وسلام بن مشكم ، وسلام بن ابي الحقيق وكنانة بن الربيع بن ابي الحقيق ، وعمرو بن جماش وكعب بن الاشرف ، وكردم بن قديس وغيرهم.

وتعاونت هذه العناصر اليهودية مع عناصر اخرى من اليهود المنتشرين في مناطق الشمال .

وحين وقعت معركة (بدر) وظهر من نتائجها ما يمكن ان يغير في اوضاع المسلمين بيثرب ، ويحولهم إلى قوة سياسية تمثل خطراً على قوى الرفض للاسلام والمسلمين ، كان على قيادات التنظيم اليهودي ان تكشف للجماهير اليهودية عن قدرتها على المقاومة والرفض لهذه الاوضاع الاسلامية الجديدة ، تظهر بجانب العناصر اليهودية القائدة في بني النضير عناصر من يهود ثعلبة ،

وكان منهم ابن الفطيون : عبدالله بن صوريا الاعور ، وكان معلماً فلم يكن احد بالحجاز في زمانه اعلم منه بالتوراة وظهر من يهود قينقاع بن اللصيت ، وسعد بن حنيف ، ومحمود بن سليمان ، وعزيز بن عزيز ، ورفاعة بن قيس ، وفنحاص ، وأشيع ، ونعمان بن عمرو ، وكعب بن ابي رافع .

وبرز للمواجهة والمطاردة من مواقع العمل الخفي مع العناصر التي تصدت للاسلام والمسلمين من النضير وثعلبة وقينقاع عناصر قيادية اخرى من يهود بني قريظة وكان من اشهرهم الزبير بن باطا بن وهب ، وعزال بن شمويل ، وكعب بن اسد ، وكان هذا من العناصر اليهودية الثرية التي تقود الجماعة اليهودية في قريظة ، فتولى القيام بعقد مع المسلمين لصالح بني قريظة ، ولما أحس ان الوقت في غير صالح المسلمين في حصار الاحزاب ليثرب من السنة الخامسة من الهجرة، نقض عهده وقبل ان يمد يده لجيوش مكة في انقضاضها على المسلمين[1] .

وكان من يهود بني قريظة الذين دفعتهم العداوة للاسلام ان يعملوا وجهاً لوجه ، ويتركوا مواقعهم الخفية وأساليبهم المستقرة شمويل بن زيد ، وجبل ابن عمرو بن سكينة ، والتمام بن زيد ، وفردم بن كعب ، والحارث بن عوف ، وكردم بن زيد .

واما يهود بني زريق فكان منهم لبيد بن أعصم ، وهو الرجل الذي تولت نساؤه القيام بمحاولات لايذاء الرسول (ص) .

وفي المراحل الاولى لتطور اوضاع واحوال المسلمين في المدينة فان القوى الخفيفة للتنظيمات اليهودية قد ألقت بهؤلاء في وجه الاسلام ، والمسلمين ، وذلك قبل ان يعلنوا الحرب على الرسول (ص) ويدخلوا في القتال .

---

(١) بنو اسرائيل في ميزان القرآن الكريم ، للباحث : صدر عام ١٩٧٥ عن دار الجيل بيروت — ص ٣١ — ٣٧ .

المقاومة اليهودية للاسلام :

قبل ان يهاجر الرسول (ص) بدعوته من مكة إلى المدينة كان اليهود في يثرب يقومون بعملية رصد دقيقة لهذا الذي يجري في مكة من التفاف مختلف انواع الرجال والطوائف والطبقات حول هذا الداعي العربي الذي بدت بشائر دعوته تقرع اسماعهم وتصل إلى مواطنهم عبر مسافة طويلة خرج فيها مجموعات الرجال الذين آمنوا بالله ورسوله يسابقون نبيهم في الدعوة الى الله بعد أن أذن لهم بالهجرة وحين هاجر رسول الله ﷺ من مكة الى المدينة لم يتركوه قليلاً أو كثيراً من الزمن لكي يتاح له ان ينشر الدين الجديد في وجه ما قاموا به من تحريف وتزييف لبعض الحق الذي انتهى الى بعضهم عبر الاجيال او مما حفظته الذاكرة واستقر في قلوب القلة القليلة من يهود .

وبادىء ذي بدء تمثلت المقاومة اليهودية للاسلام في بادىء أمرها بمواقف الانكار والتشكك التي ابتدأ رجال الدين اليهودي يقومون بها ، ولما أحسوا ان الموقف يوشك أن يفلت من أيديهم نتيجة المواقف المؤمنة التي قادها بعض أحبار اليهود من الذين رأوا الحق حقاً فاتبعوه ، قامت العناصر اليهودية التي تتوارث التوجيه اليهودي وتسيطر عليه أجيالاً بعد الأخرى لتعمل عملها ضد الاسلام والمسلمين .

ويقول الحصين بن سلام اليهودي ، الذي كان حبراً كبيراً من أهل التوراة ثم أسلم وتسمى باسم عبدالله بن سلام : لما سمعت برسول الله ﷺ عرفت صفته واسمه وزمانه الذي كنا نترقبه ، فكنت على ذلك مسراً وصامتاً عليه حتى قدم رسول الله ﷺ المدينة ، فلما نزل بقباء في بني عمرو بن عوف ، أقبل رجل حتى أخبر بقدومه ، وأنا في رأس نخلة لي أعمل فيها ، وعمتي خالدة بنت الحارس تحتي جالسة ، فلما سمعت الخبر بقدوم رسول الله ﷺ كبّرت ، فقالت لي عمتي حين سمعت تكبيري : خيّبك الله ، والله لو كنت سمعت بموسى بن عمران ما زدت ، قال فقلت لها : أي عمة هو والله أخو

موسى بن عمران وعلى دينه بعث بما بعث به ، قال فقلت : أي ابن أخي ، أهذا النبي الذي كنا نخبر أنه يبعث مع نفس الساعة ؟ قال فقلت : نعم ، قال فقالت : فذاك إذاً، ثم خرجت الى رسول الله ﷺ فأسلمت، ثم رجعت إلى أهل بيتي ، فأمرتهم فأسلموا .

ومن البداهة التي لا يغفلها رجل في مثل قلب وعقل عبدالله بن سلام، أن رد الفعل اليهودي في مواجهة ما أقدم عليه وما استجاب له ، خاصة وانهم يدركون قيمته ومنزلته الأدبية بين قومه، سيكون ولا شك خطيراً[1].

ويدلل لنا ابن اسلام بفراسته في تصور ما يمكن أن تقوم به القوى اليهودية من التخفيف والتهوين من اسلام رجل في منزلته ، ويعمل جهده في ان يضرب اسلوبهم في المراوغة والتشويش على المواقف والمبادىء فيقول :

(وكتمت اسلامي من يهود، ثم جئت رسول الله ﷺ ، فقلت له: يا رسول الله ان يهود قوم بهت، وانا أحب ان تدخلني في بعض بيوتك وتغيبني عنهم ثم تسألهم عني ، حتى يخبروك ، كيف أنا منهم قبل ان يعلموا باسلامي فانهم ان علموا بي بهتوني ويعيبوني ، يقول ابن سلام : فأدخلني رسول الله ﷺ في بيوته ودخلوا عليه فكلموه وسألوه ، ثم قال لهم : أي رجل الحصين بن سلام فيكم ؟ قالوا سيدنا وابن سيدنا ، وحبرنا وعالمنا ، يقول بن سلام ، فلما فرغوا من كلامهم خرجت عليهم فقلت لهم : يا معشر يهود ، اتقوا الله واقبلوا حاجاتكم به ، فوالله انكم لتعلمون أنه رسول الله ﷺ وأنا أومن به وأصدقه وأعرفه) .

وفي هذا الموقف الدقيق والرهيب الذي أعد لهم من قبل رجل ، كان بالأمس واحداً منهم يعرف خلقهم وسرائرهم وما تنطوي عليه نفوسهم من

---

(١) (بنو اسرائيل في ميزان القرآن الكريم) للباحث صدر عام ١٩٧٥ – دار الجيل – بيروت صفحات ٢١ – ٤٣ .

غـدر وخيانة اتضح مبكراً الموقف الذي ستتخذه القوى اليهودية بمختلف فئاتها من المصطفى ﷺ ذلك أنهم حين فوجئوا باسلام الحصين بن سلام بعد اقرارهم بقيمته الادبية والدينية بينهم ، قالوا لابن سلام: كذبت ، ثم ابتدأوا في التشهير به ، ويصف لنا الخبر الاسرائيلي الجليل الحصين بن سلام بعد أن أصبح أنصارياً من صحب رسول الله والمؤمنين بـه أخلاق قومه اليهود : ألم أخبرك يا رسول الله أنهم قوم بهت ، أهـل غدر وكذب وفجور ، ثم يقول بعد هذه الواقعة : فأظهرت اسلامي واسلام أهــل بيتي .. وأسلمت عمتي خالدة بنت الحارث ، فحسن اسلامها ، وكذلك أسلم (مخيريق) ولـما كان رجلاً قد استقر قلبه وعقله على الإيمان بالإسلام وبمحمد ﷺ فانه قد آثر ان يكون لاسلامه تأثيره الحـاد في نفوس اليهود ، ويبدو من جملة تاريخ هـذا الصحابي الجليل أنه كان كبير السن كثير المال قليل العيال ·

وكان يعرف رسول الله ﷺ ويطمئن اليه كثيراً ، فلم يزل على ذلك حتى كانت غزوة أحد في السنة الثالثة من الهجرة ، وكانت في يوم سبت فوقف (مخيريق) على ملأ من جمع يهودي وقال : يا معشر اليهود انكم لتعلمون أن نصر محمد عليكم لحق، وبهتوا من موقفه منهم في يوم السبت ، وقالوا له : ان اليوم يوم السبت ، قال: لا سبت لكم ، ثم أخذ سلاحه وانطلق ليشترك مع المسلمين في معركة أحد بعد ان ترك وصية بنقل أمواله كلهـــا فضلاً عن مزارعه من النخيل ، ان هو استشهد الى رسول الله (ص) .

وأمام البداية العملية لتأثير الاسلام في بعض العناصر من اليهود جن جنون قيادات المقاومة السرية المحتكة في مصير التجمع اليهودي ومقوماته .

وانضم إلى القيادات اليهودية بعض الرجال من الأوس والخزرج ممن ظلوا على جاهليتهم وانضم اليهم بالولاء بعض العناصر المنافقـة التي تعتنق الاسلام ظاهراً ، أما حقيقة عواطفهم فكانت مرتبطة بالقوى المقاومة للاسلام .

ومن هنا فإنا نرى أن أسباب انتشار المغالطات التي كان يروّج لها اليهود

بين سكان المدينة كانت من خلال هذا التجمع المتلاقي على أهداف محددة ضد الاسلام ونبيه عليه السلام .

ولقد عاون على تفاهم التباين وتصاعد حدة التناقض بين ما يبذيه الاسلام في عالم الروح ونظام الاجتماع وأمور الاقتصاد والسياسة ، وبين مـا يمتلكه اليهود وما يطمعون فيه من تسلط وعدوانية وارهاب، هو ان عناصر يهودية من الاحبار والكهان أسلمت نفاقاً ورياء ، واندست تحت ظل ارتداء ثوب الاسلام بين المسلمين ، واطلعت على مـا هم بصدده من أمور شؤون الحيـاة وشؤون الدين .

وكان من أبرز هذه العناصر اليهودية: سعد بن حنيف ، وزيد بن اللصيت ونعمان بن أرقى بن عمرو ، وعثمان بن أوفى ، واقد عمـل التنظيم اليهودي الخفي عمله في الدفع بهـذه العناصر اليهودية لتأدية دورها المرسوم لهـا ضد الاسلام والمسلمين ، فزيد بن اللصيت مثـلاً هو الذي قاتل عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه بسوق قينقاع وهو الذي قال حين ضلت ناقة رسول الله (ص): يزعم محمد انه يأتيه خبر السماء ، وهو لا يدري أين ناقته؟ وعلم (ص) بقوله هذا اليهودي المستتر فغضب من هذه القولة اللئيمة التي أراد بهـا هذا اليهودي الهزء بالمصطفى عليه السلام ودله الله تعالى على مكانهـا فقال : ان قـائلاً قـال : يزعم محمد أنه يأتيه خبر السماء ولا يدري أين ناقته ، واني والله مـا أعلم إلا ما علمني الله ، وقد دلني الله عليها ، فهي في هذا الشعب قد حبستها شجرة بزمامها ، فذهب رجال من المسلمين ، فوجدوها حيث قـال رسول الله (ص) وكما وصف .

وهذه العناصر اليهودية بكل ما تؤمن به وما تلجأ اليه من أساليب في الخفاء أو العلانية تصاعدت بالمقاومة ضد الرسول (ص) والمسلمين الى مرحلة الصدام المسلح ، ويكفينا في التدليل على روح العناد والمقاومة عنـد اليهود ضد الاسلام والمسلمين شهادة (صفيه) رضي الله تعالى عنها بنت حييى بن

أخطب اليهودي، تقول فيما يرويه ابن هشام في سيرته، عن ابن اسحق الذي يقول: وحدثني عبدالله بن أبي بكر بن محمد بن حزم قال: (كنت أحب ولد أبي اليه وإلى عمي أبي ياسر، لم ألقهما قط مع ولد لهما إلا أخذاني دونه، قالت: فلما قدم رسول الله (ص) المدينة ونزل قباء في بني عمرو بن عوف، غدا عليه أبي حيي بن أخطب وعمي أبو ياسر بن أخطب، مغلسين قالت: فلم يرجعا حتى كنا مع غروب الشمس. قالت: فأتيا كالين كسلانين ساقطين يمشيان الهوينا. قالت فهششت اليهما كما كنت أصنع، فوالله ما التفت الي واحد منهما مع ما بهما من الغم، قالت: وسمعت عمي أبا ياسر وهو يقول لأبي حيي بن أخطب: أهو هو؟ نعم والله قال: أتعرفه وتثبته؟ قال: نعم. قال: في نفسك منه. قال: عداوته والله ما بقيت).

بهذه الروح المنكرة الكافرة والجاحدة عامل اليهود رسول الله (ص) في كل مراحل دعوته لهم أو مجاورتهم له. حتى كانت المرحلة التي ابتدأوا فيها يمثلون الخطر المحقق على حركة المسلمين وأمنهم وخاصة بعد أن ضاق اليهود بانتصار المسلمين في السنة الثانية من الهجرة على جيش مكة في معركة بدر، ومنذ السنة الثانية من الهجرة والعداوة اليهودية للمسلمين قد استنفذت كل ما لديها من ألاعيب وأساليب حتى كانت الحرب بين المسلمين واليهود، وقد تمكن فيها المسلمون أن يفرضوا ارادتهم على التجمعات اليهودية ويهيئوا الجو العام من حولهم لعلاقات اسلامية جديدة شريفة وفاضلة تقوم على قضايا الحق والخير والمساواة، وحتى لا تستقر هذه القيم على الأرض بدأ اليهود جولاتهم المتآمرة ضد الاسلام.

القرآن يجادل الرفض اليهودي:

قبل أن نتعرض للمنهج القرآني في بيانه وهو يجادل في محكم آياته الرفض اليهودي من دعوة القرآن إلى توحيد الإله الواحد القهار ودورتهم لاتباع نبوة محمد (ص) بهدف أن يغير ذلك من طبيعتهم التاريخية التي قامت على

تزييف الحق وعلى تشويه معالم عقيدة الايمان الصحيحة التي تتابع بها أنبياء الله من بني اسرائيل وهم يرفضونها جيلاً بعد جيل ، وذلك بسبب العنت والصلف المعاني المستقرة والكامنة في نفوسهم عبر التاريخ ، ولذا فقد جابه القرآن الكريم اليهود حين رفضوا دعوة الاسلام وذلك في بيان صريح وعبارة واضحة فيها كل الصدق والمسؤولية في المجادلة واقامة الحجة والبرهان، بادىء ذي بدء في مجادلة القرآن للرفض اليهودي يقرر القرآن صراحة ان اليهود من بني اسرائيل وخاصة في منطقة (يثرب) كانوا بما لديهم من بعض الحق الذي كان لدى بعضهم على علم بالعصر الذي سيظهر فيه النبي العربي ، الذي سيؤول اليه ميراث النبوة والرسالة منذ عصر أبيه ابراهيم عليه السلام .

وثاني الأمور أن اليهود كانوا على علم بظهور دعوته (ص) في مكة ، قبل ان يفد الى يثرب مهاجراً ، فقد كان بعضهم يفد إلى مكة للتجارة وشراء ما يحتاجون اليه من حلي وأدوات الزينة وبعض الاسلحة ، هذا فضلاً عن أن قريشاً في أبان اشتداد الأزمة ، بينها وبين رسول الله (ص) بعثت رجالاً من أشرافها على رأسهم (النضر بن الحارث) ، (عقبة بن معيط) للتعرف على حقيقة ما يدعيه محمد من أخبار النبوة والوحي السماوي باعتبار ان اليهود في يثرب أهل كتاب..وبالفعل فان القيادات الدينية اليهودية في يثرب تعاوناً مع اهل مكة قد وجهت الوفد إلى ان يبلغ قريشاً ليطلب من محمد الاجابة المحددة بضعة أمور في الغيب السحيق والمستقبل الغامض .. فان أجاب كما لقن التوراتيون اليثربيون من بني اسرائيل وفد أهل مكة فان الرجل في دعوته صادق ولا شك ونبي من غير جدال .

وكان أشد ما في الاسئلة التي وجهتها قريش بالفعل الى رسول الله ، بناء على توجيهات اليهود من بني اسرائيل ، والتي على ضوء الاجابة الصحيحة عنها على ضوء ما قرروا ، عرفوا انه نبي مرسل ، وكان يجب عليهم اتباعه ، السؤال عن فتية ذهبوا في الدهر الأول فقد كان أمرهم جللاً وحديثهم حدثاً؟

ثم السؤال عن رجل طواف قد بلغ مشارق الارض ومغاربها؟ ثم كان السؤال الثالث عن ذلك السر العظيم والخالد والذي احتفظ به ويكنون اسراره وما يحيط به رب العالمين كان السؤال عن : الروح .

ومن عجب ان الرسول (ص) في حوار قريش له حول الأسئلة الثلاث وعدهم بالإجابة في اليوم التالي للحوار ، وقال لهم : (أخبركم غداً عما سألتم عنه) ولم يقل ان شاء الله ، فكان تأجيل الوحي بالاجابة ثقيلاً على الرسول لكنه الدرس والتوجيه .

ومع ان الاجابة التي جاءت للرسول من ربه ، كانت مفحمة لليهود ، ولعلمهم وكل ما يدعونه عبر التاريخ ، فانهم ظلوا على موقفهم من العناد والرفض [1] وفي هذا تلمح الآية رقم ٨٩ من سورة البقرة الى بعد عجيب يتصل بالجحود اليهودي وسوء الطبع وكفران العقيدة ، يقول رب العزة : **[ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين]** .

وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا.. فقال لهم سبحانه وتعالى : **[ان تستفتحوا فقد جاءكم الفتح]** وكان هذا الاسلوب القرآني الرقيق بمثابة التوجيه المسالم واللفت المهذب..لقد كنتم أيها اليهود تخبرون المشركين بقرب ظهور نبي فلما جاء هذا النبي رحتم تنكرونه وتقاومونه .. ألا لعنة الله على الظالمين .

وبهذا المدخل القرآني الفذ في المعاملة وفي التوجيه وادارة الحوار مع

---

(١) في رسالة الدكتوراه التي قدمها الاستاذ الدكتور : (محمد سيد طنطاوي) لكلية أصول الدين جامعة الازهر عام ١٩٦٦ بعنوان : (بنو اسرائيل في القرآن والسنة) دراسة موسعة عن عقلية اليهود في الجدل وخاصة عند حديثه عن:مسلك المجادلات الدينية والمخاصمات الكلامية ص ١٩٠ من الجزء الاول .

بني اسرائيل كان رسول الله (ص) يلتزم بهذا النهج القرآني في كل أموره مع اليهود ، حتى في مراحل غدرهم به (ص) .

وحين وجدهم كقوة في يثرب تبتغي تحطيم الارادة العربية وتحطمها في حرب أهلية ، وذلك أنهم قسموا أنفسهم بادىء الأمر على مجموعات تعاون العناصر العربية المتنافرة والمتحاربة ، كان ذلك حين انضمت طائفة من يهود قينقاع والنضير الى الخزرج وانضمت قريظة الى الأوس .. وتطور الصراع بين الجانبين تورط فيه اليهود وكانوا في بعض المراحل يتقاتلون مع بعضهم البعض في نصرة من يحالفونهم من العناصر العربية المتحاربة ، حتى تضعف الحرب روح الحياة عند العرب وتهد كيانهم وتقلل بأسهم جاءت آيات البقرة لتلفت النظر الى انه لا ينبغي ان يكون الأمر هكذا بين اليهود ، وانه قد آن الأوان بظهور الاسلام أن يكفوا عن العداوة البغضاء والتنازع ، يقول رب العزة : [**وإذ أخذنا ميثاقكم لا تسفكون دماءكم ، ولا تخرجون أنفسكم من دياركم ثم اقررتم وأنتم تشهدون ، ثم انتم هـؤلاء تقتلون انفسكم وتخرجون فريقاً منكم من ديارهم تظاهرون عليهم بالاثم والعدوان وان يأتوكم أسارى تفادوهم وهو محرم عليكم اخراجهم أفتؤمنون ببعض الكتّاب وتكفرون ببعض فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلا خزي في الحياة الدنيا ، ويوم القيامة يردون الى أشد العذاب وما لله بغافل عما تعملون**] .

وهكذا كان الحرص القرآني على اشاعة جو من السلام امام الاسلام واهله حتى ولو كان مطلب الاسلام يسري على القطاعات اليهودية المختلفة ، التي تقاتل لغير ما هدف في القتال سوى العون على اراقة الدم العربي أصلاً .. ثم حدث ان الرسول (ص) استطاع ان يؤاخي بين الأوس والخزرج ، فاستظلوا براية الاسلام واجتمعت كلمتهم بعد ان كانوا متفرقين بل أعداء .. وكنتيجة طبيعية لوحدة الموقف العربي الذي تتحرك عليه دعوة الاسلام فان اليهود في المدينة عجزوا عن العداء السافر ، ولم يعودوا إلى مجابهة النبي بعد .. وانهم

في الرفض الصريح والمقاومة الجادة آثروا المهادنة فترة من الوقت .. عقد لهم فيها الرسول (ص) عهداً بلغ فيـه التسامح الاسلامي درجـة ان اكثر بنوده كانت لصالح اليهود .

لكنهم أدركوا ان نجاحـات الاسلام تسير بخطى متقدمـة وان المسلمين يحققون اوضاعاً اقتصادية وسياسية افضل ، فأحزنهم وضايقهم وفجر احقادهم ما رأوا امامهم من المناخ الذي يفرضون فيه مرّ كيدهم ، ويعبرون من خلاله عن مصالحهم قد ابتدأ يزول تماماً ، ذلك انهم رأوا ان عدد المسلمين يزيد ولا ينقص وان الاخوة الاسلامية تظلل بلونها الجميع .

ولما رأوا ان الرسول (ص) يلح عليهم في ضرورة اتباعه وانهم بكل ما يمثلونه غير خارجين عن نطاق دعوته (ص)، باعتبار ان الاسلام رحمة للعالمين، غاظهم النبي واعتبروه منافساً يقضي على امتيازاتهم وكل اوهـام ادعاءاتهم ، فدخلوا في مناورات معه ضربها القرآن للدرس والتدبير. اعلنوا انهم لم يؤمنوا بمحمد ليس لانه يمثل خطراً عليهم او يهدد امتيازاتهم واوضاعهم ، وانما لانه لم يقم الدليل على صدق دعوته وبأنه نبي ، ذلك انـه لم يأت بمعجزات مثل التي أتى بها الانقياء السابقون، وبرروا عزرهم في عدم قبول دعوته بهذا الادعاء.

ولما كان تاريخ بني اسرائيل من النبوة والرسالة ، ومن الانبياء على وجه الخصوص موقف الرفض والمكابرة بل والعنـاد والتآمر والقتـل حتى ضجت منهم السماء وسجلت عليهم بهتانهم وكفرهم بآيات الله، تنزل الوحي في الذكر الحكيم يقص على نبي الاسلام سخف الهراء اليهودي ويكشف عن مدى كذبه وتضليله .. تقول الآية الكريمـة رقم ١٨٣ من سورة ال عمران : [**الذين قالوا ان عهد الله الينا الا نؤمن لرسول حتى يأتينا بقربان تأكله النار قل قد جاءكم رسل من قبلي بالبينات وبالذي قلتم فلم قتلتموهم ان كنتم صادقين**].

واستمرأ اليهود هذا الاسلوب ، رغم ان القرآن الكريم كان يوبخهم عليه اولاً بأول حتى جاء حبر يهودي كبير لرسول الله (ص) وهـــو (رافع بن

حريمله) وقال المصطفى : يا محمد ، ان كنت رسولاً حقاً من عند الله كما تقول فأثبت لنا ذلك بالدليل ، قل لربك ان يكلمنا نحن حتى نسمع كلامه عندئذ نؤمن بك .. ولما كان هذا المطلب يعتبر تعطيلاً لوظيفة الوحي في الناس فضلاً عن انه عدوان على انبياء الله واهمال المشاعر والقلوب التي يمكن ان تتعرف على الله من خلال بعض آياته ، وهو مناف أصلاً لقضية الايمان .. فنزل الذكر الحكيم يسجل عليهم هـذا المطلب السخيف ويضرب لهم الامثال لعلهم يعقلون ، يقول رب العزة :

[وقال الذين لا يعلمون لولا يكلمنا الله او تأتينا آية كذلك قال الذين من قبلهم مثل قولهم تشابهت قلوبهم قد بينا الآيات يوقنون] .. وحتى لا يكون هنـاك ادنى شك في قلوب كل الذين استمعوا لرد القرآن الكريم على هذا المطلب اليهودي في ان يكلمهم الله الرفض الإلهي القاطع ، قص الله سبحانه وتعالى نبيه سبب الرفض وعدم الاستجابة لهراء ما يطلب الكهان من بني اسرائيل ، فقال لنبيه (ص) في سورة النساء الآية رقم ١٥٣ :

[يسألك أهل الكتاب ان تنزل عليهم كتاباً من السماء فقد سألوا موسى اكبر من ذلك فقالوا أرنا الله جهرة .. فأخذتهم الصاعقة بظلمهم ، ثم اتخذوا العجل من بعد مـا جاءتهم البينات فعفونا عن ذلك وآتينا موسى سلطاناً مبيناً] .

وفي هـذه الآية الكريمة يكشف القرآن الكريم عن النيات اليهودية ، ويوضح ان الموقف اليهودي منـذ ماضيه غير مستعد لتقبل الوحي ، ولا للاستجابة له .

ولمـا قالوا لرسول الله ، وكأنهم يبررون عدم الاستجابة له وكان يتزعم الموقف حبر يهودي اسمـه (ابن صوريا الفطيوني) : يا محمد مـا جئتنا بشيء نعرفه ومـا انزل الله عليك من آية بينة فنتبعك بهـا .. كان الرد القرآني الحاسم ليخرس الحواس المتلبدة والقلوب الغليظة :

[ولقد أنزلنا اليك آيات بينات وما يكفر بها الا الفاسقون] .

ولما أعلنوا انهم ليسوا في حاجة إلى الايمان بمحمد ، ولا إلى اتباع دين جديد لانهم بما لديهم من تراث في الدين ومن انتماء إلى ابراهيم عليه السلام وما يحفظونه من تعاليم ، ليسوا في حاجة إلى جديد جاء الرد القراني حاسماً .

ولما كانت توراتهم وكل ما يتعلق بها ، ان كان بها بقية من صدق ، كانت في زمن متأخر عن ابراهيم بفترة طويلة ، ولما كان ينازعهم في نفس الدعوى نصارى عصرهم ويحاورونهم في امر أحقية من هم اولى : اليهود أم النصارى في دعوى الانتماء والارتباط بابراهيم ودينه فقد قال رب العزة :

[يا أهل الكتاب لِمَ تحاجون في ابراهيم، وما أنزلت التوراة ، والانجيل من بعده أفلا تعقلون ، ها انتم هؤلاء حاججتم فيما لكم به علم فلِمَ تحاجون فما ليس لكم به علم والله يعلم وانتم لا تعلمون ، ما كان ابراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً ، وما كان من المشركين ، ان أولى الناس بابراهيم للذين اتبعوه وهذا النبي والذين آمنوا والله ولي المؤمنين] .

وكان من الممكن لو كان عند اليهود بعض حياء ان يتأدبوا امام هذه الروح الاسلامية ، وان لا يكرروا مواقف التزييف والتضليل ثم استسلامهم لروح الحقد التي تسيطر عليهم ، تجاه كل ما هو عربي من خلال روح الاسلام التي قوي بها بأس الامة العربية والتي كانت تتقابل بالامس وتريق دماء بعضها البعض فأكرمها الله بالاسلام ونبيه عليه الصلاة والسلام .

وكان لا بد من نذير .

المقاومة الاسلامية للعدوان اليهودي :

حدث بعد المعركة العظيمة التي خاضها المسلمون في الشهر الثامن من السنة الثانية للهجرة في بدر حين فرض عليهم القتال، وهم كانوا قد خرجوا لمصادرة بعض اموال قريش كرد فعل لما قامت به قريش ضدهم طوال ثلاثة عشر

عامـاً في مكة ان اليهود لم يتقبلوا نتائج هذه المعركة ولم يرضوا ان يسكتوا على مـا يمكن ان تؤتيه من ثمـار ، ولجأوا في مقاومة نتائجها إلى أكثر من اسلوب بعضه خفي متآمر وبعضه صارخ قد اعلنوا عنه .

وكانت بداية تصعيد موقفهم العدواني وتطويره في مواجهة زيد بن حارثة وعبدالله بن رواحة اللذين ذهب كل منهما يزف إلى اهـل المدينة بتوجيه من الرسول (ص) أخبار فضل الله على المسلمين في معركة بدر .

وكان اهتمام الرسول بـأن يزف الخبر بالنصر الى اهـل المدينة شديداً الى حد ان أعطى عبدالله بن رواحة ناقته الخاصة (القصواء) ودخل بها المدينة ليطمئن الجميـع على نتائج المواجهة الحربية بين المسلمين انصاراً ومهاجرين وبين مكة . لكن اليهودي (كعب بن الاشرف) الذي يمتد نسبه الى طيء والى بني النضير ، قاد موقفاً عدوانياً في مواجهة هـــذه الأنباء ، ثم تزعم حملة التشكيك في نتائج حرب بدر وحين كان يقص الصحابيان الجليلان أخبـار عون الله المسلمين حتى تمكنوا من قتل كذا وكذا من رؤوس الكفر ، هبّ (كعب بن الاشرف) في جمع يقول : أحق هذا ؟.. أترون محمداً قتل هؤلاء الذين يسمى هذان الرجلان ، فهؤلاء أشراف العرب وملوك الناس والله لئن كان محمداً أصاب هؤلاء القوم لبطن الارض خير من ظهرها .

وحين قدم الرسول من بدر الى المدينة ومعه أخبار النصر في بدر ، فضلاً عن مجموعات الأسرى من قيادات قريش ، شد كعب رحله وذهب إلى مكة ، ونزل على عبد المطلب بن ابي وداعة السهمي يحرض قريشاً من جديد على أن تثأر من محمد لقتلاها ويعدهم بالعون والنصرة .

وحين عاد من رحلة التآمر اليهودي الى المدينة ، قاد حملة اعلامية صاخبة ضد المسلمين ونسائهم ، حتى تضرّر المسلمون من التيار الذي يمثله (كعب بن الاشرف) ضرراً شديداً . وفي مواجهة هـــذا التحدي كان لا بد من عمل لإسكات هذا الصوت الشيطاني فقبيل منتصف السنة الثالثة من الهجرة وأثر

المضايقات التي تعرض لها المسلمون من هذا الحرب قـال رسول الله (ص) (اللهم اكفني شر ابن الاشرف بما شئت) ثم حدد موقفاً إيجابياً تجـاه هذا العدوان المتمثل في ابن الاشرف حين قال (من لي بابن الاشرف فقد آذاني) فقال (محمد بن سلمة) أخو بني عبد الاشهل : أنا لك به يا رسول الله . أنا أقتله . فأعطاه الرسول الموافقة على قتله وقال له: افعل ان قدرت على ذلك. لكن المهمة لم تكن يسيرة على محمد بن سلمة وذلك انه مكث ثلاث ليال لا يأكل ولا يشرب وتسرب الخبر الى رسول الله فقال لابن (سلمة) لِمَ تركت الطعام والشراب فقال : يا رسول الله قلت لك قولاً لا أدري هل أفي لك به أو لا ؟ قال له (ص) : إنما عليك الجهد . فقال الرسول (ص) : يا رسول الله لا بد لنا كعب بن الاشرف من الحيلة . فوافق الرسول على استعمال الحيلة في قتل كعب وقال للمجموعة التي قادها محمد بن سلمة : أنتم في حل من ذلك، فاجتمع على قتـله محمد بن سلمة ، وابو نائـلة سلكان بن سلامة بن وقش ، وعباد بن بشر بن وقش، والحارث بن أوس بن معاذ ، وابو عيسى بن جبر، وهـذه القوة العسكرية أشبه بمجموعة (كوماندوز) أوكل اليهـا هذه المهمة الخاصة (قتل كعب بن الاشرف) نظراً لامكاناته وما يحيط به من استعداد ، وأوكلت إلى هذه السرية مهمة تهيئة الجو لعملية قتل كعب بن الاشرف لكي تؤتي ثمارهـا في القاء الرعب والفزع في قلوب اليهود ، ولكي تكون بمثـابة اشارة البدء للمقاومة الاسلامية لليهود ، لعـل اليهود يتداركون موقفهم العدواني قبل ان يتفجر الموقف تماماً . وبالفعل تقدم اليه ابو نائلة سلكان بن سلامة وتحدث معه بعض الوقت وأثار قضايا عديدة حتى اطمأن كعب بعض الشيء الى حديث بن سلامة .

ثم استدرج ابو نائلة كعب بن الاشرف قائلاً له : ويحك يا ابن الاشرف ، اني قد جئتك في حاجة أريد ذكرها لك فاكتم عني . قال : لك ما تريد . قال ابو نائلة : قد كان قدوم هذا الرجل ، يقصد رسول الله (ص) ، بلاء من البـلاء ، عادتنا العرب ورمتنا عن قوس واحدة ، وقطعت عنا السبل حتى

ضاع العيال وجهدت الأنفس ، وأصبحنا قد جهدنا وجهد عيالنا ، فقال كعب : انا ابن الاشرف ، والله لقد كنت اخبرك يا بن سلامة ان الأمر سيصير الى ما أقول . فقال له سلكان : إنا نريد التنحي منه ، ومعي رجال قومي على مثل رأيي وقد أردت ان آتيك بهم فنبتاع منك طعاماً وتمراً ، ونرهنك ما يكون له فيه ثقة ووفاء .. وهنا ظهر الخلق اليهودي المعوج والمنحرف والمتاجر بأعراض النساء والمتعيش على الانحلال والخطيئة ، وذلك ان رد كعب بن الاشرف لقول سلكان : نرهنك ما يكون له فيه ثقة ووفاء ان قال : ترهنوني نساءكم.. قال ابو نائلة : كيف نرهنك نساءنا وأنت أشب اهل يثرب واعطرهم ·. فقال: أترهنونني ابناءكم ؟ قال ابو نائلة : لقد أردت ان تفضحنا وان يعير ابناؤنا،فيقال على الواحد منهم هذا رهينة طعام وتمر. ثم عرض ابو نائلة على كعب بن الاشرف ان يرهنوا سلاحهم ، وهذا من جانب سلكان امعان في تضليل كعب بن الاشرف ، حتى اذا ما قدمت السرية الموكل اليها قتل كعب تحمل سلاحها لا يتخوف منها كعب ، ولا يلجأ الى الحماية ، ولا يشهر السلاح حتى يكون لموته الوقع المقصود .

وهنا ذهب سلكان بن سلامة إلى رسول الله (ص) وأخبر أصحابه بما توصل اليه ، وفي اليوم المتفق عليه لقتل كعب والذي يرجح كتّاب السيرة انه لأربع عشر خلت من ربيع الأول ، على رأس خمسة وعشرين شهراً من الهجرة،مشى معهم رسول الله (ص) بنفسه مسافة يودعهم ويبارك مهمتهم قائلاً :(انطلقوا على اسم الله اللهم أعنهم) ، وحين رجع (ص) الى بيته كانوا هم قد قطعوا الطريق الى بيت كعب وحين انتهوا إلى حصنه نادى ابو نائلة على كعب بأعلى صوته ، وكان ابن الاشرف في أيام عرس جديد ، وحين نزل من حصنه بعد ان حاولت امرأته ان تثنيه عن النزول في هذا الوقت المتأخر من الليل ، كان سلكان ماهراً في أداء مهمته للغاية ، فبعد ان اطمأن الى المجموعة التي بصحبة أبي نائلة قال له سلكان : هل لك يابن الاشرف ان تتماشى إلى شعب فنتحدث فيه بقية ليلتنا ؟ فقال : ان شئتم . وحتى لا يقع

أدنى شك في قلب ابن الاشرف كان سلكان بن سلامة كل فترة من الوقت يضع يده على رأس ابن الاشرف ووجهه ليشم عطره ويقول له : مـا رأيت الليلة طيباً أعطر من هذا .. وحدثهم ان هذا عطر العروس الجديدة ، وفي شعب يظاهر المدينة حين اطمأن الرجال إلى امكانية نجاح مهمتهم صاح فيهم سلكان بن سلامة قائلاً : اضربوا عدو الله .. اضربوا عدو الله .. فضربوه ، وكاد كعب بن الاشرف أن يفلت من السيوف .. يقـول محمـد بن سلمة : فذكرت مغولاً أي خنجراً في ثوبي حين رأيت أسيافنا لم تغن ، فطعنته ما بين سرّته وعانته بعد أن تحاملت عليه في شدة ، حتى صاح عـدو الله صيحة لم يبق لها حصن إلا أوقدت عليه نار ، وأنجزت السرية المجاهدة عملها وأعطت اشارة البدء في امكانية قطع ألسنة القوى اليهودية واحداً بعد الآخر ، إذا ما ظلوا على موقفهم المعادي للاسلام ونبيه ﷺ .

ومن عجب ان أعـداء الاسلام بالأمس البعيد والقريب والواقع المعاصر يرون في أمر رسول الله (ص) بقتل كعب بن الاشرف عدواناً عليهم ، ولا يرون في مطاردة اليهود للمسلمين ولنسائهم وتحريضهم القبـائل والبطون على حرب رسول الله ، ونقضهم عهدهم معـه ، ولا يرون في ذلـك عدواناً على الاسلام والمسلمين .

وفي مقتل كعب بن الاشرف يقول عباد بن بشر :

صرخت فـلم يعرض لصوتي — وأوفى طالعـاً من رأس جدر
فعدت له فقال : مَن المنادي ؟ — فقلت : أخوك عباد بن بشر
وهذي درعنـا رهناً فخذها — لشهر .. إن وفى أو نصف شهر
فقال : معاشر سغبوا وجاعوا — وما عدموا الغنى من غير فقر
فأقبـل نحونـا يهوي سريعـاً — وقال : أما .. لقد جئتم لأمر
وفي إيمـاننـا بيض حـداد — مجـرية بهـا الكفـار تفري

فعانقــه ابن مسلمة المـــردي ... بـــه الكفار كالليث الهزبر
وشد بسيفـه صلتـا عليـه ... فقطـره أبو عبس بن جبر
فكان الله سادسنا فأبنـــا ... بأنعم الله .. وأعـــز نصر
وجـــاء برأسه نفر كرام ... هم ناهيك من صدق .. وبر

* * *

وبهذه المهمة الفدائية والتي كان الله فيها عونـا وسنداً كما يقول عبـاد بن بشر ، فان رسول الله (ص) قد آذن اليهود بأنـه من الممكن وضع حـداً لمقاومتهم للاسلام وأهله ومع ذلك واصلوا معه رحلة العدوان .

الباب الثالث

انبياء التوراة في القرآن الكريم

الفصل الأول

اسحق ويعقوب عليهما السلام

اسحق ويعقوب عليهما السلام في لغة القرآن الكريم وعطائه من أنبياء الله يحمل كل منهما مهمة أناطه الله بهـا وكلـّفه إياها ، والوحي الإلهي فيهـا عونهم ومددهم من الله في كل مـا يتعلق بهداية البشر وتوجيه رسالة الله اليهم فضلاً عن عصمته لهم من الوقوع في الخطيئة أو الكبائر ، بحكم ان الأصل في أنبياء الله ورسله أنهم نماذج هداية يصطفيهم الله سبحانه من بين خلقه ليبلغوا عن الله بالوحي الإلهي ما يسعد البشر وما يأخذ بأيديهم ، ومن هنا فان الله سبحانه يعصمهم عن الوقوع في الكبائر ويرفعهم عن أن يقعوا في خطيئة أو يمارسوا فساداً (١) .

وبهذا الأساس فان حديث القرآن الكريم عن هؤلاء الكرام يختلف تماماً ويغاير قصص العهد القديم ، ذلك القرآن كما سبق القول انتهى الينـا بالهيئة التي هو عليها الآن منذ نزل من الله تعالى على قلب الخاتم محمد (ص) لم يمسه

---

(١) (مقالات الاسلاميين واختلاف المصلين) تأليف شيخ أهل السنة والجماعة الامام أبي الحسن علي بن اسماعيل الاشعري المتوفى في عام ٣٣٠ من الهجرة تحقيق : محمد محيي الدين عبد الحميد الجزء الأول من الطبعة الثانية عام ١٩٦٩ ص ٢٣١ .

فكر بشر ولم تعمل فيه أهواء المؤمنين به أو المنكرين له ، فخبره هو الخبر وحديثه وحده هو الحق الخالص الذي لم يختلط به شيء آخر من فكر البشر أو عمل الناس ، اما العهد القديم فهو كما أوضحنا سجل مأثورات ومرويات وذكريات لأجيال عديدة ومراحل مختلفة من عمر الكتّاب والمدونين، الذين قاموا على أمره ، ولذا فمن الطبيعي والمنطقي ان تختلف لغة القرآن الكريم في مجمل عطائه وتفصيله عن معظم ما انتهى الينا من تراث في العهد القديم عن النبوة والرسالة الإلهية فضلاً عن عقيدة الايمان في الله رب العالمين وعلى ذلك فالنبي يعقوب الذي لم نلمح أثراً للنبوة او الرسالة الإلهية تتحقق على يديه في لغة أسفار العهد القديم ، يطالعنا القرآن الكريم عنه بشيء يتغاير تماماً ويختلف مع مرويات العهد القديم ويتفق تماماً مع جلال النبوة ووظيفة الرسالة الإلهية التي يصطفي الله من أجلها بعض خلقه .

ان يعقوب مع أخيه اسحق منذ الصبا المبكر ، وحتى قرب النهاية من عمرهما في الحيـاة لم يعرفا تهمها به كاتب أسفار العهد القديم من صراع ومؤامرات وتلصص وسرقة وإنمـا هما على دين الله الحق الذي لا تتغير كلمته ولا تتبدل لأن كلمة الله للناس لا تتغير ولا تتبدل وفي البـداية كما يقول رب العزة عنهما في سورة البقرة حمل الرجلان من ابيهما ابراهيم عليه السلام تلك الحقيقة التي ما خلا منها قلب نبي وما تجرد عنها سلوكه وما فترت في عواطفه أبداً: **[ووصى بها ابراهيم بنيه ويعقوب يا بني ان الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن الا وأنتم مسلمون ، أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت إذ قال لبنيه ما تعبدون قالوا نعبد إلهك وإله آبائك ابراهيم واسماعيل واسحق إلهاً واحداً ونحن له مسلمون]** [1] فهاتان الآيتان الكريمتان تؤكدان ان نبي الله يعقوب أوصى بنيه بعبـادة الله تعـالى وحـده لا شريك له والاسلام له سبحانه، أي الانقياد له والخضوع لجلاله ذلك ان الاسلام بهذا المعنى هو ملـة

---

(١) سورة البقرة آيتا ١٣٢ – ١٣٣ .

الأنبياء جميعاً وان تنوعت شرائعهم واختلفت مناهجهم [١]. ولذا رب العزة يقول في سورة البقرة : [**قولوا آمنا بالله وما أنزل الينا وما أنزل الى ابراهيم واسماعيل واسحق ويعقوب والاسباط ، وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون**] [٢] فهو سبحانه وتعالى في هذه الآية كما يقول الإمام ابن كثير أرشد عباده المؤمنين إلى الايمان بما أنزل اليهم بواسطة رسوله محمد (ص) مفصلاً وما أنزل على الأنبياء المتقدمين مجملاً ،ونص على أعيان من الرسل وأجمل ذكر بقية الأنبياء، وأن لا يفرقوا بين أحد منهم بل يؤمنوا بهم كلهم ، ولا يكونوا كمن قال الله فيهم : [**ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون ان يتخذوا بين ذلك سبيلا أولئك هم الكافرون حقاً ..**] الآية .

هذا .. وينفي القرآن الكريم عن أنبياء الله في العهد القديم كل ما لحق بهم من عدوان وما تعرضوا له من أذى مقرراً ما كانوا عليه من إيمان بالله مبرزاً عميق صلتهم بالله كاشفاً عن اسلوبهم في الدعوة الى الله هذا الاسلوب الذي انتهى مع الزمن في بيت اسرائيل بما سمّي باليهودية والنصرانية التي قدّمها ما سمي بالكتاب المقدس في صور ونماذج من المسخ والتشويه لكل قيم النبوة وطهارتها في ظل التسمية باليهودية والنصرانية التي تبرز بين سياق ولغة الكتاب المقدس . ومن هنا فرب العزة في بيان محكم ولغة مشرقة مضيئة يضرب هذا الافتراء ليرفضه منطق الاسلام ، وليعرف الناس ان ما انتهى اليه العالم من تراث او مأثورات عن اليهودية والنصرانية في أسفار اليهود والنصارى لا علاقة له بالوحي الإلهي ولا بالايمان الصحيح . يقول رب العزة : [**أم تقولون ان ابراهيم واسماعيل واسحق ويعقوب والاسباط ، كانوا**

---

(١) ابن كثير الجزء الاول ص ٣١٧ .
(٢) سورة البقرة الآية ١٣٦ .

يهوداً او نصارى ، قل أأنتم أعلم أم الله ، ومن أظلم ممن كتم شهادة عنده من الله وما الله بغافل عما تعملون ، تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عما كانوا يعملون] (١) .

هنـا يرقى القرآن الكريم بأنبياء الله إلى مكانهم اللائق بهم في علاقتهم بالله من حيث وضعهم كتاب الكتاب المقدس بعهديه – قديماً وجديداً – فيما هو متداول الآن – يهودية ونصرانية – تخرج النبوة عن أهدافها وتفسد عملها في الناس وتسيء إلى أنبيـــاء الله في عواطفهم وأعراضهم وأخلاقهم ودينهم ، يرقى بهم القرآن الكريم إلى مكانهم الحقيقي في علاقاتهم بربهم ، وهو أنهم لم يكونوا – يهوداً او نصارى – على ذلك النمط الآثم في حق انبياء الله الذي يتم تداوله في تراث العهد القديم ومن هنا فرب العزة يطهرهم من نسبة ما في أيدي اليهود والنصارى اليهم ويقول سبحانه في سورة آل عمران : [مـــا كان ابراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً ومـــا كان من المشركين] (٢) . وعند شرح هـذه الآية الكريمة يقول الاستاذ عبد الكريم الخطيب في تفسيره لها : (٣) قوله تعالى [ولكن وكان حنيفاً مسلماً] تعريض بما عليه أهل الكتاب – اليهود والنصارى – من انحراف عن الدين القويم ، الدين الذي جاء به انبياء الله إلى عبادة الله .

(والحنيف) هو المتعبد لله ، الراكع الساجد لعزّته وجلاله ، المائل عن طريق الهوى والضلال (والمسلم) من أسلم وجهه لله ، وأقامه عليـه وحده دون أن يلتفت إلى سواه ، واليهود والنصارى لم يسلموا وجوههم لإله واحـد قائم على هذا الوجود منفرد به ، اذ جعل اليهود إلههم إلهاً فردياً ، هو ربهم

---

(١) سورة البقرة آيتا ١٤٠ ، ١٤١ .

(٢) سورة آل عمران الآية ٦٧ .

(٣) (عبـــد الكريم الخطيب) . (التفسير القرآني للقرآن) الجزء الثالث ص ٤٨٨ – دار الفكر العربي – القاهرة – الطبعة الاولى .

وقائد جنودهم وقائم على تدبير شؤونهم هم وحدهم ، أمـا الناس جميعاً غيرهم فلهم إلههم او آلهتهم اذ لا شأن لهذا الإله او تلك الآلهة باليهود ، كما لا شأن لليهود بها . هكذا يعتقدون .

امـا النصارى فالههم هو ثلاثة : آب وابن وروح قدس ، تجتمع وتتفرق فاذا اجتمعت كانت إلهـاً واحداً ، واذا تفرقت كان كل منهـا إلهاً وحده ، وهذا وذاك على غير الحق ، وعلى غير ما يدين به ابراهيم الذي ينسبون دينهم اليه .. لأن ذلـك الذي عليـه اليهود والنصارى الآن شرك والله تعالى في ابراهيم (وما كان من المشركين) .

هـذا .. ويرفع القرآن الكريم الخطيئة التي دنّس بها كتاب العهد القديم سيرة الانبياء وشوهوا وجههم الطيب حين نقلوا ونسبوا اليهم في اثم وافتراء ما وقع فيه شعبهم وقادتهم ، لكن القرآن الكريم يرفعهم إلى أعلى مقام من التكريم والترقي مـع تحديد أكرم وأرفـع وأنظف المهـام والمسؤوليات التي يكلف الله بهـا بعض عباده وهي النبوة التي يصطفي الله لهـا من يختارهم من خلقه لهـا ، ويخاطب الله سبحانه نبيه الخاتم ويضع شرفه الأسمى بالنبوة في الدائرة التي تشرف بهـا أنبياء الله جميعاً بل ويصل التكريم الادبي في هـذا المقام إلى أعلى ذروة الكمال والتكريم لأنبياء الله حين يشبّه الله تعالى شرف ما أوحى به إلى محمد (ص) بأنه مثل ما أوحى به إلى أنبيائه جميعاً ، وأنبياء بني اسرائيل بالقطع من بين هؤلاء الانبياء الذين عناهم الله سبحانـه وتعـالى بقوله في سورة النساء مخاطباً سيد ولد آدم (ص) : [**انا أوحينـا اليـك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده وأوحينا إلى ابراهيم واسماعيل واسحق ويعقوب والاسباط وعيسى وايوب ويونس وهـارون وسليمان وآتينـا داود زابوراً ورسلا قد قصصناهم عليك رسلا لم نقصصهم عليك وكلم الله**

موسى تكليماً ، رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وكان الله عزيزاً حكيماً] [1] .

وهـــذه الآيات الكريمـة تجمل وحي الله إلى ابراهيم واسماعيل واسحق ويعقوب وغيرهم من أنبيـاء الله هو من نفس مستوى وحي الله تعـالى لنبيه الخاتم ، وأن مهمتهم على ضوء نعمـــة وحي النبوة هـي التبليغ والتبشير والانذار بما أمرهم الله تعالى به وبما نهاهم عنه ، وأنهم كانوا حجة الله على الناس برهان رحمتـه وآية نعمته ، فهل طالعنا كاتب الاسفار التي ناقشناها في سيرة ابراهيم واسحق ويعقوب وأبنائه بشيء من عمل النبوة وهدايتها في الناس على يد نبي من هؤلاء ، ان الجواب هو مـا انتهينا اليـه في دراستنا النقدية للعهد القديم ، وهـو أننا لم نعثر للنبوة على أثر بين سيرة انبيـاء الله في لغة العهد القديم : لقـد رأينا أبا الانبياء في منهج كتّـاب الاسفار التي تناولت التراث الاسرائيلي في رحلة سياسية طويلة لم يستح أثناء الحديث عنها كاتب الاسفار وخاصة سفر التكوين من أن يرينا نبياً من الانبياء وهو يبيع امرأته مرتين، ولم يذكر لنا كتاب العهد القديم فقرة او موقفـاً من مواقف ابي الانبياء ينم عن دعوة الرجل لله او استجابة احد له ، بل ان بعض شرّاح العهد القديم ، وهو القس (وليم مارش) قـد راح في المجلد الاول من موسوعته يقول بغير حياء وبغير عقل ايضاً : (ويظهر ان ابرام حين ترك حاران اتفق هو وسارة على أن تقول انهـا أخته ، وهـذا بحسب النظر إلى ايمان ابرام غريباً جداً ، فـان ترك ارض ميلاده اطاعة لأمر الله ، وذهب غريباً ينتقل من مكان إلى مكان، ومع هذا ارتكب ذلك ، وهو مما يؤول إلى أخذ امرأته منه ، ولعل ابرام أتى ذلك لينقذ نفسه ، واتكل على نباهة امرأته في أنهـا تخلص نفسها

---

(١) سورة النساء الآيات ١٦٣ - ١٦٦ .

من المصاعب ، ولكن في كل الاحوال كان مـا أتاه دليلاً على ضعف الانسان ولا سيما انسان سامي السجايا محسوب من أفاضل البشر)[1] انتهى .

هكذا ولا يستحي كتّاب التراث او شرّاحه من خلع مثل تلك المهانات على انبياء الله وخاصة نبي مثل ابراهيم عليه السلام أوحى الله اليه وبلغ عن ربـه ورتبته عند الله على ضوء ما كلفه من شرف النبوة لا تجعله يقع في مثل هذا الاثم الذي يدعيه كتّاب العهد القديم ظلماً وعدواناً، ان النبي الخاتم محمد(ص) وهو كما تقول الآية الكريمة في سورة الانعام التي أتينا عليها آنفاً قد اوحى اليه مثل ما اوحى إلى ابراهيم واسماعيل واسحق ، يعطينا الانموذج والقدوة التي تتصور في سلوك وتصرفات وأعمال انبياء الله تعالى ، وباليقين فان مـا يمكن ان يصدر من ابي الانبياء ابراهيم عليه السلام وأبنائه من بعده وخاصة من اصطفاهم الله بشرف النبوة لا بـد وان يكون على نفس المنهج ، ومن خلال تلك الدائرة التي يحدد لنا ملامحها رسول الله (ص) ، وهذه الواقعة او هـذا الانموذج الذي يقدمه لنا رسول الله (ص) في واقعة تتعلق بأم المؤمنين (صفية بنت حيي بن أخطب) رضي الله تعالى عنها لتعطينا كل الدلالات والمؤشرات التي يمكن ان تقوم برهاناً على سلوك وتصرفات نبي حيال أهله او مع الناس. وخلاصة هذه الواقعة كما أوردها ابن كثير في تفسيره[2]: أن صفية بنت حيي كانت تزور النبي (ص) وهـو معتكف في المسجد ، فتحدثت معـه ساعة ثم قامت لترجع الى منزلها وكان ذلك دليلاً، فقام النبي (ص) ليمشي معها حتى بلغ دارها وكان منزلهـا في دار أسامة بن زيد في جانب المدينة ، فلما كان ببعض الطريق لقيه رجلان من الانصار ، فلما رأيا النبي (ص) أسرعا ، وفي

---

(١) (القس وليم مارش) السنن القويم في تفسير اسفار العهد القديم الجزء الاول ص ١١٣ .

(٢) (ابن كثير) تفسير القرآن العظيم الجزء الاول ص ٣٩٧ .

رواية تواريا ، أي حياء من النبي (ص) لكون أهله معه فقال لهما (ص): على رسلكما : انها صفية بنت حيي : أي لا تسرعا واعلما انها صفية بنت حيي ، أي زوجتي ، فقالا : سبحان الله يا رسول الله فقال (ص) : (ان الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم ، واني خشيت ان يقذف في قلوبكما شيئاً ، أو قال شراً) . هذا هو الانموذج والقدوة في السلوك العـام في منطق النبوة وضوابطها وفي واقعة قد يلتبس فيها الحلال بالحرام أو الحق بالباطل عند من لم يتبين الموقف على حقيقته او يتعرّف على معالمه تقدّمه لنا سيرة رسول الله محمد (ص) كمثال في سلوك الانبياء ، ولا يقبل العقـل والمنطق فضـلاً عن ضوابط النبوة ان تكون سيرة نبي الله محمداً (ص) بهذا المستوى الرفيع من العفّة والضوابط بينما سيرة نبي الله ابراهيم عليه السلام بذلك المستوى المهين الذي نقله كتّاب العهد القديم ونسبوه في زيف وعدوان الى ابي الانبياء عليه السلام ثم إلى أبنائه من بعده اسحق ويعقوب .

هـذا .. ومـا ينطبق على ابراهيم عليه السلام من رفض المنهج القرآني لكل المهانات التي البسها كتّـاب العهد القديم به ينطبق على ولديه اسحق ويعقوب، وإذا كان التراث الاسرائيلي يقدم لنا سيرة يعقوب عليه السلام متضمنة وقوع ابنته (دينة) في خطيئة الزنا بالغصب والقهر الذي أوقعها فيه شكيم ثم تعـالج الجريمة في قصص كتّـاب العهد القديم بذلك الشرط الذي طرحه أبناء يعقوب بأن تتبع العشيرة كلها وأهل بلد شكيم ما اشترطه عليهم أبناء يعقوب من تطبيق الختان على أنفسهم مثلما يفعل أبناء يعقوب ، وليتزوج شكيم من دينة ليقوم بين الطرفين أبنـاء يعقوب وأهـل شكيم العهود والمواثيق فان العجيب المحيّر هو ما يطلع به كاتب الاسفار على الباحثين والدارسين من أن أبناء يعقوب قاموا على أهل شكيم وهم في حال أشبه ما يكون بالجراحة من أثر الختان الذي طبقوه،على أنفسهم ويقتلونهم جميعاً غدراً وحيلة ومكراً وخداعـاً ، وهـذه الصورة القصصية الروائية التي يقصها كتّـاب التراث

الاسرائيلي يفتقد فيها تماماً كل أثر للنبوة ولعمل الرسالة الإلهية فيمن يصطفيهم الله لرسالته ، فاذا مـــا قبلنا الرأي القائل والشائع بأن الأسباط هم أبناء يعقوب كانت المشكلة التي يطرحها كتّاب العهد القديم في تناولهم لتراث بني اسرائيل أشد خطورة وأكثر إثماً ، لأن هؤلاء الاسباط في منطق القرآن الكريم اسم على مجموعة من الناس تجيء في معظم ورودها في القرآن الكريم عقب اسم يعقوب [١] ، وقد وضعهم الذكر الحكيم في سلسلة الذين أوحى الله تعالى اليهم وحياً في قوله تعالى في سورة النساء : [**إنا أوحينا اليك كما أوحينا الى نوح والنبيين من بعده وأوحينا الى ابراهيم واسماعيل واسحق ويعقوب والاسباط ..**] [٢] الآية . وعلى هـذا فقد دخـل الاسباط دائرة النبوة وعليهم التزاماتها ولا يتصور منهم إلا كل ما يصدر عن نبي فهل الواقعة التي تحكي قصة زنا دينة وقتل اخوتها للرجل الذي تزوجها بعد العهود والمواثيق تعتبر واقعـة تتفق ومنهج النبوة في الكمال الأخلاقي والتوجيه الاجتماعي ؟ وهل واقعة زنا يهوذا الولد الرابع ليعقوب بزوجة ابنه التي لم يكن يعرفهـا بعد أن تخفـّت هي لكي يفعل معها ما فعل لعلها على ضوء الرواية التي أتينا عليها في القسم الأول من الرسالة من انه يقوم بهذه الخطيئة ويمارسها بانتظام، هل تتفق واقعة كتلك وجلال القول الذي يدّعي ان الرجل كان نبياً يوحى

---

(١) (المرحوم محمد بن فتح الله بدران) في كتابه : (الفلسفة الحديثة في الميزان وتأسيس القواعد من القرآن) يذهب الى أن الاسباط ليسوا هم أبناء يعقوب وقد خصص في كتابه مبحثاً بعنوان (أخلاق العشرة الكبار اصل بني اسرائيل) وانتهى الى ان أبناء يعقوب ليسوا هم الاسباط الذين عناهم الذكر الحكيم بأنه نزل عليهم وحي الله تعـــالى ، وقد اخذ يسوق الادلة والبراهين في التدليل على مـا ذهب عليه ، ومهما يختلف حول منهج الشيخ رحمه الله فان ما ذهب اليه يعتبر بعض دليل على عدم اطمئنان العقل الاسلامي في بعض مراحله الى ان ابناء يعقوب بالشكل الذي انتهى الينا من خلال تراث اسرائيل في العهد القديم اهل للرسالة الدينية او للنبوة الالهية : انظر صفحات ٥٥٧ — ٦٠٠ من الكتاب المذكور . الطبعة الثانية عام ١٩٦٩ م .

(٢) (سورة النساء الآية ١٦٣) .

اليه؟ أي هل تتفق واقعة كتلك وجلال معنى النبوة والرسالة المتعلقة بالاسباط ان كان يهوذا هذا من الاسباط الذين أوحى الله اليهم، وان كان أبناء يعقوب هم المعنيون بالأسباط وفي كلا الحالتين ، ان كان الاسباط الـذين نزل عليهم وحي الله كما تقول وتنص آية الانعـام هم أبناء يعقوب .. أم الاسباط قوم آخرون ليسوا من أبناء يعقوب ، وخاصة ان الذكر الحكيم آية قـد تقوي الرأي القائل بأن الاسباط ليسوا بأبنـاء يعقوب وهي التي يقول فيهـا رب العالمين من سورة الاعراف في الآيتين ١٥٩ – ١٦٠ : [**ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون ، وقطعناهم اثنتي عشرة أسباطاً أمماً ، وأوحينا الى موسى إذ استسقاه قومه أن اضرب بعصاك الحجر فانبجست منه اثنتا عشرة عيناً قد علـم كل أناس مشربهم ، وظللنا عليهم الغمام وانزلنا عليهم المن والسلوى كلوا من طيبات ما رزقناكم وما ظلمونا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون**]. فالاسباط هنا من قوم موسى وبين عصر يعقوب وموسى أجيال عديدة، فان سيرة أبناء يعقوب في العهد القديم لا يقبلها بالحال الذي هي عليه ولا بالأخبار التي تلصقها بأنبياء الله القرآن الكريم ولا تستقيم في منطقه أبداً ، فلقد كانوا أبنـــاء نبي ابن نبي وأخوة نبي ، ومهما تكن الهنات او العثرات التي قد وقعوا فيها فـلا يعقل ان تكون على مستوى الدنس الذي أرانا إياه كتّاب العهد القديم وهم يعرضون لسيرتهم مع أبيهم تارة ومع أخيهم مرة أخرى ومع أنفسهم ثالثة ومع الناس رابعاً وهكذا بغير ضوابط ولا خلق ولا دين ، والاسباط في لغة القرآن الكريم وعطائه أكانوا هم أبناء يعقوب أم غيرهم كما يذهب بعض العلماء [1] قوم أنزل الله اليهم سبحانه وحيـاً وعدّهم في سلسلة الأنبياء الذين أوحى اليهم كما تفصح بذلـك آية الانعام وآية البقرة تبرئهم ممـا يمكن أن يدعيه أبناء اسرائيل ممـا انتهوا اليه في تراثهم يهودية ونصرانية لا

---

(١) (محمد بن فتح الله بدران) . الفلسفة الحديثة في الميزان وتأسيس القواعد من القرآن ص ٥٥٨ .

تستقيم في لغة القرآن الكريم عند الحديث عن النبوة والأنبياء ؟ ولذا فرب العالمين يضعهم في مكانهم اللائق بهم تكريماً وتطهيراً مما لحق بهم من أذى ، ويدحض دعوى الذين ينسبون أنفسهم اليهم ليظلموهم او ليخلعوا عليهم صور الإثم والفساد التي تجيء دائماً مقترنة وملازمة لسلوك وقيم كل الذين يتحدث عنهم تراث العهد القديم ويقص سيرتهم . فيقول سبحانه في سورة البقرة وهو يسكت لغط القائلين والمدّعين ويدحض حجج المكابرين من كتّاب ونساخ تراث بني اسرائيل في العهد القديم : [**أم تقولون ان ابراهيم واسماعيل واسحق ويعقوب والاسباط كانوا يهوداً او نصارى ، قل أأنتم أعلم أم الله ، ومن أظلم ممن كتم شهادة عنده من الله، وما الله بغافل عما تعملون**] [1] .

هنا في هذه الآية الكريمة يرفض القرآن الكريم في صراحة ووضوح أن يكون الاسباط الذين أوحى اليهم وحياً ، وكلفوا بالقطع بالوظيفة التي تناط بالذين يصطفيهم الله من خلقه بالنبوة وهي التبليغ والانذار وعليهم على ضوئها كل التزامات ومسؤوليات أنبياء الله ورسله . يرفض القرآن الكريم ان يكون الاسباط يهوداً او نصارى ، بالمعيار الذي انتهت اليه يهودية اليهود ونصرانية النصارى ، أي انهم لا بد وان يكونوا في مستوى كل أنبياء الله في علاقاتهم برب العالمين من حيث توحيدهم له ، وتنزيههم لجلاله عن الشبيه والنظير والصاحبة والولد ، بالاضافة الى طهارة قلوبهم ونظافة سلوكهم وعدم وقوعهم في الدنس او الخطيئة ، ومن هنا فلا يقبل منطق القرآن ، ما نسبه كتّاب العهد القديم من مفتريات ومآثم ومخازي وخطايا لأنبياء بني اسرائيل عامة وأبناء يعقوب على وجه الخصوص ، ومع كل ادّعاء كتّاب اللاهوت بأن أبناء يعقوب هم الاسباط الذين يقفون في سلسلة أنبياء الله دون ان

---

(١) (سورة البقرة الآية ١٤٠ .

تكون في سيرتهم التي هي في العهـد القديم نمـاذج عصمة النبوة وكمالاتهـا واضحة جليّة ، فان أخبـار العهد القديم عن أبناء يعقوب سواء أكانوا هم الأسباط أم كان الأسباط قـوم غيرهم لا يمكن ان تكون برهانـاً على خلق واستقامة فضلاً عن نبوة وأنبياء .

ومن هنا فرواية العهد القديم عن اسحق ويعقوب وأبنائهما من بعدهما لا تستقيم في عطـاء القرآن الكريم ولا تقف أمـام نور بيـانه وطهارة نصه وعصمة الوحي الإلهي فيه .

الفصل الثاني

النبي موسى في عطاء القرآن الكريم

لعله النبي الوحيد بين انبياء بني اسرائيل الذي تناول القرآن الكريم سيرته ، بتفصيل دقيق واحاطة شاملة لكل ما يتعلق بنشأته منذ الطفولة المبكرة ، حتى مرحلة تلقيه وحي ربه ، وقيامه بتبليغ ما كلفه الله به في أمانة ومسؤولية ، ولعل ذلك الاهتمام القرآني بنبي الله موسى يرجع إلى اعتبارات كثيرة أهمها فيما نرى المناخ السياسي الذي ظهر فيه بين بني اسرائيل وهم في مصر في مرحلة شديدة المتغيرات والتطورات في مصر بالذات بدأت بالعقيدة الدينية التي كان عليها المصريون وانتهت بالصراع السياسي الذي عاشته البلاد عقب موت الفرعون الشاب (أمنوحوتب) الرابع والذي بالتأكيد كان نبي الله في مصر بعده بفترة قريبة قد ابتدأ يتلقى وحي الله ويمارس دوره في مجتمع مصر واسرائيل على السواء ، ومن هذه الاعتبارات أيضاً طبيعة الظروف التاريخية التي كان يحياها الشعب الاسرائيلي من عصر النبي ابراهيم حتى ظهور موسى ، اي أنه هناك في تاريخ هذا الشعب عشرات من الاجيال وليس له اي انتماء ديني او سياسي بعد عمليات التحريف وفقدان الاصول والمقومات التي تعرضوا لها بين صراعات قبائل وبطون اسرائيل . هذا فضلاً عن انعدام الوطن وعدم الاستقرار الاجتماعي في ارض بعينها ، ومن هذه

الاعتبارات ايضاً عمليات الفعل ورد الفعل المعاكس من قبل بني اسرائيل لكل ما كان يوجههم اليه نبي الله موسى ، وعدم تحقيقه عليه السلام ما كان يبتغيه من هداية وتوجيه لبني اسرائيل بفضل اصطفاء الله له وعمل النبوة والرسالة الإلهية ، ثم ما كان بعد ذلك من نقل سيرته وتدوينها مشوّهة ومحرفة بل ومزورة بحيث لا يرى الناقدون الدارسون لسيرة نبي الله موسى في مصادر تراث بني اسرائيل المقدسة عندهم وغير المقدسة قيمة ايجابية وتوجيهات أخلاقية في عالم النبوة ووظيفة الرسالة الإلهية ،أقول لا يرى الدارسون في سيرة نبي الله موسى في تراث العهد القديم اي قيمة لوظيفة الرسالة الإلهية تذكر عن هذا النبي العظيم وعلى ضوء كل هذه العوامل مجتمعة ، كانت عناية الله سبحانه وراء النبي موسى فلم تتركه لزيف ما نسب اليه من سلبية وفراغ في العهد القديم ، فضلاً عما ألحقه به كتّاب الاسفار من مفتريات وآثام ، اعظمها خطورة وأشدها قبحاً فيما نراه ما تداولوه عند بني اسرائيل في التعدد والتجسيم والتشبيه في المعتقد الديني في الإله عندهم ونسبتهم هذه الانماط في العقيدة لنبي الله موسى عليه السلام . أقول لعل كل هذه الاعتبارات مجتمعة هي التي كانت وراء عناية القرآن الكريم العظيمة بكل ما يتصل بسيرة نبي الله موسى عليه السلام .

هذا .. ولا نود ونحن هنا نحاول ان نرى عطاء القرآن الكريم وبيانه العظيم في سيرة نبي الله موسى ان نتناول نماذج من الصور المقيتة والمهينة انسانياً وأخلاقياً ودينياً التي خلعها كتّاب العهد القديم على نبي الله موسى عليه السلام فالبحث الذي تناولنا فيه قضية (الله بين التنزيه والتجسيم في العهد القديم) في القسم الاول من التراث الاسرائيلي في العهد القديم فيه من نماذج وصور العدوان والخطيئة مايكفي في التعرف على منهج العهد القديم في تناوله الوثني لسيرة نبي الله موسى عليه السلام ، ونحن الآن أمام عطاء القرآن الكريم ولغة الوحي الإلهي فيه بكل ايحاءات العفة والطهر تمسح بارادة الله في محكم الذكر الحكيم كل ما لحق أنبياء الله تعالى من أذى وما شاب سيرتهم من مفاسد ومفتريات .

يطالعنا القرآن الكريم بأنباء رعاية الله تعالى لنبيه موسى عليه السلام منذ البداية الاولى لوجوده بل منذ مرحلة طفولته المبكرة ، قد طلب رب العزة من أم موسى بما ألقاه في قلبها وهي حامل به أن لا ترضعه في حالات خوفها وحزنها عليه خوفاً عليه من مطاردة الذين يقتلون أبناء اسرائيل الذكور ويستحيون منهم النساء فقال سبحانه في سورة القصص : [**وأوحينا إلى ام موسى أن أرضعيه فاذا خفت عليه فألقه في اليوم ولا تخافي ولا تحزني انا رادوه اليك وجاعلوه من المرسلين**] [1] .

ومن عند هذه البداية المبكرة ، وعين الله تعالى ترعى نبيه موسى في مختلف مراحل حياته ، حتى بلغ أشده واستوى عوده ، وهبه الله الحكمة والعلم والاحسان ، وعلى ضوء خبر القرآن الكريم ابتدأ يعرف عليه السلام في الحياة العامة بذلك المشهد الذي يقصه علينا القرآن الكريم وخلاصته : أنه حين كان يمر في المدينة لقي رجلين أحدهما اسرائيلي والآخر مصري ، ووكز موسى المصري ليخلص وينهي ما كان بين الرجلين ومات المصري على أثر هذا التدخل ، وعلى أثر هذه الواقعة كانت رحلة نبي الله موسى إلى مدين وقد كان عليه السلام ابتدأ يمارس دوره الديني بين بني اسرائيل قبل الهجرة إلى سيناء وبعدها ، يقول رب العزة عنه في سورة القصص : [**ولما بلغ أشده واستوى آتيناه حكماً وعلماً وكذلك نجزي المحسنين ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها فوجد فيها رجلان يقتتلان هذا من شيعته وهذا من عدوه فاستغاثه الذي من شيعته على الذي من عدوه فوكزه موسى فقضى عايه قال هذا من عمل الشيطان انه عدو مضل مبين**] [2] .

هذا .. وحين يكلف موسى من قبل ربه بدعوة بني اسرائيل إلى ان يستجيبوا لداعي الايمان يقول لهم مذكراً بأنعم الله عليهم ، حتى يسمعوا

---

(١) سورة القصص الآية رقم ٧ .

(٢) سورة القصص آيتا رقم ١٣ ، ١٤ .

ويطيعوا وينباديهم ان يستعدوا ، لكي يكون لهم مأوى وانتماء في الارض التي دعـاهم لدخولها لكنهم لم يستجيبوا ولم يذعنوا يقول رب العزة في سورة المائدة : [**وإذ قال موسى لقومه يا قوم اذكروا نعمة الله عليكم إذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكاً وآتاكم ما لم يؤت احداً من العالمين ، يا قوم ادخلوا الارض التي كتب الله لكم ولا ترتدوا على ادباركم فتنقلبوا خاسرين**] .

هذا..ويؤكد رب العزة عن موسى عليه السلام انه قد أوتي الكتاب (التوراة) وفيها تفصيل كل شيء ورحمة وهدى للذين هم بربهم يؤمنون ، وهذا ما يؤكد انصاف القرآن الكريم لنبي الله موسى في تلقيه وحي الله مشتملاً على كتاب من الله فيه هدي ونور لا يحمل عدواناً ولا قهراً ، يقول رب العزة : [**وان هـذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون ، ثم آتينا موسى الكتاب تماماً على الذي أحسن وتفصيلا لكل شيء وهدى ورحمة لعلهم بلقاء ربهم يؤمنون**] .

هذا .. ويتناول الذكر الحكيم طبيعة النبوة التي منحها الله لنبيه موسى عليه السلام وأنها لم تتجاوز في التكريم والتشريف حدود النبوة التي يكلف الله بها بعض عباده ، فلم يكن موسى النبي عليه السلام في ظل النبوة بأي حال من الأحوال قريبـاً من الألوهية ومعناها ودلالاتها ومغايرتها للخلق ، ولم يكن الإله (سبحانه وتعالى) في أي موقف مع عبده موسى قريباً من البشرية في مخلوقيتها وطبيعتها وحدودها كما حاول كتّاب العهد القديم أن ينسبوا ذلك الزيف في تصورهم الخاطىء والآثم للعلاقـة التي كانت بين الله وعبـده موسى ، فلم يكتب سبحانه وتعالى التوراة باصبعه كما ادّعى كتّـاب العهد القديم ونسّاخه ، ولم يعطه وعوداً بأن يتنزّل بنفسه (تعالى الله عن ذلك) إلى شيوخ اسرائيل ، لكي يتحدث اليهم بنفسه فيروه ويراهم ، وليكون ذلك برهاناً من الله كما ادعوا على نبوّة موسى لهم ، ولكن الأمر في دائرة النبوة التي رسمها منطق القرآن الكريم وعطائه لم يتجاوز فيه نبي الله موسى عليه السلام

كونه بشراً مصطفاً من الله بالنبوة والرسالة الإلهية يقول تعالى في سورة الاعراف : [وواعدنا موسى ثلاثين ليلة وأتممناها بعشر فتم ميقات ربه اربعين ليلة وقال موسى لأخيه هارون أخلفني في قومي وأصلح ولا تتبع سبيل المفسدين ، ولما جاء موسى لميقاتنا وكلّمه ربه قال ربي أرني انظر اليك قال لن تراني ولكن انظر الى الجبل فان استقر مكانه فسوف تراني فلما تجلى ربه للجبل جعله دكاً وخرّ موسى صعقاً فلما أفاق قال سبحانك تبت اليك وأنا اول المؤمنين قال يا موسى اني اصطفيتك على الناس برسالاتي وبكلامي فخذ ما أتيتك وكن من الشاكرين وكتبنا له في الألواح من كل شيء موعظة وتفصيلاً لكل شيء فخذها بقوة وأمر قومك يأخذوا بأحسنها سأريكم دار الفاسقين ، سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الارض بغير الحق وان يروا كل آية لا يؤمنوا بها وان يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلا وان يروا سبيل الغي يتخذوه سبيلا ذلك بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين ، والذين كذبوا بآياتنا ولقاء الآخرة حبطت اعمالهم هل يجزون إلا ما كانوا يعملون ، واتخذ قوم موسى من بعده من حليهم عجلا جسداً له خوار ألم يروا انه لم يكلمهم ولا يهديهم سبيلا اتخذوه وكانوا ظالمين ، ولما سقط في أيديهم ورأوا أنهم قد ضلوا قالوا لئن لم يرحمنا ربنا ويغفر لنا لنكونن من الخاسرين ، ولما رجع موسى الى قومه غضبان أسفاً قال بئس ما خلفتموني من بعدي أعجلتم أمر ربكم وألقى الالواح ، وأخذ برأس أخيه يجرّه اليه ، قال ابن أم ان القوم استضعفوني وكادوا يقتلونني فلا تشمت بي الاعداء ولا تجعلني مع القوم الظالمين] (١) .

نورد هذا النص الكريم في الرد على ما طالعناه من كتّاب الاسفار في تراث اسرائيل في العهد القديم عن مفترياتهم عن قصة الميعاد الذي ادّعوا ان الله قد أعطاه لموسى لكي ينزل بنفسه (تعالى الله) الى شيوخ بني اسرائيل،

---

(١) سورة الاعراف ، الآيات ١٤٣ — ١٤٩ .

فيبرهن لهم على نبوة موسى ثم عدوله عن وعده الذي ادعوه مما أسلفنا فيه القول وناقشناه وفندناه ولم نجده إلا عدواناً على الله تعالى وعلى نبيه موسى عليه السلام ، ومما يدعوا الى الدهشة والحيرة موقف بعض علماء اللاهوت في ادعاءاتهم الكاذبة ان قصص العهد القديم وما يتعلق به حول سيرة الأنبياء هو نفسه القصص الذي جاء به القرآن الكريم ،ويعقدون مقارنة بين الاخبار الوثنية التي في العهد القديم حول واقعة الوعد وبين ما جاء في سورة الاعراف الآية ١٥٥ التي يقول فيها رب العالمين : [**واختار موسى قومه سبعين رجلا لميقاتنا ، فلما أخذتهم الرجفة قال رب لو شئت أهلكتهم من قبل وإياي أتهلكنا بما فعل السفهاء منا ان هي إلا فتنتك تضل بها من تشاء وتهدي من تشاء أنت وليّنا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الراحمين**) (١) .

ومن المعنى البدهي والصريح في مباشرة دينه ولغوية لا تحتاج الى لغط أو تأويل كما يحب علماء اللاهوت الذين يتعلقون كثيراً بالرموز والاصطلاحات الغامضة في تفسير النصوص يتضح انه لا وجه للمقابلة بين هذه الآية الكريمة وبين الفكر الوثني الذي طرحه كتّاب العهد القديم في سفر الخروج في الاصحاح رقم ١٩ في الفقرات ٧ – ١٢ والذي يقال فيه بالحرف :[... **لأنه في اليوم الثالث ينزل الرب أمام عيون الشعب على جبل سيناء**] (٢) . فالآية الكريمة في القرآن الكريم لم تتحدث عن اليوم الثالث ولا عن الأول والثاني ولم تتحدث عن ميعاد لنزول ، ولم تطلب من موسى أن يجهز لمؤتمر ، يتطيّب فيه شيوخ اسرائيل ويغسلوا أيديهم وأرجلهم ويستعدوا للقاء ربهم الذي يعدل عن قرار نزوله – تعالى الله عن ذلك – وهذه الصور المادية الحسيّة والتي جعلت من العلاقة بين النبي وربه صوراً ونماذج من أثر علاقة القهر التي كانت بين حكام اسرائيل وسادتهم في عصور الذل والاستعباد لا

---

(١) سورة الاعراف ، الآية ١٥٥ .

(٢) سفر الخروج ، الاصحاح رقم ١٩ فقرة ١٢ .

يمكن أن تكون بينها وبين آية الاعراف صلة ، ولكن آية الاعراف تتحدث عما وقع من موسى والله أعلم حين أخذ سبعين رجلا من قومه ليدعوا الجميع ربهم ويستغفروا مما وقع منهم حتى لا يعاقبهم بما فعل السفهاء منهم ، وكانت خطيئتهم التي نسبوها لأنفسهم ثم أكد القرآن الكريم وقوعهم فيها لا يرجى مع الوقوع فيها والاستمرار عليهـا أن يغفر الله او يتوب ، فقد عبدوا بعد إيمانهم بالله العجل الذي صنعوه بأيديهم ، وأصبحوا بمـا فعلوا بعد أن ظلموا أنفسهم وتركوا عبـــادة الله لا يستحقون غير عقابه ، فالآيات الكريمة التي سبقت هذه الآية التي تتحدث عن الميقات والسبعين رجلا الذين قد يقبل الله منهم حين ينضوون تحت قيادة نبيهم من جديد رجاءهم وتوبتهم وقد لا يقبل على ضوء علمه تعالى بصدق نياتهم او عـدم اخلاصهم فيما ذهبوا اليـه ، هذه الآيات تؤكد طبيعة الموقف الذي وقفـه السبعون رجلا ، وانـه لم يكن على غرار ما ذهبت اليه رواية العهد القديم عبارة عن مؤتمر يتطيّب فيه الرجال ويغسلوا أيـديهم وأرجلهم في حشد ينزل اليـه الرب ، فالآية رقم ١٤٨ من نفس السورة — سورة الاعراف — تقول : [**واتخذ قوم موسى من بعده من حليهم عجلا جسداً له جوار ، ألم يروا انه لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلا ، اتخذوه وكانوا ظالمين**] . وفي نفس الموضوع ومن خلال وحدته الكاملة التي تعالج فيها هذه الآيات الكريمة من سورة الاعراف البداية والنهاية لهذا الموقف تقول الآية ١٥٢ : [**ان الذين اتخذوا العجل سينالهم غضب من ربهم وذلة في الحياة الدنيا وكذلك نجزي المفترين**] . ففي منطق القرآن الكريم الذي لا يأتيه الباطل من بين يـديه ولا من خلفه نرى القوم هنـا — ظالمين — في آية — ومفترين — في آية أخرى لكنهم حين يطلبون من موسى عليه السلام وهو أن يقف بهم في ميقات ليدعو ربه فان استجابته كنبي تنطوي جوانحه على الأمل في توبتهم ومغفرة الله لهم تصبح متصوّرة وليس الأمر كما ادعى كتّاب التراث أن هناك الصفوة من شيوخ اسرائيل يدعون لاجتماع موسّع ينزل فيه الرب ثم يعدل عن قراره فهم على ضوء خبر القرآن الكريم في حال من الظلم

والافتراء والمعصية يتعذر فيه ان تتعلق آمالهم بتوبة الله ورحمته ، فضلاً عن النعمة المدعاة والتي حوّلوا مضمونها إلى صور ومواقف لا تليق بذات الله جل جلاله .

هذا .. ولقد قصّ القرآن الكريم فضل الله على بني اسرائيل من خلال نبيه موسى قبل ان تتأكد وتتكرر منهم المشاهد والمواقف الظالمة والكافرة، فبعد أن تجرّد موسى واعتكف لربه أربعين ليلة، يعود فيجد الذين فرق الله بهم البحر ، لينجيهم ويغرق عدوّهم كما قال الله تعالى في سورة البقرة : **[وإذ فرقنا بكم البحر فأنجيناكم وأغرقنا آل فرعون وانتم تنظرون]** (١). يعود عليه‌السلام فيجد الذين رأوا هذا البرهان العظيم من الله قد تركوا عبادته وتعاليم نبيه وعبدوا العجل ، يقول رب العالمين في سورة البقرة : **[وإذ واعدنا موسى أربعين ليلة ثم اتخذتم العجل من بعده وأنتم ظالمون]** (٢).

هذا .. ويلفت القرآن الكريم الإنسانية كلها إلى معنى لم يفطن اليه معظم الذين تناولوا سيرة بني اسرائيل بالدرس ، ولم يدركه شراح العهد القديم أصلاً ، وهو ان استجابة شعب اسرائيل للايمان برب العالمين والاذعان له باعتباره الإله الخالق رب الكون الذي يرسل رسلاً ويكلف عباده بالواجبات، وعليهم فروضاً تؤدى وطاعات تقام له تعالى إكباراً وإجلالاً لعظيم ما خلق وجميل ما أسبغ من نعم ظاهرة وباطنة ضعيفة في نفوسهم وغريبة على طباعهم، تنافي مع سلوكهم الذي فضلوه في القديم وهو حياة البدو الرحّل الذين ينتجعون ويطلبون المرعى في كل مكان وبأي ثمن من قيم أو خلق وحديثاً بالسمسرة والمضاربة ودروب الاتجار والاحتكار المختلفة وانعدام العاطفة الدينية فضلاً عن خراب القلب الايماني الذي يستجيب لمتطلبات والتزامات العمل في ظل طاعة لنبي او رسول او الاقتداء بنبوة او رسالة ، ولذا فقد

---

(١) سورة البقرة ، الآية ٥٠ .

(٢) سورة البقرة ، الآية ٥١ .

لفت القرآن الكريم الى هذه الطبيعة التي تنطوي عليها النفسية اليهودية ـ ويلفت القرآن أمام ظرف مادي وبرهان قاطع كان يجب على أثره أن يقبل المدعوون من بني اسرائيل على نبيهم استجابة لربهم وطاعة لرسولهم ، ولكن النتيجة التي ساقها الله الى خلقه في القرآن الكريم درساً وعظة كانت على غير ما توحي به العوامل الداعية إلى الايمان والاستجابة له ، فبعد دعوة موسى عليه السلام الى الله في مصر دخـــل الكهنة والسحرة المصريون ، بأمر الفرعون المصري في تحد ومكابرة للنبي موسى عليه السلام ،على أمل من الفرعون ان يعجز السحرة برهــان النبي موسى في دعوته الدينية التي قــد تشكل خطراً على الفرعون فيتخلص منه ومن دعوته ، فلمــا أفحم موسى عليه السلام بأمر ربــه وعونه السحرة كان الموقف كما عبّر عنه رب العالمين في سورة يونس : [**فلما ألقوا قال موسى ما جئتم به السحر ان الله سيطلبه ان الله لا يصلح عمل المفسدين**] (١) .

وبهذا المشهد القوي القائم على يقين النبي في عون ربه ومساندته أمـام الجمع المحتشد دخل النبي موسى عليه السلام ميدان المحاجّة ، ولم يخذله ربه وإنما كما قال الله تعالى في سورة طه :[**وألق ما في يمينك تلقف ما صنعوه إنما صنعوا كيد ساحر ولا يفلح الساحر حيث أتى**] (٢) .

كان طبيعياً ومعقولاً أمام كل هذه الدواعي ، أن يقبل أبناء اسرائيل في مصر على نبيهم ولكن الخوف الذي يملأ قلوبهم من السيد المصري الممثل في سطوة الفرعون وهيمنته عليهم كان عائقاً أمامهم ، ولذا فالذي حدث منهم تجاه نبيهم أنه كما قال رب العالمين في سورة يونس : [**فما آمن لموسى إلا ذرية من قومه على خوف من فرعون وملأهم ان يفتنهم وان فرعون لعال في الارض وانه لمن المفسدين**] (٣) .

---

(١) سورة يونس ، الآية ٨١ .

(٢) سورة طه ، الآية ٦٩ .

(٣) سورة يونس ، الآية ٨٣ .

ومع أن العهد القديم لا يتحدث كثيراً عن تأثيرات النبوة ودورها في عمل شعب اسرائيل ، بل ولا يلمح في معظم مروياته من قريب او بعيد الى دور الأنبياء والنبوة في ضبط واستقامة شعب اسرائيل وارتباطهم ببعض الحق الذي يمكن أن يأخذوه من هدي النبوة وتوجيهها، فان القرآن الكريم وحدة يقوم دليل انصاف على ان بعض أبناء اسرائيل قد تلقوا كتاباً من موسى ، وأنه كان ضياءاً وذكرى للمتقين ، وان الذين تلقوا هذا الكتاب كانوا يخشون ربهم بالغيب ومن الساعة مشفقون ، يقول تعالى في سورة الأنبياء : [**ولقد آتينا موسى وهارون الفرقان وضياءاً وذكراً للمتقين ، الذين يخشون ربهم بالغيب وهم من الساعة مشفقون**] [١] . قال قتادة المراد بالفرقان هنا التوراة حلالها وحرامها وما فرّق الله بين الحق والباطل [٢].

ونحب في نهاية هذا العرض الموجز عن سيرة نبي الله موسى في القرآن الكريم ان نؤكد اننا بهذا العرض نريد ان نبين عن الفرق الجوهري والاختلاف التام بين سيرته عليه السلام في العهد القديم ، وبين ما أكرمه الله به من شرف النبوة وخير النعمة وعظيم الذكر في القرآن الكريم ، كما يجب ان نؤكد ان كل ما نسب إلى نبي الله موسى في العهد القديم من انه أقام محرقات وذبائح وأصنام ، وصنع حية من نحاس للعبادة ، وانه بنى محرقات بأمر إلهه الذي هو عند موسى في العهد القديم أعظم من آلهة الشعوب الاخرى ، لأنه إله اسرائيل ، نود ان نقرر هنا ان هذا الذي نسب إلى نبي الله موسى عليه السلام انما هو من مفتريات ودسائس وعدوان الكتّاب والمسجلين على انبياء الله وفي مقدمتهم موسى عليه السلام ، والحقيقة التي يكتشفها القرآن الكريم ويقدمها للناس درساً وتبصرة ورحمة فضلاً عن انها تطهّر نبي الله موسى مما أتهمه به من دنس ووثنية كتّاب العهد القديم ، هذه الحقيقة هي ان نبي الله موسى

---

(١) سورة الانبياء ، الآية ٤٨ .

(٢) (ابن كثير) الجزء الرابع ص ٥٦٧ .

مثله فيما اصطفاه الله بـه من شرف النبوة مثل غيره من انبياء الله جميعاً من العصمة والطهر ولا يتميز عنهم بشيء يخرجه عـن بشريته ، او يجرده عـن نبوته كما حاول كتّاب العهد القديم ان يزيفوه على نبي الله موسى عليه السلام وكل ما يستند عليه بعض اللاهوتيين المحدثين في تبرير الادعاء بأن لنبي الله موسى من الصلاحيات والمميزات مـا ليس لغيره من انبياء الله في العهد القديم هـو محض افتراء خاصة وانهم يستندون فيما ذهبوا اليه في فهمهم القاصر لما ذكره القرآن الكريم عن نبي الله موسى من مآثر وصفات واخبار ، تؤكد عندهم انـــه يمثل امتيازاً في رتبتـه الدينية والدنيوية ويستندون في ذلـك إلى آية الاعراف الخاصــة بطلب موسى رؤية ربـــه ، وغير ذلك من المطالب التي حاولوا فهمها او تحريجها من كتاب الله ، ومرجع ذلك إلى جهلهم وقصورهم عن تدارك وفهم كلمات الله في القرآن الكريم ، وذلك بالقطع بسبب عجمتهم الفكرية واللغوية الدينية التي يتناولون بهـا كتاب الله ، فآية الاعراف رقـم ١٤٣ التي تقول : [**ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه قال ربي ارني انظر اليك قال لن تراني ولكن انظر إلى الجبل فان استقر مكانـه فسوف تراني ، فلما تجلى ربـه للجبل جعله دكاً وخرّ موسى صعقـا فلما افاق قـال سبحانك تبت اليك وانا اول المؤمنين ، قـــال يا موسى إني اصطفيتك على الناس برسالاتي وبكلامي فخذ مـا آتيتـك وكن من الشاكرين**] . وهاتان الآيتان الكريمتان لو تدبر عاقل لنص الآية الاولى منهما ، لأدرك ان الله سبحانه يقص على خلقه كيف كان نبيه موسى في موضعه اللائق بـه كنبي بشر لم يتجاوز حدود ذلك المعنى ابداً : (.. رب أرني انظر اليك ، قال لن تراني) . هذا هو النص الذي تضمنته الآية الكريمة وهذا هو الاساس في الموقف الذي احاط بنبي الله موسى عليه السلام وعبر عنه رب العالمين في سورة الاعراف ، واذا اردنا تلخيصاً فيمكن ان يتلخص الموقف في الآتي : العبد البشر النبي يقول لربه: أرني الرب الإله الخالق يقول لعبده : لن تراني ، ومـع كل المناجاة والمناداة والاستقرار في متابعة وحي الله لنبيه فيما يقص الله علينـا عن هذا المشهد ،

فان تتمة الآية تنهي الينا الموقف ، حين استحضر نبي الله موسى طبيعة المطلب وبرهان الله لعبده على استحالة بشرية موسى ان تتقبل استجابة ربه (فلما تجلى ربه للجبل جعله دكاً) . فان نبي الله موسى عليه السلام أمام هذا البرهان العظيم خرّ صعقاً يسبح بحمد الله ، وليكون من المؤمنين الشاكرين له وليس الايسر في هذه الواقعة كما ادعى الوثنيون من كتّاب العهد القديم الذين جعلوا من هذه الواقعة موسى في رتبة إله او بعض إله ، الامر هنا في عطاء الاسلام من خلال نص الذكر الحكيم لا يخرج عن الحدود التي رسمها الله لعباده حتى ولو كانوا من صفوة خلقه انبياء ورسلاً إلى الناس .

لقد كانت هذه الآية الكريمة وغيرها مما يتصل بهذا الموضوع في الفكر الاسلامي مصدر اسخاء فكري عظيم ، فعلى سبيل المثال ذهب المعتزلة عند فهمهم لدلالة هذه الآية (.. لن تراني ..) . ان لن هنا تنفي الرؤية لله تعالى نفياً مؤبداً في الدنيا والآخرة [١] ومع ان رأيهم هذا قد ناقشه الطرف الثاني من العلماء المسلمين وهم الجمهور من اهل السنة واعترضوا عليه ، وضعّفوه ببراهين كثيرة تؤكد رؤية الله تعالى للمؤمنين في الآخرة [٢] الا ان رأي المعتزلة هذا يرينا مدى أثر الآية الكريمة على العقل الاسلامي خشية ورهبة من الله تعالى واقراراً واعترافاً بمغايرة الخالق في كل صفاته للمخلوقين ، حتى ولو كانوا من الذين اصطفاهم الله بشرف النبوة وأهلهم لتحمل الرسالة الإلهية رحمة منه بعباده ولطفاً بهم .

وبهذا العرض السريع يتبين لنا مدى الفرق الجوهري بين تناول الكتّاب

---

(١) (شرح الاصول الخمسة) لقاضي القضاة (عبد الجبار بن احمد) تعليق : الامام بن الحسين بن ابي هاشم . حققه وقدم له الدكتور عبد الكريم عثمان – الطبعة الاولى عام ١٩٧٥ مكتبة وهبة بالقاهرة ص ٢١٧ ، وعند الهامش في ابراز أهم دواعي ظهور الاعتزال ، وعند الكلام في أنه تعالى لا يجوز ان يكون جسماً .

(٢) (تفسير ابن كثير) الجزء الثالث ص ٢١٧ .

والمسجلين في العهد القديم لقضايا الايمان والعقيدة الدينية من خلال ما نسبوه وما اعتقدوه إلى الله وإلى انبيائه وما تناولوا به سيرتهم ، وبين منهج القرآن الكريم القائم على عصمة الوحي الإلهي وقداسة النص الذي طهّر الله بـــه أنبيـاءه ورسله من التهم والافتراءات والمـآثم التي خلعهـــا كتاب التراث الاسرائيلي في العهد القديم على صفوة خلق الله ، فضـلاً عمــا قرره القرآن الكريم وانفرد بـه وهـو يعالج سيرة ابناء اسرائيل من تقرر قواعد الايمان ومقررات الحق والخير التي لازمت سيرة انبياء الله ورسله والتي استجاب لها بعض ابناء اسرائيل حين كان الانبياء بينهم رحمــة من الله وفضلاً غير انهم لم يحافظوا على نعمة الله ولم يستمروا في العمل بهديه واتباع مـــا اوحى الله به اليهم .

الفصل الثالث

داود وسليمان في عطاء القرآن الكريم

بعد الصور المقيتة والمهينة التي رأينـا آسفين كتّاب العهد القديم ، وهم يخلعونها على أنبياء الله جميعـاً ورسله ولم يسلم منهم أحـد حتى داود وسليمان عليهما السلام ، كان منطقياً بل ومن الضرورة أن نرى القرآن الكريم ، وهو يرفع عنهما آثام بني اسرائيل ويضعهما في مكانهما اللائق بهما كنبيين كريمين على الله وعلى النـاس ، وعلى غير منهج كتّاب العهـد القديم في قصصهم ومفترياتهم وإثمهم يطالعنا القرآن الكريم في سورة البقرة، ببداية ظهور نجم النبي الملك داود عليه السلام ، وسط سياق بليغ ونظيف عن أخبـار مرحلة من تاريخ بني اسرائيل كانت فيهـا أوضاعهم السياسية والدينية على أسوأ حال بلغته ، ولم يعد فيهم من يصلح للنبوة أو الملك ، لكن نعمة الله عليهم على ضوء لغة القرآن الكريم لم تقف ولم يحرمهم الله سبحانه نعمة العون والمدد ، وكما يقول ابن كثير : بعد ان انقطعت النبوة من أسباطهم،ولم يبق من سبط لاوي الذي يكون فيه الأنبياء إلا امرأة حامل من بعلهـا ، وقد قتل ، ثم رزقهم الله من هذه المرأة غلاماً صالحاً ولمـا بلغ سن الأنبياء أوحى الله اليه وأمره بالدعوة اليه وتوحيده فدعا بني اسرائيل فطلبوا منه أن يقيم لهم ملكاً

يقاتلون به أعداهم، فلما جاءهم الملك رفضوا أن يقاتلوا بعد أن كانوا يقولون : (وما لنا ان لا نقاتل في سبيل الله وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا) وكانت حجتهم واهية: ذلك أن النبي عيّن لهم طالوت ملكاً وكان رجلاً من الجنود ولم يكن من بيت الملك فيهم ، لأن الملك كان في سبط يهوذا فقالوا : أنى يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه ولم يؤت سعة من المـال . لكن نبيهم حسمها حين قال لهم مفحماً ومسكتاً انه لا دخل لهم في فضل الله فالله يؤتي فضله من يشاء ، والله واسع عليم ، وبالفعل على ضوء خبر القرآن الكريم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تجلت أنعم الله ورحمته على طالوت ، وأتى بالتابوت تحمله الملائكة ،ليكون ذلك آية وبرهاناً لبني اسرائيل ان يعلقوا وان يتدبروا بعد ان فقدوا كل شيء يربطهم بدين او عقيدة، وكان على طالوت ان يختبر سرائر القوم وان يعرف مدى استجابتهم للانضواء تحت لوائه ، فأخبر القوم على ضوء قصص الذكر الحكيم ان الله مبتليهم بنهر يمرون عليه وهم عطشى فمن شرب منه فليس من رجال طالوت ، فشربوا إلا قليلاً منهم وهذا القليل الذي سمع وأطاع لم يصمد حين الحرب، ولم يقو قلبه لانهم كانوا قلة في مواجهة جيش (جالوت) الفارس الفلسطيني الذي فاضت اسفار التراث الاسرائيلي برغم أنـف كتّابه بذكره لم تقو هـذه القلة على مواجهة جيش جالوت ولم يبرز فيهم عنصر الإيمان او الجلد او الاقتداء بقائدهم ، وفي هذا المناخ ووسط هذه الظروف التي يرى فيها الباحث في كل تفاصيلها بغير جهد أثر النبوة وبصماتهـا على كل المواقف ظهر بفضل الله وعونه — دون التعرض للتفاصيل الفارغة التي حشى بها كاتب الأسفار حوادثه — نجم النبي الملك داود يقول رب العالمين في سورة البقرة : [**ألم ترَ الى المـلأ من بني اسرائيل من بعد موسى إذ قالوا لنبي لهم ابعث لهم ملكاً نقاتل في سبيل الله قال هل عسيتم ان كتب عليكم القتال ألا تقاتلوا قالوا وما لنـا ألا نقاتل في سبيل الله وقد اخرجنا من ديارنا وابناؤنا فلما كتب عليهم القتال تولوا إلا قليلا منهم والله عليم بالظالمين ، وقال لهم نبيهم ان الله قد بعث لكم طالوت**

ملكاً قالوا أنى يكون له الملك علينا ونحن احق بالملك منه ولم يؤت سعة من المال قال ان الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة في العلم والجسم والله يؤتي ملكه من يشاء والله واسع عليم ، وقال لهم نبيهم ان آية ملكه ان يأتيكم التابوت فيه سكينة من ربكم وبقية مما ترك آل موسى وآل هارون تحمله الملائكة ان في ذلك لآية لكم ان كنتم مؤمنين ، فلما فصل طالوت بالجنود قال ان الله مبتليكم بنهر فمن شرب منه فليس مني ومن لم يطعمه فانه مني إلا من اغترف غرفة بيده فشربوا منه إلا قليلاً منهم ، فلما جاوزه هو والذين آمنوا معه قالوا لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده قال الذين يظنون انهم ملاقوا الله كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله والله مع الصابرين ولما برزوا لجالوت وجنوده قالوا ربنا افرغ علينا صبراً وثبّت اقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين فهزموهم باذن الله وقتل داود جالوت وآتاه الله الملك والحكمة وعلمه مما يشاء ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين] [1] .

داود هنا في معيار الذكر الحكيم واحد من جند طالوت ومن الفئة التي تقاتل بإذن الله وحين قتل داود جالوت قتله بإذن الله ، وحين آتاه الله الملك والحكمة كان ذلك بإذن الله ثم علمه الله مما يشاء بعونه ورحمته وفضله ونعمته وهذا هو سياق لغة القرآن الكريم وصريح النصوص لا نرى فيها أثراً للصراعات السياسية او المؤامرات العائلية او القتل غيلة وغدراً كما فاضت أسفار تراث العهد القديم عند تناولها لهذه الواقعة في سيرة نبي الله داود عليه السلام .

هذا .. وفي الآيات الكريمة من كتاب الله تعالى التي أتينا عليها لفتة كريمة جداً يشير اليها سبحانه وتبرهن وتدلل على مستوى الايمان بالله وأثره في قلوب الذين كانوا يقاتلون مع داود وتحت قيادة طالوت الذي هو شاول في

---

(١) سورة البقرة ، الآيات ٢٤٦ – ٢٥١ .

العهد القديم والمنعوت في تراث اسرائيل بأقبح وأحط صفات البشر بينما هو معنا هنا قيادة لجموعة كريمة على الله من البشر تقاتل في سبيل الله وهذه اللمحة الكريمة او قل هذه اللفتة العظيمة التي يشير اليها رب العالمين درساً وعظة وتكريماً وانصافاً واحقاقاً للحق في منهج القرآن العظيم وهي ان جند الايمان بالله مع انهم من بني اسرائيل لكن حين خلصت قلوبهم لله تناولهم الذكر الحكيم على ضوء علم الله بهم . هؤلاء الجند حين برزوا لأعدائهم قالوا كما عبّر ربهم : [ربنا افرغ علينا صبراً وثبت اقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين] فهزموهم بإذن الله .

هذا .. ويسجل القرآن الكريم أن الله حين منّ على عبده داود وكرّمه وشرّفه بالنبوة والرسالة من خلال الوحي الإلهي أسمى الله سبحانه أوامره ونواهيه ومـا شرعه الى داود (بالزبور) فقال سبحانه للخاتم محمد ﷺ : [إنا أوحينا اليك كما أوحينا الى نوح والنبيين من بعده وأوحينا الى ابراهيم واسماعيل واسحق يعقوب والاسباط وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان وآتينا داود زبوراً] [1] .

هذا .. ونحب ان نفسر هنا على ضوء مـا ترويه الآية الكريمة من ان الله تعالى قد أتى داود كتاباً فيه وحي الله الذي سماه رب العزة (زبوراً) انه لا يمكن ان يكون وحي الله تعالى لنبيه داود في الزبور على ضوء صورة نبي الله وملامحه في القرآن الكريم متضمناً كل او معظم او حتى بعض مـا في المزامير المنسوبة إلى داود عليه السلام في اسفار العهد القديم وكما هي مدوّنة في سجلات العهد القديم بالشكل الذي افتهت به الينا بعضها مجهول النسب لم تأت الشجاعة لناظمها او مدونها ان ينسبها لداود لكنها جاءت بين جملة المزامير المنسوبة أصلاً لنبي الله داود ، ولعل ذلك كان كما قلنا من قبح وعنف اللغة

---

(١) سورة النساء ، الآية ١٦٣ .

التي تفيض نقمـة وسخطاً في حالات كثيرة على رب اسرائيل الذي تتحدث عنه المزامير .

ومما يجدر ذكره في هذا المقام ونحن نحاول ان نتعرف على الملامح المضيئة والحقيقة على واحـد من انبياء الله شوّه صورته كتاب تراث اسرائيل ، ان الزبور الذي نزل وحياً على قلب نبي الله داود كما اخبر بذلك القرآن الكريم في آية النساء التي استشهدنا بها لم يكن اغنيات يترنم بها كما هو الحال في المزامير التي يحتويها التراث الاسرائيلي في العهد القديم وجاءت كما هي عليه اليوم في معظم فقراتها تحت عنوان الترنم والغناء ، وقـد أشار رب العزة إلى قيمة الزبور أهميـة في قلوب المؤمنين كوحي من الله تعالى لنبيه داود في مقـام التكريم والتفضيل وعلو الشأن فقال سبحانـه وتعالى في سورة الاسراء : **[وربك أعلم بمن في السماوات والارض ولقد فضلنا بعض النبيين على بعض وآتينا داود زبوراً]** [1] وبالقطع لم يتضمن الزبور الذي أتاه الله سبحانـه لداود ذلك الحشد من الاغنيات والترنيم التي يتضمن معظمها كل ما يليق في علاقة نبي بربه بل كل مـا يتصور فيه انه قام على نعمة الله ورحمته وبوحيه لنبيه داود وفي هذا تقول سورة النمل : **[ولقد آتينـا داود وسليمان علماً وقالا الحمد لله الذي فضلنا على كثير من عباده المؤمنين]** . وبالفعل فلقـد بلـغ داود عليه السلام على ضوء خبر القرآن الكريم في تصوير ملامحه الدينيـة في علاقته بربه المستوى الاكمل والامثل ، ولعل عظيم خشيته لله هي التي كانت وراء ذلك التكويم العظيم الذي حباه الله سبحانه بـه فضلاً ونعمة منه عليه وعلى ولده سليمان وقص على الناس اخبارهما واخبار ذلك الفضل في كتابه الحكيم بعد ان شوهت سيرتهما في تراث العهد القديم يقول تعالى في سورة سبأ : **[ولقد آتينا داود منا فضلاً يا جبال أوبي معه الطير وألنا له الحديد ، ان اعمل سابغات وقدر في السرد واعملوا صالحاً اني بما تعملون بصير ، ولسليمان**

---

(١) سورة الاسراء ، الآية ٥٥ .

الريح غدوها شهر ورواحها شهر ، وأرسلنا له عين القطر ومن الجن من يعمل بين يديه باذن ربـــه ومن يزغ منهم عن امرنا نذقـــه من عذاب السعير] (١) .

هذا .. وفي مقام البحث عن القدوة وضرب المثل للناس لعظيم الصلة بالله وفي التدليل على بعض براهين الله الكونية مسخرة لعبـد من عباده المتقين يقول سبحانه في سورة (ص) وهو يطهر نبي الله مما علق سيرته عبر التاريخ في تراث اسرائيل من مآثم ومفاسد قام بهـــا كتاب التراث الاسرائيلي ثم خلعوها على انبيـاء الله تبريراً لخطيئتهم واثمهم يقول سبحانـه مخاطباً رسوله الاعظم محمداً (ص) : **[اصبر على مـا يقولون واذكر عبدنا داود ذا الأيد انه أواب انا سخينا الجبال معه يسبحن بالعشي والاشراق ، والطير محشورة كل له أواب وشددنا ملكه وآتيناه الحكـــة وفصل الخطاب]** (٢) فنبي الله داود هنا قد عطا القرآن الكريم وبيانه قد منحه الله الحكمة وفصل الخطاب ، والحكمة في منطق القرآن الكريم هي دائرة النبوة الواسعة ومـا يتعلق بها من فضل الله ورحمته على من يختارهم من خلقه لشرف النبوة والرسالة الإلهية فهل في الصورة الكريمة التي يرينا اياهـا الذكر الحكيم يمكن ان يقترب من نقائها وطهرها ملامح صورته عليه السلام في تراث العهد القديم بعد ان تشوهت صورته على ايدي الكتاب والنساخ عبر الاجيال ، وهـل صورته عليه السلام في العهد القديم بكل المآثم التي خلعهـا عليه كاتب التراث الاسرائيلي قبل ان يلي الملك وأثناءه وبعد ان تنازل عنـه في ظل صراعات ومؤامرات انعدم فيها كل أثر للنبوة ، تتفق ومقام الذي يملك من الله الحكمة وفصل الخطاب؟.

هذا .. ويطالعنا الذكر الحكيم في سورة الانبياء بمشهد لم يعرفه كتّاب تراث العهد القديم ، ولم يتعرضوا له وهـو دور النبوة والرسالة الإلهية التي

(١) سورة سبأ ، الآية ١٠ .

(٢) سورة (ص) الآيات ١٦ — ٢٠ .

منحها الله سبحانه لنبيه داود وسليمان عليهما السلام وكانا يعملان بهـا وعلى هديها بين الناس ارشاداً وتوجيهاً او احقاقاً وحكماً ، ومن فضل الله على داود وسليمان عليهـما السلام ان معظم آيات الذكر الحكـيم التي تناولت نبي الله داود نرى ابنـه سليمان يجيء في السياق ومن خلال وحدة الموضوع وهـذا بخلاف مـا صنعـه كتاب ونساخ تراث العهد القديم بحـكم وضعهم للتراث الاسرائيلي عبر اجيال واجيال .

يقول رب العزة في سورة الانبيـاء : [**وداود وسليمان اذ يحكمان في الحرث اذ نفشت فيه غنم القوم وكنـا لحكمهم شاهدين ، ففهمناها سليمان وكلا آتينا حكماً وعلما وسخرنا مع داود الجبال يسبحن والطير وكنـا فاعلين وعلمنا صنعة لبوس لكم لتحصنكم من بأسكم فهل انتم شاكرون ، ولسليمان الريح عاصفـة تجري بامره الى الارض التي باركنا فيهـا وكنـا بكل شيء عالمين**] [١] .

وفي هـذه الواقعة كما يقول الامام ابي عبدالله محمد بن احمد الانصاري القرطبي في كتابه الجامع لأحكام القرآن في الجزء الحادي عشر الصادر عام ١٩٦٧ عن دار الكاتب العربي للطباعـة والنشر بالقاهرة [٢] : قوله تعالى : [**ففهمناها سليمان**] اي منحناها القضية والحكومة فكنى عنها إذ سبق مـا يدل عليهـا ، وفضل حكم سليمان حكم ابيه في انـه أحرز أن يبقى ملك كل واحد منهما على متاعـه وتبقى نفسه طيبة بذلك ، وذلـك ان داود عليه السلام رأى ان يدفع الغنم إلى صاحب الحرث بعد ان نفشت فيه غنم القوم ليلاً وبعد سماع سليمان لحكم ابيـه وبأنه قضى للغنم بأن تكون لصاحب الحرث قـال لصاحب الغنم لعل الحكم غير هذا ثم أتى اباه وقال يا نبي الله انك حكمت بكذا وكذا ، واني رأيت ما هو ارفق بالجميع قال ما هو : قال : ينبغي ان

---

(١) سورة الانبياء ، الآيات ٧٨ — ٨١ .

(٢) تفسير القرطبي : الجزء الحادي عشر ص ٣٥٨ بتصرف .

تدفع الغنم الى صاحب الحرث فينتفع بألبانها وسمونها وأصوافها وتدفع الحرث إلى صاحب الغنم ليقوم عليه ، فاذا عاد الزرع الى حاله التي أصابته الغنم فيه في السنة المقبلة ردّ كل منهما ماله الى صاحبه ، فقال داود : وفقت يا بني لا يقطع الله فهمك وقضى بما قضى به سليمان . وفي قوله تعالى : [وكلا آتينا حكماً وعلماً] يذهب قوم من علماء المسلمين كما يقول القرطبي إلى أن داود عليه السلام لم يخطىء في هذه النازلة ، بل أوتي الحكمة والعلم، وحملوا قوله تعالى: [ففهمناها سليمان] على أنه فضيلة له . وفضيلته راجعة الى داود ، والوالد تسرّه زيادة ولده عليه ، وفي هذا يروى ان الوليد لما هدم كنيسة دمشق كتب اليه ملك الروم: انك هدمت الكنيسة التي رأى أبوك تركها فان كنت مصيباً فقد أخطأ أبوك ، وان كان أبوك مصيباً فقد أخطأت أنت فأجابه (الوليد) بقول الله تعالى : [وداود وسليمان إذ يحكمان في الحرث إذ نفشت فيه غنم القوم وكنا لحكمهم شاهدين ففهمناها سليمان وكلا اتينا حكماً وعلماً].

هكذا يتناول الذكر الحكيم سيرة بعض أنبياء الله بما يدل على أنهم لم يعيشوا في فراغ أو بمعزل عن الناس لا يعرفون غير المؤامرة والدسائس التي يفيض بذكرها والاطناب فيها كتّاب التراث الاسرائيلي في العهد القديم ، ويبين الله سبحانه وتعالى فضله على داود وابنه ويكشف عن انهما كانا على علاقة قوية بربهما يشكرانه ويعبدانه ويقران له بالفضل والنعمة والهداية يقول تعالى في سورة النمل : [ولقد آتينا داود وسليمان علماً وقالا الحمد لله الذي فضلنا على كثير من عباده المؤمنين] [١] ولِمَ لا يكون الأمر هكذا عند أنبياء الله ، ولِمَ لا تكون صورتهم بهذا الاشراق والطهر الذي يطالعنا به رب العزة في القرآن الكريم عنهم وهو يناديهم سبحانه واحداً بعد الآخر يقول تعالى في سورة (ص) : [يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم

(١) سورة النمل ، الآية ١٥ .

بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله ان الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب] (١) .

ويقول سبحانه وتعالى عن نبيه أيوب عليه السلام وهو يطهر وجهه الكريم مما قذفه به واتهمه فيه كتّاب المفتريات في تراث اسرائيل في العهد القديم يقول تعالى في سورة (ص) : **[واذكر عبدنا أيوب إذ نادى به ربه أني مسني الشيطان بنصب وعذاب اركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب]** (٢).

ويقول سبحانه في نفس السورة : **[واذكر عبادنا ابراهيم واسحق ويعقوب أولي الأيدي والأبصار ، انا أخلصناهم بخالصة ذكرى الدار وانهم عندنا لمن المصطفين الأخيار ، واذكر اسماعيل وليسع وذا الكفل وكل من الأخيار]** (٣).

هذه هي صور ونماذج محدودة أتينا عليها من مشاهد النبوة على أيدي بعض الأنبياء الذين تناولهم الذكر الحكيم بكل هذه الأمانة والعفة والطهر والترقي محملين من قبل ربهم بأعباء ضخمة هم فيها للناس نعم القدوة والانموذج والمثل ، وحين اعتدى عليهم كتّاب التراث الاسرائيلي بأن خلعوا عليهم ما وقعوا هم فيه من مآثم ومفاسد جاءت عناية الله تعالى في محكم الذكر الحكيم ورفعت عنهم وطهرتهم من كل ما قذفهم به كتّاب التراث الاسرائيلي من مآثم ومفتريات .

ان المآثم والمفتريات التي خلعها كتّاب العهد القديم في سفري صموئيل والملوك على وجه الخصوص حين جعلوا من نبي الله داود رجل مؤامرات سياسية ، ما ان يفرغ ويصبح ملكاً نبياً إلا ويرسل الجيوش ليغزوا ويحارب ويعتدي جيشه بينما هو في رواية التراث الاسرائيلي يتمشى على سطح قصره

---

(١) سورة (ص) ، الآية ٢٦ .
(٢) » » » ٤١ .
(٣) » » » ٤٥ .

يتصيّد عورات الناس ، ثم يرسل الى زوجات رجال أزواجهن في الحرب فيقهرهن ويمارس معهن جريمة الزنا، ثم لكي يستر خطيئته التي لم يستح كتّاب العهد القديم أن يقبّحوها تدويناً فقط في عيون الشعب ومع ذلك خلعوها بغير حياء على نبي الله داود الذي يأمر في زعمهم بقتل (أوريا) الحثي زوج (بتشبع) ثم لا تهزّه في زعمهم جريمة زنا ولده (أمنون) في أخته (ثمار) الى غير ذلك من مزاعم المؤامرات السياسية والقتل غيلة وغدراً ، نبي الله هنا في القرآن الكريم يقدمه رب العزة طاهراً مطهراً لا يعرف شيئاً من هذا الإثم ولم يقع فيه فرداء النبوة كفيل بصد كل المآثم عنه وحمايته من مفتريات كتّاب التراث الاسرائيلي وصدق رب العالمين حين يكشف عن فضله على عبده داود في سورة (ص) : [**ووهبنا لداود سليمان نعم العبد انه أواب**] .

هذا .. ويطالعنا الذكر الحكيم في مواقف ومشاهد كثيرة طاهرة مطهرة عن نبي الله سليمان عليه السلام بما يدحض كل مفتريات وإثم ما خلعه كتّاب التراث الاسرائيلي على نبي الله سليمان ، بعد ان عطّلوا عمل النبوة معه في كل ما رووه عنه وما تداولوه عن سيرته وبعد ان جعلوه يترك عبادة ربه الواحد الخالق الذي شرّفه بالنبوة والرسالة ويعبد آلهة الشعوب الوثنية ارضاءاً لزوجاته الاجنبيات . يقول عنه رب العزة نافياً التهمة التي خلعها عليه أبناء اسرائيل عبر الأجيال ولم يخجل واحد من كهانهم او زعمائهم او حتى ممن ادعوا له النبوة والرسالة من ان يقف وقفة مع زيف المفتريات التي ألصقت بواحد من كبار أنبياء الله ، ومن هنا فرب العزة بالوحي الإلهي في القرآن الكريم يكشف عن الوجه الحقيقي والدور الايماني القائم على التوحيد لله رب العالمين الذي كان عليه ودعا له نبي الله سليمان عليه السلام يقول تعالى في سورة البقرة : [**واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا ، يعلمون الناس السحر وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت ، وما يعلمان من أحد حتى يقولا إنما نحن فتنة فلا تكفر فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه وما هم بضارين به من أحد**

إلا باذن الله ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم ولقد علموا لمن اشتراه ما له في الآخرة من خلاق ولبئس ما شروا به أنفسهم لو كانوا يعلمون] [1] .

وعند شرح هـذه الآية الكريمة يقول الإمـام ابن جعفر بن جرير في قوله تعالى [2] : [**ولقد أنزلنا اليك آيات بينات**] الآية أي أنزلنـا اليك يا محمد علامات ولفحات دالات على نبوتك ، تلك الآيات هي مـا حواه كتاب الله من خفايا اليهود ومكنونات سرائر أخبارهم وأخبار أوائلهم من بني اسرائيل والنبأ عما في كتبهم التي لم يكن يعلمها إلا أحبارهم وعلماؤهم وما حرّفه أوائلهم وأواخرهم وبدّلوهم من أحكامهم التي كانت في التوراة فأطلع الله في كتابه الذي أنزله على نبيه محمد ﷺ فكان من ذلك من أمره الآيات البينات لمـا أنصف مع نفسه ولم يدحضها لهلاكها للجسد الذي كان في فترة كل ذي فترة صحيحة تصديق من مثل ما أتى به محمد ﷺ من الآيات البينات التي وصف من غير تعلم تعلمه من بشر ولا أخذ شيئاً منه عن آدمي كما قال الضحاك عن ابن عباس [**ولقد أنزلنا اليك آيات بينات**] يقول فأنت تتلوهم عليهم وتخبرهم به غدوة وعشية وبين ذلك ، وأنت عندهم أمي لم تقرأ كتاباً ، و نت تخبرهم بخافي أيديهم على وجهه . يقول الله لهم في ذلك عبرة وبيان وحجة لو كانوا يعلمون يقول محمد بن اسحق : حدّثني محمد بن أبي عن عكرمة ، او سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : قال بن صوريا القطويني لرسول الله محمد ﷺ يا محمد ما جئتنا بشيء نعرفه وما أنزل عليك من آية فنتبعك ، فأنزل الله في ذلك قوله تعالى : [**ولقد أنزلنا اليك آيات بينات وما يكفر بها إلا الفاسقون**] .

ويقول مالك بن الصيف حين بعث رسول الله ﷺ وذكرهم بما أخذ عليهم من الميثاق وما عهد عليهم في محمد ، قالوا والله ما عهد الينا في محمد وما

---

(١) سورة البقرة ، الآية ١٠٢ .

(٢) تفسير ابن كثير : الجزء الأول ص ٢٣٤ .

أخذ علينا ميثاقاً ، فنزل قول الله تعالى : [**أو كلما عاهدوا عهداً نبذه فريق منهم بل أكثرهم لا يؤمنون**] فالقوم الذين تحدث القرآن عن أخلاقهم بنبذهم العهود التي تقدم اليهم هم الذين شوّهوا تراث أنبياء الله في كتب العهد القديم ألحقوا بهم ما ألحقوه من الأذى والمفتريات ، ولذا فحين جاءهم الرسول بالذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والانجيل ، أي فيما تبقى لديهم من حق ألبسوه الباطل ، نبذ فريق من الذين أوتوا الكتاب كتاب الله وراءهم ظهرياً ، وفي هذا يقول رب العزة في سورة البقرة : [**ولما جاءهم رسول من عند الله مصدق لما معهم نبذ فريق من الذين أوتوا الكتاب كتاب الله وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون،واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا ...**] الآية [1] .

وبمقتضى هذا الكفر من الأبناء بكتاب الله على يد محمد ﷺ كان كفر الآباء أيضاً بما جاء به نبي الله سليمان ولذا فبعد ان كفر بنو اسرائيل بسليمان دوّن كتّاب التراث عليه مفترياتهم في العهد القديم ، ويبقى في النهاية ذلك التكريم الذي تتحدد به ملامح ذلك النبي العظيم على ضوء لغة القرآن النظيفة الطاهرة ، ومن خلال بيانه المشرق وهو يتحدث عن نبي الله سليمان يقول رب العزة في سورة الأنبياء عن هذا النبي تكريماً له وتطهيراً من دنس ما قذفه به كتّاب التراث الاسرائيلي : [**وعلمناه صنعة لبوس لكم لتحصنكم من بأسكم فهل انتم شاكرون،ولسليمان الريح عاصفة تجري بأمره الى الأرض التي باركنا فيها وكنا بكل شيء عالمين**] [2] .

وفي النهاية أين هذا الطهر القرآني وهو يتناول سيرة الأنبياء ويكشف المهام الجليلة التي قاموا بها بأمر ربهم في مجال النبوة وعمل الرسالة الإلهية من دنس تراث اسرائيل في العهد القديم ومفتريات كتّابه على أنبياء الله ورسله .

---

(١) سورة البقرة ، آيتا ١٠١ – ١٠٢ .
(٢) سورة الأنبياء ، آيتا ٨٠ – ٨١ .

نعتقد انه بعد هذا الموجز في عرض القرآن الكريم لسيرة أنبياء الله ورسله في مجال العقيدة الدينية الإلهية وفيما يتعلق بالنبوة والرسالة الإلهية فان تراث بني اسرائيل في العهد القديم بالمنهج الذي هو عليه مرفوض تماماً في معظم عطائه فقد زيّف فيه الحق بالباطل واختلطت فيه كما رأينا سيرة الايمان بعبادة الأصنام والأوثان .

النبي يوسف في عطاء القرآن الكريم :

في سورة في القرآن الكريم تسمت باسم هذا النبي الكريم عليه السلام قص القرآن الكريم سيرته كاملة دون تحريف او مفاسد كما فعل كتّاب العهد القديم.

وتبدأ قصة يوسف عليه السلام بتلك المقدمة التي تهيء لها الآية رقم ٣ من السورة والتي يخاطب فيها المولى سبحانه نبيه الخاتم صلى الله عليه وسلم بقوله :[**نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا اليك هذا القرآن وان كنت من قبله لمن الغافلين**] (١) .

هذا .. ويجيب الإمام القرطبي في كتابه (الجامع لأحكام القرآن) (٢) عن مسألة اختلف فيها العلماء وهي لِمَ سميت هذه الصورة أحسن القصص من بين سائر الأقاصيص ؟ فيقول : لأنها ليست قصة في القرآن تتضمن من العبر والحكم ما تضمنته هذه القصة ، وقيل سمّاها أحسن القصص لحسن مجاوزة يوسف عن أخوته وصبره على أذاهم ، وعفوه عنهم بعد الالتقاء بهم عن ذكر ما تعاطوه وكرمه في العفو عنهم ، وقيل لأن فيها ذكر الأنبياء والصالحين والملائكة والشياطين والجن والأنس والانعام والطير وسير الملوك والممالك والتجار والعلماء والجهال والرجال والنساء وحيلهن ومكرهن ، وفيها ذكر التوحيد والفقه والسير .

---

(١) سورة يوسف ، الآية ٣ .

(٢) (الجامع لأحكام القرآن) القرطبي الجزء التاسع ص ١٢٠ .

هذه السورة الكريمة التي تتضمن أحسن القصص أيا كان رأي العلماء فيما ذهبوا اليه خاصة وانه ليس بينهم كبير اختلاف فيما ذهبوا اليه تبدأ بالحديث عن يوسف بقول الله تعالى : [**إذ قال يوسف لأبيه يا أبتِ اني رأيت أحد عشر كوكبا والشمس والقمر رأيتهم لي ساجدين**] (١) . وعند تفسير هذه الآية يقول القرطبي: قال السهيلي: أسماء هذه الكواكب جاء ذكرها مسنداً، رواه الحرث بن ابي أسامة قال : جاء بستانه وهو رجل من اهل الكتاب، فسأل النبي ﷺ عن الأحد عشر كوكباً الذي رأى يوسف فقال : الحرتان، والطارق ، والذيال ، وقابس ، والمصبح ، والضروح ، وذو الكنفات ، وذو الفرع ، والفليق ، ووثاب ، والعمودان رآها يوسف تسجد له . انتهى .

يقول رب العزة مفصحاً ومعبراً للخلق في كتابه المحكم عن قيمة وأهمية هذه الرؤية التي رآها يوسف :[**قال يا بني لا تقصص رؤياك على اخوتك فيكيدوا لك كيداً ان الشيطان للانسان عدو مبين**] (٢) .

وفي قوله تعالى [**فيكيدوا لك**] أي يحتالوا على اهلاكك اشارة إلى طبيعة استعداد اخوة يوسف وهي انهم لا يقبلون براهين الله التي اجراها على قلب واحد منهم ابتداء بحدثهم بما رآه من براهين الله وآياته ارهاصاً للنبوة واعلاناً عنها .

هذا ويطالعنا القرآن الكريم في سيرة يوسف عليه السلام على جزء من خطة المؤامرة التي اعدها له اخوته بعد ان رأوا فيما حدثهم به براهين الله تقترن بكل تصرفاته فقد قرروا حسداً وبغيا التخلص منه وفي بئر عميقة لكن يد الله وعونه لم تتركا يوسف وحده امام هذه المؤامرة يقول تعالى :[**فلما ذهبوا**

---

(١) سورة يوسف ، الآية ٤ .

(٢) » » » ٥ .

به واجتمعوا ان يجعلوه في غيابات الجب واوحينا اليه لتنبئنهم بامرهم هذا وهم لا يشعرون] [١] .

ثم يطالعنا القرآن الكريم ايضاً في مشهد متكامل متتابع رعاية الله وعونه للصغير الملقى في البئر ، حتى ينجو منه ويخرج للحياة واذا به بعد تجربة خصبة في دروب الحياة المختلفة تعصمه فيها النبوة من كل الشرك واساليب الخداع التي حيكت له من ان يقع او ينحرف حتى عندما تعرض لكيد امرأة العزيز . يقول رب العزة : [**ولقد همت به وهم بها لولا ان رأى برهان ربه كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء انه من عبادنا المخلصين]** [٢] .

ويشاء الرحمن الرحيم ان تحل في منطقة فلسطين حالة من الجدب والكساد يجيء على اثرها ابناء يعقوب إلى مصر ليقفوا على غير علم منهم امام اخيهم يوسف الذي عرفهم وهم منكرون ، ويدخل معهم في حوار لعلهم يلمحون شاهداً مما يقوله على انعم الله وبراهينه التي انعم بها عليه ثم يأمرهم بالعودة من حيث أتوا بعد ان يزودهم من خير مصر وبرها وفي سوق هذا المشهد يقول رب العزة : [**وجاء اخوة يوسف فعرفهم وهم له منكرون]** [٣] . وبعد رحلة العودة من حيث أتوا عادوا إلى مصر للمرة الثانية بما اشترطه عليهم يوسف حين جاءوا باخيهم من ابيه وهنا في خبر القرآن الصادق ودروسه البليغة للتأمل والتدبر في دور النبوة وعملها واثرها في الناس يفاجئهم يوسف بذلك الدرس الاخلاقي الذي يفتقد مثله كثيراً في اسفار العهد القديم : (قال هل علمتم ما فعلتم بيوسف واخيه اذ انتم جاهلون قالوا أئنك لانت يوسف قال انا يوسف وهذا اخي قد منّ الله علينا انه من يتق ويصبر فان الله لا يضيع اجر المحسنين) [٤] .

---

(١) سورة يوسف الآية ١٥ .

(٢) سورة يوسف الآية ٢٤ .

(٣) سورة يوسف الآية ٥٨ .

(٤) سورة يوسف آيتا ٨٩ — ٩٠ .

هذا .. ومعالم النبوة واثرها بين الناس بالخير والرحمة والهداية والتوحيد المعاني والقيم المفتقدة تماماً في معظم جوانب سيرة انبياء بني اسرائيل في العهد القديم نراها هنا في لغة القرآن الكريم على اقوى واعظم ما تكون تأثيراً وتوجيهاً بين الناس ، فبعد كل تلك الرحلة من الاخطاء والاثام والمفاسد والكذب والافتراء الذي قام به ابناء يعقوب ضد اخيهم وهو صغير ثم وهم في حضرته وزيراً نبياً لا يعرفونه بل يقفون امامه سائلين ومستجدين قالوا كذباً عن اخيهم الذي امر يوسف عليه السلام بوضع ثمن الغلال في اوعيته اختياراً لهم وكشفاً عن سرائرهم قالوا كما عبر عنهم رب العزة في نفس السورة [1] : [**قالوا ان يسرق فقد سرق اخ له من قبل فاسرها يوسف في نفسه ولم يبدها لهم قال انتم شر مكاناً والله اعلم بما تصفون**] ومع كل عنف وافتراء هذا الموقف من جانب اخوة يوسف فان رحمة النبوة في لغة القرآن وبيانه المعصوم تجيء في مقابلة هذا الاثم بهذه الصورة المشرقة التي تبرز عن وظيفة النبي وعمله في الناس قبل كما قال عنه رب العزة : [**قال لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو ارحم الراحمين**] [2] .

وبهذه السيرة الموجزة عن حياة يوسف عليه السلام في لغة القرآن وبيانه اردنا ألا نقدم بها ترجمة كاملة لسيرة هذا النبي العظيم في القرآن الكريم وانما لنتعرف على اثر من آثار النبوة على يد واحد من انبياء الله في عطاء القرآن الكريم ولغته عن انبياء الله ورسله هذا الاثر الذي لا يعثر عليه الباحث في قليل او كثير بين سياق واخبار كتب التراث الاسرائيلي في العهد القديم .

النبي ايوب عليه السلام في عطاء القران الكريم .

ليس في سيرة نبي الله ايوب عليه السلام في لغة القرآن وبيانه تلك النماذج

---

(١) سورة يوسف الآية ٧٧ .

(٢) سورة يوسف الآية ٧٢ .

والانماط والوثنية التي تحدثت عنها وافاضت كتب التراث الاسرائيلي في العهد القديم ، حيث نسبت حواراً إلى الله والشيطان وايوب ، رجح فيه في زعم كاتب التراث الاسرائيلي الوثني رأى الشيطـان وتغلب على ايوب وربـه – معاذ الله – واصبح الرجل الذي تحدثت عنه الاسفار وافاضت على انـه يرمز للصبر وقوة التحمل والرضا بقضـاء الله وقدره رمزاً لمعاني اخرى وقع فيها على ضوء مـا زعم كاتب التراث الاسرائيلي مضطراً هذه المعاني ابعد ما تكون عن النبوة وعملهـا وعن الصبر والامتثال ، بل اقرب إلى روح التمرد والرفض لكل قضاء الله تعالى في عبده ايوب وهذا مـا يتنافى مع ابسط قواعد واخلاق النبوة ومن هنـا تطالعنا سيرة ايوب عليه السلام في كتاب الله تعالى بغير مـا ذهب اليه كتاب التراث الاسرائيلي تمامـاً سواء قبل ان يمسه الضر او بعده تطالعنا وفيهـا كل دروس العظة الموقف النبوي الممتثل الصابر لقضاء الله والذي لم يتجاوز فيه النبي ايوب منطق الكمال والعصمة الذي يجب ان يكون عليـه كل الذين بينهم وبين الله علاقات عبودية فضلاً عن واجبات النبوة والتزاماتها على من يصطفيه خالقه لشرف هـذه النبوة والتزاماتها ، تطالعنا سيرة ايوب في القرآن الكريم بلغة عفة وسيرة كريمة ودرس يستحق التأمل وعظة تدعوا للنظر في براهين الله ودلالاته ، ويذكرها رب العزة في سورة (ص) عقب ذكره لنبيين كريمين على الله همـا داود وسليمان ، وبهـذا المدخل المؤثر والمنبه للمؤمنين يخاطب رب العالمين نبيه محمداً ﷺ وهو يسوق له في معرض التكريم جزءاً من سيرة نبي الله ايوب درساً وعظـة لمـن كان عنده قلب فيقول : [**واذكر عبدنا أيوب إذ نادى ربه اني مسني الشيطان بنصب وعذاب**] [١] . هكذا تجيء الآية في برهانها وخبرها صريحة بغير لغظ او حوار او تجسيم او تشبيه ، فالرجل النبي حين اختبر وابتلى بارادة ربه وحده نادى ربـه بحكم عبوديته لله ان يكشف عنـه الغمر ، فليس في

---

(١) سورة (ص) ، الآية ٤١ .

الأمر مراهنة او مغايرة خسرها طرف في مواجهة طرف كما حاول كتّاب العهد القديم بالإثم الذي دوّنوه ان يخلعوا على سيرة الرجل بأفكارهم المادية والوثنية صوراً مما تأثروا به في عقيدتهم وأفكارهم وما انتهى اليهم من أساطير الأمم وأحاديث الخرافة .

كان نبي الله ايوب معنا هنا في منطق القرآن الكريم وعطائه حين أصابه الغمر فانه على الفور ومن دائرة النبوة الكريمة على الله تأخذه يد الله الحانية برحمة ورأفة وتهيء له من الاسباب ما يبرأ به جسده وتشفى به جوارحه ويحمل أهله وولده وينتقل من مكان لآخر في اتجاه الله يدعو الى الله ويترك بصمات النبوة وأثرها بين الناس ، بغير زلازل او براهين او رياح تعصف بالقرى تقتلع البيوت وتقتل الماشية كما نسج خيال كاتب أسفار التراث الاسرائيلي في العهد القديم ، وإنما الأمر هنا في تناول سيرة الرجل بنهج القرآن الكريم يناديه رب العالمين بالوحي الإلهي من فوق السموات العلي :

[اركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب ، ووهبنا له اهله ومثلهم معهم رحمة منا وذكرى لأولي الألباب ، وخذ بيدك ضغثاً فاضرب به ولا تحنث إنا وجدناه صابراً نعم العبد انه أواب] (١) .

هذا هو تصوير القرآن الكريم ولغته المشرقة النظيفة في تناول ما أختبره الله تعالى به باعتباره عبداً نبياً وهذه هي أنعم الله ايضاً على عبده النبي ايوب ليس فيها ما يعاون على فهم موقف او تصوره ينبيء عن جزع او فزع من القضاء الذي حل بنبي الله كما حاول كتّاب العهد القديم ان يصوروه في سيرته لكنه وكما يقول احد علماء الإسلام وهو الإمام البيضاوي في كتابه : (أنوار التنزيل واسرار التأويل) (٢) عند تفسيره لقول الله تعالى عن عبده

---

(١) سورة (ص) ، الآيات ٤٢ - ٤٤ .

(٢) (أنوار التنزيل وأسرار التأويل) ناصر الدين ابي سعيد عبدالله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي - الجزء الخامس ص ٢٠ من المجلد الثاني طبعة مؤسسة شعبان للنشر والتوزيع بيروت .

ايوب : [... إنا وجدناه صابراً ...] أي فيما أصابه في النفس والأهل والمال وكان أواباً أي مقبلاً على الله غير جازع .

وهكذا يتناول القرآن الكريم سيرة أنبياء الله حين يقصها الله تعالى في محكم الذكر الحكيم درساً للمؤمنين وعظة وتدبراً وكذا تكون سيرة أنبياء الله في الناس على ضوء اختيار الله لهم بحكم انهم الصفوة المختارة من بين خير خلق الله تعالى للناس هداية ورحمة بالانموذج والمثل والقدوة وليس أمر أنبياء الله ورسله كما حاول كتّاب العهد القديم ان ينهوه الى الناس حقلاً لتجارب الإثم ومسرحاً لدروب المعصية والمفاسد التي وقع فيها شعب اسرائيل عبر التاريخ ورغب كتّاب العهد القديم أن يحولوا أحاديث الذكريات إلى سيرة عن أنبياء الله ورسله ، أنبياء الله ورسله على ضوء خبر الذكر الحكيم في الكتاب الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه أبعد ما يكونون عنها .

الباب الرابع

منهج القرآن الكريم في قضية الألوهية

الفصل الأول

أهمية هذه القضية

حول هـذه القضية الشديدة الدقة والتي بلغت في الاهتمام الإنساني أقصى درجاته في التحمل والنظر والبحث والدرس راجت وانتشرت نظريات وأفكار ومذاهب ، بينما كسدت أفكار وأراء وجمدت ، ولم يقطع الجهد الانساني بالعقل شوطاً مثمراً حول هـذه القضية ولم تسعف إمكاناته في التعرف على البدايات الحقيقية والصحيحة في هذه القضية البالغة الخطورة والدقة .

وأمر الفكر الإنساني في قصوره وعجزه في مواجهـة تفسير الكون ومظاهره للتعرف على الذات العلية التي هي وراء هذا الكون هو أمر أصحاب الاديان الوضعية الـتي سبقت أو تخللت الفترة الزمنية التي كانت بين اليهودية والمسيحية وقبـل الإسلام ، ومع ان جوهر ولب دعـوة سلسلة الأنبياء التي بدأت بأبي الأنبياء ابراهيم عليه السلام وانتهت بفرع النبوة في ولد اسحق بعيسى ابن مريم عليه السلام كانت من أجل تعريف البشر ومعاونتهم في التعرف على الله رب العالمين، الإله الواحد الخالق الذي بيده كل شيء وهو على كل شيء قدير، إلا ان الذين وجهت اليهم الدعوة الإلهيـة — توحيداً — منزهـاً لا تعرف في أمر الإله إلا أنه الخالق لكل شيء رب العالمين جميعاً انتهت بهم الى الاعتقاد

فيه على أنه إله قبلي للحرب والانتقام تارة يوحي إلى البار والفاجر والرجل والمرأة الحر والعبد طالما هو بني اسرائيل او إلى الاعتقاد فيه على انه عدة آلهة تجتمع مع بعضها لتكون إلهاً واحداً وتتفرق ليكون كل واحد من الثلاثة إلهاً على حدة كما هو الشأن في تفسير أصحاب المسيحية المسيحية تارة أخرى (١) .

ولا نريد هنا ان نقوم بعرض موسع يتناول المذاهب الوضعية او نتعرف فيه على جوهر العقيدة في الأديان السماوية الثلاثة لنقف على ما انتهت اليه اليهودية والمسيحية في هذه القضية ذات الأهمية القصوى في أمر الوجود الإنساني فما انتهينا اليه حول هذه القضية في دراستنا لها في العهد القديم يكفي للتعرف على ما انتهت اليه هذه القضية عند اليهود ، والذي يعنينا هنا هو مناقشة التراث الاسرائيلي ومقرراته في هذه القضية وذلك من خلال طرح المنهج القرآني ونحن بذلك لا نبغي ان ندخل في جدل مع منهج اسفار العهد القديم وإنما نريد حين نعرض المنهج القرآني في قضية الألوهية ان نحسم به رأينا النقدي الذي تناولنا به زيف التراث الاسرائيلي لهذه القضية التي أتينا عليها في دراستنا ونقدنا لكتب واسفار العهد القديم .

إن موضوع الألوهية في العهد القديم كما رأينا يدور حول التجسيم والتشبيه في معظم نصوص الأسفار ولم يعرف كتّاب العهد القديم حتى في الأسفار الخمسة الأولى المتداولة على انها اسفار التوراة (الله) رباً خالقاً للعالمين لا نظير له ولا شبيه لم يلد ولم يولد وإنما كما قررنا وأثبتنا عنهم لم يعرفوا فيما دوّنوا في تراث اسرائيل الله إلا كما انتهت اليهم أفكار دوّنوها على أنها يهودية العهد القديم في الإله وعلى أنه إله قبلي رب للجنود يختص اسرائيل بكل

---

(١) (عوض سمعان) في كتابه (الله : ذاته ونوع وحدانيته) صادر عن دار التأليف والنشر للكنيسة الأسقفية بالقاهرة ص ١٢٣ .

شيء ولهم كل شيء وليس عليهم من شيء او إلهـاً متعدد الذات منقسماً او متحداً كما انتهت اليه مسيحية العهد القديم والجديد .

ومن هنا تتضح الأهمية القصوى والحاجة العظمى التي تدور هذه القضية حولها إلى منهج القرآن الكريم وعطائه، لأنه بحكم حفظ الله له وعصمته عن التحريف هو الكتاب الوحيد على الارض الذي يرفع عن اليهودية والمسيحية ما لحق بهما من أذى ودنس اتباعهما ويقدمهما دينين نظيفين كاملين من خلال الدين الأكمل والكتاب الأتم ، وليصبح الايمـان بهما إيمانـاً بالضرورة بالإسلام بحكم انه الدين الخاتم الذي يصحح ويكمل كل ما سبقه من أديان وبالتالي يصبح الإيمان بالإسلام فقط دون غيره متضمناً الايمان باليهودية الحقة والمسيحية التي لا تعرف الشرك، وبالتالي فلا وجه للمقابلة أبداً بين مضمون ومحتويات العقيدة الدينية اليهودية المسيحية عـلى ضوء مـا هي عليه في الكتاب المقدس وبين جوهر عقيدة الايمان بالله رب العالمين في الاسلام .

هذا.. ويطالع القارىء لكتاب الله والمتبصر في معانيه بغير لغط او غلو كتاب التراث الاسرائيلي ذلك الحسم القاطع والجامع المانع الذي تجيء بعده الآيات والبراهين والأدلة لتؤكد صدق ويقين خبر القرآن الكريم في هـذه القضية الشديدة الدقـة والبالغة الاهمية فيخاطب الله سبحانه وتعـالى نبيه الخاتم محمد ﷺ في سورة الاخلاص آمراً له بأن يقدم للانسانية كلها في ماضيها السحيق الذي ابتدأت فيه تتعرف على ربها فعرفته حينـاً وضلته أحياناً ، ومستقبلها الذي يتحدد بمشيئة الله وارادته تلك الحقيقة التي تمثل اليقين المطلق في عقيدة المسلم بالله رب العالمين : [**قـل هو الله أحد ، الله الصمد ، لم يـلد ولم يولد ، ولم يكن له كفوا أحد**].

وبهذا المطلع العظيم في ابراز مضمون قضيـة الألوهية في القرآن الكريم أعلن الاسلام عن هـذا الحق الذي لم تبلغـه الإنسانية في أطوار تعرفها على الإله ، ولم يحفظه عن الديانتين السابقتين للاسلام انهما احتفظتا بشيء من هذا

الحق الذي أعلنته آية محدودة الكلمات في كتاب الله تعالى بغير لبس ولا غموض ولا تأويل ، وفي بضع كلمات معدودات أعرب الاسلام وصاغ منزل القرآن بارادته تعالى الأسلوب الأكمل والأرشد في معرفة الله وانه بهذا المطلع الاسلامي في هذه القضية يكون هكذا الايمان من الخلق في الإله الخالق رب الناس ملك الناس إله الناس .

هذا .. والمتدبر في آيات الذكر الحكيم يجده قد راح يقرب المداخل العقلية والقلبية حول هذه القضية ويقيم البراهين الكونية في التعرف على إله العالمين في القرآن الكريم الإله الأحد الصمد الذي هو بمقتضى انه خالق لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد .

الفصل الثاني

الايمان بالغيب ودلالته على الخالق

ليس الامر في كتاب الله تعالى في القرآن الكريم فيما يتعلق بالايمان برب العالمين وفي التعرف على آياته وبراهينه كما جاء في كتب التراث الاسرائيلي في العهد القديم ان دلالة الله عندهم انه يتمثل على هيئة ملاك او انسان او ان ينزل بذاته في صورة او بركان او ان يتحدث إلى الناس الانبياء منهم والعامة او يأكل طعامهم او يستريح ليظهر بعد ذلك في سحاب مضطرب فيه بروق ورعود تواكب مسيرته او انه (تعالى الله) يتقابل ويتماثل بالاشكال والرموز والصور والنماذج التي ناقشناها ونقدناها في موضعها من التراث الاسرائيلي في العهد القديم ونضعها هنا في مقابلة منطق القرآن ولغته ولكن الايمان برب العالمين على ضوء ما رسم القرآن الكريم وحدد من اساليب يبدأ من خلال براهين للايمان تمثل المدخل الارحب والارشد والاكمل في التعرف على الله وهذا المدخل هو الذي يتميز به الاسلام على كل ما عداه وما سبقه في مخاطبة الناس للتعرف على الله تعالى واعني به (الايمان بالغيب) وكلمة (الغيب) ومشتقاتها اللغوية في القرآن الكريم تدور حول معنى (الخفاء) لما وراء قدرة الشهود والاحاطة بالنسبة للبشر في الخلق المحيط بهم زماناً ومكاناً وذلك بسبب قصور حواسهم وعقولهم عن الادراك والعلم بما وراء حدها المحدود ،

ولذلك فان الغيب في القرآن الكريم والذي هـو مدخل للايمان برب العالمين يذكر باعتبار الناس وبالنسبة اليهم وليس بالنسبة إلى الله الذي لا يغيب عنه شيء في الارض ولا في السماء ، فهو عالم الغيب اي ما يغيب عن الناس وعن الخلق جميعاً ، ومن هنـا فان الغيب في معناه العام بالنسبة للناس يكون هو الأمر الخفي الذي لا يدركه الحس المستطلع ولا يبلغ اليـه مجال عمل العقـل الباحث وانما يقع العلم به للمؤمنين وحياً من الله إلى رسله اليهم سواء مما غاب عنهم من حقائق انباء الاولين – او مما غاب عنهم من انبياء المستقبل القريب او البعيد ، ومن هذا الغيب مثلاً ما اوحى الله تعالى به إلى رسوله محمد ﷺ قبل وقوعه وهو نبأ انتصار الروم على الفرس وكانت الحروب الدائرة بينهم منذ بعثة الرسول تهدد خطوط تجارة قريش من الشام إلى اليمن ، كما كان انتزاع الفرس (بيت المقدس) من الروم سنة ٦١٤ م وهم مجوس في ذلـك الوقت سبباً في اشاعـة الضيق والقلق بين المؤمنين فجاءت سورة الروم التي نزلت في مكة بعد هذه الاحداث المقلقة وكان ذلك في عام ٦٢٢ الوقت الذي قد ذاع فيه ان هيرقل امبراطور الروم تنازل عن سلطانه وسلم إلى بطريرك القسطنطينية وان الانهيار في معسكر الروم قـد بلغ مداه في هذا الوقت في سورة الروم انبأ الله المؤمنين من علم الغيب ما كانت كل الظواهر والمؤشرات تقول بعكسه أنبأ الله المؤمنين بان الروم سينتصرون على عدوهم في بضع سنين وعندئذ يغتبط المؤمنون بنصر الله الذي يتحرر بـه بيت المقدس من ايدي الفرس كما تتحرر طرق التجارة امام العرب [1] وكان ذلـك في قوله تعالى :

[الم غلبت الروم في ادنى الارض وهم من بعـد غلبهم سيغلبون في بضع سنين لله الامر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم] [2] .

---

(١) (القرآن وعلم الغيب) دكتور ابراهيم هلال القسم الرابع من العدد الخامس لكتاب (مع القرآن الكريم) الذي يصدره المقارلون العرب الطبعة الاولى عام ١٣٩٧ هـ - ١٩٧٧ م صفحات ١٣٥ – ١٤٠ بتصرف .

(٢) سورة الروم الايات ١ – ٥ .

وهذا هو مـا وقع تماماً كما انبأ الله به من الغيب الذي هو علم من علمه تعالى في القرآن الكريم ففي سنة ٦٢٨ م أي بعـد نزول سورة الروم ببضع سنين حاقت الهزيمـة التامـة بالفرس واستعاد الروم بالفعل بيت المقدس من أيدي الفرس ولكي يتحرر بيت المقدس بعد ذلك على يد عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنـه في عام ٦٣٨ م وهـذا هو النصر الذي بشرت بـه المؤمنين آيات سورة الروم من علم الغيب الذي أنبأهم الله سبحانه بـه قبل وقوعـه بطريق الوحي الإلهي في القرآن الكريم .

هذا ومن قبيل علم الغيب ايضاً الذي وقع للمؤمنين العلم بـه قبل وقوعه ما اوحاه الله تعالى لرسله وانبيائه وما كان من تأويل يوسف بن يعقوب عليهما السلام لرؤيا الملك قبل وقوعـه حين اخبر عن السنين الجدباء التي ستجيء على مملكة فرعون قال الله تعالى في سورة يوسف : [**قال تزرعون سبع سنين دأباً فما حصدتم فذروه في سنبله الا قليلا مما تأكلون ثم يأتي من بعد ذلك سبع شدائد يأكلن ما قدمتم لهن الا قليلا مما تحصنون ، ثم يأتي من بعد ذلك عام فيه يغاث الناس وفيه يعصرون**] (١) .

ومثل هذه الانباء هي من قبيل (الغيب) المستور والخفي قبل ان يخبر بها رسل الله فاذا ما اخبروا بها من وحي الله تعالى لهم لم تعد غيباً حتى قبل ان تقع أي في فترة انتظار وقوعها وليس هـذا من قبيل النبوة او البشارة القائمة على الرمز او (الشفرة) كما حاول كتاب وشراح العهد القديم والجديد في ان يجعلوا كل عبارات العهد القديم بشارة ونبؤة بمجيء المسيح عيسى بن مريم بالرغم من ان شاهد النصوص وسياقها لا يستقيم مع ما يذهبون اليه .

فالغيب الخفي المستور الذي يخبر بـه الله لرسله لم يعد غيباً حتى قبل ان يقع كما قلنا أي في فترة انتظار وقوعه وبراهين الخبر من الوضوح والمباشرة

---

(١) سورة يوسف آيات ٤٧ — ٤٩ .

بحيث لا تحتمل اكثر من رأي واكثر من وجهة نظر وإلى هـذا المعنى يشير القرآن الكريم في قوله في سورة هود وهو يخاطب الرسول الخاتم محمد ﷺ : **[تلك من انباء الغيب نوحيها اليك ما كنت تعلمها انت ولا قومك من قبل هذا فاصبر ان العاقبة للمتقين]** (١) .

هـذا وفي ضوء المعنى العام لكلمـة (الغيب) في النص القرآني يمكن التعرف على دلالة قول الله تعـالى في سورة الملك في الآية رقم ١٢ وهـو سبحانه يعرف بانماط من الخلق تقيم علاقات ايمانها بالله وتقوم عقيدتها في الله على هـذا الاساس القائم على الخشية من الله والممتد بالخشيـة من الله إلى كل مظاهر الكون وآياته وبراهينة فيقول تعالى عنهم : **[ان ألذين يخشون ربهم بالغيب لهم مغفرة واجر كبير]** (٢) .

ان هؤلاء الذين يخشون ربهم بالغيب كما لو كان الله تعالى حاضراً في العيان امامهم ، هؤلاء هم الصادقون في ايـمانهم الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهـم وفاضت بالدمع اعينهم وهم الذين جعل الله جزاءهم ان يظلهم يوم لا ظـل الا ظله وهـو سبحانه يرفعهم إلى منزلة خشيته بالغيب ليكون لهم حسن ثواب المغفرة والاجر الكبير .

ان هؤلاء الذين يخشون ربهم بالغيب هم في خشية من الحرمان من نعيمه وفي خشية من الوقوع في عذابه ، وان لم يروا ذلك النعيم او العذاب وانمـا صدقوا بهما وهما في غيب عنهم،ان هؤلاء الذين رغبوا في ثواب الله وتورعوا عن ان يقعوا في عذابه لم ينتظروا حتى يروا ذلـك العذاب باعينهم فيؤمنوا كما فعل فرعون الذي ظـل على الكفر والكبر والاستعلاء حتى اذا أدركه الغرق قال كما عبر عنـه رب العزة : **[آمنت انه لا إله الا الذي آمنت بـه بنو اسرائيل]**. وهؤلاء المؤمنون الذين يتحدث عنهم القرآن الكريم في

---

(١) سورة هود الآية ٤٩ .

(٢) سورة الملك الآية ١٢ .

ايمانهم بالغيب لم يكونوا كهؤلاء الذين جعلهم الله سلفاً ومثلاً للاخرين وهو يأخذهم باعمالهم في مثل قوله تعالى : [وكم من قرية أهلكناها فجاءها بأسنا بياتاً او هم قائلون فما كان دعواهم اذ جاءهم بأسنا الا ان قالوا انا كنا ظالمين] . ولذلك لم ينفعهم الايمان ولم ينفعهم الدعاء كما جاء في قوله تعالى في سورة غافر : [فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين فلم يك ينفعهم ايمانهم لما رأوا بأسنا ..][1] هؤلاء المبطلون خسروا أولاهم وآخرتهم لأنهم لم يخشوا الله حق خشيته بالغيب بينما أفلح المؤمنون الذين يخشون ربهم بالغيب مهتدين به اليه وهم يصدقون بالغيب من وعده ووعيده ومن رحمته وعذابه، كما لو كانوا يعاينون ذلك على مرمى البصر منهم أينما تلطوا وحيثما صاروا ، تصديقاً بما نزل به الوحي على رسول الله اليهم وعقلا لآياته وبذلك استحقوا ان يكون لهم من الله حسن ثواب الآخرة وبذلك استحقوا ايضاً ان يكونوا في ادراكهم لبراهين الله لهم أرقى احساساً وأسمى شعوراً وأعظم فهماً من اولئك الذين نقلوا آيات الله وبراهينه في كتب (العهد القديم)أو اولئكم الذين نسب اليهم التعامل مع الله على ضوء العلاقات المادية والحسية في كتب التراث الاسرائيلي .

إن الايمان بأساس الخشية الصادقة لله تعالى (بالغيب) يقع للمؤمنين في توجيه أقوالهم وأعمالهم اليه تعالى بينما الله تعالى ذاته في غيب عنهم ، وبينما هم بتفكرهم في خلقه وتعقلهم لآياته في السموات والارض وفي أنفسهم وتدبرهم لآياته المفصلة في الكتاب قد استيقنوا الدلالات والآيات على أنه سبحانه هو على وفق ما قال عن نفسه سبحانه في سورة الحشر : [هو الله الذي لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر سبحان الله عما يشركون ، هو الله الخالق البارىء المصور له الاسماء الحسنى يسبح الله ما في السموات والارض وهو العزيز الحكيم] بهذا الايمان بالله الذي تلين

---

(١) سورة غافر ، آيتا ٨٤ — ٨٥ .

بـه من خشية الله جلود المؤمنين وقلوبهم لذكر الله ومـا أنزل من حق في القرآن الكريم يصبح المؤمنون ويمسون على طاعة الله بأقوالهم وأعمالهم ، فهم يقيمون الصلاة خشية لله وينفقون ممـا رزقهم الله وفي هاتين العبادتين يقـام المدخل الواسع في عقيدة المسلم إلى كل الطاعات والاعمال الصالحات الباقيات أي يقام المدخل إلى الدين الحق بأركانه وأخلاقه عملاً وقولاً ضبطاً وتوجيهاً في حياة الناس ليس بالشكل الذي تقوم عليه دروب العبادة والتقرب لبعل وعشتروت في عقيدة اصحاب التراث الاسرائيلي في العهد القديم .

وبهذا الايمان القرآني الذي يصدق فى خشية هؤلاء المؤمنين بربهم بكل وجوه الخشية والنافذ إلى مـا وراء حجب الغيب يتتابع في القرآن الكريم وصف عطـاء الله لهم بعد نعمة المغفرة من الأجر الكبير والوعد الناجز في مثل قوله تعالى : [**وازلفت الجنة للمتقين غير بعيد هذا ما توعدون لكل أواب حفيظ من خشي الرحمن بالغيب وجاء بقلب منيب ادخلوها بسلام ذلك يوم الخلود لهم ما يشاؤون فيها ولدينا مزيد**][1] بهذا الايمـان بالغيب وبهذا الأساس الذي يقوم على خشية الله تطالعنا سورة البقرة في كتاب الله تعـالى وفي الآيات الأولى بهذه القاعدة الايمانية التي يقوم عليها ايمـان المسلم ويتميز :[**الم ذلك الكتاب لا ريب فيه هدي للمتقين ، الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون**][2] والمعنى هنا جامع شامل لجميع (الغيب) الذي جاء به القرآن الكريم مع كل دلالة الصدق في التعبير عن هذا الايمان باقامة الصلاة وغيرها من أركان الايمان بالله رب العالمين .

ومن هذا الأساس القرآني أو قـــل بهذا المدخل القرآني الذي يلج به المؤمنون كل مجالات الايمان بالله رب العالمين فان وجوه الغيب التي يؤمن بهـا المؤمنون بالله في القرآن الكريم والتي على ضوئهـا تتحدد عقيدة المسلم في

---

(١) سورة (ق) الآيات ٣١ – ٣٥ .
(٢) سورة البقرة الآيات ١ – ٣ .

الايمان بالله يتسع فيها قلب المؤمن وعقله وبصيرته لتشمل بالاضافة الى إيمانه بالله تعالى الذي هو عالم الغيب والشهادة الايمان بملائكته وهم (غيب) يصدق به المؤمنون في القرآن الكريم تأسيساً على الايمان بالله ، كذلك يشمل إيمانه بكتب الله التي نزل بها وحيه إلى رسله، لأنه تعقلها ووعاها وصدق بكل ما فيها من الغيب وذلك من خلال خبر القرآن الكريم عنها ، وإذا ما اصطدم عقله بغير ما أخبر به القرآن الكريم صدّ عنه ولم يعقله ورفض كل المعطيات التي يمكن ان تتنافى مع خبر القرآن الكريم. ولعل منهجنا الدراسي النقدي الذي حاولنا به ان نتناول الجوانب المهمة في تراث اسرائيل في اسفار العهد القديم كان بأساس من هـذه القاعدة التي نؤمن بها في كتاب رب العـالمين باعتباره الكتاب السماوي الوحيد الذي انتهى الى المؤمنين به على نفس الهيئة والحال التي أودعهـا الوحي الإلهي قلب سيدنا محمد ﷺ ودوّن وسجّل بالشكل الذي عرضناه في الباب الخاص بعصمة القرآن الكريم عن التحريف وعن الحذف والاضاعة .

هـذا .. وبرهـان القرآن الكريم في دعوته للناس للتعرف على براهين وآيات رب العالمين من خـلال نهج القرآن وعطائه نراه في عديد الآيات والدلالات والبراهين على أوجه كثيرة ومنها مثلاً الآتي .

الفصل الثالث

الله خالق كل شيء

في سورة الاعراف الآية رقم ٥٤ تعريف برب القرآن الذي خلق كل شيء وهو على كل شيء قدير وهو تعريف لا يحتاج إلى شرح او تفسير وبالتالي لا يسمح للقائلين بالرمز او التأويل أن يلجوا دلالتـه ولا أن يفسدوا معانيه ، ذلـك ان البرهان القرآني الـذي في سورة الاعراف كنموذج في التعريف بالخلق على الخالق ليس بالأمر الذي يحتاج إلى لغط أو تأويل كما قلنا كما انه لا يسمح مطلقاً في مباشرته الواضحة بما يقوله القائلون بالتشبيه او التجسيم مثلما فعل كتّاب العهد القديم في قصة خلق الكون في سفر التكوين من الاصحاح الأول والثاني في نسبتهم للعناء والاجهاد الذي حل بإلههم في يوم الخلق السادس فاستراح في اليوم السابع وباركه وقـدّسه (١) ولكن خالق الخلق في القرآن الكريم هو سبحانه بتلك القدرة التي يغاير بها كل مخلوقاته ولا يتماثل مع الخلق في شيء من خواص خلقه ، تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً ، يقول سبحانه في دعوة واضحة جلية الدلالة قوية البرهان ويوجهها سبحانه للناس جميعاً فلا يخص قطاعاً من البشر دون غيرهم ولكنه كما يقول :

---

(١) سفر التكوين الاصحاح الثاني فقرة ٣ .

[إن ربكم الله الذي خلق السموات والأرض في ستة ايام ثم استوى على العرش يغشى الليل النهار يطلبه حثيثاً والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين][1] وفي شرح هذه الآية الكريمة يقول الإمام القرطبي رحمه الله في تفسيره [2] قوله تعالى :[ان ربكم خلق السموات والارض في ستة ايام] . بيَّن تعالى انه المنفرد بقدرة الايجاد فهو الذي يجب أن يعبد وأصل (ستة) سدسه فأدغمت الدال في السين فالتقيا عند مخرج التاء فغلبت عليها واليوم : هو من طلوع الشمس إلى غروبها فان لم يكن شمس فلا يوم ، قاله القشيري وقال ومعنى في ستة أيام أي من أيام الآخرة كل يوم الف سنة لتفخيم خلق السموات والأرض قال مجاهد وذكرت هذه المدة ولو أراد خلقها في لحظة لفعل إذ هو القادر على أن يقول لها كوني فتكون ، ولكنه أراد أن يعلم العباد الرفق والتثبت في الأمور ، ولتظهر قدرته للملائكة شيئاً بعد شيء ، وهذا عند مَن يقول : خلق الله سبحانه الملائكة قبل خلق السموات والارض وهناك حكمة أخرى من خلق السموات في ستة أيام ، لأن لكل شيء عنده سبحانه أجلاً فالعدد الذي ذكر لتقريب الأمر للعباد . وليس الأمر كما ذهب كتاب العهد القديم هذا ويرد القرآن الكريم مقولة العهد القديم في خلق السموات والارض ويرفضها جملة وتفصيلاً وذلك في قوله تعالى : [ولقد خلقنا السموات والارض وما بينهما في ستة أيام وما مسنا من لغوب فاصبر على ما يقولون ...] وفي قوله تعالى : [ثم استوى على العرش] يقول الإمام القرطبي والأكثر من المتقدمين والمتأخرين انه إذا وجب تنزيه الباري سبحانه عن الجهة والتحيز فمن ضرورة ذلك ولواحقه اللازمة عليه عند عامة المسلمين المتقدمين وقادتهم من المتأخرين تنزيهه تبارك وتعالى عن الجهة ، فليس بجهة فوق عندهم لأنه يلزم من ذلك

---

(١) سورة الاعراف ، الآية ٥٤ .

(٢) (ابو عبدالله محمد بن احمد الانصاري القرطبي) في كتابه (الجامع لأحكام القرآن) — الجزء السابع ص ٢١٩ طبعة دار الكاتب العربي للطباعة والنشر عام ١٩٦٧ القاهرة .

عندهم متى اختص بجهة ان يكون في مكان أو حيز ويلزم على المكان والحيز الحركة والسكون المتحيز والتغير والحدوث هذا قول المتكلمين وقد كان السلف الأول رضي الله عنهم لا يقولون بنفي الجهة ولا ينطقون بذلك ، بل نطقوا هم والكافة باثباتها لله تعالى كما نطق كتابه واخبرت رسله، ولم ينكر أحد من السلف الصالح انه استوى على عرشه حقيقة، وخص العرش بذلك لأنه أعظم مخلوقاته ، وإنما جهلوا كيفية الاستواء فانه لا تعلم حقيقته ، قال مالك رحمه الله : الاستواء معلوم – يعني في اللغة – والكيف مجهول والسؤال عنه بدعة. وبمثل هذا القول قالت أم سلمة رضي الله تعالى عنها .

وقوله تعالى : [**يغشي الليل النهار**] أي تجعله كالغشاء ، أي يذهب نور النهار، ليتم قوام الحياة الدنيا بمجيء الليل ، فالليل للسكون والنهار للمعاش .

ويقول تعالى : [**يطلبه حثيثاً**] أي يطلبه دائماً من غير فتور .

وقوله تعالى : [**ألا له الخلق والأمر**] المعنى له الخلق فقد خلقهم من العدم وله الأمر فقد خلقهم فله الخلق والأمر ، خلقهم وأمرهم بما أحب ، وهذا الأمر يقتضي النهي ، قال ابن عيينة : فرق بين الخلق والأمر فمن جمع بينهما فقد كفر ، فالخلق : المخلوق ، والأمر كلامه سبحانه وهو أي الكلام غير مخلوق وهو قوله (كن) إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون [1] وفي تفرقته بين الخلق والأمر دليل بيّن على فساد قول من قال بخلق القران ، إذ لو كان كلامه الذي هو (أمر) مخلوقاً لكان قد قال ألا له الخلق والخلق وذلك : عيّ من الكلام ومستهجن والله تعالى يتعالى عن التكلم بما لا فائدة فيه ، ويدل عليه قوله سبحانه: ومن آياته ان تقوم السماء والارض بأمره ، والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره . فأخبر سبحانه ان المخلوقات قائمة بأمره ، فلو كان الأمر مخلوقاً لافتقر إلى أمر آخر يقوم

---

(١) القرطبي – الجزء السابع – الطبعة المشار اليها سابقاً ص ٢٢٢ .

به وذلك الأمر إلى أمر آخر إلى ما لا نهاية له ، وذلك محال فثبت ان أمره الذي هو كلامه قديم أزلي غير مخلوق ليصح قيام المخلوقات به ، ويدل عليه أيضاً قوله تعالى : [وما خلقنا السموات والارض وما بينهما إلا بالحق] وأخبر سبحانه انه خلقهما بالحق يعني القول وهو قوله للمكونات (كن) فلو كان الحق مخلوقاً لما صح أن يخلق به المخلوقات لأن الخلق لا يخلق بالمخلوق ، يدل عليه قوله تعالى : [ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين] .

وقوله تعالى : [ان الذين سبقت لهم منا الحسنى اولئك عنها مبعدون].

وقوله تعالى : [ولكن حق القول مني ..] .

وهذا كله اشارة إلى السبق في القول في القدم ، وذلك يوجب الازل في الوجود .

هذا والمتدبر في آيات الله تعالى في الذكر الحكيم يطالعه من براهين التدليل على خالقية رب العالمين لكل شيء في الخلق بغير مماثلة من الخلق وبانفراده سبحانه بخلق كل شيء .

هذا .. ويقدم كتاب الله تعالى للتدبر وللنظر صورة كونية كانموذج من عديد الصور والنماذج التي يقدمها القرآن الكريم آية وبرهاناً من الله في الكون ليتعرف بها ومن خلالها المؤمن على رب العالمين في ذلك المشهد العظيم الذي يسوقه جل ذكره في محكم الذكر .

يقول سبحانه في سورة الانعام : [ان الله خالق الحب والنوى يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ذلكم الله فأنا تؤفكون ، فالق الاصباح وجعل الليل سكناً والشمس والقمر حسباناً ذلك تقدير العزيز العليم وهو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون ، وهو الذي أنشأكم من نفس واحدة فمستقر ومستودع قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون وهو الذي انزل من السماء ماءاً فاخرجنا به نبات كل شيء فاخرجنا منه خضراً نخرج منه حباً متراكباً وعن النخل من

طلعها قنوان دانية وجنات من اعناب والزيتون والرمان مشتبهاً وغير متشابه انظروا إلى ثمره اذا اثمر وينعه ان في ذلكم لآيات لقوم يؤمنون].

يقول القرطبي :[1] عد سبحانه من عجائب صنعه مــا يعجز عن ادنى شيء منــه آلهة المعاندين والمكابرين فقوله تعالى : [ان الله فالق الحب والنوى] أي يشق النواة الميتة فيخرج منهــا ورقاً اخضر وكذلك الحبة ، ويخرج من الورق الاخضر نواة ميتــة وحبه ، وهــذا معنى يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي عن الحسن وقتادة ، وقال ابن عباس والضحاك : معنى : فالق خالق وقــال مجاهد : عنى بالفلق الشق الذي في الحب وفي النوى ، والنوى جمع نواة ويجزي في كل مــا له عجم ، وقوله تعالى : [فالق الاصباح وجعل الليل سكناً والشمس والقمر حسبانــاً ذلــك تقدير العزيز العليم] أي ذالكم الله ربكم فالق الاصباح وفالق الاصباح نعت لاسمه تعالى ، والصبح والصباح والاصباح اول النهار يريد الفجر والاصباح مصدر اصبح والمعنى شاق الضيــاء عن الظلام وكاشفه ، وقال الضحاك : فالق الاصباح فالق النهار وهو معرفة لا يجوز فيه التنوين عند احد من النحويين .

وفي الموطأ عن يحيى بن سعيد [1] انه بلغه ان رسول الله ﷺ كان يدعو فيقول : اللهم فالق الاصباح وجاعل الليل سكنــاً والشمس والقمر حسباناً اقضي عني الدين واغنني من الفقر وامتعني بسمعي وبصري وقوتي في سبيلك .

هــذا وفي قوله تعــالى : [وهـــو الذي انشأكم من نفس واحد فمستقر ومستودع قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون اشارة إلى خلق آدم عليه السلام] .

انظر الى قوله تعــالى : [وهو الذي انزل من السماء مــاء فاخرجنا بــه نبات كل شيء ، فاخرجنا منه خضراً نخرج منه حباً متراكباً ومن النخل من طلعها قنوان دانية وجنات من اعناب والزيتون والرمان مشتبهاً وغير

---

(١) القرطبي – الجزء السابع – ص ٤٥ .

متشابه انظروا إلى ثمره اذا أثمر وينعه ان في ذلـك لآيات لقوم يؤمنون] انك تحس ومن داخل مـا استودع الله فيك من مقومات الروح واسراره في الخلق [1] بعيداً عن كيانك الترابي انـك امـام قوة وعظمة وهيمنة الخالق العظيم الذي اخرج نبات كل شيء وقـد جعل سبحانه براهين ودلالة التعرف على انعمه وآياته من خلال دعوته للناس ان يروا ويتدبروا ليعقلوا من مادة الخلق وقانون الله فيها كيف يتحتم عليهم ان يوقنوا انه بمقتضى مـا يرون في مـادة الخلق لا بد وان تكون مغايرة الخالق لخلقه وتنزهه جل وعلا حقيقة مستقرة في القلوب وملء الضمائر ، ولذا فـلا يجب عليهم ان يكون الحديث عن الإله ولا عن العقيدة الدينية بمثل ما ذهب اليه اصحاب العهد القديم في اسفار تراث اسرائيل في العهد القديم .

هذا .. وفي سورة البقرة آية كريمة وكأنها تتمم وتكمل موضوع وبرهان آيات الانعام التي معنا ففي آية البقرة يقول تعالى : [**ان في خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بمـا ينفع الناس ومـا انزل الله من ماء فأحيا به الارض بعد موتها وبث فيهـا من كل دابـة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والارض لآيات لقوم يعقلون**] .

واذا كانت هذه الآية الكريمة على ضوء مـا تخبر به قد جعلت الماء وسيلة في احيـاء الله تعالى الارض بعد موتهـا أي بعد جفافها وجدبها وخلوها من النبات الحي الذي تحيا عليه وبـه الاحياء جميعاً ، فان الله سبحانه كما تقول آية آل عمران رقم ١٥٦ يحيي ويميت مطلقاً بغير وسائل من خلقه ، وانما بالامر الازلي الذي يقول بـه للشيء كن فيكون (الا له الخلق والامور) . يقول تعالى : [**يا ايها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين كفروا وقالوا لاخوانهم**

---

(١) (البهي الخولي) — آدم فلسفة تقويم الانسان وخلافته ص ٣٢ .

اذا ضربوا في الارض او كانوا غزى لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا ليجعل الله ذلك حسرة في قلوبهم والله يحيي ويميت والله بما تعملون بصير] [1].

وفي سورة العنكبوت نرى تلك اللفتة القرآنية المبهرة والتي تقرر ان الله وحده بغير وسائط ولا مشابهة يبدأ الخلق ثم يعيده إلى ما كان عليه في علمه هو سبحانه، وهو سبحانه فيما يفعله من امر لا يصطفي شعباً بربوبيته وانفراده به على شعب ، ولا ينتمي لقبيل دون قبيل انما هو رب العالمين تقول آيات سورة العنكبوت رقم ١٨ ، ١٩ ، ٢٠ [أو لم يروا كيف يبدىء الله الخلق ثم يعيده ان ذلك على الله يسير، قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ثم ينشىء النشأة الأخرى إن الله على كل شيء قدير، يعذب من يشاء ويرحم من يشاء واليه تقلبون] [2].

هذا .. وتطالعنا سورة الروم في الآية رقم ١١ بذلك التوحيد المنزه لله رب العالمين والذي يقر فيه الخلق بقلوبهم وملء نفوسهم من خلال هذه الآية الكريمة التي تسوق تلك الحقيقة المطلقة التي تتعلق برب العالمين والتي ما اقترب كتّاب العهد القديم من طهرها ولا عرفوا نقاءها :[الله يبدأ الخلق ثم يعيده ثم اليه ترجعون] [3].

وفي دائرة أقل رحابة من تلك التي يقوم عليها إيمان المؤمنين في القرآن الكريم بالغيب الذي هو في علم الله علماً إلى أن يعلمهم بما شاء لهم فيصبح الغيب الذي يؤمنون به بعد وحي الله لهم من خلال رسله وأنبيائه علماً وقع في ذلك العلم أو لم يقع ، يخاطب الله سبحانه كل الخلق وعلى ضوء ما وهبهم جميعاً من فطرة وما عرفوا على ضوئها وبهديها من قوانين وبراهين شاهدة ودالة على حقيقة الايمان بالله رب العالمين يخاطب الله الخلق في دعوة صريحة

---

(١) سورة البقرة الاية ١٦٤ .

(٢) سورة العنكبوت ، آيات ١٨ – ١٩ .

(٣) سورة الروم ، الآية ١١ .

وواضحة ومباشرة يقول تعالى في سورة الروم : [**الله الذي خلقكم ثم رزقكم ثم يميتكم ثم يحييكم هل من شركائكم مَن يفعل من ذلكم من شيء سبحانه وتعالى عما يشركون**][1] وبهذه الآية الكريمة وغيرها كثير يفيض به الذكر الحكيم تبطل كل مفتريات قصص الخلق فيما تسرقه من وثنية وعجز في أخبار خلق الله للعالم كتب العهد القديم [2] . لأن الله الخالق هو في عقيدة المؤمنين في القرآن الكريم على ضوء ما أخبر وأمر القرآن الكريم يخلق ما يشاء ويختار ولا يندم على فعل وقع في خلقه على حد ما افترت وادعت آثمة عبارات كاتب سفر التكوين التي تناولناها بالدراسة والنقد في حينها كما أنه سبحانه لا يتعب فيستريح وإنما هو رب خالق يغاير الخلق وهو كما يقول سبحانه في سورة الروم : [**الله الذي خلقكم من ضعف ثم جعل من بعد ضعف قوة ثم جعل من بعد قوة ضعفاً وشيباً يخلق ما يشاء وهو العليم القدير**] سورة الروم الآية رقم ٥٤ .

وهو سبحانه الذي بارادته وحده تكون كل الأشياء وهو الذي لا يغرب عن علمه مثقال حبة في الأرض ولا في السماء وكل أمر من الأمور عليه سبحانه خلقاً واعداماً بدءاً وانتهاءاً يسير وهين يقول تعالى في سورة فاطر : [**والله خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم جعلكم أزواجاً وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره إلا في كتاب ان ذلك على الله يسير**] سورة فاطر الآية رقم ١١ .

ورب القرآن الكريم الخالق لكل شيء رب العالمين ليس (كيهوه) الذي هو في العهد القديم رب محارب يدخل بعض المعارك ليقاتل عن شعب في مواجهة شعب فيكسب بعضها ويخسر الآخر ولكنه على ضوء آيات الله وبراهينه في الذكر الحكيم رب خالق لكل شيء وهو ايضاً مدبر أمر كل

---

(١) سورة الروم ، الآية ٤٠ .

(٢) سفر التكوين – الاصحاحان الأول والثاني في قصة الخلق التي رواها العهد القديم .

شيء في الخلق جميعاً وعلى مستوى كل الخلق جميعاً: من خلق الحب والنوى، إلى تسخير الرياح لتحيي الأرض الميتة إلى حركة النجم الكبير ومساره كل ذلك يجري بإذنه وأمره وتدبيره تقول آية فاطر وهي تسوق برهان الله للمؤمنين بالله من خلال نهج القرآن وعطائه وبراهينه : [**والله الذي أرسل الرياح فتثير سحاباً فسقناه إلى بلد ميت فأحيينا به الارض بعد موتها كذلك النشور**] (١) .

هذا .. ونرى القرآن الكريم وهو بحكم أنه كلام الله الخالق يوجه برهان الله للناس جميعاً نراه في بعض آياته الكريمة لا يخاطب الناس جميعاً بالأساس الذي وضعه للمؤمنين في إيمانهم بالله ولكنه سبحانه كما منعنا في هذه الآية يقول ويسوق براهين يمكن فهمها والله تعالى أعلم بمراده منها على ضوء دلالة الآية ان الله الذي يرسل الرياح فتثير سحاباً يعقبها المطر الذي ينزل إلى الارض الجامدة الهامدة فتدب فيها حياة الانبات والخضرة الذي بقدرته تعالى تتم هذه العملية وهي تجري أمام خلقه جميعاً ألا يقدر سبحانه على أن يؤثر الناس في يوم يقومون فيه لرب العالمين بعد موتهم ليحاسبهم على ما قدموا .

هذا .. ويعدد الله سبحانه بعض أنعمه على الناس ، ويسوق لهم قانوناً في بعض خلقه لكي يكون ذلك بعض آياته وبراهينه في مخاطبة خلقه قلباً وعقلاً بغير مسخ او تأويل او تشويه ففي سورة النور يقول تعالى : [**والله خلق كل دابة من ماء فمنهم من يمشي على بطنه ومنهم من يمشي على رجلين ومنهم من يمشي على أربع يخلق الله ما يشاء ان الله على كل شيء قدير**] .

هذا..ومن الجدير بالذكر انه قبل هذه الآية الكريمة كانت الآيات السابقة عليها في نفس السورة تسوق بعض براهين قدرته تعالى على الخلق ورضوخ كل ما خلق سبحانه لارادته وأمره ، يقول تعالى في الآيتين رقم ٤٣ و ٤٤:

---

(١) سورة فاطر ، الآية ٩ .

من نفس السورة : [ألم ترَ أن الله يزجي سحاباً ثم يؤلف بينه ثم يجعله ركاماً فترى الودق يخرج من خلاله وينزل من السماء من جبال فيها من برد فيصيب به من يشاء ويصرفه عمن يشاء يكاد سنا برقه يذهب بالابصار يقلب الله الليل والنهار ان في ذلك لعبرة لأولي الأبصار] .

وبهذا القدر الذي هو جزء ضئيل من كل كبير يحتويه كتاب الله براهين وآيات من الله للخلق يقوم برهـان القرآن الكريم في التدليل بغـير صنعة كهنوتية ولا رموز او طلاسم على انفراد الخالق سبحانه وتوحده ومغايرته للخلق بحكم انه رب كل شيء وخالق كل شيء، ومنطق وبرهان القرآن يراهما المؤمن وكل دلالة فيهما من خلال عطاء القرآن الكريم ومنهجه تغـاير منهج ومنطق كتّـاب اسفار التراث الاسرائيلي في العهـد القديم في معظم مـا ذهبوا اليه ، وترفض هذه البراهين تمامـاً كل أساليبهم عن الله الخالق رب العالمين لأنهم على ضوء ما عرفوه يشابه الخلق ويتماثل معهم وتحل عليه الصور والأشكال والرموز ، تتغاير طبيعته من حال لحال ومن موقف لآخر ورب القرآن الكريم ليس كمثله شيء وهو السميع البصير لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد .

ومن هنا يغاير منهج القرآن تمامـاً منهج كتّـاب التراث الاسرائيلي في العهد القديم في كل مـا ذهبوا اليـه حول قضية الألوهية سواء بالتنزيه أو التجسيم لأنهم لم يفرّقوا بين طبيعة المخلوقات والإيمان بالخالق [1] .

---

(١) افرز العقل الاسلامي دراسات في العقيدة الدينية تتعلق بالايمان بالاله الواحد (توحيدا) لا تشوبه ادنى علائق او صور الارض من خلال عقل منزه لله اقبل على نصوص الذكر الحكيم بطهر ونقاء بخير تشويه للنصوص او بترهـا فجاءت افكار العقل الاسلامي وعقيدة المسلمين في مجال التوحيد تنزه رب العالمين تنزها يليق بذاته بحكم انه خالق كل شيء ومن هذه الدراسات ما كتبه احد اعلام علماء المعتزلة في كتابه عن التوحيد (ديوان الاصول لابي رشيد سعيد بن محمد النيسابوري) الذي حققه الدكتور محمد عبد الهادي ابو ريدة طبعة دار الكتب المصرية عام ١٩٦٩ وعند قوله في صفحة ٧٣ : أوليس عندكم ان الجسم في أول حال خلق الله تعالى يخلو من الحركة والسكون .. الى آخره .

الفصل الرابع

عقيدة الاله في النهج القرآني

باديء ذي بدء نحب أن نقرر في هذا الفصل بالذات ان الاسلام الحنيف لا تقف نظرته في التعرف على الله تعالى من خلال آياته وبراهينه في هذا الوجود في نطاق هذا العالم المحس والممس والمشهود لأن هذا العـالم كما هو مشاهد على ضوء قوانينه محدث ويتحرك في اتجاه التغيير ، ومن هنا فعقيدة المسلم تختلف تمامـاً بل وتتناقض مع نظرة الماديين القدامى والمحدثين من بني اسرائيل على ضوء تناول آيات الذكر الحكيم لما في هذا الكون من براهين ودلالات تخضع لقانون الخلق ، ذلـك أن الاسلام وهو يفتح آفاق ومجـال تكوين العقيدة الصحيحة في الايمـان بالله رب العالمين ينظر إلى الكون فيراه ببصيرة العطـاء القرآني يحتاج إلى تعليل بينما ينظر الماديون من كتاب التراث الاسرائيلي في العهد القديم الى الحواس المشاهدة والدلالات المادية في هذا الكون دون ادراك إلى طبيعة حركته وارتباط أجزائه واقتران أسبابه بمسبباته وانتظام قوانينه وسننه، وكل هذا في المنطق القرآني والنظر الاسلامي يحتاج إلى تغيير أو إلى مصدر يغاير جميع المصادر والعلل .

ومن هنا يسأل المسلم قلبـه في خشوع بغير سيطرة للحواس ولا المظاهر المادية والطبيعية على نفسه عن هذه القوة العظيمة التي تدفع كل جزء في هذا

الكون الواسع والممتد إلى وجهتـه دون خلل او تناقض او تفاوت فتجيئه البراهين من بين نصوص الذكر الحكيم شارحة ومدللة وموجهة فيسكن قلبه باليقين وتستنير نفسه على الحق ، وتصبح عقيدته في غير حاجة إلى مظاهر من الطبيعة او سند من عناصر المـادة كما كان اصحاب التراث الاسرائيلي يخلعون على الههم في كل شعيرة من شعائر العبادة او طقس من طقوس الدين عندهم.

هذا .. ويتجلى امام المسلم في النظر إلى براهين الله كون متكامل في علم النبات وفي عالم الاحياء وفي عالم الفضاء الواسع ، فتتوارد على مخيلته لتسكن بعد ذلك في قلبه براهين تلك القوة العظمى المصححة والهادفة والموجهة والتي على ضوء ارادتها تتحرك القوانين والنظم التي تحرك وتوجه كل هذه القوى ، وهـذا النظر الاسلامي إلى الكون ودلالته بأثر من محيطات القرآن الكريم وقواعده إلى الله ، ومن هنا رأينا القرآن الكريم يدفع إلى التفكير في القضايا الكونية التي تعمق ايمان المؤمنين حين يضعهم المنهج الالهي في القرآن الكريم أمام قضية القضايا ، وأعني بها قضية الخلق كبرهان على الخالق سبحانه وهذه القضية التي هي في منطق المؤمن ايجاد من العدم يستطيع بها ان يميز بين نوعين من الوجود : وجود خاضع منفصل تندرج فيه المادة وحركتها وقوانينها وكل مـا يمكن ان يكون في الكون من انواع الطاقة والقدرة فهي ليست خاضعة لسنة قانون ، والقانون نفسه ليس الا حادثة مصنوعة ، وارتباطاً بين أمرين او أمور متصلة تحتاج إلى مقنن لها وخالق لما يتضمنها من ارتباط او اقتران فيه ذلك التنسق الذي هو بين اجزاء هذا الكون .

وهـذا الاساس العقلي العلمي في النظرة الاسلامية وفي التدبر العقلي لمنهج المؤمنين الذين صح إيمانهم بالله رب العالمين مصدره الاول والوحيد في العقيدة الاسلامية هو القرآن الكريم ، ومن هنا تجيء الآيات القرآنية وتضع الانسان بفطرته النقية التي لم تعوج ولم تنحرف أمام هذه الحقائق المطلقة حتى يدخل إلى كبريات مسائل الايمان ومليء يقينه وفي أعماقـه الايمان الحق والايجابي الذي يدرك بنور الخالق سبحانه قيمة الارتفاع الانساني وترقيه وسموه بهيمنة

عقيدة التوحيد لله رب العالمين في القرآن الكريم وابطال ورفض مـا عداها من عقائد او أفكار . يقول رب العزة في سورة الطور في الايتين رقمي ٣٥ ٣٦ وهو يوقف الخلق جميعاً أمام هذا البرهان القرآني الذي ينعدم نظيره فيما بين أيدينا من نصوص تراث العهد القديم والجديد على السواء : [**أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون أم خلقوا السموات والارض بل لا يوقنون أم عندهم خزائن ربـــك أم هم المسيطرون أم لهم سلم يستمعون فيـه فليأت مستمعهم بسلطان مبين**] [١] .

هذا .. وتتضح ابعاد كونية كبرى يهيمن عليهـا الخالق جل وعلا أمام بصيرة المسلم وادراكه حين يطلع على برهان رب العزة في بعض دلالاته وآياته الكونية التي أشار اليها الذكر الحكيم في سورة البقرة من الآية رقم ١٦٤ حين يقول رب العزة : [**ان في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الارض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح وانسحاب المسخر بين السماء والارض لآيات لقوم يعقلون**] .

هـذا ويوجه القرآن الكريم النظر إلى عملية كبرى تتم فيها كل صور الخلق المتجدد والدائم الذي يؤكد قدرة الباري سبحانه وتعالى ومغايرته تعالى للخلق ومخالفته للحوادث وأنه سبحانه لا شبيـه له ولا نظير وهي عمليـــة (الانبات) انبات الزرع ، فالذي يعرفـه الانسان بكل أساليب المعرفـة القديمة والحديثة هـو الانسان على الارض منذ الزمن السحيق قبل ان يعرف الاشكال الحضارية والفكرية ومنذ البساطة الاولى بـل ومنذ المراحل الاولى من غير معلم وبغير توجيه سوى تلك القدرة التي أودعها فيه الخالق جل وعلا لتستجيب لمـا يوجهه اليه بالفطرة والنعمة يزرع البذر بأن يغرسه في الارض ثم يسقيه بنفسه او ينزل الغيث من السماء فيرويه وفقط ، ولا يملك الانسان

---

(١) سورة الطور الايات ٣٥ — ٣٨ .

في الزمان القديم والحديث بل ولا كل علوم الدنيا مجتمعة ان تعقل اكثر من هذا او ان تؤثر في حركة الانبات على وجه من الوجوه ذلك ان يأتي مـا تم من الغرس اعني ان خاصيـة النمو في النبات او خاصيـة الانبات في التراب فضلاً عن خاصية الحلو والحامض فالامر في هذا كله هـو كما قال العليم الخبير في سورة الواقعة وفي الآيات ٦٣ – ٦٧ كبرهان ودلالات وآيات للناس فتعرف موقعها في هذا الكون كعناصر مخلوقة في كون واسع فيه من أنواع الخلق وأجناسه ما يؤكد وباليقين مغايرة المخلوقات بحكم حدوثها ومخلوقيتها للخالق جـل وعلا ومغايرته سبحانه للمخلوقات بحكم خالقيته سبحانه وتعالى يقول رب العزة وهو يسوق برهانه التدليل عليه وللايمان به بغير لغط المتأولين او جدل المتفلسفين وإنما بمنهج الوضوح والمباشرة في منطق كلام رب العالمين :

[أفرأيتم مـا تحرثون أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون ، لو نشاء لجعلناه حطاماً فظلتم تفكهون] .

هذا .. ويسوق الذكر الحكيم من بين براهين الله وآياته في القرآن الكريم برهاناً آخر يـلاء النفس النقية بكل دلالات ومقومات الايـان الصحيح بالله رب العالمين الخالق لكل شيء الفرد الصمد الذي لم يـلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحـد . في سورة (ق) يقول رب العـالمين في الآيات ٦ – ١١ وكأنه سبحانه بهذه الآيات والبراهين يهز الإنسانية من أعماقهـا أن تخلع عن نفسها أوزار كل شيء من زيف الفكر ومعتقدات التاريخ ومظاهر الطبيعة وأن ترفض كل صور أرباب الأرض وانصافهم ولا يكون أمامها إلا ذلك الخشوع باليقين لجلال ذلك الإله الخالق لكل شيء والذي بيده كل شيء والذي يقول :

[أفلم ينظروا الى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج ، والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج تبصرة وذكرى لكل عبد منيب ، ونزلنـا من السماء ماء مباركاً فأنبتنا بـه جنات وحب الحصيد ، والنخل باسقات لها طلع نضيد ، رزقاً للعباد وأحيينا به بلدة ميتا كذلك الخروج] .

خاتمة البحث

نود أن نشير في إيجاز شديد إلى أن البحث الذي انتهينا منه عن التراث الاسرائيلي في العهد القديم ، قد بدأ من خلال رحـلة مضنية أجهدنا كثيراً السير فيها، نظراً لضخامة حجم التراث الاسرائيلي وتعدد مصادره وكثرة ما ألقي حـوله من فكر يهودي ومسيحي ومـا تعرض له من شروح وتفاسير وتعليقات .

وقد بدأنا بكتب العهد القديم في الباب الأول وذلك للتعريف بها ودراسة أهم قضاياها والتأريخ لمراحل كتابتها وكيفية تدوينها، مع محاولة التعرف على المناخ الديني والسياسي الذي كتبت فيه ، أو الذي تعبر عنه ولم يكن ذلك بالأمر الهيّن فقد كان أمامنا على ضوء النسخة التي بين أيدينا من (الكتاب المقدس) العهـد القديم فقط يتضمن تسعاً وثلاثين سفراً بالاضافة إلى أسفار (الأبوكريفا) الخمسة عشر ، وهي في جملتها تتضمن أخباراً سياسية وأخرى تاريخية ، فضلاً عما تحتويه من عقـائد الدين وطقوس العبـادة المختلفة عندهم وسير بعض الرجال .

وإذا علمنـا أن أسفار العهد القديم ، وبعضها في اللغة العربية أشبه مـا يكون (بالشفرة) أو الرموز الغامضة فضلاً عن سوء العبارة ورداءة التركيب وقلة المصادر الموجهة في انصاف علمي أو نزاهة تاريخية،وقصور معظم المعاجم اللاهوتية عن إلقاء الضوء الموسع على معظم المفارقات الدينية والتاريخية التي

يتضمنها النص ، لاتضح كم كانت طبيعة البحث في هذه الرسالة تحتم نوعاً من الجلد والتحمل حتى يمكن أن نضع ما ننتهي اليه أمام حكم القرآن الكريم .

هذا .. وقد أراد الله تعالى أن ننتهي من القضايا التي عالجناها في هـذه الرسالة إلى إبراز وكشف جملة نقاط فكرية ودينية وتاريخية حاولت نصوص مصادر التراث الاسرائيلي المختلفـة اخفاءها أو تضييع معالمهـا بين سياق النصوص ، وذلك لأن إبرازها وكشفها يقوم شاهداً ضد كل مـا اقترفه بنو اسرائيل في حق الله تعالى وأنبيائه عليهم السلام ، فضلاً عما تقوم به هـذه النقاط الدينية والتاريخية التي انتهينا إلى ابرازها وتقريرها من تقديم برهان من البراهين العديدة التي يمكن أن تساق على صدق وكمال الحكم القرآني على التراث الاسرائيلي عنـد غير المؤمنين بالقرآن الكريم فضلاً عمـا تطمئن بـه قلوب المؤمنين .

ومن أهم هذه النقاط أو القضايا التي انتهى اليها البحث من خلال دراسة نصوص التراث الاسرائيلي في مصادره المتعددة والعهـد القديم في المقدمـة النقاط التالية :

١ – إن أهل الكتاب وأصحاب التراث الاسرائيلي في المقدمة قد ألبسوا الحق بالباطل في قضايا الإيمان بالله تعالى وعمـل النبوة والرسالة الإلهية بين الناس ، وان وحي الله إلى بني اسرائيل المتمثل في الوصايا وكتاب التوراة تعرض للحذف والاضافة واستبدال نصوص تحمل توجيه الوحي الإلهي بغيرها تعبّر عن المصلحة والهوى عند قيادات وكهان بني اسرائيل ، وان عمـل النبوة والرسالة الإلهية على يد أنبياء بني اسرائيل كان يتلاشى ويضيع جهد كل نبي مع كل جيل ، فضلاً عن عدم الحفاظ على ميراث الأنبياء الديني مدوّناً أو متداولاً في الذاكرة بشكل يتفق وكمال النبوة الإلهية وما في معظم التراث الاسرائيلي ممـا هو مدوّن في كتب العهـد القديم لا يستقيم ووظيفة النبي بين الناس .

٢ ــ اختفاء النسخ المدوّنة عند بني اسرائيل بعد موت النبي موسى عليه السلام بفترة قصيرة على أنهـا من كتب التوراة معظم مراحل التاريخ اليهودي قبل الميلاد ، وظهورها في حالات كثيرة ومتعددة ممـا يؤكد سيادة الأحوال والأوضاع السياسية التي كان يمر بها الشعب الاسرائيلي على روح نصوص معظم هـذه النسخ وافتقادها روح الوحي الإلهي ممـا يؤكد أيضاً اختفاء وضياع معظم ما أنزل الله تعالى على أنبيائه من بني اسرائيل ، والتوراة التي أنزلت على نبي الله موسى في المقدمة من هذه النصوص التي التبس فيها الحق بالباطل وحرف الكلم عن مواضعه وهذا هو ما انتهينا اليه في قصة الذبيح ولد ابراهيم وقصة اكتشاف حلقيا الكاهن لمـا سمي بالتوراة من نصوص عثر عليهـا أو صنفها في القرن الخامس قبل الميلاد .

٣ ــ افتقاد عقيدة التوحيد بالله رب العالمين بين كتب العهد القديم بحيث لا يستقيم نص في كتاب واحد من كتب التراث الاسرائيلي يمكن أن يقوم برهاناً على أنه يحمل بقية من دين ، وما جاء من عبارات بين سياق نصوص أسفار التراث الاسرائيلي ذكر فيها اسم الجلالة بالتنزيه الذي يليق بكماله ، سرعان ما نرى بين سياقها أو مما اتصل بها من نصوص عبارات ومواصفات لا تليق بالذات العلية في منطق عقيدة التوحيد لله رب العالمين .

٤ ــ عمـل النبي او الرسول في بيت اسرائيل بـين الناس ، لم نرَ أثره الاخلاقي والتوجيهي فضلاً عن شعائر العبادة المنزهة واضحاً بين سياق أخبار التراث الاسرائيلي ، بل ان الدعوة إلى الله أو الاستجابة لهذه الدعوة من عناصر غير مؤمنة أو لم تكن تعرف ربها لم نعثر له على أثر على الاطلاق بين سياق وأخبار تراث اسرائيل في العهد القديم ، بل رأينا (لابان) صهر النبي اسحق في خبر العهد القديم ، ووالد زوجات النبي يعقوب ابن النبي اسحق ، يظل على عبادة الاصنام ، حتى مع معاشرة النبي يعقوب له طوال ما يقرب من عشرين عاماً هي مهر ابنتيه رحيل وليئة وهذا بالقطع مما يؤكد تعطيل

عمل النبوة بين الناس على ضوء ما أخبر وقص كتاب التراث الاسرائيلي وهذا هو ما انتهينا اليه ونحن نبحث عن عمل النبوة والرسالة في بيت اسرائيل بين الناس .

٥ – ظهور الخطيئة وبروز نوع من المعصية بدا شائعاً ومتكرراً في سيرة كثير من رجال التراث الاسرائيلي في العهد القديم وأعني به جريمة الزنا بحيث نرى هذه الجريمة وقد كاد كتاب التراث ان يلصقوها بكل أنبياء التراث الاسرائيلي بصورة وأساليب ، تؤكد ان عصر تدوين هذه المرثيات كان بعيداً تماماً عن الظرف الذي عاشه هؤلاء الأنبياء ، فضلا عن عدم إلمام كتّاب التراث الاسرائيلي بما ينبغي ان تكون عليه أخلاق وسلوك وقيم من يشرفه الله تعالى بالنبوة وكالها ، فقد أوقع كتّاب التراث الاسرائيلي في هذه الجريمة عدداً من صفوة رجال ونساء اسرائيل لا بأس به كان بينهم فيما ادعى كتّاب التراث الاسرائيلي : لوطاً ويهوذا وداود ودينة ابنة يعقوب وأمنون وثامار ولدي داود ، فضلاً عن تزويج كتّاب التراث الاسرائيلي للنبي سليمان بألف امرأة ، وعبادته آلهتهن وتركه فيما ادعى عليه كتّاب التراث عبادة الله الواحد الذي أرسله نبياً للناس ، وقد نقدنا هذه المفتريات ورفضناها ودحضناها بمنهجين ، دراسة نقدية لتهافت النصوص ثم على ضوء معايير وحكم القرآن الكريم .

٦ – ترجمتنا لسيرة عدد كبير من أنبياء بني اسرائيل بمنهجين، الأول من خلال رؤية العهد القديم وأخباره ومدوناته ، ورأينا كيف خلع كتّاب التراث الاسرائيلي على أنبياء الله ورسله ما لا يليق بهم كرجال فضلاً عما يتنافى وعصمة النبوة وعمل الرسالة الإلهية التي تعصمهم عن الوقوع في جملة المآثم والموبقات التي خلعها كتّاب العهد القديم عليهم . والثاني من خلال عطاء القرآن الكريم وبيانه المشرق ولغته النقية الطاهرة التي مسحت عن سيرة أنبياء الله ورسله ما لحق بها من أذى وافتراء ، وهؤلاء الكرام على الله

تعـالى هم : ابراهيم ، اسحق ، يعقوب ، لوط ، موسى ، داود ، سليمان ، يوسف ، أيوب وأيضاً (أبناء يعقوب) .

وأيضاً من خلال هذين المنهجين أوضحنا الفارق الجوهري بين عصمة النص القرآني وطهارته وسمو تداوله وهو يعرض لسيرة بعض أنبيـــاء الله ورسله ومـا يتفق وكمال رسالتهم وسلامة قلوبهم ونقـاء سيرتهم فضلاً عن عصمتهم عن الكبائر .

٧ — عرفنـا بالكيفية التي انتهى بهـا الينا الذكر الحكيم ، ورددنا على خصوم الوحي الإلهي في القرآن الكريم وأعداء الاسلام ممن قالوا وهم يدافعون عن تحريف ما يسمى بالكتاب المقدس ان القرآن الكريم تعرض لما تعرضت له الكتب السابقة ، واقتضى منا هذا الباب أن نتوسع بعض الشيء بين علوم القرآن وما يتصل بها لكي نقدم لغير المشتغلين بالقرآن وعلومه صورة محددة المعالم عن عصمة النص القرآني وحفظ الله له منذ تركه رسول الله ﷺ على الهيئة التي هو بها عليها الآن .

٨ — نقدنا بالرفض منهج العهد القديم في تنـاوله (قضية الإله) بعد ان صاغهـا وعبّر عنهـا كتّـاب العهد القديم بفكر لا يستقيم ولا يتفق وعقيدة التوحيد لله رب العالمين وذلـك من خلال باب خصصناه بذاتـه حول ابراز (منهج القرآن الكريم في قضية الألوهية) ولم نستغرق في الجدل الفلسفي أو الكلامي في الرد على فكر ومنهج كتّاب التراث الاسرائيلي ، وإنمـا كانت آيات الذكر الحكيم هي كل برهاننا ودلالاتنا في نقد مـا ذهب اليه كتّاب العهد القديم وقد أبرزنا الفارق الجوهري بين أساس العقيدة في الايمـان بالله تعالى الخالق الرازق رب العالمين كما يخبر بذلـك القرآن الكريم وبينّها في العهد القديم ، وأثبتنا من خلال آيات القرآن الكريم وبراهينه ان الإيمان بالغيب في القرآن الكريم علم يعلو على مدارك العلوم ، بينما الايمان بالإله في العهد القديم يقوم على الحواس والمماثلة والمشابهة ، وهذا ما لا يتفق وصحة

وسلامة عقيدة الايمان بالله رب العالمين ، وانتهينا إلى ان الايمان بالله تعالى وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر قوام عقيدة الاسلام لا يصح ولا يقوم في قلب المؤمن إلا من خلال الايمان الكامل والمستقر في القلب بما أنزل الله على محمد ﷺ ، وبأن هذا القرآن الكريم كلام الله تعالى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه يتضمن ويحتوي ويهيمن على ما سبقه من كتب الله ووحيه الى جميع أنبيائه ورسله ، ومن هنا فلا يصح الايمان بشيء ولم يعد من الايمان الاعتقاد فيما يمكن أن يكون صحيحاً أو ما هو غير صحيح بالفعل من كتب أهل الكتاب، منذ أنزل الله تعالى القرآن الكريم على قلب الرسول الخاتم محمد ﷺ، لأن الايمان بالله من خلاله والعمل بما جاء فيه يتضمن الايمان بما سبقه ، ولا يصح الايمان بالله تعالى من خلال العمل بغير ما جاء به القرآن الكريم أو الاقتصار بغيره عليه بعد أن ثبت بكل ضروب الحاجة انه وحده كلام رب العالمين، وما عداه من كتب أو نصوص اختلط فيها الحق بالباطل أو هو جهد البشر المخلوق الذي لا يمكن أن يكون عقله أو فكره أو سجلات حياته وثمرات واقعه برهاناً على الخالق رب العالمين او بديلاً عن عصمة وطهر وسمو مقومات الايمان بالله تعالى على ضوء ما هي عليه في القرآن الكريم.

أهم مصادر الرسالة

ملحوظة :

بعد كتاب الله (القرآن الكريم) استفدت في معظم بحوث وقضايا هذه الرسالة من مصــادر تتصل بالموضوع مباشرة ، وتعاون على تحديد قضاياه بالايجاب او بالسلب مؤيدين لما فيها او رافضين لها ، وأخرى تتصل به اتصالاً غير مباشر ،ونظراً لتداخل المعلومات وتكرارها في بعض المصادر فقد آثرت ان لا أوثق كل صفحة فيما ذهبت اليـــه لأشير إلى من أيدني او خالفته من المصادر ، مكتفياً بالمصادر الرئيسية ، فضلاً عما استهدفته من تنازل موضوع الرسالة بالمنهج النقدي للنصوص ، معتمداً بالاصل في ما شكله القرآن الكريم من أساس ديني وفكري عندنا عالجنا به أهم القضايا التي طرحها البحث .

وهذه أهم المصادر التي تتصل اتصالاً مباشراً بالرسالة واعتمدنا عليها :

١ — (القرآن الكريم) .

٢ — الكتاب المقدس ، اي كتب العهد القديم طبعة جمعيات الكتاب المقدس في الشرق الادنى ، بيروت ساحة النجمة ١٩٦٦ .

٣ — الاسفار القانونية التي حذفها البروتستانت ، الاسكندرية ١٩٥٦ .

٤ — (القس وليم مارش) : (السنن القويم في تفسير اسفــار العهد القديم) ١٢ جزءاً صــادر عن مجمــع الكنائس في الشرق الادنى بيروت عام ١٩٧٣ .

٥ – (الدكتور حسن ظاظا) : (الفكر الديني الاسرائيلي ، أطواره ومذاهبه) طبعة معهد البحوث والدراسات العربية العالي ، جامعة الدول العربية ، الطبعة الأولى عام ١٩٧١ .

٦ – (م . ص . سيجال) ترجمة الدكتور حسن ظاظا : (حول تاريخ الانبياء عند بني اسرائيل) نشر جامعة بيروت العربية عام ١٩٦٧ .

٧ – (محمد عزة دروزه) : (تاريخ بني اسرائيل من أسفارهم) ، المكتبة العصرية ، صيدا ، بيروت عام ١٩٦٩ .

٨ – (متى بهنام) : (مفاتيح كنوز الأسفار الإلهية) الجزء الأول ، الطبعة الثانية عام ١٩٦٧ ، مكتبة الأخوة بجزيرة بدران .

٩ – (زكريا الحجاوي) : (موسوعة التراث الشعبي ، حكاية اليهود) الجزء الأول ، القاهرة ، بدون تاريخ .

١٠ – (متى هنري) : تفسير سفر استير (تعريب القس مرقص داود مكتبة المحبة ، القاهرة ، بدون تاريخ .

١١ – (فخري عطيه) : (دراسات في سفر المزامير) الجزء الأول ، مطبعة الفجالة ، بدون تاريخ .

١٢ – (حبيب سعيد) : (المدخل إلى الكتاب المقدس) ، دار التأليف والنشر للكنيسة الأسقفية بالقاهرة ، بالاشتراك مع مجمع الكنائس بالشرق الأدنى ، بدون تاريخ .

١٣ – (هنري بريستد) ترجمة سليم حسن : (فجر الضمير) سلسلة الألف كتاب ، القاهرة عام ١٩٦١ .

١٤ – (هنري بريستد) ترجمة زكي سوس : (تطور الفكر والدين في مصر القديمة) صادر عن دار الكرنك بالقاهرة عام ١٩٦١ .

١٥ – (واتشمان تي) ترجمة فؤاد حبيب : (تأملات في سفر نشيد الانشاد) طبعة لجنة خلاص النفوس للنشر عام ١٩٧٦ .

١٦ – (القس الفريد نيلسون الدانمركي) تنقيح حبيب سعيد : (تفسير سفر أرميـا) صادر عن دار النشر والتآليف للكنيسة الأسقفية بمصر ، بدون تاريخ .

١٧ – (كلايد ت . فرنسيسكو) ترجمة أديب عرفوذي : (دروس من سفر أرميا) ، منشورات المعمدانية عام ١٩٦٣ .

١٨ – (فخري عطيه) : (قطوف في سفر يونان النبي) من كتابه راعوث استير يونان ، سلسلة كتب ، تأمـل ممي القاهرة ، بدون تاريخ .

١٩ – (يسى منصور) : (عصمة الكتاب المقدس) مطبعة الاسكندرية بمحرم بك ، الطبعة الثالثة عام ١٩٦٨ .

٢٠ – (مرقص وينسفورد) تعريب دكتور ماهر فهمي : (المسيح يصلي لأجل خاصته) نشر لجنة خلاص النفوس للنشر عام ١٩٦٧ .

٢١ – (عوض سمعان) : (فلسفة الغفران في المسيحية) ، المطبعة التجارية الحديثة ، رقم الايـداع بـدار الكتب المصرية ٤٥٠٨ عام ١٩٧٢ .

٢٢ – (عوض سمعان) : (العشاء الرباني) دار الثقافة المسيحية القاهرة ، بدون تاريخ .

٢٣ – (عوض سمعان) : (صلب المسيح وموقف الغنوسطيين ازاءه) صادر عن دار التآليف والنشر للكنيسة الأسقفية عام ١٩٧١ ، القاهرة .

٢٤ – (فايز فارس) : (مجيء المسيح ثانيـة) صادر عن دار الثقافة المسيحية القاهرة عام ١٩٦٩ .

٢٥ — (القس بنيامين شنيدر) : (ريحانة النفوس في أصول المعتقدات والطقوس) ترجمة لجنة بدون تاريخ .

٢٦ — (يوحنا موسهيم) تاريخ الكنيسة المسيحية القديمة والحديثة بدون تاريخ .

٢٧ — (فخري عطيه) ، عن الانجليزية ، (الملك سليمان والهيكل الذي بناه) مكتبة الاخوة ، جزيرة بدران ، بدون تاريخ .

٢٨ — (القس الدكتور وديع ميخائيل) : (يسوع المسيح انسان او إله ؟) الاسكندرية ، بدون تاريخ .

٢٩ — (ق . ب . ماير) تعريب القس مرقس داود : (حياة يوسف) ، الطبعة الثانية — ١٩٧٨ .

٣٠ — (ق . ب . ماير) ترجمة القس مرقس داود : (حياة داود) — القاهرة — ١٩٥٨ .

٣١ — (ق . ب . ماير) ترجمة القس مرقس داود : (حياة ابراهيم) ، القاهرة — ١٩٦٠ .

٣٢ — (ق . ب . ماير) ترجمة القس مرقس داود : (حياة يعقوب) ، القاهرة — ١٩٦٢ .

٣٣ — (ق . ب . ماير) ترجمة القس مرقس داود : (حياة ايليا) ، القاهرة — ١٩٦٧ .

٣٤ — (ق . ب . ماير) ترجمة القس مرقس داود : (حياة صموئيل) ، القاهرة — ١٩٦٧ .

٣٥ — (الاب فرنسيس فندلا اليسوعي) : حياة مريم أم يسوع) ، المطبعة الكاثوليكية ، كلية القديس يوسف في بيروت عام ١٩٤٩ .

٣٦ — (منيس عبد النور) : (ابراهيم السائح الروحي) دار الثقافة المسيحية ، القاهرة ، بدون تاريخ .

٣٧ — (متى هنري) تعريب القس مرقس داود : (تفسير رسالتي بولس الرسول الاولى والثانية) ، مكتبة المحبة القبطية الارثوذكسية ، الطبعة الاولى القاهرة عام ١٩٧٥ .

٣٨ — (القس منير عبد النور) : (القاب المسيح) دار الثقافة المسيحية بالتعاون مع مجمع الكنائس للشرق الادنى الطبعة الاولى بدون تاريخ .

٣٩ — (القس فهيم عزيز) : (ملكوت الله) عن دار الثقافة المسيحية بالتعاون مع مجمع الكنائس بالشرق الأدنى ، الطبعة الأولى عام ١٩٧٠ .

٤٠ — (القس باخوم عطاالله المحرقي) :(في سر القربان المقدس)منشورات الكلية الاكليريكية بالقاهرة للكرازة المرقسية عام ١٩٦٩ .

٤١ — (القس برسوم شحاته) : (لاهوت عمانوئيل) القاهرة عام ١٩٧٣ .

٤٢ — (القس لبيب ميخائيل) : (عشاء الرب) مطبوعات الصوت المعمداني الطبعة الأولى عام ١٩٦٦ .

٤٣ — (عوض سمعان) : (الغفران في المسيحية) دار التأليف والنشر للكنيسة الاسقفية القاهرة عام ١٩٧٠ .

٤٤ — (عوض سمعان) : (قيامة المسيح والأدلة على صدقها) دار التأليف والنشر للكنيسة الاسقفية بالقاهرة عام ١٩٧٢ .

٤٥ — (القس عبدالله صايغ) :(مشتهى كل الأمم — دروس في مجيء المسيح) الطبعة الثانية عام ١٩٦٨ بيروت .

٤٦ — (القس مرقس داود) : (القراءات اليومية في الكتب السماوية) مكتبة المحبة القبطية الارثوذكسية ، القاهرة ، بدون تاريخ .

٤٧ — (الدكتور ق . ب . ماير) تعريب القس مرقس داود : (المسيح في اشعياء) مكتبة المحبة القبطية الارثوذكسية بالقاهرة ، بدون تاريخ .

٤٨ — (عوض سمعان) : (الخلاص بين الوحي والمفاهيم البشرية) ، مكتبة كنيسة الاخوة ، جزيرة بدران ، القاهرة بدون تاريخ .

٤٩ — (القس سرجيوس) : (إن لم يكن المسيح إلهاً فديانته تكون باطلة) ، الجزء الاول ، القاهرة بدون تاريخ .

٥٠ — (يسي منصور) : (رسالة التثليث والتوحيد) بدون تاريخ .

٥١ — (القس يوحنا سلامه) : (اللآلىء النفيسة في شرح طقوس ومعتقدات الكنيسة) الجزء الثاني ، الطبعة الثالثة عام ١٩٦٥ ، القاهرة .

٥٢ — (هـ . أ . ايرنسيد) ترجمه وتقديم فخري عطية : (دراسات في سفر الامثال) مكتبة الاخوة بجزيرة بدران بدون تاريخ .

٥٣ — (الدكتور ماكرتني) ، تعريب واصف عبد الملك : (أعظم الرجال في الكتاب المقدس)لجنة خلاص النفوس للنشر عام١٩٧٢.

٥٤ — (فخري عطيه) : (اعداد عن مجموعة من العلماء الاجانب) ، مكتبة الاخوة بجزيرة بدران صادر عن دار الطباعة القومية .

٥٥ — (القس ايرل هولي) تعريب بطرس سلطان ، مطبعة دار العالم العربي .

٥٦ — (القس ايرل هولي) تعريب بطرس سلطان : (صموئيل الثاني) مطبعة دار العالم العربي ، بدون تاريخ .

٥٧ — (حبيب سعيد) : (الانبياء الاقدمون يتكلمون) دار الشرق والغرب للتأليف والنشر ، القاهرة بدون تاريخ .

٥٨ — (عوض سمعان) : (فلسفة الغفران في المسيحية) المطبعة التجارية الحديثة ، بدون تاريخ .

٥٩ — (القس منقريوس عوض الله) : (منارة الاقداس في شرح طقوس الكنيسة القبطية والقداس) رقم الايداع بدار الكتب ٢٤٥٩ عام ١٩٧٣ .

٦٠ — (فخري عطيه) : (عنوان المزامير) مطبعة المحيط بالفجالة القاهرة عام ١٩٤٧ .

٦١ — (متى هنري) ترجمة القس مرقس داود : (تفسير عاموس) مكتبة المحبة القبطية الارثوذكسية بالقاهرة ، بدون تاريخ .

٦٢ — (كلايد ، ت . فرنسيسكو) تعريب أديب غرزوزي : (دروس من سفر ارميا) المعمدانية الطبعة الاولى عام ١٩٦٣ .

٦٣ — (ولسلي جورجي) : (خلاص المسيح كما هو معلن في الكتاب المقدس) مكتبة الاخوة عام ١٩٧٠ .

٦٤ — (ت . هـ . سبرجون) تعريب دكتور ماهر فهمي : (الواقفون على الباب) الطبعة الثانية ، لجنة خلاص النفوس للنشر عام ١٩٧١ .

٦٥ — (ت . أ . ويشوك) تعريب صبحي واسف عبد الملك : (مجد الله) صادر عن لجنة خلاص النفوس للنشر عام ١٩٧٢ .

٦٦ — (القس فايز فارس) : (حقائق اساسية في الايمان المسيحي) دار الثقافة المسيحية بدون تاريخ .

٦٧ – (برسوم ميخائيل) : (مجموعة حقائق كتابية) الجزء الثاني طبعة ١٩٦٤ ، القاهرة .

٦٨ – (حبيب سعيد) : (الاثنا عشر) صدر عن دار التاليف ، والنشر للكنيسة الاسقفية بمصر ، الطبعة الثانية ، بدون تاريخ .

٦٩ – (قاموس الكتاب المقدس) طبعة مجمع الكنائس الادنى الطبعة الثانية ، بيروت .

٧٠ – (فؤاد حسنين علي) : (التوراة الهيروغليفية) دار الكاتب العربي للطباعة والنشر ، القاهرة بدون تاريخ .

٧١ – (الدكتور محمد بيومي مهران):(دراسات في تاريخ الشرق الادنى القديم) ، جزء ٢ مطبعة الامانة بالقاهرة عام ١٩٧٣ .

٧٢ – (دكتور نجيب ميخائيل) : (مصر والشرق الادنى) الجزء الثالث ، الاسكندرية عام ١٩٦٦ .

٧٣ – (دكتور مراد كامل) : (الكتب التاريخية في العهد القديم) صادر عن معهد الدراسات العربية العالي، جامعة الدول العربية .

٧٤ – (دكتور مصطفى كمال عبد العليم):(اليهود في مصر في عصري البطالمة والرومان) مكتبة القاهرة الحديثة ، الطبعة الاولى عام ١٩٦٨ .

٧٥ – (سبينوزا) ترجمة وتقديم الدكتور حسن حنفي : (رسالة في اللاهوت والسياسة) القاهرة عام ١٩٧١ .

٧٦ – (جيمس فريزر) ترجمة الدكتورة نبيلة ابراهيم – ومراجعة الدكتور حسن ظاظا : الفولكلور في العهد القديم) الجزء الاول القاهرة عام ١٩٧٢ .

٧٧ — (السموأل بن يحيى بن عباس المغربي) : (بذل المجهود في افحام اليهود) مكتبة الجهاد الكبرى ، القاهرة .

٧٨ — (اسرائيل بن شموئيل الاورشليمي): (الرسالة السبعينية بابطال الديانة اليهودية) مكتبة الجهاد الكبرى ، القاهرة .

٧٩ — (ابو الحسن السامري) تعليق المسيو دلمار : (التاريخ مما تقدم عن الآباء) نسخة عربيـة مطبوعة بالمانيـا بـدار الكتب تحت رقم ٤٢٠ .

٨٠ — (الدكتور ج . هـ . هرتس) حاخام : (في الفكر اليهودي) نقله إلى العربية الدكتور الفريد بلوز عن دار: مجلتي للطبع والنشر .

٨١ — (الدكتور ج . هـ . هرتس): (التوراة والانبياء) بدون تاريخ .

٨٢ — (الدكتور فؤاد حسنين علي) : (من الأدب العبري) معهد الدراسات العربية العالي عام ١٩٦٣ .

٨٣ — (جميل حناطر انجان) : (الكتاب المقدس في اللغة العربية) مطبعة النيل المسيحية بالمناخ عام ١٩٣٦ .

٨٤ — (صابر طعيمه) : (التاريخ اليهودي العام) الجزء الاول دار الجيل بيروت عام ١٩٧٥ .

٨٥ — (الدكتور جمال حمدان): (اليهود انثروبولوجيا) سلسلة اقرأ، الطبعة الاولى ، القاهرة .

٨٦ — (الدكتور صبري جرجس) : (التراث اليهودي الصهيوني والفكر الفرويدي) عالم الكتب ، القاهرة عام ١٩٧٠ .

٨٧ — (الدكتور اسعد رزوق) : (التلمود والصهيونية) مركز الابحاث التابع لمنظمة التحرير الفلسطينية عام ١٩٧٠ .

٨٨ – (الدكتور فؤاد حسنين علي): (اليهودية واليهودية المسيحية)، معهد البحوث والدراسات العربية عام ١٩٦٨ .

٨٩ – (ول ديورانت) : (قصة الحضارة) الجزء الثالث من المجلد الثاني الطبعة الثانية ، لجنة الترجمة والتأليف والنشر ترجمة محمد بدران .

٩٠ – (ارنولد توينبي) : (مختصر دراسة للتاريخ) ترجمة فؤاد محمد شبل ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة الطبعة الاولى عام ١٩٦٤ .

٩١ – (هنري برستيد) : (تاريخ مصر من اقدم العصور الى الفتح الفارسي) تعريب حسن كمال ، القاهرة بدون تاريخ .

٩٢ – (دولف ارمان) : (ديانة مصر القديمة) ترجمة الدكتور عبد المنعم ابو بكر ، القاهرة عام ١٩٥٢ .

٩٣ – (ارمان رانكه) : (مصر والحياة المصرية في الحياة القديمة) ترجمة الدكتور عبد المنعم ابو بكر ، القاهرة عام ١٩٦٠ .

٩٤ – (تيودور روبنسون) : (تاريخ العالم ، اسرائيل في ضوء التاريخ) ترجمة عبد الحميد يونس ، القاهرة بدون تاريخ .

٩٥ – (سبتينيو موسكاتي) : (الحضارات السامية القديمة) ترجمة وتعليق الدكتور السيد يعقوب بكر .

٩٦ – (دكتور روهلينج) : (الكنز المرصود في قواعد التلمود) ترجمة دكتور يوسف حنا نصرالله ، الطبعة الثانية بيروت عام ١٩٦٨ .

٩٧ – (جوزيف لويس) : (الختان ضلالة اسرائيلية مؤذية) ترجمة عصام الدين حفني ناصف ، دار مطابع الشعب ، القاهرة بدون تاريخ .

٩٨ — (حبيب تادروس) : (الذبائح البشرية التلمودية) بدون تاريخ .

٩٩ — (عصام الدين حفني) : (محنة التوراة على أيدي اليهود) الطبعة الاولى عام ١٩٦٥ .

١٠٠ — (الدكتور مراد كامـل) : (اسرائيل في التوراة والانجيل) ، القاهرة عام ١٩٦٧ .

١٠١ — (حسين ذو الفقار صبري) : (توراة اليهود) مقـال في مجلة المجلة ، العدد ١٥٧ ، القاهرة عام ١٩٧٠ .

١٠٢ — (حسين ذو الفقار صبري): (إله موسى في توراة اليهود) مجلة المجلة ، العدد ١٦٣ ، القاهرة عام ١٩٧٠ .

١٠٣ — (محمد العزب موسى):(موسى في سيناء) مقال بمجلة الهلال، العدد رقم ٦ ، القاهرة عام ١٩٧١ .

١٠٤ — (محمود نعناعه) : (المشكلة اليهودية وهل تحلهـا اسرائيل من ظهور ابراهيم حتى سقوط يهـوذا) صادر عـن الانجـلو المصرية عام ١٩٧٢ .

١٠٥ — (ابكار السقاف) : (اسرائيل وعقيدة الارض الموعودة) عـالم الكتب ، الطبعة الاولى عام ١٩٦٧ .

١٠٦ — (دكتور عبد الوهاب المسيري) : (اليهودية والصهيونية واسرائيل) صادر عن المؤسسة العربية للدراسات والنشر ببيروت الطبعة الاولى عام ١٩٧٥ .

١٠٧ — (ابراهيم خليل احمـد) : (اسرائيل فتنـة الاجيال ، العصور القديمة) مكتبة الوعي العربي عام ١٩٧٠ .

١٠٨ — (عجاج نويهض) : (بروتوكولات حكماء صهيون) الجزء الرابـع رأس المتن ، لبنان ، بدون تاريخ ١٩٦٧ .

١٠٩ – (عماد عبد الحميد النجار) : (التطور التاريخي لبني اسرائيل) دار الفكر الحديث ، الطبعة الاولى عام ١٩٧٢ .

١١٠ – (الدكتور غوستاف لوبون) : (اليهود في تاريخ الحضارات الاولى) ترجمة عادل زعيتر ، القاهرة عام ١٩٧٠ .

١١١ – (دكتور احمد شلبي) : (مقارنة الاديان ، اليهودية) الطبعة الثانية ١٩٦٧ .

١١٢ – (عبدالله محمد الرمادي) : (القضية الفلسطينية في الواقع العربي) عام ١٩٧٠ .

١١٣ – (بولس حنا سعد) : (همجية التعاليم الصهيونية) الطبعة الاولى بيروت ، ١٩٦٩ .

١١٤ – (محمد علي علويه) : (فلسطين والضمير الانساني) دار الهلال ، القاهرة عام ١٩٦٤ .

١١٥ – (موريس بوكاي) : (دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة) ترجمة دار المعارف بالقاهرة عام ١٩٧٨ .

١١٦ – (دكتور محمد سيد طنطاوي) : (بنو اسرائيل في القرآن والسنة) الجزء الاول صادر عام ١٩٦٨ .

١١٧ – (دكتور محمد محمود حجازي) : (الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم) ، دار الكتب الحديثة الطبعة الاولى ١٩٧٠ .

١١٨ – (عبد الكريم الخطيب) : (التفسير القرآني للقرآن) عشرون جزء ، دار الفكر العربي ، الطبعة الاولى القاهرة .

١١٩ – (دكتور محمد بن فتح الله بدران) : (الفلسفة الحديثة في الميزان وتأسيس القواعد من القرآن) الطبعة الثانية ،القاهرة عام ١٩٧٠.

١٢٠ — (الدكتور مصطفى الصاوي الجويني) : (مناهج التفسير)صادر عن منشأة المعارف ، الاسكندرية .

١٢١ — (صابر طعيمه) : (بنـو اسرائيل في ميزان القرآن الكريم) دار الجيل ، بيروت عام ١٩٧٥ .

١٢٢ — (محمد عزه دروزه) : (تاريخ العرب قبل العروبة الصريحة في جزيرة العرب) ، المكتبة العصرية ، صيدا بيروت بدون تاريخ.

١٢٣ — (أنوار التنزيل وأسرار التأويل) : ناصر الدين ابي سعيد عبدالله ابن عمرو بن احمد الشيرازي البيضاوي،طبعة دار الجيل،بيروت.

١٢٤ — (تفسير القرآن العظيم) : الامام الجليل الحافظ عمـاد الدين ابي الفداء اسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي طبعة دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيـع ، بيروت ، الطبعة الثانية عام ١٩٧٠ .

١٢٥ — (اصلاح الوجوه والنظائر) : للفقيه الحسين بن محمـد الدامغاني تحقيق وترتيب وتكميل عبد العزيز سيد الاهل ، الطبعـة الاولى عام ١٩٧٠ ، دار العلم للملايين ، بيروت .

١٢٦ — (كتاب مشكل اعراب القرآن) : مكي بن ابي طالب القيسي تحقيق يس محمد السواس ، الجزء الاول ، مطبوعات مجمع اللغـة العربية بدمشق عام ١٩٧٤ .

١٢٧ — (الايضاح لناسخ القرآن ومنسوخه ومعرفة اصوله واختلاف الناس فيه) تأليف ابي احمد مكي بن ابي طالب القيسي ، تحقيق الدكتور احمد حسن فرحات ، الطبعة الاولى عام ١٩٧٦ ، كلية الشريعة بالرياض جامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية .

١٢٨ — (متشابه القرآن) : عبد الجبار بن احمد الهمزاني ، تحقيق الدكتور عدنان زرزور ، القسم الاول ، دار التراث بالقاهرة .

١٢٩ – (معاني القرآن) : الجزء الثاني تأليف ابي زكريا يحيى بن زياد الفراء تحقيق ومراجعة محمد علي النجار ، الدار المصرية للتأليف والترجمة عام ١٩٦٦ .

١٣٠ – (الجامع لاحكام القرآن) : لأبي عبدالله بمحمد بن احمد الانصاري القرطبي ، الجزء الثالث ، الطبعة الثالثة المصورة عن طبعة دار الكتب المصرية ١٩٦٧ ، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر .

١٣١ – (فرقان القرآن بين صفات الخالق وصفات الاكوان) تأليف سلامه القضاعي العزامي الشافعي ، دار احياء التراث العربي بيروت ، لبنان بدون تاريخ .

١٣٢ – (كتاب الاسماء والصفات) : للحافظ ابي بكر احمد بن الحسين ابن علي البيهمي ، دار احياء التراث ، بيروت بدون تاريخ .

١٣٣ – (الحجـة في القراءات السبع) الامـام ابن الخالويه ، تحقيق الدكتور عبد العال سالم مكرم ، صادر عن دار الشروق بيروت عام ١٩٧١ .

١٣٤ – (نكت الانتصـار لنقل القرآن) : للامـام ابي بكر الباقلاني تحقيق الدكتور محمـد زغلول سلام ، صـادر عن منشأة المعارف الاسكندرية .

١٣٥ – (السيرة النبوية لابن هشام) : تحقيق وضبط مصطفى السقـا ، ابراهيم الابياري ، عبد الحفيظ شبلي ، الطبعة الثانية عام ١٩٥٥ .

١٣٦ – (مع القرآن) : الكتاب الذي اصدره المقاولون العرب والذي جاء بعنوان : مع القرآن حول اسمائه وصفاته للشيخ عبد الجليل عيسى ، طبعة عام ١٩٧٧ .

١٣٧ – (عبدالله خورشيد البري) : (القرآن وعلومـه في مصر) عام ٢٠ ، ٣٥٨ هـ ، دار المعارف ، القاهرة عام ١٩٦٩ .

١٣٨ـ (السيد محمود شكري الالوسي) : (مـا دل عليه القرآن ممـا يعضد الهيئـــة الجديدة القويـة البرهان) ، المكتب الاسلامي للطباعة والنشر ، الطبعة الاولى عام ١٩٦٠ .

١٣٩ـ (محمـد ابو زهرة) : (المعجزة الكبرى ، القرآن) دار الفكر العربي ، القاهرة الطبعة الاولى عام ١٩٧٠ .

١٤٠ـ (الحاج فخري الشيخ سلمان الظالمي النجفي) : (القرآن فضائله وآثاره في النشأتين) الطبعة الاولى عام ١٩٦٧ .

١٤١ـ (مناع القطان) : (مباحث في علوم القرآن) بيروت الطبعة الرابعة عام ١٩٧٦ .

١٤٢ـ (الشيخ كامل عبد الحميد خطاب) : (دراسات في علوم القرآن ومنهج المفسرين) مطبوعات كلية العلوم الاجتماعية جامعة الإمام محمد بن سعود الاسلامية ، الرياض عام ١٩٧٧ .

١٤٣ـ (الدكتور بكري شيخ أمين) : (التعبير الفني في القرآن الكريم) دار الشروق ، بيروت ، الطبعة الاولى عام ١٩٧٣ .

١٤٤ـ (معترك الاقران في اعجاز القرآن) للحافظ جـلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي ، تحقيق علي البجاوي ، القسم الاول ، دار الفكر العربي للطباعة عام ١٩٦٩ .

محتويات الرسالة

الموضوع	الصفحة

الفصل الثاني

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الفصل الخامس

الفصل السادس

الفصل السابع

الفصل الثامن

الباب الثاني

المنهج القرآني في الحديث عن بني اسرائيل

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الباب الرابع

منهج القرآن الكريم في قضية الألوهية

الفصل الأول

الفصل الثاني

الفصل الثالث

الفصل الرابع